





# أحياء العلماء الذين

تصنيف :

الإمام أبو جهم محمد بن محمد الغزالي  
المتوفى في سنة ٥٠٥ هـ

وبذيله كتاب

المعنى عن حمل الأسفار في الأسياف

في تخريج ما في إحياء من الأخبار

للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي

المتوفى في سنة ٨٠٠ هـ



وتماما للشفيع المجلد بالكتاب في آخره ثلاث

الأول : تعريف الأحياء بفضائل الأحياء العلامة عبد القادر بن شيخ بن عبد الله

ابن شيخ بن عبد الله العبدوس باعلوي

الثاني : الإمام عن إشكالات الأحياء للإمام الغزالي، ردّه على اعتراضات

أوردها بعض المعاصرين له على بعض مواضع من الإحياء .

الثالث : عوارف المعارف، للمعارف بالله تعالى الإمام الشافعي

## الجزء الأول

يطلب من

المكتبة التجارية الكبرى

بمصر ب. ٥٧٨



## ترجمة الامام الغزالي

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الهادي إلى الصواب . وأشهد أن لا إله إلا الله الكريم الوهاب ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله من آناه الله الحكمة وفصل الخطاب . اللهم صلى وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن أحبا سنته إلى يوم الدين .

أما بعد : فهذه نبذة من تاريخ حياة الإمام الغزالي رحمه الله تعالى نوردتها ليعلم القارئ شيئاً عنه وبالله التوفيق.

هو الإمام الجليل ، محمد بن محمد بن أحمد أبو حامد الطوسي الغزالي ، حجة الإسلام ، ومحجة الدين التي يتوصل بها إلى دار السلام ، جامع أشنات العلوم ، والمبرز في المنقول منها والمفهوم ، جرت الأئمة قبله لشأو ما قنع منه بالغاية ، ولا وقف عند مطلب بل لم يبرح في دأب لا يقضى له بنهاية ، حتى أحمل من الأقران كل خصم بلغ مبلغ السبا ، وأخذ من نيران البدع كل مالا تستطيع أيدي المجالدين مها . كان رضى الله عنه ضرعاً لا أن الأسود تتضاءل لديه وتتوارى ، ويدراً تماماً إلا أن هداه يشرق نهساراً ، وبشرا من الخلق إلا أنه الطود العظيم ، وبهض الناس ولكن مثل ما بهض الجبال الدر النظيم . جاء والناس إلى رد فرية الفلاسفة أحوج من الظلاء لمصاييح السماء ، وأقفر من الجدباء إلى قطرات الماء ، فلم يزل يناضل عن الدين الخنيفي بجلاد مقاله ، ويصمى حوزة الدين ولا يفلطح بدم المعتدين حد نصاله . حتى أصبح الدين وثيق العرى . وانكشفت غياهب الشبهات وما كانت إلا حديثاً مغترى .

هذا مع ورع طوى عليه ضميره ، وخلوة لم يتخذ فيها غير الطاعة سميره ، ترك الدنيا وراء ظهره ، وأقبل على الآخرة مخلصاً لله في سره وجهره .

## مولده

ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وكان والده يغزل الصوف ويبيع في دكان بطوس ، ولما حضرته الوفاة وصى به وبأخيه أحمد إلى صديق له متصوف من أهل الخير وقال له : إن لي لتأسفا عظيما على تعلم الخط وأشبهى استدراك ما فاتني في وادي هذين قدامهما ولا عليك أن تنفذ في ذلك جميع ما أخلفه لهما . فلما مات أقبل الصوفي على تعاليمهما إلى أن فني ذلك النور اليسير الذي خلفه لهما أبوهما وتعدر على الصوفي القيام بقوتها فقال لهما :

اعلمنا أني قد أنفقت عليك ما كان ليك وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد . ليس لي مال فأواسيك به . وأصلح ما أرى ليك أن تلجأ إلى مدرسة كأنك من طلبة العلم فيحصل لك قوت يمينك على وقتك ففعلاً ذلك . وكان هو السبب في سعادتهما وصولاً درجاتهما . وكان الغزالي يحكي هذا ويقول : طلبنا العلم لغير الله فأني أن يكون إلا لله .

### صفة والده

ويحكي أن أباه كان فقيراً صالحاً لا يأكل إلا من كسب يده في عمل غزل الصوف ويطوف على المتفقهة ويحاسبهم ويتوفر على خدمتهم ويجد في الإحسان إليهم والنفقة بما يمكنه عليهم وأنه كان إذا سمع كلامهم بكى وتضرع وسأل الله أن يرزقه ولدًا ويعمله فقياً ويحضر مجالس الوعظ فإذا طاب وقته بكى وسأل الله أن يرزقه ولدًا واعظاً . فاستجاب الله دعوتيه .

أما أبو حامد فكان أفقر أقرانه ، وإمام أهل زمانه ، وفارس ميدانه ، كلمة شهد بها الموافق والمخالف ، وأفر بحقيقتها المعادى والمخالف .

وأما أحمد فكان واعظاً تفتلق الصم عند استماع تحذيره ، وترعد فرائص الحاضرين في مجالس نذكيره .

### تلقية العلوم

قرأ الغزالي رضى عنه في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس . قال الإمام أسعد المهنى : فسمعته يقول : قطعت علينا الطريق وأخذ الميادون جميع ما ممي ومضوا . فتجتمهم . فالتفت إلى مقدمهم وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت . فقلت له : أسألك بالذي نرجو السلامة منه أن ترد على تعليقتي فقط فإني شيء أتتفهمون به . فقال لي : وما هي تعليقتك ؟ فقلت : كتب في تلك الخلعة هاجرت لسباعها وكتابتها ومعرفة عليها . فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت عليها وقد أخذناها منك فتجردت من معرفتها وبقيت بلا علم ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى الخلعة .

قال الغزالي رحمه الله : فقلت هذا مستلطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري . فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين حتى حفظت جميع ما علقته . وصرت بحيث لو قطع على الطريق لم أتجرد من علمي . وقد روى هذه الحكاية عن الغزالي أيضاً الوزير نظام الملك كما هو مذكور في ترجمة نظام الملك من ذيل ابن السمعاني .

### قدومه نيسابور وملازمته لإمام الحرمين

ثم إن الغزالي قدم نيسابور ولازم إمام الحرمين وجد واجتهد حتى برع في المذهب والخلاف والأصول والجدل والمنطق ، وقرأ الحكمة والفلسفة وأحكم كل ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدى الرد عليهم وإبطال دعاويهم . وصنف في كل فن من هذه العلوم كتباً أحسن تأليفها وأجاد وضعها وترصيفها . وكان رضى الله عنه شديد الذكاء عجيب الفطرة مفرط الإدراك . بعيد الغور ، غواصاً على المعاني الدقيقة ، جليل علم منظرًا محجاجاً . وكان إمام الحرمين يصف تلامذته فيقول : الغزالي بحر مغرق ، والكنيا : أسد غرق ، والخوافي : نار تحرق .

## زيارته للوزير نظام الملك

ثم لما مات إمام الحرمين خرج الغزالي إلى العسكر قاصدا للوزير نظام الملك ، وناظر الأئمة والعلماء في مجلسه ، وقهر الخصوم ، وظهر كلامه على الجميع ، واعترفوا بفضلته ، وتلقاه الصحابة بالتعظيم والتبجيل ، وولاه تدريس مدرسته ببغداد . وأمره بالتوجه إليها ، فقدم بغداد في سنة أربع وثمانين وأربعمائة ودرس بالنظامية ، وأعجب الخلق حسن كلامه وكمال فضله وفصاحته لسانه ونسكته الدقيقة وإشاراته اللطيفة ، وأحبوه وأحلوه محل العيين بل أعلى وقالوا أهلا بمن أصبح لأجل المناصب أهلا .

## إقامته على التدريس

وأقام على التدريس وتعليم العلم مدة عظيم الجاه زائد الحشمة على الرتبة مشهور الإسم ، تضرب به الأمثال ، وتندد إليه الرجال ، إلى أن شرفت نفسه عن رذائل الدنيا فرفض ما فيها من التقدم والجاه . وترك كل ذلك وراء ظهره وقصد بيت الله الحرام ، لحج وتوجه إلى الشام في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين ، واستأناب أخاه في التدريس وجاور بيت المقدس ، ثم عاد إلى دمشق واعتكف في زاويته بالجامع الأموي المعروفة اليوم بالغزالية نسبة إليه .

## زهده وورعه

ولبس الثياب الخشنة ، وقلل طعامه وشربه ، وأخذ في التصنيف الإحياء ، وصار يعاوف المشاهد ، ويזור التراب والمساجد ، ويأوى إلى القفار ، ويروض نفسه ويجاهدها جهاد الأبرار ، ويكلفها مشاق العبادات ، ويبلوها بأنواع القرب والطاعات ، إلى أن صار قطب الوجود ، والبركة العامة لسكل موجود ، والطريق الموصل إلى رضا الرحمن .

## تكلمة على لسان أهل الحقيقة

ثم رجع إلى بغداد وعقد بها مجلس الوعظ ، وتكلم على لسان أهل الحقيقة ، وحدث بكتاب الإحياء . قال ابن النجار : ولم يكن له أستاذ ولا طلب شيئا من الحديث ، لم أر له إلا حديثا واحدا سيأتى ذكره في هذا الكتاب — يعني تاريخه — قلت : ولم أوه ذكر هذا الحديث بعد . وقد أخبرنا أبو الحافظ بحديث من حديثه أوردناه في الطبقات الكبرى .

## ما شهد له به العلماء العاملون

قال الإمام محمد بن يحيى : الغزالي هو الشافعي الثاني . وقال أسعد الميني : لا يصل إلى معرفة علم الغزالي وقضله إلا من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله . وقال أبو عبد الله محمد بن يحيى بن عبد المنعم العبدوي : رأيت بالإسكندرية فيما يرى النائم كأن الشمس طلعت من مغربها ، فعبر ذلك بعض المعبرين بدعوة تحدث فيهم . فوصلت بعد أيام والمركب بإحراق كتب الغزالي بالمرية .

## توزيع أعماله على الأوقات

ثم إن الغزالي عاد إلى خراسان ودرس بالمدرسة النظامية بنيسابور مدة يسيرة . ثم رجع إلى طوس واتخذ إلى

جانب داره مدرسة للفقهاء، وخاتمه للصوفية؛ ووزع أوقافه على وظائف من ختم القرآن؛ ومجالسة أرباب القلوب والتدريس لطلبة العلم؛ وإدامة الصلاة والصيام وسائر العبادات إلى أن انتقل إلى رحمة الله ورضوانه طيب الثناء؛ أعلى، نزلة من نجوم السماء؛ وأعدى للأمة من البدر في الظلماء لا يبعثه إلا حاسد أو زنديق.

### ما حصل لمبغضيه من البلاء

ولقد كان في نهر الإسكندرية من مدة قريبة أدركنا أسياننا شخص يبغض الغزالي وبغائبه؛ فرأى النبي ﷺ في المنام؛ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما إلى جانبه؛ وكان الغزالي واقف بين يديه وهو يقول: يا رسول الله هذا — معنى الراثي — يكلم في يؤذيني قال: فقال النبي ﷺ: هاتوا الشياطين. وأمر به فضرب بين يديه لأجل الغزالي وقام هذا الرجل من النوم وأثر الشياطين على ظهره.

### مصنفاته رضي الله عنه

ومن تصانيف الغزالي: البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة، والمستقصى، والمنقول، وتحصين الأدلة، وشفاء العليل، والأسماء الحسنى، والرد على الباطنية، ومناهج العابدين وإحياء علوم الدين، وغير ذلك من التصانيف.

### وفاته رحمه الله تعالى

توفي بطوس يوم الاثنين رابع عشر جمادى الآخرة سنة خمس وخمسة، ولو أردنا استيعاب ترجمته لطال الشرح وفيما أوردناه مقتنع وبلاغ.

## ترجمة الإمام العراقي

وإليك ترجمة الإمام العراقي مخرج أحاديث الإحياء :

قال الإمام الحافظ السيوطي في كتابه حسن المحاضرة في باب ذكر من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده :  
العراقي هو الإمام الكبير الحافظ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن حافظ العصر ،  
ولد بمشاة المهراني بين مصر والقاهرة في جمادى الأولى سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، وعنى بالفن وتقدم فيه بحيث  
كان شيوخ عصره يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة . كالسبكي والعلائي وابن كثير وغيرهم ، ونقل عنه الإسوي في المهمات  
وصفه بحافظ العصر ، وكذلك وصفه في الترجمة ابن سيد الناس .

وله مؤلفات في الفن بدعوة كالألفية التي اشتهرت في الآفاق وشرحها ، ونظم الاقتراح ، وتخرج أحاديث الإحياء  
— وهو الذي بين يدي القاريء — وتكملة شرح الترمذي لابن سيد الناس ،

وشرح في إملاء الحديث من سنة ست وتسعين فأحيا الله تعالى به سنة الإملاء بعد أن كانت دائرة فأملى أكثر  
من أربعمئة مجلس . وكان صالحاً متواضعاً حقيق المعيشة . مات في ثامن شعبان سنة ست ومماتمئة . ورواه تلميذه الحافظ  
ابن حجر العسقلاني بقصيدة غراء فانظرها هناك .

---

## استمراک

حدث فی أرقام صفحات هذا الجزء أن صفحة ٢٥٦  
يتبعها صفحة ٢٦٥ والخطأ فی رقم الصفحات فقط وإلا  
فالكلام متصل فليتنبه القارئ لذلك وبالله التوفيق ٩

---



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد الله أولاً ، حمداً كثيراً متوالياً ، وإن كان يتضاءل دون حق جلالة حمد الحامدين .  
وأصلي وأسلم على رسله ثانياً صلاة تستغرق مع سيد البشر سائر المرسلين .  
وأستخيرهُ تعالى ثالثاً فيما أنبئت له عزمي من تحرير كتاب في إحياء علوم الدين .  
وأنتدب لقطع تمجيدك رابعاً أيها الصادق المتفاني في العذل من بين ذمرة الجاحدين ، المرف في التفرير

## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أحيا علوم الدين فأبنت بعد اضمحلالها ، وأعيا فهوم الملمدين عن دركها فرجعت بكلامها ،  
أحمد وأستكين له من مظالم أنقضت الظهور بأنقائها ، وأعبد وأستعين به لعصام الأمور وعصاها ، وأشهد  
أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة وافية بحصول الدرجات وظلالها ، واقية من حلول الدركات وأهوالها ،  
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي أطلع به بحر الإيمان من ظلة القلوب وضلالها ، وأسمع به وقر الأذان وجلاله  
رين القلوب بصقالها ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم صلاة لا قاطع لاتصالها .

وبعد : فلما وفق الله تعالى لإكمال الكلام على أحاديث « إحياء علوم الدين » في سنة إحدى وخمسين تقدر الوقوف  
على بعض أحاديثه فأخرت تبليغه إلى سنة ستين فظفرت بكثير مما عذب عني ثم شرعت في تبليغه في مصنف  
متوسط حججه وأنا مع ذلك متباطئ في إكماله غير متعرض لتركه وإعماله إلى أن ظفرت بأكثر ما كنت لم أقف  
عليه وتكرر السؤال من جماعة في إكماله فأجبت وبادرت إليه ولكني اختصرته في غاية الاختصار ليسهل تحصيله  
وحمله في الأسفار فاقصرت فيه على ذكر طرف الحديث ومجايبه وعرضه وبيان محته أو حسنه أو ضعف عرضه  
فإن ذلك هو المقصود الأعظم عند أبناء الآخرة بل وعند كثير من المحدثين عند المذاكرة والمناظرة وأبين ما ليس له  
أصل في كتب الأصول ، والله أسأل أن ينفع به إنه خير مسئول .

فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بعزوه إليه والإعزوه إلى من خرجه من بقية السنة  
وحيث كان في أحد السنة لم أعزه إلى غيرها إلا لفرض صحيح بأن يكون في كتاب الترمي خرجه الصحة أو يكون  
أقرب إلى لفظه في الإحياء وحيث كرر المصنف ذكر الحديث ، فإن كان في باب واحد منه اكتفيت بذكره أول  
مرة وربما ذكرته فيه ثانياً وثالثاً لفرض أو لذهول عن كونه تقدم ، وإن كرره في باب آخر ذكرته ونهيت على أنه  
قد تقدم وربما لم أنه على تقدمه لذهول عنه ، وحيث عزوت الحديث لمن خرجه من الأئمة فلا أريد ذلك اللفظ  
بعينه بل قد يكون بلفظه وقد يكون بمناه أو باختلاف على قاعدة المستخرجات ، وحيث لم أجد ذلك الحديث ذكرت  
ما يفتى عنه غالباً وربما لم أذكره . وسميته :

المفتى عن حمل الأسفار في الأسفار ، في تخريج ما في الإحياء من الأخبار

جعله الله خالصاً لوجه الكريم ووسيلة إلى التميم المقيم .

والإنكار من بين طبعات المشركين العاقلين ؛ فلقط حل عن لسان عقدة الصمت وطوقني عهدة الكلام وفلاذة النطق : ما أنت مثابر عليه من العمى عن جلية الحق ، مع اللجاج في فصرة الباطل وتحسين الجهل ، والتشغيب على من آثر النزوح قليلاً عن مراسم الخلق ومال ميلاً يسيراً عن ملازمة الرسم إلى العمل بمقتضى العلم طمعاً في نيل ما تعبد الله تعالى به من تركية النفس وإصلاح القلب، وتداركاً لبعض ما فرط من إضاعة العمر بئساً عن تمام حاجتك في الحيرة والحيجاز عن غمار من قال فيهم صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله سبحانه بعلمه» (١) ، ولمعنى إنه لا سبب لإصرارك على التكبر إلا الداء الذي عم الجمل الغفير بل شمل الجماهير من القصور عن ملاحظة ذروة هذا الأمر والجهل بأن الأمر إدا والخطب جد والآخرة مقبلة والدنيا مدبرة والأجل قريب والسفر بعيد والزاد طفيف والخطر عظيم والطريق سد ، وما سوى الخالص لوجه الله من العلم والعمل عند الناقد البصير رد ، وسلوك طريق الآخرة مع كثرة الغوائل من غير دليل ولا رفيق متعب ومكد : فائدة الطريق هم العلماء الذين هم ورة الأنبياء ، وقد شقر منهم الزمان ولم يبق إلا المترسمون وقد استحوذ على أكثرهم الشيطان واستغواهم الطغيان ، وأصبح كل واحد بما جل حظه مشغولاً ، فصار يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً حتى ظل علم الدين مندوساً ، ومنار الهدى في أقطار الأرض منطمساً ، ولقد خيلوا إلى الخلق أن لا علم إلا فتوى حكومة تسمن به القضاة على فصل الخصام عند تهاوش الطعام ؛ أو جمل يتدرب به طالب المباحاة إلى الغلبة والإطعام أو يجمع مزخرف يتوسل به الواعظ إلى استدراج العوام ؛ إذ لم يروا ما سوى هذه الثلاثة مصيدة للحرمان وشبكة للحطام .

فأما علم طريق الآخرة وما درج عليه السلف الصالح مما سماه الله سبحانه في كتابه : فقهاً وحكمة وعلماً وعباداً ونوراً وهداية ورشداً ، فقد أصبح من بين الخلق مطلوباً وصار نسياً منسياً .

ولما كان هذا ثلماً في الدين ملأ وخطياً مدله ، رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما ، إحياء لعالم الدين ، وكشفاً عن مناهج الأئمة المتقدمين ، وإيضاحاً لمنهاج العلوم النافعة عند التبيين والسلف الصالحين .

وقد أسسته على أربعة أرباع وهي : ربيع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . وصدرت الجلة بكتاب العلم لأنه غاية الأهم لا تكشف أولاً عن العلم الذي تعبد الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الأحياء بطلبه ، إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (٢) ، وأمين فيسه العلم النافع من الضار ، إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من علم لا ينفع » (٣) ، وأحقق ميل أهل العصر عن شاكلة الصواب ، واتخذواهم بلامع السراب ، واقتناهم من العلوم بالقشر عن الباب . ويشتمل ربيع العبادات على عشرة كتب :

كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ، وكتاب أسرار الزكاة ، وكتاب أسرار الصيام ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الأذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الأوراد في الأوقات .

### أحاديث الخطبة

(١) حديث «أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه» رواه الطبراني في الصغير والبيهقي في شعب الإيمان من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف (٢) حديث « طلب العلم فريضة على كل مسلم » رواه ابن ماجه من حديث أنس وضعفه أحمد والبيهقي وغيرهما (٣) حديث « نعوذ بالله من علم لا ينفع » رواه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد حسن .

وأما ربيع العادات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب الشكاح ، وكتاب أحكام الكبس ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعايشة مع أصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة .

وأما ربيع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوات : شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور .

وأما ربيع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب :

كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ، وكتاب النية والصدق والإخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكير ، وكتاب ذكر الموت .

فأما ربيع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل إليه ، بل لا يكون من علماء الآخرة من لا يطلع عليه وأكثر ذلك مما أهمل في فن التفهيمات .

وأما ربيع العادات فأذكر فيه أسرار المعاملات الجارية بين الخلق وأغوارها ودقائق سننها وخفايا الورع في مجاريها وهي مما لا يستغنى عنها متدين .

وأما ربيع المهلكات فأذكر فيه كل خلق مذهب ورد القرآن بإمامته وتركيبه النفس عنه وتطهير القلب منه ، وأذكر من كل واحد من تلك الأخلاق حده وحقيقته ، ثم أذكر سببه الذي منه يتولد ثم الآفات التي عليها ترتب ثم العلامات التي بها تعرف ، ثم طرق المعالجة التي بها منها يتخلص ، كل ذلك مقرونا بشواهد الآيات والأخبار والآثار .

وأما ربيع المنجيات فأذكر فيه كل خلق محمود وخصلة مرغوب فيها من خصال المبشرين والصادقين التي بها يتقرب العبد من رب العالمين وأذكر في كل خصلة حدها وحقيقتها وسببها الذي به تجنبها وتمرتبها التي منها تستفاد وعلامتها التي بها تعرف وقضيتها التي لأجلها فيها يرغب مع ما ورد فيها من شواهد الشرح والعقل ؛ ولقد صنف الناس في بعض هذه المعاني كتباً ولكن يتميز هذا الكتاب عنها بخمسة أمور ؛ الأول : حل ما عقدوه وكشف ما أجهلوه . الثاني : ترتيب ما بدوه ونظم ما فرقوه . الثالث : إيجاز ما طولوه وضبط ما قرروه . الرابع : حذف ما كروه وإثبات ما حرروه . الخامس : تحقيق أمور غامضة اعتاصت على الأنفهام لم يتعرض لها في الكتب أصلاً إذ الكل وإن تواردوا على منبه واحد فلا مستفكر أن يتفرد كل واحد من السالكين بالنتيجة لأمر يخصه ويفعل عنه رفقاؤه ، أو يفعل عن التنبيه ولكن يسو عن إرادته في الكتب ، أو لا يسو ولكن يصرفه عن كشف الغطاء عنه صارف ، فهذه خواص هذا الكتاب مع كونه حاوياً لمجامع هذه العلوم .

ونما حلني على تأسيس هذا الكتاب على أربعة أرباع أمران : أحدهما - وهو الباعث الأصلي - أن هذا الترتيب في التحقيق والتفهيم كالضرورة لأن العلم الذي يتوجه به إلى الآخرة ينقسم إلى علم المعاملة وعلم المكاشفة ، وأعني

بعلم المكشوفة ما يطالب منه كشف المعلوم فقط ، وأعنى بعلم المعاملة ما يطلب منه مع الكشف العمل به . والمقصود من هذا الكتاب علم المعاملة فقط دون علم المكشوفة التي لا رخصة في إيداعها الكتب وإن كانت هي غاية مقصد الطالبين ومطمع نظر الصديقين ، وعلم المعاملة طريق إليه ولكن لم يتكلم الأنبياء صلوات الله عليهم مع الخلق إلا في علم الطريق والإرشاد إليه . وأما علم المكشوفة فلم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التثليل والإجمال ، علما منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال ، والعلماء وروثة الأنبياء فالهم سبيل إلى العدول عن نهج الناس والافتداء ثم إن علم المعاملة ينقسم إلى علم ظاهر أعنى العلم بأعمال الجوارح وإلى علم باطن أعنى العلم بأعمال القلوب والجاري على الجوارح إما عادة وإما عبادة ، والوارد على القلوب التي هي بحسب الاحتجاب عن الحواس من عالم الملكوت إما محمود وإما مذموم فيالواجب انقسم هذا العلم إلى شطرين ظاهر وباطن والشرط الظاهر المتعلق بالجوارح انقسم إلى عادة وعبادة والشرط الباطن المتعلق بأحوال القلب وأخلاق النفس انقسم إلى مذموم ومحمود فكان المجموع أربعة أقسام ولا يشذ نظر في علم المعاملة عن هذه الأقسام . الباعث الثاني : أني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجماعه ومزنته في المناقشات وهو مرتب على أربعة أرباع والمترقى يرى المحبوب محبوب فلم أبعد أن يكون تصوير الكتاب بصورة الفقه تليقاً في استدرج القلوب ولهذا تلطف ببعض من رام استئالة قلوب الرؤساء إلى الطب فوضعه على هيئة تقويم النجوم موضوعاً في الجداول والرقوم وسماه تقويم الصحة ليسكون أنفسهم بذلك الجنس جذاباً لهم إلى المطالعة والتلطف في اجتذاب القلوب إلى العلم الذي يفيد حياة الأبد أهم من التلطف في اجتذابها إلى الطب الذي لا يفيد إلا صحة الجسد ؛ فثمرة هذا العلم طلب القلوب والأرواح المتوصل به إلى حياة تدوم أبداً الآباد فأين منه الطب الذي يعالج به الأجساد وهي معرضة بالضرورة للفساد في أقرب الآماد ؟ فنسأل الله سبحانه التوفيق للرشد والسداد إنه كريم جواد .

## كتاب العلم وفيه سبعة أبواب

الباب الأول : في فضل العلم والتعلم والتعليم . الباب الثاني : في فرض العين وفرض الكفاية من العلوم وبيان حد الفقه والكلام من علم الدين وبيان علم الآخرة وعلم الدنيا . الباب الثالث : فيما تعده العامة من علوم الدين وليس منه ، وفيه بيان جنس العلم المذموم وقدره . الباب الرابع : في آفات المناظرة وسبب اشتغال الناس بالخلاف والجدل . الباب الخامس : في آداب المعلم والمتعلم . الباب السادس : في آفات العلم والعلماء والعلامات الفارقة بين علماء الدنيا والآخرة . الباب السابع : في العقل وفضله وأقسامه وما جاء فيه من الأخبار .

### الباب الأول

في فضل العلم والتعليم وشواهد من النقل والمقل

#### فضيلة العلم

شواهدا من القرآن قوله عز وجل ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ فانظر

كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثني بالمالئكة وثلك بأهل العلم ، وناهيك بهذا شرقاً وفضلاً وجلاءً ونبلاً . وقال الله تعالى ﴿ رفيع الله الذين آمنوا منهم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام . وقال عز وجل ﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ وقال تعالى ﴿ إنما يغشى الله من عباده العلماء ﴾ وقال تعالى ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده حبل الكتاب ﴾ وقال تعالى ﴿ قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيتك به ﴾ تنبيهاً على أنه اقتدر بقوة العلم . وقال عز وجل ﴿ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحاً ﴾ بين أن عظم قدر الآخرة بعمل بالعلم وقال تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ ولوروده إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ﴾ رد حكمه في الوقائع إلى استنباطهم والحق ربهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله . وقيل في قوله تعالى ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم ﴾ - يعني العلم - وريشاً - يعني اليقين - ولباس التقوى ﴾ يعني الحياء . وقال عز وجل ﴿ ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم ﴾ وقال تعالى ﴿ فلنقصن عليهم بعلم ﴾ وقال عز وجل ﴿ بل هو آيات بينات ﴾ في صدور الذين أوتوا العلم ﴾ وقال تعالى ﴿ خلق الإنسان علمه البيان ﴾ وإنما ذكر ذلك في معرض الامتنان . وأما الأخبار فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشد »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « العلماء ورثة الأنبياء »<sup>(٢)</sup> ومعلوم أنه لا رتبة فوق النبوة ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة . وقال صلى الله عليه وسلم « يستغفر للعالم ما في السموات والأرض »<sup>(٣)</sup> وأي منصب يريد على منصب من تقتل ملائكة السموات والأرض بالاستغفار له . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحكمة تزيد الشريف شرفاً وترفع المملوك حق يدرك مدارك الملوك »<sup>(٤)</sup> وقد نبه بهذا على ثمراته في الدنيا ومعلوم أن الآخرة خير وأبقى . وقال صلى الله عليه وسلم « خصلتان لا يكونان في منافق : حسن سمع وفقه في الدين »<sup>(٥)</sup> ولا تفك في الحديث لتفارق بعض فقهاء الزمان ، فإنه ما أراد به الفقه الذي ظننته ، وسيأتي معنى الفقه . وأدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا ، وهذه المعرفة إذا صدقت وغلبت عليه برىء بها من النفاق والرياء . وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الناس المؤمن العالم الذي إن احتجج إليه نفع وإن استغنى عنه أغنى نفسه »<sup>(٦)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينه الحياة وثمرته العلم »<sup>(٧)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد : أما أهل العلم فدلوا الناس على ما جاءت به الرسل ، وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسياهم

### كتاب العلم : الباب الأول

(١) حديث « من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين وياهمه رشد » متفق عليه من حديث معاوية دون قوله « ويلهمه رشد » وهذه الزيادة عند الطبراني في الكبير (٢) حديث « العلماء ورثة الأنبياء » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الدرداء (٣) حديث « يستغفر للعالم ما في السموات والأرض » هو بعض حديث أبي الدرداء المتقدم (٤) حديث « الحكمة تزيد الشريف شرفاً ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية ، وابن عبد البر في بيان العلم ، وعبد الله الأزد في آداب الحديث من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث « خصلتان لا يجتمعان في منافق ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حديث غريب (٦) حديث « أفضل الناس المؤمن العالم ... الحديث » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان موقوفاً على أبي الدرداء بإسناد ضعيف ولم أره مرفوعاً (٧) حديث « الإيمان عريان ... الحديث » أخرجه الحاكم في تاريخه نيسابور من حديث أبي الدرداء بإسناد ضعيف .

على ما جاءت به الرسل (١) . « وقال صلى الله عليه وسلم « لموت قبيلة أيسر من موت عالم (٢) » وقال عليه الصلاة والسلام « الناس معادن كمدان الذهب والفضة ، غيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فتموا (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله عز وجل يوم القيامة فقهاً عالماً (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تفقه في دين الله عز وجل كفاه الله تعالى ما أهله ورزقه من حيث لا يحتسب (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « أوحى الله عز وجل إلى إبراهيم عليه السلام : يا إبراهيم إني علمت أنك أحب كل دليم (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « العالم أمين الله سبحانه في الأرض (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس : الأمراء والفقهاء (١٠) » وقال عليه السلام « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقرى إلى الله عز وجل فلا بورلك في طلوع شمس ذلك اليوم (١١) » وقال صلى الله عليه وسلم في تفضيل العلم على العبادة والشهادة وفصل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي (١٢) « فانظر كيف جعل العلم مقاربا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواطى عليها ولولاه لم تسكن عبادة ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب (١٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء (١٤) » فأعظم برتبة من تلو النبوة وفوق الشهادة مع ماورد في فضل الشهادة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ماعبد الله تعالى بشئ أفضل من فقه في الدين ، وفقه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء عماد وعماد هذا الدين الفقه (١٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « خير دينكم أيسره وخير العبادة الفقه (١٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « فضل المؤمن العالم على

(١) حديث « أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم والجهاد ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فضل العالم العفيف من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٢) حديث « لموت قبيلة أيسر من موت عالم » أخرجه الطبراني وابن عبد البر من حديث أبي الدرداء ، وأصل الحديث عند أبي الدرداء (٣) حديث « الناس معادن ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٤) حديث « يوزن يوم القيامة مداد العلماء بدم الشهداء » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف (٥) حديث « من حفظ على أمتي أربعين حديثاً من السنة حتى يؤديها إليهم كنت له شفيعاً وشهيداً يوم القيامة » أخرجه ابن عبد البر في العلم من حديث ابن عمر وضعفه (٦) حديث « من حمل من أمتي أربعين حديثاً لقي الله يوم القيامة قسماً عالماً » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس وضعفه (٧) حديث « من تفقه في دين الله كفاه الله همه ... الحديث » رواه الخطيب في التاريخ من حديث عبد الله بن جزء الزبيدي بإسناد ضعيف (٨) حديث « أوحى الله إلى إبراهيم يا إبراهيم إني علمت أنك أحب كل دليم » ذكره ابن عبد البر تعليقاً ولم يظفر بإسناد (٩) حديث « العالم أمين الله في الأرض » أخرجه ابن عبد البر من حديث معاذ بسند ضعيف (١٠) حديث « صنفان من أمتي إذا صلحوا صلح الناس ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر وأبو نعيم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (١١) حديث « إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علماً يقرى ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو نعيم في الحلية وابن عبد البر في العلم من حديث عائشة بإسناد ضعيف (١٢) حديث « فضل العالم على العابد كفضل على أدنى رجل من أصحابي » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن صحيح (١٣) حديث « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب » أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان ، وهو قطعة من حديث أبي الدرداء المتقدم (١٤) حديث « يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء » رواه ابن ماجه من حديث عثمان ابن عفان بإسناد ضعيف (١٥) حديث « ما عبد الله بشئ أفضل من فقه في الدين ... الحديث » رواه الطبراني في الأوسط ، وأبو الفضل الأجرى في كتاب فضل العلم ، وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس بسند ضعيف « فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد » (١٦) حديث « خير دينكم أيسره ، وأفضل العبادة الفقه » أخرجه ابن عبد البر من حديث أنس بسند ضعيف ، والشرط الأول عند أحمد من حديث مجاهد بن الأدرع بإسناد جيد ، والشرط الثاني عند الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف .

المؤمن العابد بسبعين درجة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم » إنكم أصبحت في زمن كثير فقهاؤه قليل قراءه وخطباؤه قليل سائلوه كثير معطوه ، والعمل فيه خير من العلم . وسيأتي على الناس زمان قليل فقهاؤه كثير خطباؤه قليل معطوه كثير سائلوه ، العلم فيه خير من العمل (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « بين العالم والعابد مائة درجة بين كل درجتين حضرة الجواد المضر سبعين سنة (٣) » وقيل : يا رسول الله ، أى الأعمال أفضل ؟ فقال « العلم بالله عز وجل » فقيل : أى العلم تريد ؟ قال صلى الله عليه وسلم « العلم بالله سبحانه » فقيل له : نسأل عن العمل وتجب عن العلم ! فقال صلى الله عليه وسلم « إن قليل العمل ينفع مع العلم بالله ، وإن كثير العمل لا ينفع مع الجهل بالله (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « يبعث الله سبحانه العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ثم يقول : يا معشر العلماء ، إني لم أضع علمي فيكم إلا لعلني بكم ولم أضع علمي فيكم لأعذبكم ، اذهبوا فقد غفرت لكم (٥) » نسأل الله حسن الخاتمة . وأما الآثار فقد قال على بن أبى طالب رضى الله عنه لكييل : يا كييل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو بالإنفاق وقال على أيضاً رضى الله عنه : العالم أفضل من الصائم القائم المجاهد ، وإذا مات العالم لم يبق الإسلام ثلثة لا يسدها إلا خلف منه . وقال رضى الله عنه نظماً :

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم      على الهدى لمن استهدى أدلاء  
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه      والجاهلون لأهل العلم أعباء  
فقر يعلم تعش حياً به أبداً      الناس موتى وأهل العلم أحياء

وقال أبو الأسود : ليس شيء أعز من العلم ، الملوك يحكمون على الناس والعلماء يحكمون على الملوك . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : خير سليمان بن داود عليهما السلام بين العلم والمال والملك فأعطى العلم فأعطى المال والملك معه ، وسئل ابن المبارك : من الناس ؟ فقال : العلماء . قيل : فمن الملوك ؟ قال : الزهاد . قيل : فمن السفلة ؟ قال : الذين يأكلون الدنيا بالدين . ولم يجعل غير العالم من الناس لأن الخاصية التي تميز بها الناس عن سائر البهائم هي العلم ، فالإنسان إنسان بما هو شريف لأجله ، وليس ذلك بقوة شخصه ، فإن الجمل أقوى منه ، ولا بعظمه فإن الفيل أعظم منه ، ولا بشجاعته فإن السبع أشجع منه ، ولا بأكله فإن الثور أوسع بطناً منه ، ولا ليجامع فإن أعوس العصافير أقوى على السفاد منه ، بل لم يخلق إلا للعلم . وقال بعض العلماء : لى شعري أى شيء أدرك من فاته العلم ، وأى شيء فاته من أدرك العلم . وقال عليه الصلاة والسلام « من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظم الله تعالى » وقال فتح الموصلى رحمه الله : أليس المربى إذا منع الطعام والشراب والنساء يموت ؟ قالوا : بلى . قال : كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة والعلم ثلاثة أيام يموت ، ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة وبهما حياته ، كأن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ولكنه لا يشعر به ، إذ حب الدنيا

(١) حديث « فضل المؤمن العالم على المؤمن العابد بسبعين درجة » أخرجه ابن عدى من حديث أبى هريرة بإسناد ضعيف ولأبى يعلى نحوه من حديث عبد البر بن عوف (٢) حديث « إنكم أصبحت في زمان كثير فقهاؤه .. الحديث » أخرجه الطبرانى من حديث حزام بن حكيم عن عمه ، وقيل عن أبيه وإسناده ضعيف (٣) حديث « بين العالم والعابد مائة درجة » أخرجه الأصفهاني في الترغيب والترهيب من حديث ابن عمر عن أبيه وقال « سبعون درجة » بسند ضعيف ، وكذا رواه صاحب مسند القردوس من حديث أبى هريرة (٤) حديث « قيل له يا رسول الله أى الأعمال أفضل فقال العلم بالله ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر عن حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يبعث العلماء ... الحديث » رواه الطبرانى من حديث أبى موسى بسند ضعيف .

وشغله بها أبطل إحساسه ، كما أن غلبة الخوف قد تبطل ألم الجراح في الحال وإن كان واقعا ؛ فإذا حط الموت عنه أعباء الدنيا أحس بهلاكه وتحسرت عظميا ثم لا ينفعه ذلك كاحساس الآمن من خوفه والمفقق من سكره بمسا أصابه من الجراحات في حالة السكر أو الخوف ، فنموذ بالله من يوم كشف الغطاء فإن الناس ينام فإذا ما نوا انتبهوا . وقال الحسن رحمه الله : يوزن مداد العلماء بدم الشهداء فيرجع مداد العلماء بدم الشهداء . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، ورفع موت رواه ، وقال الذي نفسى بيده ليوث رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبشتم الله علماء لمسا يرون من كرامتهم ، فإن أحدا لم يولد عالما وإنما العلم بالتعلم . وقال ابن عباس رضي الله عنهما تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلى من إحيائها ، وكذلك عن أبي هريرة رضي الله عنه وأحمد بن حنبل رحمه الله . وقال الحسن في قوله تعالى ﴿ ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ﴾ إن الحسنة في الدنيا هي العلم والعبادة ، وفي الآخرة هي الجنة . وقيل لبعض الحكماء : أى الأشياء تفتنى ؟ قال : الأشياء التي إذا غرقت سفينتك سبحت مملك ، يعنى العلم . وقيل : أراد بفرق السفينة هلاك بدنه بالموت . وقال بعضهم : من اتخذ الحكمة لجأما اتخذها الناس إماما ، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار . وقال الشافعي رحمه الله عليه : من شرف العلم أن كل من نسب إليه ولو في شيء حقير فرح . ومن رفع عنه حزن . وقال عمر رضي الله عنه : يا أيها الناس عليكم بالعلم فإن الله سبحانه رداء أحبه ، فن طلب بابا من العلم رداء الله عز وجل بردائه ، فإن أذنب ذنباً استعته ثلاث مرات لثلا يسلبه رداءه ذلك وإن تطاول به ذلك الذنب حتى يموت . وقال الأحنف رحمه الله : كاد العلماء أن يكونوا أربابا وكل عز لم يوطد بعلم فالى ذل مصيره . وقال سالم بن أبي الجعد : اشتراى مولاي بثلاثمائة درهم وأعتقنى ، فقلت بأى شيء أحرقت ؟ فأحرقت بالعلم فامتدت لى سنة حتى آتاني أمير المدينة زائراً فلم أكن له . وقال الزبير بن أبي بكر : كتب إلى أبي العراق : عليك بالعلم فانك إن اقتضت كان لك مالا ، وإن استغنيت كان لك جمالا . وحكى ذلك وصايا لقمان لابنه قال : يا بني جالس العلماء وزاحمهم يركبتيك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء . وقال بعض الحكماء : إذا مات العالم بكاه الحوت في الماء والطير في الهواء ويفقد وجهه ولا ينسى ذكره ، وقال الزهري رحمه الله : العلم ذكر ولا يحبه إلا ذكرا الرجال .

### فضيلة العلم

أما الآيات فقولها تعالى ﴿ قلوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ﴾ وقوله عز وجل ﴿ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴾ وأما الأخبار فقولها صلى الله عليه وسلم « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً لا ينفصل عنه » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « لأن تغدو قطعتم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا وما فيها » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم »

(١) حديث « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث صفوان بن عسال (٣) حديث « لأن تغدو قطعتم باباً من العلم خير من أن تصلى مائة ركعة » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي ذر وليس إسناده بذلك ، والحديث عند ابن ماجه بلفظ آخر (٤) حديث « باب من العلم يتعلمه الرجل خير له من الدنيا » أخرجه ابن حبان في روضة العقلاء ، وابن عبد البر موقوفا على الحسن البصري ، ولم أره مرفوعاً إلا بلفظ « خير من مائة ركعة » رواه الطبراني في الأوسط بسند ضعيف من حديث أبي ذر .



ولو بالصين (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال عليه الصلاة والسلام : العلم خزان مفاتيحها السؤال ، ألا فاسألوا فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل والعالم والمستمع والمحِب لم (٢) ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه (٣) ، وفي حديث أبي ذر رضى الله عنه : حضور مجلس عالم أفضل من صلاة ألف ركعة وعبادة ألف مريض وشهود ألف جنازة ، فقيل يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : وهل ينفع القرآن إلا بالعلم ؟ (٤) ، وقال عليه الصلاة والسلام : من جاء الموت وهو يطلب العلم ليحى به الإسلام فيبينه وبين الأنبياء في الجنة درجة واحدة (٥) ، وأما الآثار فقال ابن عباس رضى الله عنهما : ذاك طالباً فمزرت مطلوباً . وكذلك قال ابن أبي مليكة رحمه الله : ما رأيت مثل ابن عباس ، إذا رأيته رأيت أحسن الناس وجهاً ، وإذا تكلم فأعرب الناس لساناً وإذا أفتى فأكثر الناس علماً . وقال ابن المبارك رحمه الله : عجب لمن لم يطلب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة ؟ وقال بعض الحكماء : إني لا أرحم رجلاً كرحمى لأحد رجلين : رجل يطلب العلم ولا يفهمه ، ورجل يفهم العلم ولا يطلبه . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : لأن أنعم مسألة أحب إلى من قيام ليلة . وقال أيضاً : كن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً ولا تكن الرابع فتهلك . وقال عطاء : مجلس علم يكفر سبعين مجلساً من مجالس اللغو . وقال عمر رضى الله عنه : موت ألف جانيد قائم الليل صائم النهار أهون من موت عالم يصير بحلال الله وحرامه . وقال الشافعي رضى الله عنه : طلب العلم أفضل من النافلة ، وقال ابن عبد الحكم رحمه الله : كنت عندما كنت أقرأ عليه العلم فدخل الظاهر فجمعت الكتب لأصلي فقال : يا هذا ما الذي قت إليه بأفضل مما كنت فيه إذا همت النية . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : من رأى أن القدو إلى طلب العلم ليس بمجهود فقد نقص في رأيه وعقله .

### فضيلة التعليم

أما الآيات فقولهُ عز وجل : ﴿ وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ والمراد هو التعليم والإرشاد . وقوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ ﴾ وهو إيجاب للتعليم . وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمْنَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ وهو تحريم للكتمان كما قال تعالى في الشهادة ﴿ وَهَنَ يَكْتُمَهَا فَإِنَّهُ أَثَمٌ قَلْبُهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « ما آتى الله عالماً علماً إلا وأخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن يبينوه للناس ولا يكتُموه (٦) » وقال تعالى ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَخَلَ إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ وقال تعالى ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِسْكَ ﴾ وأما الأخبار فقولهُ صلى الله عليه وسلم لما بعث معاذاً رضى الله عنه إلى اليمن « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها (٧) »

(١) حديث « أطلبوا العلم ولو في الصين » أخرجه ابن عدى والبيهقي في الدخول والشعب من حديث أنس ، وقال البيهقي : متته مشهور وأسانيده ضعيفة (٢) حديث « العلم خزان مفاتيحها السؤال ... الحديث » رواه أبو نعيم من حديث علي مرثوف بإسناد ضعيف (٣) حديث « لا ينبغي للجاهل أن يسكت على جهله » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير وابن السقي وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف (٤) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... الحديث » ذكره ابن الجوزي في الموضوعات من حديث عمر ولم أجده من طريق أبي ذر (٥) حديث « من جاء الموت وهو يطلب العلم ... الحديث » أخرجه الدارمي وابن السقي في رياضة المتعلمين من حديث الحسن ، قيل : هو ابن علي ، وقيل : هو ابن يسار البصري فيكون مرسل (٦) حديث « ما آتى الله عالماً علماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في فضل العالم الضعيف من حديث ابن مسعود بنحوه ، وفي الخلفيات نحوه من حديث أبي هريرة (٧) حديث : قال لمعاذ حين بعثه إلى اليمن « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث معاذ ، وفي الصحيحين من حديث سهل بن سعد أنه قال ذلك لملي .

وقال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « من تعلم باباً من العلم ليحل الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً (١) » وقال عيسى صلى الله عليه وسلم : من علم وعمل فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السموات . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة يقول الله سبحانه للعابدين والجاهدين : ادخلوا الجنة ، فيقول العلماء بفضل علمنا تمجدوا وجاهدوا ، فيقول الله عز وجل : أنتم عندي كيعض ملائكة تشفقوا تشفقوا فيشفعون ثم يدخلون الجنة (١) » وهذا إنما يكون بالعلم المتدنى بالعلم لا بالعلم اللازم الذي لا يتعدى . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل لا يترفع العلم انترافاً من الناس بعد أن يؤتيم إياه ولكن يذهب بذهاب العلماء ، فكلما ذهب علم ذهب بما معه من العلم ، حتى إذا لم يبق إلا رؤساء جهالا إن سئلوا أفتوا بغير علم فيضلون ويضلون (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « من علم علماً فكتمه ألجأه الله يوم القيامة بلججاً من نار (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمها قطوئى عليها ثم تحملها إلى أخ لك مسلم تعلمه إياها تعدل عبادة سنة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله سبحانه وما والآله أو معلماً أو متعلماً (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن بلغه قبله (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الخير يسعها المؤمن فيعلمها ويعمل بها خير له من عبادة سنة (٩) » وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله عز وجل ويرغبون إليه والثاني يعلمون الناس ، فقال « أما هؤلاء فيسألون الله تعالى فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم ، وأما هؤلاء فيعلمون الناس وإنما بعثت معلماً ثم عدل إليهم وجلس معهم (١٠) » وقال صلى الله عليه وسلم « مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكانت منها بقية قبلت الماء فأنبتت السكلا والشبب الكثير ، وكانت منها بقية أمسكت الماء فنفع الله عز وجل بها الناس فشربوا منها وسقوا وزرعوا ، وكانت منها طائفة قيما لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ (١١) » اه ، فالأول ذكره مثلاً للمتفح بعلمه ، والثاني ذكره مثلاً للنافع ، والثالث للمحروم منها .

(١) حديث « من تعلم باباً من العلم ليحل الناس أعطى ثواب سبعين صديقاً » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث « إذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى للعابدين والجاهدين ادخلوا الجنة ... الحديث » أخرجه أبو العباس الذهبي في العلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث « إن الله يترفع العلم انترافاً من الناس ... الحديث » متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر (٤) حديث « من علم علماً فكتمه ألجأه الله يوم القيامة بلججاً من نار » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حديث حسن (٥) حديث « نعم العطية ونعم الهدية كلمة حكمة تسمها ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث ابن عباس نحوه بإسناد ضعيف (٦) حديث الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ... الحديث » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة ، قال الترمذي : حسن غريب (٧) حديث « إن الله وملائكته وأهل السموات وأهل الأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخير » أخرجه الترمذي من حديث أبي أمامة وقال غريب ، وفي نسخة : حسن صحيح (٨) حديث « ما أفاد المسلم أخاه فائدة أفضل من حديث حسن ... الحديث » أخرجه ابن عبد البر من رواية محمد بن النكدر مرسل نحوه ، ولا ينع من حديث عبد الله بن عمر « ما أهدى مسلم لأخيه هدية أفضل من كلمة تزيد هدى أو ترد عنه ردى » (٩) حديث « كلمة من الحكمة يسعها المؤمن فيعمل بها ويعلمها ... الحديث » أخرجه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية زيد بن أسلم مرسل نحوه ، وفي مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بسند ضعيف « كلمة حكمة يسعها الرجل خير له من عبادة سنة » (١٠) حديث « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم على أصحابه فرأى مجلسين أحدهما يدعون الله ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف (١١) حديث « مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي موسى .

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : علم ينتفع به<sup>(١)</sup> الحديث » وقال صلى الله عليه وسلم « الدال على الخير كفاعله<sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل حكمة فهدى بها ويهدى بها الناس ، ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الخير<sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « على خلفائي رحمة الله » قيل : ومن خلفاؤك ؟ قال « الذين يحيون سنتي ويعملونها عباد الله<sup>(٤)</sup> » وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : من حدث حديثاً فعمل به فله مثل أجر من عمل ذلك العمل . وقال ابن عباس رضي الله عنهما : معلم الناس الخير يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر . وقال بعض العلماء : العالم يدخل فيما بين الله وبين خلقه فلينظر كيف يدخل . وروى أن سفيان الثوري رحمه الله قدم عسقلان فكش لا يسأله لإنسان ، فقال : اكرهوا لي لأخرج من هذا البلد ، هذا بلد يموت فيه العلم . وإنما قال ذلك حرصاً على فضيلة التعام واستبقاء العلم به وقال عطاء رضي الله عنه : دخلت على سعيد بن المسيب وهو يبكي ، فقلت : ما يبكيك ؟ قال : ليس أحد يسألني عن شيء . وقال بعضهم : العلماء سرج الأزمنة ، كل واحد مصباح زمانه يستضيء به أهل عصره . وقال الحسن رحمه الله : لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم : أي أنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية . وقال عكرمة : إن لهذا العلم ثمناً . قيل : وما هو ؟ قال : أن تضمه فيمن يحسن عمله ولا يضيعه : وقال يحيى بن معاذ : العلماء أرحم بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من آبائهم وأمهاتهم . قيل : وكيف ذلك ؟ قال لأن آبائهم وأمهاتهم يحفظونهم من نار الدنيا وهم يحفظونهم من نار الآخرة . وقيل : أول العلم الصمت ثم الاستماع ثم الحفظ ثم العمل ثم نشره . وقيل : علم عليك من الجهل وتعلم ممن يعلم ما تجهل ؛ فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت وحفظت ما علمت . وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم ورأته أيضاً مرفوعة : تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومدارسته تسبيح ، وألبحث عنه جهاد ، وتعليمه من لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرية . وهو الأئیس في الوحدة ، والصاحب في الخفاوة . والدليل على الدين ، والمصبر على السراء والضراء ، والوزير عند الأخلاء ، والتقريب عند الغرباء ، ومنار سبيل الجنة ، يرفع الله به أقراماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة ، يقتدى بهم ، أدلة في الخير تقتصر آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في خاتمهم وبأجنتحتما تسبحهم ، وكل رطب ويابس لهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها<sup>(٥)</sup> . لأن العلم حياة القلوب من العمى ، ونور الأبصار من الظلم ، وقوة الابدان من الضعف يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى . والتفكير فيه يعدل بالصيام . ومدارسته بالقيام ، به بطاع الله عز وجل وبه يعبد ، وبه يوحد وبه يعبد ، وبه يتورع ، وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام والعمل تابعه ، ينهيه الصدقات ويحرمه الأشقياء ، نسأل الله تعالى حسن التوفيق .

- (١) حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة
- (٢) حديث « الدال على الخير كفاعله » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب . ورواه مسلم وأبو داود والترمذي وصححه عن أبي مسعود البدرى بلفظ « من دل على خير فله مثل أجر فاعله »
- (٣) حديث « لا حسد إلا في اثنتين ... الحديث » متفق عليه من حديث ابن مسعود
- (٤) حديث « على خلفائي رحمة الله ... الحديث » رواه ابن عبد البر في العلم ، والهروى في ذم الكلام من حديث الحسن ، فقيل هو ابن علي وقيل ابن يسار البصري فيكون مرسلاً ، ولابن السني وأبو نعيم في رياضة التلعين من حديث علي نحوه
- (٥) حديث معاذ « تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية وطلبه عبادة ... الحديث بطوله » رواه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب ، وابن عبد البر وقال : ليس له إسناد قوى .

## في الشواهد العقلية

اعلم أن المطلوب من هذا الباب معرفة فضيلة العلم ونفاسته ، وما لم تفهم الفضيلة في نفسها ولم يتحقق المراد منها لم يمكن أن تعلم وجودها صفة للعلم أو لغيره من الخصال ، فلقد ضل عن الطريق من طمع أن يعرف أن زيداً حكيم أم لا ، وهو بعد لم يفهم معنى الحكمة وحقيقتها . والفضيلة مأخوذة من الفضل وهي الزيادة ، فإذا تشارك شيان في أمر واختص أحدهما بزيد يقال فضله وله الفضل عليه مهما كانت زيادته فيما هو كمال ذلك الشيء كما يقال : الفرس أفضل من الحمار بمعنى أنه يشاركه في قوة الحل ويزيد عليه بقوة الكر والفر وشدة العدو وحسن الصورة ، فلو فرض حمار اختص بسلمة زائدة لم يقل إنه أفضل ، لأن تلك زيادة في الجسم وتقصان في المعنى وليست من الكمال في شيء ، والحيوان مطلوب لمعناه وصفاته لا لجسمه ، فإذا فهمت هذا لم يتف عليك أن العلم فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الأوصاف ، كما أن للفرس فضيلة إن أخذته بالإضافة إلى سائر الحيوانات ، بل شدة العدو فضيلة في الفرس وليست فضيلة على الإطلاق ، والعلم فضيلة في ذاته وعلى الإطلاق من غير إضافة ، فإنه وصف كمال الله سبحانه وبه شرف الملائكة والأنبياء ، بل الكسب من الخيل خير من البليد فهي فضيلة على الإطلاق من غير إضافة . واعلم أن الشيء التامس المرغوب فيه ينقسم إلى ما يطلب لغيره ، وإلى ما يطلب لذاته ، وإلى ما يطلب لغيره ولذاته جميعاً . فما يطلب لذاته أشرف وأفضل عما يطلب لغيره ، والمطلوب لغيره : الدرهم والدنانير فانهما حجران لامتفعة لهما ، ولولا أن الله سبحانه وتعالى يرضى قضاء الحاجات بهما لكانا والخصباء بمثابة واحدة . والذي يطلب لذاته : فالسعادة في الآخرة ولذة النظر لوجه الله تعالى . والذي يطلب لذاته ولغيره فمسكامة البدن ، فإن سلامة الرجل مثلاً مطلوبة من حيث إنها سلامة البدن عن الألم ومطلوبة للشيء بها والتوصل إلى المسارب والحاجات ، وهذا الاعتبار إذا نظرت إلى العلم رأيت أنه لذيذاً في نفسه فيكون مطلوباً لذاته ، ووجدته وسيلة إلى دار الآخرة وسعادتها وذريعة إلى القرب من الله تعالى ولا يتوصل إليه إلا به ، وأعظم الأشياء رتبة في حق الآدمي السعادة الأبدية وأفضل الأشياء ما هو وسيلة إليها وإن يتوصل إليها إلا بالعلم والعمل ولا يتوصل إلى العمل إلا بالعلم بكيفية العمل ، فأوصل السعادة في الدنيا والآخرة هو العلم فهو إذن أفضل الأعمال ، وكيف لا وقد تعرف فضيلة الشيء أيضاً بشرف ثمرته أو قد عرفت أن ثمرة العلم القرب من رب العالمين والاتحاق بأفق الملائكة ومقارنته للملأ الأعلى ، هذا في الآخرة ، وأما في الدنيا فالعلم والوقار ونفوذ الحكم على الملوك ولزوم الاحترام في الطباع حتى إن أغبياء الترك وأجلاف العرب يصادفون طباعهم بمجولة على التوقير لشيوخهم لاختصاصهم بزيد علم مستمد من التجربة بل البهيمة يطعمها توقير الإنسان لشعورها بتميز الإنسان بكمال مجاوز لدرجتها : هذه فضيلة العلم مطلقاً ثم تختلف العلوم كإسيان بيانه وتفاوت لأحالة فضايلها بتفاوتها . وأما فضيلة التعليم والتعلم فظاهرة مما ذكرناه ، فإن العلم إذا كان أفضل الأمور كان تعلمه طلباً للأفضل فكان تعليمه إفادة للأفضل ، وبيانه أن مقاصد الخلق مجموعة في الدين والدنيا ولا نظام للدين إلا بنظام الدنيا ، فإن الدنيا مزودة الآخرة وهي الآلة الموصلة إلى الله عز وجل لمن اتخذها آلة ومنزلاً لمن يتخذها مستقراً ووطناً ، وليس ينظم أمر الدنيا إلا بأعمال الآدميين . وأعمالهم وحرفهم وصناعاتهم تنحصر في ثلاثة أقسام :

أحدها أصول لا قوام للعالم دونها ، وهي أديمة : الزراعة ، وهي للمعلم . والحياكة ، وهي للبليلس . والبناء ،

وهو للسكن . والسياسة ، وهي للتأليف والاجتماع والتعاون على أسباب المعيشة وضبطها .

الثاني : ما هي مهينة لكل واحدة من هذه الصناعات وغادمة لها ، كالخداة فانها تخدم الزراعة وجملة من الصناعات بأعداد آلتها كالخلاجة والفول فانها تخدم الحياة بأعداد عملها .

الثالث : ما هي متممة الأصول ومزينة ، كالطحن والخبز للزراعة ، وكالفصارة والخياطة للحياكة ، وذلك بالإضافة إلى قوام أمر العالم الأرضي مثل أجزاء الشخص بالإضافة إلى جنته فانها ثلاثة أضرب أيضاً : إما أصول كالقلب والكبد والدماغ ، وإما غادمة لها كالعدة والبرق والشرابين والأعصاب والأوردة ، وإما مكلة لها ومزينة كالأظفار والأصابع والحاجبين ، وأشرف هذه الصناعات أصولها ، وأشرف أصولها السياسة بالتأليف والاستصلاح ولذلك تستدعى هذه الصناعة من الكمال فيمن يتكفل بها ما لا يستدعيه سائر الصناعات ، ولذلك يستخدم لا محالة صاحب هذه الصناعة سائر الصناعات والسياسة في استصلاح الخلق وإرشادهم إلى الطريق المستقيم المنتهى في الدنيا والآخرة على أربع مراتب : الأولى - وهي العليا : سياسة الأنبياء عليهم السلام وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً في ظاهريهم وباطنيهم . والثانية : الخلفاء والملوك والسلاطين وحكمهم على الخاصة والعامة جميعاً ولكن على ظاهريهم لا على باطنيهم . والثالثة : العلماء بالله عز وجل وبيته الذين هم وروثة الأنبياء ، وحكمهم على باطن الخاصة فقط ، ولا يرتفع فهم العامة على الاستفادة منهم ولا تنتهي قوتهم إلى التصرف في ظواهرهم بالإلزام والمنع والشرع . والرابعة : الوعاظ وحكمهم على بواطن العوام فقط ؛ فأشرف هذه الصناعات الأربع بعد النبوة إفادة العلم وتهذيب نفوس الناس عن الأخلاق المذمومة المهلكة وإرشادهم إلى الأخلاق الحمودة المسعدة وهو المراد بالتعليم ؛ وإنما فننا إن هذا أفضل من سائر الحرف والصناعات لأن شرف الصناعات يعرف بثلاثة أمور : إما بالانضات إلى الغريزة التي بها يتوصل إلى معرفتها كفضل العلوم العقلية على اللغوية ؛ إذ تترك الحكمة بالعقل ، واللغة بالسمع ، والعقل أشرف من السمع ، وإما بالنظر إلى عموم النفع كفضل الزراعة على الصياغة ، وإما بملاحظة المحل الذي فيه التصرف كفضل الصياغة على الدباغة ؛ إذ عمل أحدهما الذهب ومحل الآخر جلد الميتة ، وليس يعني أن العلوم الدينية وهي وفقه طريق الآخرة إنما تترك بكال العقل وصفاء الذكاء ، والعقل أشرف صفات الإنسان كما سيأتى بيانه ، إذ به تقبل أمانة الله ، وبه يتوصل إلى جوار الله سبحانه . وأما عموم النفع فلا يستراب فيه فإن نفعه وثمرته سعادة الآخرة . وأما شرف المحل فكيف يعني والمعلم متصرف في قلوب البشر ونفوسهم ، وأشرف موجود على الأرض جسس الإنسان ، وأشرف جزء من جواهر الإنسان قلبه ، والمعلم مشتغل بتسكيله وتجميله وتطهيره وسياقته إلى القرب من الله عز وجل ، فتعليم العلم من وجه : عبادة الله تعالى ، ومن وجه خلافة الله تعالى ، وهو من أجل خلافة الله ، فإن الله تعالى قد فتح على قلب العالم العلم الذي هو أخص صفاته ، فهو كالحائز لأنفس خزائنه ، ثم هو مأذون له في الإنفاق منه على كل محتاج إليه ؛ فأى رتبة أجل من كون العبد واسطة بين ربه سبحانه وبين خلقه في تفريرهم إلى الله تعالى وسياقتهم إلى جنة المأوى ، جعلنا الله منهم بكرمه ، وصلى الله على كل عبد مصطفى .

## الباب الثاني

في العلم المحمود والمذموم ، وأقسامهما وأحكامهما

وفيه بيان ماهو فرض عين وما هو فرض كفاية ، وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة .

بيان العلم الذي هو فرض عين : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « اطلبوا العلم ولو بالعين » واختلف الناس في العلم الذي هو فرض على كل مسلم ، ففرضوا فيه أكثر من عشرين فرقة ، ولا نطيل بنقل التفصيل ، ولكن حاصله أن كل فريق نزل الوجود على العلم الذي هو بصدده ، فقال المتكلمون : هو علم السكلام ، إذ به يترك التوحيد ويعلم به ذات الله سبحانه وصفاته ، وقال الفقهاء : هو علم الفقه إذ به تعرف العبادات والاحلال والحرام وما يحرم من المعاملات وما يحل ، وعنوا به ما يحتاج إليه الآحاد دون الوقائع النادرة ، وقال المفسرون والمحدثون : هو علم الكتاب والسنة ، إذ بهما يتوصل إلى العلوم كلها . وقال المتصوفة : المراد به هذا العلم ، فقال بعضهم : هو علم العبد بحاله ومقامه من الله عز وجل . وقال بعضهم : هو العلم بالإخلاص وآفات النفوس وتمييز لمة الملك من لمة الشيطان . وقال بعضهم : هو علم الباطن ، وذلك يجب على أقوام مخصوصين هم أهل ذلك وصرقوا اللفظ عن عمومته . وقال أبو طالب المكي : هو العلم بما تضمنته الحديث الذي فيه مبادئ الإسلام ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم « بقي الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله (١) » إلى آخر الحديث ؛ لأن الواجب هذه الخمس فيجب العلم بكيفية العمل فيها وبكيفية الوجود . والذي ينبغي أن ينقطع به المحصل ولا يستريب فيه ما ستذكره : وهو أن العلم كما قدمناه في خطبة الكتاب ينقسم إلى علم معاملة علم مكاشفة ، وليس المراد بهذا العلم إلا علم المعاملة . والمعاملة التي كلف العبد العاقل البالغ العمل بها ثلاثة : اعتقاد ، وفعل ، وترك ؛ فإذا بلغ الرجل العاقل بالاحتلام أو السن ضحوة نهار مثلاً فأول واجب عليه تعلم كلتي الشهادة وفهم معناهما وهو قول « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » وليس يجب عليه أن يحصل كشف ذلك لنفسه بالنظر والبحث وتحجير الأدلة ، بل يكفي أن يصدق به ويعتقده جزماً من غير اختلاج ريب واضطراب نفس ، وذلك قد يحصل بمجرد التقليد والسماع من غير بحث ولا برهان ؛ إذا كتني رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل (٢) . فإذا فعل ذلك فقد أدى واجب الوقت وكان العلم الذي هو فرض عين عليه في الوقت تعلم الكلمتين وفهماهما ، وليس يلزمه أمر وراء هذا في الوقت ، بدليل أنه لو مات عقيب ذلك مات مطيعاً لله عز وجل غير عاص له ، وإنما يجب غير ذلك بعوارض تعرض وليس ذلك ضرورياً في حق كل شخص بل يتصور الانتفك عنها ، وتلك العوارض إما أن تكون في الفعل وإما في الترك وإما في الاعتقاد . أما الفعل : فبأن يعيش من ضحوة نهاره إلى وقت الظهر فيتجدد عليه بدخول وقت الظهر تعلم الظهارة والصلاة ، فإن كان صحيحاً وكان بحيث لو صبر إلى وقت زوال الشمس لم يتمكن من تمام التعلم والعمل في الوقت بل يخرج الوقت لو اشتغل بالتعلم ، فلا يبعد أن يقال : الظاهر بقاؤه فيجب عليه تقديم التعلم على الوقت . ويصحت أن يقال : وجوب العلم الذي هو شرط العمل بعد وجوب العمل فلا يجب قبل الزوال ، وهكذا في بقية الصلوات فإن عاش إلى رمضان تجدد بسببه وجوب تعلم الصوم : وهو أن وقته من الصباح إلى غروب الشمس وأن الواجب فيه الثنية والإمساك عن الأكل والشرب والوقوع ، وأن ذلك يتأدى إلى رؤية الهلال أو شاهدين ؛ فإن تجدد له مال أو كان له مال عند بلوغه لزمه تعلم ما يجب عليه من الزكاة ، ولكن لا يلزمه في الحال إنما يلزمه عند

### الباب الثاني

(١) حديث « بقي الإسلام على خمس .. الحديث » متفق عليه من حديث ابن عمر (٢) حديث : اكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أجلاف العرب بالتصديق والإقرار من غير تعلم دليل : مشهور في كتب السير والحديث ؛ فعند مسلم قصة ضمام بن ثعلبة .

تسام الحول من وقت الإسلام ، فإن لم يملك إلا الإبل لم يلزمه إلا تعلم ذكاة الإبل ، وكذلك في سائر الاستناف ، فإذا دخل في أشهر الحج فلا يلزمه المبادرة إلى علم الحج مع أن فعله على التراخي فلا يكون تعلمه على الفور ، ولكن ينبغي لعلماء الإسلام أن ينهوه على أن الحج فرض على التراخي على كل من ملك الزاد والراحلة إذا كان هو مالكها حتى ربما يرى الحزم لنفسه في المبادرة فعند ذلك إذا عزم عليه لزمه تعلم كيفية الحج ولم يلزمه إلا تعلم أركانه وواجباته دون نوافله ، فإن فعل ذلك نقل فعله أيضاً نقل فلا يكون تعلمه فرض عين وفي تحريم السكوت عن التنبيه على وجوب أصل الحج في الحال نظر يليق بالفقه ، وهكذا التدرج في علم سائر الأفعال التي هي فرض عين . وأما التروك فيجب تعلم ذلك بحسب ما يتجدد من الحال ، وذلك يختلف بحال الشخص إذا لا يجب على الأبكم تعلم ما يحرم من السلام ، ولا على الأعشى تعلم ما يحرم من النظر ، ولا على البدي تعلم ما يحرم الجلوس فيه من المساكن ، فذلك أيضاً واجب بحسب ما يقتضيه الحال ، فما يعلم أنه ينفك عنه لا يجب تعلمه وما هو ملابس له يجب تنبيهه عليه كما لو كان عند الإسلام لبساً للحريز ، أو جالساً في المنصب ، أو ناظراً إلى غير ذى عزم : فيجب تعريفه بذلك وما ليس ملابساً له ولكنه يصد التفرص له على القرب كالأكل والشرب فيجب تعليمه ، حتى إذا كان في بلد يتعاطى فيه شرب الخمر وأكل لحم الخنزير فيجب تعليمه ذلك وتنبيهه عليه ، وما وجب تعليمه وجب عليه تعلمه . وأما الاعتقادات وأعمال القلوب فيجب عليها بحسب الخواطر ، فإن خطر له شك في المعاني التي تدل عليها كلنا الشهادة فيجب عليه تعلم ما يتوصل به إلى إزالة الشك . فإن لم يخطر له ذلك ومات قبل أن يعتقد أن كلام الله سبحانه قديم وأنه مرئي وأنه ليس محلاً للحوادث إلى غير ذلك مما يذكر في المعتقدات ، فقد مات على الإسلام إجماعاً ، ولكن هذه الخواطر الموجبة للاعتقادات بعضها يخطر بالعبع وبعضها يخطر بالسمع من أهل البلد ، فإن كان في بلد شاع فيه السلام وتناطح الناس بالبدع فينبغي أن يصاب في أول بلوغه عنها بتلقين الحق ، فإنه لو ألقى إليه الباطل لوجبت إزالته عن قلبه وربما عسر ذلك كما أنه لو كان هذا المسلم تاجراً وقد شاع في البلد معاملة الربا وجب عليه تعلم الحذر من الربا ، وهذا هو الحق في العلم الذي هو فرض عين ومعناه العلم بكيفية العمل الواجب ، فن علم العلم الواجب ووقت وجوبه فقد علم العلم الذي هو فرض عين ، وما ذكره الصوفية من فهم خواطر العدو ولة الملك حتى أيضاً ولكن في حق من يتصدى له ، فإذا كان الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواصي الشر والرياء والحسد فيلزمه أن يتعلم من علم ربح المهلكات ما يرى نفسه محتاجاً إليه ، وكيف لا يجب عليه وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، وإعجاب المرء بنفسه (١) » ولا ينفك عنها بشر ، وبقية ما سنذكره من مذمومات أحوال القلب كالكبّر والعجب وأخواتهما تتبع هذه الثلاث المهلكات ، وإزالتها فرض عين ، ولا يمكن إزالتها إلا بمعرفة حدودها ومعرفة أسبابها ومعرفة علاماتها ومعرفة علاجها : فإن من لا يعرف الشر يقع فيه ، والعلاج هو مقابلة السبب بضده . وكيف يمكن دون معرفة السبب والمسبب وأكثر ما ذكرناه في ربح المهلكات من فروض الأعيان ، وقد تركها الناس كافة اشتغالا بما لا يعنى . ومما ينبغي أن يبادر في إلقائه إليه إذا لم يكن قد انتقل عن ملة إلى ملة أخرى : الإيمان بالجنة والنار والحشر والنشر حتى يؤمن به ويصدق ، وهو من تمة كلتي الشهادة ، فإنه بعد التصديق بكونه عليه السلام رسولا

(١) حديث « ثلاث مهلكات : شح مطاع . . . الحديث » أخرجه البزار والطبراني وأبو نعيم والبيهقي في الشعب

من حديث أنس بإسناد ضعيف .

ينبغي أن يفهم الرسالة التي هو مبلغها : وهو أن من أطاع الله ورسوله فله الجنة ، ومن عصاهما فله النار ، فإذا انتهت لهذا التدرج علمت أن المذهب الحق هو هذا ، وتحققت أن كل عيب هو في مجاري أحواله في يومه وليت له لا يخلو من وقائع في عباداته ومعاملاته عن تجدد لوازم عليه فيلزمه السؤال عن كل ما يقع له من التوارد ويلزمه المبادرة إلى تعلم ما يتوقع وقوعه على القرب غالباً ، فإذا تبين أنه عليه الصلاة والسلام إنما أراد بالعلم المعرف بالآلف واللام في قوله صلى الله عليه وسلم « طلب العلم فريضة على كل مسلم » علم العمل الذي هو مشهور الوجوب على المسلمين لا غير ، فقد اتضح وجه التدرج ووقت وجوبه ، والله أعلم .

### بيان العلم الذي هو فرض كفاية

اعلم أن الفرض لا يتميز عن غيره إلا بذكر أقسام العلوم ، والمعلوم بالإضافة إلى الفرض الذي نحن بصدد تنقسم إلى شرعية وغير شرعية ، وأعني بالشرعية ما استفيد من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه . ولا يرشد العقل إليه مثل الحساب ، ولا التجربة مثل الطب . ولا السماع مثل اللغة . فالعلوم التي ليست بشرعية تنقسم إلى ما هو محمود وإلى ما هو مذموم وإلى ما هو مباح ، فالمحمود ما ترتبط به مصالح أمور الدنيا كالطب والحساب ، وذلك ينقسم إلى ما هو فرض كفاية وإلى ما هو فضيلة وليس بفريضة . أما فرض الكفاية فهو كل علم لا يستغنى عنه في قوام أمور الدنيا كالطب ، إذ هو ضروري في حاجة بقاء الأبدان ، وكالحساب فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والموارث وغيرهما ، وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عن يقوم بها خرج أهل البلد ، وإذا قام بها واحد كفي وسقط الفرض عن الآخرين ، فلا يتعجب من قولنا إن الطب والحساب من فروض الكفايات ، فإن أصول الصناعات أيضاً من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والحياطة ، فإنه لو خلا البلد من الحجامة تسارع الهلاك إليهم وخرجوا بتعريضهم أنفسهم للهلاك ، فإن الذي أنزل الداء أنزل الدواء وأرشد إلى استعماله وأعد الأسباب لعلاجيه ، فلا يجوز التعرض للهلك بأهماله . وأما ما بعد فضيلة لا فريضة فالتعمق في دقائق الحساب وحقائق الطب وغير ذلك مما يستغنى عنه ، ولكنه يفيد زيادة قوة في القدر المحتاج إليه . وأما المذموم منه فعلم السحر والطلسمات وعلم الشعبة والتلبسات . وأما المباح منه فالعلم بالأشعار التي لا تسخف فيها ، وتواريخ الأخبار وما يجري مجراه .

وأما العلوم الشرعية وهي المقصودة بالبيان : فهي محمودة كلها ولكن قد يلتبس بها ما يظن أنها شرعية ، وتكون مذمومة فنقسم إلى المحمودة والمذمومة . أما المحمودة فكلها أصول وفروع ومقدمات وتمتات وهي أربعة أحرب ( الضرب الأول ) الأصول : وهي أربعة كتاب الله عز وجل وسنة رسوله عليه السلام وإجماع الأمة وآثار الصحابة والإجماع أصل من حيث إنه يدل على السنة فهو أصل في الدرجة الثالثة ، وكذا الأثر فإنه أيضاً يدل على السنة ، لأن الصحابة رضی الله عنهم قد شاهدوا الوحي والتزيل وأدركوا بقرائن الأحوال ما غاب من تخيرهم أعيانه وربما لا تحيط العبارات بما أدرك بالقرآن ، فمن هذا الوجه رأى العلماء الاقتداء بهم والتسلك بآثارهم وذلك بشرط خصوص على وجه مخصوص عند من يراه ولا يليق ببيان هذا الفن ( الضرب الثاني ) الفروع : وهو ما فهم من هذه الأصول لا بموجب الفاظ بل بعمان تفهيمها العقول فأتسع بسببها الفهم حتى فهم من اللفظ الملفوظ به غيره كما فهم من قوله عليه السلام « لا يقضى القاضي وهو غضبان (١) » أنه لا يقضى إذا كان حاقناً أو جائناً أو متألماً بمرض ،

(١) حديث « لا يقضى القاضي وهو غضبان » متفق عليه من حديث أبي بكر .



وهذا على ضربين ، أحدهما : يتعلق بمصالح الدنيا ويحويه كتب الفقه والمتكفل به الفقهاء وهم علماء الدنيا . والثاني : ما يتعلق بمصالح الآخرة وهو علم أحوال القلب وأخلاقه المحمودة والمنمومة وما هو مرضى عند الله تعالى ، وما هو مكروه وهو الذي يحويه الشطر الأخير من هذا الكتاب ، أعني جملة كتاب إحياء علوم الدين ، ومنه العلم بما يترشح من القلب على الجوارح في عباداتها وعاداتها ، وهو الذي يحويه الشطر الأول من هذا الكتاب .

و (الضرب الثالث) المقدمات : وهي التي تجري منه مجرى الآلات كعلم اللغة والنحو ، فإنهما آلة لعلم كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وليست اللغة والنحو من العلوم الشرعية في أنفسهما ، ولكن يلزم الخوض فيهما بسبب الشرع إذ جاءت هذه الشريعة بلغة العرب وكل شريعة لا تظهر إلا بلغة فيصير تعلم تلك اللغة آلة ومن الآلات علم كتابة الخط إلا أن ذلك ليس ضرورياً إذ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً (١) . ولو تصور استقلال الحفظ بجميع ما يسمع لاستغنى عن الكتابة ، ولكنه صار بحكم المعجز في الغالب ضرورياً .

(الضرب الرابع) المتهمات : وذلك في علم القرآن ، فإنه ينقسم إلى ما يتعلق باللفظ كتعلم القراءات وغارح الحروف ، وإلى ما يتعلق بالمعنى كالتفسير ، فإن اعتاده أيضاً على النقل ، إذ اللغة بمجرد ما تستقل به وإلى ما يتعلق بأحكامه كعرفة الناسخ والمنسوخ والعام والخاص والنص والظاهر . وكيفية استعمال البعض منه مع البعض ، وهو العلم الذي يسمى أصول الفقه ويتناول السنة أيضاً . وأما المتهمات في الآثار والأخبار فالعلم بالرجال وأسمائهم وأنسائهم وأسماء الصحابة وصفاتهم ، والعلم بالمعادلة في الرواة ، والعلم بأحوالهم ليعين الضعيف عن القوى ، والعلم بأعمارهم ليعين المرسل عن المسند ، وكذلك ما يتعلق به ، فلهذه هي العلوم الشرعية وكلها عمودة بل كلها من فروع الكفائيات .

فان قلت : لم ألحق الفقه بعلم الدنيا ؟ فاعلم أن الله عز وجل أخرج آدم عليه السلام من التراب وأخرج ذريته من سلاله من طين ومن ماء دافق ، فأخرجهم من الأصلاب إلى الأرحام ومنها إلى الدنيا ثم إلى القبر ثم إلى العرض ثم إلى الجنة أو إلى النار ، فهذا مبدؤهم وهذه غايتهم وهذه منازلهم . وخلق الدنيا زاداً للبعد ليتناول منها ما يصلح للزود ، فلو تناولوها بالعدل لا تقطعت الخصومات وتعطل الفقهاء ولكنهم تناولوها بالشهوات فتوالت منها الخصومات فست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات ، فكان الفقيه معلماً للسلطان وشرده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنظيم باستقامتهم أمورهم في الدنيا ، ولعمري إنه متعلق أيضاً بالدين ولكن لا بنفسه بل بواسطة الدنيا ، فإن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا يتم الدين إلا بالدنيا . والملك والدين توأمان ، فالدين أصل والسلطان حارس ، وما لا أصل له قدوم ، وما لا حارس له فضاء ، ولا يتم الملك والضبط إلا بالسلطان وطريق الضبط في فصل الحكومات بالفقه . وكذا أن سياسة الخلق بالسلطنة ليس من علم الدين في الدرجة الأولى ، بل هو معين على ما لا يتم الدين إلا به ، فكذلك معرفة طريق السياسة فعلوم أن الحج لا يتم إلا ببذقة تحرس من العرب في الطريق ولكن الحج شيء وسلوك الطريق إلى الحج شيء . ثان ، والقيام بالحراسة التي لا يتم الحج إلا بها شيء ثالث ، ومعرفة طرق الحراسة وحيلها وقوانينها شيء رابع . وحاصل فن الفقه

(١) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمياً : أي لا يحسن الكتابة : أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً «أنا محمد النبي الأمي» وفيه ابن شعبة : ولابن حبان والدارقطني والحاكم والبيهقي وصححه من حديث ابن مسعود «قولوا اللهم صل على سيدنا محمد النبي الأمي» وللبخاري من حديث البراء «وأخذ الكتاب وليس يحسن يكتب» .

معرفة طرق السياسة والحراسة وبدل على ذلك ما روى مسنداً « لا يفق الناس إلا ثلاثة : أمير أو مأثور أو متكلف (١) » ، فالأمير هو الإمام وقد كانوا هم المفتون ، والمأثور نائبه ، والمتكلف غيرهما : وهو الذي يتقلد تلك المهنة من غير حاجة . وقد كان الصحابة رضی الله عنهم يجتزون عن الفتوى ، حتى كان يحيل كل منهم على صاحبه ، وكانوا لا يجتزون إذا سئلوا عن علم القرآن وطريق الآخرة . وفي بعض الروايات بدل المتكلف : المرائي ، فإن من تقلد خطر الفتوى وهو غير متمين للحاجة فلا يقصد به إلا طلب الجاه والمال .

فإن قلت : هذا إن استقام لك في أحكام الجراحات والحدود والغرامات وفصل الخصومات ، فلا يستقيم فيما يشتمل عليه ريع العبادات من الصيام والصلاة ولا فيما يشتمل عليه ريع المعاديات من المعاملات من بيان الحلال والحرام ، فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام ، فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر . أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يفتن فيه إلا إلى اللسان . وأما القلب فتخرج عن ولاية الفقيه لعزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرباب السيوف والسلطنة عنه حيث قال « هلا شققت عن قلبه ؟ » (٢) « الذي قتل من يتكلم بكلمة الإسلام معتذراً بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحرية ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف عند إلى رقبته واليد ممتدة إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تعصم رقبته وماله ما دام له رغبة ومال ، وذلك في الدنيا ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم » (٣) « جعل أثر ذلك في الدم والمال . وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها ، وليس ذلك من فن الفقه ، وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب ، وكان خارجاً عن فقهه . وأما الصلاة فالفقيه يفتي بالصحة إذا أتى بصورة الأعمال مع ظاهر الشروط وإن كان غافلاً في جميع صلاته من أولها إلى آخرها مشغولاً بالتفكير في حساب معاملاته في السوق إلا عند التكبير ، وهذه الصلاة لا تنفع في الآخرة ، كأن القول باللسان في الإسلام لا ينفع ، ولكن الفقيه يفتي بالصحة أي أن ما فعله حصل به امتثال صيغة الأمر وانقطع به عنه القتل والتعزير ، فأما الخشوع وإحسان القلب الذي هو عمل الآخرة وبه ينفع العمل الظاهر لا يتعرض له الفقيه ولو تعرض له لكان خارجاً عن فقهه . وأما الزكاة فالفقيه ينظر إلى ما يقطع به مطالبة السلطان حتى إنه إذا امتنع عن أدامها فأخذها السلطان قهرأ حكم بأنه برئت ذمته . وحكى أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول ويستوهب مالها إسقاطاً للزكاة ، لحكى ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه . وصدق فإن ذلك من فقهه الدنيا ولكن مضرة في الآخرة أعظم من كل جناية ، ومثل هذا هو العلم العار . وأما الحلال والحرام فالورع من الدين ، ولكن الورع له أربع مراتب :

( الأولى ) الورع الذي يشترط في عدالة الشهادة : وهو الذي يخرج بتركه الإنسان عن أهلية الشهادة والقضاء والولاية وهو الاحتراز عن الحرام الظاهر .

( الثانية ) ورع الصالحين : وهو التوقي من الشبهات التي يتقابل فيها الاختلالات . قال صلى الله عليه وسلم « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم « الإيمان حراز القلوب » (٥) .

(١) حديث « لا يفق الناس إلا ثلاثة . . . الحديث » أخرجه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بلفظ « لا يقض على الناس » وإسناده حسن . (٢) حديث « هلا شققت عن قلبه » أخرجه مسلم من حديث أسامة ابن زيد . (٣) حديث « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . . . الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعمر بن عمر . (٤) حديث « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » أخرجه الترمذي وصححه النسائي وابن جابر من حديث الحسن بن علي (٥) حديث « الإيمان حراز القلوب » أخرجه البيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود ، ورواه العدي في مسنده موقوفاً عليه .

(الثالثة) ورع المتقين وهو ترك الحلال المحض الذي يخاف منه أداؤه إلى الحرام. قال صلى الله عليه وسلم «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به مخافة ما به بأس» (١) «وذلك مثل التورع عن التحدث بأحوال الناس خيفة من الانجرار إلى الغيبة، والتورع عن أكل الشبوات خيفة من ميجان النشاط والبطر المؤدى إلى مقارفة المحظورات.

(الرابعة) ورع الصديقين وهو الإعراض عما سوى الله تعالى خوفاً من صرف ساعة من العمر إلى ما لا يفيد زيادة قرب عند الله عز وجل وإن كان يعلم ويتحقق أنه لا يفضي إلى حرام، فهذه الدرجات كلها غارجة عن نظر الفقيه إلا الدرجة الأولى : وهو ورع الشهود والقضاء وما يقدر في العدالة والقيام بذلك لا يثني الإثم في الآخرة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرواية «استفت قلبك وإن أفنوك وإن أفنوك وإن أفنوك» (٢) «والفقيه لا يتكلم في حرازات القلوب وكيفية العمل بها بل فيما يقدر في العدالة فقط، فإذا جنس نظر الفقيه مرتبط بالدين التي بها صلاح طريق الآخرة، فإن تكلم في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفل كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام، وكما تدخل الحكمة في النحو والشعر. وكان سفيان الثوري وهو إمام في علم الظاهر يقول : إن طلب هذا ليس من زاد الآخرة، كيف وقد اتفقوا على أن الشرف في العلم العمل به فكيف يظن أنه علم الظاهر والعمان والسلام والإجارة والصرف، ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون، وإنما العمل بالقلب والجوارح في الطاعات، والشرف هو تلك الأعمال.

فإن قلت : لم سويت بين الفقه والطب إذ الطب أيضاً يتعلق بالدنيا وهو صحة الجسد وذلك يتعلق به أيضاً صلاح الدين، وهذه التسوية تخالف إجماع المسلمين؟ فأعلم أن التسوية غير لازمة بل بينهما فرق، وأن الفقه أشرف منه من ثلاثة أوجه :

(أحدها) أنه علم شرعي إذ هو مستفاد من النبوة، بخلاف الطب فإنه ليس من علم الشرع.

(والثاني) أنه لا يستغنى عنه أحد من السالكين طريق الآخرة أئمة لا الصحيح ولا المريض. وأما الطب فلا يحتاج إليه إلا المريض وم الأتلون.

(والثالث) أن علم الفقه مجاور لعلم طريق الآخرة لأنه نظر في أعمال الجوارح، ومصدر أعمال الجوارح ومنشؤها صفات القلوب، فالمحمود من الأعمال يصدر عن الأخلاق المحمودة المنجية في الآخرة، والمذموم يصدر من المذموم، وليس يخفى اتصال الجوارح بالقلب. وأما الصحة والمرض فنشؤهما صفاء في المزاج والأخلاق وذلك من أوصاف البدن لا من أوصاف القلب، فهما أضيف للفقه إلى الطب ظهر شرعه، وإذا أضيف علم طريق الآخرة إلى الفقه ظهر أيضاً شرف علم طريق الآخرة.

فإن قلت : فصل لي علم طريق الآخرة تفصيلاً يشير إلى تراجعه وإن لم يمكن استقصاء تفصيله : فأعلم أنه قسبان : علم مكاشفة وعلم معاملة، فالقسم الأول علم المكاشفة وهو علم الباطن وذلك غاية العلوم، فقد قال بعض العارفين : من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة، وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله. وقال آخر : من كان فيه خصلتان لم يفتح له بشيء من هذا العلم : بدعة أو كبر. وقيل : من كان محباً للدنيا أو مصراً على هوى لم يتحقق به وقد يتحقق بسائر العلوم، وأقل عقوبة من ينسكركه أنه لا يتدقق منه شيئاً وينشد على قوله :

وارض لمن غاب عنك غيبته فذاك ذنب عاقبه فيه

وهو علم الصديقين والمقرئين، أعنى علم المكاشفة، فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عنده تطهيره وتركيبته من صفاته

(١) حديث «لا يكون الرجل من المتقين حتى يدع ما لا بأس به ... الحديث» أخرجه الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث السعدى.

(٢) حديث «استفت قلبك وإن أفنوك» أحمد من حديث وإبسة.

المضمومة ، وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة كان يسمع من قبل أسماءها فيتوهم لها معاني بجملة غير متضمنة ، فتتضح إذ ذاك حتى تحصل المعرفة الحقيقية بذات الله سبحانه ، وبصفاته الباقيات الثامات ، وبأفعاله ، وبحكمه في خلق الدنيا والآخرة ، ووجه ترتيبه للأخرة على الدنيا ، والمعرفة بمعنى النبوة والنبي ، ومعنى الوحي ، ومعنى الشيطان ، ومعنى لفظ الملائكة والشياطين ، وكيفية معاداة الشياطين للإنسان ، وكيفية ظهور الملك للأنبياء ، وكيفية وصول الوحي إليهم ، والمعرفة بملكوته السموات والأرض ، ومعرفة القلب وكيفية تصادم جنود الملائكة والشياطين فيه ، ومعرفة الفرق بين لمة الملك ولة الشيطان ، ومعرفة الآخرة والجنة والنار وعذاب القبر والصراف والميزان والحساب ، ومعنى قوله تعالى ﴿ اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ﴾ ومعنى قوله تعالى ﴿ وإن الدار الآخرة لفي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ ومعنى لقاء الله عز وجل والنظر إلى وجهه الكريم ومعنى القرب منه والازول في جواره ، ومعنى حصول السعادة بمرافقة الملائكة الأعلی ومقارنة الملائكة والتبيين ، ومعنى تفاوت درجات أهل الجنان حتى يرى بعضهم البعض كما يرى الكوكب الندى في جوف السماء ، إلى غير ذلك مما يطول تفصيله ، إذ للناس في معاني هذه الأمور بعد التصديق بأصولها مقامات شتى ، فبعضهم يرى أن جميع ذلك أمثلة وأن الذي أعده الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، وأنه ليس مع الخلق من الجنسة إلا الصفات والأسماء . وبعضهم يرى أن بعضها أمثلة وبعضها يوافق حقائقها المفهومة من ألفاظها ، وكذا يرى بعضهم أن منتهى معرفة الله عز وجل الاعتراف بالعجز عن معرفته ، وبعضهم يدعى أمورا عظيمة في المعرفة بالله عز وجل ، وبعضهم يقول حد معرفة الله عز وجل ما انتهى إليه اعتقاد جميع العوام : وهو أنه موجود عالم قادر سميع بصير متكلم ، فمنه يعلم المكاشفة أن يرتفع الغطاء حتى تتضح له جليلة الحق في هذه الأمور اتصافا يجرى مجرى العيان الذي لا يشك فيه ، وهذا ممكن في جوهر الإنسان لولا أن مرآة القلب قد تراكمت سدوها وخيبتها بقاذورات الدنيا ، وإنما نفق بعلم طريق الآخرة : العلم بكيفية تصفيل هذه المرأة عن هذه الخبائث التي هي الحجاب عن الله سبحانه وتعالى وعن معرفة صفاته وأفعاله ، وإنما تصفيتهما وتطهيرهما بالكشف عن الشهوات والافتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في جميع أحوالهم ، فيقدر ما ينتج من القلب ويحاذي به شطر الحق بتلا لا فيه حقائقه ، ولا سبيل إليه إلا بالرياضة التي يأتي تفصيلها في موضعهما ، وبالعلم والتعليم ، وهذه هي العلوم التي لا تسطر في الكتب ولا يتحدث بها من أنعم الله عليه بشيء منها إلا مع أهله ، وهو المشارك فيه على سبيل المذاكرة ، وبطريق الأسرار ، وهذا هو العلم الخفي الذي أرادته صلى الله عليه وسلم بقوله « إن من العلم كهية المسكون لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يفهموه إلا أهل الغرارة بالله تعالى فلا تحقروا عالما أنه الله تعالى علما منه ، فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه (١) » . وأما القسم الثاني : وهو علم المأملة ، فهو علم أحوال القلب . أما ما يحمد منها فكالصبر ، والشكر ، والخوف ، والرجاء ، والزهد ، والزهدة ، والتقوى ، والفتنة ، والسخاء ، ومعرفة المنة لله تعالى في جميع الأحوال ، والإحسان ، وحسن الظن ، وحسن الخلق ، وحسن المعاشرة ، والصدق ، والإخلاص ، فعرفة حقائق هذه الأحوال وحدودها وأسبابها التي بها تكسب وثمرتها وعلامتها ومعالجتها ما ضعف منها حتى يقوى وما زال حتى يعود من علم الآخرة .

(١) حديث « إن من العلم كهية المسكون ... الحديث » رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين له في التصوف من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف .

وأما ما يلم به غوف الفقر، وشغل المقدور، واللذل، والحقد، والحسد، والنش، وطلب الملو، وحسب الثناء، وحسب طول البقاء في الدنيا للتمتع، والكبر، والرياء، والغضب، والأنفة، والعداوة، والبغضاء، والطمع، والبخل، والرغبة، والبذخ، والأشر، والبطر، وتمظيم الأغنياء، والاستهانة بالفقراء، والفخر، والخيلاء، والتنافس، والمباهاة، والاستكبار عن الحق، والخوض فيما لا يعني، وحسب كثرة الكلام، والصلف، والتزين للخلق، والمداهنة، والمعجب، والاشتغال عن عيوب النفس بعيوب الناس، وزوال الحزن من القلب، وخروج الحشمية منه، وشدة الانتصار للنفس إذا نالها الذل، وضعف الانتصار للحق، واتخاذ إخوان العلانية على عداوة السر، والأمن من مكر الله سبحانه في سلب ما أعطى، والانتكال على الطاعة، والمكر، والخيانة، والمخادعة، وطول الأمل، والقسوة، والفظاظة، والفرح بالدنيا والأسف على قوتها، والأنس بالمخلوقين والوحشة لفراقهم والجفاء، والعليش، والمجلة، وقلة الحياء، وقلة الرحمة؛ فهذه وأمثالها من صفات القلب مفارس الفواحش ومناهب الأفعال المخطورة. وأضدادها - وهي الأخلاق الحمودة - منبع الطاعات والقرابات، فالعلم بحدود هذه الأمور وحققاتها وأسيابها وثمراتها وعلاجها هو علم الآخرة، وهو فرض عين في قوتى علماء الآخرة، فالمرضى عنها هالك بسطوة ملك الملوك في الآخرة، كما أن المريض عن الأعمال الظاهرة هالك بسيف سلاطين الدنيا بحكم قوتى فقهاء الدنيا، فنظر الفقهاء في فروض العين بالإضافة إلى صلاح الدنيا، وهذا بالإضافة إلى صلاح الآخرة. ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلا أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سأله عن اللعان والظهار والسب والرى لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقض الدور ولا يحتاج إلى شيء منها، وإن احتيج لم تغل البلد عن يقوم بها ويكفيه مؤنة التسبب فيها، فلا يزال يتمب فيها ليلا ونهارا وفي حفظه ودرسه ويفعل عما هو مهم نفسه في الدين؛ وإذا رجع فيه قال: اشتغلت به لأنه علم الدين وفرض الكفاية وبليس على نفسه وعلى غيره في تعلمه، والفقهاء يعلم أنه لو كان غرضه أداء حق الأمر في فرض الكفاية لقدم عليه فرض العين، بل قدم عليه كثيراً من فروض الكفايات، فكأن من بلدة ليس فيها طبيب إلا من أهل الذمة ولا يجوز قبول شهادتهم فيما يتعلق بالأطباء من أحكام الفقه، ثم لا نرى أحداً يشتغل به، ويتهاونون على علم الفقه لا سيما الخلافات والجذليات والبلد مشحون من الفقهاء بمن يشتغل بالفتوى والجواب عن الوقائع، فليت شعري كيف يرخص فقهاء الدين في الاشتغال بفروض كفاية قد قام به جماعة وإهمال ما لا قائم به؟ هل لهذا سبب إلا أن الطب ليس يتيسر الوصول به إلى تولى الأوقاف والوصايا وحياسة مال الأيتام وتقلد القضاء والحكومة والتقدم به على الأقران والتسلط به على الأعداء؟

هيات هيات، قد اندرس علم الدين بتليبس العلماء السوء، فأنه تعالى المستعان وإليه الملاذ في أن يميزنا من هذا الغرور الذي يسخط الرحمن ويضحك الشيطان، وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب: كان الإمام الشافعي رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي كما يقعد الصبي في المكتب ويسأله: كيف يفعل في كذا وكذا؟ فيقال له: مثلك يسأل هذا البدوي؟ فيقول: إن هذا وفق لما أغفلناه.

وكان أحمد بن حنبل رضي الله عنه ويعني بن معين ينفلسان إلى معروف الكرخي ولم يكن في علم الظاهر بمنزلة ما كانا يسألانه، وكيف وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لما قيل له: كيف نفعل إذا جاءنا أمر لم نجد فيه كتاب ولا سنة؟ فقال صلى الله عليه وسلم «سألو الصالحين واجعلوه شوى

بينهم (١)، ولذلك قيل : علماء الظاهر زينة الأرض والملك، وعلماء الباطن زينة السماء والملكوت وقال الجنيد رحمه الله : قال لي السري شينخي يوما : إذا قت من عندني فن تجالس ؟ قلت : المحاسن، فقال : نعم خذ من علمه وأدبه ، ودع عنك تشقيقه الكلام ورده على المتكلمين ، ثم لما وليت سمعته يقول : جعلك الله صاحب حديث صوفيا ولا جعلك صوفيا صاحب حديث : أشار إلى أن من حصل الحديث والعلم ثم تصوف أفصح ، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه .

فإن قلت : فلم لم تورد في أقسام العلوم : الكلام والفلسفة ، وتبين أنهما مذمومان أو محمودان ؟ فاعلم أن حاصل ما يشتمل عليه علم الكلام من الأدلة التي ينتفع بها ، فالقرآن والأخبار مشتملة عليه ، وما خرج عنهما فهو إما مجادلة مذمومة وهي من البدع كما سيأتي بيانه ، وإما مشاغبة بالمتعلق بتناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التي أكثرها ترهات وهذيانات ترددها الطلياع وتمجها الأسماح ، وبعضها خوض فيما لا يتعلق بالدين ولم يكن شيء منه مألوفا في العصر الأول وكان الخوض فيه بالكلفة من البدع ، ولكن تغير الآن حكمه إذ حدثت البدة الصارفة عن مقتضى القرآن والسنة ، ونبت جماعة لفقوا لها شبا وربوا فيها كلاما مؤلفا ، فصار ذلك المحذور بحكم الضرورة مأذونا فيه ، بل صار من فروض الكفايات وهو القدر الذي يقابل به المبتدع إذا قصد الدعوة إلى البدة ، وذلك إلى حد محدود - سنذكره في الباب الذي يلي هذا إن شاء الله تعالى - وأما الفلسفة فليست علما برأسها بل هي أربعة أجزاء (أحدها) الهندسة والحساب : وهما مباحان كما سبق ولا ينعت عنهما إلا من يخاف عليه أن يتجاوزهما إلى علوم مذمومة ، فإن أكثر الممارسين لها قد خرجوا منها إلى البدع ، فيصان الضعيف عنهما - لا لئيهما - كما يسان الصبي عن شاطئه النهر خيفة عليه من الوقوع في النهر ، وكما يسان حديث المهدي بالإسلام عن غائلة الكفار خوفا عليه ، مع أن القوى لا يندب إلى غالطهم (الثاني) المنطق : وهو بحث عن وجه الدليل وشروطه ، ووجه الحد وشروطه ، وهما داخلان في علم الكلام (الثالث) الإلهيات : وهو بحث عن ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته ، وهو داخل في الكلام أيضاً ، والفلاسفة لم ينفردوا فيها بنمط آخر من العلم ، بل انفردوا بمذاهب : بعضها كفر وبعضها بدعة ، وكما أن الاعتزال ليس علماً برأسه بل أعجابه طائفة من المتكلمين وأهل البحث والنظر انفردوا بمذاهب باطلة ، فكذلك الفلاسفة (الرابع) الطبيعات : وبعضها مخالف للشرح والدين الحق ، فهو جهل وليس بعلم حتى تورد في أقسام العلوم ، وبعضها يبحث عن صفات الأجسام وخواصها وكيفية استحالتها وتغيرها ، وهو شبيه بنظر الأطباء ، إلا أن الطبيب ينظر في بدن الإنسان على الخصوص من حيث يمرض ويصح ، وهم ينظرون في جميع الأجسام من حيث تتغير وتتحرك ، ولكن الطب فضل عليه وهو أنه يحتاج إليه . وأما علومهم في الطبيعيات فلا حاجة إليها فإذا الكلام صار من جملة الصناعات الواجبة على الكفاية حراسة لقلوب العوام عن تخيلات المبتدعة ، وإنما حدث ذلك بمحدث البدع كما حدثت حاجة الإنسان إلى استئجار البذرقة في طريق الحج بمحدث ظلم العرب وقطعهم الطريق ، ولو ترك العرب عدوانهم لم يكن استئجار الحراس من شروط طريق الحج ، فلذلك لو ترك المبتدع هذيانه لما اقتصر إلى الزيادة على ما عهد في عصر الصحابة رضي الله عنهم ، فليعلم المتكلم حده من الدين وأن موقعه منه موقع الحارس في طريق الحج ، فإذا تجرد الحارس للحراسة لم يكن من جملة الحاج ، والمتكلم إذا تجرد للنظر والمدافعة ولم يسلك طريق الآخرة ولم يشتغل بتعمد

(١) حديث : قيل له كيف تفعل إذا جاء أمر لم تجده في كتاب الله ولا سنة رسوله ؟ .. الحديث . رواه الطبراني

من حديث ابن عباس وفيه عبد الله بن كيسان ضعه الجمهور .

والقلب وصلاحه لم يكن من جملة علماء الدين أصلاً ، وليس عند المتكلم من الدين إلا العقيدة التي شاركة فيها سائر العوام وهي من جملة أعمال ظاهر القلب واللسان ، وإنما يتميز عن العوام بصنعة المجادلة والحراسة ، فأما معرفة الله تعالى وصفاته وأفعاله وجميع ما أشرنا إليه في علم المكاشفة فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد أن يكون الكلام حججاً با عليه وما نأمن عنه ، وإنما الوصول إليه بالمجاهدة التي جعلها الله سبحانه مقدمة للهداية حيث قال تعالى ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإى الله لمح المحسنين ﴾ . فإن قلت : فقد رددت حد المتكلم إلى حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة ، كما أن حد البذرقة حراسة أقشة الحجاج عن نهب العرب ، ورددت حد الفقيه إلى حفظ القانون الذى به يكف السلطان شر بعض أهل العدوان عن بعض ، وهاتان رتبتان نازلتان بالإضافة إلى علم الدين ، وعلماء الأئمة المشهورون بالفضل هم الفقهاء والمتكلمين وهم أفضل الخلق عند الله تعالى ، فكيف نزل درجتهم إلى هذه المنزلة السافلة بالإضافة إلى علم الدين ؟ فاعلم أن من عرف الحق بالرجال حارق متاهات الضلال ، فاعرف الحق تعرف أهله إن كنت سالكاً طريق الحق ، وإن قنعت بالتقليد والنظر إلى ما اشتهر من درجات الفضل بين الناس فلا تفعل عن الصحابة وعلق متصهم ، فقد أجمع الذين عرضت بذكرهم على تقديمهم وأنها لا يدرك في الدين شأوهم ولا يشق غبارهم ، ولم يكن تقديمهم بالكلام والفقهاء بل يعلم الآخرة وسلوك طريقها ، وما فضل أبو بكر رضى الله عنه الناس بكثرة صيام ولا صلاة ولا بكثرة رواية ولا فتوى ولا كلام ، ولكن بشيء وقر في صدره <sup>(١)</sup> كاشهده سيد المرسلين صلى الله تعالى عليه وسلم ، فليكن حرصك في طلب السر فهو الجوهر النفيس والدر المسكون ، ودع عنك ما يتطابق أكثر الناس عليه وعلى تفخيجه وتعليجه لأسباب ودواع يطول تفصيلها ، فلقد قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم عن آلاف من الصحابة رضى الله عنهم كلهم علماء بالله ، أنى عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم أحد يحسن صنعة الكلام ، ولا نصب نفسه لفتيا منهم أحد إلا بضعة عشر رجلاً ، ولقد كان ابن عمر رضى الله عنهما منهم ، وكان إذا سئل عن الفتيا يقول لسائل : اذهب إلى فلان الأمير الذى تقلد أمور الناس ، وضعا في عنقه إشارة إلى أن الفتيا في القضايا والأحكام من توابع الولاية والسلطنة ، ولما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود : مات تسعة أعشار العلم ، فقيل له : أتقول ذلك وفيما جملة الصحابة ؟ فقال : لم أرد علم الفتيا والأحكام وإنما أريد العلم بالله تعالى ، أفترى أنه أراد صنعة الكلام والجدل ، فما بالك لا تحرص على معرفة ذلك العلم الذى مات بموت عمر تسعة أعشاره ، وهو الذى سد باب الكلام والجدل وضرب ضيقاً بالدره لما أورد عليه سؤالا في تعارض آيتين في كتاب الله ، وهجره وأمر الناس بهجره وأما قولك إن المشهورين من العلماء هم الفقهاء والمتكلمون : فاعلم أن ما ينال به الفضل عند الله شيء وما ينال به الشهرة عند الناس شيء آخر ، فلقد كان شهرة أبي بكر الصديق رضى الله عنه بالخلافة وكان فضله بالسر الذى وقر في قلبه . وكان شهرة عمر رضى الله عنه بالسياسة وكان فضله بالعلم بالله الذى مات تسعة أعشاره بموته ، وبهذه التقرب إلى الله عن وجل في ولايته وعنده وشفقته على خلقه ، وهو أمر باطن في سره ، فأما سائر أفعاله الظاهرة فيتصور صدورها من طالب الجاه والامم والسعة والراغب في الشهرة ، فتكون الشهرة فيما هو المملك ، والفضل فيما هو سر لا يطلع عليه أحد ، فالفقهاء والمتكلمون مثل الخلفاء والقضاة والعلماء ، وقد انقسموا : ففهم من أراد الله سبحانه بعلمه وقواؤه عن

(١) حديث «ما فضل أبو بكر الناس بكثرة صلاة ولا بكثرة صيام . . الحديث» أخرجه الترمذى الحكيم في النوادر من قول أبي بكر بن عبد الله المزني ولم أجده مرفوعاً .

سنة فيه ولم يطلب به رياء ولا سمعة ، فأولئك أهل رضوان الله تعالى وفضلهم عند الله أعلمهم بعلومهم وإرادتهم وجه الله سبحانه يفتوهم ونظرهم ، فإن كل علم عمل فإنه فعل مكتسب ، وليس كل عمل علماً ، والطبيب يقدر على التقرب إلى الله تعالى بعلمه فيكون مثاباً على علمه من حيث إنه عامل الله سبحانه وتعالى به ، والسلطان يتوسط بين الخلق لله فيكون مرضياعند الله سبحانه ومثاباً ، لا من حيث إنه متكفل بعلم الدين ، بل من حيث هو متقصد بعمل يقصد به التقرب إلى الله عز وجل بعلمه ، وأقسام ما يتقرب به إلى الله تعالى ثلاثة : علم مجرد وهو علم المسكافة ، وعمل مجرد وهو كعدل السلطان مثلاً وضبطه للناس ، ومركب من عمل وعلم وهو علم طريق الآخرة فإن صاحبه من العلماء والعامل جميعاً ، فانظر إلى نفسك أنتكون يوم القيامة في حزب علماء الله ، وأعمال الله تعالى ، أو في حزبهما فتضرب بسهمك مع كل فريق منهما فهذا أهم عليك من التقليد لمجرد الاشتهار كما قيل :

خسذ ما تراه ودع شيئاً سمعت به في طلعة الشمس ما يفنيك عن زحل

على أنا سننقل من سيرة فقهاء السلف ما تعلم به أن الذين انتحلوا مذاهبهم ظلموهم وأنهم من أشد خصماهم يوم القيامة فانهم ما قصدوا بالعلم إلا وجه الله تعالى ، وقد شوهدهم أحوالهم ما هو من علامات علماء الآخرة كإسبغ يابانه في باب علامات علماء الآخرة ، فانهم ما كانوا متجردين لعلم الفقه بل كانوا مشغولين بعلم القلوب ومرقبين لها ، ولكن صرفهم عن التدريس والتصنيف فيه ما صرف الصحابة عن التصنيف والتدريس في الفقه ، مع أنهم كانوا فقهاء مستقلين بعلم الفتوى ، والصوراف والدواعي متيقنة ، ولا حاجة إلى ذكرها .

ونحن الآن نذكر من أحوال فقهاء الإسلام ما تعلم به أن ما ذكرناه ليس طعننا فيهم بل هو طعن فيمن أظمر الاقتداء بهم متحلاً بمذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم ، فالفقهاء الذين هم زعماء الفقه وقادة الخلق - أعنى الذين كثر أتباعهم في المذاهب خمسة : الشافعي ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وأبو حنيفة ، وسفيان الثوري ورحمهم الله تعالى . وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً بعلوم الآخرة وفقهاً في مصالح الخلق في الدنيا ومريداً بفقهه وجه الله تعالى ؛ فهذه خمس خصال اتبهم فقهاء العصر من جعلنا على خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفريع الفقه ، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة . وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة ، إن أريد بها الآخرة قل صلاحها للدنيا شمروا لها وادعوا بها مشابهة أولئك الأئمة . ومهات أن تقاس الملائكة بالحدادين ؛ قلن ودا لان من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع ؛ فان معرفتهم بالفقه ظاهرة .

أما الإمام الشافعي رحمه الله تعالى فيدل على أنه كان عائداً ؛ روى أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : نشأ للعلم ، ونشأ للعبادة ، وثلاثاً للنوم . قال الربيع : كان الشافعي رحمه الله يحتم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة . وكان البويطي أحد أصحابه يحتم القرآن في رمضان في كل يوم مرة . وقال الحسن الكرابيسي : بت مع الشافعي غير ليلة فسكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية . فإذا أكثر فأنه آية . وكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المسلمين والمؤمنين . ولا يمر بآية عذاب إلا نعوذ فيها وسأل النجاة لنفسه وللمؤمنين . وكانما جمع له الرجا والخوف معا . فانظر كيف يدل اقتضاه على تخمين آية على تبهر في أسرار القرآن وتدبر فيها وقال الشافعي رحمه الله : ما شبت منذ ست عشرة سنة لأن الشيع يشغل البدن ويقتى القلب ويزيل الفطنة ويحلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة . فانظر إلى حكمته في ذكر آفات الشيع ، ثم في جذه في العبادة إذ طرح الشيع لأجلها . ورأس التمدد تقليل الطعام . وقال الشافعي رحمه الله : ما حلفت بالله تعالى لأصادقاً ولا كاذباً قط . فانظر



إلى حرمة وتوقيره لله تعالى ، ودلالة ذلك على عله بجلال الله سبحانه . وسئل الشافعي رضى الله عنه عن مسألة فسكت ، فقيل له : ألا تجيب وحكم الله ؟ فقال : حتى أدري الفضل في سكوتي أو في جوابي ؟ فانظر في مراقبته للسانه مع أنه أشد الأعضاء تسلطاً على الفقه . وأعصاهما عن الضبط والقر ، وبه يستبين أنه كان لا يتكلم ولا يسكت إلا لنيل الفضل وطلب الثواب . وقال أحمد بن يحيى بن الوزير : خرج الشافعي رحمه الله تعالى يوماً من سوق القناديل فتبعناه فإذا رجل يسفه على رجل من أهل السلم ، فالتفت الشافعي إلينا وقال : نزهوا أجمعكم عن استماع الخنا كما تزهون أستمعكم عن النطق به ، فإن المستمع شريك الفاعل ، وإن السفیه لينظر إلى أخبت شيء في إنائه فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم ولو ردت كلمة السفیه لسعد رادها كما شق بها قائلها . وقال الشافعي رضى الله عنه : كتب حكم إلى حكيم : قد أوتيت علماً فلا تدنس علك بظلمة الذنوب تتبع في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم . وأما زهده رضى الله عنه فقد قال الشافعي رحمه الله : من ادعى أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها في قلبه فقد كذب . وقال الحليدي : خرج الشافعي رحمه الله إلى اليمن مع بعض الولاة فانصرف إلى مكة بعشرة آلاف درهم فضرب له خباء في موضع خارجاً من مكة فكان الناس يأمنونه ، فما برح من موضعه ذلك حتى فرقها كلها . وخرج من الحمام مرة فأعطى الحماي ما لا كثيراً . وسقط سوطه من يده مرة فرقمه إنسان إليه فأعطاه جزءاً عليه خمسين ديناراً . وبجوار الشافعي رحمه الله أشهر من أن تحكى ورأس الزهد السخاء . لأن من أحب شيئاً أسكبه ولم يفارق المال إلا من صغرت الدنيا في عينه وهو معنى الزهد . وبدل على قوة زهده وشدة خوفه من الله تعالى واشتغاله به بالآخرة : ما روى أنه روى سفيان بن عيينة حديثاً في الرقائق فغشى على الشافعي فقيل له : قد مات ، فقال : إن مات فقد مات أفضل زمانه . وما روى عبد الله بن محمد البلوي قال : كنت أنا وعمر بن نباته جلوساً نتذكر العباد والزهاد فقال لي عمر : ما رأيت أروع ولا أفصح من محمد بن إدريس الشافعي رضى الله عنه : خرجت أنا وهو والحارث بن لبید إلى الصفا وكان الحارث نزيل الصالح المري فافتتح يقرأ وكان حسن الصوت ، فقرأ هذه الآية عليه ﴿ هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ﴾ فرأيت الشافعي رحمه الله وقد تغير لونه واقتصر جلده واضطرب اضطراباً شديداً وخر منشيا عليه ، فلما أفاق جعل يقول : أعوذ بك من مقام الكاذبين وإعراض الغافلين ، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين ، إلهي هب لي جودك وجلتني بتركك وأعف عن تقصيري بكرم وجهك . قال : ثم مشى وانصرفنا فلما دخلت بغداد وكان هو بالعراق فقدعت على الشط أنوحاً للصلاة إذ مر بي رجل فقال لي : يا غلام أحسن وضوءك أحسن الله إليك في الدنيا والآخرة ، فالتفت فإذا أنا برجل يقبعه جماعة ، فأسرعت في وضوئي وجهمت أقفر أثره ، فالتفت إلى فقال : هل لك من حاجة ؟ فقلت : نعم ، تعلمي بما عليك الله شيئاً ، فقال لي : أعلم أن من صدق الله نجا ، ومن أشفق على دينه سلم من الردى ، ومن زهد في الدنيا قربت عيناه بما يراه من ثواب الله تعالى غدا ، أفلا أزيذك ؟ قلت : نعم . قال : من كان فيه ثلاث خصال فقد استكمل الإيمان : من أمر بالمعروف واتمى ونهى عن المنكر وانتهى ، وحافظ على حدود الله تعالى ، ألا أزيذك ؟ قلت : بلى ، فقال : كن في الدنيا زاهداً وفي الآخرة راغياً وأصدق الله تعالى في جميع أمورك تنج مع الناجين ، ثم معنى ، فسألت : من هذا ؟ فقالوا هو الشافعي فانظر إلى سقوطه منشيا عليه ، ثم إلى وعظه كيف يدل ذلك على زهده وغاية خوفه ! ولا يحصل هذا الخوف والزهد إلا من معرفة الله عز وجل فانه ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ ولم يستغف الشافعي رحمه الله هذا الخوف والزهد من علم كتاب السلم والإجارة وسائر كتب الفقه ، بل هو من علوم الآخرة المستخرجة من القرآن والأخبار إذ حكم الأولين والآخرين مودعة فيها .

وأما كونه عالماً بأسرار القلب وعلوم الآخرة فتعرفه من الحكم المأثورة عنه ، وروى أنه سئل عن الرياء فقال على البدنية : الرياء فتنة عقدها الهوى حيال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النورس فأحبطت أعمالهم .

وقال الشافعي رحمه الله تعالى : اذا أنت خفت على عملك العجب فانظر رضا من تطلب ؟ وفي أي ثواب ترغب ؟ ومن أي عقاب ترهب ؟ وأي عافية تشكر ؟ وأي بلاء تذكر ؟ فإنك اذا تفكرت في واحدة من هذه الخصال صغر في عينك عملك ، فانظر كيف ذكر حقيقة الرياء وعلاج العجب وهما من كبار آفات القلب .

وقال الشافعي رضي الله عنه : من لم يصن نفسه لم ينفعه عليه . وقال رحمه الله : من أطاع الله تعالى بالعلم نفعه سره . وقال : ما من أحد إلا له حب ومبغض ، فإذا كان كذلك فكأن مع أهل طاعة الله عز وجل ، وروى أن عبد القاهر بن عبد العزيز كان رجلاً صالحاً ورعاً وكان يسأل الشافعي رضي الله عنه عن مسائل في الورع والشافعي رحمه الله يقبل عليه لورعه ، وقال للشافعي يوماً : أيعسا أفضل الصبر أو المحنة أو التمكن ، فقال الشافعي رحمه الله : التمكن درجة الأنبياء ، ولا يكون التمكن إلا بعد المحنة ، فإذا امتحن صبر وإذا صبرمكن ، ألا ترى أن الله عز وجل امتحن إبراهيم عليه السلام ثم مكنته ، وامتحن موسى عليه السلام ثم مكنته ، وامتحن أيوب عليه السلام ثم مكنته وامتحن سليمان عليه السلام ثم مكنته وآتاه ملكاً ، والتمكن أفضل الدرجات ، قال الله عز وجل ﴿ وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ﴾ وأيوب عليه السلام بعد المحنة العظيمة مكناً ، قال الله تعالى ﴿ وآتيناه أهله ومثلهم معهم - الآية ﴾ فهذا الكلام من الشافعي رحمه الله يدل على تبحره في أسرار القرآن وإطلاعه على مقامات السائرين إلى الله تعالى من الأنبياء والأولياء ، وكل ذلك من علوم الآخرة .

X وقيل للشافعي رحمه الله : متى يكون الرجل عالماً ؟ قال : إذا تحقق في علم قلبه ، وتعرض لاسرار العلوم فنظر فيما فاتة فمئذ ذلك يكون عالماً ، فإنه قيل لجالينوس إنك تأمر الداء الواحد بالأدوية الكثيرة الجمجمة ؛ فقال : إنما المقصود منها واحد وإنما يجعل معه غيره لتسكن حدة لأن الأفراد قاتل ، فهذا وأمثاله مما لا يحصى يدل على علو وتبته في معرفة الله تعالى وعلوم الآخرة .

وأما إرادته بالفقه والمناظرة فيه وجه الله تعالى : فيدل عليه ما روى عنه أنه قال : وددت أن الناس انتفعوا بهذا العلم وما نسب إلى شيء منه ، فانظر كيف اطلع على آفة العلم وطلب الاسم له وكيف كان منزله القلب عن الالتفات إليه مجرد التنية فيه لوجه الله تعالى . وقال الشافعي رضي الله عنه : ما ناظرت أحداً قط فأحجبت أن يخطئ . وقال : ما كلمت أحداً قط الا أحجبت أن يوفق ويسدد ويمان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ ، وما كلمت أحداً قط وأنا أبالي أن يبين الله الحق على لساني أو على لسانه . وقال : ما أوردت الحق والحجة على أحد فقبلها مني إلا هبته واعتقدت بحجتي ، ولا كابرني أحد على الحق ودافع الحجة الا سقط من عيني ورفضت ، فهذه العلامات هي التي تدل على إرادة الله تعالى بالفقه والمناظرة ، فانظر كيف تابعه الناس من جملة هذه الخصال الخمس على خصلة واحدة فقط ، ثم كيف خالفوه فيها أيضاً . ولهذا قال أبو ثور رحمه الله : ما رأيت ولا رأى الرامون مثل الشافعي رحمه الله تعالى . وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : ما صليت صلاة منذ أربعين سنة الا وأنا أدعو للشافعي رحمه الله تعالى ، فانظر إلى انصاف الداعي وإلى درجه المدعو له وقس به الأقران والأمثال من العلماء في هذه الأعصار وما بينهم من المشاحنة والبغضاء لتعلم قصصهم في دعوى الانتداء بهؤلاء . ولكثرة دعائه له قال له ابنه : أي رجل كان الشافعي حتى تدعو له كل هذا الدعاء ؟ فقال أحمد : يا بني كان الشافعي رحمه الله تعالى كالشمس للدنيا وكالعافية للناس ، فانظر هل لذين من خلف ، وكان أحمد رحمه الله يقول : ما مس أحد بيده عبرة إلا وللشافعي رحمه الله في عنقه منه . وقال يحيى بن سعيد القطان :

ما صليت صلاة منذ أربعين سنة إلا وأنا أدعو فيها الشافعي لما فتح الله عز وجل عليه من العلم ووفقه للسادد فيه . ولتفصر على هذه التبعة من أحواله فإن ذلك خارج عن الحصر ، وأكثر هذه المناقب ثقلناه من الكتاب الذي صنفه الشيخ نصر بن إبراهيم المقدسي رحمه الله تعالى في مناقب الشافعي رضي الله عنه وعن جميع المسلمين .

وأما الإمام مالك رضي الله عنه فإنه كان أيضاً متجلياً بهذه الخصال الخمس ، فإنه قيل له : ما تقول بإمالك في طلب العلم ؟ فقال : حسن جميل ولكن انظر إلى الذي يلزمك من حين تصعب إلى حين تيسر ، فإلهامه ، وكان رحمه الله تعالى في تعظيم علم الدين مبالغة ، حتى كان إذا أراد أن يحدث تواضعاً وجاس على صدر قراشه وسرح لحيته واستعمل الطيب وتمسك من الجلوس على وقار وهيبة ثم حدث ، فقيل له في ذلك فقال : أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال مالك : العلم نور يجعله الله حيث يشاء وليس بكثرة الرواية ، وهذا الاحترام والتوقير يدل على قوة معرفته بجلال الله تعالى . وأما إرادته وجهه الله تعالى بالعلم فيدل عليه قوله : الجدال في الدين ليس بشيء . ويدل عليه قول الشافعي رحمه الله : إنني شهدت مالكا وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها : لا أدري . ومن يرد غير وجهه الله تعالى بعلمه فلا تسمع نفسه بأن يقر على نفسه بأنه لا يدري ، ولذلك قال الشافعي رضي الله عنه : إذا ذكر العلماء فإلك النجم الثاقب ، وما أحد أمن على من مالك . وروى أن أبا جعفر المنصور منعه من رواية الحديث في طلاق المسكوك ثم دس عليه من يسأله ، فروى على ملا من الناس : ليس على مسكوك طلاق ، فنهزه بالسياط ، ولم يترك رواية الحديث . وقال مالك رحمه الله : ما كان رجل صادقاً في حديثه ولا يكذب إلا متع به قوله ولم يصبه مع الهرم آفة ولا خرف . وأما زهده في الدنيا فيدل عليه ما روى أن المهدي أمير المؤمنين سأله فقال له : هل لك من دار ؟ فقال : لا ولكن أحدثك « سمعت ربيعة بن أبي عبد الرحمن يقول : نسب المرء داره « وسأله الرشيد : هل لك دار ؟ فقال : لا ، فأعطاه ثلاثة آلاف دينار وقال : اشتر بها داراً فأخذها ولم ينفعها ، فلما أراد الرشيد الشيوخ قال لمالك رحمه الله : ينبغي أن تخرج معنا فاني حرمت على أن أحل الناس على الموطأ كما حمل عثمان رضي الله عنه الناس على القرآن ، فقال له : أما حل الناس على الموطأ فليس إليهم سبيل ، لأن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا بعده في الأمصار فخذوا ، فمعد كل أهل مصر علم وقد قال صلى الله عليه وسلم « اختلاف أمي رحمه الله » وأما الخروج معك فلا سبيل إليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المدنية خير لهم لو كانوا يعلمون » (١) وقال عليه الصلاة والسلام « المدنية تنفي خبثها كما ينفي السكر خبث الحديد » (٢) وهذه دنائيركم كما هي إن شئتم فخذوها وإن شئتم فدعوها ، يعني أنك إنما تتكلف في مفارقة المدنية لما اصطغته إلى فلا أوثر الدنيا على مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكذلك كان زهد مالك في الدنيا . ولما حلت إليه الأموال الكثيرة من أطراف الدنيا لا انتشار علمه وأصحابه كان يفرقها في وجوه الخير ، ودل سخاؤه على زهده وقلة حبه للدنيا وليس الزهد فقد المال ، وإنما الزهد فراغ القلب عنه ولقد كان سليمان عليه السلام في ملكه من الزهاد . ويدل على احتقاره للدنيا ما روى عن الشافعي رحمه الله أنه قال : رأيت على باب مالك كراعاً من أفراس خراسان ويقال مصرماً رأيت أحسن منه فقلت لمالك رحمه الله : ما أحسنه فقال : هوهدي في إليك يا أبا عبد الله ، فقلت : دع لنفسك منها دابة تركها

(١) حديث « اختلاف أمي رحمه الله » ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية تعليقا وأسنده في الدخل من حديث ابن عباس بلفظ « اختلاف أصحابي لكم رحمه الله » وإسناده ضعيف (٢) حديث « المدنية خير لهم لو كانوا يعلمون » متفق عليه من حديث سفيان بن أبي زهير (٣) حديث « المدنية تنفي خبثها » . . . الحديث « متفق عليه من حديث أبي هريرة .

فقال : إني أستحي من الله تعالى أن أطأ تربة نبي الله صلى الله عليه وسلم بحافر دابة ، فانظر إلى سخائه إذ وهب جميع ذلك دفعة واحدة وإلى توقيره لتربة المدينة . ويدل على إرادته بالعلم وجه الله تعالى واستحقاقه للدنيا : ما روى أنه قال دخلت على هارون الرشيد فقال لي : يا أبا عبد الله ينبغي أن تختلف إلينا حتى يسمع صبياننا منك الموطأ . قال : فقلت أعز الله مولانا الأمير ، إن هذا العلم منك خرج فإن أتم أعزتموه وإن أتم أذلتموه ذل والعلم يؤق ولا يأتى ، فقال : صدقت ، أخرجوا إلى المسجد حتى تسمعوا مع الناس .

وأما أبو حنيفة رحمه الله تعالى فلقد كان أيضاً عابداً زاهداً ، عارفاً بالله تعالى ، خائفاً منه ، يريد أن يرجع الله تعالى بعلمه ، فأما كونه عابداً فيعرف بما روى عن ابن المبارك أنه قال : كان أبو حنيفة رحمه الله له مروة وكثرة صلاة . وروى حماد بن أبي سليمان أنه كان يحيى الليل كله . وروى أنه كان يحيى نصف الليل فربما في طريق فأشار إليه إنسان وهو يمشى فقال لآخر : هذا هو الذى يحيى الليل كله ، فلم يزل بعد ذلك يحيى الليل كله وقال : أنا أستحي من الله سبحانه أن أوصف بمالبس في من عبادته . وأما زهده فقد روى عن الربيع بن عاصم قال : قال أرسلني يزيد بن عمر بن هبيرة فقدمت بأبي حنيفة عليه ، فأراده أن يكون حاكماً على بيت المال فأبى ، فضربه عشرين سوطاً . فانظر كيف هرب من الولاية واحتمل العذاب ؛ قال الحكم بن هشام الثقفى : حدثت بالشام حديثاً في أبي حنيفة أنه كان من أعظم الناس أمانة وأراده السلطان على أن يتولى مفتاح خزائنه أو يضرب ظهره فاختر عذابهم له على عذاب الله تعالى . وروى أنه ذكر أبو حنيفة عند ابن المبارك ، فقال : أتذكرون رجلاً عرضت عليه الدنيا بخلافها ففرضها ، وروى عن محمد بن شعاع عن بعض أصحابه أنه قيل لأبي حنيفة : قد أمر لك أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور بعشرة آلاف درهم . قال : فما رضى أبو حنيفة ، قال : فلما كان اليوم الذى توقع أن يؤتى بالمال فيه صلى الصبح ثم تغشى بثوبه فلم يتكلم ، فجاء رسول الحسن بن قسطنطين بالمال ، فدخل عليه ، فلم يكلمه ، فقال بعض من حضر : ما يكلمنا إلا بالكلمة بعد الكلمة ، أى هذه عادته . فقال : ضعوا المال في هذا الجراب في زاوية البيت ، ثم أوصى أبو حنيفة بعد ذلك بمتاع بيته وقال لابنه : إذا مت ودفنتموني فخذ هذه البكرة واذهب بها إلى الحسن ابن قسطنطين فقل له : خذ وديعتك التى أودعتها أبا حنيفة . قال ابنه : ففعلت ذلك ، فقال الحسن : رحمه الله على أبيك فلقد كان شحيحاً على دينه . وروى أنه دعى إلى ولاية القضاء فقال : أنا لا أصالح لهذا ، فقيل له : لم ؟ فقال : إن كنت صادقاً فما أصالح لها ، وإن كنت كاذباً فالكاذب لا يصلح للقضاء . وأما علمه بطريق الآخرة وطريق أمور الدين ومعرفة الله عز وجل فيدل عليه شدة خوفه من الله تعالى وزهده في الدنيا ، وقد قال ابن جريج : قد بلغنى عن كوفيم هذا الثمان بن ثابت أنه شديد الخوف لله تعالى . وقال شريك النخعي : كان أبو حنيفة طويل الصمت دائم الفكر قليل المحادثة للناس ، فهذا من أوضاع الأمارات على العلم الباطنى والاشتغال بمهمات الدين ، فمن أوقى الصمت والزهد أوقى العلم كله ، فهذه نبذة من أحوال الأئمة الثلاثة .

وأما الإمام أحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمهما الله تعالى أتباعهما أقل من أتباع هؤلاء ، وسفيان أقل أتباعاً من أحمد ، ولكن اشتهارهما بالورع والزهد أظهر ، وجميع هذا الكتاب مشعوم بحكايات أفعالها وأقوالها فلا حاجة إلى التفصيل الآن ، فانظر الآن في سير هؤلاء الأئمة الثلاثة وتأمل أن هذه الأحوال والأقوال والأفعال في الإعراض عن الدنيا والتجرد لله عز وجل هل يشمرها مجرد العلم بفروع الفقه من معرفة السلم والإجارة والظفار والإبلاء واللحان ، أو يشمرها علم آخر أعلى وأشرف منه ، وانظر إلى الذين ادعوا الاقتداء هؤلاء أصدقوا في دعواهم أم لا .

## الباب الثالث

## فما يمدحه العامة من العلوم المحموده وليس منها

وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموماً وبيان تبديل أسامى العلوم وهو الفقه والعلم والتوحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها .

( بيان علة ذم العلم المذموم ) لعلمك تقول : العلم هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علماً ويكون مع كونه علماً مذموماً ؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حق العباد لأحد أسباب ثلاثة :

( الأول ) أن يكون مؤدياً إلى ضرر ما إما لصاحبه أو لغيره ، كما يذم علم السحر والطلسمات وهو حق ، إذ شهد القرآن له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين الزوجين ، وقد نص<sup>(١)</sup> رسول الله صلى الله عليه وسلم ومرضى بسببه حتى أخبره جبريل عليه السلام بذلك وأخرج السحر من تحت حجر في قعر بئر ، وهو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر وبأموال حسابية في مطالع النجوم ، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور ويرصد به وقت مخصوص من المطالع وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرح ، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين ، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور ، ومعرفة هذه الأسباب من حيث إنساب معرفة ليست بمذمومة ولكنها ليست تصلح إلا للإعترار بالخلق والوسيلة إلى الشر شر ، فكان ذلك هو السبب في كونه علماً مذموماً ، بل من أتبع ولياً من أولياء الله ليقتله وقد اختفى منه في موضع حريز إذا سأل الظالم عن محله لم يجر تنبيهه عليه ، بل وجب الكذب فيه ، وذكر موضعه إرشاد وإفادة علم بالشئ على ما هو عليه ، ولكنه مذموم لأدائه إلى الضرر .

( الثاني ) أن يكون مضرراً بصاحبه في غالب الأمر ، كعلم النجوم ، فإنه في نفسه غير مذموم لذاته ، إذ هو قسبان : قم حسابي ، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب ، إذ قال عز وجل ﴿ الشمس والقمر بحسبان ﴾ وقال عز وجل ﴿ والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ﴾ . والثاني : الأحكام ، وحاصله يرجع إلى الاستدلال على الحوادث بالأسباب وهو يضاهي استدلال الطبيب بالنبض على ما سيحدث من المرض ، وهو معرفة تجارى سنة الله تعالى وعادته في خلقه ، ولكن قد ذم الشرح . قال صلى الله عليه وسلم « إذا ذكر القدر فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا ، وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « أخاف على أمي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة ، والإيمان بالنجوم ، والتكذيب بالقدر » (٣) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : تعلموا من النجوم ما تهتدون به في البر والبحر ثم أمسكوا ، وإنما زجر عنه من ثلاثة أوجه :

أحدها : أنه مضر بأكثر الخلق ، فإنه إذا ألقى إليهم أن هذه الآثار تحدث عقيب سير الكواكب ، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة ، وأنها الالهة المدبرة لأنها جواهر شريفة متماوية ، ويعظم وقعها في القلوب فينبغي القلب

## الباب الثالث

(١) حديث « سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم » متفق عليه من حديث عائشة

(٢) حديث « إذا ذكر القدر فأمسكوا . . . الحديث » رواه الطبراني من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

(٣) حديث « أخاف على أمي بعدى ثلاثاً : حيف الأئمة . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث

أبي عجين بإسناد ضعيف .

ملحقاً لإليها، ويرى الخيروالشر محذورا أو مرجوا من جهتها، ويثنى ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف بقصر نظره على الوسائط، والعالم الراسخ هو الذي يطلع على أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره سبحانه وتعالى، ومثال نظر الضعيف إلى حصول ضوء الشمس عقيب طلوع الشمس، مثال الغفلة وخفاها عقل وكانت على سطح قمراس وهي تنظر إلى سواد الخط يتجدد، فتعتقد أنه فعل القلم ولا ترقى في نظرها إلى مشاهدة الأصابع، ثم منها إلى اليد، ثم منها إلى الإرادة المحركة لليد، ثم منها إلى الكائنات القادر المريد، ثم منه إلى خالق اليد والقدرة والإرادة، فأكثر نظر الخلق مقصور على الأسباب القريبة السافلة، مقطوع من الترقى إلى مسبب الأسباب، فهذا أحد أسباب النهي عن النجوم.

وثانها: أن أحكام النجوم تخمين محض ليس يدرك في حق أحاد الأشخاص لا يقينا ولا ظنا، فالحكم به حكم جهول، فيكون ذمه على هذا من حيث إنه جهول لا من حيث إنه علم، فلقد كان ذلك معجزة لإدريس عليه السلام فيما يحكى وقد اندرس وانحى ذلك العلم وانحى، وما يتفق من إصابة المنجم على تدور فهو اتفاق لأنه قد يطلع على بعض الأسباب ولا يحصل المسبب عقيما إلا بعد شروط كثيرة ليس في قدرة البشر الإطلاع على حقائقها، فإن اتفق أن قدر الله تعالى بقية الأسباب وقعت الإصابة، وإن لم يقدر خطأ، ويكون ذلك كتخمين الإنسان في أن السماء تمطر اليوم مهما رأى الغيم يجتمع وينبعث من الجبال فيتحرك ظنه بذلك، وربما يحسّ النهار بالشمس وبذهب الغيم، وربما يكون بخلافه، وبمجرد الغيم ليس كافيا في بحى المطر وبقية الأسباب لا تدري، وكذلك تخمين الملاح أن السفينة تسلم اعتادا على ما ألفه من العادة في الرياح وتلك الرياح أسباب خفية هو لا يطلع عليها، فتارة يصيب في تخمينه وتارة يخطئ، ولهذا العلّة يمنع القوى عن النجوم أيضا.

ثالثها: أنه لا فائدة فيه، فأقل أحواله أنه خوض في فضول لا يقنى وتضييع العمر الذي هو أنفس بضاعة الإنسان في غير فائدة وذلك غاية الحسران، فقد مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون عليه فقال « ما هذا ؟ فقالوا : رجل علامة . فقال : بماذا ؟ قالوا بالشعر وأنساب العرب . فقال : علم لا ينفع وجمل لا يضر (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إنما العلم آية محكمة أو سنة قائمة أو فريضة عادلة » فإذا خوض في النجوم وما يشبه اقتحام خطر وخوض في جهالة من غير فائدة، فإن ما قدركا، والاحترار منه غير ممكن، بخلاف الطلب فإن الحاجة ماسة إليه وأكثر أدلة بما يطلع عليه، وبخلاف التعبير وإن كان تخميناً لأنه جزء من النبوة ولا خطر فيه.

( السبب الثالث ) الخوض في علم لا يستفيد الخائض فيه فائدة علم، فهو مذموم في حقه كتعلم دقيق العلوم قبل جليها، وخفيها قبل جليها، وكالبحث عن الأسرار الإلهية، إذ يطلع الفلاسفة والمتكلمون عليها ولم يستقروا بها، ولم يستقل بها وبالوقوف على طرق بعضها إلا الأنبياء والأولياء، فيجب كف الناس عن البحث عنها وردم إلى ما نفاق به الشرع، ففي ذلك مقنع للبوق، فكمن شخص خاض في العلوم واستضر بها ولو لم ينض فيها لكان حاله أحسن في الدين بما صار إليه ولا يتكرر كون العالم ضارا لبعض الناس كما يضر لحم الطير وأنواع الحلى اللطيفة بالصبي الرضيع، بل رب شخص ينفعه الجهل ببعض الأمور، فلقد حكى أن بعض الناس شكاً إلى طبيب عقم امرأة وأنها لا تلد، فجلس الطبيب نبضها وقال : لا حاجة لك إلى دواء الولادة فإنك ستوتين إلى

(١) حديث : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل والناس مجتمعون فقال « ماهذا ؟ فقالوا : رجل علامة . الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث أبي هريرة وضعفه . وفي آخر الحديث « إنما العلم آية محكمة ... إلى آخره » وهذه القطعة عند أبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر .

أربعين يوماً ، وقد دل النيص عليه ، فاستشمرت المرأة الخوف العظيم وتنقص عليها عيشها ، وأخرجت أمها لها وفرقتها ، وأوصت ، وبقيت لا تأكل ولا تشرب حتى انقضت المدة فلم تمت ، فجاء زوجها إلى الطبيب وقال له : لم تمت ؟ فقال الطبيب : قد علمت ذلك ، فجاءها الآن فأبها تله ، فقال : كيف ذاك ؟ قال : رأيتها سميكة وقد انقعد الشحم على فم رحها ، فسلمت أنها لا تهزل إلا بخوف الموت ، نظفوها بذلك حتى هزلت وزال المانع من الولادة . فهذا ينهك على استئصال خطر بعض العلوم ويفهمك معنى قوله صلى الله عليه وسلم « نفوذ بالله من علم لا ينفع »<sup>(١)</sup> فاعبر بهذه الحسكة ولا تكن يحائناً عن علوم هذه الشرع وزجر عنها ، ولازم الاقتداء بالصحابه قرضي الله عنهم ، واقصر على اتباع السنة ، فالسلامة في اتباعه والخطر في البحث عن الأشياء والاستقلال ، ولا تكثر اللجج برأيك ومعقولك ودليلك وبرهانك وزعمك أني أبحت عن الأشياء لأعرفها على ما هي عليه ، فأبى ضرر في التفسر في العلم فإن ما يعود عليك من ضرره أكثر ، وكمن شيء تطلع عليه فيضرك اطلاعك عليه ضرراً يكاد يهلكك في الآخرة إن لم يتداركك الله برحمته . واعلم أنه كما يطلع الطبيب الحاذق على أسرار في المعالجات يستبعد ما من لا يعرفها ، فكذلك الأنبياء أطباء القلوب والعلماء بأسباب الحياة الآخرة ، فلا تحكم على سنتهم بمعقولك فتهلك ، فكم من شخص يصيبه عارض في أصعبه فيقتضي عقله أن يطليه ، حتى ينبهه الطبيب الحاذق أن علاجه أن يغطي الكسف من الجانب الآخر من البدن فيستبعد ذلك غاية الاستبعاد من حيث لا يعلم كيفية انشعاب الأعصاب ومنابتها ووجه التضام على البدن ؟ فكذلك الأمر في طريق الآخرة ، وفي دقائق سنن الشرع وآدابه ، وفي عقائده التي تعبد الناس بها أسرار ولطائف ليست في سعة العقل وقوته الإحاطة بها ، كما أن في خواص الأحجار أموراً عجائب غاب عن أهل الصنعة علمها حتى لم يقدر أحد على أن يعرف السبب الذي به يجذب المغناطيس الحديد ، فالعجائب والغرائب في العقائد والأعمال ، وإفادتها لصفاء القلوب وتقاها وطهارتها وتزكيتها وإصلاحها للترقي إلى جوار الله تعالى وتعرضها لنفحات فضله أكثر وأعظم مما في الأدوية والعقاقير ، وكأن العقول تقصر عن إدراك منافع الأدوية مع أن التجربة سبيل إليها . فالحقول تقصر عن إدراك ما ينفع في حياة الآخرة مع أن التجربة غير متطرفة إليها ، وإنما كانت التجربة تطرق إليها لو رجع إلينا بعض الأموات فأخبرنا عن الأعمال المقبولة النافعة المقربة إلى الله تعالى زلني وعن الأعمال المييدة عنه ، وكذا عن العقائد ، وذلك مما لا يطلع فيه فيكفيلك من منفعة العقل أن يهديك إلى صدق النبي صلى الله عليه وسلم ويفهمك موارد إشارته ، فاعزل العقل بعد ذلك عن التصرف ولازم اتباع فلا تسلم إلا بهو السلام ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من العلم جهلاً وإن من القول عيا »<sup>(٢)</sup> ومعلوم أن العلم لا يكون جهلاً ولكنه يؤثر تأثير الجبل في الإضرار . وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم »<sup>(٣)</sup> وقال عيسى عليه السلام : ما أكثر الشجر وليس كلها بشعر ، وما أكثر الثمر وليس كلها بطيب ، وما أكثر العلوم وليس كلها بنافع .

### بيان ما بدل من ألفاظ العلوم

أعلم أن منشأ التباس العلوم المذمومة بالعلوم الشرعية تحريف الأسماء المحمودة وتبديلها ونقلها بالأغراض

(١) حديث « نفوذ بالله من علم لا ينفع » أخرجه ابن عبد البر من حديث جابر بسند حسن ، وهو عند ابن ماجه بلفظ « نفوذوا » وقد تقدم .

(٢) حديث « إن من العلم جهلاً . . الحديث » رواه أبو داود من حديث بريدة وفي إسناده من يجهل .

(٣) حديث « قليل من التوفيق خير من كثير من العلم » لم أجده أصلاً ، وقد ذكره صاحب القردوس من حديث أبي الدرداء ، وقال « العقل » بدل العلم ، ولم يخرج له ولده في مسنده .

الفاسدة إلى معان غير ما أراد السلف الصالح والقرن الأول ، وهى خمسة ألفاظ : الفقه ، والعام ، والتوحيد ، والتذكير ، والحكمة ، فهذه أسام محدودة ، والمتصفون بها أرباب المناصب في الدين ، ولكنها نقلت الآن إلى معان مضمومة ، فصارت القلوب تنشر عن مزمة من يتصف بمعانها لشيوخ إطلاق هذه الاسام عليهم .

(اللفظ الأول) الفقه ، فقد تصرفوا فيه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل ، إذ خصصوه بمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى والوقوف على دقائق علمها واستكثار الكلام فيها وحفظ المقالات المتعلقة بها ، فن كان أشد تعمقا فيها وأكثر اشتغالا بها يقال هو الألفقه ، ولقد كان اسم الفقه في العصر الأول مطلقا على علم طريق الآخرة ومعرفة دقائق آفات النفوس ومفسدات الأعمال وقوة الإحاطة بحقارة الدنيا وشدة التطلع إلى نعيم الآخرة واستيلاء الخوف على القلب ، وبذلك عليه قوله عز وجل ( ليتفقهوا في الدين ) لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم ) وما يحصل به الإنذار والتخويف هو هذا الفقه دون تفريعات الطلاق والعنق واللعان والسلم والإجارة ، فذلك لا يحصل به إنذار ولا تخويف ، بل التجرد له على الدوام يقضى القلب وينزع الحشية منه كما نشاهد الآن من المتجردين له . وقال تعالى ( لهم قلوب لا يفقهون بها ) وأراد به معاني الإيمان دون الفتاوى ، ولسمى إن الفقه والفهم في اللغة اسمان بمعنى واحد ، وإنما يتكلم في عادة الاستعمال به قديما وحديثا . قال تمالى ( لآتم أشد رغبة في صدورهم من الله ) الآية ، فأحال قلة خوفهم من الله واستعظامهم سطوة الحق على قلة الفقه ، فانظر إن كان ذلك نتيجة عدم الحفظ لتفريعات الفتاوى ، أو هو نتيجة عدم ما ذكرناه من العلوم . وقال صلى الله عليه وسلم « علماء حكام فقهاء (١) » الذين وقودوا عليه . وسئل سعد بن إبراهيم الزهرى رحمه الله أى أهل المدينة أفقه ؟ فقال : أنفاهم لله تعالى ، كأنه أشار إلى عمرة الفقه ، والثقوى ثمرة العلم الباطنى دون الفتاوى والأفضية . وقال صلى الله عليه وسلم « ألا نبشكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا بلى . قال : من لم يقطع الناس من رحمة الله ، ولم يؤمنهم من مكر الله ، ولم يؤسهم من روح الله ، ولم يدع القرآن رغبة عنه إلى سواء (٢) » ولما روى أنس بن مالك قوله صلى الله عليه وسلم « لأن أقدمع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب (٣) » قال : فالتفت إلى زيد الرقاشى وزباد النخري وقال : لم تكن مجالس الذكر مثل مجالسكم هذه يقص احذكم وعظه على أصحابه ويسرد الحديث سرد ، إنما كنا نقصد فنذكر الإيمان وتدبر القرآن وننفقه في الدين ونمد نعم الله علينا تفقها ، فسمى تدبر القرآن وعد التفقه تفقها . قال صلى الله عليه وسلم « لا يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ، وحتى يرى للقرآن وجوها كثيرة (٤) » وروى أيضا موقوفا على أبى الدرداء رضى الله عنه مع قوله « ثم يقبل على نفسه فيكون لما أشد مقنا » وقد سأل فرقد السبخى الحسن عن الشيء فأجاب ، فقال : إن الفقهاء يخالفونك ، فقال الحسن رحمه الله : نكتلك أمك فريقد ، وهل رأيت فقها يبعثك ؟ إنما الفقيه الزاهد في الدنيا الراغب في الآخرة البصير بدينه المداوم على عبادة ربه الورع السكاف نفسه عن أهراض المسلمين العفيف عن أموالهم الناصح لجماعتهم ، ولم يقل في جميع ذلك : الحافظ لقرور الفتاوى ، ولست أقول إن اسم الفقه لم يكن متناولا للفتاوى في الأحكام الظاهرة ، ولكن كان بطريق

(١) حديث « علماء حكام فقهاء » رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الزهد ، والحطيب في التاريخ من حديث سويد بن الحارث بإسناد ضعيف .

(٢) حديث « ألا نبشكم بالفقيه كل الفقيه . . . الحديث » رواه أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق ، وأبو بكر ابن السنى وابن عبد البر من حديث على . وقال ابن عبد البر : أكثرهم يوقونه عن على .

(٣) حديث أنس « لأن أقدمع قوم يذكرون الله تعالى من غدوة إلى طلوع الشمس . . . الحديث » رواه أبو داود بإسناد حسن .

(٤) حديث « يفقه العبد كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر من حديث شداد بن أوس وقال : لا يصح مرفوعا .



العلوم والشمول أو بطريق الاستنباح ، فكان إطلاقهم له على علم الآخرة أكثر . فإن من هذا التخصيص تلبس بعث الناس على التجرد له والإعراض عن علم الآخرة وأحكام القلوب ، ووجدوا على ذلك معيّنًا من الطبع ، فإن علم الباطن غامض والعمل به عسير ، والتوصل به إلى طلب الولاية والقضاء والجاه والمال متعذر ، فوجد الشيطان جمالا لتحسين ذلك في القلوب بواسطة تخصيص اسم الفقه الذي هو اسم محمود في الشرع .

(اللفظ الثاني) العلم : وقد كان يطلق ذلك على العلم بالله تعالى وبآياته وبأفعاله في عبادته وخلقه ، حتى أنه لما مات عمر رضى الله عنه قال ابن مسعود رحمه الله : لقد ماتت تسعة أعشار العلم فعرفه بالآل والنسب واللام ثم فسره العلم بالله سبحانه وتعالى ، وقد تصرفوا فيه أيضاً بالتخصيص حتى شربوه في الأكثر من يشتغل بالمناظرة مع الخصوم في المسائل الفقهية وغيرها ، فيقال : هو العالم على الحقيقة ، وهو الفحل في العلم ؛ ومن لا يمارس ذلك ولا يشتغل به يعد من جملة الضعفاء ولا يدونه في زمرة أهل العلم . وهذا أيضاً تصرف بالتخصيص ، ولكن ماورد من فضائل العلم والعلماء أكثره في العباد بالله تعالى وبأحكامه وبأفعاله وصفاته : وقد صار الآن مطلقاً على من لا يحيط من علوم الشرع بشيء سوى رسوم جدلية في مسائل خلافية ، فيمد بذلك من حول العلماء مع جهله بالتفسير والأخبار وعلم المذهب وغيره ، وصار ذلك سبباً مهلكاً لخلق كثير من أهل الطلب للعلم .

(اللفظ الثالث) التوحيد : وقد جعل الآن عبارة عن صناعة الكلام ومعرفة طريق المجادلة والإحاطة بطريق مناقضات الخصوم والقعدة على التشديق فيها بتكثير الأسئلة وإثارة الشبهات وتأليف الإلزامات ، حتى لقب طوائف منهم أنفسهم بأهل العدل والتوحيد وسعى المتكلمون العلماء بالتوحيد ، مع أن جميع ما هو خاصة هذه الصناعة لم يكن يعرف منها شيء في العصر الأول بل كان يشتد منهم التكبر على من كان يفتح باباً من الجدل والمارة .

فأما ما يشتمل عليه القرآن من الأدلة الظاهرة التي تسبق الأذهان إلى قبولها في أول السماع فلقد كان ذلك معلوماً للكل ، وكان العلم بالقرآن هو العلم كله ، وكان التوحيد عندهم عبارة عن أمر آخر لا يفهمه أكثر المتكلمين ، وإن فهموه لم يتصفوا به ؛ وهو أن يرى الأمور كلها من الله عز وجل رؤية تقطع التفاته عن الأسباب والوسائط ، فلا يرى الخير كله إلا منه جل جلاله ، فهذا مقام شريف إحدى ثمراته التوكل ، والرضا والتسليم لحكم الله تعالى .

وكانت إحدى ثمراته قول أبي بكر الصديق رضى الله عنه لما قيل له في مرضه أن طلب لك طبيباً فقال : الطبيب أمر ضئيل . وقول آخر لما مرض فقيل له ماذا قال لك الطبيب في مرضك ؟ فقال : قال لي إني فعال لما أريد . وسياً في كتاب التوكل وكتاب التوحيد شواهد ذلك .

والتوحيد جوهر نفيس وله قرآن : أحدهما أبعد عن القلب من الآخر ، يخص الناس الاسم بالتشعر وبصناعة الحراسة للتشعر وأهموا القلب بالكلية ، فالتشعر الأول : هو أن تقول بلسانك « لا إله إلا الله » وهذا يسمى توحيداً مناقضاً للتثليث الذي صرح به النصارى ، ولكنه قد يصدر من المناق الذي يخالف سره جهره . والتشعر الثاني : أن لا يكون في القلب غافة وإنكار لمفهوم هذا القول بل يشتمل ظاهر القلب على اعتقاده وكذلك التصديق به وهو توحيد عوام الخلق والمتكلمون كما سبق حواس هذا التشعر عن تشويش المبتدعة . والثالث : — وهو البلبان — أن يرى الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع التفاته عن الوسائط ، وأن يعبد عبادة يفرده بها فلا يعبد غيره ، ويخرج عن هذا التوحيد أنواع الهوى ، فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده ، قال الله تعالى ( أفأريت من اتخذ لهنه هواه ) وقال صلى الله عليه وسلم « بعض الناس يمشي على صراط مستقيم وهو لا يعلم أنه على صراط مستقيم » ( ٥ — إحياء علوم الدين ١ )

إله عبد في الأرض عند الله تعالى هو الهوى<sup>(١)</sup> وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم وإنما يعبد هواه ، إذ نفسه ماثلة إلى دين آياتهم فيقع ذلك الميل ، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يبرعها بالهوى ، ويخرج من هذا التوحيد التسخط على الخلق والاتفات إليهم ؛ فإن من يرى الشكل من الله عز وجل كيف يتسخط على غيره ، فلقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام وهو مقام الصديقين ، فانظر إلى ماذا حول وبأى قشر قنع ، وكيف اتخذوا هذا معصفاً في التقدح والتفاخر بما اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذي يستحق اخذ الحقيقي ، وذلك كالفلاس من يصبح بكرة ويتوجه إلى القبلة ويقول ﴿ وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيئاً ﴾ وهو أول كذب بفتاح الله به كل يوم إن لم يكن وجه قلبه متوجهاً إلى الله تعالى على الخصوص : فإنه إن أراد بالوجه وجه الظاهر فما وجهه إلا إلى الكعبة وماصرة إلا عن سائر الجهات ، والكعبة ليست جهة للذي فطر السموات والأرض ، حتى يسكون المتوجه إليها متوجهاً إليه ، تعالى عن أن يحمله الجهات والأقطار . وإن أراد به وجه القلب وهو المطلوب المتعبد به فكيف يصدق في قوله وقلبه متردد في أوطاره وحاجاته الدنيوية ، ومتصرف في طلب الحيل في جمع الأموال والجاه واستكثار الأسباب ، ومتوجه بالسكينة إليها ، فتوجه وجهه للذي فطر السموات والأرض وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالوحيد هو الذي لا يرى إلا الواحد ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو أمثال قوله تعالى ﴿ قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴾ وليس المراد به القول باللسان ، وإنما اللسان ترجمان يصدق مرة ويسكذب أخرى . وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه هو القلب ، وهو معدن التوحيد ومنبعه .

(اللفظ الرابع) الذكر والذكير : فقد قال الله تعالى ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ وقد ورد في الثناء على مجالس الذكر أخبار كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا . قيل : وما رياض الجنة ؟ قال : مجالس الذكر<sup>(٢)</sup> » وفي الحديث « إن لله تعالى ملائكة سياحين في الدنيا سوى ملائكة الخلق إذا رأوا مجالس الذكر ينادي بعضهم بعضاً ألا هلوا إلى بغيثكم فيأتونهم ويحفون بهم ويستمعون . ألا فاذكروا الله وذكروا أنفسكم<sup>(٣)</sup> » فنقل ذلك إلى مآثر أكثر الوعاظ في هذا الزمان يراظرون عليه وهو القصص والأشعار والسطح والطامات ، أما القصص فهي بدعة ، وقد ورد نهى السلف عن الجلوس إلى القصص وقالوا لم يكن ذلك في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> ولا في زمن أبي بكر ولا عمر رضي الله عنهما ، حتى ظهرت الفتنة وظهر القصص . وروى أن ابن عمر رضي الله عنهما خرج من المسجد فقال : ما أخرجني إلا القاص ولولاه لما خرجت . وقال ضمرة : قلت لسفيان الثوري نستقبل القاص بوجوهنا ؟ فقال : ولوا البدع ظهوركم . وقال ابن عرب : دخلت على ابن سيرين فقال : ما كان اليوم من خبر ؟ فقلت : نهى الأمير القصاص أن يقصوا . فقال : وفق للصواب . ودخل الأعمش جامع البصرة فرأى قاصاً يقص ويقول : حدثنا الأعمش ، فتوسط الحلقة وجعل يلتفت شعر لبظه ، فقال القاص : يا شيخ ، ألا تستحي ؟ فقال : لم ؟ أنا في سنة وأنت في كذب ، أنا الأعمش وما حدثتك . وقال أحد : أكثر الناس كذبا القصاص والسؤال . وأخرج على رضي الله عنه القصص من مسجد جامع البصرة ،

- (١) حديث « أبغض إله عبد في الأرض عند الله هو الهوى » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف .
- (٢) حديث « إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ... الحديث » أخرجه الترمذي من حديث أنس وحسنه .
- (٣) حديث « إن لله ملائكة سياحين في الهواء سوى ملائكة الخلق ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة دون قوله في الهواء والترمذي « سياحين في الأرض » وقال مسلم سيرة .
- (٤) حديث : لم تكن القصص في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم . رواه ابن ماجه من حديث عمر بإسناد حسن .

فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرج له إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وأقاصي الأعمال وخوارج الشيطان ووجه الحذر منها ويذكر بألاء الله ونعماته وتقصير العبد في شكره ويعرف حقارة الدنيا وعبوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها ، فهذا هو التذكير المحمود شرعا الذي روى الحنف عليهما في حديث أبي ذر رضي الله عنه حيث قال « حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة . وحضور مجلس علم أفضل من عبادة ألف مريض . وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة ، فقبل : يا رسول الله ، ومن قراءة القرآن ؟ قال : وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم<sup>(١)</sup> » وقال عطاء رحمه الله : مجلس ذكر يكفر سبعين مجلسا من مجالس اللغو ، فقد اتخذ المخرفون هذه الأحاديث حجة على تركية أنفسهم ، ونقلوا اسم التذكير إلى عرفاتهم ، وذهلوا عن طريق الذكر المحمود ، واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها ، فإن من القصص ما ينفع سماعه ، ومنها ما يضر وإن كان صدقا . ومن فتح ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضر ، فمن هذا نهى عنه ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله : ما أوحج الناس إلى قاص صادق ، فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيها تتعلق بأمر دينهم وكان القاص صادقا صحيح الرواية فليست أرى بها بأسا ، فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومي إلى هفوات أو مساهلات بقصر فهم العوام عن درك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مرددة بتفكيرات متدركة بحسنات تغطي عليها ، فإن العاصي يتصمم بذلك في مساهلاته وهفواته ، ويمد لنفسه عنرا فيه ، ويحتج بأنه حكى كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر ، فكلنا يصد المعاصي ، فلا غرو إن عصيت الله تعالى فقد عصاه من هو أكبر مني ، ويفيده ذلك جرأة على الله تعالى من حيث لا يدري ، فبعد الاحتراز عن هذين المحذرين فلا بأس به ، وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشمل عليه القرآن ، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار ، ومن الناس من يستعين بوضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويذهب أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق ، فلهذه من زخات الشيطان ، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب ، وفيما ذكر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم غشية عن الاختراع في الوعد ، كيف وقد كلف السجع وعد ذلك من التصنع . قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر - وقد سمعه يسجع - : هذا الذي ينفذك إلى لافضيت حاجتك أبدا حتى تتوب - وقد كان جاهدا في حاجة - . وقد قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن رواحة في سجع من ثلاث كلمات « إياك والسجع يا ابن رواحة<sup>(٢)</sup> » فسكن السجع المحذور المتكلف ما زاد على كلمتين ، ولذلك لما قال الرجل في دية الجنين : كيف نذى من لا شرب ولا أكل ، ولا صاح ولا استل ، ومثل ذلك بطل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أسجع كسجع الأعراب<sup>(٣)</sup> » وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم . قال الله تعالى ( والشعراء يتبعهم الغاؤون ) ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ( وقال تعالى ( وما علينا الشعر وما ينبغي له ) وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار : ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المشوق وروح الوصال وألم الفراق ، والمجلس لا يحوى إلا أجلاف العوام ، ويواطئهم مشحونة بالشهوات ، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة ، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم إلا ما هو مستكن

(١) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في الباب الأول .

(٢) حديث « إياك والسجع يا ابن رواحة » لم أجده هكذا ، ولأحمد وأبي يعلى وابن السني وأبي نعيم في كتاب الرياضة من حديث عائشة يساند صحيح أنها قالت للسائب إياك والسجع فإن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا لا يسجون ولابن جابر واجتنب السجع ، وفي البخاري نحوه من قول ابن عباس

(٣) حديث « أسجع كسجع الأعراب » أخرجه مسلم من حديث للثوري.

فيها فقتلتم فيها نيران الشبوات ، فزعقرون وبتراجدون ، وأكثر ذلك أوكله يرجع إلى نوع فساد ، فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن من الشعر لحكمة »<sup>(١)</sup> ولو حوى المجلس الخواص الذين وقع الاطلاع على استغراق قلوبهم بحب الله تعالى ولم يكن معهم غيرهم ، فإن أولئك لا يضر معهم الشعر الذي يشر ظاهره إلى الخلق ، فإن المستمع ينزل كل ما يسمعه على ما يستولى على قلبه ، كما سيأتي تحقيق ذلك في كتاب السماع ، ولذلك كان الجنيد رحمه الله يستكم على بضعة عشر رجلا ، فإن كثروا لم يستكم ، وما تم أهل مجلسه قط عشرين . وحضر جماعة باب دار ابن سالم ، فقيل له : تكلم فقد حضر أصحابك ، فقال : لا ، ما هؤلاء أصحابي إنما أصحاب المجلس ، إن أصحابي هم الخواص .

وأما الشطح : فنمضي به سفين من الكلام أحدثه بعض الصوفية :

(أحدهما) الدماوى الطويلة العريضة في المشق مع الله تعالى والوصال المغنى عن الأعمال الظاهرة حتى ينتهى قوم إلى دعوى الاتحاد وارتفاع الحجاب والمشاهدة بالروية والمشافهة بالخطاب ، فيقولون : قيل لنا كذا ، وقائنا كذا ، ويشبهون فيه بالحسين بن منصور الحلاج الذى صلب لأجل إطلاقة كلمات من هذا الجنس ، ويستشهدون بقوله أنا الحق ، وبما حكى عن أبي يزيد البسطامى أنه قال سبعانى سبعانى ، وهذا فن من الكلام عظيم ضرره في العوام ، حتى ترك جماعة من أهل الفلاحة فلاحتهم وأظهروا مثل هذه الدماوى ، فإن هذا الكلام يستلذه الطبع إذ فيه البطالة من الأعمال مع تركية النفس بذكر المقامات والأحوال ، فلا تميز الأغبياء عن دعوى ذلك لأنفسهم ولا عن تلقف كلمات عظيمة مزخرفة ، ومهما أنكر عليهم ذلك لم يميزوا عن أن يقولوا : هذا إنكار مصدره العلم والجدل ، والعلم حجاب ، والجدل عمل النفس ، وهذا الحديث لا يلوح إلا من الباطن بمكاشفة نور الحق ، فهذا ومثله مما قد استطار في البلاد شرره وعظم في العوام ضرره ، حتى من تلقى بشئ منه فقتله أفضل من دين الله من إحياء عشرة ، وأما أبو يزيد البسطامى رحمه الله فلا يصح عنه ما يهكى وإن سمع ذلك منه فعله كان يصحكه عن الله عز وجل في كلام يردده في نفسه ، كما لو سمع وهو يقول « إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني » فإنه ما كان ينبغي أن يفهم منه ذلك إلا على سبيل الحكاية .

(الصنف الثانى) من الشطح كلمات غير مفهومة لها ظواهر واقعة وفيها عبارات هائلة وليس وراءها طائل ، إما أن تكون غير مفهومة عند قائلها بل يصدرها عن خبط في عقله وتشويش في خياله لقلّة إحاطته بمعنى كلام قرع سمعه وهذا هو الأكثر . وما أن تكون مفهومة له ولكنه لا يقدر على فهمها أو إيرادها بعبارة تدل على ضميره ، لقلّة ممارسته للعلم وعدم تعلمه طريق التعبير عن المعاني بالألفاظ الرشيقة ، ولا فائدة لهذا الجنس من الكلام إلا أن يشوش القلوب ويدهش العقول ويحير الأذهان أو يعمل على أن يفهم منها معاني ما أريدت بها ويكون فهم كل واحد على مقتضى هواه وطبعه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم »<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وآله وسلم « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون أتريدون أن ينكتب الله ورسوله »<sup>(٣)</sup> وهذا فيما يفهمه صاحبه ولا يبلغه عقل المستمع ، فكيف فيما لا يفهمه قائله . فإن كان يفهمه القائل دون المستمع فلا يحل ذكره . وقال عيسى

(١) حديث « إن من الشعر لحكمة » أخرجه البخارى من حديث أبي بن كعب .

(٢) حديث « ما حدث أحدكم قوما بحديث لا يفقهونه إلا كان فتنة عليهم » رواه القليل في الضعفاء وابن السني وأبو نعيم في الرىاء من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ، ولمسلم في مقدمة صحيحه موقوفا على ابن مسعود .

(٣) حديث « كلوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون . . . الحديث » رواه البخارى موقوفا على علي ، ورفع أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم .

عليه السلام : لا تضعوا الحسكة عند غير أهلها فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم ، كونوا كالطيب الرفيق يضع الدواء في موضع الداء . وفي لفظ آخر : من وضع الحسكة في غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن الحسكة حقاً وإن لها أهلاً ، فأعط كل ذي حق حقه . وأما الطامات فيدخلها ماذكرناه في الشطع ، وأمر آخر يخصها وهو صرف ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية في التأويلات ، فهذا أيضاً حرام وضرره عظيم ، فإن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه بنقل عن صاحب الشرع ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ، فإن ما يسبق منه إلى الفهم لا يوثق به والباطن لا ضبط له ، بل تتعارض فيه الخواطر ويمكن تنزيهه على وجه شتى ، وهذا أيضاً من البدع الشائعة العظيمة الضرر . وإنما قصد أصحابها الإغراب ، لأن النفوس مائلة إلى الغريب ومستلذة له . وبهذا الطريق توصل الباطنية إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم كاحكياء من مذاهم في كتاب المستظهر المصنف في إرد على الباطنية . ومثال تأويل أهل الطامات قول بعضهم في تأويل قوله تعالى ﴿ اذهب إلى فرعون إنه طغى ﴾ أنه إشارة إلى قلبه وقال : هو المراد بفرعون وهو الطاغى على كل إنسان . وفي قوله تعالى ﴿ وأن ألق عصاك ﴾ أى كل ما يتوكل عليه ويعتمده مما سوى الله عز وجل فينبغي أن يلقى . وفي قوله صلى الله عليه وسلم « تسحروا فإن في السحور بركة »<sup>(١)</sup> أراد به الاستغفار في الأسحار وأمثال ذلك حتى يحرقون القرآن من أوله إلى آخره عن ظاهره ، وعن تفسيره المنقول عن ابن عباس وسائر العلماء وبعض هذه التأويلات يعلم بطلانها قطعاً ، كتنزيل فرعون على القلب ، فإن فرعون شخص محسوس تواتر إلينا النقل بوجوده ودعوة موسى له وكأني جهل وأني لحب وغيرهما من الكفار وليس من جنس الشياطين والملائكة مما لم يدرك بالحس حتى يتطرق التأويل إلى ألفاظه ، وكذا حمل السحور على الاستغفار « فإنه كان صلى الله عليه وسلم يتناول الطعام ويقول : تسحروا »<sup>(٢)</sup> و« هلموا إلى الغذاء المبارك »<sup>(٣)</sup> فبهذا أمور يدرك بالآثار والحس بطلانها قطعاً ، وبعضها يعلم بغالب الظن ، وذلك في أمور لا يتعلق بها الإحساس ، فكل ذلك حرام وضلالة وإفساد للدين على الخلق ، ولم ينقل شيء من ذلك عن الصحابة ولا عن التابعين ولا عن الحسن البصري مع إكبابه على دعوة الخلق ووعظهم ، فلا يظهر لقوله صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار »<sup>(٤)</sup> معنى إلا هذا الخط : وهو أن يكون غرضه ورأيه تقدير أمر وتحقيقه ، فيستجر شهادة القرآن إليه ، ويحمله عليه ، من غير أن يشهد لتنزيهه عليه دلالة لفظية لغوية أو عقلية ، ولا ينبغي أن يفهم منه أنه يجب أن لا يفسر القرآن بالاستنباط والفكر ، فإن من الآيات ما نقل فيها عن الصحابة والمفسرين خمسة معانٍ وستة وسبعة . ويعلم أن جميعها غير مسموع من النبي صلى الله عليه وسلم ، فإنها قد تكون متنافية لا تقبل الجمع ، فيكون ذلك مستنبطاً بحسن الفهم وطول الفكر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضى الله عنه « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل »<sup>(٥)</sup>

(١) حديث « تسحروا فإن في السحور بركة » متفق عليه من حديث أنس

(٢) حديث « تناول الطعام في السحور » رواه من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم وزيد بن ثابت تسحرا

(٣) حديث « هلموا إلى الغذاء المبارك » رواه أبو داود والنسائي وابن حبان من حديث الرباض بن سارية ضغفه ابن القطان

(٤) حديث « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » أخرجه الترمذى من حديث ابن عباس وحسنه ، وهو عند أبي داود من رواية ابن العبد ، وعند النسائي في الكبرى

(٥) حديث « اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل » قاله لابن عباس . رواه البخارى من حديث ابن عباس دون قوله « وعلمه التأويل » وهو بهذه الزيادة عند أحمد وابن حبان وإمامهم وقال صحيح الإسناد

ومن يستجيز من أهل الطامات مثل هذه التأويلات مع علمه بأنها غير مرادة بالالفاظ ويردعم أنه يقصد بها دعوة الخلق إلى الخداق يضاهي من يستجيز الاختراع والوضع على رسول الله صلى الله عليه وسلم مسا هو في نفسه حق ولكن لم ينطق به الشرع ، كمن يضع في كل مسألة يراها حقا حديثا عن النبي صلى الله عليه وسلم فذلك ظلم وضلال ودخول في الوعيد المفهوم من قوله صلى الله عليه وسلم « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار »<sup>(١)</sup> بل الشر في تأويل هذه الالفاظ أظلم وأعظم ، لأنها مبطلة للغة بالالفاظ ، وقاطعة طريق الاستفادة والفهم من القرآن بالكيفية فقد عرفت كيف صرف الشيطان دواعي الخلق عن العلوم المحمودة إلى المذمومة ، فكل ذلك من تلبيس علماء سوء بتبديل الاسامى ، فإن اتبعت هؤلاء اعتادا على الاسم المشهور من غير التفات إلى ما عرفت في العصر الأول كمن طلب الشرف بالحكمة بانع من يسمى حكما ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم في هذا العصر ، وذلك ما لفلة عن تبديل الالفاظ ( اللفظ الخامس ) وهو الحكمة ، فإن اسم الحكيم صار يطلق على الطيب والشاعر والمنجم حتى على الذي يدسج الفرقة على أكف السوادية في شوارع العرق . والحكمة هي التي أنقذ الله عز وجل عليها فقال تعالى ﴿ يؤتى الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « كلمة من الحكمة تعلمها الرجل خير له من الدنيا وما فيها »<sup>(٢)</sup> فانظر ما الذي كانت الحكمة عبارة عنه ، وإلى ماذا نقل ، وقس به بقية الالفاظ واحترز عن الاعتوار بتلبيسك علماء سوء ، فإن شرم على الدين أعظم من شر الشياطين ، إذ الشيطان بواسطتهم يتدرج إلى انزعاج الدين من قلوب الخلق ، ولهذا مسا سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شر الخلق أي قال « اللهم اغفر » حتى كرروا عليه فقال « هم علماء سوء »<sup>(٣)</sup> فقد عرفت العلم المحمود والمذموم ومثار الاتباس وإليك الخيرة في أن تنظر لنفسك فتفتدى بالسلف ، أو تبدل بحبل الغرور وتنقبى بالخلف ؛ فكل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع ومحدث ، وقد صرح قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « بدأ الإسلام غريبا وسيعود غريبا كما بدأ ، فطوبى للغرباء » فقيل : ومن الغرباء ؟ قال « الذين يصلحون ما أفسدته الناس من سنن والذين يقيمون ما أماتوه من سنن »<sup>(٤)</sup> وفي خبر آخر « هم التمسكون بما أمته عليه اليوم »<sup>(٥)</sup> وفي حديث آخر « الغرباء ناس قليل صالحون بين ناس كثير ، من يبتغيهم في الخلق أكثر ممن يجهم »<sup>(٦)</sup> وقد صارت تلك العلوم غريبة بحيث يمتث ذاكرها ، ولذلك قال الثوري رحمه الله : إذا رأيت العالم كثيرا الأصداق فاعلم أنه غلط ، لأنه إن نطق بالحق أبغضوه .

### بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة

أعلم أن العلم بهذا الاعتبار ثلاثة أقسام : قسم هو منموم قليله وكثيره . وقسم هو محمود قليله وكثيره ، وكلما كان أكثر كان أحسن وأفضل . وقسم يحمده منه مقدار الكفاية ولا يحمده الفاضل عليه والاستقصاء فيه ، وهو مثل

(١) حديث « من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعلى وأنس .

(٢) حديث « كلمة من الحكمة تعلمها الرجل خير له من الدنيا » تقدم بنحوه .

(٣) حديث لما سئل عن شر الخلق أي وقال « اللهم اغفر » الحديث . رواه الدارمي بنحوه من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسل وهو ضعيف ، ورواه البزار في مسنده من حديث معاذ بسند ضعيف .

(٤) حديث « بدأ الإسلام غريبا . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة مختصرا ، وهو بتمامه عند الترمذي من حديث عمرو بن عوف وحسنه .

(٥) حديث « هم التمسكون بما أمته عليه اليوم » يتوله في وصف الغرباء ، لم أر له أصلا .

(٦) حديث « الغرباء ناس قليلون صالحون » أخرجه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو .

أحوال البدن ، فإن منها ما محمد قليله وكثيره كالصحة والجمال ، ومنها ما يندم قليله وكثيره كالقبح وسوء الخلق ، ومنها ما محمد الاقتصاد فيه كيدل المسال فان التذير لا يحمد فيه وهو بذل وكالكساحة فإن الثور لا يحمد فيها ، وإن كان من جنس الشجاعة فكذلك العلم . فالقسم المذموم منه قليله وكثيره هو مالا فائدة فيه في دين ولا دنيا ، إذ فيه ضرر يغلب نفعه كعلم السحر والطلسمات والتجريم ، فبعضه لا فائدة فيه أصلا ، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه إضاعة ، وإضاعة النفس مذمومة . ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما ينفع أنه يحصل به من قضاء وطرف الدنيا ، فإن ذلك لا يمتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه . وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله ، وستة في خلقه ، وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا ، فإن هذا علم مطلوب لذاته وللوصول به إلى سعادة الآخرة ، وبذل المقدور فيه إلى أقصى المجد قصور عن حد الواجب ، فانه البحر الذي لا يندرک غوره وإنما يحوم الحائمون على سواحله وأطرافه بقدر ما يسر لهم ، وما خاض أطرافه إلا الأنبياء والأولياء والراغبون في العلم على اختلاف درجاتهم بحسب اختلاف قوتهم وتفاوت تقدر الله تعالى في حقهم ، وهذا هو العلم المكون الذي لا يسطر في الكتب ، ويعين على التنبه له التعلم ومشاهدة أحوال علماء الآخرة ، كإسائتي علامتهم ، هذا في أول الأمر ويعين عليه في الآخرة المجاهدة والرياضة وقصية القلب وتفرغه عن علائق الدنيا والتشبه فيها بالأنبياء والأولياء ، ليستضيح منه سلك ساع إلى طلبه بقدر الرزق لا بقدر الجهد ولكن لا غنى فيه عن الاجتهاد ، فالمجاهدة مفتاح الهداية لافتحا لها سواها . وأما العلوم التي لا يحمد منها إلا مقدار مخصوص فهي العلوم التي أوردناها في فروض الكفايات ، فإن في كل علم منها اقتصادا وهو الأقل ، واقتصادا وهو الوسط ، واستقصاء وراء ذلك الاقتصاد لامر له إلى آخر العمر فكأن أحد رجلين : إما مشغولا بنفسك ، وإما متفرغا لغيرك بعد الفراغ من نفسك . وإياك أن تشتغل بما يصلح غيرك قبل إصلاح نفسك ، فإن كنت المشغول بنفسك فلا تشتغل إلا بالعلم الذي هو فرض عليك بحسب ما يقتضيه حالك ، وما يتعلق منه بالأعمال الظاهرة من تعلم الصلاة والطهارة والصوم ، وإنما الأم الذي أهمه الكل علم صفات القلب وما يحمد منها وما يندم ، إذ لا ينفعك بشر عن الصفات المذمومة مثل الحرص والحسد والرياء والكبر والعجب وأخواتها وجميع ذلك مهلكات ، وإمها لمن الواجبات ، مع أن الاشتغال بالأعمال الظاهرة يضاهي الاشتغال بظواهر البدن عند التأذي بالجرب والدمامل والنهاتن بإخراج المادة بالفصد والإسهال ، وحشوية العلماء يشيرون بالأعمال الظاهرة كما يشير الطرية من الأطباء بطلاء ظاهر البدن ، وعلماء الآخرة لا يشيرون إلا بتطهير الباطن وقطع مواد الشر بإفساد منابها وقلع مفارسها من القلب ، وإنما فرع الأكثرون إلى الأعمال الظاهرة عن تطهير القلوب لسبولة أعمال الجوارح واستصعاب أعمال القلوب ، كما يفزع إلى طلاء الظاهر من يستصعب شرب الأدوية المرة ، فلا يزال يتعب في الطلاء ويزيد في المواد وتتضاعف به الأمراض ، فإن كنت تريد للأخرة وطالبا للنجاة وهاربا من الهلاك الأبدى فاشتغل بعلم العمل الباطنة وعلما على ما فصلناه في ربيع المسلكات ، ثم ينجر بك ذلك إلى المقامات المحمودة المذكورة في ربيع المنتجيات لاحالة ، فإن القلب إذا فرغ من المذموم امتلأ بالمحمود ، والأرض إذا نقيت من الحشيش نبت فيها أصناف الزرع والرياحين ، وإن لم تفرغ من ذلك لم تنبت ذلك ، فلا تشتغل بفروض الكفاية لاسما وفي ذمرة الخلق من قد قام بها فإن مهلك نفسه فيها به صلاح غيره سفيه ، فإ أشد حقا من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابها وممت بقتله وهو يطلب مذبة بدفع بها الذباب عن غيره من لا يغبى ولا ينجيه مما يلاقى من تلك الحيات والعقارب إذا همت به . وإن تفرغت من نفسك وتطهرها وقدرت على ترك ظاهر الإيمان وباطنه وصار ذلك ديدنا لك وعادة ميسرة فيك . وما أهد ذلك منك . فاشتغل بفروض الكفايات وراح التدرج فيها ، فابتدى ، بكتاب الله تعالى ثم بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ثم بعلم التفسير وسائر علوم القرآن من علم النسخ والمنسوخ والمفصول والموصول والحكم والمنشأه وكذلك في السنة ، ثم اشتغل بالفروع وهو علم المذهب من علم الفقه دون الخلاف ، ثم بأصول الفقه ، وهكذا إلى بقية العلوم على ما يتسع له العمر ويساعد فيه الوقت ، ولا تستغرق عمرك في فن واحد منها طلبا للاستقصاء فإن العلم كثير والعمر قصير ، وهذه العلوم آلات ومقدمات وليست مطلوبة لعينها بل لغيرها ،

وكل ما يطلب لغيره فلا ينبغي أن ينسب فيه المطلوب ويستكثر منه ، فاقصر من شائع علم اللغة على ما تفهم منه كلام العرب وتنطق به ، ومن غريبه على غريب القرآن وغريب الحديث ودع التعمق فيه ، واقصر من النحو على ما يتلاقى بالكتاب والسنة فسا من علم إلا وله انقصار واقتصاد واستقصاء . ونحن نشير إليها في الحديث والتفسير والفقه والكلام لتفيس بها غيرها ، فالانقصار في التفسير ما يبلغ ضعف القرآن في المقدار كما صنفه على الواحدى النيسابورى وهو الرزين ، والاقتصاد ما يبلغ ثلاثة أضعاف القرآن كما صنفه من الوسيط فيه وما وراء ذلك استقصاء مستغنى عنه فلا مرد له إلى انتهاء العصر .

وأما الحديث فالانقصار فيه تحصيل ما في الصحيح بتصحيح نسخة على رجل خبير بعلم من الحديث .

وأما حفظ أسارى الرجال فقد كفيته بما نعمله هناك من قبلك ، ولك أن تعمل على كتبهم ، وليس يلزمك حفظ متون الصحيحين ولكن تحمله تحصيلاً تقدر منه على طلب ما يحتاج إليه عند الحاجة ، وأما الاقتصاد فيه فأن تصنيف إلهما ما خرج عنهما بما ورد في المستندات الصحيحة .

وأما الاستقصاء فما وراء ذلك إلى استيعاب كل ما نقل من الضعيف والقوى والصحيح والسقيم مع معرفة الطرق الكثيرة في النقل ومعرفة أحوال الرجال وأسمائهم وأوصافهم .

وأما الفقه فالانقصار فيه على ما يحويه مختصر المازى رحمه الله وهو الذى رتبناه في خلاصة المختصر ، والاقتصاد فيه ما يبلغ ثلاثة أمثاله وهو القدر الذى أوردناه في الوسيط من المذهب ، والاستقصاء ما أوردناه في البسيط إلى ما وراء ذلك من المطولات .

وأما الكلام فمقصوده حماية المعتقدات التى نقلها أهل السنة من السلف الصالح لا غير ، وما وراء ذلك طلب لكشف حقائق الأمور من غير طريقها ، ومقصود حفظ السنة تحصيل رتبة الانقصار منه بمعتقد مختصر ، وهو القدر الذى أوردناه في كتاب قواعد العقائد من جملة هذا الكتاب ، والاقتصاد فيه ما يبلغ قدر مائة ورقة وهو الذى أوردناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد . ويحتاج إليه المناظرة مبتدع ومعارضة بدعته بما يفسدها وينزعها عن قلب العاى ، وذلك لا ينفع إلا مع العوام قبل اشتداد تمصمهم ، وأما المبتدع بعد أن يعلم من الجدل ولوشيناً يسيراً فقلما ينفع معه الكلام ، فإنك إن أخشته لم يترك مذهبه وأحال بالقصور على نفسه وقدر أن عند غيره جواباً ما هو عاجز عنه ، وإنما أنت ملبس عليه بقوة المجادلة .

وأما العاى إذا صرف عن الحق بنوع جدل يمكن أن يرد إليه بمثله قبل أن يشتد التصعب للأهواء ، فإذا اشتد تمصمهم وقع اليأس منهم ، إذ التصعب سبب يرسخ العقائد في النفوس وهو من آفات العلماء السوء ، فإنهم يبالغون في التصعب للحق وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار ، فتنبعث منهم الدعوى بالمقابلة والمساواة والمعاملة ، وتوفّر بواعثهم على طلب نصرة الباطل ، ويقوى غرضهم في التمسك بما نسبوا إليه ، ولو جاءوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة - لافى معرض التصعب والتحقير - لا لمحوافه ، ولكن لما كان الجهاد لا يقوم إلا بالاستتباع ولا يستميل إلا بتبذاع مثل التصعب واللعن والشتن للخصوم ، اتخذوا التصعب عاتبهم وآلهم ، وسموه ذبا عن الدين وانصافاً عن المسلمين ، وفيه على التحقيق هلاك الخلق ورسوخ البدعة



في النفوس . وأما الخلافات التي أحدثت في هذه الأعصار المتأخرة وأبدع فيها من التحريرات والتصنيفات والمجادلات ما لم يعد مثلهم في السلف فياك وأن تحوم حولها ، واجتنب اجتناب الدم القاتل فلأنها الداء العضال وهو الذي رد الفقهاء كلهم إلى طلب المناقصة والمباهاة على ما سيأتيك تفصيل غوائلها وآقاتها . وهذا الكلام ربما يسمع من قائله فيقال : الناس أعداء ما جهلوا فلا تظن ذلك ، فعلى الخير سقطت . فأقبل هذه النصيحة بمن ضيع العمر فيه زمانا ، وزاد فيه على الأولين تصنيفا وتحقيقا وجدلا وبياناً ، ثم ألهمه الله رشده وأطلعه على عيبه فجهره واشتغل بنفسه ، فلا يعرفك قول من يقول الفتوى عماد الشرع ولا يعرف عللة إلا بطل الخلاف ، فإن علل المذهب مذكورة في المذهب ، وازيادة عليها مجادلات لم يعرفها الأولون ولا الصحابة وكانوا أعلم بعلم الفتاوى من غيرهم ، بل هي مع أنها غير مفيدة في علم المذهب ضارة مفسدة لنزق الفقه ؛ فإن الذي يشهد له حدس المفتي إذا صح ذوقه في الفقه لا يمكن تمثيته على شروط الجدل في أكثر الأمر ، فن ألف طبعه رسوم الجدل أذهن ذهنه لمقتضيات الجدل وجبن عن الإذعان لنزق الفقه ، وإنما يشتغل به من يشتغل لطالب الصيت والجاه ويعمل بأنه يطلب علل المذهب ، وقد ينقض عليه العمر ولا يتصرف منه إلى علم المذهب ، فكمن من شياطين الجن في أمان ، واحتجز من شياطين الإنس فإنهم أراحوا شياطين الجن من التعب في الاغواء والإضلال ، وبالجلة فالمرضى عند العقلاء أن تقدر نفسك في العالم وحدك مع الله وبين يديك الموت والعرض والحساب والجنة والنار ، وتأمل قبا بعينك بما بين يديك ، ودع عنك ما سواه والسلام . وقد رأى بعض الشيوخ بعض العلماء في المنام فقال له : ما خير تلك العلوم التي كنت تهمل فيها وتناظر عليها فبسط يده ونفخ فيها وقال : طاحت كلها هباء منثورا وما انتفعت إلا بركنين خصلتا في جوف الليل . وفي الحديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل <sup>(١)</sup> » ثم قرأ « ما ضربه لك إلا جدلا بل هم قوم خصمون » وفي الحديث في معنى قوله تعالى ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ ﴾ الآية : « هم أهل الجدل الذين عناهم الله بقوله تعالى : فاحذرهم <sup>(٢)</sup> » وقال بعض السلف : يكون في آخر الزمان قوم يفلق عليهم باب العمل ويفتح لهم باب الجدل . وفي بعض الأخبار إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل <sup>(٣)</sup> وفي الخبر المشهور « أبيض الخلق إلى الله تعالى الألد الخصم <sup>(٤)</sup> » وفي الخبر « ما أوى قوم المنطق إلا منعر العمل <sup>(٥)</sup> » والله أعلم .

## الباب الرابع

في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشروط إباحتها

اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولاهم الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامهم وكانوا مستقلين بالفتاوى في الأفضية ، فكانوا يستعينون بالفقهاء إلا نادرا في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعان بأحكام الخلق من الدنيا ، وأقبلوا على الله تعالى بكثرة اجتهادهم كما نقل من سيرهم ، فلما أفضت الخلافة بعدهم إلى أقوام تولوها

(١) حديث « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل » رواه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي أمامة . قال الترمذي : حسن صحيح .

(٢) حديث « هم أهل الجدل الذين عن الله بقوله فاحذرهم » متفق عليه من حديث عائشة .

(٣) حديث « إنكم في زمان ألهمتم فيه العمل وسيأتي قوم يلهمون الجدل » لم أجده .

(٤) حديث « أبيض الخلق إلى الله الألد الخصم » متفق عليه من حديث عائشة .

(٥) حديث « ما أوى قوم المنطق إلا منعر العمل » لم أجده أصلا .

بغير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء وإلى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم ، وكان قد بق من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول وملازم صفو الدين ومواظب على سمعت علماء السلف ؛ فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ؛ فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح في طلبهم لتولية القضاء والحكومات ، فرأى أهل تلك الأعصار عز العلماء وإقبال الأئمة والولاء عليهم مع إعراضهم عنهم ، فاشترأوا لطلب العلم توصلا إلى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاة ، فأكبوا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاة ، وتعرفوا إليهم ، وطلبوا الولايات والصلوات منهم ، فمنهم من حرم ومنهم من أجمع ، والمنهج لم يحل من ذل الطلب ومهانة الابتذال ، فأصبح الفقهاء — بعد أن كانوا مطلوبين — طالبين ، وبعد أن كانوا أعرأ بالإعراض عن السلاطين أداة بالإقبال عليهم ، إلا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله . وقد كان أكثر الإقبال في تلك الأعصار على علم الفتاوى والأقضية لشدة الحاجة إليها في الولايات والحكومات .

ثم ظهر بعدهم من الصدور والأمراء من يسمع مقالات الناس في قواعده العقائد ومالت نفسه إلى سماع الجميع فيها فعملت رغبته إلى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ، ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناقضات في المقالات ، وزعموا أن غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقع المبتدعة ، كما زعم من قبلهم أن غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين ، إشفافاً على خلق الله ونصيحة لهم .

ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه ، لما كان قد تولد من فتح بابه من التعصبات الفاحشة والخصومات القاسية المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد ، ومالت نفسه إلى المناظرة في اللغة وبيان الأولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضى الله عنهما على الخصوص ، فترك الناس الكلام وفنون العلم واتلوا على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم . وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقريره على المذهب وتمهيد أصول الفتاوى . وكثروا فيها التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرين عليه إلى الآن واستنادى ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار ؛ فهذه هو الباعث على الإكباب على الخلافات والمناظرات لا غير ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمسالوا أيضاً معهم ، ولم يكتفوا عن العمل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

### بيان التليس في تشبيه هذه المناظرات

#### بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف

اعلم أن هؤلاء قد يستدرجون الناس إلى ذلك بأن غرضنا من المناظرات المباحثة عن الحق ليتضح ، فإن الحق مطلوب والتعاون على النظر في العلم وتوارد الخواطر مفيد ومؤثر ؛ هكذا كان عادة الصحابة رضى الله عنهم في مشارراتهم كمشاورهم في مسألة الجد والأخوة وحد شراب الخمر ووجوب الزعم على الإمام إذا أخطأ ؛ كما نقل من إجماع المرأة جنيته خوفاً من عمر رضى الله عنه ؛ وكما نقل من مسائل الفرائض وغيرها وما نقل عن الشافعي وأحمد وعبد بن الحسن ومالك وأبي يوسف وغيرهم من العلماء رحمهم الله تعالى . ويطلبك على هذا التليس ما ذكره وهو أن التعاون على طلب الحق من الدين ولكن له شروط وعلامات ثمان .

الأول : أن لا يشتغل به وهو من فروض الكفايات من لم يتفرغ من فروض الأعبان ، ومن عليه فرض عين فاشتغل بفرض كفاية وزعم أن مقصده الحن فهو كذاب . ومثاله من ترك الصلاة في نفسه ويتجرد في تحصيل الثياب ونسجها ويقول غرضي أستر عورة من يصلي عرباناً ولا يجد ثوباً ، فإن ذلك ربما يتفق ووقوعه ممكن كما يزعم الفقيه أن وقوع التوادر التي عنها البحث في الخلاف ممكن .

والمشتغلون بالمناظرة مهملون لأمور هي فرض عين بالاتفاق ومن توجه عليه رد وديمعة في الحال فقام وأحرم بالصلاة التي هي أقرب القربات إلى الله تعالى عصى به ، فلا يكتفي في كون الشخص مطيعاً كون فعله من جنس الطاعات مالم يراع فيه الوقت والشروط والترتيب .

الثاني : أن يرى فرض كفاية أهم من المناظرة فإن رأى ما هو أهم وفعل غيره عصى بفعله وكان مثاله من يرى جماعة من المعاش أشرفوا على الهلاك وقد أهملهم الناس وهو قادر على إحيائهم بأن يسقهم الماء فاشتغل بتعلم الحجامة ، وزعم أنه من فروض الكفايات ولو خلا البلد عنها هلك الناس وإذا قيل له في البلد جماعة من الحجاجين وفيهم غنية فيقول هذا لا يخرج هذا الفعل عن كونه فرض كفاية ، فقال من يفعل هذا ويهمل الاشتغال بالواقعة الملية بهجامة المعاش من المسلمين كحال المشتغل بالمناظرة وفي البلد فروض كفايات مهمة لا قائم بها .

فأما الفتوى فقد قام بها جماعة ولا يخلو بلد من جملة الفروض المهمة ولا يلتفت الفقهاء إليها وأقربها العطب ، إذ لا يوجد في أكثر البلاد طبيب مسلم يجوز اعتناده شهادته فيما يعول فيه على قول الطبيب شرعاً ولا يرغب أحد من الفقهاء في الاشتغال به . وكذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من فروض الكفايات وربما يكون المناظرة في مجلس مناظرته مشاهداً للحرر ملبوساً ومفروشا وهو ساكت وينظر في مسألة لا يتفق وقوعها قط وإن وقعت قام بها جماعة من الفقهاء ، ثم يزعم أنه يريد أن يتقرب إلى الله تعالى بفروض الكفايات . وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه « قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ فقال عليه السلام : إذا ظهرت المدهانة في خياركم والفاحشة في شراركم وتحول المملك في صفاركم والفتنة في أراذلكم » (١) .

الثالث : أن يكون المناظر مجتهداً يفتي برأيه لا بمذهب الشافعي وأبي حنيفة وغيرهما حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أبي حنيفة ترك ما وافق رأى الشافعي وأفتى بما ظهر له كما كان يفعل الصحابة رضي الله عنهم والأئمة ، فأما من ليس له رتبة الاجتهاد وهو حكم كل أهل العصر وإنما يفتي فيما يسأل عنه ناقلًا عن مذهب صاحبه فلو ظهر له ضعف مذهب لم يجره أن يتركه ، فأى فائدة له في المناظرة ومذهب معلوم وليس له الفتوى بشيء ؟ وما يشكل عليه يلزمه أن يقول : لعل عند صاحب مذهبي جواباً عن هذا فإني لست مستقلاً بالاجتهاد في أصل الشرع . ولو كانت مباحثته عن المسائل التي فيها وجهان أو قولان لصاحبه لكان أشبه به ، فإنه ربما يفتي بأحدهما فيستفيد من البحث ميلاً إلى أحد الجانبين ولا يرى المناظرات جارية فيها قط ، بل ربما ترك المسألة التي فيها وجهان أو قولان وطلب مسألة يكون الخلاف فيها مبتوتاً .

الرابع : أن لا يناظر إلا في مسألة واقعة أو قريبة الوقوع غالباً فإن الصحابة رضي الله عنهم ما تشاوروا إلا فيما تجدد من الوقائع أو ما ينبو وقوعه كالقراض ، ولا ترى المناظرين يهتمون باقتتاد المسائل التي تعم البلوى بالفتوى فيها بل يطلبون الطبوليات التي تسمع فيستعجال الجدل فيها كيئفاً كان الأمر ، وربما يتركون ما يكثر وقوعه ويقولون

#### الباب الرابع

(١) حديث أنس « قيل يا رسول الله متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... الحديث » أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن .

هذه مسألة خيرية أو هي من الزوايا وإيست من الطبوليات ، فن العجائب أن يكون المطلب هو الحق ثم يتكون المسألة لأنها خيرية ومترك الحق فيها هو الإختيار ! أو لأنها ليست من الطبول فلا نطول فيها الكلام . والمقصود في الحق أن يقصر الكلام ويبلغ الغاية على القرب لا أن يطول .

الخامس : أن تكون المناظرة في الخلوة أحب إليه وأهم من المحافل وبين أظهر الأكابر والسلاطين فإن الخلوة أجمع القهزم وأحرى بصفاء الذهن والفكر ودرك الحق ، وفي حضور الجمع مبعرك دواعي الزياء . ويوجب الحرص على نصرة كل واحد نفسه محققاً أن أو مبطلا ، وأنت تعلم أن حرصهم على المحافل والجماع ليس لله وأن الواحد منهم يغلو بصاحبه مدة طويلة فلا يكلمه وربما يقترح عليه فلا يجيب وإذا ظهر مقدم أو انتظم جمع لم يغادر في قوس الاحتمال منزعا حتى يكون هو المتخصص بالكلام .

السادس : أن يكون في طلب الحق كأشد حذالة لا يفرق بين أن تظهر الفضالة على يد من يعاونه ويرى رفيقه معينا لا خصما ويشكره إذا عرفه الخطأ وأظهر له الحق ، كما لو أخذ طريقاً في طلب ضالته فبهبه صاحبه على ضالته في طريق آخر فإنه كان يشكره ولا يذمه ويكرمه ويفرح به فهكذا كانت مشاورات الصحابة رضي الله عنهم حتى أن امرأة ردت على عمر رضي الله عنه ونهته على الحق وهو في خطيئة على ملاه من الناس فقال : أصابت امرأؤا خطأ رجلا . وسأل رجلا عليا رضي الله عنه فأجابه فقال : ليس كذلك يا أمير المؤمنين ولكن كذا وكذا فقال : أصبت وأخطأت وفوق كل ذي علم عليم واستدرك ابن مسعود على أبي موسى الأشعري رضي الله عنهما فقال أبو موسى : لأنسألو في عن شيء ، وهذا الخبر بين أظهرهم ، وذلك لما سأل أبو موسى عن رجل قاتل في سبيل الله فقتل فقال : هو في الجنة . وكان أمير الكوفة فقام ابن مسعود فقال : أعده على الأمير فقله لم يفهم ؟ فأعادوا عليه فأعاد الجواب فقال ابن مسعود : وأنا أقول إن قتل فأصاب الحق فهو في الجنة . فقال أبو موسى : الحق ما قال . وهكذا يكون إضفاء طالب الحق ! ولو ذكر مثل هذا الآن لأتلف فقيه لأنكره واستبعد وقال : لا يحتاج إلى أن يقال أصاب الحق فإن ذلك معلوم لكل أحد . فانظر إلى مناظري زمانك اليوم كيف يسود وجه أحدكم إذا انفضح الحق على لسان خصمه وكيف يتجمل به وكيف يجتهد في مجادته بأقصى قدرته وكيف يذم من ألحظه طول عمره ثم لا يستحي من تشبيه نفسه بالصحابة رضي الله عنهم في تعاونهم على النظر في الحق ؟

السابع : أن لا يمنع معيته في النظر من الانتقال من دليل إلى دليل ومن إشكال إلى إشكال ، فهكذا كانت مناظرات السلف . ويخرج من كلامه جميع دقائق الجدل المبتدعة فيها له وعليه كقوله : هذا لا يلزمي ذكره ، وهذا يناقض كلامك الأول فلا يقبل منك . فإن الرجوع إلى الحق مناقض للباطل ويجب قبوله .

وأنت ترى أن جميع المجالس تنقضي في المداغعات والمجادلات حتى يقبس المستدل على أصل بعله يظنها فيقال له : ما الدليل على أن الحكم في الأصل ملل بهذه العلة ؟ فيقول : هذا ما ظهر لك لي ، فإن ظهر لك ما هو أوضح منه وأولى فذكره حتى أظفر فيه ، فيصير المعارض ويقول فيه معان سوى ما ذكرته وقد عرفتها ولا أذكرها إذ لا يلزمي ذكرها ، ويقول المستدل عليك إيراد ما تدعيه وراء هذا ، ويصر المعارض على أنه لا يلزمه ويتوخي مجالس المناظرة بهذا المجلس من السؤال وأمثاله ولا يعرف هذا المسكين أن قوله : إن أعره ولا أذكره إذ لا يلزمي ، كذب على الشرح . فإنه إن كان لا يعرف معناه وإنما يدعيه ليسجى خصمه فهو فاسق كذاب عصى الله تعالى وتعرض لسخطه بسعواه معرفة هو حال عنها وإن كان صادقا فقد فسق بإخفائه ما عرفه من أمر الشرع . وقد سأله آخر المسلم ليفهمه وينظر فيه فإن كان قويا رجح إليه وإن كان ضعيفا أظهر له ضعفه وأخرج به عن ظلمة الجهل إلى نور العلم ولا خلاف أن إظهار ما علم من علوم الدين بعد السؤال عنه واجب لازم ففني قوله : لا يلزمي ، أي في شرع الجدل الذي أبدعناه بحكم التشبه والرغبة في طريق الاحتمال والمصارعة بالكلام لا يلزمي وإلا فهو لازم بالشرع ، فإنه باتمناحه عن الذكر إما كاذب وإما فاسق فضحص عن مشاورات الصحابة ومفاوضات السلف رضي الله عنهم .

هل سمعت فيها ما يضاهاى هذا المجلس وهل منع أحد من الانتقال من دليل ومن قياس إلى أثر ومن خبر إلى آية ؟ بل جميع مناظراتهم من هذا الجنس إذ كانوا يذكرون كل ما يحظر لهم كما يحظر وكانوا ينظرون فيه .  
الثامن : أن بناظر من يتوقع الاستفادة منه ممن هو مشتغل بالعلم . والغالب أنهم يحترزون من مناظرة الفحول والآكار خوفا من ظهور الحق على ألسنتهم فيرغبون فيمن دوتهم طمعا في ترويج الباطل عليهم ووراء هذه شروط دقيقة كثيرة ولكن في هذه الشروط الثانية ما يهديك إلى من بناظر الله ومن بناظر لعله .

وأصلم بالجملة أن من لا بناظر الشيطان وهو مستول على رقبته وهو أعدى عدوه ولا يزال يدعو إلى هلاكه ثم يشتغل بمناظرة غيره في المسائل التي المجتهد فيها مصيب أو مسام للمصيب في الأجر فهو ضحكة للشيطان وعبرة للمخلصين ولذلك شمت الشيطان به لما غسه فيه من ظلمات الآفات التي نعددها ونذكر تفاصيلها، فنسأل الله حسن العون والتوفيق .

### بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق

اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعة لقصد الغلبة والإحكام وإظهار الفضل والشرف والتشويق عند الناس وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس هي منبع جميع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس . ونسبتها إلى الفواحش الباطنة من التكبر والعجب والحسد والمنافسة وتركبة النفس وحب الجاه وغيرها كنسبة شرب الخمر إلى الفواحش الظاهرة من الزنا والقتل والسرقة . وكما أن الذي خبير بين الشرب وسائر الفواحش استصغر الشرب فأقدم عليه فدعاه ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش في سكره فكذلك من غلب عليه حب الإحكام والغلبة في المناظرة وطلب الجاه والمباهاة دعاه ذلك إلى إضرار الغيبيات كلها في النفس وهي جميع الأخلاق المذمومة : وهذه الأخلاق ستأتي أدلة مذهبنا من الأخبار والآيات في ربيع المهلكات . ولسكتنا نشير الآن إلى مجامع ماتميجها المناظرة فيها الحسد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » (١) ولا ينفك المناظر عن الحسد فإنه تارة يغلب وتارة يهبط ويحمد كلامه وأخرى يحمد كلام غيره . فما دام بقي في الدنيا واحد يذكر بقوة العلم والنظر أو يظن أنه أحسن منه كلاما وأقوى نظرا فلا بد أن يحسده ويحب زوال النعم عنه وأنصراف القلوب والوجوه عنه إليه . الحسد نار محرقة فن بلى به فهو في العذاب في الدنيا والعذاب الآخرة أشد وأعظم ، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما : خذوا العلم حيث وجدتموه ولا قبلوا قول الفقهاء بعضهم على بعض فإنهم يتغابرون كما تغابر التيس في الزريبة . ومنها التكبر والترفع على الناس فقد قال صلى الله عليه وسلم « من تكبر وضعه الله ومن تواضع رفعه الله » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم حكاية عن الله تعالى « العظمة إزارى والكبرياء رداى فن نازعنى فيهما قصصه » (٣) ولا ينفك المناظر عن التكبر على

(١) حديث « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة . وقال البخارى : لا يصح . وهو عند ابن ماجه من حديث أنس بإسناد ضعيف ، وفي تاريخ بغداد بإسناد حسن .

(٢) حديث « من تكبر وضعه الله ... الحديث » أخرجه الخطيب من حديث عمر بإسناد صحيح وقال : غريب من حديث الثوري ، ولان ماجه نحوه من حديث أبي سعيد بسند حسن .

(٣) حديث « الكبرياء رداى والعظمة إزارى ، .. الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة وهو عند مسلم بلفظ « الكبرياء رداؤه » من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .

الأقران والأمثال والرفع إلى فوق قدره حتى إنهم ليقاثلون على مجلس من المجالس يتنافسون فيه في الارتفاع والانخفاض والقرب من وسادة الصدر والبعد منها والتقدم في الدخول عند مضائق الطرق ؛ وربما يتعلل النبي والمساكين الخداع منهم بأنه يبقى صيانة عز العالم ، وأن المؤمن منهي عن الإذلال لنفسه<sup>(١)</sup> ، فيعبر عن التواضع الذي أنشأ الله عليه وسائر أنبيائه بالذل وعن التكبر المقوت عند الله بعر الدين تحريفاً للامس وإضلالاً للخلق به كما فعل في اسم الحكمة والعلم وغيرهما .

ومنها الحقد فلا يكاد المناظر يخلو عنه . وقد قال صلى الله عليه وسلم « المؤمن ليس بحقود<sup>(٢)</sup> » وورد في ذم الحقد ما لا يحصى ، ولا نرى مناظراً يقدر على أن لا يضمر حقداً على من يحرك رأسه من كلام خصمه ويتوقف في كلامه فلا يقابله بحسن الإصغاء بل يضطر إذا شاهد ذلك إلى إضمار الحقد وتربيته في نفسه وغاية تماسكه بالإخفاء بالنفاق ويتزحزح منه إلى الظاهر لاحالة في غالب الأمر ، وكيف ينفك عن هذا ولا يتصور اتفاق جميع المستمعين على ترجيح كلامه واستحسان جميع أحواله في إرضاء وإصداره ؟ بل لو صدر من خصمه أدنى سبب فيه قلة مبالاة بكلامه انقرس في صدره حقد لا يقلعه مدى الدهر إلى آخر العمر .

ومنها الغيبة وقد شبهها الله بأكلم الميتة ولا يزال المناظر مثابراً على أكل الميتة فانه لا ينفك عن حكاية كلام خصمه ومذمة ، وغاية تحفظه أن يصدق فيما يحكيه عليه ولا يكذب في الحكاية عنه فيحكي عنه لاحالة ما يدل على قصور كلامه وعجزه ونقصان فضله وهو الغيبة ؛ فأما الكذب فهتان وكذلك لا يقدر على أن يحفظ لسانه عن التعرض لمرض من يمرض عن كلامه ويصغى إلى خصمه ويقبل عليه حتى ينسب إلى الجهل والحمالة والفهم والبلادة .

ومنها تزكية النفس ، قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ وقيل للحكيم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه ، ولا يخلو المناظر من الثناء على نفسه بالقوة والغلبة والتقدم بالفضل على الأقران ، ولا ينفك في أثناء المناظرة عن قوله : لست بمن يخفى عليه أمثال هذه الأمور وأنا المتفنن في العلوم والمستقل بالاصول وحفظ الأحاديث وغير ذلك مما يتمدح به تارة على سبيل الصلف وتارة للحاجة إلى ترويح كلامه . ومعلوم أن الصنف والتمدح مذمومان شرعا وعقلا ومنها التجسس وتبعية عورات الناس ، وقد قال تعالى ﴿ ولا تجسسوا ﴾ والمناظر لا ينفك عن طلب عورات أقرانه وتبعية عورات خصومه حتى إنه ليخبر بورود مناظر إلى بدنه فيطلب من مخبره بواطن أحواله ويستخرج بالسؤال مقابحه حتى يهدأ ذخيرة لنفسه في إفصاحه وتخجيله إذا مست إليه حاجة حتى إنه ليستكشف عن أحوال صباه وعن عيوب بدنه قصاه يعثر على هفوة أو على عيب به من قرع أو غيره ، ثم إذا أحسن بأدنى غلبة من جهته عرض به إن كان متأسكاً ويستحسن ذلك من لطائف التسبب ولا يتمتع عن الإفصاح به إن كان متوجهاً بالسفاقة والاستزراء كما حكى عن أكابر المناظرين المحدثين من غولهم . ومنها الفرح لمساءة الناس والتمس لمسارهم ومن لا يجب لأخيه المسلم ما يجب لنفسه فهو بعيد من أخلاق المؤمنين ، فكل من طلب المباهاة بإظهار الفضل يسره لاحالة ما يسره أقرانه وأشكاله الذين يسامونه في الفضل ويكون التباغض بينهم كما بين الضرائر فكما أن إحدى الضرائر إذا رأت صاحبها من بعيد ارتعدت فرائضها واصفر لونها فهكذا ترى المناظر إذا رأى مناظراً تغير لونه واضطرب عليه فكره فكأنه يشاهد شيطاناً مارداً أو سحياً ضارياً ، فإين الاستئناس والاسترواح الذي كان يجري بين علماء الدين عند اللقاء وما تقل عنهم من المؤاغة والتناصر والتسامح في السراء

(١) حديث « نهى المؤمن عن إذلال نفسه » أخرجه الترمذی وصححه وابن ماجه من حديث حذيفة « لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه » .

(٢) حديث « المؤمن ليس بحقود » لم أقف له على أصل .

والضراء حتى قال الشافعي رضى الله عنه : العلم بين أهل الفضل والعقل رحم متصل ؟ فلا أدري كيف يدعى الاقتداء بمذهبه جماعة صار العلم بينهم عدواة قاطلة ! قبل يتصور أن ينسب الآنس بينهم مع طلب الغلبة والمباهاة هيئات هيئات وناهيك بالشر شراً أن يلزمك أخلاق المنافقين ويبرئك من أخلاق المؤمنين والمؤمنين .

ومنها النفاق فلا يحتاج إلى ذكر الشواهد في ذمه وهم مضطرون إليه فأنهم يلقون الخصوم ومحبيهم وأشياهم ولا يصدقون بدا من التودد إليهم باللسان وإظهار الشوق والاعتداد بمكانتهم وأحوالهم ويعلم ذلك المخاطب والمخاطب وكل من يسمع منهم أن ذلك كذب وزور وتفاق وجور فأنهم متوددون بالأسنة متباغضون بالقلوب نعوذ بالله العظيم منه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسنن وتباغضوا بالقلوب وتقاتلوا في الأرحام لعنهم الله عند ذلك فأصمهم وأعمى أبصارهم (١) » رواه الحسن وقد صح ذلك بمشاهدة هذه الحالة .

ومنها الاستكبار عن الحق وكراهته والحرص على المماراة فيه حتى إن أبغض شيء إلى المناظر أن يظهر على لسان خصمه الحق ومهما ظهر تضرر لمجده وإنكاره بأقصى جهده وبذل غاية إمكانه في المخادعة والمكر والحيلة لدفعه حتى تصير المماراة فيه عادة طبيعية فلا يسمع كلاماً إلا وينبت من طبعه داعية الاعتراض عليه حتى يقلب ذلك على قلبه في أدلة القرآن وألفاظ الشرع فيضرب البعض منها ببعض ، والمرأه في مقابلة الباطل محذور إذ ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ترك المراء بالحق على الباطل قال صلى الله عليه وسلم « من ترك المراء وهو مبطل بنى الله له بيتاً في ريعن الجنة ومن ترك المراء وهو محق بنى الله له بيتاً في أعلى الجنة (٢) » وقد سوى الله تعالى بين من أقرى على الله كذباً وبين من كذب بالحق فقال تعالى ﴿ ومن أظلم ممن أقرى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه ﴾ وقال تعالى ﴿ فن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه ﴾ .

ومنها الرياء وملاحظة الخلق والجهد في استئالة قلوبهم وصرف وجوههم والرياء هو الداء العضال الذي يدعو إلى أبحر السكائر — كما سيأتى في كتاب الرياء — والمناظر لا يقصد الا الظهور عند الخلق وانطلاق ألسنتهم بالثناء عليه فهذه عشر خصال من أمهات الفواحش الباطنة سوى ما يتفق لغير المتساكن منهم من الخصاص المؤدى إلى الضرب والسك والظلم وتمزيق الثياب والأخذ بالبعي وسب الوالدين وشتم الاستاذين والقتل الصريح فإن أولئك ليسوا مدعويين في زمرة الناس المتعبدون وإنما الأكابر والعقلاء منهم هم الذين لا يفسكون عن هذه الخصال العشر ، نعم قد يسلم بعضهم من بعضها مع من هو ظاهر الاحتطاط عنه أو ظاهر الارتفاع عليه أو هو بعيد عن بلده وأسباب معيشتة ، ولا ينفيك أحد منهم عنه مع أشكاله المقارنين له الدرجة .

ثم ينقسم من كل واحدة من هذه الخصال العشر عشر أخرى من الرذائل لم نقول بذكرها وتفصيل آحادها مثل : الألفة ، والغضب ، والبغضاء ، والطمع ، وحب طلب المال ، والجاه للتمكن من الغلبة ، والمباهاة ، والاشهر ، والبطر وتعظيم الأغنياء والسلاطين والتردد إليهم والأخذ من حرامهم ، والتجمل بالخيول والمراكب والشباب المحظورة ، والاستحقار للناس بالفخر والخيلاء ، والخوض فيما لا يعنى ، وكثرة الكلام ، وخروج الحشية والخوف ، والرحمة من القلب واستيلاء الغفلة عليه حتى لا يدري المصلى منهم في صلاته ماضى وما الذى يقرأ ومن الذى يتناجيه ؟ ولا يصح بالخشوع من قلبه مع استغراق العمر في العلوم التى تدين في المناظرة مع أنها لا تنفع في الآخرة : من تحسين العبارة وتسجيع اللفظ

(١) حديث « إذا تعلم الناس العلم وتركوا العمل وتحابوا بالأسنن وتباغضوا بالقلوب ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث سلمان بن يسناد ضعيف .

(٢) حديث « من ترك المراء وهو مبطل ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أنس مع اختلاف . قال الترمذى : حسن .

وحفظ النواذر إلى غير ذلك من أمور لا تحصى . والمناظرون يتفاوتون فيها على حسب درجاتهم ولهم درجات شتى ولا ينفك أعظمهم ديناً وأكثرم عقلاً عن جبل من مواد هذه الأخلاق وإنما غاية إخفاؤها ومجاهدة النفس بها . واعلم أن هذه الرذائل لازمة للشغل بالتذكير والوعظ أيضاً إذا كان قصده طلب القبول وإقامة الجاه ونيل الثروة والعزة وهي لازمة أيضاً للشغل بعلم المذهب والفتاوى إذا كان قصده طلب القضاء وولاية الأوقاف والتقدم على الأقران . وبالجملة هي لازمة لكل من يطلب بالعلم غير ثواب الله تعالى في الآخرة فالعلم لا يحمل العالم بل يهلكه هلاك الأبد أو يحميه حياة الأبد ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه » فلقد ضره مع أنه لم ينفعه ؛ وليته نجا منه رأساً برأس ؛ وهبات وهبات فخطر العلم عظيم ، وطالب طالب الملك المؤبد ، والنعيم السرمد ، فلا ينفك عن الملك أو الهلك ؛ وهو كطالب الملك في الدنيا ، فإن لم يتفق له الإصافة في الأموال لم يطمع في السلامة من الإذلال بل لا بد من لزوم أفصح الأحوال

فإن قلت : في الرخصة في المناظرة فائدة وهي ترغيب الناس في طلب العلم إذ لو لاحب الرياسة لا ندرست العلوم ؛ فقد صدقت فبما ذكرته من وجه ولكنه غير مفيد إذ لو لا الوعد بالكرة والصولجان واللعب بالمصافير ما رغب الصبيان في المكتتب وذلك لا يدل على أن الرغبة فيه محمودة ؛ ولو لاحب الرياسة لا ندرس العلم . ولا يدل ذلك على أن طالب الرياسة ناج بل هو من الذين قال صلى الله عليه وسلم فيهم « إن الله ليؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر »<sup>(٢)</sup> « فطالب الرياسة في نفسه هالك وقد يصلح بسببه غيره إن كان يدعو إلى ترك الدنيا وذلك فيمن كان ظاهر حاله في ظاهر الأمر ظاهر حال علباء السلف ولكنه يضر قصد الجاه ، فمثاله مثال الشمع الذي يحترق في نفسه ويستضيء به غيره فصلاحي غيره في هلاكه فأما إذا كان يدعو إلى طلب الدنيا فمثاله مثال النار المحرقة التي تأكل نفسها وغيرها . فالعلباء ثلاثة : إما مهلك نفسه وغيره وهم المصحرون بطلب الدنيا والمقبلون عليها ، وإما مسعد نفسه وغيره وهم الداعون الخلق إلى الله سبحانه ظاهراً وباطناً ، وإما مهلك نفسه مسعد غيره وهو الذي يدعو إلى الآخرة وقد رفض الدنيا في ظاهره وقصده في الباطن قبول الخلق وإقامة الجاه ؛ فانظر من أي الأنسام أنت ومن الذي اشتغلت بالاعتداء له ؟ فلا تظن أن الله تعالى يقبل غير الخالص لوجهه تعالى من والعمل وسيائلك في كتاب الرياء بل في جميع ربيع المهلكات ما ينفي عنك الريية فيه إن شاء الله تعالى .

## الباب الخامس

### في آداب المتعلم والمعلم

أما المتعلم فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن ننظم تفاريقها عشر جعل :

الوظيفة الأولى : تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الأوصاف إذ العلم عبادة القلب وصلاوة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى ؛ وكما لا تصح الصلاة التي هي وظيفة الجوارح الظاهر إلا بتطهير الظاهر عن الأحداث والإغبات فكذلك لا تصح عبادة الباطن وعمارة القلب بالعلم إلا بعد طهارته عن غيابة الأخلاق وأنجاس

(١) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم » أخرجه النسائي من حديث أنس بإسناد صحيح .

(٢) حديث « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » متفق عليه من حديث أبي هريرة



الأوصاف . قال صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة<sup>(١)</sup> » وهو كذلك باطننا وظاهرنا قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ﴾ نتيجها للعقول على أن الطهارة والنجاسة غير مقصورة على الظواهر بالحس فالمشرك قد يكون نظيف الثوب مفسول البدن ولكنه نجس الجوهر أى باطنه ملطخ بالخبائث .

والنجاسة عبارة عما يجنب ويطلب البعد منه وخبائث صفات الباطن أهم بالاجتناب فإنها مع خبثها في الحال مهيكلت في المآل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب<sup>(٢)</sup> » والقلب بيت هو منزل الملائكة ومهبط أثرهم ، محل استقرارهم ، والصفات الرديئة مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب وأخوانها كلاب ناجمة فأتى تدخله الملائكة وهو مشحون بالسكالب ونور العلم لا يقذفه الله تعالى في القلب إلا بواسطة الملائكة ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء ﴾ وهكذا ما يرسل من رحمة العلوم إلى القلوب وإنما تتولاها الملائكة الموكلون بها وهم المقدسون المطهرون المبرءون عن الصفات المذمومات فلا يلاحظون إلا طيبا ولا يعمرون بماعتهم من خزائن رحمة الله إلا طيبا طاهرا . ولست أقول المراد بلفظ « البيت » هو القلب و « بالسكالب » هو الغضب والصفات المذمومة ولكني أقول هو نتيجته عليه ، وفرق بين تعبير الظواهر إلى البواطن وبين التنبيه للبواطن من ذكر الظواهر مع تقرير الظواهر ، فقارق الباطنية بهذه الدقيقة ، فإن هذه طريق الاعتبار وهو مسلك العلماء والأبرار إذ معنى الاعتبار أن يعبر ما ذكر إلى غيره فلا يقتصر عليه كما يرى العاقل مصيبة لغيره فيكون فيها له عبرة بأن يعبر منها إلى التنبيه لكونه أيضا عرضة للمصائب وكون الدنيا بصدد الانقلاب ، فعبره من غيره إلى نفسه ومن نفسه إلى أصل الدنيا عبرة محدودة . فاعبر أنت أيضا من البيت الذي هو بناء الخلق إلى القلب الذي هو بيت من بناء الله تعالى ومن السكالب الذي ذم لصفته - لا لصورته - وهو ما فيه من سلبية ونجاسة إلى الروح السلبية وهي السلبية .

واعلم أن القلب المشحون بالغضب والشره إلى الدنيا والتسكيب عليها والحرص على التزويق لأعراض الناس كلب في المعنى وقلب في الصورة ، فنور البصيرة يلاحظ المعاني لا الصور . والصور في هذا العالم غالبة على المعاني والمعاني باطنة فيها ، وفي الآخرة تتبع الصور المعاني وتقلب المعاني . فلذلك يمشرك كل شخص على صورته المعنوية ، فيحشر الممزق لأعراض الناس كلبا ضاربا ، والشره إلى أموره مذميا عاديا ، والمتسكيب عليهم في صورة حر ، وطالب الرياسة في صورة أسد<sup>(٣)</sup> » وقد وردت بذلك الأخبار وشهد به الاعتبار عند ذوى البصائر والأبصار .

فإن قلت : كم من طالب ردى الأخلاق حصل العلوم ففهمها ما أبعد عن العلم الحقيقي النافع في الآخرة فالجواب السعاده فإن من أوائل ذلك العلم أن يظهر له أن المعاصي محوم فأنه مهيكلت وهل رأيت من يتناول سمعا عليه بكونه سمعا قاتلا؟ إنما الذي تسمعه من التبرمين حديث يلقونه بالسنتهم مرة ويرددونه بقلوبهم أخرى وليس ذلك من العلم في شيء . قال ابن مسعود رضى الله عنه ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب . وقال بعضهم : إنما العلم الحقيقية لقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وكأنه أشار إلى أخص ثمرات العلم . ولذلك قال بعض المحققين : معنى قولهم

### الباب الخامس

(١) حديث « بنى الدين على النظافة » لم أجده هكذا . وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » وللطبراني في الأوسط بسند ضعيف جدا من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان »

(٢) حديث « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب » متفق عليه من حديث أبي طلحة الأنصاري .

(٣) حديث « حشر الممزق لأعراض الناس في صورة كلب ضار » . الحديث أخرجه التلبي في التفسير من حديث

البراء بسند ضعيف .

« تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون لإله » أن العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه .

فإن قلت : إني أرى جماعة من العلماء الفقهاء المحققين يزوروا في الفروع والأصول وعدوا من جملة الفحول وأخلاقهم ذميمة لم يتطهروا منها ؟ فيقال إذا عرفت مراتب العلوم وعرفت علم الآخرة استبان لك أن ما اشتغلوا به قليل الغناء من حيث كونه علما وإنما غناؤه من حيث كونه عملا لله تعالى إذا قصد به التقرب إلى الله تعالى وقد سبقنا إلى هذا إشارة . وسيا تيك فيه مزيد بيان وإيضاح إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانية : أن يقلل علاقته من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الأهل والوطن فإن العلائق شائعة وصارفة (و) ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ) ومهما توزعت الفكرة قصرت عن درك الحقائق ولذلك قيل « العلم لا يطهرك بعضه حتى تطهيه كله فإذا أعطيت كله فأنت من عطائه إياك بعضه على خطر » والفكرة المتوزعة على أمور متفرقة كجدول تنفرق ماؤه فنشفت الأرض وبعضه واختطف الهواء ببعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ المزدوج .

الوظيفة الثالثة : أن لا يتكبر على العلم ولا يتأثر على المعلم بل يبقى إليه زمام أمره بالسكينة في كل تفصيل ويذعن لنصيحته إذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق ، وينبغي أن يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمة . قال الشعبي « صلى زيد بن ثابت على جنازة فقربت إليه بفكه ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد : خل عنه يا ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ابن عباس : هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء فقبل زيد ابن ثابت يده وقال : هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم « ليس من أخلاق المؤمن التعلق إلا في طلب العلم<sup>(٢)</sup> » فلا يلبس لطالب العلم أن يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم أن يستنكف عن الاستفادة إلا من المرموقين المشهورين وهو عين الحماقة فإن العلم سبب النجاة والسعادة ، ومن يطلب مهربا من سبع ضار يفرسه لم يفرق بين أن يرشده إلى الحرب مشهور أو غامل، وضراوة سباع النار بالجهل بالله تعالى أشد من ضراوة كل سبع فالسكينة ضالة المؤمن يقتنمها حيث يظهر بها ويتقصد الثمن سافها إليه كائنا من كان، فذلك قيل :

المعلم حرب الفتى المتصل كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم إلا بالتواضع وإلقاء السمع قال الله تعالى ( إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ) ومعنى كونه ذا قلب أن يكون قابلا للعلم فهما ، ثم لانهيته القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كل ما ألقى إليه بحسن الإصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنفعة . فليسكن المتعلم لمعلمه ككأرض دمنة نالت مطرا غزيرا فقشربت جميع أجزائها وأذهنت بالسكينة لقبوله . ومهما أشار عليه المعلم بطريق في التعلم فليقبله وليدع رأيه فإن خطأ مرشده أنفع له من صوابه في نفسه إذ التجربة تطلع على دقائق يستغرب سماعها مع أنه يعظم نفعا ، فكمن مريض محروور يعالجه الطبيب في بعض أوقاته بالحرارة يزيد في قوته إلى حد يحتمل صدمة العلاج فيعجب منه من لا خبرة له به ، وقد نبه الله تعالى بقصة الخضر وموسى عليهما السلام حيث قال الخضر ( إنك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبر أ ) ثم شرط عليه السكوت والتسليم فقال ( فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا ) ثم لم يصبر ولم يزل في مراودته إلى أن كان ذلك سبب الفراق بينهما . وبالجملة كل متعلم استبقى لنفسه رأيا واختيارا

(١) حديث « أخذ ابن عباس بركاب زيد بن ثابت » وقوله « هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء » أخرجه الطبراني والحاكم والبيهقي في المدخل إلا أنهم قالوا « هكذا نفعل » قال الحاكم : صحيح الإسناد على شرط مسلم .

(٢) حديث « ليس من أخلاق المؤمن الملق إلا في طلب العلم » أخرجه ابن عدي من حديث معاذ وأبي أمامة بإسنادين ضعين .

دون اختيار المعلم فاحكم عليه بالإخفاق والخسران .

فإن قلت : فقد قال الله تعالى ﴿ فاسألوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون ﴾ فالسؤال مأثور به ؟ فأعلم أنه كذلك ولكن فيما يأذن المعلم في السؤال عنه ، فإن السؤال عما لم تبلغ مرتبتك إلى فهمه مذموم ، ولذلك منع الخضر موسى عليه السلام من السؤال قبل أوانه فالمعلم أعلم بما أنت أهل له وبأوان الكشف ، ومالم يدخل أوان الكشف في كل درجه من مراتب الدرجات لا يدخل أوان السؤال عنه . وقد قال علي رضي الله عنه : إن من حق العالم أن لا تكثر عليه بالسؤال ولا تمتنه في الجواب ، ولا تلج عليه إذا كل ولا تأخذ بشو به إذا نهض ، ولا تغش له سرأولا فتتأين أحدا عنده ولا تطلبن عثرته ، وإن ذل قبلت معذرتة ، وعليك أن توقره وتعظمه لله تعالى مادام يحفظ أمر الله تعالى ، ولا تجلس أمامه ، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

الوظيفة الرابعة : أن يحترز الغائص في العلم في مبدل الأمر عن الإصغاء إلى اختلاف الناس ، سواء كان ماخاض فيه من علوم الدنيا أو من علوم الآخرة ، فإن ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤسسه عن الإدراك والاطلاع ، بل ينبغي أن يتقن أولا الطريق الحميدة الواحدة المرضية عند أستاذة ، ثم بعد ذلك يصنى إلى المذاهب والشبه . وإن لم يكن أستاذة مستقلا باختيار رأى واحد وإنما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها فليحذر منه فإن إضلاله أكثر من إرشاده فلا يصلح الأعمى لقود العميان وإرشادهم ، ومن هذا حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل ومنع المبتدئ عن الشبه يضاهي منع الحديث العهد بالإسلام عن غفلة الكفار ، ونذب القوى إلى النظر في الاختلافات يضاهي حث القوى على غفلة الكفار ، ولهذا يمنع الجبان عن التهمج على صف الكفار ويندب الدجاجة . ومن الغفلة عن هذه الدقيقة ظن بعض الضعفاء أن الاقتداء بالأقوياء فيما ينقل عنهم من المساهلات جائز ، ولم يدرك أن وظائف الأقوياء تخالف وظائف الضعفاء . وفي ذلك قال بعضهم : من رآني في البداية صار صديقا ، ومن رآني في النهاية صار زنديقا ، إذ النهاية ترد الأعمال إلى الباطن وتسكن الجوارح إلا عن روائب الغرائض ، فتراعى للناظرين أنها بطالة وكسل وإهمال ، وهيئات فذلك مراعاة القلب عين الشهود والحضور وملازمة الذكر الذي هو أفضل الأعمال على الدوام ، ونقبة الضعيف بالقوى فيأبى من ظاهره أنه حقوة يضاهي اعتذار من يلقي نجاسة سيرة في كوز ماء وتعلم بأن أضغاف هذه النجاسة قد يلقي في البحر والبحر أعظم من الكوز فإجاز للبحر فهو للكوز أجوز . ولا يدرك المسكين أن البحر بقوة يحيل النجاسة ماء فتقلب عين النجاسة باستقلاله إلى صفته ، والتقليل من النجاسة يقلب على الكوز ويحيله إلى صفته ، ولئلا هذا يجوز للنبي صلى الله عليه وسلم مالم يجوز لغيره حتى أبيع له أسمع نسوة (١) إذ كان له من القوة ما يتعدى منه صفة العدل إلى نسائه وإن كثرن ، وأما غيره فلا يقدر على بعض العدل بل يتعدى ما يبين من الضرار إليه حتى ينجر إلى معصية الله تعالى في طلبه رضاهن ، فما أفلح من قاس الملاشكة بالحدادين .

الوظيفة الخامسة : أن لا يبدع طالب العلم فنا من العلوم المحمودة ولا نوعا من أنواعه إلا وينظر فيه نظرا يطلع به على مقصده وغايته ، ثم إن ساعده العمر طلب التبصر فيه وإلا اشتغل بالأهم منه واستوفاه وتطرف من البقية ، فإن العلوم متناوئة وبعضها مرتبط ببعض ، ويستفيد منه في الحال ولا تفككك عن عداوة ذلك العلم بسبب

(١) حديث «أبيع له صلى الله عليه وسلم تسعة نسوة» وهو معروف . وفي الصحيحين من حديث ابن عباس «كان عند النبي صلى الله عليه وسلم تسع ... الحديث» .

جهة ؛ فإن الناس أعداء ما جهلوا قال تعالى ﴿ وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إلفك قديم ﴾ . قال الشاعر :

ومن يك ذا قم مر مريض يجهد مرأ به الماء الزلالا

فالعلوم على درجاتها إما سالكة بالعبد إلى الله تعالى ، أو معينة على السلوك نوعاً من الإحاطة ، ولها منازل مرتبة في القرب والبعد من المقصود ، والقوام بها حفظه كحفاظ الرباطات والثغور ، ولكل واحد رتبة وله بحسب درجته أجر في الآخرة إذا قصد به وجه الله تعالى .

الوظيفة السادسة : أن لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل براعى الترتيب ويبتدىء بالآمن ، فإن العصر إذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً فالحزم أن يأخذ من كل شيء أحسنه ويكتفى منه بشمه ويصرف جهام قوته في الميسور من علمه إلى استكمال العلم الذي هو أشرف العلوم وهو علم الآخرة أعنى قسمي المعاملة والمكاشفة ، فغاية المكاشفة معرفة الله تعالى ، ولست أعنى به الاعتقاد الذي يتلقفه العامى ورائة أو تلقفاً ، ولا طريق تحرير الكلام والمجادلة في تحصيل الكلام عن مراوغات الخصوم كما هو غاية المتكلم ، بل ذلك نوع يقين هو ثمرة نور يقذفه الله تعالى في قلب عبد طهر بالمجاهدة باطنه عن الخبائث حتى ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضى الله عنه الذي لو وزن بإيمان العالمين لرجح<sup>(١)</sup> كما شهد له به سيد البشر صلى الله عليه وسلم فما عندي أن ما يعتقده العامى ويرتبه المتكلم الذي لا يزيد على العامى إلا في صنعة الكلام ، ولأجله سميت صناعته كلاماً ، وكان يعجز عنه عمر وعثمان وعلى وسائر الصحابة ورضي الله عنهم ، حتى كان يفضلهم أبو بكر بالسر الذي وفر في صدره ، والعجب ممن يسمع مثل هذه الأقوال من صاحب الشرع - صلوات الله وسلامه عليه - ثم يزدري ما يسمعه على وقفه ويزعج أنه من ترهات الصوفية وأن ذلك غير معقول ، فينبغي أن نتثبت في هذا فمئذ ضمنت رأس المسأل . فكأن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين ولا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب .

وعلى الجملة فأشرف العلوم وغايتها معرفة الله عز وجل وهو بحر لا يدرك منتهى غوره ، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء ثم الأولياء ثم الذين يلونهم ، وقد روى أنه رؤى صورة حكيمين من الحكماء المتقدمين في مسجد وفي يد أحدهما رقعة فيها : إن أحسنت كل شيء فلا تظنن أنك أحسنت شيئاً حتى تعرف الله تعالى وتعلم أنه مسبب الأسباب وموجد الأشياء . وفي يد الآخر : كنت قبل أن أعرف الله تعالى أشرب وأظلم ، حتى إذا عرفته رويت بلا شرب .

الوظيفة السابعة : أن لا يخوض في فن حتى يستوفى الفن الذي قبله ؛ فإن العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق إلى بعض ، والموفق من راعى ذلك الترتيب والتدرج ، قال الله تعالى ﴿ الذين أتواهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ﴾ أى لا يهاوونون فناً حتى يحكوه علماً وعملاً ، ولكن قصده في كل علم يتعمدهم الرقى إلى ما هو فوقه : فينبغي ألا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين أصحابه فيه ، ولا بظناً واحد أو آحاد فيه ، ولا بمخالفتهم موجب طلبهم بالعمل ، ترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات ، متعطلين فيها بأنها لو كان لها أصل لأدركه أربابها ، وقد مضى كشف هذه الشبهة في كتاب ( معيار العلم ) وترى طائفة يعتقدون بطلان الطلب لخطأ شاهده من طيب ، وطائفة اعتقدوا صحة النجوم لصواب اتفاق لواحد ، وطائفة اعتقدوا بطلانه لخطأ اتفاق لآخر . والسكل خطأ ، بل

(١) حديث «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالمين لرجح» أخرجه ابن عدى من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ، ورواه البيهقي في الشعب موقوفاً على عمر بإسناد صحيح .

ينبغي أن يعرف الشيء في نفسه ، فلا كل علم يستقل بالإحاطة به كل شخص ولذلك قال علي رضي الله عنه : لا تعرف الحق بالرجال . اعرف الحق تعرف أهله .

الوظيفة الثامنة : أن يعرف السبب الذي به يدرك أشرف العلوم ، وأن ذلك يراد به شيشان ، أحدهما : شرف الثمرة والثاني : وثاقة الدليل وقوته ، وذلك كعلم الدين وعلوم الطب فإن ثمرة أحدهما الحياة الأبدية وثمره الآخر الحياة الفانية فيسكون علم الدين أشرف . ومثل علم الحساب وعلم النجوم فإن علم الحساب أشرف لوثاقته أدلته وقوتها وإن نسب الحساب إلى الطب كان الطب أشرف باعتبار ثمرته والحساب أشرف باعتبار أدلته وملاحظة الثمرة أولى : ولذلك كان الطب أشرف وإن كان أكثره بالتجمين . وهذا تبين أن أشرف العلوم العلم بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله والعلم بالطريق الموصل إلى هذه العلوم فأياك وأن ترغب إلا فيه وأن تفرغ إلا عليه .

الوظيفة التاسعة : أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه وتجميعه بالفضيلة وفي المال القرب من الله سبحانه والقرى إلى جوار الملك الأعلى من الملائكة والمقرين ، ولا يقصد به الرياسة والمسال والجاه وعماراة السفهاء ومباهاة الأقران وإذا كان هذا مقصده طلب لا محالة الأقرب إلى مقصوده وهو علم الآخرة ، ومع هذا فلا ينبغي له أن ينظر بعين الحفاضة إلى سائر العلوم أعنى علم الفتاوى وعلم النحو واللغة المتعلقين بالكتاب والسنة وغير ذلك مما أوردناه في المقدمات والتمتات من ضروب العلوم التي هي فرض كفاية ، ولا تقضم من غلونا في الشتاء على علم الآخرة تهجين هذه العلوم فالتكفلون بالعلوم كالشكفلين بالثغور والمراطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله فهم المقاتل ومنهم الرده ومنهم الذي يسقطهم الماء . ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعمدهم ولا ينفك أحد منهم عن أجر إذا كان قصده لإعلاء كلمة الله تعالى دون حيازة الغنائم فكذلك العلماء قال الله تعالى ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ وقال تعالى ﴿ هم درجات عند الله ﴾ والفضيلة نسبية . واستحقاقنا الصدارة عند قياسهم بالملك لا يدل على حقارتهم إذا قيسوا بالكتبيين فلا تظن أن مازل عن الرتبة القصوى ساقط القدر بل الرتبة العليا للأنبياء ثم الأولياء ثم العلماء الراسخين في العلم ثم للصالحين على تفاوت درجاتهم وبالجملة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾ ومن قصد الله تعالى بالعلم - أي علم - كان نفعه ورفع له لأعلاء .

الوظيفة العاشرة : أن يعلم نسبة العلوم إلى المقصد كما يؤثر الرفيع القريب على البعيد والمهم على غيره - ومعنى المهم ما يملك - ولا يملك إلا شأنك في الدنيا والآخرة . وإذا لم يمكنك الجمع بين ملاذ الدنيا ونعيم الآخرة كما نطق به القرآن وشهد له من نورد البصائر ما يجري الميان فالأهم ما يبقى أبد الآباد وعند ذلك تصير الدنيا منزلا والبدن مركبا والأعمال سمعا إلى المقصد ولا مقصد إلا لقاء الله تعالى فنيه النعيم كله وإن كان لا يعرف في هذا العلم قدره إلا الأفلون .

والعلوم بالإضافة إلى سعادة لقاء الله سبحانه والنظر إلى وجهه الكريم - أعنى النظر الذي طلبه الأنبياء وفهموه ودون ما يسبق إلى فهم العوام والمتكلمين - على ثلاث مراتب تفهما بالموازنة بمثال وهو أن العبد الذي علق عقله وتمكينه من الملك بالحج وقيل له إن حججت وأتممت وصلت إلى التيق والمملك جميعا وإن ابتدأت بطريق الحج والاستمداد له وعاقبك في الطريق مانع ضروري فلك العتق والخلاص من شقاء الرق فقط دون سعادة الملك فله ثلاثة أصناف من الشغل :

الأول : تهيئة الأسباب بشراء الثاقه وخز الرأوية وإعداد الزاد والراحلة .

والثاني : السلوك ومفارقة الوطن بالتوجه إلى الكعبة منزلا بعد منزل .

والثالث : الاشتغال بأعمال الحج وكتابه ركن ثم بعد الفزاع والزروع من هيئة الإحرام وطواف الوداع استحق الترض للملك والسلطنة ، وله في كل مقام منازل من أول إعداد الأسباب إلى آخره . ومن أول سلوك البواهي إلى آخره ،

ومن أول أركان الحج إلى آخره . وليس قرب من ابتداء بأركان الحج من السعادة كقرب من هو بعد في إعداد الزاد والراحلة ولا كقرب من ابتداء بالسلوك بل هو أقرب منه .

فالعلوم أيضاً ثلاثة أقسام : قسم يجري مجرى إعداد الزاد والراحلة وشراء الثاقفة وهو علم الطب والفقه وما يتعلق بمصالح البدن في الدنيا . وقسم يجري مجرى سلوك البوادي وقطع العقبات وهو تطهير الباطن عن كدورات الصفات وعلو علم تلك العقبات الشائعة التي عجز عنها الأولون والآخرون إلا الموفقين فهذا سلوك الطريق وتخصيل علمه كتخصيل علم جهات الطريق ومنازله وكما لا يفي علم المنازل وطرق البوادي دون سلوكهما كذلك لا يفي علم تهذيب الأخلاق دون مباشرة التهذيب ولكن المباشرة دون العلم غير ممكن . وقسم ثالث يجري مجرى نفس الحبيب وأركانه وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وأفعاله وجميع ما ذكرناه في تراجم علم المكاشفة وههنا نعمة وفوز بالسعادة والنجاة حاصلة لكل سالك للطريق إذا كان غرضه المقصد الحق وهو السلامة .

وأما الفوز بالسعادة فلا يتأله إلا العارفون بالله تعالى وهم المقربون المنعمون في جوار الله تعالى بالروح والريحان وجمعة التعميم وأما المنعمون دون ذروة السكالك فلمهم النجاة والسلامة كما قال الله عز وجل ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ وأما إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فسلام لك من أصحاب اليمين ﴿وكل من لم يتوجه إلى المقصد ولم يتنهنه له أو اتهم إلى جهته لأجل قصد الامثال والعبودية بل لغرض عاجل فهو من أصحاب الشمال ومن الضالين لله نزل من حميم وتصلية جميع .

واعلم أن هذا هو حق اليقين عند العلماء الراسخين أعني أنهم أدركوه بمشاهدة من الباطن هي أقوى وأجلى من مشاهدة الأبصار وترقوا فيه من حد التقليد لمجرد السماع ، وحالهم حال من أخبر فصدق ثم شاهد لحق وحال غيرهم حال من قبل بحسن التصديق والإيمان ولم يحظ بالمشاهدة والعيان . فالسعادة وراء علم المكاشفة وعلم المكاشفة وراء علم المعاملة التي هي سلوك طريق الآخرة وقطع عقبات الصفات . وسلوك طريق نحو الصفات المزمومة وراء علم الصفات . وعلم طريق المعالجة وكيفية السلوك في ذلك وراء علم سلامة البدن ومساعدة أسباب الصحة . وسلامة البدن بالاجتماع والتظاهر والتعاون الذي يتوصل به إلى الملابس والمطعم والمسكن وهو منوط بالسلطان وقانونه في ضبط الناس على منجى العدل والسياسة في ناصية الفقيه ، وأما أسباب الصحة في ناصية الطبيب ومن قال « العلم علمان : علم الأبدان وعلم الأديان » وأشار به إلى الفقه أراد به العلوم الظاهرة الشاملة لا العلوم العزيزة الباطنة .

فإن قلت : لم يشهد علم الطب والفقه بأعداد الزاد والراحلة ؟ فاعلم أن الساعي إلى الله تعالى ليتأهل بقربه هو القلب دون البدن ولست أعني بالقلب اللحم المحصور بل هو سر من أسرار الله عز وجل لا يدركه الحس ولطيفة من لطائف تارة يعبر عنه بالروح وتارة بالنفس المطمئنة ، والشرع يعبر عنه بالقلب لأنها المظية الأولى لذلك السر وبواسطته صار جميع البدن مظية وآلة لتلك اللطيفة ، وكشف الغطاء عن ذلك السر من علم المكاشفة وهو مضمون به بل لارخصة في ذكره ، وغاية المأذون فيه أن يقال هو جوهر نفيس ودرع عزيز أشرف من هذه الأجرام المرتبة وإتمام أمر إلى ما قال تعالى ﴿ ويستلذك عن الروح قل الروح من أمر ربي ﴾ وكل المخلوقات منسوبة إلى الله تعالى ولكن نسبتها أشرف من نسبة سائر أعضائه البدن فله الخلق والأمر جميعاً ، والأمر أصل من الخلق . وهذه الجوهرة النفيسة الحاملة لأمانة الله تعالى المتقدمة بهذه الرتبة على السموات والأرضين والجبال إذ أبين أن يحملتها وأشفقن منها من عالم الأمر ، ولا يفهم من هذا أنه تريض بقدمها فإن القائل يقدم الأرواح مغرور جاهل لا يدري ما يقول فلتقبض عنان البيان عن هذا الفن فهو وراء ما نحن بعده . والمقصود أن هذه اللطيفة هي الساعية إلى قرب الرب لأنها من أمر الرب فنه مصدرها وإليه

مرجعها ، وأما البدن فطبيعتها التي تركها وتسمى بواسطتها ، فالبدن لها في طريق الله تعالى كالثقة البدن في طريق الحج وكالراوية الخازنة للباء الذي يفتر إليه البدن فكل علم مقصده مصلحة البدن فهو من جملة مصالح المطيعة . ولا ينبغي أن الطلب كذلك فإنه قد يحتاج إليه في حفظ الصحة على البدن ولو كان الإنسان وحده لاحتاج إليه ، والفقه يفارقه في أنه لو كان الإنسان وحده ربما كان يستغنى عنه ولكنه خلق على وجه لا يمكنه أن يعيش وحده إذ لا يستقل بالسعى وحده في تحصيل طعامه بالحراثة والزرع والخبز والتعليق وفي تحصيل الملابس والسكن وفي إعداد آلات ذلك كله فاضطر إلى المخاطلة والاستمانة . ومهما اخطط الناس واثرت شهواتهم تجاوزوا أسباب الشهوات وتنازعوا وتقاتلوا وحصل من قتالهم هلاكهم بسبب التنافس من خارج كما يحصل هلاكهم بسبب تضاد الأخلاق من داخل ، وبما يطلب يحفظ الاعتدال في الأخلاق المتنازعة من داخل ، وبالسياسة والعدل يحفظ الاعتدال في التنافس من خارج وعلم طريق اعتدال الأخلاق طب ، وعلم طريق اعتدال أحوال الناس في المعاملات والأفعال فقه . وكل ذلك لحفظ البدن الذي هو مطية فالتجرد لعلم الفقه أو الطب إذا لم يجاهد نفسه ولا يصلح قلبه للتجرد لشراء الناقه وعنفها وشراء الراوية وخرزها إذا لم يسلك بادية الحج . والمستغرق عمره في دقائق الكلمات التي تهمر في مجادلات الفقه كالمستغرق عمره في دقائق الأسباب التي بها تستحكم الخيوط التي تخرز بها الراوية للحج . ونسبة هؤلاء من السالكين لطريق إصلاح القلب الموصل إلى علم المكاشفة كنسبة أولئك إلى السالكين طريق الحج أو ملايس أركانه ؛ فتأمل هذا أولا وقبل النصيحة بما نأمن قام عليه ذلك غالبا ولم يصل إلا بعد جهد جهيد وجراءة تامة على مباينة الخلق العامة والخاصة في النزوع من تقليدهم بمجرد الشهوة ، فهذا القدر كاف في وظائف المعلم .

### بيان وظائف المرشد المعلم

أعلم أن للإنسان في علمه أربعة أحوال كحاله في اقتناء الأموال ، إذ لصاحب المال حال استفادة فيكون مكتسبا ، وحال ادخار لما اكتسبه فيكون به غنيا عن السؤال ، وحال إفاق على نفسه فيكون منتفعا ، وحال بذل لغيره فيكون به سخيا متفضلا وهو أشرف أحواله . فكذلك يقتني كما يقتني المال فله حال طلب واكتساب وحال تحصيل يفتي عن السؤال وحال استبصار وهو التفكير في المحصل والتتبع به وحال تبصير وهو أشرف الأحوال . فمن علم وعمل وعلم فهو الذي يهدي عظما في ملكوت السموات فإنه كالشمس تضيء لغيرها وهي مضئنة في نفسها وكالمسك الذي يطيب غيره وهو طيب ، والذي يعلم ولا يعمل به كالقدر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم وكالمسك الذي يشهد غيره ولا يقطع والإبرة التي تكسو غيرها وهي عارية وذباله المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كما قيل :

ما هو إلا ذبالة وقد تضيء للناس وهي تحترق

ومهما اشتغل بالتعلم فقد تقلد أمرا عظيما وخطرا جسيما فليحفظ آدابه ووظائفه :

( الوظيفة الأولى ) الشفقة على المتعلمين وأن يجرهم بحرى يليه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنا لكم مثل الوالد لو له (١) ، بأن يقصد إتيانهم من نار الآخرة وهو أهم من إتيان الوالدين ولدهما من نار الدنيا ، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين فإن الوالد سبب الوجود الحاضر والحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية . ولولا المعلم لانساق ما حصل من جهة الأب إلى الهلاك الدائم وإنما المعلم هو المفيد للحياة الآخرة الدائمة أعني معلم

(١) حديث « إنما أنا لكم مثل الوالد لو له » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة

الدنيا على قصد الآخرة لا على قصد الدنيا . فأما التعليم على قصد الدنيا فهو هلاك وإهلاك نعوذ بالله منه . وكما أن حق أبناء الرجل الواحد أن يتحابوا ويتعاونوا على المقاصد كلها فكذلك حق تلامذة الرجل الواحد التحاب والتواد ولا يكون إلا كذلك إن كان مقصدهم الآخرة ولا يكون إلا التحاسد والتباغض إن كان مقصدهم الدنيا . فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق من الدنيا ، وسنوها وشهورها منازل الطريق . والتراتقي في الطريق بين المسافرين إلى الأمصار سبب التواد والتحاب فكيف السفر إلى الفردوس الأعلى والتراتقي في طريقه ؟ ولا ضيق في سعادة الآخرة فلذلك لا يكون بين أبناء الآخرة تنازع ولا سمة في سمات الدنيا فلذلك لا ينفك عن ضيق التراسم . والمعادون إلى طلب الرياسة بالعلوم خارجون عن موجب قوله تعالى ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ وداخلون في مقتضى قوله تعالى ﴿ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين ﴾ .

( الوظيفة الثانية ) أن يقتدى بصاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فلا يطلب على إفادة العلم أجرا ولا يقصد به جزاء ولا شكورا بل يعلم لوجه الله تعالى وطلباً للتقرب إليه ولا يرى لنفسه منه عليهم وإن كانت المنة لازمة عليهم بل يرى الفضل لهم إذ هذبوا قلوبهم لأن تقرب إلى الله تعالى بوزارة العلوم فيها ؛ كالذي يعيرك الأرض لتزوح فيها لنفسك زراعة فمفنتك بها تريد على منفعة صاحب الأرض فكيف تقلده مئة وثوابك في التعليم أكثر من ثواب المتعلم عند الله تعالى ؟ ولولا المتعلم ما نلت هذا الثواب فلا تطلب الأجر إلا من الله تعالى كما قال عز وجل ﴿ وما قوم لا أسألكم عليه مالا إن أجرى إلا على الله ﴾ فإن المال وما في الدنيا خادم البدن والبدن مركب النفس ومطيتها والمخدوم هو العلم إذ به شرف النفس . فمن طلب بالعلم المال كان كمن مسح أسفل مداسه بوجهه لينظفه لجعل المخدوم خادماً والخادم مخدوماً وذلك هو الاتسكاس على أم الرأس ، ومثله هو الذي يقوم في العرض الأكبر مع المجرمين ناكسي دهوسهم عند ربهم .

وعلى الجملة فالفضل والمنة للعلم فأنظر كيف انتهى أمر الدين إلى قوم يراعون التقرب إلى الله تعالى بما هم فيه من علم الفقه والعلوم والتدريس فيها وفي غيرها . فإنهم يذلون المال والجاه ويتحملون أصناف الذل في خدمة السلاطين لاستطلاع الجرايات ولو تركوا ذلك لتركوا ولم يختلف إليهم ثم يتوقع المعلم من المتعلم أن يقوم له في كل ناحية وينصر وليه ويعادى عدوه ويتهم جهاراً له في حاجاته ومسخراً بين يديه في أوطاره . فإن قصر في حقه ثار عليه وصار من أعدى أعدائه . فأخس بعالم يرضى لنفسه بهذه المنزلة ثم يفرح بها ثم لا يستحي من أن يقول غرضي من التدريس نشر العلم تقرباً إلى الله تعالى ونصرة لدينه ؛ فأنظر إلى الأمارات حتى ترى ضروب الاغترارات .

( الوظيفة الثالثة ) أن لا بدع من نصيح المتعلم شيئاً وذلك بأن يمنعه من التصدى رتبة قبل استحقاقها والتشغاف بعلم حتى قبل الفراغ من الجلي ثم ينهه على أن القرض بطلب العلوم التقرب إلى الله تعالى دون الرياسة والمباهاة والمنافسة ، ويقدم تقبيح ذلك في نفسه بأقصى ما يمكن فليس مصلحه العالم الفاجر بأكثر مما يفسده . فإن علم من باعته أنه لا يطلب العلم إلا للدنيا نظر إلى العلم الذي يطلبه فإن كان هو علم الخلاف في الفقه والمجدل في الكلام والفتاوى في الخصومات والأحكام قيمته من ذلك فإن هذه العلوم ليست من علوم الآخرة ولا من العلوم التي قيل فيها « تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله » وإنما ذلك علم التفسير وعلم الحديث وما كان الأولون يشتغلون به من علم الآخرة ومعرفة أخلاق النفس وكيفية تهذيبها . فإذا تعلمه الطالب وقصده الدنيا فلا بأس أن يتركه فإنه يشر له علماً في الوعظ والاستبعا ولكن قد يتنبه في أثناء الأمر أو آخره إذ فيه العلوم المخوفة من الله تعالى المحقرة للدنيا المعظمة للآخرة ، وذلك



يرشك أن يؤدي إلى الصواب في الآخرة حتى يتعظ بما يعظ به غيره .

ويجرى حب القبول والجاه مجرى الحب الذي ينثر حوالى الفخ ليقنع به الطير وتدفعل الله ذلك بمباهد إذ جعل الشهوة لبصل الخافق بها إلى بقاء النسل . وخلق أيضا حب الجاه ليكون سبيلاً لإحياء العلوم وهذا متوقع في هذه العلوم فأما الخلافات المحضة ومجادلات الكلام ومعرفة التفاريع الغريبة فلا يزيد التجرد لها مع الإعراض عن غيرها إلا قسوة في القلب وغفلة عن الله تعالى وتماديا في الضلال وطلباً للجاه إلا من تداركه الله تعالى برحمته أو مزج به غيره من العلوم الدينية .

ولا برهان على هذا كالتجربة والملاحظة فانظر واعتبر واستبصر لتشاهد تحقيق ذلك في العباد والبلاد والله المستعان . وقد روى سفيان الثوري رحمه الله حزينا قتيلا له : مالك ؟ فقال : صرنا متجرأ لآبناء الدنيا يلزمنا أحدهم حتى إذا تعلم جعل قاضيا أو عاملا أو قهر مانا .

( الوظيفة الرابعة ) وهي من دقائق صناعة التعلم أن يزجر المتعلم عن سوء الأخلاق بطريق التعريض ما أمكن ولا يصرح ، وبطريق الرحمة لا بطرق التوبيخ فإن التصريح يهلك حجاب الهيبة ويورث الجرأة على الهجوم بالخلاف ويهيج الحرص على الإصرار إذ قال صلى الله عليه وسلم وهو مرشد كل معلم « لو منع الناس عن فت البهر لفتوه وقالوا ما نهيتنا عنه إلا وفيه شيء » (١) . وينبهك على هذا قصة آدم وحواء عليهما السلام وما نبيا عنه ؛ فما ذكرت القصة معك لتكون سمرأ بل لتنبه بها على سبيل العبرة ولأن التعريض أيضا يميل النفوس الفاضلة والأذهان الإدكية إلى استنباط معانيه فيفيد فرح الفضل لمعناه رغبة في العلم به أن ذلك مما لا يعرب عن فطنته .

( الوظيفة الخامسة ) أن المتكفل ببعض العلوم ينبغي أن لا يقبح في نفس المتعلم العلوم التي وراه ، كعلم اللغة إذ عاداته تقبيح علم الفقه ، ومعلم الفقه عاداته تقبيح علم الحديث والتفسير وأن ذلك يقلل محض وسماع وهو شأن المعجزة ولا نظر للعقل فيه ، ومعلم الكلام ينفر عن الفقه ويقول : ذلك فروع وهو كلام في حيض النسوان فأين ذلك من الكلام في صفة الرحمن ؟ فهذه أخلاق مذمومة للمعلمين ينبغي أن تحتجب بل المتكفل يعلم واحد ينبغي أن يوسع على المتعلم طريق التعلم في غيره وإن كان متكفلا بعلوم فينبغي أن يراعي التدرج في ترقية المتعلم من رتبة إلى رتبة .

( الوظيفة السادسة ) أن يقتصر بالمتعلم على قدر فهمه فلا يلقى إليه ما لا يبلغه عقله فينفذه أو يخطئ عليه عقله اقتداء في ذلك بسيد البشر صلى الله عليه وسلم حيث قال « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نؤزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » (٢) « فليبت إليه الحقيقة إذا علم أنه يستقل بفهمها وقال صلى الله عليه وسلم « ما أحد يحدث قوما يحدث لا تبلغه عقولهم إلا كان فتنة على بعضهم » وقال علي رضي الله عنه — وأشار إلى صدره — « إن ههنا علومنا جملة لو وجدت لها حلة » وصدق رضي الله عنه فقلوب الأبرار قبور الأسرار . فلا ينبغي أن يفشى العالم كل ما يعلم إلى كل أحد ؛ هذا إذا كان يفهمه المتعلم ولم يكن أهلا للانتفاع به فكيف فيا لا يفهمه ؟ وقال عيسى عليه السلام : لا تعلموا الجواهر في أعتاق الخنازير فإن الحكمة خير من الجواهر ومن كرها فهو شر من الخنازير ، وذلك قيل : كل لكل عيب معيار عقله وزن له ميزان فهمه حتى تسلم منه ويتفهمك ولا وقع الإنكار لتفاوت المعيار . وسئل بعض العلماء عن شيء فلم يجب فقال السائل : أما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار » (٣) ؟ فقال : أترك البلجام وأذهب فإن جاء من يفقه وكتمته فليجئني فقد قال الله

(١) حديث « لو منع الناس عن فت البهر لفتوه ... الحديث » لم أجده (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نؤزل الناس منازلهم ... الحديث » ورواه في جزء من حديث أبي بكر بن الأشخير من حديث عمر أخضر منه . وعند أبي داود من حديث عائشة « أنزلوا الناس منازلهم » (٣) حديث « من كتم علما نافعا جاء يوم القيامة ملجأ بلجام من نار » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد ضعيف ، وتقدم حديث أبي هريرة بنحوه .

تعالى (ولا توتروا السفهاء أموالكم) تنبيهاً على أن حفظ العلم من يفسده ويضره أولى ، وليس الظلم في إعطاء غير المستحق بأقل من الظلم في منع المستحق :

أثر درا بين سارحة النعم      فأصبح غزونا براعية الغنم  
لأنهم أمسوا بمجهل لقدرة      فلا أنا أضحي أن ألوقة لهم  
فإن لطف الله اللطيف بلطفه      وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم  
نشرت مفيداً واستفدت مودة      وإلا فمخزون لدى ومكتم  
فمن منح الجهال علماً أضاعه      ومن منع المستوجبين فقد ظلم

( الوظيفة السابعة ) إن المتعلم القاصر ينبغي أن يلقى إليه الجلي اللائق به ولا يذكر له أن وراء هذا تدقيقاً وهو يندخره عنه فإن ذلك يفر رغبته في الجلي ويشوش عليه قلبه ويورم إليه البخل به عنه إذ يظن كل أحد أنه أهل لكل علم دقيق . فما من أحد إلا وهو راض عن الله سبحانه في كمال عقله وأشدهم حماة وأضعفهم عقلاً هو أفرحهم بكامل عقله . وبهذا يعلم أن من تقيده من العوام بقيد الشرع ورسخ في نفسه العقائد المسأورة عن السلف من غير تشبيه ومن غير تأويل وحسن مع ذلك سريره ولم يحتمل عقله أكثر من ذلك فلا ينبغي أن يشوش عليه اعتقاده بل ينبغي أن يغلي وحرته ، فإنه لو ذكر له تأويلات الظاهر انحل عنه قيد العوام ولم يتيسر قيده بقيد الخواص فيرتفع عنه السد الذي بينه وبين المعاصي وينقلب شيطاناً مرئياً يهلك نفسه وغيره ؛ بل لا ينبغي أن يخاض مع العوام في حقائق العلوم الدقيقة بل يقتصر معهم على تعليم العبادات وتعاليم الأمانة في الصناعات التي هم بصدها ويملاً قلوبهم من الرغبة والرغبة في الجنة والنار كما لعلق به القرآن ولا يحرك عليهم شياً فإنه ربما تعلقت الشبهة بقلبه ويسر عليه حلها فيبقى ويهلك .

وبالجملة لا ينبغي أن يفتح للعوام باب البحث فإنه يعطل عليهم صناعاتهم التي بها قوام الخلق ودوام عيش الخواص .

( الوظيفة الثامنة ) أن يكون المعلم عاملاً بعمله فلا يكذب قوله فله لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار أكثر . فإذا خالف المعلم العلم بمنع الرشد وكل من تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك سخر الناس به واتهموه وزاد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء والأدواء لما كان يستأثر به . ومثل المعلم المرشد من المرشدين مثل النقش من الطين والظل من العود فكيف ينتقش الطين بما لا نقش فيه ومضى استوى الظل والعود أعوج ؟ ولذلك قيل في المعنى :

لا تته عن خلق وتأتى مثله      عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) ولذلك كان وزر العالم في معاصيه أكثر من وزر الجاهل إذ يزل بره عالم كثير ويقتنون به . ومن سن سنة سيئة فعلية وزرها ووزر من عمل بها . ولذلك قال علي رضي الله قسم ظهري رجلان ، عالم متفكك وجاهل متنسك ، فالجاهل يفر الناس بتنسك ، والعالم يغرم بهتسك . والله أعلم .

## الباب السادس

في آفات العلم ، وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء

قد ذكرنا ماورد من فضائل العلم والعلماء وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذاباً يوم القيامة . فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة ونقعي بعلماء الدنيا

علماء السوء الذين يقدمون من العلم التمتع بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمغزلة عند أهلها قال صلى الله عليه وسلم « إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه » وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا يكون المرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « العلم علمان : علم على اللسان فذلك حجة الله تعالى على خلقه وعلم في القلب فذلك العلم النافع (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فساق (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء وتقاتلوا به السفهاء وليصرفوا به وجوه الناس إليكم فمن فعل ذلك فهو في النار (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من كتم علماً حده أجمعه الله بلجام من نار » وقال صلى الله عليه وسلم « لا أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال . قيل : وما ذلك ؟ فقال : من الأئمة المضلين (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً (٦) » وقال عيسى عليه السلام : إلى متى تصفون الطريق للمذبحين وأنتم مقيمون مع المتحيرين ! فهذا وغيره من الأخبار يدل على عظيم خطر العلم فإن العالم إما معرض لهلاك الأبد أو لسعادة الأبد وإنه بالخوض في العلم قد حرم السلامة إن لم يدرك السعادة .

وأما الآثار فقد قال عمر رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة المناقش العليم . قالوا : وكيف يكون منافقاً عالماً ؟ قال : عليم اللسان جاهل القلب والعمل . وقال الحسن رحمه الله : لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء ويحمر في العمل مجرى السفهاء . وقال رجل لأبي هريرة رضي الله عنه : أريد أن أعلم العلم وأخاف أن أضيعه فقال : كفى بترك العلم إضاعة له . وقيل لإبراهيم بن عيينة : أي الناس أطول ندماً ؟ قال : أما في عاجل الدنيا فصانع المعروف إلى من لا يشكره وأما عند الموت فعالم مفرط . وقال الخليل بن أحمد : الرجال أربعة ، رجل يدرى ويدري أنه يدرى فذلك عالم فاتبه ، ورجل يدرى ولا يدري أنه يدرى فذلك نائم فأيقظه ، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسرود فأرشده ، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فأبقره . وقال سفيان الثوري رحمه الله : يهتف العلم بالعلم فإن أجابه وإلا أرحله . وقال ابن المبارك : لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : إنى لأرحم ثلاثة ، عزيز قوم ذل وفني قوم افتقر وعالم تلعب به الدنيا . وقال الحسن : عقوبة العلماء موت القلب ، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة وأنشدوا :

عجبت لمبتاع الضلالة بالهدى      ومن يشتري دنياه بالدين أعجب  
وأعجب من هذين من باع دينه      بدنيا سواه فهو من ذين أعجب

### الباب السادس

(١) حديث « لا يكون للمرء عالماً حتى يكون بعلمه عاملاً » أخرجه ابن حبان في كتاب روضة العقلاء ، والبيهقي في المدخل موقوفاً على أبي البرداء ولم أجده مرفوعاً (٢) حديث « العلم علمان علم على اللسان ... الحديث » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر وابن عبد البر من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح ، وأسنده الخطيب في التاريخ من رواية الحسن عن جابر بإسناد جيد وأعله ابن الجوزي (٣) حديث « يكون في آخر الزمان عباد جهال وعلماء فسقة » أخرجه الحاكم من حديث أنس وهو ضعيف (٤) حديث « لا تتعلموا العلم لتباهوا به العلماء » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح (٥) حديث « غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ... الحديث » أخرجه أحمد من حديث أبي ذر بإسناد جيد (٦) حديث « من ازداد علماً ولم يزد هدى لم يزد من الله إلا بعداً » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس وحديث علي بإسناد ضعيف إلا أنه قال « زهداً » وروى ابن حبان في روضة العقلاء موقوفاً على الحسن « من ازداد علماً ثم ازداد على الدنيا حرصاً لم يزد من الله إلا بعداً » وروى أبو القتيح الأزدي في الضعفاء من حديث علي « من ازداد بالله علماً ثم ازداد للدنيا حباً ازداد الله عليه غضباً » .

وقال صلى الله عليه وسلم « إن العالم لعذاب عذابا يطيف به أهل النار استعظاما لشدة عذابه (١) » أراد به العالم الفاجر . وقال أسامة بن زيد : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه فيدور بها كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار فيقولون مالك فيقول كنت أمر بالخير ولا آتيه وأنهى عن الشر وآتيه (٢) » وإنما يضاعف عذاب العالم في معصيته لأنه عصي عن علم ولذلك قال الله عز وجل ( إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ) لأنهم جحدوا بعد العلم ، وجعل اليهود شرا من النصارى مع أنهم ما جعلوا الله سبحانه ولدا ولا قالوا : إنه ثالث ثلاثة ، إلا أنهم أنكروا بعد المعرفة إذ قال الله ( يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ) وقال تعالى ( فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فللعنة الله على الكافرين ) وقال تعالى — في قصة بلعام بن باعورا ( وانزل عليهم نبا الذي آتيناها آياتنا فانسلخ منها فآتيه الشيطان فكان من الفايرين ) حتى قال ( قلته كئيل الكلب إن يحمل عليه يبلث ) فكذلك العالم الفاجر فإن بلعام أوقى كتاب الله تعالى فأخذ إلى الشهوات فضبه بالكلب أى سواء أوقى الحكمة أو لم يؤت فهو يبلث إلى الشهوات . وقال عيسى عليه السلام : مثل علماء السوء كمثل صخرة وقعت على قدم النهر لا هي تشرب الماء ولا هي تترك الماء يخلص إلى الزرع ومثل علماء السوء مثل قناة الحش ظاهرها عامر وباطنها غلام المرقى .

فهذه الأخبار والآثار تبين أن العالم الذى هو من أبناء الدنيا أخس حالا وأشد عذابا من الجاهل : وأن الفايرين المقربين هم علماء الآخرة ولهم علامات : فمنها أن لا يطلب الدنيا بعلمه فإن أقل درجات العالم أن يدرك حقارة الدنيا وخساستها وكدورتها وانصرامها وعظم الآخرة ودوامها وصفاء نعيمها وجلالة ملكها ويعلم أنها متضادتان وأنها كالضرتين مهما أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى وأنها ككفتى الميزان مهما رجحت إحداهما خفت الأخرى وأنهما كالشرق والغرب مهما قربت من أحدهما بددت عن الآخر وأنهما كقذحين أحدهما ملوؤ والآخر فارغ فيقدر ما تقب من الآخر حتى يمتلئ . يفرغ الآخر . فإن من لا يعرف حقارة الدنيا وكدورتها وامتزاج ذاتها بألمائها انصرام ما يصفو منها فهو فاسد العقل . فإن المشاهدة والتجربة ترشد إلى ذلك فكيف يكون من العلماء من لا عقل له ؟ ومن لا يعلم عظم أمر الآخرة ودوامها فهو كافر مسلوب الإيمان فكيف يكون من العلماء من لا إيمان له ومن لا يعلم مضادة الدنيا للآخرة وأن الجمع بينهما طمع في غير مطلق ؟ فهو جاهل بشرائع الأنبياء كلهم بل هو كافر بالقرآن كله من أوله إلى آخره فكيف يعد من زمرة العلماء ؟ ومن علم هذا كله ثم لم يؤثر الآخرة على الدنيا فهو أسير الشيطان قد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته فكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجة ؟ وفي أخبار داود عليه السلام حكاية عن الله تعالى « إن أدنى ما أصنع بالعلم إذا أثر شهوته على محبتي أن أحرمه لنذ مناجاتى . يادود لا تسألنى عالما قد أسكرته الدنيا فيصعدك عن طريق محبتي أولئك قطاع الطريق على عبادى ، يادود إذا رأيت لى طالبا فكأن له خادما ، يادود من رد إلى هاربا كنيته جهيدا ومن كنيته جهيدا لم أعده أبدا » ولذلك قال الحسن رحمه الله : عقوبة العلماء موت القلب وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة . ولذلك قال يحيى بن معاذ إنما يذهب بهاء العلم والحكمة إذا طلبهما الدنيا . وقال سعيد بن المسيب رحمه الله : إذا رأيت العالم يقضى الأمراء

(١) حديث « إن العالم يعذب عذابا يطيف به أهل النار ... الحديث » لم أجده بهذا اللفظ وهو معنى حديث أسامة المذكور بعده .

(٢) حديث أسامة بن زيد « يؤتى بالعلم يوم القيامة ويلقى في النار فتندلق أفتابه ... الحديث » متفق عليه بلفظ « الرجل » بدل « العالم » .

فروى لى . وقال عمر رضى الله عنه : إذا رأيتم العالم محبا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب وقال مالك بن دينار رحمه الله : قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعلم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه . وكتب رجل إلى أخ له : إنك قد أوتيت علما فلا تطفئ نور علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يمسى أهل العلم في نور علمهم ، وكان يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله يقول لعلماء الدنيا : يا أصحاب العلم قصوركم قبيصة وبيوتكم كسروية وأنوابكم ظاهرة وأخفافكم جالوتية ومراكبكم قارونية وأوانيتكم فرعونية ومأتمكم جاهلية ومذاهبكم شيطانية فأين الشريعة المحمدية ؟ قال الشاعر :

وراعى الفأفة يحصى الذنب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب ؟

وقال الآخر :

يا مشتر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد ؟

وقيل لبعض العارفين : أترى أن من تكون المعاصي قرعة عينه لا يعرف الله ؟ فقال : لا أشك أن من تكون الدنيا عنده أثر من الآخرة أنه لا يعرف الله تعالى ، وهذا دون ذلك بكثير ، ولا تظن أن ترك المال يكفي في الحقوق بعلماء الآخرة فإن الجاه أضر من المال . ولذلك قال بشر « حدثنا » باب من أبواب الدنيا فإذا سمعت الرجل يقول « حدثنا » فأثما يقول : أوسعوا لى . ودفن بشر بن الحرث بضعة عشر ما بين قطرة وقوصرة من الكتب وكان يقول : أنا أشتبه أن أحدث ، ولو ذهبت عنى شهوة الحديث لحدثت . وقال هو وغيره : إذا اشتبهت أن تحدث فاسكت فإذا لم تشته تحدث . وهذا لأن التلذذ بجاه الإفادة ومنصب الإرشاد أعظم لذة من كل تنعم في الدنيا فمن أوجب شهوته فيه فهو من أبناء الدنيا . ولذلك قال الثوري : قننة الحديث أشد من قننة الأهل والمال والولد وكيف لا تخاف فتنته وقد قيل لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا ﴾ وقال سهل رحمه الله : العلم كله دنيا والآخرة منه العمل به والعمل كله هباء إلا الإخلاص . وقال : الناس كلهم موق إلا العلماء والعلماء سكارى إلا العاملين والعاملون كلهم مغرورون إلا المخلصين والمخلص على وجل حتى يدري ماذا يختم له به . وقال أبو سليمان الدراوى رحمه الله : إذا طلب الرجل الحديث أو تزوج أو سافر في طلب المعاش فقد ركن إلى الدنيا ، وإنما أراد به طلب الأسانيد العالية أو طلب الحديث الذى لا يحتاج إليه في طلب الآخرة . وقال عيسى عليه السلام : كيف يكون من أهل العلم من مسيره إلى آخرته وهو مقبل على طريق دنياه وكيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به لا ليعمل به ؟ وقال صالح بن كيسان البصرى : أدركت الشقيوخ وهم يتعذرون بالله من الفاجر العالم بالسنة . وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلب علما مما يبتنى به وجه الله تعالى ليصيب به عرضا من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة (١) » وقد وصف الله علماء السوء بأكل الدنيا بالعلم ووصف علماء الآخرة بالخفوع والزهد . فقال عز وجل في علماء الدنيا ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا ﴾ وقال تعالى في علماء الآخرة ﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك هم أجرهم عند ربهم ﴾ وقال بعض السلف : العلماء يحشرون في زمرة الأنبياء والقضاة يحشرون في زمرة السلاطين . وفي معنى القضاة كل فقيه قصده طلب الدنيا بعلمه . وروى

(١) حديث أبي هريرة « من طلب علما مما يبتنى به وجه الله ليصيب به عرضا... الحديث » أخرجه أبو داود وابن

أبو الدرداء رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أوحى الله عز وجل إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة يلبسون للناس مسوح السكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب ألسنتهم أحل من العسل وقلوبهم أمر من الصبر إياي يخادعون وفي يستهزئون لأفتحن لهم فتنة تذر الحليم حيران (١) » وروى الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « علماء هذه الأمة رجلا : رجل آتاه الله علما فبذله للناس ولم يأخذ عليه طعما ولم يشتبه به ثمنا فذلك يصلى عليه طير السماء وحيتان الماء ودواب الأرض والسكرام الكاتبون يقدم على الله عز وجل يوم القيامة سيدا شريفا حتى يرافق المرسلين ، ورجل آتاه الله علما في الدنيا ففضن به على عباده الله وأخذ عليه طعما واشترى به ثمنا فذلك يأتي يوم القيامة ملجعا بلجما من نار ينادى مناد على رؤوس الخلائق هذا فلان بن فلان آتاه الله علما في الدنيا ففضن به على عباده وأخذ به طعما واشترى به ثمنا فيعذب حتى يفرغ من حساب الناس (٢) » وأشد من هذا ما روى « أن رجلا كان يخدم موسى عليه السلام فجعل يقول حدثني موسى صلى الله عليه وسلم عن موسى بنى الله حديثي موسى كليم الله حتى أنرى وكثر ماله ففقده موسى عليه السلام فجعل يسأل عنه ولا يحس له خبراً حتى جاءه رجل ذات يوم وفي يده خنزير وفي عنقه حبل أسود فقال له موسى عليه السلام : أتعرف فلانا ؟ قال : نعم هو هذا الخنزير ، فقال موسى : يا رب أسألك أن تردّه إلى حاله حتى أسأله بجم أصابه هذا ؟ فأوحى الله عز وجل إليه : لودعوني بالذى دعاني به آدم فمن دونه ما أجبتك فيه ولكن أخبرك لم صنعت هذا به ؟ لأنه كان يطلب الدنيا بالدين » وأغلظ من هذا ما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه موقوفاً ومرفوعاً في رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع (٣) » . وفي الكلام تنميق وزيادة ولا يؤمن على صاحبه الخطأ وفي الصمت سلامة وعلم .

ومن العلماء من يخزن علمه فلا يحب أن يوجد عند غيره ، فذلك في الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يكون في علمه بمنزلة السلطان إن رد عليه شيء من علمه أو تهوون بشيء من حقه غضب فذلك في الدرك الأول من النار . ومن العلماء من يجعل علمه وغرائب حديثه لأهل الشرف واليسار ولا يرى أهل الحاجة له أهلاً ، فذلك في الدرك الثالث من النار . ومن العلماء من ينصب نفسه للفتيا فيفتي بالخطأ والله تعالى يغيض المتكفين فذلك في الدرك الرابع من النار . ومن العلماء من يتكلم بكلام اليهود والنصارى ليفز به علمه فذلك في الدرك الخامس من النار . ومن العلماء من يتخذ علمه مروءة ونبلًا وذكرًا في الناس فذلك في الدرك السادس من النار . ومن العلماء من يستفزه الزهو والمعجب فإن وعظ عتف وإن وعظ أنف فذلك في الدرك السابع من النار .

فعليك يا أخي بالصمت فيه تغلب الشيطان . وإياك أن تضحك من غير عجب أو تمسح في غير أرب . وفي خبر آخر « إن العبد لينشر له من الثناء ما يملأ ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة (٤) » وروى أن الحسن حمل إليه رجل من خراسان كيساً بعد انصرافه من مجلسه فيه خمسة آلاف درهم وعشرة أثواب من رقيق البر وقال : يا أبا سعيد هذه نفقة وهذه كسوة ، فقال الحسن : عافاك الله تعالى ، ضم إليك نفقتك وكسوتك فلا حاجة لنا بذلك لأنه من

(١) حديث أبي الدرداء « أوحى الله إلى بعض الأنبياء : قل للذين يتفقهون لغير الدين . . . الحديث » أخرجه ابن عبد البر بإسناد ضعيف (٢) حديث ابن عباس « علماء هذه الأمة رجلا . . . الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط بإسناد ضعيف . (٣) حديث معاذ « من فتنة العالم أن يكون الكلام أحب إليه من الاستماع . . . الحديث » أخرجه ابن نعيم وابن الجوزي في اللوئحات . (٤) حديث « إن العبد لينشر له من الثناء ما بين المشرق والمغرب وما يزن عند الله جناح بعوضة » لم أجده هكذا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « إنه ليأتى الرجل العظيم السنين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

جلس مثل مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لئى الله تعالى يوم القيامة ولا خلاق له . وعن جابر رضى الله عنه موقوفا ومرقوفا قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تجلسوا عند كل عالم إلا إلى عالم يدعوكم من خمس إلى خمس : من الشك إلى اليقين ، ومن الرياء إلى الإخلاص ، ومن الرغبة إلى الزهد ، ومن التكبر إلى التواضع ، ومن الدعوى إلى النصيحة (١) » قال تعالى ﴿ فخرج على قومه في ريثه قال الذين يريدون الحياة الدنيا وآليت لنا مثل ما أوتى قارون إنه لئذى حظ عظيم وقال الذين أوتوا العلم وبليكم ثواب الله خير لمن آمن ﴾ الآية ، فمعرفة أهل العلم بإظهار الآخرة على الدنيا .

ومنها أن لا يخالف فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو أول عامل به . قال الله تعالى ﴿ أنأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ﴾ وقال تعالى ﴿ كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾ وقال تعالى في قصة شعيب ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله ويعمكم الله ﴾ وقال تعالى ﴿ واتقوا الله واعلموا - واتقوا الله واسمعوا ﴾ وقال تعالى لعيسى عليه السلام « يا ابن مريم عطف نفسك فإن اتعظت فقط الناس ولا فاستحي منى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت : من أنتم ؟ فقالوا : كنا نأمر بالخير ولا نأتيه ونهئ عن الشر ونأتيه (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « هلاك أمتي عالم فاجر وعابد جاهل ، وشر الشرار شرار العلماء ، وخير الخيار خيار العلماء (٣) » وقال الأوزاعي رحمه الله : شكت التواويس ما تجد من نهن جيف الكفار فأوحى الله لإيها : بطون علماء السوء أنهن فأنتم فيه . وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : بلغنى أن الفسقة من العلماء يبدأ بهم يوم القيامة قبل عبدة الأوثان . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات . وقال الشعبي : يطلع يوم القيامة قوم من أهل الجنة على قوم من أهل النار فيقولون لهم : ما أدخلكم النار وإنما أدخلنا الله الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم ؟ فيقولون إنما كنا نأمر بالخير ولا نفعله ونهئ عن الشر ونفعله . وقال حاتم الأصم رحمه الله : ليس في القيامة أشد حسرة من رجل علم الناس علما فعملوا به ولم يعمل هو به فأنزأوا بسببه وهلك هو . وقال مالك ابن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موقعته عن القلوب كما يزل القطر عن الصفاء وأنشدوا :

يا واعظ الناس قد أصبحت متما      إذ عبت منهم أمورا أنت تأتيا  
أصبحت تصحهم بالوصف مجتهدا      فالموبقات لعمري أنت جانها  
تعيب دنيا وناسا راغبين لها      وأنت أكثر منهم رغبة فيها  
لأنه عن خلق وتأني مشله      عار عليك إذا فعلت عظيم

وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : هربت بحجر بمكة مكتوب عليه « اقلبنى تعمر » فقلت له فإذا عليه مكتوب « أنت بم تعلم لاتعمل فكيف تطلب علم ما لم تعلم » ؟ وقال ابن السالك رحمه الله : كم من ذكر بالله ناس الله ا وكم من غوف بالله جرى على الله : وكم من مقرب إلى الله بعيد من الله ا وكم من داع إلى الله فار من الله ا وكم من نال كتاب الله ملسخ عن آيات الله ا وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : لقد أعربنا في كلامنا فلم نلحن ولنحن في أحمالنا فلم نعرف . وقال الأوزاعي : إذا جاء الإعراب ذهب الخشوع . وروى مكحول عن عبد الرحمن بن غنم أنه قال : حدثني عشرة

(١) حديث جابر « لا تجلسوا عند كل عالم ... الحديث » أخرجه أبو نعيم في الحلية وابن الجوزى في الموضوعات .

(٢) حديث « مرت ليلة أسرى في بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار ... الحديث » أخرجه ابن حبان من

حديث أنس . (٣) حديث « هلاك أمتي عالم فاجر وشر الشرار شرار العلماء ... الحديث » أخرجه الداريمى من

رواية الأحوص بن حكيم عن أبيه مرسلًا بآخر الحديث نحوه وقد تقدم ولم أجد صدر الحديث .

من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا « كنّا ندرس العلم في مسجد قباء إذ خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا » (٢) » وقال عيسى عليه السلام : مثل الذي يتعلم العلم ولا يعمل به كمثل امرأة زنت في السر فحملت فظهر حملها فافتضحت فكذلك من لا يعمل بعلمه يفضحه الله تعالى يوم القيامة على رؤوس الأنهاد . وقال معاذ رحمه الله : احذروا زلة العالم لأن قدره عند الخلق عظيم فيتموه نه كمل زلته . وقال عمر رضى الله عنه : إذا زل العالم زل يزله عالم من الخلق . وقال عمر رضى الله عنه : ثلاث بين يهدم الزمان إحداهن زلة العالم . وقال ابن مسعود : سيأتى على الناس زمان تلج فيه عدوبة القلوب فلا يتفبع بالعلم يومئذ عاله ولا متعلمه فتكون قلوب علماءهم مثل السباح من ذوات الملح ينزل عليها قطر السماء فلا يوجد لها عدوبة ، وذلك إذا مالت قلوب العلماء إلى حب الدنيا وإيثارها على الآخرة فعند ذلك يسلمها الله تعالى بتأبيح الحكمة ويعطى مصابيح الهدى من قلوبهم فيخبرك عالمهم حين تلقاه أنه يخشى الله بلسانه والنجور ظاهر في عمله ، فما أخضب الألسن يومئذ وما أجذب القلوب ، فوالله الذى لا إله إلا هو ما ذلك إلا لأن المعلمين علموا لغير الله تعالى والمتململين تعلموا لغير الله تعالى . وفي التوراة والإنجيل مكتوب : لا تطلبوا علم مالم تعلموا حتى تعملوا بما علمتم . وقال حذيفة رضى الله عنه : إنكم في زمان من ترك فيه عشر ما يعلم هلك ، وسيأتى زمان من عمل فيه بعشر ما يعلم نجا وذلك لكثرة البطالين .

واعلم أن مثل العالم مثل القاضي وقد قال صلى الله عليه وسلم « القضاء ثلاثة : قاض قضى بالحق وهو يعلم فذلك في الجنة وقاض قضى بالجور وهو يعلم فهو يعلم أو لا يعلم فهو في النار وقاض قضى بغير ما أمر الله به فهو في النار » (١) وقال كعب رحمه الله : يكون في آخر الزمان علماء يهدون الناس في الدنيا ولا يهدون ، ويخوفون الناس ولا يخافون ، ويهنون عن غشيان الولاة ويأثرونهم ، ويؤثرون الدنيا على الآخرة ، يأكلون بالسنهم ، يقربون الأغنياء دون الفقراء ، يفتارون على العلم كما تفتار النساء على الرجال . يفضض أحدهم على جليسه إذا جالس غيره ، أولئك الجبارون أعداء الرحمن . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان ربما يسوقكم بالعلم ، فقل : يا رسول الله كيف ذلك ؟ قال صلى الله عليه وسلم : يقول اطلب العلم ولا تعلم حتى تعلم فلا يزال العلم قائلاً وللعلم مسواحق يموت وما عمل » (٢) » وقال سرى السقطي : اعتزل رجل للتعبيد كان حرباً على طلب علم الظاهر فسأله فقال : رأيت في النوم قائلاً يقول لي « إلى كم تضع العلم ضيمك الله » فقلت : إلى لأحفظه فقال « حفظ العلم العمل به » فتركت الطالب وأقبلت على العمل . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم الخشية ، وقال الحسن : تعلموا ما شئتم أن تعلموا فوالله لا يأجركم الله حتى تعملوا فإن السفهاء همته الرواية والعلماء همته الرعاية . وقال مالك رحمه الله : إن طلب العلم الحسن وإن نشره لحسن إذا صحت فيه النية ولكن انظر ما يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسى فلا تؤثرون عليه شيئاً . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : أنزل القرآن ليعمل به فاتخذتم دراسته عملاً وسيأتى قوم يشفقون مثل الفتاة ليسوا بختياركم والعالم الذى لا يعمل كالمرضى الذى يصف الدواء وكالجامع الذى يصف لذائذ الأطعمة ولا يجدها . وفي مثله قوله تعالى ﴿ ولكم الويل بما تصفون ﴾ وفي الخبر « إنما أخاف على أمتي زلة عالم

(١) حديث عبد الرحمن بن غنم عن عشرة من الصحابة « تعلموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا »  
علقه ابن عبد البر وأسنده ابن عدى وأبو نعيم والخطيب في كتاب اقتضاء العلم للعمل من حديث معاذ قطب بسند ضعيف  
ورواه الداريمى موقوفاً على معاذ بسند صحيح .

(٢) حديث « القضاء ثلاثة ... الحديث » أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح

(٣) حديث « إن الشيطان ربما يسبقكم بالعلم ... الحديث » في الجامع من حديث أنس بسند ضعيف



وجدل منافق في القرآن (١) .

ومنها أن تكون عنايته بتحصيل العلم النافع في الآخرة المرغب في الطاعات مجتنباً للعلوم التي يقل نفعها ويكثر فيها الجدل والقتيل والقتال .

فشال من يعرض عن علم الأعمال ويشغل بالجدال مثل رجل مريض به علل كثيرة وقد صادف طبيباً حاذقاً وقت ضيق يخشى فواته فاشتغل بالسؤال عن خاصية العقاقير والأدوية وغرائب الطب وترك مهمه الذي هو مواعيدته ، وذلك محض السفه . وقد روى « أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمني من غرائب العلم ، فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم . قال : فأعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحكم ما هناك ثم تعالى نعلك من غرائب العلم (٢) » بل ينبغي أن يكون المتعلم من مجلس مروي عن حاتم الأصم .. تلبيذ شقيق البلخي رضي الله عنهما أنه قال له : شقيق منذ كم صحبتني ؟ قال حاتم : منذ سنة ، قال : فما تعلمت مني في هذه المدة ؟ قال : ثمان مسائل ، قال شقيق له : إن الله وإنا إليه راجعون ذنب عمري معك ولم تعلم إلا ثمان مسائل ؟ قال : يا أستاذ لم أعلم غيرها وإني لأحب أن أكذب ، فقال : هات هذه الثمان مسائل حتى أسميها ! قال حاتم : نظرت إلى هذا الخاق فرأيت كل واحد يصعب عيوباً فهو محبب إليه إلى القبر فإذا وصل إلى القبر فارقته فجعلت الحسنات محبوباً فإذا دخلت القبر دخل محبوبي معي ، فقال : أحسنت يا حاتم فما الثانية ؟ فقال : نظرت في قول الله عز وجل ﴿ وأما من عاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى ﴾ فعلمت أن قوله سبحانه وتعالى هو الحق فأجهدت نفسي في دفع الهوى حتى استقرت على طاعة الله تعالى . الثالثة : أتى نظرت إلى هذا الخاق فرأيت كل من معه شيء له قيمة ومقدار رفقه وحفظه ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ ما عندكم ينفد وما عند الله باق ﴾ فكلما وقع معي شيء له قيمة ومقدار وجهته إلى الله ليبقى عنده عفوفاً . الرابعة : أتى نظرت إلى هذا الخاق فرأيت كل واحد منهم يرجع إلى المسال وإلى الحسب والشرف والنسب فنظرت فيها فإذا هي لأشياء ثم نظرت إلى قول الله تعالى ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ فعملت في التقوى حتى أكون عند الله كريماً . الخامسة : أتى نظرت إلى هذا الخاق وهم يلعن بعضهم في بعض ويعلم بعضهم بعضاً وأصل هذا كله الحسد ثم نظرت إلى قول الله عز وجل ﴿ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ﴾ فترك الحسد واجتنب الخلق وعلبت أن القسمة من عند الله سبحانه وتعالى فتركت عداوة الخلق عني . السادسة : نظرت إلى هذا الخلق يبغى بعضهم على بعض ويقال بعضهم بعضاً فرجعت إلى قول الله عز وجل ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ﴾ فعدايتي وحده واجتهدت في أخذ حذري منه لأن الله تعالى شهد عليه أنه عدو لي فتركت عداوة الخلق غيره . السابعة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيت كل واحد منهم يطلب هذه الكسرة فينل فيها نفسه ويدخل فيها لأجل له ثم نظرت إلى قوله تعالى ﴿ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴾ فعملت أتى واحد من هذه الدواب التي على الله رزاقها فاشتغلت بما لله تعالى على وترك ما لي عنده . الثامنة : نظرت إلى هذا الخلق فرأيتهم كلهم متوكلين على مخلوق - هذا على ضيعته وهذا على تجارتهم وهذا على صناعته وهذا على صحة بدنه - وكل مخلوق متوكل على مخلوق مثله فرجعت إلى

(١) حديث « مما أخاف على أمتي زلة عالم ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث أبي الدرداء ، وابن حبان نحوه من حديث عمران بن حصين (٢) حديث « أن رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال علمني من غرائب العلم ... الحديث » ابن السني وأبو نعيم في كتاب الرياضة لها ، وابن عبد البر من حديث عبد الله بن المسور مرسل وهو ضعيف جداً .

قوله تعالى (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) فتوكلت على الله عز وجل فهو حسبي . قال شقيق : يا حاتم وفقك الله تعالى فإني نظرت في علوم التوراة والإنجيل والزيور والفرقان العظيم فوجدت جميع أنواع الخير والديانة وهي تدور على هذه الثمان مسائل فمن استعملها فقد استعمل الكتب الأربعة .

فهذا الفن من العلم لا يهتم بإدراكه والتفطن له إلا علماء الآخرة فأعلماء الدنيا فيشتغلون بما يتيسر به اكتساب المال والجاه ويهملون أمثال هذه العلوم التي يعتقها الأنبياء كلهم عليهم السلام وقال الضحاك بن مزاحم : أدر كنتم وما تعلم بعضهم من بعض إلا الورع يوم ما يعلمون إلا الكلام .

ومنها أن يكون غير مائل إلى الترفه في الطعام والمشرب والتنعيم في الملابس والتجمل في الأثاث والمسكن بل يؤثر الاقتصاد في جميع ذلك ويتشبه فيه بالسلف رحمهم الله تعالى ويميل إلى الاكتفاء بالأقل في جميع ذلك وكلما زاد إلى طرف القلة ميله ازداد من الله قرباً وارتفع في علماء الآخرة حوز به . ويشهد لذلك ما حكى عن أبي عبد الله الخواص - وكان من أصحاب حاتم الأصم - قال : دخلت مع حاتم إلى الري ومعنا ثلثمائة وعشرون رجلاً يريد الحج وعليهم الزمرانقات وليس معهم جراب ولا طعام فدخلنا على رجل من التجار متعشف يجب للمساكين فأضافنا تلك الليلة فلما كان من الغد قال حاتم : ألك حاجة فإني أريد أن أعود فقبحا لنا هو عليه ؟ قال حاتم عيادة المريض فيها فضل والنظر إلى الفقيه عبادة وأنا أيضاً أحبه مملك . وكان الليل محمداً بمقاتل - فاضى الري - فلما جئنا إلى الباب فإذا قصر مشرف حسن فبقى حاتم متفكراً يقول : يا بطلان على هذه الحالة ؟ ثم أذن لهم فدخلوا فإذا دار حسنة فورا واسعة نزهة وإذا بزة وسود فبقى حاتم متفكراً ثم دخلوا إلى المجلس الذي هو فيه وإذا بفرش وطيشة وهوراء عليها وعند رأسه غلام ويده ممدودة فقام الزائر عند رأسه وسأل عن حاله وحاتم قائم فأومأ إليه بمقاتل أن اجلس فقال لأجل ما جلس فقال لعل لك حاجة فقال : نعم ، قال : وما هي ؟ قال : مسئلة سألك عنها قال : سل ، قال : فم فاستوجال سألته . فاستوى جالساً قال حاتم : علمك هذا من أين أخذه ؟ فقال : من الثقات حدثوني به ، قال : فمن ؟ قال : عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ؟ قال : عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ورسول الله صلى الله عليه وسلم ممن ؟ قال : عن جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل ، قال حاتم فقبحاً أذاه جبرائيل عليه السلام عن الله عز وجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأداه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وأصحابه إلى الثقات وأداه الثقات إليك هل سمعت فيه من كان في داره (إشراف وكانت سمعاً) أكثر كان له عند الله عز وجل منزلة أكبر ؟ قال : لا . قال : فكيف سمعت ؟ قال : سمعت أنه من زهد في الدنيا ورغب في الآخرة وأحب المساكين وقدم آخرته كانت له عند الله منزلة ، قال له حاتم : فأنت بمن اقتديت يا بطلان صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم والصالحين ورحمهم الله أم بفرعون ونمرود أول من بنى بالجلس والآخر ؟ يا علماء السوء مثلكم يراه الجاهل المتكالب على الدنيا الراغب فيها فيقول : العالم على هذه الحالة ! أفلا أكون أنا شراً منه ؟ وخرج من عنده فإزداد ابن مقاتل مرضاً وبلغ أهل الري ما جرى بينه وبين ابن مقاتل فقالوا له : إن الطنافى بقزوين أكثر توسعاً منه . فسار حاتم متعمداً فدخل عليه فقال : رحمه الله أنا رجل أعجمي أحب أن تعلمني مبتدأ ديني ومفتاح صلاتي كيف أتوضأ للصلاة ؟ قال : نعم وكرامة يا غلام هات إناء فيه ماء . فأني به بقعد الطنافى فتوضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال : هكذا فتوضأ . فقال حاتم : مكانك حتى أتوضأ بين يديك فيكون أوكد لما أريد ، فقام الطنافى وقعد حاتم فتوضأ ثم غسل ذراعيه أربعاً أربعاً فقال الطنافى : يا هذا أسرفت إنا له حاتم ؟ فإذا قال غسل ذراعيك أربعاً . فقال حاتم : يا سبحان الله العظيم أناني كف من ماء أسرفت وأنت في جميع هذا كله لم تسرف ؟ فعلم الطنافى

أنه قصد ذلك دون التعلم فدخل منزله فلم يخرج إلى الناس أربعين يوماً فلما دخل حاتم بغداد اجتمع إليه أهل بغداد فقالوا : يا أبا عبد الرحمن أنت رجل ألكن أعجمي وليس بكلمك أحد إلا نطقت ، قال : معي ثلاث خصال أظهر بهن على خصمي ، أفرح إذا أصاب خصمي وأحزن إذا أخطأ وأحفظ نفسي أن لا أجهل عليه . فبلغ ذلك الإمام أحمد بن حنبل فقال : سبحان الله ما أعقله قوموا بنا إليه . فلما دخلوا عليه قال له : يا أبا عبد الرحمن ما السلامة من الدنيا ؟ قال : يا أبا عبد الله لا تسلم من الدنيا حتى يكون معك أربع خصال : تغفر للقوم جهولهم وتنتع جهولك منهم وتبذل لهم شيئك وتكون من شيئهم أيسا ، فإذا كثرت هكذا سلمت ، ثم سار إلى المدينة فاستقبله أهل المدينة فقال : يا قوم أي مدينة هذه ؟ قالوا : مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأين قصر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصلي فيه ؟ قالوا : ما كان له قصر إنما كان له بيت لاطى بالارض ، قال : فأين قصور أصحابه رضى الله عنهم ؟ قالوا : ما كان لهم قصور إنما كان لهم بيوت لاططة بالارض ، قال حاتم : يا قوم فهذه مدينة فرعون ، فأخذوه وذهبوا به إلى السلطان وقالوا : هذا العجمي يقول هذه مدينة فرعون ، قال الراي : ولم ذلك ؟ قاله حاتم : لا تعجل على أنا رجل أعجمي غريب دخلت البلد فقلت مدينة من هذه فقالوا مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت فأين قصره . . . وقص القصة ، ثم قال : وقد قال الله تعالى ﴿ لقد كان لکم فی رسول الله أسوة حسنة ﴾ فاتم بهن تأسيسهم برسول الله صلى الله عليه وسلم أم بفرعون أول من بنى بالجص والآجر ؟ غفلوا عنه وتركوه . فهذه حكاية حاتم الأصم رحمه الله تعالى ، وسيأتى من سيرة السلف في البزاة وترك التجمل ما يشهد لذلك في مواضعه .

والتحقيق فيه أن الذين بالمباح ليس بهرام ولكن الخوض فيه يوجب الأذى به حتى يشق تركه ، واستدامة الزينة لا تمكن إلا بمباشرة أسباب في الغالب يلزم من مراعاتها ارتكاب المعاصي من المداينة ومراعاة الخلق ومراعاتهم وأمور أخرى محظورة والخوض اجتنب ذلك لأن من خاض في الدنيا لا يسلم منها أبنة ولو كانت السلامة مبذولة مع الخوض فيها لكان صلى الله عليه وسلم لا يبلغ في ترك الدنيا حتى نزع القميص المطرذ بالعلم (١) ونزع خاتم الذهب في أثناء الخطبة (٢) إلا غير ذلك مما سيأتى بيانه . وقد حكى أن يحيى بن يزيد النوفلي كتب إلى مالك ابن أنس رضى الله عنهما « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على رسوله محمد في الأولين والآخرين ، من يحيى ابن يزيد بن عبد الملك إلى مالك بن أنس ، أما بعد : فقد بلغني أنك تلبس الدقاق وتأكل الرقاق وتجلس على الوطن . وتجعل على بابك حاجبا وقد جلست مجلس العلم وقد ضربت إليك الخطي وارجعل إليك الناس واتخذوك إماما ورضوا بقولك ؟ فائق الله تعالى يا مالك وعليك بالتواضع . كتبت إليك بالنصيحة متى كتابا ما أطبع عليه غير الله سبحانه وتعالى والسلام » فكتبت إليه مالك « بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم ، من مالك بن أنس إلى يحيى بن يزيد سلام الله عليك ، أما بعد : فقد وصل إلى كتابك فوقع في موقع النصيحة والشفقة والأدب أتمك الله بالتقوى وجراكَ بالنصيحة خيرا وأسأل الله تعالى التوفيق ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، فأما ما ذكرت في آق آكل الرقاق وألبس الدقاق وأحتجب وأجلس على الوطن فدنن بفعل ذلك ونستغفر الله تعالى فقد قال الله تعالى ﴿ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ﴾ وفي لأعلم أن ترك ذلك غير من الدخول فيه . ولا ندعنا من كتابك فلسنا ندعك من كتابنا والسلام ، فانظر إلى إصناف مالك إذ اعترف أن

(١) حديث « نزع القميص المعلم » عليه من حديث عائشة .  
(٢) حديث « نزع الخاتم الذهب في أثناء الخطبة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

ترك ذلك غير من الدخول فيه . وأقبح بأنه مباح وقد صدق فيها جميعاً ومثل مالك في منصبه إذا سمحت نفسه بالإتصاف والاعتراف في مثل هذه النصيحة فتقوى أيضاً نفسه على الوقوف على حدود المباح حتى لا يعمله ذلك على المراءاة والمداهنة والتجاوز إلى المكرومات ، وأما غيره فلا يقدر عليه فالتعرج على التثمم بالمباح خطر عظيم وهو بعيد من الخوف والخشية . وخاصة علماء الله تعالى الخشية وخاصة الخشية التباعد من مظان الخطر .

ومنها أن يكون مستقصياً عن السلاطين فلا يدخل عليهم ألبتة مادام يجد إلى الفرار عنهم سبيلاً بل ينبغي أن يمتدح عن غائلتهم وإن جاءوا إليه فإن الدنيا حلوة خضرة وزمامها بأيدي السلاطين . والمخالط لهم لا يخلو عن تكلف في طلب مرضاتهم واستئالة قلوبهم مع أنهم ظلمة . ويجب على كل متدين الإنكار عليهم وتضييق صدورهم بإظهار ظلمهم وتضييق فعلهم فإدخال عليهم إما أن يلتفت إلى تحملهم فيزدري نعمة الله عليه أو يسكت عن الإنكار عليهم فيسكون مداهنا لهم أو يتكلم في كلامه كلاماً لمرضاتهم وتحسين حالهم وذلك هو البهت الصريح أو أن يطمع في أن ينال من دنياهم وذلك هو السمح وسيأتي في كتاب الحسب والحرام ما يجوز أن يؤخذ من أموال السلاطين وما لا يجوز من الإردار والجواز وغيرها .

وعلى الجملة فخالطهم مفتاح للشرور وعلماء الآخرة طريقهم الاحتياط . وقد قال صلى الله عليه وسلم « من بدا جفا ... يعني من سكن البادية جفا ... ومن اتبع الصيد غفل ومن أتى السلطان افتتن » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتسكرون فمن أنكر فقد برى ، ومن كره فقد سلم ولكن من رضي وتابع أبعده الله تعالى . قيل : أفلا تقاؤهم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : لا ماصلو » (٢) وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الراثرون للملوك . وقال حذيفة : إياكم وموقف الفتنة ، قيل وما هي ؟ قال : أبواب الأمراء يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب ويقول فيه ما ليس فيه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم العلماء أمداء الرسل على عباد الله تعالى ما لم يخالطوا السلاطين فإذا فعلوا ذلك فقد خانوا الرسل فاحذروهم واعتزلوهم » (٣) رواه أنس ، وقيل الأعمش : لقد أحييت العلم لكثرة من يأخذه عنك . فقال : لا تعجلوا ذلك بموتون قيل الإدراك وثاث يازمون أبواب السلاطين فهم شر الخلق والثلث الباقي لا يفلح منه إلا القليل . ولذلك قال سعيد بن المسيب رحمة الله إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فاحذروا منه فإنه أبغض وقال الأوزاعي ما من شيء أبغض إلى الله تعالى من عالم يزور حاملاً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء (٤) وقال مكحول السمطي رحمة الله : من تعلم القرآن وتفقه في الدين ثم صحب السلطان تعلقاً إليه وطعماً فيما لديه خاض في بحر من نار جهنم بعدد خطاه . وقال سمعون : ما أسمع بالعالم أن يوق إلى مجلسه فلا يوجد فيسئل عنه فيقال هو عند الأمير ! قال : وكنت أسمع أنه يقال إذا رأيتم العالم يذهب الدنيا فاقموا له على دينكم حتى يجرب ذلك ، إذ ما دخلت قط على هذا السلطان إلا وحاسبت نفسي بعد الخروج فأرى عليها الدرك وأتمرون ما ألقاه به من الغلظة والغلظة وكثرة المخالفة لواء ولوددت أن أنجو من الدخول عليه كفافاً مع أي لا آخذ منه شيئاً ولا أشرب له شربة ماء . ثم قال : وعلماء زماننا شر من علماء بني إسرائيل يخبرون السلطان بالرخص وبما يوافق

(١) حديث « من بدا جفا ... الحديث » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث ابن عباس .

(٢) حديث « سيكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتسكرون ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أم سلمة .

(٣) حديث أنس « العلماء أمداء الرسل على عباد الله ... الحديث » أخرجه العقيلي في الضعفاء ، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٤) حديث « شرار العلماء الذين يأتون الأمراء وخيار الأمراء الذين يأتون العلماء » أخرجه ابن ماجه بالمشطر الأول نحوه من حديث أبي هريرة بسند ضعيف .

هواء ولو أخبروه بالذى عليه وفيه نجاته لاستقبلهم وكره دخولهم عليه وكان ذلك نجاته لهم عند ربهم . وقال الحسن : كان فيمن كان قبلكم رجل له قدم في الإسلام وصحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عبد الله بن المبارك عني به سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه . قال وكان لا يفتى السلاطين وينفر عنهم . فقال له بنوه : يأتى هؤلاء من ليس هو مثلك في الصحبة والقدم في الإسلام فلو أتيتهم ، فقال : يابى آتى جيفة قد أحاط بها قوم والله أئن استطعت لأأشركهم فيها ، قالوا يا أبانا إذن نمك هرا قال : يابى لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحب إلى من أن أموت منافقاً سميناً قال الحسن : خصصهم والله إذ علم أن التراب يأكل اللحم والسمن دون الإيمان . وفي هذا إشارة إلى أن الداخل على السلطان لا يسلّم من النفاق ألبتة وهو مضاد للإيمان . وقال أبو ذر لسنة : يا سلمة لا تفتش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئاً من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه . وهذه فتنة عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشیطان عليهم لاسيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذ لا يزال الشيطان يلقى إليه : أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يجرهم عن الظلم ويرقيم شعائر الشرع إلى أن يغيل إليه أن الدخول عليهم من الدين ، هم إذا دخل لم يلبث أن يلطّف في الكلام ويداهن ويغوض في الثناء والإطراء وفيه هلاك الدين ، وكان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا . وكتب عمر بن عبد العزيز رحمه الله إلى الحسن : أما بعد فأشّر على بأقوام أستهين بهم على أمر الله تعالى . فكتب إليه : أما أهل الدين فلا يريدونك وأما أهل الدنيا فلن تريدوا ولكن عليك بالأشراف فإنهم يصونون شرفهم أن يدنسوه بالحياة . هذا في عمر بن عبد العزيز رحمه الله وكان أزهّد أهل زمانه ؛ فإذا كان شرط أهل الدين الحرب منه فكيف يستتب طلب غيره وعافيته ؟ ولم يزل السلف العلماء مثل الحسن والثوري وابن المبارك والفضيل وإبراهيم بن آدم ويوسف بن أسباط يتكلمون في علماء الدينام من أهل مكة والشام وغيرهم إما لميلهم إلى الدنيا وإما لمخالفتهم السلاطين . ومنها أن لا يكون مسارحاً إلى الفتيا بل يكون متوقفاً ومحترفاً ما وجد إلى الخلاص سبيلاً ، فإن سئل عما يطمه تحقيقاً بنص كتاب الله أو بنص حديث أو إجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدري ؛ وإن سئل عما يظنه باجتهاد وتحمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غشية ، هذا هو الحزم لأن تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري » (١) ، وقال الشعبي : « لا أدري » نصف العالم . ومن سكت حيث لا يدري لله تعالى فليس بأقل أجراً ممن نطق لأن الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم . كان ابن عمر إذا سئل عن الفتيا قال : اذهب إلى هذا الأمير الذى تقلد أمور الناس فضمها في عنقه وقال ابن مسعود رضى الله عنه : إن الذى يفتى الناس في كل ما يستفتونه ليجنون ، وقال : جنة العالم « لا أدري » فإن أخطأها فقد أصيبت مقالتها . وقال إبراهيم بن آدم رحمه الله : لبس شيء أشد على الشيطان من عالم يتكلم بعلم ويسكت بعلم . يقول : انظروا إلى هذا سكوتة أشد على من كلامه . ووصف بعضهم الأبدال فقال : أكلهم فاقة ونومهم غلبة وكلامهم ضرورة ، أى لا يتكلمون حتى يسألوا وإذا سئلوا ووجدوا من يكفهم سكنوا فإن اضطروا أجابوا وكانوا يعدون الابتداء قبل السؤال من الشهوة الخفية للكلام . ومر على وعبد الله رضى الله عنهما برجل يتكلم على الناس فقال : هذا يقول اعرفنى . وقال بعضهم : إنما العالم الذى إذا سئل عن المسئلة فكأنما يقلع ضرسه . وكان ابن عمر يقول : تريدون

(١) حديث « العلم ثلاثة : كتاب ناطق وسنة قائمة ولا أدري » أخرجه الخطيب في أسماء من روى عن مالك موقفاً على ابن عمر ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعاً نحوه مع اختلاف وقد تقدم .

أن يجعلونا جسرا تبرون علينا إلى جهنم . وقال أبو حفص الثيسابورى : العلم هو الذى يخاف عند السؤال أن يقال له يوم القيامة من أين أجبت ؟ وكان لإبراهيم التيمى إذا سئل عن مسألة يبكى ويقول : لم تجدوا غيرى حتى أحجتم إلى . وكان أبو العالية الرياحى وإبراهيم بن آدم والثورى يتكلمون على الاثنين والثلاثة والنفر اليسير فإذا كثروا انصرفوا : وقال صلى الله عليه وسلم : « ما أدرى أعزير نبي أم لا ؟ وما أدرى أتبع ملعون أم لا ؟ ما أدرى أذى القرنين نبي أم لا ؟ » (١) . ولما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خير البقاع فى الأرض وشربها قال « لا أدرى » حتى نزل عليه جبريل عليه السلام فسأله فقال « لا أدرى » إلى أن أعله الله عز وجل أن خير البقاع المساجد وشربها الأسواق (٢) . وكان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع . وكان ابن عباس رضى الله عنهما يجيب عن تسع ويسكت عن واحدة . وكان فى الفقهاء من يقول « لا أدرى » أكثر من يقول « أدرى » منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل ابن عياض وبشر بن الحرث . وقال عبد الرحمن بن أبى ليلي : أدركت فى هذا المسجد مائة وعشرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منهم أحد يسئل عن حديث أو فية إلا ودأن أخاه كفاه ذلك . وفى لفظ آخر : كانت المسئلة تعرض على أحدهم فيردها إلى الآخر ويردها الآخر إلى الآخر حتى تعود إلى الأول . وروى أن أصحاب الصفة أهدى إلى واحد منهم رأس مشوى وهو فى غاية الضر فأكدها إلى الآخر وأهداه الآخر إلى الآخر ، هكذا دار بينهم حتى رجع إلى الأول . فانظر الآن كيف انعكس أمر العلماء فصار المهروب منه مطلوباً والمطلوب مهروباً عنه ؟ ويشهد لحسن الاحتراز من تقلد الفتاوى ما روى مسنداً عن بعضهم . أنه قال : لا يفتى الناس إلا ثلاثة : أمير أو أمور أو متكلف . وقال بعضهم : كان الصحابة يتدافعون أربعة أشياء : الإمامة والوصية والوديعة والفتيا . وقال بعضهم : كان أسرعهم إلى الفتيا أفهمهم علماً ، وأشدهم دفعا لها أروعهم . وكان شغل الصحابة والتابعين رضى الله عنهم فى خمسة أشياء : قراءة القرآن وحجارة المساجد وذكر الله تعالى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . وذلك لما سمعوه من قوله صلى الله عليه وسلم « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة : أمر بمعروف أو نهى عن منكر أو ذكر الله تعالى » (٣) . وقال تعالى « لاخير فى كثير من نجوهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس » الآية . ورأى بعض العلماء بعض أصحاب الراى من أهل السكوفة فى المقام فقال : ما رأيت فيما كنت عليه من الفتيا والراى ؟ فسكره وجهه وأعرض عنه وقال : ما وجدناه شيئاً وما حدثنا حقيقته . وقال ابن حصين : إن أحدهم ليفتى فى مسألة لو وردت على عمر بن الخطاب رضى الله عنه لجمع لها أهل بدر . فلم يزل السكوت دأب أهل العلم إلا عند الضرورة . وفى الحديث « إذا رأيتم الرجل قد أرقى صمتاً وزهداً فاقربوا منه فإنه يلقن الحكمة » (٤) . وقيل : العالم إما عالم عامة وهو المفتى وهم أصحاب السلاطين أو عالم خاصة وهو العالم بالتحديد أعمال القلوب ، وهم أصحاب الزوايا المتفرقون المتفردون وكان يقال : مثل أحمد بن حنبل مثل دجلة كل أحد يغترق منها ، ومثل بشر بن الحرث مثل شرعذبة منطاة لا يقصدها إلا الواحد بعد واحد . وكانوا يقولون : فلان عالم

- (١) حديث « ما أدرى أعزير نبي أم لا ... الحديث » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبى هريرة  
 (٢) حديث « لما سئل عن خير البقاع وعربها قال لا أدرى حتى نزل جبريل ... الحديث » أخرجه أحمد وأبو يعلى  
 والبزار والحاكم وصححه ونحوه من حديث ابن عمر  
 (٣) حديث « كل كلام ابن آدم عليه لاله إلا ثلاثة ... الحديث » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أم حبيبة  
 قال الترمذى حديث غريب  
 (٤) حديث « إن رأيتم الرجل قد أرقى صمتاً وزهداً ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن خلاد  
 بإسناد ضعيف

وفلان ، تكلم وفلان أكثر عملاً ، وقال أبو سليمان : المعرفة إلى السكوت أقرب منها إلى الكلام . وقيل : إذا كثّر العلم قل الكلام وإذا كثّر الكلام قل العلم . وكتب سليمان إلى أبي الدرداء رضى الله عنهما — وكان قد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) : يا أخى بلغنى أنك قعدت طبيباً تداوى المرضى ، فافطر فإن كنت طبيباً فتكلم فإن كلامك شفاء وإن كنت مطبياً فالله لا تقتل مسلماً . فكان أبو الدرداء يتوقف بعد ذلك إذا سئل وكان أنس رضى الله عنه إذا سئل يقول : سلوا مولانا الحسن ، وكان ابن عباس رضى الله عنهما إذا سئل يقول : سلوا حارثة ابن زيد وكان ابن عمر رضى الله عنهما يقول : سلوا سعيد بن المسيب . وحكى أنه روى صحابى في حاضرة الحسن عشرين حديثاً فسئل عن تفسيرها فقال : ما عندي إلا مارويث ، فأخذ الحسن في تفسيرها حديثاً حديثاً فتهجوا من حسن تفسيره وحفظه ، فأخذ الصحابى كفا من حصى ورماه به وقال : تسألون عن العلم وهذا الحبر بين أظهركم .

ومنها أن يكون أكثر اهتمامه بعلم الباطن ومراقبة القلب ومعرفة طرق الآخرة وسلوكه وصدق الرجاء في انكشاف ذلك من المجاهدة والمراقبة فإن المجاهدة تقضى إلى المشاهدة ، ودقائق علوم القلب تنفجر بها ينابيع الحكمة من القلب ، وأما الكتب والتعاليم فلا تنى بذلك بل الحكمة الخارجة عن الحصر والعد إنما تنفتح بالمجاهدة والمراقبة ومباشرة الأعمال الظاهرة والباطنة والجلوس مع الله عز وجل في الخلوة مع حضور القلب بصفاء الفكرة والانقطاع إلى الله تعالى عما سواه فذلك مفتاح الإلهام ومنبع الكشف ، فكم من متعلم طال تعلمه ولم يقدر على مجاوزة مسموعه بكلمة ! وكم من مقتصر على المهم في التعلم ومتوفر على العمل ومراقبة القلب فتح الله له من لطائف الحكمة ما تحار فيه عقول ذوى الأبواب ! ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم (٢) » وفي بعض الكتب السالفة : يا بني إسرائيل لا تقولوا العلم في السماء من ينزل به إلى الأرض ولا في تقوم الأرض من يصعد به ولا من وراء البحار من يمر يأق به العلم يجعل في قلوبكم تأدبوا بين يدي آداب الروحانيين وتعلقوا بأخلاق الصديقين أظهر العلم في قلوبكم حتى يفتطيك ويغمركم وقال سهل بن عبد الله التستري رحمه الله : خرج العلماء والعباد الزهاد من الدنيا وقلوبهم مقفلة ولم تفتح إلا قلوب الصديقين والشهداء ثم تلا قوله تعالى ﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ﴾ الآية ولولا أن إدراك قلب من له قلب بالروح الباطن حاكم على علم الظاهر لما قال صلى الله عليه وسلم « استفت قلبك وإن التوك وأتوك وأتوك » وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تعالى « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به . . . الحديث (١) » فكم من معان دقيقة من أسرار القرآن تخطر على قلب المتجردد لله كرو الفكر تغلو عنها كتب التفاسير ولا يطلع عليها أفاضل المفسرين . وإذا انكشف ذلك للمريد المراقب وعرض على المفسرين استحسوه وعلما أن ذلك من تلبهات القلوب الزكية وألغاف الله تعالى بالمهم العلية المتوجهة إليه وكذلك في علوم المشاهدة وأسرار علوم المعاملة ودقائق خواطر القلوب فإن كل علم بحر لا يدرج صمته وإنما يوحى به كل طالب بقدر ما رزق منه وبحسب ما رزق له من حسن العمل . وفي وصف هؤلاء العلماء قال صلى الله عليه وسلم « رضى الله عنه في حديث طويل . القلوب أوعية وخيرها أوعاها للخير ، والناس ثلاثة عالم ربانى ومتعلم على سبيل النجاة ومهيج رجاج أتباع لكل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم ولم يلجئوا إلى ركن وثيق ، العلم

(١) حديث « مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء » أخرجه البخارى من حديث أبي جعفر .

(٢) حديث « من عمل بما علم ورثه الله ما لا يعلم » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس وضعفه .

(٣) حديث « لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلفظ « كنت سمعه وبصره » وهو في الحلية كما ذكره المؤلف من حديث أنس بسند ضعيف .

خير من المال ، والعلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم يزكركا على الإتقان والمال ينقصه الإتقان ، والعلم دين يدان به تستكتب به الطاعة في حياته وجبيل الأحدث بعد وفاته ، العلم حاكم والمال محكوم عليه ومنفعة المال تزول بزواله مات خزان الأموال وهم أحياء والعلماء أحياء باقون مابقي الدهر . ثم تنفس الصعداء وقال : هاهنا إن ههنا علما جمعا لو وجدت له حلة ، بل أجد طلبا غير مأمون يستعمل آلة الدين في طلب الدنيا ويستطيل بنعم الله على أوليائه ويستظهر بحجة على خلقه ، أو منقادا لأهل الحق لكن ينزوع الشك في قلبه بأول عرض من شبهة لا بصيرة له لا ذا ولا ذاك ، أو منهوما بالذات سلس القياد في طلب الشهوات ، أو مفرى بجمع الأموال والأذخار متقادا لخواه أقرب شيها بهم الأنعام السائمة ؛ اللهم هكذا يموت العلم إذا مات حاملوه ثم لاتفخوا الأرض من قائم لله بحجة إما ظاهر مكشوف وإما خائف مقهور لكيلا تبطل حجج الله تعالى وبشائنه وكما أين أولئك ؟ هم الأفلون عددا الأعظمون قدرا أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة يحفظ الله تعالى بهم حججه حتى يودعوها من ورائهم ويزرعوها في قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين فاستلنا ما استوعر منه المرفون وأنسا بما استرحش منه الغافلون ، صهبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالحل الأعلى أولئك أولياء الله عز وجل من خلقه وأمنائه وعمله في أرضه والدعاة إلى دينه ثم بكى وقال : واشوقا إلى رؤيتهم فهذا الذي ذكره أخيرا هو وصف علماء الآخرة وهو العلم الذي يستفاد أكثره من العمل والمواظبة على المجاهدة .

ومنها أن يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليقين الإيمان كله» (١) فلا بد من تعلم اليقين أعنى أوائله ثم يفتح للقلب طريقه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « تعلموا اليقين » (٢) ومعناه جالسوا الموقنين واستمعوا منهم علم اليقين وواظبوا على الاقتداء بهم ليقتوى بقتشكم كأقوى يقينهم وقيل من الشقين خير من كثير من العمل . وقال صلى الله عليه وسلم « لما قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب ورجل مجتهد في العبادة قليل اليقين ، فقال صلى الله عليه وسلم : مامن آدمي إلا وله ذنوب ولكن من كان غريره العقل وجهيته اليقين لم تنضره الذنوب لأنه كلما أذنب تاب واستغفر وتدم فكفر ذنوبه وبقي له فضل يدخل به الجنة » (٣) . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن من أقل ما أوتيتم : اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حظه منهما لم يبال ما فاتته من قيام الليل وصيام النهار » (٤) وفي وصية لقمان لابنه : يا بني لا يستطاع العمل إلا باليقين ولا يعمل المرء إلا بقدر يقينه ولا يقصر حامل حتى ينقص يقينه . وقال يحيى بن معاذ إن التوحيد نورا وللشرك نارا ، وإن نور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين ؛ وأراد به اليقين . وقد أشار الله تعالى في القرآن إلى ذكر الموقنين في مواضع دل بها على أن اليقين هو الرابطة للخيرات والسعادات .

فإن قلت : فما معنى اليقين وما معنى قوته وضمنه فلا بد من فهمه أولا ثم الاشتغال بطلبه وتلمه فإن ما لا تفهم صورته لا يمكن طلبه ؟ فاعلم أن اليقين لفظ مشترك يطلقه فريقان لمعنيين مختلفين أما النظار والمتكلمون فيمربون به عن عدم الشك إذ ميل النفس إلى التصديق بالشئ له أربع مقامات :

الأول : أن يعتدل التصديق والتكذيب ويمبر عنه بالشك ، كما إذا سئلت عن شخص معين ؛ أن الله تعالى

(١) حديث «اليقين الإيمان كله» أخرجه البيهقي في الزهد والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن

(٢) حديث « تعلموا اليقين » أخرجه ابن نعيم من رواية ابن زيد مرسل وهو معضل ورواه ابن أبي الدنيا في اليقين من قول خالد بن معدان .

(٣) حديث « قيل له : رجل حسن اليقين كثير الذنوب » أخرجه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث أنس بإسناد مظلم .

(٤) حديث « من أولى ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر . . . الحديث » لم أقف له على أصل ، وروى ابن عبد البر من حديث معاذ « ما أزل الله شيئا أقل من اليقين ولا قسم شيئا بين الناس أقل من العلم » الحديث .



يعاقبه أم لا ؟ وهو مجهول الحال عندك فإن نفسك لا تميل إلى الحكم فيه بإثبات ولا نفي بل يستوى عندك إمكان الأمرين فيسمى هذا شكاً .

الثاني : أن تميل نفسك إلى أحد الأمرين مع الشعور بإمكان نقيضه ولكنه إمكان لا يمنع ترجيح الأول ، كما إذا شكك من رجل تعرفه بالصلاح والتقوى أنه يعينه لومات على هذه الحالة هل يعاقب ؟ فإن نفسك تميل إلى أنه لا يعاقب أكثر من ميلها إلى العقاب وذلك لتظهر علامات الصلاح ، ومع هذا فأنت تجوز اختفاء أمره وجوب العقاب في باطنه وسريته فهذا التجوز مساو لذلك الميل ولكنه غير دافع وجهاته فهذه الحالة تسمى ظناً .

الثالث : أن تميل النفس إلى التصديق بشئ بحيث يغلب علمها ولا يحظر بالبال تأني النفس عن قبوله ولكن ليس ذلك مع معرفة محققة إذ لو أحسن صاحب هذا المقام التأمل والإحصاء إلى التشكيك للتجوز ، وهذا يسمى اعتقاداً مقارياً باليقين وهو اعتقاد العوام في الشرعيات كلها إذ وسخ في نفوسهم بمجرد السماع حتى إن كل فرقة تثق بصفة مذهبه وإصابة إمامها ومتبوعها ، ولو ذكر لأحدهم إمكان خطأ إمامه نقر عن قبوله .

الرابع : المعرفة الحقيقية الحاصلة بطريق البرهان الذي لا يشك فيه ولا يتصور الشك فيه فإذا امتنع وجود الشك وإمكانه يسمى يقيناً عند هؤلاء . ومثاله أنه إذا قيل للعاقل هل في الوجود شئ هو قديم ؟ فلا يمكنه التصديق به بالبدية لأن القديم غير محسوس لا كالشمس والقمر فإنه يصدق بوجودهما بالحواس وليس العلم بوجود شئ قديم أزلي ضرورياً مثل العلم بأن الاثنين أكثر من الواحد ومثل العلم بأن حدوث حادث بلا سبب محال ، فإن هذا أيضاً ضروري لحق غريزة العقل أن تتوقف عن التصديق بوجود القديم على طريق الاحتمال والبدية . ثم من الناس من يسمع ذلك ويصدق بالسبب تصديقاً جزواً ويستمر عليه وذلك هو الاعتقاد وهو حال جميع العوام . ومن الناس من يصدق به بالبرهان وهو أن يقال له : إن لم يكن في الوجود قديم فالموجودات كلها حادثة فإن كانت كلها حادثة فهي حادثة بلا سبب أو فيها حادث بلا سبب وذلك محال ، فالمؤدى إلى المحال محال . فيلزم في العقل التصديق بوجود شئ قديم بالضرورة لأن الأقسام ثلاثة ، وهي أن تكون الموجودات كلها قديمة أو كلها حادثة أو بعضها قديمة وبعضها حادثة . فإن كانت كلها قديمة فقد حصل المطلوب إذ ثبت على الجملة قديم ، وإن كان الشكل حادثاً فهو محال إذ يؤدي إلى حدوث بغير سبب فيثبت القسم الثالث أو الأول . وكل علم حصل على هذا الوجه يسمى يقيناً عند هؤلاء سواء حصل بنظر مثل ما ذكرناه أو حصل بحس أو بغريزة العقل كالعلم باستحالة حادث بلا سبب أو بتواتر ، كالعلم بوجود مكة أو بتجربة كالعلم بأن السموم المطبوخ مسهل أو بدليل كما ذكرنا فشرط إطلاق هذا الاسم عند هدم الشك فكل علم لا شك فيه يسمى يقيناً عند هؤلاء وعلى هذا لا يوصف اليقين بالضعيف إذ لا تفاوت في نفي الشك ، الاصطلاح الثاني اصطلاح الفقهاء والمتصوفة وأكثر العلماء وهو أن لا يلتفت فيه إلى اعتبار التجوز والشك بل إلى استيلائه وغلبته على العقل ، حتى يقال : فلان ضعيف اليقين بالموت مع أنه لا شك فيه ، ويقال : فلان قوى اليقين في إتيان الرزق مع أنه قد يجوز أنه لا يأتيه . فهما مالت النفس إلى التصديق بشئ وغلب ذلك على القلب واستولى حتى صار هو المتحكم والمتصرف في النفس بالتجوز والمنع سمى ذلك يقيناً ولا شك في أن الناس مشتركون في القطع بالموت والافتكاك عن الشك فيه ، ولكن فهم من لا يلتفت إليه ولا إلى الاستعداد له وكأنه غير موقن به ، ومنهم من استولى ذلك على قلبه حتى استغرق جميع همه بالاستعداد له ولم يبادر فيه متساعاً لغيره فيعبر عن مثل هذه الحالة بقوة اليقين ، ولذلك قال بعضهم : ما رأيت يقيناً لا شك فيه أشبه بشك لا يقين فيه من

الموت . وعلى هذا الاصطلاح يوصف اليقين بالضعف والقوة ونحن إنما أردنا بقولنا « إن من شأن علماء الآخرة صرف العناية إلى تقوية اليقين » بالمعنيين جميعاً وهو نفي الشك ثم تسليط اليقين على النفس حتى يكون هو الغالب المتحكم عليها المتصرف فيها . فإذا فهمت هذا علمت أن المراد من قولنا « إن اليقين ينقسم ثلاثة أقسام » بالقوة والضعف والكثرة والقلّة والخفاء والجلالة ، فأما بالقوة والضعف فعلى الاصطلاح الثانى وذلك فى الغلبة والاستيلاء على القلب ودرجات معانى اليقين فى القوة الضعف لا تنتهى وتفاوت الخلق فى الاستعداد للموت بحسب تفاوت اليقين بهذه المعانى وأما التفاوت بالحقايق والجلالة فى الاصطلاح الاول فلا ينكر أيضاً ، أما فيما يتعلق إليه التجويز فلا ينكر — أعنى الاصطلاح الثانى — وفيما اتنى الشك أيضاً لا سبيل إلى إنكاره فإنك تدرك تفرقة بين تصديقك بوجود مكة ووجود فلك مثلاً وبين تصديقك بوجود موسى ووجود يوشع عليها السلام مع أنك لا تشك فى الأمرين جميعاً مستنداً بهما جميعاً التواتر ، ولكن ترى أحدهما أجلى وأوضح فى قلبك من الثانى لأن السبب فى أحدهما أقوى وهو كثرة المخبرين ، وكذلك يدرك التاظر هذا فى النظريات المعروفة بالأدلة فإنه ليس وضوح مآلح له بدليل واحد كوضوح مآلح له بالأدلة الكثيرة مع تساويهما فى نفي الشك ، وهذا قد ينكره المتكلم الذى يأخذ العلم من الكتب والسمع ولا يراجع نفسه فيما يدركه من تفاوت الأحوال ، وأما القلة والكثرة فذلك بكثرة متعلقات اليقين ، كما يقال : فلان أكثر علماً من فلان ، أى معلوماته أكثر ، ولذلك قد يكون العالم قوى اليقين فى جميع ماورد الشرح به وقد يكون قوى اليقين فى بعضه .

فإن قلت : قد فهمت اليقين وقوته وضعفه وكثرته وقلته وجلاله وخفائه بمعنى نفي الشك أو بمعنى الاستيلاء على القلب فما معنى متعلقات اليقين ومجاريه وفيماذا يطلب اليقين فإنى ما لم أعرف ما يطلب فيه اليقين لم أقدر على طيله ؟

فاعلم أن جميع ماورد به الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم من أوله إلى آخره هو من مجارى اليقين فإن اليقين عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة بالمعلومات التى وردت بها الشرائع فلا مطمع فى إحصائها واسكنى أشير إلى بعضها وهى أهماتها :

فن ذلك : التوحيد : وهو أن يرى الأشياء كلها من مسبب الأسباب ولا يلتفت إلى الوسائط مسورة لا حكمها فالمصدق بهذا موقن ، فإن اتنى من قلبه مع الإيمان إمكان الشك فهو موقن بأحد المعنيين . فإن غلب على قلبه مع الإيمان غلبة أزالته عنه الغضب على الوسائط والرضا عنهم والشكر لهم ونزل الوسائط على قلبه منزلة القلم واليد فى حق المنعم بالتوقيع فإنه لا يشكر القلم ولا اليد ولا يغضب عليهما بل يراهما آلتين مسخرتين وواسطتين قد صار موقناً بالمعنى الثانى وهو الإشراف ، وهو ثمرة اليقين الأول وروحه وفائدته . ومهما تحققت أن الشمس والقمر والنجوم والجماد والنبات والحيوان وكل مخلوق هوى مسخرات بأمره حسب تسخير القلم فى يد الكاتب وأن القدرة الأزلية هى المصدر لكل استولى على قلبه غلبة التوكل والرضا والتسليم وصار موقناً برئى من الغضب والحقد والحسد وسوء الخلق ، فهذا أحد أبواب اليقين .

ومن ذلك : الثقة بضعان الله سبحانه بالرزق فى قوله تعالى ﴿ وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ﴾ واليقين بأن ذلك بآتيه وأن ما قدر له سيساق إليه ومهما غلب ذلك على قلبه كان مجتهداً فى الطلب ولم يشتد حرصه وشره وتأسفه على ما فات ، وأثمر هذا اليقين أيضاً جملة من الطاعات والأخلاق الحميدة .

ومن ذلك : أن يغلب على قلبه أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، وهو اليقين بالثواب والعقاب حتى يرى الطاعات إلى الثواب كنسبة الخبز إلى الشعير ونسبة المعاصى إلى العقاب كنسبة السموم والأفاعى إلى الهلاك فكما يحرص على التخصيل للخبز طلباً للشبع فيحفظ قليله وكثيره فكذلك يحرص على الطاعات كلها قليلاً

وكثيرها ، وكما يجتنب قليل السموم وكثيرها فكذا يجتنب المعاصي قليلاً وكثيرها وصغيرها وكبيرها ؛ فاليقين بالمعنى الأول قد يوجد لعموم المؤمنين أما بالمعنى الثاني فيختص به المقربون ، وثمرة هذا اليقين صدق المراقبة في الحركات والسكنات والخطرات والمبالغة في التقوى والتحرز عن كل السيئات ، وكلما كان اليقين أغلب كان الاحتراز أشد والتشمير أبلغ .

ومن ذلك : اليقين بأن الله تعالى مطلع عليك في كل حال ومشاهد لحواسك ضميرك وخفايا خواطرك وفكرك فهذا متيقن عند كل مؤمن بالمعنى الأول وهو عدم الشك وأما بالمعنى الثاني وهو المقصود فهو عزيز يخص به الصديقون ، وثمرته أن يكون الإنسان في خلوته متادباً في جميع أحواله كالجالس بعهد ملك معظم ينظر إليه باه لا يزال مطرقاً متادباً في جميع أعماله متسلحاً محتزاً عن كل حركة تخالف هيئة الأدب ويكون في فكرته الباطنة كهر في أعماله الظاهرة إذ يتحقق أن الله تعالى مطلع على سريره كما يطلع الحق على ظاهره فتكون مبالغته في عماره باطنه وتطهيره وتزيينه بعين الله تعالى السائلة أشد من مبالغته في تزيين ظاهره لسائر الناس ، وهذا المقام في اليقين يورث الحياء والخرف والانكسار والذل والاستكانة والخضوع وجملة من الأخلاق المحمودة ، وهذه الأخلاق تورث أنواعاً من الطاعات رفيعة فاليقين في كل باب من هذه الأبواب مثل الشجرة وهذه الأخلاق في القلب مثل الأغصان المنفرعة منها وهذه الأعمال والطاعات الصادرة من الأخلاق كالثمار والأشجار المنفرعة من الأغصان فاليقين هو الأصل والأساس وله مجار وأبواب أكثرها عما عدناه ، وسيأتي ذلك في ربيع المنجيات إن شاء الله تعالى . وهذا القدر كاف في معنى اللفظ الآن .

ومنها أن يكون حزينا منكسراً مطرقاً صامتاً يظهر أثر الخشية على هيئته وكسوته وسكونه ونفقه وسكوته لا ينظر إليه ناظر إلا وكان نظره مذكراً لله تعالى وكانت صورته دليلاً على عمله فالجواد عينه مرآة لعلماء الآخرة يعرفون بسياهم في السكينة والذلة والتواضع ، وقد قيل ما ألبس الله عبداً لبسة أحسن من خشوعه في سكينة قلبه لبسة الأنبياء وسياهم في الصديقين والعلماء . وأما التهاوت في الكلام والتشدق والاستتراف في الضحك والحدة في الحركة والتعلق فكل ذلك من آثار البطر والأمن والغفلة عن عظيم عقاب الله تعالى وشديد سخطه وهو دأب أبناء الدنيا الغافلين عن الله دون العلماء به ، وهذا لأن العلماء ثلاثة كما قال سهل التستري رحمه الله : عالم بأمر الله تعالى بأيام الله وهم المفتون في الحلال والحرام وهذا العلم لا يورث الخشية ، وعالم بالله تعالى لا يأمر الله ولا يأثم الله وهم عموم المؤمنين ، وعالم بالله تعالى وبأمر الله تعالى وبأيام الله تعالى وهم الصديقون ، والخشية والخشوع إنما تغلب عليهم ، وأراد بأيام الله أنواع مقرباته الغامضة ونعمه الباطنة التي أفاضها على القرون السالفة واللاحقة فمن أحاط علمه بذلك عظم خوفه وظهر خشوعه . وقال عمر رضي الله عنه : تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم وتواضعوا لمن تتعلمون منه وليتواضع لكم من يتعلم منكم ولا تكونوا من جبارة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم . ويقال ما أتى الله عبداً بعلما إلا آتاه الله به علماً بالتواضع وحسن خلق ورفقا فذلك هو العلم النافع . وفي الأثر : من آتاه الله علماً وزهداً وتواضعاً وحسن خلق فهو إمام المتقين . وفي الخبر « إن من خيار أمتي قوما يصحكون جهرًا من سعة رحمة الله ويكونون سرًا من خوف عذابه ، أبدانهم في الأرض وقلوبهم في السماء ، أرواحهم في الدنيا وعقولهم في الآخرة ، يتمشون بالسكينة ويتقربون بالوسيلة (١) » وقال الحسن : الحلم وزير العلم والرفق أبوه والتواضع سرباله . وقال بشر بن الحرث : من طلب

(١) حديث « إن من خيار أمتي قوماً يصحكون جهرًا من سعة رحمة الله ويكونون سرًا من خوف عذابه ... الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان ووضعه من حديث عباس بن سليمان .

الرياسة بالعلم فتقرب إلى الله تعالى ببفضه فإنه محموق في السماء والأرض . ويروى في الإسرائيليات أن حكيمًا صنف ثلثمائة وستين معصفاً في الحكمة حتى وصف بالحكيم فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل لفلان قد ملأت الأرض نفاقاً ولم تردني من ذلك بشيء . وإلى لا أقبل من نفاقك شيئاً . فندم الرجل وترك ذلك وساطع العامة ومشي في الأسواق وواكل بني إسرائيل وتواضع في نفسه فأوحى الله تعالى إلى نبيهم : قل له الآن وفقت لرضائي . وحكى الإوزاعي رحمه الله عن بلال بن سعد : أنه كان يقول ينظر أحدكم إلى الشرطي فيستعبد بالله منه وينظر إلى علماء الدنيا المتصنعين الخلق المتشوقين إلى الرياسة فلا يحقهم وهم أحق بالمكان من ذلك الشرطي . وروى أنه قيل « يا رسول الله أي الأعمال أفضل ؟ قال اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله تعالى ، قيل فأى الأصحاب خير ؟ قال صلى الله عليه وسلم صاحب إن ذكرت الله أعانك وإن نسيت ذكرك ، قيل : فأى الأصحاب شر ؟ قال صلى الله عليه وسلم : صاحب إن نسيت لم يذكرك وإن ذكرت لم ينعك ، قيل : فأى الناس أعلم ؟ قال : أشدهم لله خشية ، قيل : فأخبرنا بخيانا السهم ، قال صلى الله عليه وسلم : الذين إذا رويوا ذكر الله ، قيل : فأى الناس شر ؟ قال : اللهم غفرا ، قالوا : يا رسول الله قال : العلماء إذا فسدوا (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم فكراً في الدنيا وأكثر الناس ضحكاً في الآخرة أكثرهم بكاء في الدنيا وأشد الناس فرحاً في الآخرة أطولهم حزنًا في الدنيا (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم عنه في خطبة له : ذمى رهينة وأنا به زعيم إنه لا يهيج على التقوى ذرع قوم ولا يظلم على الهدى سنخ أصل ، وإن أجمل الناس من لا يعرف قدره ، وإن أبغض الخلق إلى الله تعالى رجل قش علماً أغاربه في أغباش الفتنة سماه أشباهه له من الناس وأرداهم عالماً ولم يعيش في العلم يوماً سالماً ، تكشر واستكشر فاقبل منه وكفى خيراً مما كثر وألمى حتى إذا ارتوى من ماء آسن وأكثر من غير طائل جلس للناس معلماً لتخليص ما التبس على غيره ، فإن نزلت به إحدى المهمات هياً لها من رأيه حشو الرأي فهو ومن قطع الشبهات في مثل نسج العنكبوت لا يدري أخطأ أم أصاب ؟ ركاب جهالات خباط عشوات لا يعتد ما لا يعلم فيسلم ولا يحضر على العلم يضرس قاطع فيضم ، تبكى منه الدماء وتستحل بقضائه الفروج الحرام لاملأه . والله بإصدار ما ورد عليه ولا هو أهل لما فوض إليه أولئك الذين حلت عليهم المثالات وحقت عليهم النياحة والبكاء أيام حياة الدنيا . وقال صلى الله عليه وسلم : إذا سمعت العلم فأكفموا عليه ولا تخططوه بهزل فتتمج القلوب . وقال بعض السلف : العالم إذا ضحك ضحك معج من العلم عجة . وقيل : إذا جمع المعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المتعلم : الصبر والتواضع وحسن الخلق . وإذا جمع المتعلم ثلاثاً تمت النعمة بها على المعلم : العقل والأدب وحسن الفهم .

وعلى الجملة فالأخلاق التي ورد بها القرآن لا ينفك عنها علماء الآخرة لأنهم يتعلمون القرآن للعمل لا الرياسة . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن وتنزل السورة فيتعلم حلالها وحرامها وأوامرها وزواجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ولقد رأيت رجلاً يؤتى أحدكم القرآن قبل الإيمان فيقرأ ما بين فاتحة الكتاب إلى خاتمة لا يدري ما أمره وما زاجره وما ينبغي أن يقف عنده ينثره العقل (٣) . وفي خبر آخر يمثل معناه : كنا أصحاب رسول الله صلى الله

- (١) حديث « قيل يا رسول الله أي الأعمال أفضل ، قال : اجتناب المحارم ولا يزال فوك رطباً من ذكر الله ... الحديث » لم أجده هكذا بطوله ، وفي زيادات الزهد لابن المبارك من الحديث الحسن مرسل « سئل النبي صلى الله عليه وسلم أي الأعمال أفضل ، قال : أن تموت يوم تموت ولسانك رطب من ذكر الله تعالى » وللدارمي من رواية الأحوص ابن حكيم عن أبيه مرسل « ألا إن شر الشر شر العلماء وإن خير الخير خير العلماء » وقد تقدم .
- (٢) حديث « إن أكثر الناس أماناً يوم القيامة أكثرهم خوفاً في الدنيا ... الحديث » لم أجده أصلاً .
- (٣) حديث ابن عمر « لقد عشنا برهة من الدهر وإن أحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ... الحديث » أخرجه الحاكم وصححه على شرط الشيخين والبيهقي .

عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن وسأقي بعلكم قوم يؤتون القرآن قبل الإيمان بقمون حروفه ويضمون حدوده وحقوقه يقولون قرأنا فن أقرأ منا وعلمنا فن أعلم منا ؟ فذلك عظيم (١) وفي لفظ آخر : أوثاك شرار هذه الأمة ، وقيل خمس من الأخلاق هي من علامات علماء الآخرة مفهومة من خمس آيات من كتاب الله عز وجل : الحشية والخشوع والتواضع وحسن الخلق وإيثار الآخرة على الدنيا وهو الزهد ، فأما الحشية فن قوله تعالى ( إنما يخشى الله من عباده العلماء ) وأما الخشوع فن قوله تعالى ( خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ممنا قليلا ) وأما التواضع فن قوله تعالى ( واخفض جناحك للمؤمنين ) وأما حسن الخلق فن قوله تعالى ( فبأرحمة من الله كنت لهم ) وأما الزهد فن قوله تعالى ( وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ) ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى ( فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ) فقيل له ماهذا الشرح ؟ فقال « إن النور إذا قذف في القلب انشرح له الصدر وانفسح » قيل : فهل لذلك من علامة ؟ قال صلى الله عليه وسلم « نعم التجافي عن دار الغرور والإقامة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله (٢) » .

ومنها أن يكون أكثر بحثه عن علم الأعمال وعما يفسدها ويشوش القلوب ويهيج الوسواس ويشير الشر فإن أصل الدين التوقى من الشر ولذلك قيل :

عرفت الشر لا للشر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

ولأن الأعمال الفعلية قريبة وأفعالها بل أعلامها المواظبة على ذكر الله تعالى بالقلب واللسان وإنما الشأن في معرفة ما يفسدها ويشوشها وهذا عما تكثر شيعه ويطول تفريره ، وكل ذلك مما يغلب ميسس الحاجة إليه ونعم به البرى في سلوك طريق الآخرة ، وأما علماء الدنيا فإنهم يتبعون غرائب التفريمات في الحكومات والأفضية ويتبعون في وضع صور تنقض الدهور ولا تنقأ أبدا ، وإن وقعت فإنما تقع لغيرهم لاهم ، وإذا وقعت كان في الثائمين بها كثرة ، ويشكون ما يلازمهم ويتكرر عليهم آناء الليل وأطراف النهار في خوارهم ووساوسهم وأعمالهم ، وما أبعد عن الصعادة من باع مهم نفسه اللازم بهم غيره النادر لإثارا للتقرب والقبول من الخلق على التقرب من الله سبحانه . وشرها في أن يسميه البطالون من أبناء الدنيا فاضلا محققا عالما بال دقائق وجزائه من الله أن لا ينضع في الدنيا بقبول الخلق بل يتكدر عليه صفوه بنوائب الزمان ثم يرد القيامة مفلسا متحسرا على ما شاهده من ربح العاملين وفوز المقربين وذلك هو الخسران المبين . ولقد كان الحسن البصرى رحمه الله أشبه الناس كلاما بآيات الله عليه السلام وأقربهم هديا من الصحابة رضى الله عنهم اتفقت الكلمة في حقه على ذلك وكان أكثر كلامه في خوار القلوب وفساد الأعمال ووساوس النفوس والصفات الخفية الغامضة من شهوات النفس ، وقد قيل له : يا أبا سعيد إنك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك فن أين أخذته ؟ قال : من حذيفة بن الجان . وقيل لحذيفة : نراك تتكلم بكلام لا يسمع من غيرك من الصحابة فن أين أخذته ؟ قال : خصني به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان الناس يسألونه عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه وعلمت أن الخير لا يسبقني علمه (٣) ، وقال مرة : فعلمت أن من

(١) حديث « كنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أوتينا الإيمان قبل القرآن ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جندب مختصرا مع اختلاف .

(٢) حديث « لما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (فن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام) ... الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي في الزهد من حديث ابن مسعود .

(٣) حديث حذيفة « كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر ... الحديث » أخرجه مختصرا .

لا يعرف الشر لا يعرف الخير . وفي لفظ آخر : كانوا يقولون يا رسول الله ما لمن عمل كذا . وكذا ؟ يسألونه عن فضائل الأعمال وكنت أقول : يا رسول الله ما يفسد كذا وكذا ؟ فلما رأى أسأله عن آفات الأعمال خصني بهذا العلم وكان حذيفة رضى الله عنه أيضا قد خص بعلم المنافقين وأفرد بمعرفة علم النفاق وأسبابه ودقائق الفتن ، فكان عمر وعثمان وأكابر الصحابة رضى الله عنهم يسألونه عن الفتن العامة والخاصة ، وكان يسأل عن المنافقين فيخبر بعدد من بقى منهم ولا يخبر بأسمائهم ، وكان عمر رضى الله عنه يسأل نفسه هل يعلم فيه شيئا من النفاق ؟ فبرأه من ذلك ، وكان عمر رضى الله عنه إذا دعى إلى جنازة ليعلى عليها نظر فإن حضر حذيفة صلى عليها وإلا تركه ، وكان يسمى صاحب السر . فالعناية بمقامات القلب وأحواله دأب لعلماء الآخرة لأن القلب هو الساعى إلى قرب الله تعالى وقد صار هذا الفن غريبا مندوسا وإذا تعرض العالم لشيء منه استغرب واستبعد وقيل لهذا تزويق المذكرين فأين التحقيق ويرون أن التحقيق في دقائق المجادلات ولقد صدق من قال :

الطرق شتى وطرق الحق مفردة      والسالكون طريق الحق أفراد  
لا يعرفون ولا تدرك مقاصدهم      فهم على مهل يمشون قصاص  
والناس في غفلة عما يراهم      جلهم عن سبيل الحق رقاص

وعلى الجملة فلا يميل أكثر الخلق إلا إلى الأسهل والأوفق لطباعهم فإن الحق مر والوقوف عليه صعب وإدراكه شديد وطريقه مستوعر ولا سيما معرفة صفات القلب وتطهيره عن الأخلاق المذمومة فإن ذلك نزح للروح على الدوام ، وصاحبه ينزل منزلة الشارب للدواء يصبر على مرارته رجاء الشفاء وينزل منزلة من جعل مدة العمر صومه يقاسي الشدائد ليكون فطره عند الموت . ومتى تكثر الرغبة في هذا الطريق ؟ ولذلك قيل : إنه كان في البصرة مائة وعشرون متكلما في الوعد والتذكير ولم يكن من يتكلم في علم اليقين وأحوال القلوب وصفات الباطن إلا ثلاثة منهم — سهل التسترى والصبيحي وعبد الرحيم — وكان يجعل إلى أولئك الخلق الكثير الذى لا يحصى وإلى هؤلاء عدد يسير قلما يجاوز العشرة ، لأن النفيس العزيز لا يصلح إلا لأهل الخصوص وما يندل للمعوم فأمره قريب .

ومنها أن يكون اعتياده في علمه على بصيرته وإدراكه بصفا قلبه لا على الصحف والكتب ولا على تقليد ما يسمعه من غيره وإنما المقلد صاحب الشرع صلوات الله عليه وسلامه فيما أمر به ونهى وإمسا يقلد الصحابة رضى الله عنهم من حيث إن فعلهم يدل على مصابهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم إذا قلد صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم في تاتى أقواله وأفعاله بالقبول فينبغي أن يكون حرصا على فهم أسرارهم فإن المقلد إنما يفعل الفعل لأن صاحب الشرع صلى الله عليه وسلم فعله ، وقوله لا بد وأن يكون لمر فيه فينبغي أن يكون شديد البحث عن أسرار الأعمال والأقوال فإنه إن اكتفى بحفظ ما يقال كان وعاء للعلم ولا يكون عالما . ولذلك كان يقال : فلان من أوعية العلم ؟ فلا يسمى عالما إذا كان شأنه الحفظ من غير اطلاع على الحكم والأسرار . ومن كشف عن قلبه النقاء واستنار بنور الهداية صار في نفسه متبوعا مقلدا فلا ينبغي أن يقلد غيره . ولذلك قال ابن عباس رضى الله عنهما : ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) وقد كان تعلم من زيد بن ثابت الفقه وقرأ على أبي بن كعب ثم خالفهما في الفقه

(١) حديث ابن عباس «ما من أحد إلا يؤخذ من علمه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم» أخرجه الطبراني من حديثه يرفعه بلفظه «من قوله وبدع» .

والقرامة جميعا . وقال بعض السلف : ما جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلنا على الرأس والعين وما جاءنا عن الصحابة رضى الله عنهم فتأخذ منه وترك وما جاءنا عن التابعين فهم رجال ونحن رجال . وإنما فضل الصحابة لشاهدتهم قرائن أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم واعتلاق قلوبهم أموراً أذكرت بالقرائن قدسهم ذلك إلى الصواب من حيث لا يدخل في الرواية والمبارة إذ فاض عليهم من نور النبوة ما يبرسهم في الأكثر عن الخطأ . وإذا كان الاعتقاد على المسموع من التغير تقليداً غير مرضى فلا اعتناء على الكتب والتصانيف أبعد . بل الكتب والتصانيف محدثة لم يكن شيء منها في زمن الصحابة وصدر التابعين وإنما حدثت بعد ستة مائة وعشرين من الهجرة وبعد وفاة جميع الصحابة وجملة التابعين رضى الله عنهم وبعد وفاة سعيد بن المسيب والحسن وخيار التابعين ، بل كان الأولون يكرهون كسب الأحاديث وتصنيف الكتب لئلا يشتغل الناس بها عن الحفظ وعن القرآن وعن التدبر والتذكر وقالوا : احفظوا كما كنا نحفظ ، ولذلك كره أبو بكر وجماعة من الصحابة رضى الله عنهم تصنيف القرآن في مصحف وقالوا : كيف فعل شيئاً ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وعافوا أنكال الناس على المصاحف وقالوا : ترك القرآن لتلقاه بعضهم من بعض بالتلقين والإفراء ليسكون هذا شأنهم وهمهم : حتى أسارهم رضى الله عنه وبقية الصحابة بكتب القرآن خوفاً من تخالذ الناس وتسكلمهم وحذراً من أن يقع نزاع فلا يوجد أصل يرجع إليه في كلمة أو قراءة من المتشابهات فأنشراح صدر أبي بكر رضى الله عنه لذلك لجمع القرآن في مصحف واحد . وكان أحمد بن حنبل ينسك على مالك في تصنيفه الموطأ ويقول : أتبعه ما لم تفعله الصحابة رضى الله عنهم وقيل : أول كتاب صنف في الإسلام كتاب ابن جريج في الآثار وحروف التفسير عن مجاهد وعطاء وأصحاب ابن عباس رضى الله عنهم بمكة ، ثم كتاب معمر بن راشد الصنعاني باليمن جمع فيه سائنا مأثورة نبوية ، ثم كتاب الموطأ بالمدينة لمالك بن أنس ، ثم جصاص سفيان الثوري . ثم في القرن الرابع حدثت مصنفات الكلام وكثر الخوض في الجدل والفحش في إبطال المغالات ، ثم مال الناس إليه وإلى التقصص والوعظ بها فأخذ علم اليقين في الاندثار من ذلك الزمان فصار بعد ذلك يستغرب علم القلوب والتفتيش عن صفات النفس ومكاييد الشيطان وأعرض عن ذلك إلا الأقول ، فصار يسمى المجادل المتكلم عالماً والقاص المزخرف كلامه بالعبارات المسجعة عالماً ، وهذا لأن العوام هم المستمعون لهم فكان لا يتميز لهم حقيقة العلم من غيره ، ولم تكن سيرة الصحابة رضى الله عنهم وعلمهم ظاهرة عندهم حتى كانوا يعرفون بها مباينة هؤلاء لهم فاستمر عليهم اسم العلماء وتوارث اللقب خلف عن سلف وأصبح علم الآخرة مطوباً ، وغاب عنهم الفرق بين العلم والكلام إلا عن الخواص منهم كانوا إذا قيل لهم : فلان أعلم أم فلان ؟ يقولون : فلان أكثر علماً وفلان أكثر كلاماً ، فكان الخواص يدركون الفرق بين العلم وبين القدرة على الكلام . هكذا ضفد الدين في قرون سائلة فكيف الظن بزمانك هذا ؟ وقد انتهى الأمر إلى أن مظهر الإنكار يستهدف لنسبته إلى الجنون فالأولى أن يشتغل الإنسان بنفسه ويسكت ، ومنها أن يكون شديد التوق من محدثات الأمور وإن اتفق عليها الجمهور فلا يفرغ لإطباق الخلق على ما أحدث بعد الحصانة رضى الله عنهم وليكن حريصاً على التفتيش عن أحوال الصحابة وسيرتهم وأعمالهم وما كان فيه أكثر همهم أكان في التدريس والتصنيف والمناظرة والقضاء والولاية وتولى الأوقاف والوصايا أو أكل مال الآثام وغشاة السلاطين وعجاملتهم في العشرة ؟ أم كان في الخوف والحزن والتفكير والمجاهدة ومراقبة الظاهر والباطن واجتناب دقيق الإثم وجليله والحرس على إدراك خفايا شهوات النفوس ومكاييد الشيطان إلى غير ذلك من علوم الباطن ؟

واعلم تحقيقاً أن أعلم أهل الزمان وأفهمهم إلى الحق أشبههم بالصحابة وأعرفهم بطريق السلف فثم أخذ الدين . ولذلك قال على رضى الله عنه « خيرنا أجمعنا لهذا الدين » لما قيل له : خالفت فلاناً . فلا ينبغي أن

يكثر بمخالفة أهل عصر رسول الله صلى الله عليه فإن الناس رأوا رأيا فقام فيه لميل طبايعهم إليه ولم تسمع نفوسهم بالاعتراف بأن ذلك سبب الحرمان من الجنة فادعوا أنه لا سبيل إلى الجنة سواء ، ولذلك قال الحسن ، محدثان أحدثا في الإسلام : رجل ذو رأي سيء زعم أن الجنة لمن رأى مثل رأيه ، ومترف بعيد الدنيا لها يفضب ولها رضى وإياها يطلب فارقضوها إلى النار ، وإن رجلا أصبح في هذه الدنيا بين مترف يدعو إلى دنياه وصاحب هوى يدعو إلى هواه وقد عصمه الله تعالى منهما يمن إلى السلف الصالح يسأل عن أفعالهم ويقتنى آثارهم متعرض لأجر عظيم فكذلك كونوا . وقد روى عن ابن مسعود موقوفا ومستندا أنه قال : « إنما هما اثنتان الكلام والهدى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن شر الأمور محدثاتها ، وإن كل محدث بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة ، ألا لا يطولن عليكم الأمد فتقسطوا قلوبكم ، ألا كل ما هو آت قريب ، ألا إن البعيد ما ليس بآت (١) » وفي خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأفق من مال اكتسبه من غير معصية وعاطل ألا الفقه والحكم وجانب أهل الزلل والمعصية ، طوبى لمن ذل في نفسه وحسنت خليفته وصلحت سريره وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن عمل بعلمه وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم يمنحها إلى بدعة (٢) » وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول : حسن الهدى في آخر الزمان خير من كثير من العمل ، وقال : أتم في زمان خيركم فيه المسامح في الأمور وسيأتي بعدمكم زمان يكون خيرهم فيه المثبت المتوقف لكثرة الشبهات . وقد صدق فن لم يتوقف في هذا الزمان ووافق الجماهير فيما هم عليه وغاض فيما غاضوا فيه هلك كما هلكوا . وقال حذيفة رضى الله عنه : أصعب من هذا أن معروفكم اليوم منكر زمان قد مضى وأن منكركم اليوم معروف زمان قد أتى وإنكم لتأولون بخير ما عرفت الحق وكنان العالم فيكم غير مستخف به . ولقد صدق فإن أكثر معارف هذه الأعصار منكرات في الصحابة رضى الله عنهم إذ من غرر المعرفات في زماننا تزوين المساجد وتجهيدها وإتفاق الأموال العظيمة في دقائق عماراتها وفرش البسط الرفيعة فيها ، ولقد كان يد فرش الجوارى في المسجد بدعة ، وقيل إنه من محدثات الحجاج . فقد كان الأولون قلما يعملون بينهم وبين التراب حاجزا . وكذلك الاشتغال بدقائق الجدول والمناظرة من أجل علوم أهل الزمان ويرجعون أنه من أعظم القربات ، وقد كان من المنكرات . ومن ذلك التلحين في القرآن والأذان . ومن ذلك التمسك في النظافة والوسوسة في الطهارة وتقدير الأسباب البعيدة في نجاسة الثياب مع التساهل في حل الأطعمة وتحريمها إلى نظائر ذلك . ولقد صدق ابن مسعود رضى الله عنه حيث قال : أتم اليوم في زمان الهوى فيه تابع للعلم وسيأتي عليكم زمان يكون العلم فيه تابعا للهوى . وقد كان أحد بن حنبل يقول أترو العلم وأقبلوا على الغرائب ما أقل العلم فيهم والله المستعان وقال مالك بن أنس رحمه الله : لم تكن الناس فيما مضى يسألون عن هذه الأمور كما يسأل الناس اليوم ولم يكن العلماء يقولون حرام ولا حلال ولكن أدركتهم يقولون مستحب ومكروه

(١) حديث ابن مسعود « إنما هما اثنتان الكلام والهدى ... الحديث » أخرجه ابن ماجه .

(٢) حديث « طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ، أفق مالا اكتسبه ... الحديث » أخرجه أبي نعيم من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف والبراز من حديث أنس أول الحديث وآخره والطبراني والبيهقي من حديث ركيب المرعى وسط الحديث وكلفها ضعيفه .



(ومعناه أنهم كانوا يظنون في دقائق الكراهة والاستجباب فأما الحرام فكان خفيه ظاهرا) وكان هشام بن عروة يقول : لتسألوم اليوم عما أحدثوه بأنفسهم قد أعدوا له جوابا ولكن سلوهم عن السنة فإنهم لا يعرفونها . وكان أبو سليمان الداراني رحمه الله يقول : لا ينبغي لمن ألهم شيئا من الخير أن يعمل به حتى يسمع به في الأثر فيحمد الله تعالى إذ وافق ما في نفسه ، وإنما قال هذا لأن ما قد أبدع من الآراء قد قرح الأسماع وعلق بالقلوب وربما يشوش صفاء القلب فيتخيل بسببه الباطل حقا فيحاط فيه بالاستظهار بشهادة الآثار . ولهذا لما أحدث مروان المنبر في صلاة العيد عند المصلى قام إليه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه فقال : يا مروان ماهذه البدعة ؟ فقال : إنها ليست ببدعة إنما خير ما أعلم أبدأ والله لأصليت وراءك اليوم وإنما أنكر ذلك عليه « لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوكل في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا لا على المنبر »<sup>(١)</sup> وفي الحديث المشهور « من أحدث في ديننا ما ليس منه فهو رد »<sup>(٢)</sup> وفي خبر آخر « من غش أمي فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، قيل : يا رسول الله وما غش أمك ؟ قال : أن يتجسس بدعه يحمل الناس عليها »<sup>(٣)</sup> وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعة »<sup>(٤)</sup> ومثالي الجاني على الدين يأبدع ما يخالف السنة بالنسبة إلى من يذنب ذنبا مثالا من عصي الملك في قلب دولته بالنسبة إلى من خالف أمره في خدمة معينة ، وذلك قد يغفر له فأما قلب الدولة فلا . وقال بعض العلماء : ما تكلم فيه السلف فالسكوت عنه جفاء وما سكت عنه السلف فالكلام فيه تكلف . وقال غيره : الحق ثقيل من جوارزه ظالم ومن قصر عنه عجز ومن وقف معه اكتفى . وقال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالنمط الأوسط الذي يرجع إليه الأماني ويرتفع إليه التآلي »<sup>(٥)</sup> وقال ابن عباس رضي الله عنهما : الضلالة لها حلوة في قلوب أهلها قال الله تعالى ﴿ وذو الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا ﴾ وقال تعالى ﴿ أفندين له سوء عمله فراء حسنا ﴾ فكل ما أحدث بعد الصحابة رضي الله عنهم بما جاوز قدر الضرورة والحاجة فهو من اللعب واللغو . وحكى عن إبليس لعنه الله أنه بث جنوده في وقت الصحابة رضي الله عنهم فرجعوا إليه محسورين فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : ما رأينا مثل هؤلاء ما نصب منهم شيئا وقد اتعبونا ! فقال : إنكم لاتقدرون عليهم قد صحبوا نبيهم وشهدوا نزول ربهم ولكن سيأتي بدمهم قوم تناولون منهم حاجتكم ، فلما جاء التابعون بث جنوده فرجعوا إليهم مكسبين فقالوا : ما رأينا أعجب من هؤلاء نصيب منهم الشيء بعد الشيء من الذنوب فإذا كان آخر النهار أخذوا في الاستغفار فيبدل الله سيئاتهم حسنات ! فقال : إنكم لن تناولوا من هؤلاء شيئا لصحة توحيدهم واتباعهم لسنة نبيهم ولكن سيأتي بعد هؤلاء قوم تفر أعينكم بهم تلمبون بهم لعبا وتقودونهم بأزمة أهوائهم كيف شئتم إن استغفروا لم يغفر لهم ولا يتوبون فيبدل الله سيئاتهم

(١) حديث « كان يتوكل في خطبة العيد والاستسقاء على قوس أو عصا » أخرجه الطبراني من حديث البراء ونحوه في يوم الأضحي ليس فيه الاستسقاء وهو ضعيف ، ورواه في الصغير من حديث سعد القرظي « كان إذا خطب في البيدين خطب على قوس وإذا خطب في الجمعة خطب على عصا » وهو عند ابن ماجه بلفظ : كان إذا خطب في الحرب خطب على قوس ... الحديث .

(٢) حديث « من أحدث في ديننا ما ليس فيه فهو رد » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « في أمرنا ما ليس منه » وعند أبي داود « فيه » .

(٣) حديث « من غش أمي فعليه لعنة الله ... الحديث » أخرجه الدارقطني في الأفراد من حديث أنس بسند ضعيف جدا .

(٤) حديث « إن لله ملكا ينادي كل يوم من خالف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم تنله شفاعة » لم أجده أصلا .

(٥) حديث « عليكم بالنمط الأوسط ... الحديث » أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث موقوفا على علي بن أبي طالب ولم أجده مرفوعا .

حسنتا ، قال : فجاء قوم بعد القرن الأول فبث فيهم الأهواء وزين لهم البدع فاستحلوها واتخذوها ديناً لا يستغفرون الله منها ولا يتوبون عنها فسلط عليهم الأعداء وقادوم أين شاءوا .

هـ فإن قلت : من أين عرف قائل هذا ما قاله إبليس ولم يشاهد إبليس ولا حدثه بذلك ؟

فأعلم أن أرباب القلوب يكاشفون بأسرار المسكوت تارة على سبيل الإلهام بأن يخطر لهم على سبيل الورد عليهم من حيث لا يعلمون وتارة على سبيل الرؤيا الصادقة وتارة في اليقظة على سبيل كشف المعاني بمشاهدة الأمثلة كما يكون في المنام - وهذا أعلى الدرجات وهي من درجات النبوة العالية كأن الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة . فأياك أن يكون حظك من هذا العلم إنكار ما جاوز حد قصورك فيه هلك المتحذلقون من العلماء الزاعمون أنهم أحاطوا بعلوم العقول ، فالجهل خير من عقل يدعو إلى إنكار مثل هذه الأمور لأولياء الله تعالى ، ومن أنكر ذلك للأولياء لزمه إنكار الأنبياء وكان خارجاً عن الدين بالسكينة . قال بعض العارفين : إنما انقطع الأبدال في أطراف الأرض واستروا عن أعين الجمهور لأنهم لا يطيقون النظر إلى علماء الوقت لأنهم عندهم جهال بالله تعالى وهم عند أنفسهم وعند الجاهلين علماء . قال سهل التستري رضي الله عنه : إن من أعظم المعاصي الجهل بالجهل والنظر إلى العامة واستماع كلام أهل الغفلة . وكل عالم غاص في الدنيا فلا يبتغي أن يصنع إلى قوله بل يبتغي أن يتم في كل ما يقول لأن كل إنسان يخوض فيها أحب ويدفع ما لا يوافق محبوبه ، ولذلك قال الله عز وجل ﴿ ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً ﴾ والوهم المصاة أسعد حالاً من الجهل بطريق الدين المعتدين أنهم من العلماء ؛ لأن العالم المعاصي معترف بتقصيره فيستغفر ويتوب وهذا الجاهل الظان أنه عالم وأن ما هو مشتغل به من العلوم التي هي وسائله إلى الدنيا عن سلوك طريق الدين فلا يتوب ولا يستغفر ، بل لا يزال مستمراً عليه إلى الموت . وإذا غلب هذا على أكثر الناس إلا من عصمه الله تعالى واقطع الطمع من إصلاحهم فالأسلم لدى الدين الاحتاط بالعزلة والانفراد عنهم - كما سيأتي في كتاب العزلة ببيان إن شاء الله تعالى - ولذلك كتب يوسف بن أسباط إلى حذيفة المرعشي : ما ظنك بمن بقي لا يجد أحداً يذكر الله تعالى معه إلا كان آثماً أو كانت مذكرته معصية وذلك أنه لا يجد أهله ؟ ولقد صدق فإن مخالطة الناس لا تنفك عن غيبة أو سماع غيبة أو سكوت على منكر وأن أحسن أحواله أن يفيد علماً أو يستفيد ولو تأمل هذا المسكين وعلم أن إفادته لا تخطو عن شوائب الرياء وطلب الجسع والرياسة علم أن المستفيد إنما يريد أن يجعل ذلك آلة إلى طلب الدنيا وسيلة إلى الشر فيكون هو معيذاً له على ذلك ورداء وظهيراً وميضاً لأسبابه كالذي يبيع السيف من قطاع الطريق . فالعلم كالسيف وصلاحه للخير كصلاح السيف للفرز ، ولذلك لا يرخص له في البيع عن يعلم بقرائن أحواله أنه يريد به الاستماع على قطع الطريق . فهذه اثنتا عشرة علامة من علامات علماء الآخرة تجمع كل واحدة منها جملة من أخلاق علماء السلف ، فكان أحد رجلين إما متصفاً بهذه الصفات أو معترفاً بالتقصير مع الإقرار به وإياك أن تكون الثالث فتلبس على نفسك بأن بدلت آلة الدنيا بالدين وتقيه سيرة البطالين بسيرة العلماء الراغبين وتلتحق بجهلك وإنكارك بزمرة الهالكين الآيسين . نعوذ بالله من خدع الشيطان ، فبها هلك الجمهور . ففسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن لا تنزه الحياة الدنيا ولا يخره بالله الغرور .

## الباب السابع

في العقل وشرقه وحقيقته وأقسامه ، بيان شرف العقل

أعلم أن هذا مما لا يحتاج إلى تكلف في إظهاره لاسيما وقد ظهر شرف العلم من قبل العقل ، والعقل منبع العلم

ومطامه وأساسه والعلم يجرى منه مجرى الثرة من الشجرة والنور من الشمس والرؤية من العين فكيف لا يشرف ماهو وسيلة السعادة في الدنيا والآخرة ؟ أوكيف يستراب فيه والبهمة مع قصور تمييزها تحشم العقل حتى إن أعظم البهائم بدنا واشدها ضراوة وأقواها سطوة إذا رأى صورة الإنسان احتشموها به لشعوره باستلثاته عليه لما خص به من إدراك الحيل . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الشيخ في قومه كالنبي في أمته »<sup>(١)</sup> وليس ذلك لكثرة ماله ولا لكبر شخصه ولا لزيادة قوته بل لزيادة تجربته التي هي ثمرة عقله . ولذلك ترى الأنراك والأكراد وأجلاف العرب وسائر الخلق مع قرب منزلتهم من رتبة البهائم يوقرون المشايخ بالطبع . ولذلك حين قصد كثير من المعاندين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما وقعت أعينهم عليهوا كتحلوا بغرته الكريمة ما يوه وتراعى لهم ما كان يتلألا على ديباجة وجهه من نور النبوة وإن كان ذلك باطننا في نفسه بطون العقل فشرف العقل ما يدرك بالضرورة ؛ وإنما المقصد أن نورد ما وردت به الأخبار والايات في ذكر شرفه وقد سماه الله نورا في قوله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة ﴾ وسعى العلم المستفاد منه روحا وحييا وحياته فقال تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ﴾ وقال سبحانه ﴿ أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به الناس ﴾ وحيث ذكر النور والظلمة أراد به العلم والجهل كقوله ﴿ يخرجهم من الظلمات إلى النور ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصو بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه واعلموا أنه يتجددكم عند ربكم واعلموا أن العاقل من أطاع الله وإن كان دميم المنظر حقير الخطر دنى المنزل رث الهية ، وأن الجاهل من عصى الله تعالى وإن كان جميل المنظر عظيم الخطر شريف المنزل حسن الهية فصيحيا لظوقا فالقردة والخنزير أعقل هندا لله تعالى من عساه ، ولا تغتر بتعظيم أهل الدنيا إياكم فإنهم من الخاسرين »<sup>(٢)</sup> . وقال صلى الله عليه وسلم « أول ما خلق الله العقل ، فقال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ، ثم قال له الله عز وجل وعزى وجلالي ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك أأخذ وبك أعطى وبك أتيب وبك أعاقب »<sup>(٣)</sup> .

فإن قلت : فهذا العقل إن كان عرضا فكيف خلق قبل الأجسام ؟ وإن كان جوهرًا فكيف يكون جوهر قائم بنفسه ولا يتحجر ؟

فاعلم أن هذان علم المكاشفة فلا يليق ذكره بعلم المعاملة ، وغرضنا الآن ذكر علوم المعاملة . وعن أنس رضي الله عنه قال « أتني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالنوا فقال صلى الله عليه وسلم كيف عقل الرجل ؟ فقالوا : نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير ونسألنا عن عقله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : « إن الأحق يصيب بهمه أكثر من مجور الفاجر وإنما يرتفع العباد غدا في الدرجات الزواني من ربههم على قدر عقولهم »<sup>(٤)</sup> . وعن عمر رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل يهدي صاحبه إلى هدى ويرده عن ردى

### الباب السابع في العقل

(١) حديث « الشيخ في قومه كالنبي في أمته » أخرجه ابن جبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وأبو منصور الديلمي من حديث أبي رافع بسند ضعيف .

(٢) حديث « يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصو بالعقل... الحديث » أخرجه داود بن المهبر أحد الضعفاء في كتاب العقل من حديث أبي هريرة ، وهو في مسند الحرث بن أبي أسامة عن داود .

(٣) حديث « أول ما خلق الله العقل قال له أقبل ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي أسامة وأبو نعيم من حديث عائشة بإسنادين ضعيفين .

(٤) حديث أنس « أتني قوم على رجل عند النبي صلى الله عليه وسلم حتى بالنوا فقال كيف عقل الرجل ... الحديث » . أخرجه ابن المهبر في العقل بتمامه والترمذي الحكيم في النوادر مختصرا .

ومما لم إيمان عبد ولا استقام دينه حتى يكمل عقله<sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله فعند ذلك تم إيمانه وأطاع ربه وعصى عدوه إبليس<sup>(٢)</sup> » وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله فيبدر عقله تكون عبادته أما سمعتم قول الفجار في النار « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير<sup>(٣)</sup> » وعن عمر رضي الله عنه قال تميم الداري « ما الأسود فيكم ؟ قال : العقل ، قال : صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سألتك فقال كما قلت ، ثم قال سألت جبريل عليه السلام ما الأسود ؟ فقال : العقل<sup>(٤)</sup> » وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كثرت المسائل يوما على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ومطية المرء العقل وأحسكم دلالة ومعرفة بالحجة أفضلكم عقلا<sup>(٥)</sup> » وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون : فلان أشجع من فلان وفلان أبلى ما لم يبل فلان ونحو هذا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما هذا فلا علم لكم به ، قالوا : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : إنهم قالوا على قدر ما قسم الله لهم من العقل وكانت نصرتهم ونيتهم على قدر عقولهم فأصيب منهم من أصيب على منازل شتى فإذا كان يوم القيامة اقساموا المنازل على قدر نياتهم وقدر عقولهم<sup>(٦)</sup> » وعن البراء بن عازب أنه صلى الله عليه وسلم قال « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله سبحانه وتعالى بالعقل وبعد المؤمنين من بني آدم على قدر عقولهم فأعلمهم بطاعة الله عز وجل وأوفرهم عقلا<sup>(٧)</sup> » ، وعن عائشة رضي الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله يتم تفاضل الناس في الدنيا ؟ قال : بالعقل ، قلت : وفي الآخرة ؟ قال : بالعقل ، قلت : أليس إنما يجرى بأعمالهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يا عائشة وهل عملوا إلا بقدر ما أعطاهم عز وجل من العقل ؟ فيقدر ما أعطوا من العقل كانت أعمالهم ويقدر ما عملوا يجرى<sup>(٨)</sup> » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة المؤمن العقل ولكل شيء مطية ومطية المرء العقل ولكل شيء دعامة ودعامة الدين العقل ولكل قوم غاية وغاية العباد العقل ولكل قوم داع وداعي العابدین العقل ولكل تاجر بضاعة وبضاعة المجتهدین العقل ولكل أهل بيت قيم وقيم بيتوت الصديقین العقل ولكل خراب

- (١) حديث عمر « ما اكتسب رجل مثل فضل عقل .. الحديث » أخرجه المهر في العقل وعنه الحرث ابن أسامة
- (٢) حديث « إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم ولا يتم لرجل حسن خلقه حتى يتم عقله ... » أخرجه ابن المهر من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده به والحديث عند الترمذي مختصراً دون قوله « ولا يتم » من حديث عائشة وصححه
- (٣) حديث أبي سعيد « لكل شيء دعامة ودعامة المؤمن عقله ... الحديث » أخرجه ابن المهر وعنه الحرث .
- (٤) حديث البراء « ما الأسود فيكم ، قال العقل قال صدقت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث » أخرجه ابن المهر وعنه الحرث .
- (٥) حديث البراء « كثرت للمسائل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس إن لكل شيء مطية ... الحديث » أخرجه ابن المهر وعنه الحرث
- (٦) حديث أبي هريرة « لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة أحد سمع الناس يقولون كان فلان أشجع من فلان ... الحديث » أخرجه ابن المهر .
- (٧) حديث البراء بن عازب « جد الملائكة واجتهدوا في طاعة الله بالعقل ... الحديث » أخرجه ابن المهر كذلك وعنه الحارث في مسنده ، ورواه البغوي في معجم الصحابة من حديث ابن عازب رجل من الصحابة غير البراء وهو بالسند الذي رواه ابن المهر .
- (٨) حديث عائشة « قالت يا رسول الله بأي شيء يتفاضل الناس في الدنيا قال بالعقل ... الحديث » أخرجه ابن المهر والترمذي الحكيم في التواتر نحوه .

عمارة وعمارة الآخرة العقل ، ولكل امرئ عقب ينسب إليه ويذكر به وعقب الصديقين الذي ينسبون إليه ويذكرون به العقل ، ولكل سفر قسطا وقسطا للمؤمنين العقل (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحب المؤمنين إلى الله عز وجل من نصب في طاعة الله عز وجل ونصح لعباده وكل عقله ونصح نفسه فأبصر وعمل به أيام حياته فأفلح وأنجح (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « أتمك عقلا أشدكم لله تعالى خوفا وأحسنكم فيما أمركم به ونهى عنه نظرا وإن كان أقلكم تطوعا (٣) » .

### بيان حقيقة العقل وأقسامه

اعلم أن الناس اختلفوا في حد العقل وحقيقته وذهل الأكثرون عن كون هذا الاسم مطلقا على معان مختلفة فصار ذلك سبب اختلافهم . والحق الكشف للغطاء فيه أن العقل اسم يطلق بالاشتراك على أربعة معان - كما يطلق اسم العين مثلا على معان عدة وما يجري هذا المجرى فلا ينبغي أن يطلب لجميع أقسامه حدد واحد بل يفرد كل قسم بالكشف عنه .

فالأول : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر الالهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية العسكرية وهو الذي أراده الحارث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : إنه غريزة يهبأها إدراك العلوم النظرية وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لإدراك الأشياء ولم ينصف من أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن العاقل عن العلوم والتألم يسميان غافلين باعتبار وجود هذه الغريزة فهما مع فقد العلوم . وكما أن الحياة غريزة بها يتبأ الجسم للحركات الاختيارية والإدراكات الحسية فكذلك العقل غريزة بها تتبأ بعض الحيوانات للعلوم النظرية ولوجاز أن يسوى بين الإنسان والحيوان في الغريزة والإدراكات الحسية فيقال لافرق بينهما إلا أن الله تعالى يحكم إجراء المادة يخلق في الإنسان علوما وليس يخلق في الحيوان والبهائم لجاز أن يسوى بين الحيوان والجناد في الحياة ، ويقال لافرق إلا أن الله عز وجل يخلق في الحيوان حركات مخصوصة يحكم لإجراء العادة . فإنه لو قدر الحيوان ميتا لوجب القول بأن كل حركة تشاهد منه فالتسبيحاته وتعالى قادر على خلقها فيه على الترتيب المشاهد . وكما يجب أن يقال لم يكن مفارقتها للجناد في الحركات إلا بغريزة اختصت به عبر عنها بالحياة فكذلك مفارقة الإنسان المهمة في إدراك العلوم النظرية بغريزة يعبر عنها بالعقل وهو كالمرآة التي تفارق غيرها من الأجسام في حكاية الصور والألوان بصفة اختصت بها وهي الصقالة . وكذلك العين تفارق الجبهة في صفات وهيئاتها استعدت للرؤية ففسية هذه الغريزة إلى العلوم كنسبة العين إلى الرؤية ونسبة القرآن والشرح إلى هذه الغريزة في سياها إلى انكشاف العلوم لها كنسبة نور الشمس إلى البصر فكذلك ينبغي أن تفهم هذه الغريزة .

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المهيئ بمجواز الجهازات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الاثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد ، وهو الذي عناء بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل : إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بمجواز الجهازات واستحالة المستحيلات وهو أيضا صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلا ظاهرا وإنما الفاسدان تنكروا تلك الغريزة ويقال لا موجود إلا هذه العلوم . الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن من حنكته التجارب وهذبه المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل ، فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلا .

(١) حديث ابن عباس « لكل شيء آلة وعدة وإن آلة للمؤمن العقل ... الحديث » أخرجه ابن المبر عن عنه الحارث

(٢) حديث « إن أحب المؤمنين إلى الله من نصب في طاعة الله ... الحديث » أخرجه ابن المبر من حديث ابن مبر ، ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسناد آخر ضيف .

(٣) حديث « أتمك عقلا أشدكم لله خوفا ... الحديث » أخرجه ابن المبر من حديث أبي قتادة .

الرابع : أن تنتهي قوة تلك الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الدافعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سعى صاحبها عاقلاً من حيث إن إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لأجكم الشهوة العاجلة وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي يمايز عن سائر الحيوان ، فالأول هو الأمل والسنخ والمنبع . والثاني هو الفرع الأقرب إليه . والثالث : فرع الأول والثاني ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب . والرابع : هو الثرة الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والآخران بالاكْتِسَاب . ولذلك قال على كرم الله وجهه :

رأيت العقل عقليْن فطْبوع ومسموح  
ولا ينفع مسموح إذا لم يك مطبوع  
كما لا تنفع الشمس وضوء العين ممنوع

والأول هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله عز وجل خلقاً أكرم عليه من العقل (١) » والآخر هو المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « وإذا تقرب الناس بأبواب البر والأعمال الصالحة فتقرب أنت بعقلك (٢) » وهو المراد بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي الدرداء رضي الله عنه « ازدد عقلاً تزد من ربك قرباً ، فقال : بأني أنت وأمي ، وكيف لي بذلك ؟ فقال : اجتنب محارم الله تعالى وأد فرائض الله سبحانه تكن عاقلاً واصل بالصالحات من الأعمال تزد في عاجل الدنيا رفعة وكرامة وتتل في آجل العقبي بها من ربك عز وجل القرب والعز (٣) » وعن سعيد بن المسيب « أن عمر وأبي كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله من أعلم الناس ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : العاقل ؟ قالوا : من أعبد الناس ؟ قال : العاقل ، قالوا : فمن أفضل الناس ؟ قال العاقل قالوا : ليس العاقل من تمت مروءته وظهرت فصاحته وجادت كفه وعظمت منزلته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم (٤) وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين (٥) إن العاقل هو المتقي وإن كان في الدنيا خسيساً ذليلاً (٦) » قال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسوله وعمل ببطاعته (٧) » وبشبه أن يكون أصل الاسم في أصل اللغة لتلك الغريزة وكذلك في الاستعمال وإنما أطلق على العلوم من حيث إنها تمثرت كما يعرف الشيء بشمرته فيقال : المأم هو الخفية والعالم من ينشئ الله تعالى . فإن الخفية ثمرة العلم فتكون كالنجاح لتلك الغريزة ولكن ليس الغرض البحث عن اللغة . والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والاسم يطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول ، والصحيح وجودها بل هي الأصل . وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج وكأنها كانت مستكنة فيها فظهرت ، ومثله المأه في الأرض فإنه يظهر بحفر البئر ويجمع ويتميز بالحس لا بأن يساق إليها شيء جديد ، وكذلك الدهن في اللوز ، وماء الورد في الورد ولذلك قال تعالى ﴿ وإذا أخذ ربك من بطن أمم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم (٨) »

(١) حديث « ما خلق الله خلقاً أكرم عليه من العقل أخرجه الترمذى الحكيم في النوادر بسند ضعيف من رواية الحسن عن عدة من الصحابة .

(٢) حديث « إذا تقرب الناس بأنواع البر فتقرب أنت بعقلك » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي « إذا اكتسب الناس من أنواع البر ليتقربوا بها إلى ربنا عز وجل فاكْتَسَب أنت من أنواع العقل تسبقهم بالزلفه والقرب » وإسناده ضعيف .

(٣) حديث « ازدد عقلاً تزد من ربك قرباً . . . الحديث » قاله لأبي الدرداء أخرجه ابن المبر ومن طريقة الحارث ابن أبي أسامة والترمذى الحكيم في النوادر .

(٤) حديث ابن المسيب « أن عمر وأبي بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا رسول الله من أعلم الناس فقال العاقل . . . الحديث » أخرجه ابن المبر .

(٥) حديث « إنما العاقل من آمن بالله وصدق رسوله وعمل ببطاعته » أخرجه ابن المبر من حديث سعيد بن المسيب

ألسنت بربكم قالوا بلى ( فالمراد به إقرار قلوبهم لا إقرار ألسنتهم فإنهم انقسموا في إقرار الألسنة حيث وجدت الألسنة والأشخاص إلى معروالي جاحد ولذلك قال تعالى ( ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ) معناه إن اعتبرنا أحوالهم شهدت بذلك قلوبهم وبواطنهم ( فطرة الله التي فطر الناس عليها ) أى كل آدمى فطر على الإيمان بالله عز وجل بل على معرفة الأشياء على ما هي عليه أعنى أنها كالضئمة فيها لقرب استعدادها للادراك . ثم لما كان الإيمان مركزاً في النفوس بالفطرة انقسم الناس إلى قسمين : إلى من أعرض فنى وهم الكفار ، وإلى من أجال خاطره فتذكر فكان كمن حل شهادة ففسها بغفلة ثم تذكرها . ولذلك قال عز وجل ( لعلمهم يتذكرون - وليتذكر أولوا الألباب - واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذي واثقكم به - ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ) وتسمية هذا الخط تذكر ليس يبعد فكان التذكر ضربان : أحدهما : أن يذكر صورة كانت حاضرة الوجود في قلبه لكن غابت بعد الوجود . والآخر : أن يذكر صورة كانت مضمنة فيه بالفطرة . وهذه حقائق ظاهرة للنظر بنور البصيرة ثقيلة على من يستروجه (١) الساج والتقليد دون الكشف والبيان . ولذلك تراء يضبط في مثل هذه الآيات ويتمصف وفي تأويل التذكر إقرار النفوس أنواعاً من التعسفات ويتخايل إليه في الأخبار والآيات ضروب من المناقضات وربما يغلب ذلك عليه حتى ينظر إليها بعين الاستحراق ويعتقد فيها التهاوت . ومثاله مثال الأعمى الذى يدخل داراً فيمش فيها بالأواني المصنوعة في الدار فيقول : ما لهذه الأواني لا ترفع من الطريق وترد إلى موضعها ؟ فيقال له : إنها في موضعها وإنما الخلل في بصرك فكذا ذلك خلل البصيرة يجرى مجراه وأطم منه وأعظم إذ النفس كالفارص والبدن كالفرس وعسى الفارس أضمر من عسى الفرس ومشابهة بصيرة الباطن لبصيرة الظاهر قال الله تعالى ( ما كذب الفؤاد ما رأى ) وقال تعالى ( وكذلك نرى إبراهيم منكوت السموات والأرض ) الآية وعسى ضده عسى فقال تعالى ( فأبنا لا نعى الأبصار ولكن نعى القلوب التي في الصدور ) وقال تعالى ( ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً ) وهذه الأمور التي كشفت للأنبياء بعضها كان بالبصر وبعضها بالبصيرة وسبى الكل رؤية وبالجملة من لم تكن بصيرته الباطنة نافية لم يطاق به من الدين إلى قصوره وأمثله دون لبائه وحقائقه . فهذه أقسام ما ينطلق اسم العقل عليها .

### بيان تفاوت النفوس في العقل

قد اختلفت الناس في تفاوت العقل ولا معنى للاشتغال بنقل كلام من قل تحصيله بل الأولى والأهم المبادرة إلى التصريح بالحق . والحق الصريح فيه أن يقال إن التفاوت ينطبق إلى الأقسام الأربعة سوى القسم الثانى : وهو العلم الضروري بجواز المجازات واستعالة المستحيلات . فإن من عرف أن الاثنين أكثر من الواحد عرف أيضاً استعالة كون الجسم في مكانين وكون الشيء الواحد قد بما حادثاً وكذا سائر النظائر وكل ما يدرك إدراكاً كاعتقاف من غير شك ، وأما الأقسام الثلاثة لتفاوت ينطبق إليها ، أما القسم الرابع وهو استعلاء القوة على قبح الشهوات فلا يخفى تفاوت الناس فيه بل لا يخفى تفاوت أحوال الشخص الواحد فيه ، وهذا التفاوت يكون تارة لتفاوت الشهوة إذ قد يندر العاقل على ترك بعض الشهوات دون بعض ولكن غير مقصور عليه ، فإن الشاب قد يسجر عن ترك الزنا وإذا كبر وتم عقله قدر عليه وشهوة الرياء والرياسة تزداد قوة بالكبر لضعفا ، وقد يكون سببه التفاوت في العلم بالمعرف لغائلة تلك الشهوة . ولهذا يقدر الطبيب على الاحتياج عن بعض الألعمة المضرة وقد لا يقدر من يساويه في العقل على ذلك

(١) قوله « يستروجه » من الرواج أى يكون الساج والتقليد رائجاً عنده فتأمل اهـ مصححه .

إذا لم يكن طيبا وإن كان يعتقد على الجملة فيه مضرة ولكن إذا كان علم الطيب أتم كان خوفه أشد فيكون الخوف جنذا للعقل وعدة له في قبح الشهوات وكرها . وكذلك يكون العالم أقدر على ترك المعاصي من الجاهل لقوة علمه بضرر المعاصي وأعنى به العالم الحقيقي دون أرباب الطلياسة وأصحاب الهذيان . فإن كان التفات من جهة الشهوة لم يرجع إلى تفاوت العقل وإن كان من جهة العلم فقد سمينا هذا الضرب من العلم عقلا أيضا فإنه يقوى غريزة العقل فيكون التفاوت فيما رجعت التسمية إليه وقد يكون بمجرد التفاوت في غريزة العقل فإنها إذا قويت كان قهرا للشهوة لا محالة أشد . وأما القسم الثالث وهو علوم التجارب فتفاوت الناس فيها لا يتكرر فإنهم يتفاوتون بكثرة الإصابة وسرعة الإدراك ويكون سببه إما تفاوت في الغريزة وإما تفاوت في الممارسة ، فأما الأول وهو الأصل أعنى الغريزة فالتفاوت فيه لا سبيل إلى جمده فإنه مثل نور يشرق على النفس ويطلع صبحه ومباده لإشراقه عندئذ التمييز ثم لا يزال ينمو ويزداد نموا خفى بالتدرج إلى أن يتكامل بقرب الأربعين سنة ، ومثاله نور الصبح فإن أوائله تخفى خفاء يشق إدراكه ثم يتدرج إلى الزيادة إلى أن يكمل بطولوع قرص الشمس . وتفاوت نور البصيرة كتفاوت نور البصر والفرق مدرك بين الأعمش وبين حاد البصر بل سنة الله عن وجل جارية في جميع خلقه بالتدرج في الإيجاد حتى إن غريزة الشهوة لا تظهر في الصبي عند البلوغ دفعة وبغلة بل تظهر شيئا فشيئا على التدرج وكذلك جميع القوى والصفات ، ومن أنكر تفاوت الناس في هذه الغريزة فكأنه متخلم عن رتبة العقل ، ومن ظن أن عقل النبي صلى الله عليه وسلم مثل عقل أحاد السوادية وأجلال البوادي فهو أخس في نفسه من أحاد السوادية وكيف يشكر تفاوت الغريزة ولولاه لما اختلف الناس في فهم العلوم ولما انقسموا إلى بليد لا يفهمم بالفهم إلا بعد تعب طويل من المعلم وإلى ذكي يفهم بأدنى رمز وإشارة وإلى كامل تنبئ من نفسه حقائق الأمور بدون التعليم ؛ كما قال تعالى ﴿ يسجد ربهما يعني ولو لم تحسه نار نور على نور ﴾ وذلك مثل الانبياء عليهم السلام إذ يوضح لهم في بواطنهم أمور غامضة من غير تعلم وسماع ويعبر عن ذلك بالإلهام ، وعن مثله عبر النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال « إن روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنك مفارقة وعش ماشئت فإنك ميت وأعمل ماشئت فإنك مجزي به (١) » وهذا القطع من تعريف الملائكة للأنبياء بخالف الوحي الصريح الذي هو سماع الصوت بحاسة الأذن ومشاهدة الملك بحاسة البصر ولذلك أخبر عن هذا بالنفث في الروح ، ودرجات الوحي كثيرة والخوض فيها لا يليق بعلم المعاملة بل هو من علم المسكافة . ولا تظن أن معرفة درجات الوحي تستدعي منصب الوحي إذ لا يبعد أن يعرف الطيب المريض درجات الصحة ويعلم العالم الفاسق درجات العدالة وإن كان خاليا عنها فالعلم شيء ووجود المعلوم شيء آخر فلاكل من عرف النبوة والولاية كان نبيا ولاوليا ولاكل من عرف التقوى والروح ودقائقه كان تقيا . وانقسام الناس إلى من يتب من نفسه ويفهم وإلى من لا يفهم إلا بتعليم وتعليم وإلى من لا ينفعه التعاليم أيضا ولا تنبيه كاتقسام الأرض إلى ما يجتمع فيه الماء فيبقى فيضجر بنفسه عبونا وإلى ما يحتاج إلى الحفر ليخرج إلى القنوات وإلى ما لا ينفع فيه الحفر وهو اليابس وذلك لاختلاف جواهر الأرض في صفاتها فكذلك اختلاف النفوس في غريزة العقل . وبدل على تفاوت العقل من جهة النقل : ما روى أن عبد الله بن سلام رضى الله عنه سأل النبي صلى الله عليه وآله في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت « ياربنا هل خلقت شيئا أعظم من العرش ؟

(١) حديث « إن روح القدس نفث في روعي : أحبب من أحببت فإنك مفارقة . . . الحديث » أخرجه الشيرازي في الألقاب من حديث سهل بن سعد نحوه ، والطبراني في الأصغر والأوسط من حديث علي وكلاهما ضعيف .



قال : نعم : العقل ، قالوا : وما بلغ من قدره ؟ قال : هيات لا يحاط بعلمه هل لكم علم بعدد الرمل ؟ قالوا : لا . قال الله عز وجل : فإني خلقت العقل أصنافاً شتى كعدد الرمل فمن الناس من أعطى حبة ومنهم من أعطى حبتين ومنهم من أعطى الثلاث والأربع ومنهم من أعطى فرقا ومنهم من أعطى وسقا ومنهم من أعطى أكثر من ذلك <sup>(١)</sup> .

فإن قلت : فما بال أقوام من المتصوفة يذمون العقل والمقول ؟

فاعلم أن السبب فيه أن الناس نقلوا اسم العقل والمقول إلى المجازة والمناظرة بالمناقضات والإلزامات وهو صنعة الكلام فلم يقدرُوا على أن يقرروا عندهم أنكم أخطأتم في التسمية إذ كان ذلك لا ينمى عن قلوبهم بعد تداول الألسنة به ورسوخه في القلوب فذموا العقل والمقول وهو المسمى به عندهم . فأما نور البصيرة الباطنة التي بها يعرف صدق رساله فكيف يتصور ذمه وقد أنقذ الله تعالى عليه وإن ذم فما الذي يذمه محمد ؟ فإن كان المحمود هو الشرع فبم علم صحة الشرع ؟ فإن علم بالمقل المذموم الذي لا يوفق به فيكون الشرع أيضا مذموما ولا يلتفت إلى من يقول : إنه يدرك بعين اليقين ونور الإيمان لا بالعقل . فإنا نريد بالعقل : ما يريده بين اليقين ونور الإيمان ، وهي الصفة الباطنة التي يتميز بها الآدمي عن البهائم حتى أدرك بها حقائق الأمور . وأكثر هذه التخبيطات إنما نارت من جهل أقوام طلبوا الحقائق من الألفاظ فتخطوا فيها لتخبط اصطلاحات الناس في الألفاظ ؛ فهذا القدر كاف في بيان العقل والله أعلم .

ثم كتاب العلم بحمد الله تعالى ومنه ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض السماء .  
بئله إن شاء الله تعالى كتاب قواعد العقائد والحمد لله وحده أولا وآخرا .

بسم الله الرحمن الرحيم

## كتاب قواعد العقائد وفيه أربعة فصول

### الفصل الأول

في ترجمة عقيدة أهل السنة في كُتبي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

فنقول وبالله التوفيق : الحمد لله المبدئ المعيد الفعال لما يريد ذي العرش المجيد والبشاش الشديد الهادي صفوة العبيد إلى المنهج الرشيد والمسلك السديد المنعم عليهم بعد شهادة التوحيد بحراسة عقائدهم عن ظلمات التشكيك والترديد السالك بهم إلى اتباع رسوله المصطفى واقتفاء آثاره صلى الله عليه وآله وسلم بالإنكار والتمسك بالهدى والنجاة لهم في ذاته وأفعاله بمحاسن أوصافه التي لا يدركها إلا من أنقذ السمع وهو شهيد المعرفة لإيماهم أنه في ذاته واحد لا شريك له فرد لا مثيل له محمّد لا ضد له منفرد لا ند له وأنه واحد قديم لا أول له أزلي لا بداية له مستمر الوجود لا آخر له أبدى لا نهاية له قديم لا انقطاع له دائم لا انقراض له لم يزل ولا يزال موصوفاً بشعوت الجلال

(١) حديث ابن سلام «سئل النبي صلى الله عليه وسلم» في حديث طويل في آخره وصف عظم العرش وأن الملائكة قالت يارب هل خلقت شيئاً أعظم من العرش .. الحديث» أخرجه ابن الجوزي تأييداً والترمذي الحكيم في النوادر مختصراً .

لا يقضى عليه بالانقضاء. والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال بل (هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء حلیم).

التنزيه : وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر وأنه لا يماثل الأجسام لافي التدبير ولا في قبول الانقسام وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ولا يمرض ولا تحله الأعراض بل لا يماثل موجودا ولا يماثل موجود (ليس كمثل شيء) ولا هو مثل شيء . وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الأنظار ولا تحيط به الجهات ولا تسكنه الأرضون ولا السموات . وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمنطق الذي أرادته استواء منزها عن الماسة والاستقرار والتسكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش بل العرش وحده ومحملون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته . وهو فوق العرش والسماء وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى ، فوقية لانه يزيد قربا إلى العرش والسماء كما لا يزيد بعدا عن الأرض والثرى بل هو رفيع الدرجات عن العرش والسماء كما أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى . وهو مع ذلك قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من جبل الوريد (وهو على كل شيء شهيد) إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا يماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان كما تقدس عن أن يحده زمان بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواء ولا في سواء ذاته وأنه مقدس عن التغير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعزبه العوارض بل لا يزال في نموت جلالة منزها عن الزوال وفي صفات كاله مستغنيا عن زيادة الاستكمال . وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالأبصار نعمة منه ولطفا بالآبرار في دار القرار [تماما منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم] .

الحياة والقدرة : وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعزبه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت وأنه ذو الملك والمسلوك والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر والسموات معلومات يمينه والخلق مقهورون في قبضته . وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحسد بالإيجاد والإبداع خالق الخلق وأحماهم وقدر أوزاقهم وأجأهم لا يشد عن قبضته مقدور ولا يعزب عن قدرته تصاريح الأمور ، ولا تحصى مقدراته ولا تنهاى معلوماته .

العلم : وأنه عالم بجميع المعلومات محيط بما يجري من تحوّل الأرضين إلى أعلى السموات وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء بل يعلم ديب الخلة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ويدرك حركة الذر في جو الهواء ويعلم السر وأخفى ، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر يعلم قديم أزل لم يزل موصوفا به في أزل الأزل لا يعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال .

الإرادة : وأنه تعالى مرید للكانثات مدبر للحادثات فلا يجري في الملك والمسلوك قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر نفع أو ضرر إيمان أو كفر عرفان أو نكر فوز أو خسران زيادة أو نقصان طاعة أو عصيان لإلأهضائه وقدره وحكمته ومشيتة . فإشاه كان وما لم يشأ لم يكن لا يخرج عن مشيتة لفنة ناظر ولا فنة خاطر بل هو المبدى . المعيد الفعال لما يريد لأراد الأمره ولا معقب لقضائه ولا مهرب لمبد عن معصيته إلا بتوقيفه ورحمته . ولا قوة له على طاعته إلا بمشيته وإرادته فلا اجتماع للإنس والجن والملائكة والشیاطین على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيتة لمجروا عن ذلك وأن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفا بها

مريدا في أزاله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما أرادته في أزاله من غير تقدم ولا تأخر بل وقفت على وفق علمه وإرادته من غير تبدل ولا تغير . دبر الأمور لا بترتيب أفكار ولا برص زمان فلذلك لم يشغله شأن عن شأن .

السمع والبصر : وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى ، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ، ولا يغيب عن رؤيته مرقى وإن دق . ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام . يرى من غير حدة وأجفان ويسمع من غير أصبغة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق .

الكلام : وأنه تعالى متكلم آمر ناه واعد متوعد بكلام أزلى قديم قائم بذاته لا يشبه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هوا أو اصطكاك أجرام ولا يحرف ينقطع بإطباق شفة أو تحريك لسان ، وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام . وأن القرآن مقروء باللسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق . وأن موسى صلى الله عليه وسلم سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف . كما يرى الأبرار ذات الله تعالى في الآخرة من غير جوهر ولا عرض . وإذا كانت له هذه الصفات كان حيا عالما قادرا مريدا سميعا بصيرا متكليا بالحياة والقدرة والعلم والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأنفال : وسبحانه وتعالى أنه لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله وفائض من علمه على أحسن الوجود وأكملها وأتمها وأعدلها وأنه حكيم في أفعاله عادل في أفضيته لا يقاس عدله بعقل العباد إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره . ولا يتصور الظلم من الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكا حتى يكون تصرفه فيه ظلما ، فشكل ما سواه من أنس وجن وملك وشيطان وسما وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك وحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد عدم اختراعا وأنشاء إنشاء بعد أن لم يكن شيئا إذ كان في الأرض موجودا وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك إظهارا لقدرته وتحقيقا لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلبته لا لانتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ومتول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم ، فله الفضل والإحسان والنعمة والامتناع إذ كان قادرا على أن يصب على عباده أنواع العذاب ويتلهم بضروب الآلام والأوصاب ولو فعل ذلك لكان منه عدلا ولم يكن منه تبيحا ولا ظلما ، وأنه عز وجل يثبت عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم ولا يجب لأحد عليه حق وأن حقه في الطاعات وجب على الخلق بإيجابه على أسنة أنبيائه عليهم السلام لا بمجرد العقل ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فلبثوا أمره ونهيته ووعده ووعيد فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاءوا به .

( معنى الكلمة الثانية ) وهي الشهادة بالرسالة وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمدا صلى الله عليه وسلم برسائه إلى كافة العرب والعجم واليهن والإنس فنسخ بشريته الشرائع إلا ما قرره منها . وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر . ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول « لا إله إلا الله » ما لم تقتض بها شهادة الرسول وهو قوله « محمد رسول الله » والزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من أمور الدنيا والآخرة . وأنه لا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر به بعد الموت ، وأوله : سؤال منكرو ونكير وهما شخصان مميان هائلان يقعدان العبد في قبره سوا ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ (١)

#### مكتاب قواعد العقائد

(١) حديث «سؤال منكرو ونكير» أخرجه الترمذي وصححه وابن حبان من حديث أبي هريرة «إذا قبر الميت

وهما فتان القبر<sup>(١)</sup> وسؤالها أول فتنة بعد الموت<sup>(٢)</sup> . وأن يؤمن بعذاب القبر<sup>(٣)</sup> وأنه حق وحكمه عدل على الجسم والزوج على ما يشاء . وأن يؤمن بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طبقات السموات والأرض توزن فيه الأعمال بقدرته لله تعالى ، والصنوج يومئذ مثاقيل النذر والخردل تحقيقاً لتكامل العدل ، وتوضع صحائف الحسنات في صورة حسنة في كفة الثور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله بفضل الله وتطرح صحائف السيئات في صورة قبيحة في كفة الظلّة فيخف بها الميزان بعن الله<sup>(٤)</sup> . وأن يؤمن بأن الصراط حق وهو جسر محدود على متن جهنم أحد من السيف وأدق من الشعرة تزل عليه أقدام الكافرين يحكم الله سبحانه قهوى بهم إلى النار وتثبت عليه أقدام المؤمنين بفضل الله فيساقون إلى دار القرار<sup>(٥)</sup> . وأن يؤمن بالحوض المورود حوض محمد صلى الله عليه وسلم يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة وبعد جواز الصراط<sup>(٦)</sup> من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر ماءه أشدّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل حوله أباريق عددها بعدد نجوم السماء<sup>(٧)</sup> فيه ميزان يصبان فيه من الكوثر<sup>(٨)</sup> . وأن يؤمن بالحساب وتفاوت الناس فيه إلى مناقش في الحساب وإلى مسامح فيه وإلى من يدخل

== أو قال أحكم - أنه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما النكر وللآخر النكير» وفي الصحيحين من حديث أنس «إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه وإنه ليسمع قرع ناعله أنه ملكان فيقعدانه... الحديث»  
(٢) حديث «إلهما فتان القبر» أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو «أن رسول صلى الله عليه وسلم ذكر فتان القبر فقال عمر: أترد علينا عقولنا؟... الحديث» (٣) حديث «إن سؤالها أول فتنة بعد الموت» لم أجده  
(٤) حديث «عذاب القبر» أخرجه من حديث عائشة «إنكم تفتنون أو تعذبون في قبوركم... الحديث» ولها من حديث أبي هريرة وعائشة «استأذنته صلى الله عليه وسلم من عذاب القبر» (٥) حديث «الإيمان بالميزان ذى الكفتين واللسان وصفته في العظم أنه مثل طباق السموات والأرض» أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر: قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وتؤمن بالجنة والنار والميزان... الحديث وأصله عند مسلم ليس فيه ذكر الميزان ، ولأن داود من حديث عائشة «أما في ثلاثة مواطن لا يذكر أحد أحداً عند الميزان حتى يعلم أخف ميزانه أم يثقل؟» زاد ابن مردويه في تفسيره «قالت عائشة: أمي حتى علمنا الموازين هي الكفتان فيوضع في هذه الشيء ويوضع في هذه الشيء فترجع إحداها وتخف الأخرى» والترمذي وحسنه من حديث أنس «وأطلبني عند الميزان» ومن حديث عبد الله بن عمر في حديث البطاقة «فوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة... الحديث» وروى ابن شاهين في كتاب السنة عن ابن عباس: كفة الميزان كاطباق الدنيا كلها . (٦) حديث «الإيمان بالصراط وهو جسر محدود على متن جهنم أحدهم السيف وأدق من الشعرة» أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة «ويضرب الصراط بين ظهري جهنم» ولها من حديث أبي سعيد «ثم يضرب الجسر على جهنم» زاد مسلم «قال أبو سعيد: إن الجسر أدق من الشعر وأحد من السيف» ورفعه أحمد من حديث عائشة والبيهقي في الشعب ، والبعث من حديث أنس وضعفه ، وفي البعث من رواية عبيد بن عمير مرسل ، ومن قول ابن مسعود «الصراط كشد السيف» وفي آخر الحديث ما يدل على أنه مرفوع .  
(٧) حديث «الإيمان بالحوض وأنه يضرب منه للمؤمنين» أخرجه مسلم من حديث أنس في نزول «إنا أعطيناك الكوثر» «هو حوض ترد عليه أمي يوم القيامة آتيتها عدد النجوم» ولها من حديث ابن مسعود وعقبة بن عامر وجندب وسهل ابن سعد: أنا فرطك على الحوض . ومن حديث بن عمر: أمالكم حوض كما بين جبراه وأدرج . وقال الطبراني: كما بينكم وبين جبراه وأدرج . وهو الصواب وذكر الحوض في الصحيح من حديث أبي هريرة وأبي سعيد وعبد الله بن عمر وحذيفة وأبي ذر وحابس بن مرة وحارثة بن وهب وثوبان وعائشة أم سلمة وأسماء . (٧) حديث «من شرب منه شربة لم يظلم بعدها أبداً عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل وحوله أباريق عدد نجوم السماء» من حديث عبد الله بن عمرو ولها من حديث أنس: فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء . وفي رواية لمسلم: أكثر من عدد نجوم السماء (٩) حديث «فيه ميزان يصبان فيه من الكوثر» أخرجه مسلم من حديث ثوبان . يفت فيه ميزان يدانه من الجنة أحدهما ذهب والآخر من ورق .

الجنة بغير حساب وهم المقربون فيسأل الله تعالى (١) من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين (٢) ويسأل المتدعة عن السنة (٣) ويسأل المسلمين عن الأعمال (٤) . وأن يؤمن بإخراج الموحدين من النار بعد الانتقام حتى لا يبقى في جحيم موحده بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار موحده (٥) . وأن يؤمن بشفاععة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين على حسب جاهه ومتركه عند الله تعالى ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله عز وجل فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان (٦) . وأن يعتقد فضل الصحابة رضي الله عنهم وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد النبي صلى الله عليه وسلم : أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم (٧) . وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم كما أثني الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم أجمعين (٨) فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار فمن اعتقد جميع ذلك موقناً به

(١) حديث : الإيمان بالحساب وضأوت الخلق فيه إلى مناقش في الحساب وسامح فيه وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ؛ أخرجه البيهقي في البعث من حديث عمر : فقال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وبنأوت وبأبائهم من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله ... الحديث ؛ وهو عند مسلم دون ذكر (الحساب) وللشيخين من حديث عائشة : من نوقش الحساب عذب قالت قلت أليس يقول الله تعالى ﴿ فسوف يحاسب حساباً يسيراً ﴾ قال ذلك العرض ؛ ولها من حديث ابن عباس : عرضت على الأمم قليل هذه أمتك ومهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ؛ ومسلم من حديث أبي هريرة وعمران بن حصين : يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ؛ زاد البيهقي في البعث من حديث عمرو بن حزم : وأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفاً سبعين ألفاً ؛ زاد أحمد من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر بعده : هذه الزيادة فقال : فهذا سترته قال قد استرته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفاً قال عمر فهذا سترته قال قد استرته فأعطاني هكذا - وفرج عبد الرحمن بن أبي بكر بين يديه ... الحديث (٢) حديث : سؤال من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ؛ أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد : يدعي نوح يوم القيامة فيقول لييك وسعديك يارب فيقول هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمتهم فيقولون ما أنانا من نذر فيقول من يشهد لك فيقول محمد وأمته ... الحديث ؛ ولا ين ماجه : يحيى النبي يوم القيامة ... الحديث ؛ وفيه : فيقال هل بلغت قومك ... الحديث . (٣) حديث : سؤال المتدعة عن السنة ؛ ابن ماجه من حديث عائشة : من تكلم بشيء من القدر سؤل عنه يوم القيامة ؛ ومن حديث أبي هريرة : مامن داع يدعو إلى شيء إلا وقف يوم القيامة لازماً لدعوة مادعا إليه وإن دعا رجل رجلاً ؛ وإسنادهما ضعيف . (٤) حديث : سؤال المسلمين عن الأعمال ؛ أخرجه أصحاب السنن ، ومن حديث أبي هريرة : إن أول ما يحاسب به البد يوم القيامة صلاته ... الحديث ؛ وسأني في الصلاة . (٥) حديث إخراج الموحدين من النار حتى لا يبقى بها موحده بفضل الله سبحانه ؛ أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة في حديث طويل : حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد وأراد أن يخرج برحمته من أراد من أهل النار أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيئاً ممن أراد الله أن يرحمه ممن يقول لا إله إلا الله ... الحديث (٦) حديث شفاععة الأنبياء ثم العلماء ، ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين ومن بقي من المؤمنين ولم يكن لهم شفيع أخرج بفضل الله فلا يخلد في النار مؤمن بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان ؛ أخرجه ابن ماجه من حديث عثمان بن عفان : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ؛ وقد تقدم في العلم . وللشيخين من حديث أبي سعيد الخدري : من وجدتم في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأخرجوه ؛ وفي رواية (من خير) وفيه : فيقول الله تعالى شفعت للملائكة وشفعت النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوماً لم يعملوا خيراً قط ... الحديث . (٧) حديث : أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عثمان ثم علي . أخرجه من حديث ابن عمر قال : كنا نغير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فتخبر أبا بكر ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان . ولأبي داود : كنا نقول ورسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أفضل أمة النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان رضي الله عنهم . زاد الطبراني : ويسمع ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولا ينكره . (٨) حديث : إحسان الظن بجميع الصحابة والثناء عليهم . أخرجه الترمذي عن حديث عبد الله بن مفضل : الله في أصحابي لا تتخونهم غرضاً بعدى . وللشيخين من حديث أبي سعيد : لا تسبوا أصحابي . وللطبراني من حديث ابن مسعود : إذا ذكر أصحابي فأسكوا .

كان من أهل الحق وعصاة السنة وفارق وهط الضلال وحرب البدعة . فَنَسأل الله كمال اليقين وحسن الثبات في الدين لنا وكافة المسلمين برحمته إنه أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

### الفصل الثاني

في وجه التدرج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد

أعلم أن ما ذكرناه في ترجمة العقيدة ينبغي أن يقدم إلى الصبي في أول نشوه ليحفظه حفظاً ثم لا يزال يتكشف له معناه في كبره شيئاً فشيئاً ؛ فابتدأه بالحفظ ثم الفهم ثم الاعتقاد والإيقان والتصديق به ، وذلك بما يحصل في الصبي بغير برهان .

فن فضل الله سبحانه على قلب الإنسان أن شرحه في أول نشوه للإيمان من غير حاجة إلى حجة وبرهان ، وكيف يشكر ذلك وجميع عقائد العوام مبناها التلقين المجرد والتقليد المحض ؟

نعم يكون الاعتقاد الحاصل بمجرد التقليد غير خال عن نوع من الضعف في الابتداء على معنى أنه يقبل الإزالة بتمقيصه لو أُلقي إليه فلا بد من تقويته وإثباته في نفس الصبي والعامي حتى يترسخ ولا يتزلزل . وليس الطريق في تقويته وإثباته إن يعلم صنعة الجدل والكلام بل يشتغل بتلاوة القرآن وتفسيره وقراءة الحديث ومعانيه . ويشغل بوظائف العبادات فلا يزال اعتقاده يرداد رسوعاً بما يقرح سمعه من أدلة القرآن وحججه وبما يرد عليه من شواهد وفوائدها وبما يسطلع عليه من أنوار العبادات ووظائفها وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ومجالستهم وسماهم وسماعهم وميائهم في الخضوع لله عز وجل والخوف منه والاستكافة له فيكون أول التلقين كإلقاء بذر في الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقي والزرية له حتى ينمو ذلك البذر ويقوى شجرة طيبة راسخه أصلها ثابت وفرعها في السماء ، وينبغي أن يحرص سمعه من الجدل والكلام غاية الحراسة فإن ما يشوشه الجدل بما يمهده وما يفسده أكثر مما يصلحه بل تقويته بالجدل تضاهي ضرب الشجرة بالكدفة من الحديد رجاء تقويتها بأن تكثر أجزائها وربما يفتت ذلك ويفسدها وهو الأغلب . والمشاهدة تكفيك في هذا بياناً فناهيك بالعيان برهاناً : ففكر عقيدة أهل الصلاح والنقي من عوام الناس بمقيدة المتسكمين والمجاهدين فترى اعتقاد العامي في الثبات كالطود الشااخ لا تحركه الدواهي والصواعق وعقيدته المتكلم الحارس اعتقاده بتقسيمات الجدل كخيط مرسل في الهواء فقيمه الرياح مرة هكذا ومرة هكذا لإلّا من سمع منهم دليل الاعتقاد فلفقه تقليداً كما تلقف نفس الاعتقاد تقليداً ؛ إذ لا فرق في التقليد بين تعليم الدليل أو تعلم المدلول فتلقين الدليل شيء والاستدلال بالنظر شيء آخر بعيد عنه . ثم الصبي إذا وقع نشوه على هذه العقيدة إن اشتغل بكسب الدنيا لم يفتح له غيرها وسكنه يسلّم في الآخرة باعتقاد أهل الحق ، إذ لم يكلف الشرح أجلاف العرب أكثر من التصديق الجازم بظاهر هذه العقائد ، فأما البحث والتفتيش وتكلف نظم الأدلة فلم يكلفه أصلاً ، وإن أراد أن يكون من سالكى طريق الآخرة وساعده التوفيق حتى اشتغل بالعمل ولازم التقوى ونهى النفس عن الهوى واشتغل بالرياضة والمجاهدة انفتحت له أبواب من الهداية تكشف عن حقائق هذه العقيدة بنور إلهي يقذف في قلبه بسبب المجاهدة تحقيقاً لوعده عز وجل إذ قال ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين ﴾ وهو الجوهر النفيس الذي هو غاية إيمان الصديقين والقربين ، وإليه الإشارة بالسر الذي قرأ في صدر أبي بكر الصديق رضي الله عنه حيث فضل به الخاق . وانكشف ذلك السر بل تلك الأسرار له درجات بحسب درجات المجاهدة ودرجات الباطن في النظافة والطهارة عما سوى الله تعالى وفي الاستئذاة بنور اليقين وذلك كشفاوات الخاق في أسرار الطب والفقهاء وسائر العلوم إذ يختلف ذلك باختلاف الاجتهاد واختلاف الفطرة في الذكاء والفطنة وكذا لا تنحصر تلك الدرجات فكذلك هذه .

( مسألة ) فإن قلت : تعلم الجدل والكلام مذموم كتملّ النجوم أو هو مباح أو مندوب إليه .

فاعلم أن للناس في هذا علوا وإسرافا في أطراف فن قائل إنه بدعة أو حرام وأن العبد إن لقي الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك خير له من أن يلقاه بالكلام ، ومن قائل أنه واجب وفرض إما على الكتابة أو على الأعيان وأنه أفضل الأفعال وأعلى القربات فإنه تحقيق لملم التوحيد ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف . قال ابن عبد الأعلى رحمه الله سمعت الشافعي رضي الله عنه يوم ناظر حفصا الفرد - وكان من متكلمي المعتزلة - يقول : لأن بقي الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير له من أن يلقاه بشيء من علم الكلام . ولقد سمعت من حفص كلاما لا أقدر أن أحكيه . وقال أيضا قد اطلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننته قط . ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خير له من أن ينظر في الكلام . وحكى الكرابيسي « أن الشافعي رضي الله عنه سئل عن شيء من الكلام فنصّب وقال : سل عن هذا حفصا الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله » ولما مرض الشافعي رضي الله عنه دخل عليه حفص الفرد فقال له : من أنا ؟ فقال : حفص الفرد ، لاحفظك الله ولا رعاك حتى تتوب بما أنت فيه . وقال أيضا لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لغروا منه فراهم من الأسد ؟ وقال أيضا إذا سمعت الرجل يقول الاسم هو المسمى أو غير المسمى ؟ فاشهد بأن من أهل الكلام ولا دين له قال الزعفراني قال الشافعي حكى في أصحاب الكلام أن يضربوا بالجرية ويطاف بهم في القبائل والعشائر ويقال : هذا جزء من ترك الكتاب السنة وأخذ في الكلام ، وقال أحمد بن حنبل : لا يفلح صاحب الكلام أبدا ، ولا تكاد نرى أحدا نظري في الكلام إلا وفي قلبه دغل ، وبالعن في ذنب حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتابا في الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألسنت تحسب بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ألسنت تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكير في تلك الشبهات فيدعهم ذلك إلى الرأي والبحث ؟ وقال أحمد رحمه الله : علماء الكلام زنادقة . وقال مالك رحمه الله : أرايت إن جاءه من هو أجدل منه أيدع دينه كل يوم لدين جديد ؟ يعني أن أقوال المتجادلين تتفاوت . وقال مالك رحمه الله أيضا : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، فقال بعض أصحابه - في تأويله - أنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أي مذهب كانوا . وقال أبو يوسف : من طلب العلم بالكلام نزدق . وقال الحسن : لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم ، وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، ولا ينحصر ما نقل عنهم من التشديدات فيه وقالوا ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لمنهم بما يتولد منه من الشر . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « هلك المتنطعون (١) » أي المتعمقون في البحث والاستقصاء . واحتجوا أيضا بأن ذلك لو كان من الدين لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعلم طريقه ويثني عليه وعلى أتباعه ؛ فقد علمهم الاستنجاء (٢) ، وندبهم إلى علم الفرائض واثني عليهم (٣) ونهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا (٤) عن القدوة . وعلى هذا استمر الصحابة رضي الله عنهم فالريادة على الأستاذ طفيان وظلم وهم الأستاذون والقدر ونحن الاتباع والتلازمة . وأما الفرقة الأخرى فاحتجوا بأن قالوا : إن المخذور من الكلام إن كان هو لفظ الجوهر والعرض وهذه الاصطلاحات الغريبة التي لم تبهدها الصحابة رضي الله عنهم

(١) حديث « هلك المتنطعون » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث « أن النبي صلى الله عليه وسلم علمهم الاستنجاء » أخرجه مسلم من حديث سلمان الفارسي .

(٣) حديث « ندبهم إلى علم الفرائض واثني عليهم » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « تعلموا الفرائض وعلموها الناس ... الحديث » وللترمذي من حديث أنس وأقرضهم زيد بن ثابت

(٤) حديث « نهاهم عن الكلام في القدر وقال أمسكوا » تقدم في العلم .

فالأمر فيه قريب ، إذا من علم الإلوقد أحدث فيه اصطلاحات لأجل التفهم كالحديث والتفسير والفقه ولوعرض عليهم عبارة التفتض والكسر والتركيب والتعبدة وفساد الوضع إلى جميع الأسئلة التي تورد على القياس لما كانوا يفقهونه . فإحداث عبارة للدلالة بها على مقصود صحيح كإحداث آية على هيئة جديدة لاستعمالها في مباح ، وإن كان المحذور هو المعنى فحقن لا نعتي به إلا معرفة الدليل على حدوث العالم ووحداية الخالق وصفاته كما جاء في الشرع فمن أين تحرم معرفة الله تعالى بالدليل ، وإن كان المحذور هو التشعب والتعصب والعداوة والبغضاء وما يقضى إليه الكلام فذلك محرم ويجب الاحتراز عنه كما أن الكبر والعيب والرياء وطلب الرياسة مما يقضى إليه علم الحديث والتفسير والفقه وهو محرم يجب الاحتراز عنه ولكن لا يمنع من العلم لأجل أدائه إليه وكيف يكون ذكر الحجة والمطالبة بها والبحث عنها محظورا وقد قال الله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم ﴾ وقال عز وجل ﴿ ليلعل من هلك عن بينة ويحيى من حى بينة ﴾ وقال تعالى ﴿ قل هل عندكم من سلطان بهذا ﴾ أى حجة وبرهان وقال تعالى ﴿ قل فله الحجة البالغة ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تر إلى الذى حجاج إبراهيم فى ربه - إلى قوله - فبنت الذى كفر ﴾ إذ ذكر سبحانه احتجاج إبراهيم ومجادته وإخامه خصمه فى معرض الثناء عليه وقال عز وجل ﴿ تلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وقال تعالى ﴿ قالوا يا نوح قد جادنا فأفأ كثر جدنا ﴾ وقال تعالى فى قصة فرعون ﴿ وما رب العالمين - إلى قوله - أولو جشك بئس مبين ﴾

وعلى الجملة فالقرآن من أوله إلى آخره بحاجة مع الكفار فعمدة أدلة المتكلمين في التوحيد قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلُ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ وفي النبوة ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ وفي البعث ﴿قُلْ يَحْيَا الَّذِي أَنْشَأَهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ إلى غير ذلك من الآيات والأدلة. ولم تزل الرسل صلوات الله عليهم يحاجون المشركين ويجادونهم قال تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالِغٍ فِي أَحْسَنِ﴾ فالصحابة رضی الله عنهم أيضا كانوا يحاجون المشركين ويجادون ولكن عند الحاجة. وكانت الحاجة إليه قليلة في زمانهم وأول من سن دعوة المبتدعة بالمجادلة إلى الحق: علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إذ بعث ابن عباس رضي الله عنهما إلى الخوارج فكلهم فقال: ما نتفقون على إمامكم؟ قالوا: قاتل ولم يسب ولم يهزم، فقال: ذلك في قتال الكفار، أرايتم لو سببت عائشة رضي الله عنها في سهم أحدهم أكنتم تستحلون منها ما تستحلون من ملككم وهي أمكم في نص الكتاب؟ فقالوا: لا؛ فرجع منهم إلى الطاعة بمجادلته ألقان. وروى أن الحسن ناظر قنوديا فرجع عن القدر. وناظر علي بن أبي طالب كرم الله وجهه رجلا من القدرية. وناظر عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يزيد بن عبيدة في الإيمان؟ قال عبد الله: لو قلت إني مؤمن لقلت إني في الجنة؟ فقال له يزيد بن عبيدة: يا صاحب رسول الله هذه زلة منك وهل الإيمان إلا أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث والميزان وتقيم الصلاة والصوم والزكاة ولنا ذنوب لو نعلم أنها تغفر لنا لعلنا أنأنا من أهل الجنة؟ فن أجعل ذلك تقول إنا مؤمنون ولا تقول إنا من أهل الجنة؟ فقال ابن مسعود: صدقت والله إنها مني زلة. فبينما أن يقال كان خوضهم فيه قليلا لا كثيرا وقصيرا لا طويلا وعند الحاجة لا بطريق التصنيف والتدريس واتخاذ صناعة؛ فيقال أمالة خوضهم فيه فإنه كان لقلة الحاجة إذ لم تكن البدعة تظهر في ذلك الإيمان، وأما القصر فقد كان النائية لإلزام الخصم واعتراؤه وانكشاف الحق وإزالة الشبهة؛ فلو طال إشكال الخصم والحاجة لعلل لإحالة لإزامهم. وما كانوا يتدرون قدر الحاجة بميزان ولا مكيال بعنا الشروع فيها. وأما عدم تصديدهم للتدريس والتصنيف فيه فهكذا كان دأبهم في الفقه والتفسير والحديث أيضا، فإن جاز تصنيف الفقه ووضع الصور النادرة التي لا تتفق إلا على التدور إما ادخارا ليوم وقوعها وإن كان نادرا أو لتشجيعها للخوارج فمن أيضا ترتب طرق المجادلة لتوقع وقوع الحاجة بشوران شبهة أو هيجان مبتدع أو لتشجيع الحاضر أو لادخار الحجة حتى لا يعجز عنها عند الحاجة على البسمة والارتجال، كن بعد السلاح قبل القتال ليوم القتال فهذا ما يمكن أن يذكره لغير يقين.



فإن قلت : فما المختار عندك فيه ؟ فاعلم أن الحق فيه أن إطلاق القول بدمه في كل حال أو بحمده في كل حال خطأ بل لا بد فيه من تفصيل .

فاعلم أولاً أن الشيء قد يحرم لذاته كالخمر والميتة وأعني بقولي « لذاته » أن علة تحريمه وصف في ذاته وهو الإسكار والموت . وهذا إذا سئلنا عنه أطلقنا القول بأنه حرام ولا يلتفت إلى إباحة الميتة عند الاضطراب وإباحة تجرع الخمر إذا غص الإنسان بلقمة ولم يجد ما يسيغها سوى الخمر وإلى ما يحرم لغيره كالبيع على بيع أخيك المسلم في وقت الحصار والبيع وقت النداء ، وكأكل الطين فإنه يحرم لما فيه من الإضرار وهذا ينقسم إلى ما يضر قلبه وكثيره فيطلق القول عليه بأنه حرام كالم الذي يقتل قلبه وكثيره ، وإلى ما يضر عند الكثرة فيطلق القول عليه بالإباحة كما غسل فإن كثيره يضر بالحرور ، وكأكل الطين . وكان إطلاق التحريم على الطين والخمر والتحليل على غسل التنفوس إلى أغلب الأحوال ؛ فإن تصدى شيء تقابلت فيه الأحوال فالأولى والأبعد عن الالتباس أن يفصل فنعود إلى علم الكلام ونقول : إن فيه منفعة وفيه مضرة ، فهو باعتبار منفعة في وقت الانتفاع حلال أو مندوب إليه أو واجب كإقتضيه الحال ، وهو باعتبار مضرة في وقت الاستضرار ومحل حرام أمامضرة فإنارة الشبهات وتحريمك العقائد وإزالتها عن الهرم والتعصب فذلك مما يحصل في الابتداء ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الأشخاص ، فهذا ضرره في الاعتقاد الحق . وله ضرر آخر في تأكيد اعتقاد المبدعة وتثبيتته في صدورهم بحيث تنبعث دواعيهم ويشتهد حرصهم على الإصرار عليه ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل ولذلك ترى المبتدع العاى يمكن أن يزول اعتقاده باللطيف في أسرع زمان إلا إذا كان نشؤه في بلد يظفر فيها الجدل والتعصب فإنه لو اجتمع عليه الأولون والآخرون لم يقدروا على زرع البدعة من صدره بل الهوى والتعصب وبعض خصوم المجاديين وقررة المخالفين يستولون على قلبه ويمتص من إدراك الحق حتى لو قيل له : هل تريد أن يكشف الله تعالى لك الغطاء ويعرفك بالعيان أن الحق مع خصمك لكراه ذلك خيفة من أن يفرح به خصمه ؛ وهذا هو الداء العضال الذي استطار في البلاد والعباد وهو نوع قساد أثاره المجادلون بالتمصب فهذا ضرره . وأما منفعته فقد يظن أن قاعدته كشف الحقائق ومعرفة ما على ما عليه وهيات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التعجيل والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف ، وهذا إذا سمعت من محدث أو حشوى وبما خطر ببالك أن الناس أعداء ما جهلوا فاسمع هذا من خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغافل فيه إلى منتهى درجة المشككين وجاوز ذلك إلى التعمق في علوم آخر تناسب نوع الكلام وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود . ولعمري لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف وإيضاح لبعض الأمور ولكن على التدور في أمور تكاد جليلة تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام بل منفعة شيء واحد وهو حراسة العقيدة التي ترجعنا على العوام وحفظها عن تشويشات المبتدعة بأنواع الجدل فإن العاى ضعيف يستغزه جدل المبتدع وإن كان فاسد ، ومعارضة الفاسد بالقائداً تذلله . والناس متعبدون هذه العقيدة التي قدمناها إذ ورد الشرع بها لما فيها من صلاح دينهم ودنياهم وأجمع السلف الصالح عليها والعلماء يمتدون بحفظها على العوام من تلبسات المبتدعة كاعتداء السلاطين بحفظ أموالهم عن تهجمات الظلمة والنصاب وإذا وقعت الإحاطة بضرره ومنعته فينبغي أن يكون كالطبيب الحاذق في استعمال الدواء الحار إذ لا يضعه إلا في موضعته وذلك في وقت الحاجة وعلى قدر الحاجة . وتفصيله أن العوام المشغولين بالحرف والصناعات يجب أن يتركوا على سلامتهم قديم التي اعتقدوها مما تلقنوا الاعتقاد الحق الذي ذكرناه فإن تعليمهم الكلام ضرر محض في حقهم إذ ربما يثير لهم شكاً ويزلزل عليهم الاعتقاد ولا يمكن القيام بعد ذلك بالإصلاح . وأما العاى المتقدم للبدعة فينبغي أن يبدى إلى الحق بالتلطف لا بالتعصب وبالكلام اللطيف المقنع للنفس المؤثر في القلب القريب من سياق أدلة القرآن والحديث

المزوج بن من الوعظ والتحذير فإن ذلك أنفع من الجدل الموضوع على شرط المتكلمين ، إذ العاى إذا سمع ذلك اعتقد أنه نوع صنعة من الجدل تعلبها المتكلم ليستدرج الناس إلى اعتقاده فإن عجز عن الجواب قدر أن المجادلين من أهل مذهبه يقتدون على دفعه . فالجدل مع هذا ومع الأول حرام وكذلك مع من وقع في شك إذ يجب إزائه باللفظ والوعظ والأدلة القريبة المقبولة ، البعيدة عن تعمق الكلام .

واستقصاء الجدل إنما ينفع في موضع واحد ، وهو أن يفرض حامى اعتقد البدعة بنوع جدل سمعه فيقابل ذلك الجدل بمثابة فيعود إلى اعتقاد الحق وذلك فيمن ظهر له من الأناى بالمجادلة ما يمنعه عن القناعة بالمواظلة والتحذيرات العامة ، فقد انتهى هذا إلى حالة لا يشفيه منها إلا دواء الجدل لجاز أن يلقى إليه .

وأما في بلاد تقل فيها البدعة ولا تختلف المذاهب فيقتصر فيها على ترجمة الاعتقاد الذى ذكرناه ولا يتعرض للأدلة ويترتب وقوع شبهة ، فإن وقعت ذكر بقدر الحاجة فإن كانت البدعة شائعة وكان يخاف على الصبيان أن يحدوا فلا بأس أن يعلموا القدر الذى أودعناه كتاب الرسالة القدسية ليكون ذلك سبباً لدفع تأثير مجادلات المبتدعة إن وقعت لهم ، وهذا مقدار مختصر وقد أودعناه هذا الكتاب لاختصاره ، فإن كان فيه ذكاء وتنبه بذكائه لموضع سؤال أو ثارت في نفسه شبهة فقد بدت العلة المخلورة ، وظهر الداء فلا بأس أن يرق منه إلى القدر الذى ذكرناه في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد - وهو قدر خمسين ورقة - وليس فيه خروج عن النظر في قواعد العقائد إلى غير ذلك من مباحث المتكلمين ، فإن أقمعه ذلك كف عنه ، وإن لم يقنعه ذلك فقد صارت العلة مزمعة والداء غالباً والمرضى سارياً فليتلطف به الطبيب بقدر إمكانه وينتظر قضاء الله تعالى فيه إلى أن يشكشف له الحق بتنبه من الله سبحانه أو يستمر على الشك والظن إلى ما قدر له ، فالقدر الذى يحويه ذلك الكتاب وجهه من المصنفات هو الذى يرجى نفعه .

فأما الخارج منه فقضائى :

أحدهما : بحث في غير قواعد العقائد كالبحث عن الاعتقادات وعن الأكوان وعن الإدراكات وعن الخوض في الرؤية هل لها ضد يسمى المنع أو العى ؟ وإن كان فذلك واحد هو منع عن جميع ما لا يرى أو ثبت لكل مرئى يمكن رؤيته منع بحسب عدده إلى غير ذلك من الترهات المضلات .

والقسم الثانى : زيادة تقرير تلك الأدلة في غير تلك القواعد وزيادة أسئلة وأجوبة وذلك أيضاً استقصاء لا يزيد إلا ضللاً وجهلاً في حق من لم يزنه ذلك القدر قرب كلام يريده الإطناب والتقرير غرضاً . ولو قال قائل : البحث عن حكم الإدراكات والاعتقادات فيه قائمة بتشحيذ الخواطر . والخاطر آلة الدين كالسيف آلة الجهاد فلا بأس بتشحيذه كان كونه لعب الشطرنج يشحذ الخاطر ، فهو من الدين أيضاً ، وذلك هوس ، فإن الخاطر يشحذ بسائر علوم الشرع ، ولا يخاف فيها مضرة ، فقد عرفت بهذا القدر المذموم والقدر المحمود من الكلام والحال التى يذم فيها والحال التى يحمدها فيها والشخص الذى ينتفع به والشخص الذى لا ينتفع به .

فإن قلت : مهما اعترفت بالحاجة إليه في دفع المبتدعة ، والآن قد ثارت البدع وعمت البلوى وأرهقت الحاجة ، فلا بد أن يصير القيام بهذا العلم من فروض الكفايات كالقيام بحراسة الأموال وسائر الحقوق كالقضاء والولاية وغيرهما ؟ وما لم يشغل العلماء بنشر ذلك والتدريس فيه والبحث عنه لا يندرس بالكلية لاندرس وليس في مجرد الطبع كفاية لحل شبه المبتدعة ما لم يتعلم فينبغى أن يكون التدريس فيه والبحث عنه أيضاً من فروض الكفايات بخلاف زمن الصحابة رضى الله عنهم فإن الحاجة ما كانت ماسة إليه .

فاعلم أن الحق أنه لا بد في كل بلد من قائم بهذا العلم مستقل يدفع شبه المبتدعة التي تارفت تلك البلدة وذلك يدوم بالتعليم ولكن ليس من الصواب تدريسه على العموم كتدريس الفقه والتفسير فسيان هذا مثل الدواء والفقه مثل الغذاء وضرر الغذاء لا يجدر وضرر الدواء محذور لما ذكرنا فيه من أنواع الضرر ، فالعالم الذي ينبغي أن يخصص بتعليم هذا العلم من فيه ثلاث خصال ؛ أحداها : التجرد للعلم والحرص عليه ، فإن المحترف بمنه الشغل عن الاستتمام وإزالة الشكوك إذا عرضت . الثانية : الإذكاء والفطنة والفصاحة فإن البليد لا يتفهم بفهمه والفهم لا ينتفع بمحاجه فيخاف عليه من ضرر الكلام ولا يرجي فيه نفعه . الثالثة : أن يكون في طبعه الصلاح والديانة والتقوى ولا تكون الشهوات غالبية عليه فإن الفاسق بأذى شبة يتخلع عن الدين فإن ذلك يحمل عنه الحجر ويرفع السد الذي بينه وبين الملاذ فلا يحرص على إزالة الشبهة بل يقتنصها ليتخلص من أعباء التكليف فيكون ما يفسده مثل هذا المتعلم أكثر مما يصلحه . وإذا عرفت هذه الانقسامات اتضح لك أن هذه الحجة المحمودة في الكلام إنما هي من جنس صحيح القرآن من الكلمات اللطيفة المؤثرة في القلوب المقنعة للنفوس دون التفاضل في التفسيات والتدقيقات التي لا يفهمها أكثر الناس وإذا فهموها اعتقدوا أنها شعوذة وصناعة تعلمها صاحبها للتبليس ، فإذا قابله مثله في الصنعة قومه . وعرفت أن الشافعي وكافة السلف إنما منعوا عن الخوض فيه والتجرد له لما فيه من الضرر الذي نهينا عليه . وأن ما نقل عن ابن عباس رضي الله عنهما من مناظرة الخوارج وما نقل عن علي رضي الله عنه من المناظرة في القدر وغيره كان من الكلام الجلي الظاهر وفي محل الحاجة وذلك محمود في كل حال . نعم قد تختلف الأعصار في كثرة الحاجة وقتها فلا يبعد أن يختلف الحكم لذلك فهذا حكم العقيدة التي تعبد الخلق بها وحكم طريق التضلل عنها وحفظها فأما إزالة الشبهة وكشف الحقائق ومعرفة الأشياء على ما هي عليه وإدراك الأسرار التي يترجمها ظاهر أفاضل هذه العقيدة فلا مفتاح له إلا المجاهدة وقمع الشهوات والإقبال بالسكينة على الله تعالى وملازمة الفكر الصافي عن شوائب المجادلات وهي رحمة من الله عز وجل تفيض على من يتعرض لتفحصها بقدر الرزق وبحسب التعرض وبحسب قبول المحل وطهارة القلب وذلك البحر الذي لا يدرك غوره ولا يبلغ ساحله .

(مسألة) فإن قلت : هذا الكلام يشير إلى أن هذه العلوم لها ظواهر وأسرار وبعضها جل يبدو أولاً وبعضها خفي ينعض بالمجاهدة والريضة والطلب الحديث والفكر الصافي والسر الخالي عن كل شيء من أشغال الدنيا سوى المطلوب وهذا يكاد يكون عقالاً للشرع إذ ليس للشرع ظاهراً وباطناً ورسراً وعان بل الظاهر والباطن والسر والعلن واحد فيه ؟

فاعلم أن انقسام هذه العلوم إلى خفية وجلية لا يشكرها ذو بصيرة وإنما يشكرها الفاسرون الذين تلقفوا في أوائل الصبا شيئاً وجمدوا عليه فلم يكن لهم ترق إلى شأو العلاء ومقامات العلاء والأولياء وذلك ظاهر من أدلة الشرع قال صلى الله عليه وسلم « إن للقرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلقاً » (١) وقال علي رضي الله عنه - وأشار إلى صدره - إن منها علوماً جمة لو وجدت لها حلة . وقال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « ما حدث أحد قوماً بحديث لم يبلغه عقولهم إلا كان فتنة عليهم » (٣) وقال الله تعالى ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ وقال

- (١) حديث « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ... الحديث » أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بنحوه
- (٢) حديث « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم ... الحديث » تقدم في العلم
- (٣) حديث « ما حدث أحد قوماً بحديث لم يبلغه عقولهم ... الحديث » تقدم في العلم

صلى الله عليه وسلم « إن من العلم كهيئة المسكون لا يعلمه إلا المالمون بالله تعالى<sup>(١)</sup> » الحديث إلى آخره كما أوردناه في كتاب العلم . وقال صلى الله عليه وسلم : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً<sup>(٢)</sup> » فليت شعري إن لم يكن ذلك سرّاً منع من إفشائه لقصور الأفهام عن إدراكه ، أو لحفي آخر فلم لم يذكره لهم ، ولا شك أنهم كانوا يصدقونه لو ذكره لهم ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنه عنهما في قوله عز وجل ﴿ الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ، يتنزل الأمر بينهن ﴾ لو ذكرت تفسيره لرجعتموني . وفي لفظ آخر : لقلمت إنه كافر . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاءين ، أما أحدهما فبثته ، وأما الآخر لو بثته لقطع هذا الخلق . وقال صلى الله عليه وسلم « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بسر وقر في صدره<sup>(٣)</sup> » رضي الله عنه ، ولا شك في أن ذلك السر كان متعلقاً بقواعد الدين غير خارج منها ، وما كان من قواعد الدين لم يكن خافياً بطواهه على غيره . وقال سهل التستري رضي الله عنه : للعالم ثلاثة علوم : علم ظاهر يبذله لأهل الظاهر ، وعلم باطن لا يسهه إظهاره إلا لأهله ، وعلم هو بينه وبين الله تعالى لا يظهره لأحد . وقال بعض العارفين : إفشاء سر الربوبية كفر . وقال بعضهم : للربوبية سر لو أظهر لبطلت النبوة ، والنبوة سر لو كشف لبطل العلم ، والعلم بالله سر لو أظهره لبطلت الأحكام ، وهذا القائل إن لم يرد بذلك بطلان النبوة في حق الضعفاء لقصور فهمهم فا ذكره ليس بحق بل الصحيح أنه لا تناقض فيه ، وأن الكامل لا يبطيء نور معرفته نور ورعه ، وملاك الودع النبوة .

(سألة) فإن قلت : هذه الآيات والأخبار يتطرق إليها تأويلات فبين لنا كيفية اختلاف الظاهر والباطن فإن الباطن إن كان مناقضاً للظاهر ففيه إبطال الشرع ، وهو قول من قال : إن الحقيقة خلاف الشريعة وهو كفر لأن الشريعة عبارة عن الظاهر ، والحقيقة عبارة عن الباطن وإن كان لا يناقضه ولا يخالفه فهو هيزول به الانقسام ولا يكون للشرع سر لا يفشى بل يكون الخفي والجلي واحداً ؟

فاعلم أن هذا السؤال يحرك خطباً عظيماً ، وينجر إلى علوم المكاشفة ويخرج عن مقصود علم المعاملة ، وهو غرض هذه الكتب ، فإن المقائد التي ذكرناها من أعمال القلوب وقد تعبدنا بتلقيها بالقبول والتصديق بعقد القلب عليها لا بأن يتوصل إلى أن ينكشف لنا حقائقها فإن ذلك لم يكلف به كافة الخلق ، ولولا أنه من الأعمال لما أوردناه في هذا الكتاب ، ولولا أنه عمل ظاهر القلب لأعمل بباطنه لما أوردناه في السطر الأول من الكتاب ، وإما الكشف الحقيقي هو صفة سر القلب وباطنه ولكن إذا انجر الكلام إلى تحريك خيال في مناقضة الظاهر فلا بد من كلام وجيز في حله . فن قال : إن الحقيقة تعالف الشريعة ، أو الباطن يناقض الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان ، بل الأسرار التي يختص بها المقربون يدركها ولا يشاركهم إلا كثرون في علمها ويمتنعون عن إفشائها إليهم ترجع إلى خمسة أقسام :

القسم الأول : أن يكون الشيء في نفسه دقيقاً تكل أكثر الأفهام عن دركه فيختص بدركه الخواص وعلمهم أن لا يفشروه إلى غير أهل فيصير ذلك فتنة عليهم حيث تقصر أفهامهم عن الدرك وإخفاء سر الروح وكف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيانها<sup>(٤)</sup> من هذا القسم فإن حقيقة ما تكل الأفهام عن دركه وتقصر الأوهام عن تصور

(١) حديث « إن العلم كهيئة المسكون .. الحديث » تخدم في العلم

(٢) حديث « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً » أخرجه من حديث عائشة وأنس

(٣) حديث « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ... الحديث » تخدم في العلم

(٤) حديث « كف رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيان الروح » أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود حين سأله اليهود عن الروح قال « فأمسك النبي الله عليه وسلم فلم يرد عليهم شيئاً ... الحديث »

كنهه . ولا تظنن أن ذلك لم يكن مكشوفاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإن من لم يعرف الروح فكأنه لم يعرف نفسه ومن لم يعرف نفسه فكيف يعرف ربه سبحانه؟ ولا يبعد أن يكون ذلك مكشوفاً لبعض الأولياء والعلماء وإن لم يكونوا أنبياء . ولكنهم يتأدون بأداب الشرع فيسكتون عما سكت عنه بل في صفات الله عز وجل من الخفايا ما تقتصر أفهام الجاهل من دركه ولم يذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم منها إلا الظواهر للأفهام من العلم والقدرة وغيرهما حتى قهما الخلق بنوع مناسبة توهموها إلى علمهم وقدرتهم إذ كان لهم من الأوصاف ما يسمى علما وقدرة فيتوهمون ذلك بنوع مقايضة . ولو ذكر من صفاته ما ليس للخلق بما يناسبه بعض المناسبة شيء لم يفهموه ، بل لذة الجماع إذا ذكرت للهي أو العنين لم يفهمها إلا باعتبارها إلى لذة المعلوم الذي يدركه ولا يكون ذلك فهما على التحقيق والمخالفة بين علم الله تعالى وقدرته وعلم الخلق وقدرتهم أكثر من المخالفة بين لذة الجماع والأكل . وبالجملة فلا يدرك الإنسان إلا نفسه وصفات نفسه عما هي حاضرة له في الحال أو بما كانت له من قبل ثم بالمقايضة إليه يفهم ذلك لغيره ثم قد يصدق بأن بينهما تفاوتاً في الشرف والكمال فليس في قوة البشر إلا أن يثبت الله تعالى ما هو ثابت لنفسه من الفعل والعلم والقدرة وغيرها من الصفات مع التصديق بأن ذلك أكل وأشرف فيكون معظم تحريره على صفات نفسه لا على ما اختص الرب تعالى به من الجلال . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »<sup>(١)</sup> وليس المعنى : أني أعجز عن التعبير عما أدركته ، بل هو اعتراف بالقصور عن إدراك كنهه جلالة . ولذلك قال بعضهم : ما عرف الله بالحقيقة سوى الله عز وجل . وقال الصديق رضي الله عنه : الحمد لله الذي لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

ولتقتض بعض الكلام عن هذا المخط ، ولنرجع إلى الفرض ، وهو أن أحد الأقسام ما تكلل الأفهام عن إدراكه ومن علمته الروح ومن علمته بعض صفات الله تعالى . ولعل الإشارة إلى مثله في قوله صلى الله عليه وسلم : « إن لله سبحانه سبعين حجاً من نور ، لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره »<sup>(٢)</sup> .

القسم الثاني : من الخفيات التي تمتنع الأنبياء والصدّيقون عن ذكرها ما هو مفهوم في نفسه لا يكمل الفهم عنه ولكن ذكره بعض بأكثر المستمعين ولا يضر بالأنبياء والصدّيقين . وسر القدر الذي منع أهل العلم من إفشائه من هذا القسم . فلا يبعد أن يكون ذكر بعض الحقائق مضراً ببعض الخلق كما يضر ضوء الشمس الخفافيش وكما تضر رياح الورد بالجلجل . وكيف يبعد هذا وقلنا إن الكفر والزنا والمصاحي والشرور كله بقضاء الله تعالى وإرادته ومشيئته حتى في نفسه وقد أضر سماعه بقوله إذ أوم ذلك عندهم أنه دلاله على السقوط نقض الحكمة والرضا بالقبيح والظلم ؟ وقد ألد ابن الروادى وطائفة من المخنولين بمثل ذلك . وكذلك سر القدر لو أفشى لأوم عند أكثر الخلق عجزاً إذ تقتصر أفهامهم عن إدراك ما يزيل ذلك الوهم عنهم . ولو قال قائل : إن القيامة لو ذكر مقبالتها وأنها بعد ألف سنة أو أكثر أو أقل لكان مفهوماً ولكن لم يذكر لمصلحة العباد وخوفاً من الضرر فقل المدة لها بعيدة فيطول الأمد . وإذا استبطأت النفوس وقت العقاب قل أكثراتها ولعلها كانت قريبة في علم الله سبحانه ولو ذكرت لعظم الخوف وأعرض الناس عن الأعمال وخربت الدنيا ، فهذا المعنى لو اتجه وصح فيكون مثالا لهذا القسم .

(١) حديث « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » أخرجه مسلم من حديث عائشة أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك في سجوده (٢) حديث « إن لله سبعين حجاً من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره » أخرجه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة « بين الله وبين الملائكة الذين حول العرش سبعون حجاً من نور » وإسناده ضعيف . وفيه أيضاً من حديث أنس قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل هل ترى ربك ؟ قال إن بيني وبينه سبعين حجاً من نور » وفي الأكبر للطبراني من حديث سهل بن سعد « دون الله ألف حجاً من نور وظلمة » ولمسلم من حديث أبي موسى « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » وابن ماجه « شيء أدركه بصره »

القسم الثالث: أن يكون الشيء بحيث لو ذكر صريحا لفهم ولم يكن فيه ضرر ولكن يكفى عنه على سبيل الاستعارة والرمز ليكون وقعه في قلب المستمع أغلب وله مصلحة في أن يعظم وقت ذلك الأمر في قلبه . كما لو قال قائل : رأيت فلانا يقلد الدر في أعناق الخنازير ؟ فكفى به عن إفساد العلم ، وبث الحكمة إلى غير أهلها فالمستمع قد يسبق إلى فهمه ظاهر اللفظ . والمحقق إذا نظر وعلم أن ذلك الإنسان لم يكن معه در ولا كان في موضعه خنزير تفطن لدرك السر والباطن فينفاوت الناس في ذلك . ومن هذا قال الشاعر :

رجلان خياط وآخر حائك متقابلان على السالك الأعزل

لازال ينسج ذاك خرقة مدير ويخيط صاحبه ثياب القبيل

فإنه خبر عن سبب سماوى في الإقبال والإدبار برجلين صانعين وهذا النوع يرجع إلى التعبير عن المعنى بالصورة التي تضمن عين المعنى أو مثله ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « إن المسجد لينزوى من النخامة كما تنزوى الجملدة على النار » (١) وأنت ترى أن ساحة المسجد لا تنقبض بالنخامة ، ومعناه أن روح المسجد كونه معظما ورمى النخامة فيه تحقير له فيضاد معنى المسجدية مضادة النار لاتصال أجزاء الجملدة وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام أن يبول الله رأسه رأس حمار » (٢) وذلك من حيث الصورة لم يكن قط ولا يكون ، ولكن من حيث المعنى هو كائن إذ رأس الحمار لم يكن بحقيقته لكونه وشكله بل بخاصيته وهى البلاة والحق ، ومن رفع رأسه قبل الإمام فقد صار رأسه رأس حمار في معنى البلاة والحق وهو المقصود دون الشكل الذى هو قالب المعنى إذ من غاية الحق أن يجمع بين الاقتداء وبين التقدم فإتباعا متناقضان . ولما يعرف أن هذا السر على خلاف الظاهر إما بدليل عقلى أو شرعى ، أما العقلى فإن يكون عمله على الظاهر غير ممكن كقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » (٣) إذ لو قشنا عن قلوب المؤمنين فلم نجد فيها أصابع فعملها كناية عن القدرة التى هى سر الأصابع وروحها الحق ، وكفى بالأصابع عن القدرة لأن ذلك أعظم وقما في تفهم تمام الاقتدار . ومن هذا القبيل كنياته عن الاقتدار قوله تعالى ( إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ) فإن ظاهره متمتع إذ قوله « كن » إن كان خطابا للشيء قبل وجوده فهو محال إذ المعدوم لا يفهم الخطاب حتى يشمل وإن كان بعد الوجود فهو مستغن عن التكوين . ولكن لما كانت هذه الكناية أوقع في النفوس فى تفهم غاية الاقتدار عدل إليها .

وأما المدرك بالشرع فهو أن يكون إجراؤه على الظاهر ممكنا ولكنه يروى أنه أريد به غير الظاهر كما ورد في تفسير قوله تعالى ( أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها ) الآية وأن معنى الماء ههنا هو القرآن ومعنى الأودية هى القلوب وإن بعضها احتملت شيئا كثيرا وبعضها قليلا وبعضها لم يحتمل ، والربد مثل الكفر والنفاق فإنه وإن ظهر وطفا على رأس الماء فإنه لا يثبت والهداية التى تنفع الناس تمكك . وفى هذا القسم تعمق جماعة فأولوا ما ورد في الآخرة من الميزان والصراف وغيرهما وهو بدعة إذ لم ينقل ذلك بطريق الرواية وإجراؤه على الظاهر غير محال فيجب إجراؤه على الظاهر .

القسم الرابع : أن يدرك الإنسان الشيء جملة ثم يدركه تفصيلا بالتحقيق والنزق بأن يصير حالا ملايسا له فينفاوت العبادان ويكون الأول كالقشر والثانى كاللباب ، والأول كالظاهر والثانى كالباطن وذلك كما يشمل للانسان

(١) حديث « إن المسجد لينزوى من النخامة ... » ولم أجده أصلا

(٢) حديث « أما يخشى الذى يرفع رأسه قبل الإمام ... الحديث » أخرجه من حديث أبى هريرة

(٣) حديث « قلب العبد بين أصبعين من أصابع الرحمن » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن عمرو

في عينه شخص في الظلة أو على البعد فيحصل له نوع علم فإذا رآه بالقرب أو بعد زوال الظلام أدرك تفرقة بينهما ، ولا يكون الأخير عند الأول بل هو استكمال له . فكذلك العلم والإيمان والتصديق ، إذ قد يصدق الإنسان بوجود العشق والمرض والموت قبل وقوعه ولكن تحققه به عند الوقوع أكمل من تحققه قبل الوقوع بل للإنسان في الشهوة والعشق وسائر الأحوال ثلاثة أحوال متفاوتة وإدراكات متباينة ، الأول : تصديقه بوجوده قبل وقوعه ، والثاني : عند وقوعه ، والثالث : بعد تضرعه . فإن تحققك بالجوهر بعد زواله يخالف التحقيق به قبل الزوال وكذلك من علوم الدين ما يصير ذوقاً فيشكل فيكون ذلك كالباطن بالإضافة إلى ما قبل ذلك ، ففرق بين علم المريض بالصحة وبين علم الصحيح بها . ففي هذه الأقسام الأربعة تفاوت الخلق وليس في شيء منها باطن يناقض الظاهر بل يتممه وبكماله كما يتمم القلب الفطر والسلام .

الخامس : أن يميز بلسان المقال عن لسان الحال فالقاصر الفهم يقف على الظاهر ويستعده نطقاً ، والبصير بالحقائق يدرك السر فيه وهذا كقول القائل : قال الجدار للوثة : لم تشقني ؟ قال : سل من يدقني فلم يتركني ورأى الحجر الذي ورأى ؟ فهذا تعبير عن لسان الحال بلسان المقال ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين ﴾ فالبليد يفتقر في فهمه إلى أن يقدر لها حياة وعقلاً وفهماً للخطاب وخطاباً هو صوت وحرف نسمعه السماء والأرض فتجيبان بحرف وصوت وتقولان ﴿ أتينا طائعين ﴾ والبصير يعلم أن ذلك لسان الحال وأنه إناء عن كونهما مستخترتين بالضرورة ومضطررتين إلى التسخير ، ومن هذا قوله تعالى ﴿ وإن من شيء إلا يسبح بحمده ﴾ فالبليد يفتقر فيه إلى أن يقدر للعبادات حياة وعقلاً ونطقاً بصوت وحرف حتى يقول « سبحان الله » ليتحقق تسبيحه . والبصير يعلم أنه ما أريد به تطلق اللسان بل كونه مسبحاً بوجوده ومقدساً بذاته وشاهداً بوحدة إية الله سبحانه كما يقال :

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وكما يقال : هذه الصنعة المحكمة تشهد لصانعها بحسن التدبير وكمال العلم لا بمعنى أنها تقول أشهد بالقول ولكن بالذات والحال ، وكذلك ما من شيء إلا وهو محتاج في نفسه إلى موجد يوجد ويقيه ويدبم أوصانه ويرده في أطواره فهو بحاجة يشهد لحالقه بالتقديس يدرك شهادته ذوو البصائر دون الجامدين على الظواهر . ولذلك قال تعالى ﴿ ولكن لا يفقهون تسبيحهم ﴾ وأما القاصرون فلا يفقهون أصلاً وأما المقربون والعلماء الراسخون فلا يفقهون كنهه وكاله إذ لكل شيء شهادات شتى على تقديس الله سبحانه وتسبيحه ، ويدرك كل واحد بقدر عقله وبصيرته ، وتعداد تلك الشهادات لا يليق بعلم المعاملة . فهذا الفن أيضاً مما يتفاوت أرباب الظواهر وأرباب البصائر في حله وتظهر به مفارقة الباطن الظاهر .

وفي هذا المقام لأرباب المقامات إصراف وإقتصاد فنصرف في رفع الظواهر انتهى إلى تبيين جميع الظواهر والبراهين أو أكثرها حتى حلوا قوله تعالى ﴿ وتسكننا أيديهم وتشهد أرجلهم ﴾ وقوله تعالى ﴿ وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ﴾ وكذلك المخاطبات التي تجري من منكر ونكير وفي الميزان والصراط والحساب ومناظرات أهل النار وأهل الجنة في قولهم ﴿ أقبضوا علينا من الماء أو عما رزقكم الله ﴾ زعموا أن ذلك كله بلسان الحال ، وغلا آخرون في حسم الباب منهم أحد بن حنبل رضى الله عنه حتى منع تأويل قوله ﴿ كن فيكون ﴾ وزعموا أن ذلك خطاب بحرف وصوت يوجد من الله تعالى في كل لحظة بعدد كون كل مكون حتى سميت ببعض أصحابه يقول : إنه حسم باب التأويل إلا ثلاثة ألفاظ قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود يمين الله في

أرضه (١) « وقوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصابع الرحمن » وقوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « إني لأجد نفس الرحمن من جانب العين (٢) » ومال إلى حسم الباب أرباب الظواهر . والظن بأحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه علم أن الاستواء لبس هو الاستقرار الكزول ليس هو الانتقال ولكنه منع من التأويل حسم الباب ورعاية لصلاح الخلق . فإنه إذا فتح الباب اتسع الخرق وخرج الأمر عن الضبط وجاوز حد الاقتصاد إذ حد ماجاوز الاقتصاد لا يضبط فلا بأس بهذا الزجر ويشهد له سيرة السلف فإنهم كانوا يقولون : أمرها كما جاءت ، حتى قال مالك رحمه الله لما سئل عن الاستواء : الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

ودعيت طائفة إلى الاقتصاد وفتحوا باب التأويل في كل مايتعلق بصفات الله سبحانه وتركوا مايتعلق بالآخرة على ظواهرها ومنعوا من التأويل فيه وهم الأشعرية . وزاد المعتزلة عليهم حتى أولوا من صفاته تعالى الرؤية وأولوا كونه سمياً بصيراً وأولوا المراج وزعموا أنه لم يكن بالجسد وأولوا عذاب القبر والميزان والصراط وجملة من أحكام الآخرة ، ولكن أفرأ بحشر الأجساد وبالجنة واشتغالها على المأكولات والمشروبات والمنكوحات والملاذ المحسوسة ، وبالنار واشتغالها على جسم محسوس يحرق الجلود ويذيب الشحوم . ومن تركهم إلى هذا الحد زاد الفلاسفة فأولوا كل ماورد في الآخرة وردوه إلى آلام عقلية وروحانية ولذات عقلية وأنكروا حشر الأجساد وقالوا ببقاء النفوس وأنها تكون إما معذبة ولما منعمة بعذاب ونعم لا يدرك بالحس وهؤلاء هم السرفون . وحده الاقتصاد بين هذا الانحلال كله وبين جمود الخنابة دقيق غامض لا يطلع عليه إلا الموفقون الذين يدركون الأمور بنور إلهي لا بالسباح ، ثم إذا انكشف لهم أسرار الأمور على ما هي عليه نظروا إلى السمع والألفاظ الواردة فسا وافق مايشهده بنور اليقين قررره وما خالف أولوه . فاما من يأخذ معرفة هذه الأمور من السمع المجرد فلا يستقر له فيها قدم ولا يتعين له موقف . والالاق بالمقتصر على السمع المجرد : مقام أحمد بن حنبل رحمه الله . والآن فكشف الغطاء عن حد الاقتصاد في هذه الأمور داخل في علم المكشوفة والقول فيه يطول فلا نتوسع فيه ، والغرض بيان موافقة الباطن والظاهر وأنه غير مخالف له فقد انكشف بهذه الأقسام الخمسة أمور كثيرة . وإذا رأينا أن نقصر بكافة العوام على ترجمة العقيدة التي سررناها وأنهم لا يكلفون غير ذلك في الدرجة الأولى إلا إذا كان خوف تشويش لشيوع البدعة فهرق في الدرجة الثانية إلى عقيدة فيها لواضع من الأدلة مختصرة من غير تعمق فلتنورد في هذا الكتاب تلك اللوامع ولتقتصر فيها على ما حذرناه لأهل القدس وسميئناه « الرسالة القدسية في قواعد العقائد » وهي موضوعة في هذا الفصل الثالث من هذا الكتاب .

### الفصل الثالث

من كتاب قواعد العقائد في لواضع الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدسي فنقول

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ميز عصابة السنة بأنوار اليقين وآثر رطط الحق بالهداية إلى دعائم الدين وجنهم زيغ الرافقين وحلال الملهدين ووقفهم للاقتداء بسيد المرسلين وسددهم للتأمل بصحبه الأكرمين ويسر لهم اقتفاء آثار السلف

(١) حديث « الحجر عيني الله في الأرض » أخرجه الحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمر

(٢) حديث « إني لأجد نفس الرحمن من جانب العين » أخرجه أحمد من حديث قال فيه « وأجد نفس ربكم من قبل العين » ورجاله ثقات .



الصالحين حتى اعتصموا من مقتضيات العقول بالحيل المتين ومن سِر الأولين وعقائدهم بالمنهج المبين ، لجمعوا بالقبول بين نتائج العقول وقضايا الشرع المنقول ، وتحققوا أن النطق بما تعبدوا به من قول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ليس له طائل ولا حصول إن لم تتحقق الإحاطة بما تدور عليه هذه الشهادة من الاقطاب والأصول ، وعرفوا أن كلتي الشهادة على إيجازها تتضمن إثبات ذات الإله وإثبات صفاته وإثبات أفعاله وإثبات صدق الرسول ، وعلوا أن بناء الإيمان على هذه الأركان وهي أربعة ويدور كل ركن منها على عشرة أصول :

( الركن الأول ) في معرفة ذات الله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي العلم بوجود الله تعالى وقدمه وبقائه وأنه ليس بجهول ولا جسم ولا عرض وأنه سبحانه ليس عتصا بجهة ولا مستقراً على مكان وأنه واحد .

( الركن الثاني ) في صفاته ويشتمل على عشرة أصول : وهو العلم بكونه حياً عالماً قادراً مريداً سميعاً بصيراً متكبلاً منها عن حلول الحوادث وأنه قديم الكلام والعلم والإرادة .

( الركن الثالث ) في أفعاله تعالى ومداره على عشرة أصول : وهي أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى وأنها مكتسبة للعباد وأنها مرادة لله تعالى وأنه مفضل بالخلق والاختراع وأن له تعالى تكليف مالا يطاق ، وأن له إيلام البريء ولا يجب عليه رعاية الأصح ، وأنه لا واجب إلا بالشرع وأن بعث الأنبياء جائز وأن نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ثابتة مؤكدة بالمعجزة .

( الركن الرابع ) في السمعيات ومداره على عشرة أصول : وهي إثبات الحشر والنشر وسؤال منكر ونكير وعذاب القبر والميزان والصراف وخاق الجنة والنار وأحكام الإمامة وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم وشروط الإمامة .

### فأما الركن الأول من أركان الإيمان : في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى

وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول

( الأصل الأول ) معرفة وجوده تعالى وأول ما يستعاض به من الأنوار ويسلك من طريق الاعتبار ما أرشد إليه القرآن فليس بعد بيان الله سبحانه بيان وقد قال تعالى ﴿ ألم يجعل الأرض مهاداً للجبال وأوتاداً وخلقناكم أزواجاً وجعلنا نومكم سباتاً وجعلنا الليل لباساً وجعلنا النهار معاشاً وبنينا فوقكم سيعاً شداداً وجعلنا سراجاً وهاجاً وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً لنخرج به حياً ونباتاً وجنات ألفافاً ﴾ وقال تعالى ﴿ إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾ وقال تعالى ﴿ ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجاً والله ابتكركم من الأرض نباتاً ثم يعيدكم فيها ويخرجهن لإخراجاً ﴾ وقال تعالى ﴿ أفرأيتم ماتموتون انتم تخلقونه أم نحن الخالقون ﴾ إلى قوله ﴿ للفقير ﴾ فليس يعني على من معه أدنى مسكة من عقل إذا تأمل بأدنى فكرة مضمون هذه الآيات وأدار نظره على مجانب خلق الله في الأرض والسموات وبدائع فطرة الحيوان والنبات أن هذا الأمر العجيب والترتيب المحكم لا يستغنى عن صانع يدره وفاعل يحكمه ويقدره ؛ بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقبورة تحت تسخيرها ومصرفة بمقتضى تدبيره . ولذلك قال الله تعالى ﴿ أنى الله شك فاطر السموات والأرض ﴾ ولهذا بعث الأنبياء صلوات الله عليهم لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا « لا إله إلا الله » وما أمروا أن يقولوا لنا إله وللإله إله . فإن ذلك كان مجبولا في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفي عتقون شياهم . ولذلك قال عز وجل ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله وقال تعالى فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي

فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم) فإذا في فطرة الإنسان وشواهد القرآن ما ينفى عن إقامة البرهان ولكننا على سبيل الاستظهار والاعتداء بالعباء النظار نقول : من بداية العقول أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب محدثه ، والعالم حادث فإذا لا يستغنى في حدوثه عن سبب أما قولنا « أن الحادث لا يستغنى في حدوثه عن سبب » لجلي فإن كل حادث مختص بوقت يجوز في العقل تقدير تقديمه وتأخيره باختصاصه بوقته دون ما قبله وما بعده فيفتقر بالضرورة إلى المخصص . وأما قولنا « العالم حادث » فبرهانه أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة والسكون وهما حادثان وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ففي البرهان ثلاث دعاوى ؛ الأولى : قولنا « إن الأجسام لا تخلو عن الحركة والسكون » وهذه مدركة بالبدية والاضطرار فلا يحتاج فيها إلى تأمل وافكار فإن من عقل جسيماً لا ساكناً ولا متحركاً كان ثلث الجهل ركباً وعن نهج العقل ناكياً . الثانية : قولنا « لئنهما حادثان » ويدل على ذلك تعاقبهما ووجود البعض منهما بعد البعض وذلك مشاهد في جميع الأجسام ماشوهد منها وما لم يشاهد فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته وما من متحرك إلا والعقل قاض بجواز سكونه فالعاري منهما حادث لطريانه والسابق حادث لعدمه ، لأنه لو ثبت قدمه لاستحال عدمه - على ما سيأتى بيانه وبرهانه في إثبات بقاء الصانع تعالى وتقدس . الثالثة : قولنا « ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث » وبرهانه أنه لو لم يكن كذلك لكان قبل كل حادث حوادث لا أول لها ولو لم تنقض تلك الحوادث بمحملها لا تنهى التوبة إلى وجود الحادث الحاضر في الحال وانقضاء ما لا نهاية له محلها ولأنه لو كان للفلك دورات لا نهاية لها لكان لا يخلو عددها عن أن تكون شفعاً أو وترأ أو شفعاً وترأ جميعاً أو لا شفعاً ولا وترأ ، ومحال أن تكون شفعاً وترأ جميعاً أو لا شفعاً ولا وترأ . فان ذلك جمع بين التني والاثبات إذ في إثبات أحدهما نفي الآخر وفي نفي أحدهما إثبات الآخر . ومحال أن يكون شفعاً لأن الشفع يصير وترأ بزيادة واحد . وكيف يجوز ما لا نهاية له : واحد ؟ ومحال أن يكون وترأ إذ الوتر يصير شفعاً بواحد فكيف يجوز ما واحد مع أنه لا نهاية لأعدادها . ومحال أن يكون لا شفعاً ولا وترأ إذ لا نهاية . فحصل من هذا العالم لا يخلو عن الحوادث فهو إذن حادث . وإذا ثبت حدوثه كان اقتضاه إلى المحدث من المدركات بالضرورة .

( الأصل الثاني ) العلم بأن الله تعالى قديم لم يزل ، أول ليس لوجوده أول بل هو أول كل شيء وقبل كل ميت وحى . وبرهانه أنه لو كان حادثاً ولم يكن قديماً لافتقر هو أيضاً إلى محدث واقتصر محدثه إلى محدث وتسلسل ذلك إلى ما لا نهاية ، وما تسلسل لم يتحصل أو ينتهى إلى محدث قديم هو الأول وذلك هو المطلوب الذى سميناه صانع العالم ومبدئه وبارئ ومحدثه ومبدعه .

( الأصل الثالث ) العلم بأنه تعالى مع كونه أبدياً أزلياً ليس لوجوده آخر فهو الأول والآخر والظاهر والباطن لأن ما ثبت قدمه استحالة عدمه ، وبرهانه أنه لو انعدم لكان لا يخلو إما أن ينعدم بنفسه أو بعدم بضاده ولو جاز أن ينعدم شيء يتصور دوامه لجاز أن يوجد شيء يتصور عدمه بنفسه ، فكما يحتاج طريان الوجود إلى سبب فكذلك يحتاج طريان العلم إلى سبب . وباطل أن ينعدم بعدم بضاده لأن ذلك المعدم لو كان قديماً لما تصور الوجود معه . وقد ظهر بالأمسين السابقين وجوده وقدمه فكيف كان وجوده في القدم ومعه ضده ؟ فإن كان الضد المعدم حادثاً كان محالاً ، إذ ليس الحادث في مضاده للتقديم حتى يقطع وجوده بأولى من التقديم في مضاده للحادث حتى يدفع وجوده ، بل الدفع أمون من القطع والتقديم أقوى وأولى من الحادث .

( الأصل الرابع ) العلم بأنه تعالى ليس بجهوهر يتجزى بل تعالى ويتقدس عن مناسية الجيز . وبرهانه أن كل جهوهر متجزى فهو مختص بجيزه ولا يخلو من أن يكون ساكناً فيه أو متحركاً عنه ، فلا يخلو عن الحركة أو السكون

وما حادثان . وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . ولو تصور جوهر متجزئ قديم لسكان يعقل قدم جواهر العالم فإن سماء مسم جوهرا ولم يرد به المتجزئ كان غلطاً من حيث اللفظ لا من حيث المعنى .

( الأصل الخامس ) العلم بأنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر . إذ الجسم عبارة عن المؤلف من الجواهر . وإذا بطل كونه جوهرًا خصوصاً بغير بطل كونه جسماً لأن كل جسم مختص بجزء ومركب من جواهر فالجوهر يستحيل خلوه عن الافتراق والاجتماع والحركة والسكون والهيئة والمقدار وهذه سمات الحدوث ، ولو جاز أن صانع العالم جسم لجاز أن يعتقد الإلهية للشمس والقمر أو شيء آخر من أقسام الأجسام . فإن تجانس متجاسر على تسميته تعالى جسماً من غير إرادة التأليف من الجواهر كان ذلك غلطاً في الإصافة في نفي معنى الجسم .

( الأصل السادس ) العلم بأنه تعالى ليس بمرض قائم بجسم أو حال في محل لأن العرض ما يحل في الجسم . فكل جسم فهو حادث لا محالة ويكون محدثه موجوداً قبله . فكيف يكون حالاً في الجسم وقد كان موجوداً في الأزل وحده وما معه غيره ، ثم أحدث الأجسام والأعراض بعده ؟ ولأنه عالم قادر مريد خالق - كاسيأتى بيانه - وهذه الأوصاف تستحيل على الأعراض بل لا تمحل إلا لوجود قائم بنفسه مستقل بذاته . وقد تحصل من هذه الأصول أنه موجود قائم بنفسه ليس بجوهر ولا جسم ولا عرض . وأن العالم كله جواهر وأعراض وأجسام فإذا لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء . بل هو المحي القيوم الذي ليس كمثل شيء وأنى يشبه المخلوق خالقه والمقدور ومقدره والمصور ومصوره . والأجسام والأعراض كلها من خلقه وصنعه فاستعمال القضاء عليها بمائلته ومثابته .

( الأصل السابع ) العلم بأن الله تعالى منزّه الذات عن الاختصاص بالجهات فإن الجهة إما فوق وإما أسفل وإما عين وإما شمال أو قدام أو خلف ، وهذا الجهات هو الذي خلقها وأحدثها بواسطة خلق الإنسان إذ خلق له طرفين أحدهما يعتمد على الأرض ويسمى رجلاً والآخر يقابله ويسمى رأساً . فحدث اسم الفوق لما يلي جهة الرأس واسم السفلى لما يلي جهة الرجل حتى أن النملة التي منكسة تحت السقف تتقلب جهة الفوق في حقاها تحتاً وإن كان في حقاها فوقاً وخلق للإنسان اليدين وإحدهما أقوى من الأخرى في الغالب فحدث اسم اليمن للأقوى واسم الشمال لما يقابله . وتسمى الجهة التي تلي اليمن يميناً والأخرى شمالاً ، وخلق له جانبتين يصير من أحدهما ويتحرك إليه فحدث اسم القدام للجهة التي يتقدم إليها بالحركة واسم الخلف لما يقابله ، فالجهات حادثة بحدوث الإنسان ولو لم يخلق الإنسان هذه الخلقة بل خلق مستديراً كالكرة لم يكن لهذه الجهات وجود البتة . فكيف كان في الأزل مختصاً بجهة والجهة حادثة ؟ وكيف كان صار مختصاً بجهة بعد أن لم يكن له ؟ أبأن خلق العالم فهو يتعالى عن أن يكون له فوق إذ تعالى أن يكون له رأس والفوق عبارة عما جهة الرأس أو خلق العالم تحته فتعالى عن أن يكون له تحت إذ تعالى عن أن يكون له رجل والتحت عبارة عما يلي جهة الرجل ، وكل ذلك بما يستحيل في العقل ولأن المقول من كونه مختصاً بجهة أنه مختص بغير اختصاص الجواهر أو مختص بالجواهر اختصاص المرض وقد ظهر استحالة كونه جوهرًا أو عرضاً . فاستحال كونه مختصاً بالجهة . وإن أريد بالجهة غير هذين المعنيين كان غلطاً في الإسم مع المساعدة على المعنى ولأنه لو كان فوق العالم لكان محاذياً له ، وكل محاذ لجسم فإما أن يكون مثله أو أصغر منه أو أكبر وكل ذلك تقدير محوج بالضرورة إلى مقدر ويتعالى عنه الخالق الواحد المدير . فأما رفع الأيدي عند السؤال إلى جهة السماء فهو لأنها قبله السماء . وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال والكبرياء تنبيهاً بقصد جهة الملو على صفة الحمد والعلاء فإنه تعالى فوق كل موجود بالقهر والاستيلاء .

( الأصل الثامن ) العلم بأن الله تعالى مستو على عرشه بالمعنى الذي أراد الله تعالى بالاستواء وهو الذي لا ينافي وصف الكبرياء ولا يتطرق إليه سمات الحدوث والفناء وهو الذي أريد بالاستواء إلى السماء حيث قال في القرآن

(ثم استوى إلى السماء وهي دخان) وليس ذلك إلا بطريق القهر والاستيلاء كما قال الشاعر :

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مبرق

وانضط أهل الحق إلى هذا التأويل كما انضط أهل الباطن إلى تأويل قوله تعالى (وهو معكم أينما كنتم) إذ حمل ذلك بالاتفاق على الإحاطة والعلم . وحل قوله صلى الله عليه وسلم « قلب المؤمن بين أصبع الرحمن » على القدرة والقهر . وحل قوله صلى الله عليه وسلم « الحجر الأسود بين الله في أرضه » على التشريف والإكرام لأنه لو ترك على ظاهره للزم منه الخال فكذلك الاستواء لو ترك على الاستقرار والتحكم لزم منه كون المتحكم جسمًا محاسًا للعرش إما مثله أو أصغر وذلك محال . وما يؤدي إلى الخال فهو محال

(الاصل التاسع) العلم بأنه تعالى مع كونه منزها عن الصورة والمقدار مقدسا عن الجهات والأقطار مرقى بالأعين والأبصار في الدار الآخرة دار القرار لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) ولا يرى في الدنيا تصديقا لقوله عز وجل (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) ولقوله تعالى في خطاب موسى عليه السلام (إن تراني) وليست شعري كيف عرف المعتزلي من صفات رب الأرباب ما جله موسى عليه السلام ؟ وكيف سأل موسى عليه السلام الرؤية مع كونها محالا ؟ ولعل الجهل بذوى البدع والأهواء من الجهلة الأغبياء أولى من الجهل بالأنبياء صلوات الله عليهم . وأما وجه إجراء آية الرؤية على الظاهر فهو أنه غير مؤد إلى الخال فإن الرؤية نوع كشف وعلم إلا أنه أتم وأوضح من العلم فإذا جاز تعلق العلم به وليس في جهة جاز تعلق الرؤية به وليس بجهة : وكما يجوز أن يرى الله تعالى الخلق وليس في مقابلتهم جاز أن يراه الخلق من غير مقابلة . وكما جاز أن يعلم من غير كيفية وصورة جاز أن يرى كذلك .

(الاصل العاشر) العلم بأن الله عز وجل واحد لا شريك له فرد لا ندله انفرد بالخلق والإبداع واستبد بالإنجاد والاختراع لا مثل له يسامحه ويساويه ولا ضد له فينازعه وينابيه . وبرهانه قوله تعالى (لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا) وبیان أنه لو كان اثنين وأراد أحدهما فالثاني إن كان مضطرا إلى مساعدته كان هذا الثاني مقهورا عاجزا ولم يكن إلها قادرا ، وإن كان قادرا على مخالفته ومداقفته كان الثاني قويا قاهرا والأول ضعيفا قاصرا ولم يكن إلها قادرا .

## الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى

### ومداره على عشرة أصول

(الاصل الأول) العلم بأن صانع العالم قادر وأنه تعالى في قوله (وهو على كل شيء قدير) صادق لأن العالم محكم في صنعه مرتب في خلقته ومن رأى ثوبا من ديباج حسن النسج والتأليف متناسب التطريز والتعريف ثم توهم صدور نسجه عن ميت لاستطاعة له أو عن إنسان لأندرة له كان منخلعا عن غريزة العقل ومنخرطا في سلك أهل القباوة والجهل .

(الاصل الثاني) العلم بأنه تعالى عالم بجميع الموجودات ومحيط بكل المخلوقات (لا يهرب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء) صادق في قوله (وهو بكل شيء عليم) ومرشد إلى صدقه بقوله تعالى (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) أرشدك إلى الاستدلال بالخلق عن العلم بأنك لا تسترعب في دلالة الحق اللطيف والصنع المزين بالترتيب ولو في الشيء الحقير الضميف على علم الصانع بكيفية الترتيب والترصيف فما ذكره الله سبحانه هو المنتهى في الهداية والتعريف .

( الأصل الثالث ) العلم بكونه عز وجل حياً فإن من ثبت علمه وقدرته ثبت بالضرورة حياته ولو تصور قادر وعالم فاعل مدبر دون أن يكون حياً لجاز أن يشك في حياة الحيوانات عند ترددتها في الحركات والسكنات بل في حياة أرباب الحرف والصناعات وذلك انهماس في غمرة الجهالات والضلالات .

( الأصل الرابع ) العلم بكونه تعالى مريداً لأفعاله فلا موجود إلا وهو مستند إلى مشيئته وصادر عن إرادته فهو المبدئ المعيد والفعال لما يريد وكيف لا يكون مريداً وكل فعل صدر منه أمكن أن يصدر منه ضده ؟ وما لاحد له أمكن أن يصدر منه ذلك بعينه قبله أو بعده . والقدرة تناسب الضدين والوقتين مناسبة واحدة فلا بد من إرادة صارفة للقدرة إلى أحد المقدورين . ولو أغنى العلم عن الإرادة في تخصيص المعلوم حتى يقال إنما وجد في الوقت الذي سبق العلم بوجوده لجاز أن ينفي عن القدرة حتى يقال وجد بغير قدرة لأنه سبق العلم بوجوده فيه .

( الأصل الخامس ) العلم بأنه تعالى سميع بصير لا يعزب عن رؤيته هوائس الضمير وخفايا الوهم والتفكير ولا يثد عن سمعه صوت ديبب الخلة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء . وكيف لا يكون سميعاً بصيراً والسمع والبصر كالإحالة وليس ينقص ؟ فكيف يكون المخلوق أكمل من الخائق والمصنوع أسنى وأتم من الصانع ؟ وكيف تعتدل القسمة مهما وقع النقص في جهة والكمال في خلقه وصنمته أو كيف تستقيم حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم على أبيه إذ كان يعبد الأصنام جبلاً وغياً فقال له ﴿ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا ينفي عنك شيئاً ﴾ ولو انقلب ذلك عليه في معبوده لأضحت حجة داحضة ودلائله ساقطة ولم يصح قوله تعالى ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وكما عقل كونه فاعلاً بلا جارحة وذاً بلا قلب ودماع فليعقل كونه بصيراً بلا حدقة وسميعاً بلاذن إذ لا فرق بينهما .

( الأصل السادس ) أنه سبحانه وتعالى متكلم بكلام وهو وصف قائم بذاته ليس بصوت ولا حرف بل لا يشبه كلامه كلام غيره كما لا يشبه وجوده وجود غيره . والكلام بالحقيقة كلام النفس وإنما الأصوات قطعت حروفاً للدلالات كما يدل عليها تارة بالحركات والإشارات وكيف التبس هذا على طائفة من الأغبياء ولم يلتبس على جملة الشراء حيث قال قائلهم :

إن الكلام لبي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

ومن لم يعقله عقله ولا نهاء نهاء عن أن يقول : لسانى حادث ولكن ما يحدث فيه بقدرى الحادثة فديم ؛ فاقطع عن عقله طمعك وكف عن خطابه لسانك . ومن لم يفهم أن القديم عبارة عما ليس قبله شيء ، وأن الباء قبل السين في قولك بسم الله فلا يكون السين المتأخر عن الباء قديماً فنزه عن الالتفات إليه فليكن قلبك لله سبحانه سرف في إبعاد بعض العباد ﴿ ومن يضلل الله فإله من هاد ﴾ ومن استبعد أن يسمع موسى عليه السلام في الدنيا كلاماً ليس بصوت ولا حرف فليستشكر أن يرى في الآخرة موجوداً ليس بحجم ولا لون . وإن عقل أن يرى ما ليس بلون ولا حجم ولا قدر ولا كمية وهو إلى الآن لم ير غيره فليعقل في حاسة السمع ما عقله في حاسة البصر . وإن عقل أن يكون له علم واحد هو علم بجميع الموجودات فليعقل صفة واحدة للذات هو كلام بجميع ما دل عليه من المهارات . وإن عقل كون السموات السبع وكون الجنة والنار مكتوبة في ورقة صغيرة وعغوظة في مقدار ذرة من القلب وأن كل ذلك مرئي في مقدار عذمة من الحدة من غير أن تحمل ذات السموات والأرض والجنة والنار في الحدة والقلب والورقة فليعقل كون الكلام مقروءاً بالألسنة محفوظاً في القلوب مكتوباً في المصاحف من غير حلول ذات الكلام فيها إذ لو حللت بكتاب الله ذات الكلام في الورق لحل ذات الله تعالى بكتابة اسمه في الورق وحلت ذات النار بكتابة اسمها في الورق ولا حرق .

( الأصل السابع ) أن الكلام القائم بنفسه قديم وكذا جميع صفاته إذ يستحيل أن يكون عللاً للمحادث

داخلا تحت التغيير بل يجب للصفات من نعوت القدم ما يجب للذات فلا تعتبره التغيرات ولا تحله الحادثات بل لم يزل في قدمه موصوفا بمحامد الصفات ولا يزال في أبده كذلك منزها عن تغير الحالات لأن ما كان على الحوادث لا يخلو عنها وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث . وإنما ثبت نعت الحدوث للأجسام من حيث تعرضها للتغير وتقلب الأوصاف فكيف يكون خالفا مشاركا لها في قبول التغير ؟ وينبئ على هذا أن كلامه قديم قائم بذاته وإنما الحادث هي الأصوات الدالة عليه ، وكما عقل قيام طلب العلم وإرادته بذات الوالد الولد قبل أن يخلق ولده حتى إذا خلق ولده وعقل وخلق الله له علما متعلقا بما في قلب أبيه من الطلب صار مأمورا بذلك الطلب الذي قام بذات أبيه ودام وجوده إلى وقت معرفة ولده له فليعقل قيام الطلب الذي دل عليه قوله عز وجل ﴿اخلع نمائك﴾ بذات الله ومسير موسى عليه السلام مخاطبا به بعد وجوده إذا خلقت له معرفة بذلك الطلب وسمع لذلك الكلام القديم .

(الأصل الثامن) أن علمه قديم فلم يزل عالما بذاته وصفاته وما يحدثه من مخلوقاته . ومهما حدثت المخلوقات لم يحدث له علم بها بل حصلت مكشوفة له بالعلم الأزلي إذ لو خلق لنا علم به بقدم زيد عند طلوع الشمس ودام ذلك العلم تقديرا حتى طلعت الشمس لكان قدوم زيد عند طلوع الشمس معلوما لنا بذلك العلم من غير تجديد علم آخر . فهكذا ينبغي أن يفهم قدم علم الله تعالى .

(الأصل التاسع) أن إرادته قديمة وهي في القدم تعلقت بإحداث الحوادث في أوقاتها اللاتقطة بها على وفق سبق العلم الأزلي إذ لو كانت حادثة لصار على الحوادث ، ولو حدثت في غير ذاته لم يكن هو مريدا لها كما لا تكون أنت متحركا بحركة ليست في ذاتك وكيفها قدرت فيفتقر حدوثها إلى إرادة أخرى ، وكذلك الإرادة الأخرى تفقر إلى أخرى ويتسلسل الأمر إلى غير نهاية ، ولو جاز أن يحدث إرادة ينير إرادة لجاز أن يحدث العالم بغير إرادة .

(الأصل العاشر) أن الله تعالى عالم بعلم ، حتى بحياة ، قادر بقدرة ، ومريد بإرادة ، ومشكلم بكلام ، وسميع بسمع ، وبصير ببصر ، وله هذه الأوصاف من هذه الصفات القديمة . وقول القائل : عالم بلا علم ، كقوله : غني بلا مال ، وعلم بلا عالم وعالم بلا معلوم ، فإن العلم والمعلوم والعالم متلازمة كالقتل والمقتول والقاتل ، وكما لا يتصور قاتل بلا قتل ولا قاتل ولا يتصور قتيل بلا قاتل ولا قتل كذلك لا يتصور عالم بلا علم ولا علم بلا معلوم ولا معلوم بلا عالم بل هذه الثلاثة متلازمة في العقل لا تفك بعض منها عن البعض . فن يجوز انفكاك العالم عن العلم فليجوز انفكاكه عن المعلوم وانفكاك العلم عن العالم إذ لافرق بين هذه الأوصاف .

### الركن الثالث : العلم بأفعال الله تعالى ، ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) العلم بأن كل حادث في العالم فهو فعله وخلقه واختراعه لا خلق له سواء ولا يحدث له إلا إياه . خلق الخلق وصنهم وأوجد قدرتهم وحركتهم جميع أفعال عباد مخلوقة له ومتعلقة بقدرة تصديقا له في قوله تعالى ﴿الله خالق كل شيء﴾ وفي قوله تعالى ﴿والله خلقكم وما تبلون﴾ وفي قوله تعالى ﴿وأمرهم وأفعالهم وأسرارهم وإضرارهم لعلهم يحسدواهم﴾ واستدل العلم بالخلق ، وكيف لا يكون خالقا لفعل العبد وقدرته تامة لا قصور فيها وهي متعلقة بحركة أيدان العباد والحركات متائلة وتعلق القدرة بها لذاتها فالذي يقصر تعلقها عن بعض الحركات دون البعض مع تماثلها ؟ أو كيف يكون الحيوان مستبدا بالاختراع ويصدر عن المنكسبوت والنحل وسائر الحيوانات من لطائف الصناعات ما يصير فيه عقول ذوى الأبواب فكيف انقردت هي باختراعها دون الأبواب وهي غير عالمة بتفصيل ما يصدر منها من الاكتساب ؟ هيئات هيئات ! ذل المخلوقات وتفرد بالملك والملكوت جبار الأرض والسموات .

(الأصل الثاني) أن انفراد الله سبحانه باختراع حركات العباد لا يخرجها عن كونها مقدورة للعباد على حد بل لا اكتساب بل الله تعالى خلق القدرة والمقدور جميعاً وخلق الاختيار واختار جميعاً . فأما القدرة فوصف للعبد وخلق الرب سبحانه وليست بكسب له . وأما الحركة فخلق الرب تعالى ووصف للعبد وكسب له لأنها خلقت مقدورة بقدرة هي وصفه وكانت للحركة نسبة إلى صفة أخرى تسمى قدرة قلسمي باعتبار تلك النسبة كسباً ، وكيف تكون جبراً محضاً وهو بالضرورة يدرك التفرقة بين الحركة المقدورة والعدة الضرورية ؟ أو كيف يكون خلقاً للعبد وهو لا يحيط علماً بتفاصيل أجزاء الحركات المكتسبة وأعدادها . وإذا بطل الطرفان لم يبق إلا الاقتصاد في الاعتقاد وهو أنها مقدورة بقدرة الله تعالى اختراعاً وبقدرة العبد على وجه آخر من التعانق يعبر عنه باكتساب . وليس من ضرورة تعلق القدرة بالمقدور أن يكون بالاختراع فقط ؛ إذ قدرة الله تعالى في الأزل قد كانت متعلقة بالعالم ولم يكن الاختراع حاصلًا بها وهي عند الاختراع به نوعاً آخر من التعانق فيه يظهر أن تعلق القدرة ليس خصوصاً بمحصل المقدور بها .

(الأصل الثالث) أن فعل العبد وإن كان كسباً للعبد فلا يخرج عن كونه مراداً لله سبحانه . فلا يجري في الملك والمسلوك طرفه عين ولا لفظة خاطر ولا لفظة ناظر إلا بقضاء الله وقدرته وإرادته ومشيئته . ومنه الشر والخير والنفع والعسر والإسلام والكفر والعرقان والسكر والفوز والخمران والغواية والرشد والطاعة والعصيان والشرك والإيمان لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه يعزل من يشاء ويهدي من يشاء ﴿ لا يستل عسماً يفعل وهم يسألون ﴾ ويدل عليه من النقل قول الأئمة قاطبة « ماشاء كان ولم يشأ لم يكن » وقول الله عز وجل ﴿ أن لو يشاء الله لحدى الناس جميعاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ﴾ ويدل عليه من جهة العقل أن المعاصي والجرائم إن كان الله يكرها ولا يريد ما وإنما هي جارية على وفق إرادة العدو لإبليس لعنه الله مع أنه عدو لله سبحانه ، والجاري على وفق إرادة العدو أكثر من الجاري على وفق إرادته تعالى فليست شعري كيف يستعين المسلم أن يرد ملك الجبار ذي الجلال والإكرام إلى رتبة لو ردت إليها رياسة زعم ضيعة لاستنكف منها ؛ إذ لو كان ما يستمر لعدو الزعيم في القرية أكثر مما يستقيم له لاستنكف من زعامته وتبرأ عن ولايته . والمقصية هي الغالبة على الخلق وكل ذلك جار عند المجتدعة على خلاف إرادة الحق تعالى وهذا غاية الضعف والمعجز ، تعالى رب الآر باب عن قول الظالمين علواً كبيراً . ثم مهما ظهر أن أفعال العباد مخلوقة لله صح أنها مرادة له .

فإن قيل : فكيف ينهى عما يريد ويأمر بما لا يريد ؟

قلنا : الأمر غير الإرادة . ولذلك إذا ضرب السيد عبده فقام به السلطان عليه فاعتذر بتعذر عبده عليه فكذب السلطان - فأراد إظهار حجة بأن يأمر العبد بفعل ومخالفة بين يديه - فقال له : أسرج هذه الدابة بمشهد من السلطان ، فجز يأمره بما لا يريد أمثاله ، ولو لم يكن أمراً لما كان عذره عند السلطان مبهداً ، ولو كان مريداً لامثاله لكان مريداً لهلاك نفسه وهو محال .

(الأصل الرابع) أن الله تعالى متفضل بالخلق والاختراع ومتطول بتكليف العباد ولم يكن الخلق والتكليف واجباً عليه . وقالت المعتزلة وجب عليه ذلك لما فيه من مصلحة العباد وهو محال ؛ إذ هو الموجب والأمر والناهي وكيف يتهدد لإيجاب أو يتعرض للزوم وخطاب ؟ والمراد بالواجب أحد أمرين : إما الفعل الذي في تركه ضرر إما أجل ؛ كما يقال يجب على العبد أن يطيع الله حتى لا يعذبه في الآخرة بالنار ، أو ضرر عاجل ؛ كما يقال يجب على العطشان أن يشرب حتى لا يموت . ولما أن يراد به الذي يؤدي عدمه إلى محال كما يقال وجود المعلوم واجب إذ عدمه يؤدي إلى محال وهو أن يصير العلم جهلاً ، فإن أراد الخصم بأن الخلق واجب على الله بالمعنى الأول فقد عرضه

الضرر وإن أراد به المعنى الثاني فهو مسلم ؛ إذ بعد سبق العلم لابد من وجود المعلوم وإن أراد به معنى ثالثاً فهو غير مفهوم . وقوله ويجب لمصلحة عباده ، كلام فاسد فإنه إذا لم يتضرر بترك مصلحة العباد لم يكن للوجوب في حقه معنى . ثم إن مصلحة العباد في أن يخلفهم في الجنة فأما أن يخلفهم في دار البلاء ويعرضهم للخطايا ثم يهديهم لخطر العقاب وهول العرض والحساب فإ في ذلك عجلة عند ذوى الآليات .

(الأصل الخامس) أنه يجوز على الله سبحانه أن يكلف الخلق ما لا يطيقونه - خلافاً للمعتزلة - ولو لم يجر ذلك لاستحال سؤال دفعه وقد سأروا ذلك فقالوا ( ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به ) ولأن الله تعالى أخبر نبيه صلى الله عليه وسلم بأن أبا جهل لا يصدقه ، ثم أمره بأن يأمره بأن يصدقه في جميع أقواله وكان من جملة أقواله أنه لا يصدقه ، فكيف يصدقه في أنه لا يصدقه وهل هذا إلا محال وجوده ؟

(الأصل السادس) أن الله عز وجل لإيلاء الخلق وتعذيبهم من غير جرم سابق ومن غير ثواب لاحق - خلافاً للمعتزلة - لأنه متصرف في ملكه ، والظلم هو عباده عن التصرف في ملك الغير بغير إذنه وهو محال على الله تعالى فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً . وبدل على جواز ذلك وجوده فإن ذبح البهائم لإيلاء لها وما صب عليها من أنواع العذاب من جهة الأديين لم يتقدمها جرمية .

فإن قيل : إن الله تعالى يمحشرها ويجازيها على قدر ما قاست من الآلام ويجب ذلك على الله سبحانه ؟ فنقول : من زعم أنه يجب على الله إحياء كل نملة وطئت وكل بقعة عركت حتى يثيبها على آلامها فقد خرج عن الشرع والعقل ؛ إذ يقال وصف الثواب والحشر بكونه واجباً عليه إن كان المراد به أن يتضرر بتركه فهو محال ، وإن أريد به غيره فقد سبق أنه غير مفهوم إذ خرج عن المعاني المذكورة الواجب .

(الأصل السابع) أنه تعالى يفعل بعباده ما يشاء فلا يجب عليه رعاية الأصل لعباده لما ذكرناه من أنه لا يجب عليه سبحانه شيء بل لا يعقل في حقه الوجوب فإنه ( لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ) وليت شعري بما يجب المعتزلي في قوله : إن الأصل واجب عليه ؛ وهو أن يفرض مناظرة في الآخرة بين صبي وبين بالغ ما نأ مسلمين فإن الله سبحانه يزيد في درجات البالغ ويفضله على الصبي لأنه تعب بالإيمان والطاعات بعد البلوغ ، ويجب عليه ذلك - عند المعتزلي - فلو قال الصبي : يارب لم رفعت منزلة على فيقول : لأن بلغ واجتهد في الطاعات ، ويقول الصبي : أنت أمتي في الصبي فكان يجب عليك أن تدم حياتي حتى أبلغ فأجتهد ؛ فقد عدلت عن العدل في التفضل عليه بطول العمر له دوني فلم تفضله ؛ فيقول الله تعالى : لأنك لو بلغت لأشركت أو عصيت فكان الأصل لك الموت في الصبي - هذا عند المعتزلي عن الله عز وجل - وعند هذا ينادي الكفار من دركات لغوي ويقولون : يارب أما علمت أننا إذا بلغنا أشركنا فهنا أمتنا في الصبي فإننا رضينا بما دون منزلة الصبي المسلم ؟ فيأذا يجاب عن ذلك وهل يجب عند هذا الا القطع بأن الأمور الإلهية تتعالى بحكم الجلال عن أن توزن بميزان أهل الاعتزال ؟

فإن قيل : مهما قدر على رعاية الأصل لعباده ثم سلط عليهم أسباب العذاب كان ذلك قبيحاً لا يليق بالحكمة ؟ قلنا : القبيح ما لا يوافق الغرض حتى أنه قد يكون الشيء قبيحاً عند شخص حسناً عند غيره وإذا وافق غرض أحد هادون الآخر حتى يستقيم قتل الشخص أولياؤه ويستحسنه أعداؤه فإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض البارئ سبحانه فهو محال إذ لا غرض له فلا يتصور منه قبيح كما لا يتصور منه ظلم إذ لا يتصور منه التصرف في ملك الغير . وإن أريد بالقبيح ما لا يوافق غرض الغير فلم قلتم إن ذلك عليه محال ؟ وهل هذا إلا مجرد تشبه بخلافه ما قد فرضناه من عاصمة أهل النار ؟ أم الحكيم معناه العالم بمخافتات الأشياء القادر على أحكام فعلها على وفق إرادته وهذا من أين يوجب رعاية



الأصلح؟ وأما الحكم منا برأى الأصلح نظراً لنفسه ليستفيد به في الدنيا ثناء وفي الآخرة ثواباً، أو يدفع به عن نفسه آفة. وكل ذلك محال على الله سبحانه وتعالى.

(الأصل الثامن) أن معرفة الله سبحانه وطاعته واجبة بإيجاب الله سبحانه وتعالى وشرعه لا بالعقل - خلافاً للبعثرة - لأن العقل وإن أوجب الطاعة فلا يخلو إما أن يوجبها لغیر فائدة وهو محال فإن العقل لا يوجب اللعب، وإما أن يوجبها لفائدة وغرض وذلك لا يخلو إما أن يرجع إلى المعبود وذلك محال في حقه تعالى فإنه يتقدس عن الأغراض والفوائد، بل الكفر والإيمان والطاعة والمعصية في حقه تعالى سياتان، وإما أن يرجع ذلك إلى غرض العبد وهو أيضاً محال لأنه لا غرض له في الحال بل يتعب فيه وينصرف عن الشهوات لسببه، وليس في المسأل إلا الثواب والعقاب. ومن أين يعلم أن الله تعالى يثيب على المعصية والطاعة ولا يعاقب عليهما مع أن الطاعة والمعصية في حقه يتساويان، إذ ليس له إلى أحدهما ميل ولا به لأحدهما اختصاص وإنما عرف تمييز ذلك بالشرع. ولقد ذل من أخذ هذا من المقايسة بين الخالق والمخلوق حيث يفرق بين الشكر والكفران لما له من الارتياح والامتزاز والتلذذ بأحدهما دون الآخر.

فإن قيل: فإذا لم يجب النظر والمعرفة إلا بالشرع والشرع لا يستقر ما لم ينظر المكلف فيه، فلماذا قال المكلف لبي: إن العقل ليس يوجب على النظر، والشرع لا يثبت عندي إلا بالنظر، ولست أقدم على النظر، أدى ذلك إلى إلحاح النبي صلى الله عليه وسلم؟

قلنا: هذا يضاهي قول القائل الواقف في موضع من المواضع إن وراءك سبياً ضارباً فإن لم تبرح عن المكان قتلك، وإن التفت وراءك ونظرت عرفت صدق، فيقول الواقف لا يثبت صدقك ما لم ألتفت ورائي ولا ألتفت ورائي، ولا أنظر ما لم يثبت صدقك، فيدل هذا على حماقة هذا القائل وتهديده للهلك ولا ضرر فيه على المهدي المرشد، فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم يقول «إن وراءكم الموت ودونه السباح الضارية والثيران المخرقة إن لم تأخذوا منها حذركم وتعرفوا إلى صدق بالاتفات إلى معجرتي وإلا هلكتم». فن التفت عرف واحترق ونجا، ومن لم يلتفت وأصر هلك وتردى ولا ضرر على إن هلك الناس كلهم أجمعون، وإنما على البلاغ المبين «فالشرع يعرف وجود السباح الضارية بعد الموت، والعقل يفيد فهم كلامه والإحاطة بإمكان ما يقوله في المستقبل، والطبع يستحث على الحذر من الضرر، ومعنى كون الشيء واجباً أن في تركه ضرراً، ومعنى كون الشرع موجباً أنه معرف للضرر المتوقع فإن العقل لا يهتدي إلى التهديف للضرر بعد الموت عند اتباع الشهوات، فهذا معنى الشرع والعقل وتأثيرهما في تقدير الواجب، ولولا خوف العقاب على ترك ما أمر به لم يكن الوجوب ثابتاً، إذ لا معنى للواجب إلا ما يرتبط بتركه ضرر في الآخرة.

(الأصل التاسع) أنه ليس يستحيل بعثة الأنبياء عليهم السلام - خلافاً للبراهمة - حيث قالوا لا فائدة من بعثهم إذ في العقل مندوحة عنهم لأن العقل لا يهتدي إلى الأفعال المنجية في الآخرة كما لا يهتدي إلى الأدوية المفيدة للصحة، فحاجة الخلق إلى الأنبياء كحاجتهم إلى الأطباء، ولكن يعرف صدق الطبيب بالتجربة، ويعرف صدق النبي بالمعجزة.

(الأصل العاشر) أن الله سبحانه قد أرسل محمداً عليه السلام غاتماً للتبدين وناسخاً لما قبله من شرائع اليهود والنصارى والمسابيين، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة كانشقاق القمر<sup>(١)</sup> وتسييح الحصى<sup>(٢)</sup> وإنطاق العجاء<sup>(٣)</sup>

(١) حديث: انشقاق القمر، متفق عليه من حديث أنس وابن مسعود وابن عباس.

(٢) حديث «تسييح الحصى» أخرجه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي ذر، وقال صالح بن أبي الأخضر ليس بالحافظ والمحموط رواية رجل من بني سليم لم يسم عن أبي ذر.

(٣) حديث: إنطاق العجاء، أخرجه أحمد والبيهقي بإسناد صحيح من حديث يعلى بن مرة في البعير الذي شكك إلى النبي صلى الله عليه وسلم أهله، وقد ورد في كلام الضب والذئب والحجرة أحاديث رواها البيهقي في الدلائل.

وما تفجر بين أصابعه من الماء . ومن آياته الظاهرة التي تعدى بها - كافة العرب - القرآن العظيم فإنهم مع تمييزهم بالفصاحة والبلاغة تهدفوا لسيئه ونبيه وقتلوا وإخراجهم - كما أخبر الله عن وجيل - منهم ولم يقدروا على ممارضته بمثل القرآن ، إذ لم يكن في قدرة البشر الجمع بين جزالة القرآن ونظمه ، هذا مع ما فيه من أخبار الأولين مع كونه أمياً غير ممارس للكتب والإنباء عن القيب في أمور تحقق صدقه فيها في الاستقبال كقوله تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين حلقين رؤوسكم ومقصرين ﴾ وقوله ﴿ لم غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفلون في بضع سنين ﴾ ووجه دلالة المعجزة على صدق الرسل أن كل ما عجز عنه البشر لم يكن إلا فعلاً لله تعالى فهما كان مقروناً بتحدى النبي صلى الله عليه وسلم ينزل منزلة قوله « صدقت » وذلك مثل القائم بين يدى الملك المدعى على رعيته أنه رسول الملك إليهم فإنه مهما قال الملك إن كنت صادقاً فقم على سريرك ثلاثاً واقعد - على خلاف عادتك - ففعل الملك ذلك حصل للحاضرين علم ضروري بأن ذلك نازل منزلة قوله « صدقت » .

### الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه

ومداره على عشرة أصول

(الأصل الأول) الحشر والنشر (١) وقد ورد بهما الشرح وهو حق والتصديق بهما واجب لأنه في العقل يمكن ، ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء قال الله تعالى ﴿ قال من يحيى العظام وهي رميم قل يحياها الذى أنشأها أول مرة ﴾ فاستدل بالابتداء على الإعادة ، وقال عز وجل ﴿ ما خلقكم ولا بمحكم إلا كنفس واحدة ﴾ والإعادة ابتداء ثان فهو ممكن كالاتداء الأول .

(الأصل الثانى) سؤال منكرو ونكيري (٢) وقد وردت به الأخبار فيجب التصديق به لأنه يمكن إذ ليس يستدعى إلا إعادة الحياة إلى جزء من الأجزاء الذى به فهم الخطأ وذلك يمكن في نفسه ولا يدفع ذلك ما يشاهد من سكون أجزاء الميت وعدم سماعنا السؤال له ، فإن التأمم ساكن بظاهره ويدرك بباطنه من الآلام والذات ما يحس بتأثيره عند التنبيه ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع كلام جبريل عليه السلام ويشاهده ومن حوله لا يسمونه ولا يرونه (٣) ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء فإذا لم يتطرق لهم السمع والروية لم يدركوه .

(الأصل الثالث) عذاب القبر وقد ورد الشرح به قال الله تعالى ﴿ النار يمرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ واشتهر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والسلف الصالح الاستعاذة من عذاب القبر (٤) وهو ممكن فيجب التصديق به ولا يمنع من التصديق به تفرق أجزاء الميت في بطون السباع وحواصل الطيور فإن المدرك لأم العذاب من الحيوان أجزاء مخصوصة يقدر الله تعالى على إعادة الإدراك إليها .

(الأصل الرابع) الميزان وهو حق قال الله تعالى ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ وقال تعالى ﴿ فننقل موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه ﴾ الآية ووجه أن الله تعالى يتحدث في صحائف الأعمال

(١) حديث : « الجسر والنشر » أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « إنكم لمحشورون إلى الله ... الحديث » ومن حديث سهل « يحشر الناس يوم القيامة على أرض يضاء ... الحديث » ومن حديث عائشة « يحشرون يوم القيامة حفاة » ومن حديث أبي هريرة « يحشر الناس على ثلاث طرائق ... الحديث » ولابن ماجه من حديث ميمونة مولاة النبي صلى الله عليه وسلم « أفتنا في بيت المقدس وأرض الحشر والنشر ... الحديث » وإسناده جيد (٢) حديث : سؤال منكرو ونكيري ، تقدم . (٣) حديث « كان يسمع كلام جبريل ويشاهده ومن حوله لا يسمونه ولا يرونه » أخرجه البخارى ومسلم من حديث عائشة قالت « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً يا عائشة هذا جبريل يقرئك السلام فقلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته ترى ما لا أرى » قلت وهذا هو الأغلب وإلا فقد رأى جبريل جماعة من الصحابة منهم عمر وابنه عبد الله وصعب بن مالك وغيرهم . (٤) حديث « استأذ من عذاب القبر » أخرجاه من حديث أبي هريرة وعائشة وقد تقدم.

وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله تعالى فتصير مقادير أعمال العباد معلومة للعباد حتى يظهر لهم العدل في العقاب أو الفضل في العفو وتضعيف الثواب .

( الأصل الخامس ) الصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أرق من الشعرة وأحد من السيف قال الله تعالى ﴿ فاعدهم إلى صراط الجحيم وقفهم إنهم مسئولون ﴾ وهذا يمكن فيجب التصديق به فإن القادر على أن يطير الطير في الهواء قادر على أن يسير الإنسان على الصراط .

( الأصل السادس ) أن الجنة والنار مخلوقتان قال الله تعالى ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم رحمة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ﴾ فقلوه تعالى ﴿ أعدت ﴾ دليل على أنها مخلوقة فيجب إيجازها على الظاهر إذ لا استحالة فيه ، ولا يقال لا فائدة في خلقهما قبل يوم الجزاء لأن الله تعالى ﴿ لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ﴾ .

( الأصل السابع ) أن الإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم ، ولم يكن نص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إمام أصلاً ؛ إذ لو كان لكان أولى بالظهور من نصبه آحاد الولاء والأمراء على الجنود في البلاد ولم يخف ذلك فكيف خفي هذا ؟ وإن ظهر فكيف اندرس حتى لم ينقل إلينا فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة ، وأما تقدير النص على غيره فهو نسبة الصحابة كلهم إلى مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرق الإجماع ، وذلك مما لا يستجريء على اختراعه إلا الزوافض ، واعتقاد أهل السنة تركية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أني الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم . وما جرى بين معاوية وعلي رضي الله عنهما كان ملبياً على الاجتهاد لمنازعة من معاوية في الإمامة ؛ إذ ظن على رضي الله عنه أن تسليم قسلة عثمان مع كثرة عثراتهم واختلاطهم بالسكر يؤدي إلى اضطراب أمر الإمامة في بدايتها فرأى التأخير أصوب ، وظن معاوية أن تأخير أمرهم مع عظم جنايتهم يوجب الإغراء بالآئمة ويعرض الدماء للسفك . وقد قال أفاضل العلماء : كل مجتهد مصيب . وقال قائلون : المصيب واحد ولم يذهب إلى تحققة علي ذو تحصيل أصلاً .

( الأصل الثامن ) أن فضل الصحابة رضي الله عنهم على ترتيبهم في الخلافة إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل وذلك لا يطلع عليه إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ورد في الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة (١) وإنما يدرك دقائق الفضل والترتيب فيه المشاهدون للوحى والتزويل بقرائن الأحوال ودفائق التفصيل فلو لا فهمهم ذلك لما رتبوا الأمر كذلك إذ كانوا لا يأخذهم في الله لومة لائم ولا يصرفهم عن الحق صارف .

( الأصل التاسع ) أن شرائط الإمامة بعد الإسلام والتكليف خمسة : الذكورة والورع والعلم والكفاية ونسبة لقوله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) وإذا اجتمع عدد من الموصوفين بهذه الصفات فالإمام من انعقدت له البيعة من أكثر الخلق ، والمخالف للأكثر باغ يجب رده إلى الانقياد إلى الحق .

( الأصل العاشر ) أنه لو تعدد وجود الورع والعلم فيمن يتصدى للإمامة وكان في صرفة إثارة فتنة لا تطاق حكمتها بانعقاد إمامته ؛ لأننا بين أن تحرك فتنة بالاستبدال ، فالبقي المسلمون فيه من الضرر يزيد على ما يفوتهم من نقصان هذه الشروط التي أثبت لزمية المصلحة فلا ينهم أصل المصلحة شقاً مجزأيا كالذي يفتي قسراً ويهدم معصراً وبين أن حكم بغلو البلاد عن الإمام وبفساد الأفضية وذلك حال ونحن نقضى بنفوذ قضاء أهل البعث في بلادهم لمسيح حاجتهم فكيف لا نقضى بصحة الامامة عند الحاجة والضرورة ؟ فبهذه الأركان الأربعة الحاوية الأصول الأربعين هي قواعد العقائد فمن اعتقدها كان موافقاً لأهل السنة ومبايناً لرهط البدعة . فالله تعالى يسد لنا بتوقيفه ويهتدينا إلى الحق وتحقيقه بمنه وسعة جوده وفضله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وكل عبد مصطفى .

(١) حديث « الثناء على الصحابة » تقدم .

(٢) حديث « الأئمة من قريش » أخرجه النسائي من حديث أنس والحاكم من حديث ابن عمر .

## الفصل الرابع من قواعد العقائد

في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان

ووجه استثناء السلف فيه ، وفيه ثلاث مسائل

﴿مسألة﴾ اختلفوا في أن الإسلام هو الإيمان أو غيره ، وإن كان غيره فمهل هو منفصل عنه يوجد دونه أو مرتبط به بلازمه ؟ فقليل إنهما شيء واحد ، وقيل إنهما شيان لا يتواصلان ، وقيل إنهما شيان ولكن يرتبط أحدهما بالآخر . وقد أورد أبو طالب المسكي في هذا كلاماً شديداً الاضطراب كثير التويل فلنجهم الآن على التصريح بالحق من غير تمريغ على نقل ما لا تفصيل له . فنقول في هذا ثلاثة مباحث : بحث عن موجب اللفظين في اللغة ، وبحث عن المراد بهما في إطلاق الشرع ، وبحث عن حكمهما في الدنيا والآخرة . والبحث الأول لغوي ، والثاني تفسيري ، والثالث فقهي شرعي .

البحث الأول : في موجب اللغة ، والحق فيه أن الإيمان عبارة عن التصديق ، قال الله تعالى ﴿وما أنت بمؤمن لنا﴾ أي : بمصدق ، والإسلام عبارة عن التسليم والاستسلام بالإذعان والانقياد وترك التمرد والإباء والعناد ، والتصديق محل خاص وهو القلب ، واللسان ترجمان . وأما التسليم فإنه عام في القلب واللسان والجوارح فإن كل تصديق بالقلب فهو تسليم وترك الإباء والجحود ، وكذلك الاعتراف باللسان وكذلك الطاعة والانقياد بالجوارح فوجب اللغة أن الإسلام أهم والإيمان أخص ، فكان الإيمان عبارة عن أشرف أجواء الإسلام ، فإذن كل تصديق تسليم وليس كل تسليم تصديقاً .

البحث الثاني : عن إطلاق الشرع ، والحق فيه أن الشرع قد ورد باستعمالها على سبيل الترادف والتوارد وورد على سبيل الاختلاف وورود على سبيل التداخل ، أما الترادف ففي قوله تعالى ﴿فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾ ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد ، وقال تعالى ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه تولكوا إن كنتم مسلمين﴾ وقال صلى الله عليه وسلم ﴿بني الإسلام على خمس (١)﴾ وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس (٢) ، وأما الاختلاف فقوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ ومعناه استسلمنا في الظاهر ، فأراد بالإيمان هنا التصديق بالقلب فقط وبالإسلام الاستسلام ظاهراً باللسان والجوارح ، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال ﴿أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالبعث بعد الموت والحساب وبالقدر خيره وشره ، فقال : فما الإسلام ؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس (٣) فمهر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل . وفي الحديث عن سعد أنه صلى الله عليه وسلم ﴿أعطي رجلاً عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد : يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : أو مسلم ، فأعاد عليه فأعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤)﴾ . وأما التداخل فآروى أيضاً أنه

(١) حديث « بني الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث « سئل عن الإيمان فأجاب بهذه الخمس » أخرجه البيهقي في الاعتقاد من حديث ابن عباس في قصة وفد عبد القيس « أتدرون ما الإيمان : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأن تقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة وتصوموا رمضان وتحجوا البيت الحرام » والحديث في الصحيحين لكن ليس فيه ذكر الحج وزاد « وأن تؤتوا خساً من المظنم » .

(٣) حديث « جبريل لما سأله عن الإيمان فقال أن تؤمن بالله وملائكته ... الحديث » أخرجه من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث عمر دون ذكر « الحساب » فرواه البيهقي في البعث وقد تقدم .

(٤) حديث سعد « أعطي رجلاً عطاء ولم يعط الآخر ، فقال سعد يا رسول الله تركت فلاناً لم تعطه وهو مؤمن فقال أو مسلم ... الحديث » أخرجه بنحوه .

سئل «فقبل أى الأعمال أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإسلام، فقال: أى الإسلام أفضل؟ فقال صلى الله عليه وسلم: الإيمان (١)». وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل وهو أوفق الاستعمالات فى اللغة لأن الإيمان عمل من الأعمال وهو أفضلها، والإسلام هو تسليم لما بالقلب ولما باللسان ولما بالجوارح وأفضلها الذى بالقلب وهو التصديق الذى يسمى إيماناً والاستعمال لها على سبيل الاختلاف وعلى سبيل التداخل وعلى سبيل الترادف كالمعنى غير خارج عن طريق التجوز فى اللغة. أما الاختلاف فهو أن يجعل الإيمان عبارة عن التصديق بالقلب فقط وهو موافق للغة، والإسلام عبارة عن التسليم ظاهراً وهو أيضاً موافق للغة فإن التسليم ببعض محال التسليم ينطلق عليه اسم التسليم، فليس من شرط حصول الاسم عموم المعنى لسلك عمل يمكن أن يوجد المعنى فيه فإن من لم يسلمه ببعض بدنه يسمى لامساً وإن لم يستغرق جميع بدنه، فأطلاق اسم الإسلام على التسليم الظاهر عند عدم تسليم الباطن مطابق للسان وعلى هذا الوجه جرى قوله تعالى ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾ وقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث سعد «أو مسلم» لأنه فضل أحدهما على الآخر، ويريد بالاختلاف تفاضل المسمين وأما التداخل فوافق أيضاً للغة فى خصوص الإيمان وهو أن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والقول والعمل جميعاً، والإيمان عبارة عن بعض ما دخل فى الإسلام وهو التصديق بالقلب وهو الذى عيناه بالتداخل وهو موافق للغة فى خصوص الإيمان وعموم الإسلام للسلك، وعلى هذا خرج قوله «الإيمان» فى جواب قول السائل «أى الإسلام أفضل» لأنه جعل الإيمان خصوصاً من الإسلام فأدخله فيه، وأما استعماله فيه على سبيل الترادف بأن يجعل الإسلام عبارة عن التسليم بالقلب والظاهر جميعاً فإن كل ذلك تسليم الظاهر بالقول والعمل ثمرة تصديق الباطن ونتيجته، وقد يطلق اسم الشجر ويراد به الشجر مع ثمره على سبيل التسامح فيصير بهذا القدر من التعميم مرادفاً لاسم الإسلام ومطابقاً له فلا يزيد عليه ولا ينقص، وعليه خرج قوله ﴿فا وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾.

البحث الثالث: عن الحكم الشرعى والإسلام والإيمان حكمان أخروى ودينوى. أما الأخرى فهو الإخراج من النار ومنع التخليد إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من إيمان» (٢) وقد اختلفوا فى أن هذا الحكم على ماذا يترتب؟ وعبروا عن: بأن الإيمان ماذا هو؟ فمن قائل إنه مجرد العقد ومن قائل يقول إنه عقد بالقلب وشهادة باللسان ومن قائل يزيد ثالثاً وهو العمل بالأركان ونحن نكشف الغطاء عنه ونقول من جمع بين هذه الثلاثة فلا خلاف فى أن مستقره الجنة وهذه درجة. والدرجة الثانية: أن يوجد اثنان وبعض الثالث - وهو القول والعقد وبعض الأعمال - ولكن ارتكبه صاحبه كبيرة أو بعض الكبائر، فعند هذا كانت المعزلة: خرج بهذا عن الإيمان ولم يدخل فى الكفر بل اسمه فاسق وهو على منزلة بين المنزلتين وهو محمد فى النار، وهذا باطل كما سنذكره. الدرجة الثالثة: أن يوجد التصديق بالقلب والشهادة باللسان دون الأعمال بالجوارح، وقد

- (١) حديث «سئل أى الأعمال أفضل قال الإسلام وأى الإسلام أفضل قال الإيمان» أخرجه أحمد والطبرانى من حديث عمرو بن عتبة بالشرط الأخير «قال رجل يا رسول الله أى الإسلام أفضل قال الإيمان» وإسناده صحيح.
- (٢) حديث «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان» أخرجه من حديث أبى سعيد الخدرى فى الشفاعة، وفيه «إذهبوا ثمن وجدتم فى قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه... الحديث» ولهما من حديث أنس «فيقال انطلق فأخرج منها من كان فى قلبه مثقال ذرة - أو خردلة - من إيمان» لفظ البخارى «منهما» وله تعليقاً من حديث أنس «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفى قلبه وزن ذرة من إيمان» وهو عندهما متصل بلفظ «خب» مكان «إيمان».

اختلفوا في حكمه ، فقال أبو طالب المكي : العمل بالجوارجح من الإيمان ولا يتم دونه وادعى الإجماع فيه واستدل بأدلة تضمن بنقيض كقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ إذ هذا يدل على أن العمل وراء الإيمان لا من نفس الإيمان وإلا فيسكون العمل في حكم المعاد ، والعجب أنه ادعى الإجماع في هذا وهو مع ذلك ينقل قوله صلى الله عليه وسلم « لا يكفر أحد إلا بعد جموده لما أقر به » (١) وينكر على المعتزلة قولهم بالتخليد في النار بسبب الكبائر ، والفاعل بهذا قائل بنفس مذهب المعتزلة ، إذ يقال له من صدق بقلبه وشهد بلسانه ومات في الحال فهل هو في الجنة ؟ فلا بد أن يقول نعم ، وفيه حكم بوجود الإيمان دون العمل ، فزيد ونقول لو بقي حيا حتى دخل عليه وقت صلاة واحدة فتركها ثم مات أو زنى ثم مات ، فهو يخلف في النار ؟ فإن قال نعم فهو مراد المعتزلة ، وإن قال لا فهو تصريح بأن العمل ليس ركنا من نفس الإيمان ولا شرطاً في وجوده ولا في استحقاق الجنة به ، وإن قال أردت به أن يعيش مدة طويلة ولا يصلح ولا يقدم على شيء من الأعمال الشرعية ، فنقول فما ضبط تلك المدة وما عدد تلك الطاعات التي يتركها يبطل الإيمان وماعد الكبائر التي يتركها يبطل الإيمان ؟ وهذا لا يمكن التحكم بتقديره ولم يصر إليه صائر أصلاً . الدرجة الرابعة : أن يوجد التصديق بالقلب قبل أن ينطق باللسان أو يشغل بالأعمال ومات فهل تقول مات . ومنا بينه وبين الله تعالى ؟ وهذا ما اختلف فيه ومن شرط القول تمام الإيمان يقول هذا مات قبل الإيمان وهو فاسد إذ قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان وهذا قلبه طافح بالإيمان فكيف يخلف في النار ؟ ولم يشترط في حديث جبريل عليه السلام للإيمان إلا التصديق بالله تعالى وملائكته وكتبه واليوم الآخر كما سبق . الدرجة الخامسة : أن يصدق بالقلب ويساعد من العمر مهلة التعلق بكلمتي الشهادة وعلم وجوبها ولكنهم ينطق بها فيحتمل أن يجعل امتناعه عن التعلق كامتناعه عن الصلاة ، ونقول هو مؤمن غير مخلف في النار . والإيمان هو التصديق المخض واللسان ترجمان الإيمان فلا بد أن يكون الإيمان موجوداً بتمامه قبل اللسان حتى يترجمه اللسان وهذا هو الأظهر ، إذ لا مستند إلا اتباع موجب الألفاظ ووضع اللسان أن الإيمان هو عبارة عن التصديق بالقلب . وقد قال صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان » ولا ينعدم الإيمان من القلب بالسكوت عن التعلق الواجب كما لا ينعدم بالسكوت عن الفعل الواجب ، وقال قائلون : القول ركن إذ ليس كلنا الشهادة إخباراً عن القلب بل هو إنباء عقد آخر وابتداء شهادة والقرام والأول أظهر ، وقد غلغل في هذا طائفة المرجئة فقالوا هذا لا يدخل النار أصلاً وقالوا إن المؤمن وإن عصي فلا يدخل النار وسنبطل ذلك عليهم الدرجة السادسة : أن يقول بلسانه « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ولكن لم يصدق بقلبه فلا نفيك في أن هذا في حكم الآخرة من الكفار وأنه مخلف في النار ، ولا نفيك في أنه في حكم الدنيا الذي يتعلق بالآئمة والولاة من المسلمين لأن قلبه لا يطلع عليه . وعلمنا أن غنان به أنه ما قاله بلسانه إلا وهو منطوق عليه في قلبه وإنما نفيك في أمر ثالث وهو الحكم الديني فيما بينه وبين الله تعالى ، وذلك بأن يموت له في الحال قريب مسلم ثم يصدق بعد ذلك بقلبه ثم يستغنى ويقول كنت خير مصدق بالقلب حالة الموت والميراث الآن في يدي فهل يحل لي بيني وبين الله تعالى ؟ أو تكبح مسأله ثم صدق بقلبه هل تلزمه إعادة النكاح ؟ هذا محل نظر فيحتمل أن يقال أحكام الدنيا منوطة بالقول الظاهر ظاهراً وباطناً ويحتمل أن يقال يتناول بالظاهر في حق غيره لأن باطنه خير ظاهر لغيره وباطنه ظاهر له في نفسه بينه وبين الله تعالى ، والأظهر والعلم عند الله

(١) حديث « لا تكفروا أحداً إلا بجموده بما أقر به » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد « لن يخرج أحد من الإيمان إلا بجموده ما دخل فيه » وإسناده ضعيف .

تعالى أنه لا يحل له ذلك الميراث ويؤلمه إعادة التكليف ولذلك كان حذيفة رضى الله عنه لا يحضر جنازة من يموت من المنافقين وعمر رضى عنه كان يراعى ذلك منه فلا يحضر إذا لم يحضر حذيفة رضى الله عنه ، والصلاة فعل ظاهر في الدنيا وإن كان من العبادات ، والتوقى عن الحرام أيضا من ما يحبب الله كالصلاة لقوله صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة » وليس هذا مناقضا لقولنا إن الإرث حكم الإسلام وهو الاستسلام بل الاستسلام التام هو ما يشمل الظاهر والباطن وهذه باحث فقهية ظنية تنبى على ظواهر الألفاظ والمعميات والأقضية فلا ينبغي أن يظن القاصر في العلوم أن المطلوب فيه القطع من حيث جرت العادة بإرادة في فن الكلام الذى يطلب فيه القطع فما أقطع من نظر إلى العادات والم رسم في العلوم .

فإن قلت : فما شبهة المعتزلة والمرجئة وما حجة بطلان قولهم ؟

فأقول : شبهتهم عمومات القرآن ، أما المرجئة فقالوا لا يدخل المؤمن النار وإن أتى بكل المعاصى لقوله عز وجل ﴿ فَمَنْ يَوْمَئِذٍ يَرْجُءَ فَلَاحًا فَلَا يَصْغَىٰ غَسَقًا وَلَا رَهَقًا ﴾ ولقوله عز وجل ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ الآية ولقوله تعالى ﴿ كُلًّا الَّذِي فِيهَا فُجٌّ سَالِمٌ خَرْتَهَا - إِلَى قَوْلِهِ - فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ فقوله ﴿ كُلًّا الَّذِي فِيهَا فُجٌّ ﴾ عام فينبى أن يكون كل من أتى في النار مكذبا ولقوله تعالى ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّىٰ وَهَذَا حَصْرٌ وَإِثْبَاتٌ وَأَوْثَاتٌ وَنَفَى وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ مِنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ مِنْ فِرْعَ يَوْمَئِذٍ آمَنُوا ﴾ فالإيمان رأس الحسنات ولقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ يَجِبُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرًا مِنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ ولا حجة لهم في ذلك فإنه حيث ذكر الإيمان في هذه الآيات أريد به الإيمان مع العمل إذا بينا أن الإيمان قد يطلق ويراد به الإسلام وهو الموافقة بالقلب والقول والعمل ؛ ودليل هذا التأويل أخبار كثيرة في معاقبة العاصى ومقادير العقاب وقوله صلى الله عليه وسلم « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » فكيف يخرج إذا لم يدخل ؟ ومن القرآن قوله تعالى ﴿ إِنْ اللَّهُ لَا يَغْفِرَ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرَ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ والاستثناء بالمشيئة يدل على الانقسام وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾ وتخصيصه بالسكر تحكم وقوله تعالى ﴿ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَمَنْ جَاءَ بِالْسِفَةِ فَكَبَتْ وَجْهَهُمْ فِي النَّارِ ﴾ فهذه العمومات في معارضة عموماتهم ولا بد من تسليط التخصيص والتأويل على الجانبين لأن الأخبار مصرحة بأن العصاة يذهبون<sup>(١)</sup> بل قوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ كالصريح في أن ذلك لا بد منه للكل إذ لا يخلو مؤمن عن ذنب يرتكبه وقوله تعالى ﴿ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴾ أراد به من جماعة غصوصين أو أراد بالأشقى شخصا معينا أيضا وقوله تعالى ﴿ كُلَّا الَّذِي فِيهَا فُجٌّ سَالِمٌ خَرْتَهَا ﴾ أى فوج من الكفار ، وتخصيص العمومات قريب . ومن هذه الآية وقع للأشعرى وطائفة من المشككين إنكار صيغ العموم وأن هذه الألفاظ يتوقف فيها إلى ظهور قرينة تدل على معناها . وأما المعتزلة فشبهتهم قوله تعالى ﴿ وَإِنْ لِفُتَارٍ لَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى ﴾ وقوله ﴿ وَالْعَصْرُ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآ خَيْرٌ إِلَّا الَّذِي آمَنَ وَعَمِلَ الصَّالِحَاتِ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ ثم قال ﴿ ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ ﴾ وكل آية ذكر الله عز وجل الحمل الصالح فيها مقرونا بالإيمان وقوله تعالى ﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِدًا بَغْزًا جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ﴾ وهذه العمومات أيضا غصوصة بدليل قوله تعالى

(١) حديث : تعذيب العصاة ، أخرجه البخارى من حديث أنس « ليصين أقواما سفع من النار بذنوب أصابوها . . . الحديث » ويأتى في ذكر اللوت عدة أحاديث .

(ويفغر مادون ذلك لمن يشاء) فينبغي أن تبقى له مشيئة في مغفرة ماسوى الشرك . وكذلك قوله عليه السلام «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان» وقوله تعالى ﴿إنا لا نضيع أجر من أحسن عملا﴾ وقوله تعالى ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ فكيف يضيع أجر أصل الإيمان وجميع الطاعات بمصيبة واحدة ؟ وقوله تعالى ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا﴾ أى إيمانه وقُدُور على مثل هذا السبب ؟ فإن قلت : فقد مال الاختيار إلى أن الإيمان حاصل دون العمل . وقد اشتهر عن السلف قولهم : الإيمان عقد وقول وعمل ، فما معناه ؟ قلنا : لا يعد أن بعد العمل من الإيمان لأنه مكل له ومتمم كما يقال الرأس واليدان من الإنسان ومعلوم أنه يخرج عن كونه إنسانا بعدم الرأس ولا يخرج عنه بكونه مقطوع اليد . وكذلك يقال التسيبحات والتكبيرات من الصلاة وإن كانت لا تبطل بفقدانها فالصديق بالقلب من الإيمان كالرأس من وجود الإنسان إذ يتعلم بعدهم وبقية الطاعات كالأجزاء بعضها أعلى من بعض وقد قال صلى الله عليه وسلم ﴿لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن﴾ (١) والصحابه يرضى الله عنهم ما اعتقدوا من مذهب المعتزلة في الخروج عن الإيمان بالزنا ولكن معناه غير مؤمن حقا إيمانا تاما كاملا كما يقال للعاجز المقطوع الأطراف هذا ليس بإنسان أى ليس له الكمال الذى هو وراء حقيقة الإنسانية .

(مسألة) فإن قلت : فقد اتفق السلف على أن الإيمان يزيد وينقص . يزيد بالطاعة وينقص بالمصيبة . فإذا كان التصديق هو الإيمان فلا يتصور فيه زيادة ولا نقصان ؟

فأقول : السلف هم الشهود العدول وما لاحد عن قولهم عدول فا ذكره حق وإنما الشأن في فهمه ، وفيه دليل على أن العمل ليس من أجزاء الإيمان وأركان وجوده بل هو مزيد عليه يزيد به الزائد موجود والثى لا يزيد بذاته فلا يجوز أن يقال الإنسان يزيد برأسه بل يقال بلبثه وسمته ، ولا يجوز أن يقال الصلاة تزيد بالركوع والسجود بل تزيد بالأدب والسنن فهذا تصريح بأن الإيمان له وجود ثم بعد الوجود يختلف حاله بالزيادة والنقصان .

فإن قلت : فالإشكال قائم في أن التصديق كيف يزيد وينقص وهو خصلة واحدة ؟

فأقول : إذ تركنا المداينة ولم نكثر بتشبيب من تشعب وكشفنا الغطاء ارتفع الإشكال فنقول : الإيمان اسم مشترك يطلق من ثلاثة أوجه الأول : أنه يطلق للتصديق بالقلب على سبيل الاعتقاد والتقليد من غير كشف وانشرح صدر وهو إيمان العوام بل إيمان الخلق كلهم إلا الخواص ، وهذا الاعتقاد عقدة عن القلب تارة تشدد وتقوى وتارة تضعف وتسترخي كالعقدة على الخيط مثلا . ولا تستبعد هذا واعتبره بالهودى وصلابه في عقيدته التي لا يمكن نزوعه عنها بتخويف وتحذير ولا بتخييل ووعظ ولا بتحقيق وبرهان وكذلك النصراني والمبتدعة وفيهم من تشكيكه بأدنى كلام ويمكن استنزاله عن اعتقاده بأدنى استمالة أو تخويف مع أنه غير شاك في عقده كالأول ولكنهما متفاوتان في شدة التصميم ، وهذا موجب في الاعتقاد الحق أيضا والعمل يؤثر في تمام هذا التصميم وزيادته كما يؤثر سق الماء في تمام الأشجار . ولذلك قال تعالى ﴿فوادعهم لإيمانا﴾ وقال تعالى ﴿ليردادوا إيمانا مع إيمانهم﴾ وقال صلى الله عليه وسلم فيما يروى في بعض الأخبار «الإيمان يزيد وينقص» (٢) وذلك بتأثير الطاعات في القلب وهذا لا يدرك إلا من راقب أحوال نفسه في أوقات المواظبة على العبادة والتجرد لما يحضور القلب مع أوقات الفتور وإدراك التفاوت في السكون إلى عقائد الإيمان في هذه الأحوال حتى يزيد عنده استمضاء على من يريد حله بالتشكيك بل من يعتقد في اليقين معنى الرحمة إذ عمل بموجب اعتقاده فسح رأسه وتلطف به أدرك

(١) حديث «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن» متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) حديث «الإيمان يزيد وينقص» أخرجه ابن عدى في الكامل وأبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أبي هريرة ، وقال ابن عدى باطل فيه محمد بن أحمد بن حرب اللحي يتعمد الكذب وهو عند ابن ماجة موقف على على أبي هريرة وابن عباس وأبي السداه .



من باطله تأكيد الرحمة وتضاعفها يسبب العمل ، وكذلك معتقد التواضع إذا عمل بموجبه عملاً مقبلاً أو ساجداً لغيره أحسن من قلبه بالتواضع عند إقامته على الخدمة . وهكذا جميع صفات القلب تصدر منها أعمال الجوارح ثم يعود أثر الأعمال عليها فيؤكدها ويزيدها ، وسيأتي هذا في ربيع المنجيات والمهلكات عند بيان وجه تعلق الباطن بالظاهر ، والأعمال بالعقائد والقلوب فإن ذلك من جنس تعلق الملك بالمسكوت وأعنى بالملك عالم الشهادة المدرك بالحواس وبالمسكوت عالم الغيب المدرك بنور البصيرة والقلب من عالم المسكوت والأعضاء وأعمالها من عالم الملك . ولطف الارتباط ودقة بين العالمين انتهى إلى حد ظن بعض الناس اتحاد أحدهما بالآخر وظن آخرون أنه لا عالم إلا عالم الشهادة وهو هذه الأجسام المحسوسة . ومن أدرك الأمرين وأدرك تعددهما تم ارتباطهما عبر عنه فقال :

وق الزجاج ورقت الخمر وتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح وكأنما قدح ولا خمر

وترجع إلى المقصود فإن هذا العلم خارج عن علم المعاملة ولكن بين العليين أيضاً اتصال وارتباط فلذلك ترى علوم المكافحة تسلك كل ساعة على علوم المعاملة إلى أن تتكشف عنها بالتكليف فهذا وجه زيادة الإيمان بالطاعة بموجب هذا الإحلاق ، ولهذا قال على كرم الله وجهه : إن الإيمان ليبدو لمعة يضاء فإذا عمل العبد الصالحات تمت فزادت حتى يبيض القلب كله وإن النفاق ليبدو نكتة سوداء فإذا انتهك الحرامات تمت وزادت حتى يسود القلب كله فطبع عليه فذلك هو الختم وتلا قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ﴾ الآية . الإطلاق الثاني : أن يراد به التصديق والعمل جميعاً كما قال صلى الله عليه وسلم « الإيمان بضع وسبعون باباً <sup>(١)</sup> » وكما قال صلى الله عليه وسلم « لا يرى الزاني حين يزني وهو مؤمن » وإذا دخل العمل في مقتضى لفظ الإيمان لم تخف زيادته ونقصانه وهل يؤثر ذلك في زيادة الإيمان الذي هو مجرد التصديق ؟ هذا فيه نظر وقد أشرنا إلى أنه يؤثر فيه الإطلاق الثالث : أن يراد به التصديق اليقيني على سبيل الكشف وانسراح الصدر والمشاهدة بنور البصيرة وهذا أبعد الأقسام عن قبول الريادة ولكني أقول الأمر اليقيني الذي لاشك فيه يختلف علماً بنية النفس إليه فليس علماً بنية النفس إلى أن الاثنين أكثر من الواحد كعلماً بنية إلى أن العالم مصنوع حادث وإن كان لاشك في واحد منهما فإن اليقينيات تختلف في درجات الإيضاح ودرجات علماً بنية النفس إليها ، وقد تعرضنا لهذا في فصل اليقين من كتاب العلم في باب علامات علماء الآخرة فلا حاجة إلى الإعادة . وقد ظهر في جميع الإطلاقات أن مقالوه من زيادة الإيمان ونقصانه حق وكيف لا وفي الأغوار « أنه يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان » وفي بعض المواضع في خبر آخر مثقال دينار <sup>(٢)</sup> » فأى معنى لاختلاف مقاديره إن كان مافي القلب لا يتفاوت .

(مسألة) فإن قلت : ما وجه قول السلف « أنا مؤمن إن شاء الله » والاستثناء شك والشك في الإيمان كفر وقد كانوا كلهم يمتنعون عن جزم الجواب بالإيمان ويحترزون عنه . فقال سفيان الثوري رحمه الله : من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة ، فكيف يكون كاذباً وهو يعلم أنه مؤمن في نفسه ومن كان مؤمناً في نفسه كان مؤمناً عند الله ؟ كما أن من كان طويلاً وحجياً في نفسه وعلم ذلك كان كذلك عند الله وكذا من

(١) حديث « الإيمان بضع وسبعون باباً » وذكر بعد هذا فزاد فيه « أدناها إمطة الأذى عن الطريق » أخرجه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة « الإيمان بضع وسبعون » زاد مسلم في رواية « وأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها » فذكره ورواه بلطف المصنف الترمذي وصححه . (٢) حديث « يخرج من النار من كان في قلبه مثقال دينار » متفق عليه من حديث أبي سعيد وسيأتي في ذكر الموت وما بعده .

كان مسروراً أو حزينا أو سميحاً بصيراً ، ولو قيل للإنسان هل أنت حيوان ؟ لم يحسن أن يقول أنا حيوان إن شاء الله . ولما قال سفيان ذلك قيل له فإذا تقول ؟ قال : قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وأبى فرق بين أن يقول آمنا بالله وما أنزل إلينا وبين أن يقول أنا مؤمن ؟ وقيل للحسن : أمؤمن أنت ؟ فقال إن شاء الله ، فقيل له : لم تستثنى يا أبا سعيد في الإيمان ؟ فقال أخاف أن أقول نعم فيقول الله سبحانه كذبت يا حسن فتحق الله على الكلمة . وكان يقول : ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع على في بعض ما بكراهته ففتنى وقال اذهب لأقبلت لك عملاً ؛ فأنا أعمل في غير معمل . وقال إبراهيم بن آدم : إذا قيل لك أمؤمن أنت ؟ فقل لا إله إلا الله وقال مرة : قل أنا لا أشك في الإيمان وسؤالك إياي بدعة . وقيل للعقمة : أمؤمن أنت ؟ قال : أرجو إن شاء الله وقال الثوري : نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندرى ما نحن عند الله تعالى ؟ فما معنى هذه الاستثناءات ؟

فالجواب : أن هذا الاستثناء صحيح وله أربعة أوجه ؛ وجهان مستندان إلى الشك لا في أصل الإيمان ولكن في خاتمته أو كماله ، وجهان لا يستندان إلى الشك .

الوجه الأول : الذي لا يستند إلى معارضة الشك : الاحتراز من الجرم خيفة ما فيه من تزكية النفس قال الله تعالى ﴿ فلا تزكوا أنفسكم ﴾ وقال ﴿ ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم ﴾ وقال تعالى ﴿ انظر كيف يفترون على الله السكذب ﴾ وقيل لحكميم : ما الصدق القبيح ؟ فقال : ثناء المرء على نفسه ، والإيمان من أعلى صفات المجد والجزم به تزكية مطلقة وصيغة الاستثناء كأنها نقل من عرف التزكية ، كما يقال للإنسان أنت طيب أو فقيه أو مفسر ؟ فيقول : نعم إن شاء الله ، لافي معرض التشكيك ولكن لإخراج نفسه عن تزكية نفسه فالصيغة صيغة التبريد والتضعيف لنفس الخبر ومعناه التضعيف اللازم من لوازم الخبر وهو التزكية . وهذا التأويل لو سئل عن وصف ذم لم يحسن الاستثناء .

الوجه الثاني : التأدب بذكر الله تعالى في كل حال وإحالة الأمور كلها إلى مشيئة الله سبحانه ، فقد أدب الله سبحانه نبيه صلى الله عليه وسلم فقال تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أنا بشاء الله ﴾ ثم لم يقتصر على ذلك فيما لا يشك فيه بل قال تعالى ﴿ لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنتين ﴾ وعلمنهم رءوسكم ومقصرون ﴾ وكان الله سبحانه عالماً بأنهم يدخلون لإحالة وأنه شاءه ولكن المقصود تعليمه ذلك فتأدب رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما كان يشبه عنه معلوماً كان أو مشكوكاً حتى قال صلى الله عليه وسلم لما دخل المقابر « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »<sup>(١)</sup> والحق بهم غير مشكوك فيه ولكن مقتضى الأدب ذكر الله تعالى وربط الأمور به وهذه الصيغة دالة عليه حتى صار يعرف الاستئصال عبارة عن إظهار الرغبة والتمنى ، فإذا قيل لك إن فلاناً يموت سريعاً فتقول إن شاء الله بمعنى الرغبة فقد صارت الكلمة معدولة عن معنى التشكيك إلى معنى الرغبة ، وكذلك المعدول إلى معنى التأدب لذكر الله تعالى كيف كان الأمر .

الوجه الثالث : مستنده الشك ومعناه أنا مؤمن حقاً إن شاء الله ، إذ قال الله تعالى لقوم غصصين بأعيانهم ﴿ أولئك هم المؤمنون حقا ﴾ فاقسموا إلى قسمين ويرجع هذا إلى الشك في كمال الإيمان لا في أصله وكل إنسان شاك في كمال إيمانه وذلك ليس بكفر : والشك في كمال الإيمان حق من وجهين ؛ أحدهما : من حيث إن التناقض يربط كمال الإيمان وهو خفي لا تتحقق البراءة منه والثاني أنه يكل بأعمال الطاعات ولا يدري وجودها على الكمال أما العمل فقد قال الله تعالى ﴿ إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون ﴾ فيكون

(١) حديث « لما دخل المقابر قال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ... الحديث » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

الفك في هذا الصدق وكذلك قال الله تعالى ﴿ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتب والنبيين﴾ فشرط عشرين وصفاً كالرفاء بالبعد والصبر على الشدائد . ثم قال تعالى ﴿وأولئك الذين صدقوا﴾ وقد قال تعالى ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ وقال تعالى ﴿لا يستوى منكم من أتقى من قبل الفتح وقافل﴾ الآية وقد قال تعالى ﴿هم درجات عند الله﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان عريان ولباسه التقوى (١)» الحديث وقال صلى الله عليه وسلم «الإيمان بضغ وسبعون باباً أذاها إماعة الأذى عن الطريق» فهذا ما يدل على ارتباط كمال الإيمان بالأعمال وأما ارتباطه بالبراءة عن النفاق والشرك الحق فقولته صلى الله عليه وسلم «أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صام وصلى وزعم أنه مؤمن : من إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر (٢)» وفي بعض الروايات «وإذا عاهد غدر» وفي حديث أبي سعيد الخدري «القلوب أربعة : قلب أجرد وفيه سراج يهره فذلك قلب المؤمن وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يدها الماء العذب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يدها القيح والصد يد في المادتين غلب عليه حكم له بها (٣)» وفي لفظ آخر «غلبت عليه ذهبت به» وقال عليه السلام «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها (٤)» وفي حديث «الشرك أخفى في أمي من ديب الخلة على الصفا» (٥) وقال حذيفة رضي الله عنه «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقاً إلى أن يموت وإلى لاسمها من أحسبك في اليوم عشر مرات (٦)» وقال بعض العلماء : أقرب الناس من النفاق من يرى من النفاق . وقال حذيفة : المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فسلكوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه وهذا النفاق يضاد صدق الإيمان وكأله وهو خفي وأبعد الناس منه من يخفونه وأقربهم منه من يرى أنه يرى منه . فقد قيل للحسن البصري : يقولون أن لا نفاق اليوم فقال يا أخى لو هلك المنافقون لاسترحمت في الطريق . وقال هو أو غيره : لو نبتت للنفاقين أذنان ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا وسمع ابن عمر رضي الله عنه رجلاً يتعرض للحجاج فقال : أ رأيت لو كان حاضراً يسمع أ كنت تتكلم فيه ؟ فقال لا ، فقال : كنا نمد هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٧) وقال صلى الله عليه وسلم «من كان ذا لسانين في الدنيا جعله الله ذا لسانين في الآخرة» وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم «شر الناس ذو الوجهين الذي يأتي هؤلاء بوجه ويأتي هؤلاء بوجه» وقيل الحسن : إن قوماً يقولون إننا لنخاف النفاق ، فقال : والله لأن أكون أعلم أتى برى من النفاق أحب إلى من نلاع الأرض ذهباً ، وقال الحسن : إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب ، والسر والعلانية ، والمدخل والمخرج . وقال رجل لحذيفة رضي الله عنه : إني أخاف أن أكون منافقاً ، قال : لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إن المنافق قد آمن من النفاق . وقال ابن أبي مليكة : أدركت

(١) حديث «الإيمان عريان» تقدم في العلم .

(٢) حديث «أربع من كن فيه فهو منافق ... الحديث» متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو .

(٣) حديث «القلوب أجرد ... الحديث» أخرجه أحمد من حديث أبي سعيد وفيه ليث بن أبي سليم مختلف فيه .

(٤) حديث «أكثر منافق هذه الأمة قراؤها» أخرجه أحمد والطبراني من حديث عتبة بن عاصم .

(٥) حديث «الشرك أخفى في أمي من ديب الخلة على الصفا» أخرجه أبو يعلى وابن عدى وابن حبان في الضعفاء

من حديث أبي بكر وأحمد والطبراني نحوه من حديث أبي موسى ، وسيأتي في ذم الجاه والراء .

(٦) حديث حذيفة «كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يصير بها منافقاً ...

الحديث» أخرجه أحمد بإسناد فيه جهالة ، وحديث حذيفة «لنفاقون اليوم أكثر منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... الحديث» أخرجه البخاري إلا أنه قال «شر» بدل «أكثر» .

(٧) حديث «سمع ابن عمر رجلاً يتعرض للحجاج فقال أ رأيت لو كان حاضراً أ كنت تتكلم فيه قال لا قال كنا نمد

هذا نفاقاً على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم» رواه أحمد والطبراني بنحوه . وليس فيه ذكر الحجاج .

ثلاثين ومائة - وفي رواية خمسين ومائة - من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخافون النفاق . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً وأكثروا الثناء عليه فيبناهم كذلك إذ طلع عليهم الرجل ووجهه يقطر ماء من أثر الرضوء وقد علق نعله بيده وبين عينيه أثر السجود فقالوا : يا رسول الله هذا هو الرجل الذي وصفناه ، فقال صلى الله عليه وسلم : أرى على وجهه سبعة من الشيطان ، فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القوم فقال النبي صلى الله عليه وسلم : نذرتك الله هل حدثت نفسك حين أشرت على القوم أنه ليس فيهم خير منك ؟ فقال : اللهم نعم (١) » فقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم ، فقيل له : أخاف يا رسول الله ؟ فقال : وما يؤمنني والقلوب بين أصمعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء ، وقد قال سبحانه (وبدا لهم من الله ما لم يكتونوا يحاسبون) (٢) » قيل في التفسير : عملوا أعمالاً ظنوا أنها حسنة فكانت في كفة السيئات . وقال سري السقطي : لو أن إنساناً دخل بستاناً فيه من جميع الأشجار عليها من جميع الطيور غاطب كل طير منها بلغة ؟ فقال السلام عليك يا ولي الله ؟ فسكنت نفسه إلى ذلك كأن أسيراً في يديها . فهذه الأخبار والآثار تعزفك خطر الأمر بسبب دقائق النفاق والشرك الخفي وأنه لا يؤمن منه حتى كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل حذيفة عن نفسه وأنه هل ذكر في المنافقين ؟ وقال أبو سليمان الداراني : سمعت من بعض الأمراء شيئاً فأردت أن أنكره فغفقت أن يأمر بقتلي ولم أخف من الموت ولكن خشيت أن يعرض لقلبي التزين للخلق عند خروج روحى فكففت . وهذا من النفاق الذى يضاد حقيقة الإيمان وصدقه وكأله وصفاه لا أصله . فالنفاق نفاقان ؛ أحدهما : يخرج من الدين ويأبى بالكافرين ويسلك في ذمرة المخدع في النار . والثاني : يقضى بصاحبه إلى النار مدة أو ينقص من درجات عليين ويحبط من رتبة الصديقين وذلك مشكوك فيه ولذلك حسن الاستثناء فيه . وأصل هذا النفاق تفاوت بين السر والعلانية ، والأمن من مكر الله ، والعجب ؛ وأمور أخر لا يغلو عنها إلا الصديقون .

الوجه الرابع : وهو أيضاً مستند إلى العكس وذلك من خوف الخاتمة فإنه لا بدري أسلم له الإيمان عند الموت أم لا ؟ فإن خيم له بالكفر حبط عمله السابق لأنه موقوف على سلامة الآخر ، ولو سئل الصائم ضحوة النهار عن صحة صومه فقال : أنا صائم قطعاً ، فلو أفطر في أثناء نهاره بعد ذلك لتبين كذبه إذ كانت الصحة موقوفة على التسام إلى غروب الشمس من آخر النهار ، وكما أن النهار ميقات تمام الصوم فالعمر ميقات تمام الإيمان ووصفه بالصحة قبل آخره بناء على الاستصحاب وهو مشكوك فيه ، والعاقبة مخوفة ولاجلها كان بكاء أكثر الخائفين لأجل أنها ثمرة القضية السابقة والمشية الأزلية التي لا تظهر إلا بظهور القضية به ولا مطلع عليه لأحد من البشر ، غلوف الخاتمة كخوف السقاية وربما يظهر في الحال ما سبقت الكلمة بنقصه ، فن الذى يدري أنه من الذين سبقت لهم من الله الحسنى ؟ وقيل في معنى قوله تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق) أى السابقة بمعنى أظهرتها . وقال بعض السلف : إنما يوزن من الأعمال خواتيمها . وكان أبو الدرداء رضى الله عنه يخلف بالله ما من أحد يأمن أن يساب إيمانه إلا سلبه . وقيل من الذنوب ذنوب عقوبتها سوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك . وقيل هى عقوبات دعوى الولاية والكرامة بالافتراء . وقال بعض العارفين : لو مرضت على الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد

(١) حديث « كان جالساً في جماعة من أصحابه فذكروا رجلاً فأكثروا الثناء عليه فيبناهم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الرضوء . . . الحديث » أخرجه أحمد والبرزبالي وأبو داود في حديث أنس .  
(٢) حديث « اللهم إني أستغفرك لما علمت وما لم أعلم . . . الحديث » أخرجه مسلم من حديث عائشة « اللهم إني أعوذ بك من شر ما عملت ومن شر ما لم أعلم » ولأبي بكر بن الضحاك في حديث مرسل « ونشر ما أعلو شر ما لا أعلم » ..

عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأنى لأحدى ما يمرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار ؟ وقال بعضهم : لو عرفت واحدا بالتوحيد خمسين سنة ثم حال بيني وبينه سارية ومات لم أحكم أنه مات على التوحيد . وفي الحديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل (١) » وقيل في قوله تعالى ﴿ وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا ﴾ صدقا لمن مات على الإيمان وعدلا لمن مات على الشرك . وقد قال تعالى ﴿ والله عاقبة الأمور ﴾ فها كان الشك بهذه المثابة كان الاستثناء واجبا لأن الإيمان عبارة عما يفيد الجنة كما أن الصوم عبارة عما يبرئ الذمة . وما فسد قبل الغروب لا يبرئ الذمة فيخرج عن كونه صوما فكذلك الإيمان بل لا يبعد أن يسأل عن الصوم الماضي الذي لا يشك فيه بعد الفراغ منه فيقال أصمت بالأمس ؟ فيقول نعم إن شاء الله تعالى إذ الصوم الحقيقي هو المقبول والمقبول نائب عنه لا يطلع عليه إلا الله تعالى فن هذا حسن الاستثناء في جميع أعمال البر ويكون ذلك شكاً في القبول ، إذ يمنع من القبول بسد جريان ظاهر شروط الصحة أسباب خفية لا يطلع عليها إلا رب الأرباب جل جلاله فيحسن الشك فيه . فهذه وجوه حسن الاستثناء في الجواب عن الإيمان وهي آخر ما نختم به « كتاب قواعد العقائد » .

تم الكتاب بحمد الله تعالى وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى كل عبد يعطى

## كتاب أسرار الطهارة

وهو الكتاب الثالث من ربيع العبادات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي تطلق بعباده فتعبد بهم بالنظافة ، وأفاض على قلوبهم تزيينة لسراهم أنواره وأنطائه ، وأعد لظواهرهم تطهيراً لها الماء المخصوص بالبرقة والطهارة ، وصلى الله على النبي محمد المستغرق بنور الهدى أطراف العالم وأكنافه ، وعلى آله الطيبين الطاهرين صلاة تنجيهم بركاها يوم المخافة ، وتنصب جنة بيننا وبين كل آفة . أما بعد : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « بني الدين على النظافة (٢) » وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الصلاة الطهور (٣) » وقال الله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين ﴾ وقال النبي صلى الله عليه وسلم « الطهور

(١) حديث « من قال أنا مؤمن فهو كافر ومن قال أنا عالم فهو جاهل » الطبراني في الأوسط بالشرط الأخير منه من حديث ابن عمر وفيه ليث بن أبي سلم تقدم ، والشرط الأول روى من قول يحيى بن أبي كثير رواه الطبراني في الأصغر « من قال أنا في الجنة فهو في النار » وسنده ضعيف .

### كتاب الطهارة

(٢) حديث « بني الدين على النظافة » لم أجده هكذا ، وفي الضعفاء لابن حبان من حديث عائشة « تنظفوا فإن الإسلام نظيف » والطبراني في الأوسط بسند ضعيف جداً من حديث ابن مسعود « النظافة تدعو إلى الإيمان » .  
(٣) حديث « مفتاح الصلاة الطهور » أخرجه من حديث علي ، قال الترمذي : هذا أصح شيء في هذا الباب وأحسن .

نصف الإيمان (١) « وقال الله تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم) فتظن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله صلى الله عليه وسلم « الطهور نصف الإيمان » عمارة الظاهر بالتنظيف بإفاحة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإيقاعه مشحونا بالأغبات والأفذار هيئات هيئات ! والطهارة لها أربع مراتب ( المرتبة الأولى ) تطهير الظاهر عن الأحداث وعن الأغبات والفضلات ( المرتبة الثانية ) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام ( المرتبة الثالثة ) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والردائل الممقوتة ( المرتبة الرابعة ) تطهير السرحا سوى الله تعالى وهي طهارة الأنبياء صلوات الله عليهم والصدقيين ، والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها فإن الغاية القصوى في حمل السر أن ينكشف له جلال الله تعالى وعظمته ولن تحمل معرفة الله تعالى بالحقيقة في السر ما لم يرتحل ماسوى الله تعالى عنه ، ولذلك قال الله عز وجل ( قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون ) لأنهما لا يجتمعان في قلب ( وما جعل الله لرجل من قبلين في جوفه ) ( وما عمل التلب فالغاية القصوى عمارته بالأخلاق المحمودة والعقائد المشروعة ولن يتصف بها ما لم ينطق عن تقاضها من العقائد الفاسدة والردائل الممقوتة ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول الذي هو شرط في الثاني ، فتطهيره أحد الشطرين وهو الشطر الأول وعمارته بالطاعات الشطر الثاني فهذه مقامات الإيمان ولكل مقام طبقة ولأن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة ، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالمحمودية ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق المحمود ، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ عن طهارة الجوارح عن المناهي وعمارته بالطاعات وكما عاز المطلوب وشرف صعب مسلك وطال طريقه وكثرت عقباته فلا تظن أن هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالموفى ، نعم من سميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات في فهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب ، فصار يعم فيها ويستقصى في مجارها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة فلما منه بحكم الوسوسة وتحليل العقل أن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجمالة بسيرة الأولين واستفراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساوهم في أمر الظاهر ، حتى إن عمر رضى الله عنه مع علو منصبه تروأ من ماء في جرة نصرانية وحق إنهم ما كانوا يفسلون اليد من الدسومات والأطعمة بل كانوا يمسحون أصابعهم بأخص أقدامهم وعدوا الأشئان من البدع المحدثة ، ولقد كانوا يصلون على الأرض في المساجد ويمشون في الطرقات ، ومن كان لا يجعل بينه وبين الأرض حاجزا في موضع كان من أكابرهم ، وكانوا يقتصرون على الحجابة في الاستنجاء . وقال أبو هريرة وغيره من أهل الصفة : « كنا نأكل كل الشواء فقمنا الصلاة فدخل أصابعنا في الحصى ثم نفرحها بالتراب ونكبر (٢) » وقال عمر رضى الله عنه : « ما كنا نعرف الأشئان في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطون أرجلنا (٣) كنا إذا أكلنا العمر مسحنا بها » ويقال أول ما ظهر من البدع بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربع : المناخل والأشئان والمواد والشعب . فكانت عنايتهم كلها بنظافة الباطن حتى قال بعضهم : الصلاة في النملين أفضل « لأن رسول الله صلى الله عليه

(١) حديث « الطهور نصف الإيمان » أخرجه ت من حديث رجل من بنى سليم وقيل . حسن ، ودواه مسلم من حديث أبي مالك الأشعري بلفظ « شطر » كما في الإحياء .

(٢) حديث « كنا نأكل الشواء فقمنا الصلاة فدخل أصابعنا في الحصى » الحديث . أخرجه . من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ولم أره من حديث أبي هريرة .

(٣) حديث عمر « ما كنا نعرف الأشئان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وإنما كانت مناديلنا بطن أرجلنا » الحديث . لم أجده من حديث عمر ولا بن ماجه نحوه مختصراً من حديث جابر .

وسلم لما نزع نعليه في صلاته ، بإخبار جبرائيل عليه السلام له أن بهما نجاسة وخلع الناس نعالهم قال صلى الله عليه وسلم لم خلعت نعالكم (١) ؟ وقال التنخى في الذين يحملون نعالهم « وددت لو أن محتاجا جاء إليها فأخذها » منكرا لخلع النعال . فهكذا كان تساهلهم في هذه الأمور بل كانوا يمشون في ملين الشوارع حفاة ويجلسون عليها ويصلون في المساجد على الأرض ، ويأكلون من دقيق البر والشعير وهو يداس بالذواب وتبول عليه ، ولا يمتدرون من عرق الإبل والخيل مع كثرة تمرغها في النجاسات ، ولم ينقل قط عن أحد منهم سؤال في دقائق النجاسات فسكدا كان تساهلهم فيها . وقد انتهت التوبة الآن إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة فيقولون هي مبنى الدين فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر ، كفعل المشاة بعروسها والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستشعرون ذلك ولا يمتدحون منه ولو اقتصر مقتصر على الاستنجاء بالحجر أو مشى على الأرض حافيا أو صلى على الأرض أو حل بوازي المسجد من غير سجادة مفروشة أو مشى على الفرش من غير غلاف للقدم من آدم أو توصأ من آتية عجوز أو رجل غير متقشف أقاموا عليه القيامة وشدا عليه التكبير ولقبوه بالقدرة وأخرجوه من ذمهم واستنكفوا عن مؤاكلته ومخالطته . فسموا البذاذة التي هي من الإيمان قدراة والرعونة نظافة فانظر كيف صار المنكر معروفا والمعروف منكرا ! وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرس حقيقته وعلمه .

فإن قلت : أفنتقل إن هذه العادات التي أحدثها الصوفية في هيئاتهم ونظافتهم من المحظورات أو المنكرات ؟ فأقول : حاش لله أن أطلق القول فيه من غير تفصيل والسكتي أقول إن هذا التتظيف والتكلف وإعداد الأواني والآلات واستعمال غلاف القدم والإزار المقتنع به لدفع القبار وغير ذلك من هذه الأسباب إن وقع النظر إلى ذاتها على سبيل التجرد فهي من المباحات وقد يقرن بها أحوال ونيات تلحقها نارة بالمنكرات ، فأما كونها مباحة في نفسها فلا يخفى أن صاحبها متصرف بها في ماله وبدنه وثيابه فيفعل بها ما يريد إذا لم يكن فيه إضاعة وإسراف ، وأما مصيرها منكرا فبأن يجعل ذلك أصل الدين ويفسر به قوله صلى الله عليه وسلم « بنى الدين على النظافة » حتى يشكر به على من يتساهل فيه تساهل الأولين أو يكون القصد به تزيين الظاهر للخلق وتحسين موقع نظرهم ؟ فإن ذلك هو الرياء المحظور فيصير منكرا بهذين الاعتبارين ، أما كونه معروفا فبأن يكون القصد منه الخير دون التزين وأن لا يشكر على من ترك ذلك ولا يؤخر بسببه الصلاة عن أوائل الأوقات ولا يشتغل به عن عمل هو أفضل منه أو عن علم أو غيره ، فإذا لم يقرن به شيء من ذلك فهو مباح يمكن أن يجعل قربة بالنية ولكن لا يتيسر ذلك إلا للباطلين الذين لم يشتغلوا بصرف الأوقات فيه لاشتغلوا بنوم أو حديث فنيا لا يعني فيصير شغلهم به أولى لأن الاشتغال بالطهارة يحدد ذكر الله تعالى وذكر العبادات فلا بأس به إذا لم يخرج إلى منكر أو إسراف وأما أهل العلم والعمل فلا ينبغي أن يصرفوا من أوقاتهم إليه إلا قدر الحاجة فالزيادة عليه منكرا في حقهم وتضييع العمر الذي هو أنفس الجواهر وأعزها في حق من قدر على الانتفاع به . ولا يتعجب من ذلك فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين . ولا ينبغي الباطل أن يترك النظافة ويشكر على المتصوفة ويرغم أنه يقشبه بالصحاب إذ التقبه بهم في أن لا يفرغ إلا لما هو أهم منه ، كما قيل لداود الطائي لا تترحم لحيتك ؟ قال : إني إذن لفارغ . فلماذا لا أرى للعالم ولا للتعلم ولا للعامل أن يضع وقته في غسل الثياب اجترأ من أن يلبس الثياب المقصورة وتوهما بالقصر تقصيرا في غسل ، فقد كانوا في العصر الأول يصلون في الفراء المدبوغة ولم يعلم منهم من فرق بين المقصورة والمدبوغة في الطهارة والنجاسة ، بل كانوا يجتنبون النجاسة إذا شاهدها ولا ينققون نظرهم في استنباط الاحتمالات الدقيقة ، بل كانوا يتأملون في دقائق الرياء والظلم حتى قال سفيان الثوري لرفيق له كان يمشي معه فنظر إلى باب دار مرفوع معمور :

(٣) حديث « خلعت نعليه في الصلاة إذ أخبره جبريل عليه الصلاة والسلام أن عليه نجاسة » أخرجه ذلك وصححه من حديث أبي سعيد الخدري .

لا تفعل ذلك فإن الناس لو لم ينظروا إليه لكان صاحبه لا يتعاطى هذا الإسراف ، فالناظر إليه معين له عن الإسراف . فكانوا يمدون جوام الذهن لاستنباط مثل هذه الدقائق لافى احتمالات النجاسة . فلو وجد العالم عامياً يتعاطى له غسل الثياب محتاطاً فهو أفضل فإنه بالإحاطة إلى التساهل خير ، وذلك العاى يلتفت بتعاطيه إذ يشغل نفسه الأمانة بالسوء بعمل المباح فى نفسه فيمتنع عليه المعاصى فى تلك الحال والنفس إن لم تشغل بشئ شغلت صاحبها وإذا قصد به التقرب إلى العالم صار ذلك عنده من أفضل القربات . فوقت العالم أشرف من أن يصرفه إلى مثله فيبقى محفوظاً عليه ، وأشرف وقت العاى أن يشتغل بمثله فيتوفر الخير عليه من الجوانب كلها . وليتفتن بهذا المثل لنظائره من الأعمال وتزيب فضائلها ووجه تقديم البعض منها على البعض ، فتدقيق الحساب فى حفظ لحظات العمر بصرفها إلى الأفضل أهم من التدقيق فى أمور الدنيا بمخذاقيرها . وإذا عرفت هذه المقدمة واستقنت أن الطهارة لها أربع مراتب . فاعلم أنا فى هذا الكتاب لسنا نتكلم إلا فى المرتبة الرابعة وهى نظافة الظاهر لأنها فى الشطر الأول من الكتاب لا نعرض قصداً إلا للظواهر . فنقول طهارة الظاهر ثلاثة أقسام : طهارة عن الخبث وطهارة عن الحدث وطهارة عن فضلات البدن ، وهى التى تحصل بالقلم والاستعداد واستعمال النوبة والتختان وغيره .

### القسم الأول : فى طهارة الخبث ، والنظر فيه يتعلق بالمزال والمزال به والإزالة

#### الطرف الأول : فى المزال

وهى النجاسة . والأعيان ثلاثة : جمادات وحيوانات وأجزاء حيوانات . أما الجمادات فطاهرة كلها إلا الخمر وكل متبذ مسكر ، والحيوانات طاهرة كلها إلا الكلب والخنزير وما تولد منهما أو من أحدهما . فإذا ماتت فسكها نجسة إلا خمسة : آدمى والسملك والجراد ودود التفاح - وفى معناه كل ما يستحيل من الأطعمة - وكل ما ليس له نفس سائلة كالذباب والخنفساء وغيرهما فلا ينجس الماء بوقوع شئ منها فيه . وأما أجزاء الحيوانات فقسمان : أحدهما : ما يقطع منه وحكمه حكم الميت والشعر لا ينجس بالجوز ، والموت والعظم ينجس . الثانى : الرطوبات الخارجة من باطنه فكل ما ليس مستحيلاً ولا له مقر فهو طاهر كالدمع والعرق واللعاب والمخاط ، وماله مقر وهو مستحيل فنجس ، إلا ما هو مادة الحيوان كاللبن والبيض . والقيح والدم والروث والبول نجس من الحيوانات كلها . ولا يعنى عن شئ من هذه النجاسات قليلاً وكثيراً إلا عن خمسة ، الأول : أثر النجو بعد الاستنجاء بالأحجار يعنى عنه ما لم يعد المخرج . والثانى : طين الشوارع وغبار الروث فى الطريق يعنى عنه مع تيقن النجاسة بقدر ما يتعدى الاحتراز عنه ، وهو الذى لا ينسب المتلطف به إلى تقرُّط أو سقطة . الثالث : ما على أسفل الخف من نجاسة لا يخلو الطريق عنها فيعنى عنه بعد ذلك للحاجة . الرابع : دم البراغيث ما قل منه أو كثر إلا إذا تجاوز حد العادة سواء كان فى ثوبك أو فى ثوب غيرك فلبسته . الخامس : دم البشرات وما ينفصل منها من قيح وصيد . وذلك ابن عمر رضى الله عنه برة على وجهه نخرج منها الدم وصلى ولم ينسل . وفى معناه ما يترشح من لطخات الدماemel التى تدمر غالباً ، وكذلك أثر الفصد إلا ما يقع نادراً من خراج أو غيره فليقلق بدم الاستحاضة ولا يكون فى معنى البشرات التى لا يخلو الإنسان عنها فى أحواله . ومساحة الشرع فى هذه النجاسات الجنس تمرقك أن أمر الطهارة على التساهل ، وما ابتدع فيها وسوسة لا أجل لها .

#### الطرف الثانى : فى المزال به

وهو إما جامد وإما مائع ، أما الجامد فحجر الاستنجاء وهو مطهر تطهير تجفيف بشرط أن يكون صلباً طاهراً منشفاً غير محترق ، وأما المائعات فلا تزال النجاسات بشئ منها إلا الماء ، ولا كل ماء بل الطاهر الذى لم يتناحش



تغيره بمخالطة ما يستغنى عنه . ويخرج الماء عن الطهارة بأن يتغير بمخالطة النجاسة طعمه أو لونه أو ريحه . فإن لم يتغير وكان قريباً من مائتين وخمسين منا - وهو حسنة رطل برطل العراق - لم ينحس لقوله صلى الله عليه وسلم « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً » وإن كان دونه صار نجساً عند الشافعي رضى الله عنه . وهذا في الماء الراكد . وأما الماء الجاري إذا تغير بالنجاسة فالجرية المتغيرة نجسة دون ما فوقها وما تحتها لأن جريته الماء متفاضلات . وكذا النجاسة الجارية إذا جرت بمجرى الماء فالنجس موقعها من الماء وما من بينهما وشمالها إذا تقاصر عن قلتين . وإن كان جرى الماء أقوى من جرى النجاسة فما فوق النجاسة طاهر وما سفل عنها فنحس وإن تباعد وكثر إلا إذا اجتمع في حوض قدر قلتين . وإذا اجتمع قلتان من ماء نجس طهر ولا يعود نجساً بالتفريق . هذا هو مذهب الشافعي رضى الله عنه . وكنت أود أن يكون مذهبه كذهب مالك رضى الله عنه في أن الماء وإن قل لا ينحس إلا بالتغير إذا الحاجة ماسة إليه ومثار الوسواس اشتراط القلتين ، ولأجله شق على الناس ذلك . وهو لعمرى سبب المشقة ويعرفه من يحربه ويتأمله . وما لا أشك فيه أن ذلك لو كان مشروطاً لكان أول المواضع يتسر الطهارة : مكة والمدينة؛ إذ لا تسكر فيها المياه الجارية ولا الركاكة الكثيرة . ومن أول عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى آخر عصر أصحابه لم تنقل واقعة في الطهارة ولا سؤال عن كيفية حفظ الماء عن النجاسات . وكانت أواني مياههم يتعاطاها الصبيان والإماء الذين لا يحرزون عن النجاسات : وقد توضع عمر رضى الله عنه بما في جرة نصرانية ، وهذا كالأصريح في أنه لم يحول إلا على عدم تغير الماء وإلا فتجاسة النصرانية وإنائها غالية تعلم بظن قريب ، فإذا عسر القيام بهذا المذهب . وضد وقوع السؤال في تلك الأعصار : دليل أول . وقيل عمر رضى الله عنه : دليل ثان . والدليل الثالث : إصغاء رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء للهرّة <sup>(١)</sup> وعدم تغطية الأواني منها ، بعد أن يرى أنها تأكل الفأرة ولم يكن في بلادهم حياض تلغ السنائر فيها وكانت لاتنزل الآبار . والرابع : أن الشافعي رضى الله عنه نص على أن فسالة النجاسة طاهرة إذا لم تتغير ونجسة إن تغيرت ، وأى فرق بين أن يلاقى الماء النجاسة بالورود عليها أو بورودها عليه ؟ وأى معنى لقول القائل إن قوة الورد تدفع النجاسة مع أن الورد لم يمنع مخالطة النجاسة ؟ وإن أحيل ذلك على الحاجة فالحاجة أيضاً ماسة إلى هذا فلا فرق بين طرح الماء في إجماعة فيها ثوب نجس أو طرح الثوب النجس في الإجماعة وفيها ماء ؟ وكل ذلك معتاد في غسل الثياب والأواني . والخامس : أنهم كانوا يستنجون على أطراف المياه الجارية القليلة ، ولا خلاف في مذهب الشافعي رضى الله عنه أنه إذا وقع بول في ماء جار ولم يتغير أنه يجوز التوضؤ به وإن كان قليلاً . وأى فرق بين الجاري والراكدة؟ وليت شعري هل الحوالة على عدم التغير أولى أو على قوة الماء بسبب الجريان ؟ ثم ما حذر تلك القوة أن تجري في المياه الجارية في أنابيب الحمامات أم لا ؟ فإن لم تجر فما الفرق وإن جرت فما الفرق بين ما يقع فيها وبين ما يقع في مجرى الماء من الأواني على الأبدان وهي أيضاً جارية ؟ ثم البول أشد اختلاطاً بالماء الجاري من نجاسة جامدة ثابتة إذا قضى بأن ما يجري عليها وإن لم يتغير نجس إلى أن يجتمع في مستنقع قلتان ، فأى فرق بين الجامد والمائع والماء واحد والاختلاط أشد من الجارية ؟ والسادس : أنه إذا وقع رطل من البول في قلتين ثم فرقتا فكل كوز ينفرد منه طاهر ، ومعلوم أن البول منتشر فيه وهو قليل وليت شعري هل تحليل طهارته بعدم التغير أولى أو بقوة كثرة الماء بعد انقطاع الكثرة ودوالها مع تحقق بقاء أجزاء النجاسة فيها ؟ والسابع : أن الحمامات لم تزل في الأعصار الحالية يتوضع فيها المتشققون ويقسمون الأيدي والأواني في تلك الحياض مع قلة الماء ومع العلم بأن الأيدي النجسة

(١) حديث « إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر .

(٢) حديث « إصغاء الإناء للهرّة » أخرجه الطبراني في الأوسط والدارقطني من حديث عائشة ، وروي أصحاب السنن ذلك من فضل أبي قتادة .

والطاهرة كانت تتوارد عليها . فبهذه الأمور مع الحاجة الشديدة تقوى في النفس أنهم كانوا ينظرون إلى عدم التغير معولين على قوله صلى الله عليه وسلم « خلق الماء طهوراً لا ينجسه شيء » إلا ما غير طعمه أو لونه أو ريحه (١) وهذا فيه تحقيق ، وهو أن طبع كل مانع أن يقبل إلى صفة نفسه كل ما يقع فيه وكان مغلوباً من جهة ، فكما ترى الكلب يقع في الملوحة فيستحيل ملحا ويحكم بطهارته بصيرورته ملحا وذوال صفة الكلبية عنه ، فكذلك الخل يقع في الماء وكذا اللبن يقع فيه وهو قليل فتبطل صفته ويتصور بصفة الماء وينطبع بطبعه إلا إذا كثر وغلب وتعرف غلبته بغلبة طعمه أو لونه أو ريحه فهذا المعيار . وقد أشار الشرح إليه في الماء القوي على إزالة النجاسة وهو جدير بأن يعمل عليه فيندفع به الحرج ويظهر به معنى كونه طهوراً إذ يغلب عليه فيطهره ، كما صار كذلك فيما بعد القلتين وفي الفسالة وفي الماء الجاري وفي إصفاة الإناء الهرة . ولا تظن ذلك عفواً إذ لو كان كذلك لكان كأثر الاستنجاء ودم البراغيش حتى يصير الماء الملاق له نجساً ولا ينجس بالفسالة ولا ببولغ السنور في الماء القليل . وأما قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثاً » فهو في نفسه مهم فإنه يحمل إذا تغير .

فإن قيل : أراد به إذا لم يتغير فيمكن أن يقال إنه أراد به أنه في الغالب لا يتغير بالنجاسات المعتادة ، ثم هو تمسك بالمفهوم فيما إذا لم يبلغ قلتين ، وترك المفهوم بأقل من الأدلة التي ذكرناها يمكن وقوله « لا يحمل خبثاً » ظاهره نفي الحمل أي يقبله إلى صفة نفسه ، كما يقال للملحة لا تحمل كلباً ولا غيره أي يتقبل ، وذلك لأن الناس قد يستنجون في المياه القليلة وفي الغدران ويفمسون الألوان النجسة فيها ثم يترددون في أنها تغيرت تغيراً مؤثراً أم لا ؟ فتبين أنه إذا كان قلتين لا يتغير بهذه النجاسة المعتادة .

فإن قلت : فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يحمل خبثاً » ومهما كثرت حملها فهذا يتقبل عليك فإنها مهما كثرت حملها حكماً كما حملها حساً . فلا بد من التخصيص بالنجاسات المعتادة على المذهبين جميعاً ؟ وعلى الجملة فبلى في أمور النجاسات المعتادة إلى التساهل فيما من سيرة الأولين وحسب مادة الوسواس وبذلك أقيمت بالطهارة فيما وقع الاختلاف فيه في مثل هذه المسائل .

### الطرف الثالث: في كيفية الإزالة

والنجاسة إن كانت حكيمة وهي التي ليس لها جرم محسوس فيمكن لإجراء الماء على جميع مواردها ، وإن كانت صينية فلا بد من إزالة العين ، وبقاء الطعم يدل على بقاء العين وكذا بقاء اللون إلا فيما يلتصق به فهو معفو عنه بعد الحث والقرص . أما الرائحة فبقاؤها يدل على بقاء العين ولا يفي عنها إلا إذا كان الشيء له رائحة فائحة يعسر إزالتها فالدلك والمصر مرار متواليات يقوم مقام الحث والقرص في اللون والمزيل للوسواس أن يعلم أن الأشياء خلقت طاهرة بيقين فلا يشاهد عليه نجاسة ولا يعلمها بيقين يصل معه ، ولا ينبغي أن يتوصل بالاستنباط إلى تقدير النجاسات القسم الثاني : طهارة الأحداث ، ومنها الوضوء والغسل والتيمم ويتقدم الاستنجاء ، فلنورد كيفيةها على الترتيب مع آدابها وسنلتها مبتدئين بسبب الوضوء وآداب قضاء الحاجة إن شاء الله تعالى .

### باب آداب قضاء الحاجة

ينبغي أن يبعد عن أعين الناظرين في الصحراء وأن يستر بشيء إن وجدته ، وأن لا يكشف عورته قبل الانتهاء

(١) حديث « خلق الله الماء طهوراً لا ينجسه شيء إلا ما غير لونه أو طعمه أو ريحه » أخرجه من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف ، وقد رواه أبو داود والترمذي من حديث أبي سعيد وصححه أبو داود وغيره .

إلى موضع الجلوس وأن لا يستقبل الشمس والقمر وأن لا يستقبل القبلة ولا يستبرأها إلا إذا كان في بناء ، والمدون أيضاً عنها في البناء أحب وإن استبرأ في الصحراء براحتك جاز وكذلك بذيله ، وأن يتنقّل الجلوس في متحدث الناس وأن لا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر ، وأن يتنقّل موضع الصلب ومهاب الرياح في البول استزاهاً من رشاشه وأن يتكبر في جلوسه على الرجل اليسرى وإن كان في بنيان يقدم الرجل اليسرى في الدخول واليمنى في الخروج ولا يبول قائماً . قالت عائشة رضي الله عنها « من حدثك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائماً فلا تصدقوه » (١) وقال عمر رضي الله عنه « رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائماً فقال : يا عمر لا تبطل قائماً » (٢) قال عمر : فابلت قائماً بعد ، وفيه رخصة ، إذ روى حذيفة رضي الله عنه « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً فأنتبه فوضوء ومسح على خفيه » (٣) ولا يبول في المغتسل ، قال صلى الله عليه وسلم : « عامة الوسواس منه » (٤) وقال ابن المبارك : قد وسع في البول في المغتسل إذا جرى الماء عليه ذكره الترمذي وقال عليه الصلاة والسلام « لا يبول أحدكم في مستحمه ثم يتوضأ فيه فإن عامة الوسواس منه » وقال ابن المبارك : إن كان الماء جارياً فلا بأس به ، ولا يستحب شيئاً عليه اسم الله تعالى أو رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . وأن يقول عند الدخول « بسم الله أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث الشيطان الرجيم » وعند الخروج « الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذي ويأبى علي ما ينفعني » ويكون ذلك خارجاً عن بيت الماء وأن يعد النبل قبل الجلوس ، وأن لا يستنجى بالماء في موضع الحاجة وأن يستبرأ من البول بالثنيج والثئر - ثلاثاً - وإسراء اليد على أسفل القضيب ولا يكثر التفسك في الاستبراء فيتوسوس ويشق عليه الأمر وما يحس به من بلل فليقدر أنه بقية الماء . فإن كان يؤذيه ذلك فليرش عليه الماء حتى يقوى في نفسه ذلك ولا يتسلط عليه الشيطان بالوسواس . وفي الخبر أنه صلى الله عليه وسلم فعله أعني رش الماء (٥) وقد كان أخفهم استبراء أفقهم ، فتدل الوسوسة فيه على قلة الفقه . وفي حديث سلمان رضي الله عنه « علنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحراة ، فأمرنا أن لا نستنجى بمظن ولا روث ، ونهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول » (٦) ، وقال رجل لبعض الصحابة من الأعراب وقد غاصمه : لا أحسبك تحسن الحراة ! قال : بلى وأبيك إني لأحسبها وإن بها لحاذق أبعد الأثر ، وأعد المدر ، وأستقبل الصبح ، وأستدبر الريح ، وأقوى إقواء الطغي ، وأجمل إجمال النمام - الصبح نبت طيب الرائحة بالبادية ، والإقواء هبنا أن يستوفى على صدور قدميه ، والإجمال أن يرفع عجزه - ومن الرخصة أن يبول الإنسان قريباً من صاحبه مستراً عنه (٧) فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع شدة حيائه ليعين للناس ذلك .

- (١) حديث عائشة « من حدثك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يبول قائماً فلا تصدقوه » أخرجه الترمذي والنسائي وابن ماجه قال الترمذي هو أحسن شيء في هذا الباب وأصح .  
 (٢) حديث عمر « رأي النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائماً فقال يا عمر لا تبطل قائماً » أخرجه ابن ماجه بإسناد ضعيف ، رواه ابن حبان من حديث ابن عمر ليس فيه ذكر لعمر .  
 (٣) حديث « أنه عليه الصلاة والسلام بال قائماً ... الحديث » متفق عليه .  
 (٤) حديث « قال في البول في المغتسل : عامة الوسواس منه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن مغفل قال الترمذي غريب قلت وإسناده صحيح .

- (٥) حديث « رش الماء بعد الوضوء » وهو الانتضاح أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث سفيان ابن الحكم الثقفى أو الحكم بن سفيان وهو مضطرب كما قاله الترمذي وابن عبد البر .  
 (٦) حديث سلمان « علنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء حتى الحراة ... الحديث » أخرجه مسلم وقد تقدم في قواعد العقائد .  
 (٧) حديث « البول قريباً من صاحبه » متفق عليه من حديث حذيفة .

### كيفية الاستنجاء

ثم يستنجي لمعدته بثلاثة أحجار ، فإن أتى بها كفى وإلا استعمل رابعاً ، فإن أتى استعمل خامساً لأن الإفتاء واجب والإيتار مستحب . قال عليه السلام « من استجمر فليوتر (١) » وبأخذ الحجر يسراه ويضعه على مقدم المقعدة قبل موضع التجاسة ويمره بالمسح والإدارة إلى المؤخر ، وبأخذ الثاني ويضعه على المؤخر كذلك ويمره إلى المقدمة ، وبأخذ الثالث فيديره حول المسربة إدارة فإن عسرت الإدارة ومسح من المقدمة إلى المؤخرة أجراه ، ثم يأخذ حجراً كبيراً يمينه والقصيب يساره ويمسح الحجر بفضيه ويمرّك اليسار فيمسح ثلاثاً في ثلاثة مواضع أو في ثلاثة أحجار أو في ثلاثة مواضع من جدار إلى أن لا يرى الرطوبة في محل المسح فإن حصل ذلك بمرتين أتى بالثالثة ووجب ذلك إن أراد الاقتصار على الحجر ، وإن حصل بالرابطة استحب الخامسة للإيتار . ثم ينقل من ذلك الموضع آخر ويستنجي بالماء بأن يفيضه باليمنى على محل التجو ويدلك باليسرى حتى لا يبق أثر يدركه الكف بحس اللبس ، ويدرك الاستقصاء فيه بالتمرض للباطن فإن ذلك منبج الوسواس ، ولعل أن كل ما لا يصل إليه الماء فهو باطن ولا يثبت حكم التجاسة للفضلات الباطنة ما لم تظهر ، وكل ما هو ظاهر وثبت له حكم التجاسة فحده طهوره أن يصل الماء إليه فيزيله ولا معنى للوسواس . ويقول عند الفراغ من الاستنجاء « اللهم طهر قلبي من النفاق وحسن قلبي من الفواحش » وبذلك يده بمحاطة أو بالأرض لإزالة الرائحة إن بقيت . واجمع بين الماء والحجر مستحب فقد روى « أنه لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يطهروا والله يحب المتطهرين ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل قباء : ما هذه الطهارة التي أتى الله بها عليكم ؟ قالوا : كنا نجتمع بين الماء والحجر (٢) .

### كيفية الوضوء

إذا فرغ من الاستنجاء اشتغل بالوضوء فلم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم قط خارجاً من الفائط إلا توضأ وابتدئ بالسواك فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أفواهم طرق القرآن فطليوها بالسواك (٣) » فينبغي أن ينوي عند السواك تطهيره لقراءة القرآن وذكر الله تعالى في الصلاة ، وقال صلى الله عليه وسلم « صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما لكم تدخلون على قلعا استاكوا (٦) » أي صفر الأسنان « وكان صلى الله عليه وسلم يستاك في الليلة مراراً (٧) » وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : « لم ير صلى الله عليه وسلم يأمرنا بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء (٨) » وقال عليه السلام « عليكم بالسواك فإنه

(١) « من استجمر فليوتر » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) « لما نزل قوله تعالى ﴿ فيه رجال يحبون أن يطهروا ﴾ الحديث في أهل قباء وجمعهم بين الحجر والماء . . . » أخرجه البزار من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي أيوب وجابر وأوس في الاستنجاء بالماء ليس فيه ذكر « الحجر » وقول الثوري تبعاً لابن الصلاح « إن أجمع بين الماء والحجر في أهل قباء لا يعرف » مردود بما تقدم . (٣) « إن أفواهم طرق القرآن » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث علي ورواه ابن ماجه موقوفاً على علي وكلامها ضعيف . (٤) « صلاة على أثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك » رواه أبو نعيم في كتاب السواك من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف ورواه أبو داود والحاكم وصححه والبيهقي وضعفه من حديث عائشة وضعفه بلفظ من سبعين صلاة . (٥) « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٦) « ما لي أراكم تدخلون على قلعا استاكوا » أخرجه البزار والبيهقي من حديث العباس بن عبد المطلب وأبوه داود والبقوي من حديث تمام بن العباس والبيهقي من حديث عبد الله بن عباس وهو مضطرب . (٧) « كان يستاك من الليل مراراً » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس . (٨) حديث ابن عباس « لم ير صلى الله عليه وسلم يأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسواك حتى ظننا أنه سينزل عليه فيه شيء » رواه أحمد .

مطهرة للنفوس ومرضاة للرب<sup>(١)</sup> » وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : السواك يزيد في الحفظ ويذهب الباغم<sup>(٢)</sup> . وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم . وكيفية : أن يستاك بخشب الأراك أو غيره من قضبان الأشجار ما يحسن ويرزق القلع ويستاك عرضا وطولا وإن اقتصر فعرضا . ويستحب السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء . وإن لم يصل عقبه وعند تغير التكة بالنوم أو طول الأزم أو أكل ماتكره وأنته ، ثم عند الفراخ من السواك مجلس للوضوء مستقبل القبلة ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم » قال صلى الله عليه وسلم « لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى<sup>(٣)</sup> » أي لا وضوء كامل . ويقول عند ذلك « أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » ثم يفسل يديه ثلاثا قبل أن يدخلهما الإناء ، ويقول « اللهم إني أسألك العين والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة » ثم ينوي رفع الحدث أو استباحة الصلاة ويستديم النية إلى غسل الوجه فإن نسيها عند الوجه لم يجزه ، ثم يأخذ غرفة لفيه ييمينه فيتمضمض بها ثلاثا وينزغر بأن يرد الماء إلى الفمصة إلا أن يكون صائما فيرفق ويقول « اللهم أعني على تلاوة كتابك وكثرة الذكر لك » ثم يأخذ غرفة لأفنه ويستنشق ثلاثا ويصعد الماء بالنفس إلى خياشيمه ويستتر ما فيها ويقول في الاستنفاق « اللهم أوجد لي راحة الجنة وأنت عني راض » وفي الاستنثار « اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار » لأن الاستنفاق لإيصال والاستنثار لإزالة ، ثم يفرغ غرفة لوجهه فيفضله من مبدل سطح الجهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن في الطول ، ومن الأذن إلى الأذن في العرض ، ولا يدخل في حد الوجه الزعنات اللتان على طرفي الجبين فهما من الرأس ، ويوصل الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يمتد النساء تحمية الشعر عنه وهو القدر الذي يقع في جانب الوجه ، مباح وضع طرف الخط على رأس الأذن والطرف الثاني على زاوية الجبين ، ويوصل الماء إلى منابت الشعور الأربعة : الحاجبات والشاربان والمذاران والأهداب : لأنها خفيفة في الغالب . والمذاران هما ما يوزيان الأذنين من مبدل اللحية .

ويجب لإيصال الماء إلى منابت اللحية الخفيفة . أعني ما يقبل من الوجه وأما الكثيفة فلا ، وحكم الصنفقة حكم اللحية في الكثافة والخففة ، ثم يفعل ذلك ثلاثا ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية ويدخل الأصابع في عاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيهما . فقد روى أنه عليه السلام فعل ذلك<sup>(٤)</sup> . وبأمل عند ذلك خروج الخطايا من عينيهِ وكذلك عند كل عضو ويقول عنده « اللهم يبيض وجهي بنورك يوم تبيض وجه أوليائك ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسود وجوه أعدائك » ويخلل اللحية الكثيفة عند غسل الوجه فإنه مستحب ، ثم يفسل يديه إلى مرفقيه ثلاثا ويحرك الخاتم ويطلق الفرة ويرفع الماء إلى أعلى المعصد فإنهم يحشرون يوم القيامة غرا محجلين من آثار الوضوء ، كذلك ورد الخبر . قال عليه السلام « من استطاع أن

(١) حديث « عليكم بالسواك فإنه مطهرة للنفوس ومرضاة للرب » أخرجه البخاري تعليقا مجزوما من حديث عائشة والنسائي وابن خزيمة موصولا ، قلت وصل المصنف هذا الحديث بحديث ابن عباس الذي قبله وقد رواه من حديث ابن عباس الطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان .

(٢) حديث « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يروحون والسواك على آذانهم » أخرجه الخطيب في كتاب أسماء من روى عن مالك وعن أبو داود والترمذي وصححه « أن زيد بن خالد كان يشهد الصلوات وسواكه على أذنه موضع القلم من أذن الكاتب » .

(٣) حديث « لا وضوء لمن لم يسم الله » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة ، وهل الترمذي عن البخاري أنه أحسن شوء في هذا الباب .

(٤) حديث « إدخاله الأصبع في عاجر العينين وموضع الرمص ومجتمع الكحل » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة كان يتعاهد للناقين ورواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف « اشربوا الماء أعينكم » .

يطيل غرته فليقل<sup>(١)</sup>» وروى أن الحجة تبلغ مواضع الوضوء<sup>(٢)</sup> ويبدأ باليمنى ويقول « اللهم أعطني كتابي يميني وحاسبي حساباً يسيراً » ويقول عند غسل الثمال « اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشئ أو من وراء ظهري » ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رءوس أصابع يديه اليمنى باليسرى وبعضهما على مقدمة الرأس ويدهما إلى التقاء ثم يردهما إلى المقدمة ، وهذه مسحة واحدة ، يفعل ذلك ثلاثاً ويقول « اللهم غشني برحمتك وأنزل علي من بركانك وأعطني تحت ظل عرشك يوم لا ظل إلا ظلك » ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد بأن يدخل مسبحته في صماخي أذنيه ويدير إصبعه على ظاهر أذنيه ثم يضع الكف على الأذنين استظهاراً ، ويكرره ثلاثاً ويقول « اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيستمعون أحسنه اللهم . أسمعني منادى الجنة مع الأبرار ، ثم يمسح رقبته بماء جديد لقوله صلى الله عليه وسلم « مسح الرقبة أمان من النمل يوم القيامة »<sup>(٣)</sup> ويقول « اللهم فك رقبتك من النار وأعوذ بك من السلاسل والأغلال » ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثاً ويغسل باليد اليسرى ويقول « اللهم ثبت قدمي على الصراط المستقيم يوم تزل الأقدام في النار » ويقول عند غسل اليسرى « أعوذ بك أن تزل قدمي عن الصراط يوم تزل فيه أقدام المنافقين » ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين . فإذا فرغ رفع رأسه إلى السماء وقال « أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سبحانه اللهم وبمحمدك لا إله إلا أنت عملت سوياً وظللت نفسي أستغفرك اللهم وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني عبداً صبوراً شكوراً واجعلني أذكرك كثيراً وأسبحك بكرة وأصيلاً » يقال : إن من قال هذا بعد الوضوء ختم على وضوئه خاتم ورفع له تحت العرش فلم يزل يسبح الله تعالى ويقده ويكتب له ثواب ذلك إلى يوم القيامة . ويكره في الوضوء أمور : منها أن يريد على الثلاث فن زاد فقد ظلم ، وأن يسرف في الماء « توضأ عليه السلام ثلاثاً وقال من زاد فقد ظلم وأسأء »<sup>(٤)</sup> وقال « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور »<sup>(٥)</sup> ويقال : من وهن علم الرجل ولوعه بالماء في الطهور<sup>(٦)</sup> وقال إبراهيم بن آدم : يقال إن أول ما يبتدئ به الوسواس من قبل الطهور ، وقال الحسن : إن شيطاناً يضحك بالإنسان في الوضوء يقال له الهوان . ويكره أن يتفص اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء وأن يعلم وجهه بالماء لظلم . وكره قوم التشفيف وقالوا : الوضوء يؤزن ، قاله سعيد بن المسيب والزهري ، لكن روى معاذ رضي الله عنه « أنه عليه السلام مسح وجهه بطرف ثوبه »<sup>(٧)</sup> وروى عائشة رضي الله عنها « أنه صلى الله عليه وسلم كانت له منشفة »<sup>(٨)</sup> ولكن طعن في هذه الرواية عن عائشة . ويكره أن يتوضأ من إناء صغر وأن يتوضأ بالماء المشمس وذلك من جهة الطيب . وقد روى عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما كراهية إناء الصفر . وقال بعضهم : أخرجت لشعبة ماء في إناء صغر فأبى أن يتوضأ منه . ونقل كراهية

(١) « من استطاع منك أن يطيل غرته فليقل » أخرجه من حديث هريرة . (٢) « تبلغ الحلية من المؤمن ما يبلغ ماء الوضوء » أخرجه من حديثه . (٣) « مسح الرقبة أمان من النمل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث عمر وهو ضعيف . (٤) « توضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال من زاد فقد أسأء وظلم » أخرجه أبو داود والنسائي واللفظ له وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده . (٥) « سيكون قوم من هذه الأمة يعتدون في الدعاء والطهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل . (٦) حديث « من وهن علم الرجل ولوعه في الماء في الطهور » لم أجده له أصلاً . (٧) حديث معاذ « أن النبي صلى الله عليه وسلم مسح وجهه بطرف ثوبه » أخرجه الترمذي وقال غريب وإسناده ضعيف . (٨) حديث عائشة « أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له منشفة » أخرجه الترمذي وقال ليس بالقائم ، قال ولا يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الباب شيء .

ذلك عن ابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما . ومهما فرغ من وضوئه وأقبل على الصلاة فينبغي أن يخطئ بباله أنه طاهر ظاهر وهو موضع نظر الحق فينبغي أن يستحي من مناجاة الله تعالى من غير تطهير قلبه وهو موضع نظر الرب سبحانه وليسحق أن طهارة القلب بالطوبة . والخلو عن الأخلاق المذمومة والتخليق بالأخلاق الحميدة أولى . وأن من يقتصر على طهارة الظاهر كمن أراد أن يدعو ملكاً إلى بيته فكره مشحوناً بالقاذورات واشغل بتجسس ظاهر الباب البراني من الدار وما أجدر مثل هذا الرجل بالعرض للقت واليوار ! والله سبحانه وتعالى أعلم .

### فضيلة الوضوء

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه فيها بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » (١) وفي لفظ آخر « ولم يسه فيها غفر له ما تقدم من ذنبه » وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ إسباغ الوضوء على المسكاره ونقل الأقدام إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة فذلك الرباط - ثلاث مرات - » (٢) « وتوضأ صلى الله عليه وسلم مرة مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين وقال : من توضأ مرتين مرتين أمأه الله أجره مرتين ، وتوضأ ثلاثاً ثلاثاً وقال : هذا وضوء الأنبياء من قبل ووضوء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام » (٣) « وقال صلى الله عليه وسلم « من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ومن لم يذكر الله لم يطهر منه إلا ما أصاب الماء » (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم « من توضأ على طهر كتب الله له به عشر حسنات » (٥) « وقال صلى الله عليه وسلم « الوضوء نور على نور » (٦) « وهذا كله حدث على تجديد الوضوء . وقال عليه السلام « إذا توضأ العبد المسلم قمض من خرجت الخطايا من فيه فإذا استتر خرجت الخطايا من أنفه فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه حتى تخرج من تحت أشعار عيني فإذا غسل يديه خرجت الخطايا من يديه حتى تخرج من تحت أظفاره فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من تحت أذنيه وإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أظفار رجليه ثم كان مشياً إلى المسجد وصلاته نافذة له » (٧) « وروى « إن الطاهر كالصائم » (٨) « قال عليه الصلاة والسلام « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » (٩) « وقال عمر رضي الله عنه :

(١) حديث « من توضأ وأسنغ الوضوء وصلى ركعتين لم يحدث نفسه بشيء من الدنيا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » وفي لفظ آخر « لم يسه فيها غفر له ما تقدم عن ذنبه » أخرجه أبي البارك في كتاب الزهد والرفاق باللفظين معاً وهو متفق عليه من حديث عثمان بن عفان دون قوله « بشيء من الدنيا » ودون قوله « لم يسه فيها » وأخرجه أبو داود من حديث زيد بن خاله « ثم صلى ركعتين لا يسهو فيها... الحديث » . (٢) حديث « ألا أنبئكم بما يكفر الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة . (٣) حديث « توضأ مرة مرة وقال هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٤) حديث من ذكر الله عند وضوئه طهر الله جسده كله ... الحديث » رواه الدارقطني من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف . (٥) حديث « من توضأ على طهر كتب الله له عشر حسنات » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٦) حديث « الوضوء على الوضوء نور على نور » لم أجده إلا أصلاً . (٧) حديث « إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن قمض من خرجت الخطايا من فيه ... الحديث » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث الصنابحي بإسناده صحيح ، ولكن اختلف في صحته وعند مسلم من حديث أبي هريرة وعمر بن عتبة نحوه مختصراً .

(٨) حديث « الطاهر النائم كالصائم » أخرجه أبو منصور الديلمي من حديث عمرو بن حريث « الطاهر النائم كالصائم القائم » وسنده ضعيف . (٩) حديث « من توضأ فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله ... الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عقبة بن عامر وهو عند مسلم دون قوله « ثم رفع هكذا » عزاه المزني في الأطراف وقد رواه النسائي « في اليوم والليلة » من رواية عقبة بن عامر وكذا رواه الدارمي في مسنده .

إن الوضوء الصالح يطرد عنك الشيطان . وقال مجاهد : من استطاع أن لا يبيت إلا طاهراً ذاكرًا مستغفرًا فليغفرل فإن الأرواح تبعث على ما قبضت عليه .

## كيفية الغسل

وهو أن يضع الإناء عن يمينه ثم يسمي الله تعالى ويغسل يديه ثلاثاً ، ثم يستنجي كما وصفت لك ويزيل ما على بدنه من نجاسة إن كانت ، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة كما وصفنا لإلا غسل القدمين فإنه يؤخرهما فإن غسلها ثم وضعهما على الأرض كان إضاعة للماء ، ثم يصب الماء على رأسه ثلاثاً ، ثم على شقه الأيمن ثلاثاً ، ثم على شقه الأيسر ثلاثاً . ثم بذلك ما أقبل من بدنه وما أدبر ويغسل شعر الرأس والحية ويوصل الماء إلى منابت ما كثف منه أو خف ، وليس على المرأة نقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلال الشعر ، ويتعهد معانف البدن وليتقن أن يمس ذكره في أثناء ذلك فإن فعل ذلك فليعد الوضوء ، وإن توضأ قبل الغسل فلا يعيده بعد الغسل . فلهذه سنن الوضوء والغسل ذكرنا منها ما لا بد لسالك طريق الآخرة من عمله وعمله ، وما عداه من المسائل التي يحتاج إليها في عوارض الأحوال فليرجع فيها إلى كتب الفقه . والواجب من جملة ما ذكرناه في الغسل أمران : التيمم واستيماب البدن بالغسل . وفرض الوضوء : التيمم وغسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين ومسح ما ينطق عليه الاسم من الرأس وغسل الرجلين إلى الكعبين والترتيب . وأما الموالاة فليست بواجبة . والغسل الواجب بأربعة : بخروج المني والتقاء الحتاتين والحيض والنفاس ، وما عداه من الأغسال سنة كغسل العيدين والجمعة والأعياد والإحرام والوقوف بهرة ومزدلفة ولندخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع - على قول - والكافر إذا أسلم غير جنب والمجنون إذا أفاق وبن غسل ميتاً ؛ فكل ذلك مستحب .

## كيفية التيمم

من تعذر عليه استعمال الماء - لفقده بعد الطلب أو مانع له عن الوصول إليه من سبب أو حابس أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعلفه أو لعلطه رفيقه أو كان ملصقاً لغيره ولم يبعه إلا بأكثر من المثل أو كان به جراحة أو مرض وخاف من استعماله فساد العضو أو شدة الضيق - فينبغي أن يصبر حتى يدخل عليه وقت الفريضة ، ثم يقصد صعيداً طيباً طراب طاهر خالص لين بحيث يثور منه غبار ، ويضرب عليه كفيه ضاماً بين أصابعه ويمسح بهما جميع وجهه مرة واحدة ، وينوي عند ذلك استباحة الصلاة ، ولا يكلف لإيصال الغبار إلى ما تحت الشعور خفت أو كثفت ، ويجهد أن يستوعب بشرة وجهه بالغبار - ويحصل ذلك بالضربة الواحدة فإن عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين - ويكفي في الاستيماب غالب الظن ، ثم يترجع خاتمه ويضرب ضربة ثانية بفرضها بين أصابعه ثم يلمس بطور أصابع يده اليمنى بطول أصابع يده اليسرى - بحيث لا يمازج أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى - ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظاهر ساعده الأيمن إلى المرفق ، ثم يقلب بطن كفه اليسرى على باطن ساعده الأيمن ويمر بها الكوع ، ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظاهر إبهامه اليمنى ثم يفعل باليسرى كذلك ، ثم مسح كفيه ويغسل بين أصابعه ، وغرض هذا التكليف تحصيل الاستيماب إلى المرفقين بضربة واحدة فإن عسر عليه ذلك فلا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة وإذا صلى به الفرض فله أن يتنفل كيف شاء ، فإن جمع بين فريضتين فينبغي أن يعيد التيمم الثانية . وهكذا يفرد كل فريضة بقيم والله اعلم .



القسم الثالث من النظافة : التنظيف عن الفضلات الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء النوع الأول : الأوساخ والرطوبات المترسبة وهي ثمانية :

الأول : ما يجتمع في شعر الرأس من الدرن والقمل ، فالتنظيف عنه مستحب بالغسل والترجيل والتدهين إزالة للشعث عنه « وكان صلى الله عليه وسلم يدهن الشعر غياً ويأمر به <sup>(١)</sup> ويقول عليه الصلاة والسلام : ادعوا غياً <sup>(٢)</sup> » وقال عليه الصلاة والسلام « من كان له شعرة فليكرمها <sup>(٣)</sup> » أي ليصنها عن الأوساخ « ودخل عليه رجل نائر الرأس أشعث اللحية فقال : أما كان لهذا دهن يسكن به شعره ثم قال : يدخل أحدكم كأنه شيطان <sup>(٤)</sup> » الثاني : ما يجتمع من الوسخ في معاطف الأذن ، والمسح يزيل ما يظهر منه وما يجتمع في فم الصباغ فيلبيح أن ينظف برفق عند الخروج من الحمام فإن كثرة ذلك ربما تضر بالسمع . الثالث : ما يجتمع في داخل الأنف من الرطوبات المنهكة المتصلة بجوانبه ويزيلها بالاستنشاق والاستنثار . الرابع : ما يجتمع على الأسنان وطرف اللسان من الفلج فيزيله بالسواك والمضمضة وقد ذكرناهما . الخامس : ما يجتمع في اللحية من الوسخ والقمل إذا لم يتمدد وينسحب إزالة ذلك بالغسل والتسريح بالمشط . وفي الخبر المشهور أنه صلى الله عليه وسلم « كان لا يفارقه المشط والمدرى والمرأة في سفر ولا حضر <sup>(٥)</sup> » وهي سنة العرب وفي خبر غريب « أنه صلى الله عليه وسلم كان يسرح لحيته في اليوم مرتين <sup>(٦)</sup> » وكان صلى الله عليه وسلم كث اللحية <sup>(٧)</sup> وكذلك كان أبو بكر ، وكان عثمان طويل اللحية رقيقها وكان على عريض اللحية قد نالت ما بين مشكبيه . وفي حديث أغرب منه قالت عائشة رضی الله عنها « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم يطلق في الحب يسوى من رأسه ولحيته <sup>(٨)</sup> » فقلت أو تفعل ذلك يا رسول الله ؟ فقال : نعم إن الله يحب من عبده أن يتجمل لإخوانه إذا خرج إليهم » والجاهل ربما يظن أن ذلك من حب التزين للناس قياساً على أخلاق غيره وتشبيهاً لللائكة بالحدادين وهباته فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مأموراً بالدعوة وكان من وظائفه أن يسعى في تعظيم أمر نفسه في قلوبهم كيلا تزديده نفوسهم ويحسن صورته في أعينهم كيلا تستغفره أعينهم فينفرهم ذلك ويتعلق المناقون بذلك في تغفيرهم . وهذا القصد واجب على كل عالم تصدى لدعوة الخلق إلى الله عز وجل ، وهو أن يراعى من ظاهره ما لا يوجب قرة الناس عنه . والاعتدال في مثل هذه الأمور على النية فإنها أعمال في أنفسها تكتسب الأوصاف من المقصود فالترين

(١) حديث « كان يدهن الشعر ويرجله » أخرجه الترمذی في الشیائل بإسناد ضعيف من حديث أنس « كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحيته ، وفي الشیائل أيضاً بإسناد حسن من حديث صحابي لهزم « أنه عليه الصلاة والسلام كان يترجل غياً » . (٢) حديث « ادعوا غياً » قال ابن الصلاح لم أجد له أصلاً وقال النووي غير معروف وعند أبو داود والترمذی والنسائی من حديث عبد الله بن مغفل « انتهى عن الرجل إلا غياً » بإسناد صحيح . (٣) حديث « من كانت له شعرة فليكرمها » من حديث أبي هريرة وقال « به شعره ... فليكرمها » وليس إسناده بأقوى . (٤) حديث « دخل عليه رجل نائر الرأس أشعث اللحية فقال أما كان لهذا دهن يسكن به شعره الحديث » أخرجه أبو داود والترمذی وابن حبان من حديث جابر بإسناد جيد . (٥) « كان لا يفارقه المشط والمدرى في سفر ولا حضر » أخرجه ابن طاهر في كتاب صفة التصوف من حديث أبي سعيد ، كان لا يفارق مصلاه سواكه ومشطه ، ورواه الطبرانی في الأوسط من حديث عائشة وإسناده ضعيف . وسأني في آداب السفر مطولا . (٦) « كان يسرح لحيته كل يوم مرتين » تقدم حديث أنس « كان يكثر تسريح لحيته » وللخطيب في الجامع من حديث الحكم مرسلاً « كان يسرح لحيته بالمشط » (٧) « كان كث اللحية » أخرجه الترمذی في الشیائل من حديث هند بن أبي هالة وأبو نعيم في دلائل النبوة من حديث علي وأصله عند الترمذی (٨) حديث عائشة « اجتمع قوم بباب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فرأيتهم يطلق في الحب يسوى من رأسه ولحيته » أخرجه ابن عدى وقال حديث منكر .

على هذا التصد محبوب وترك الثمعت في اللحية إظهاراً للزهد وقلة المبالاة بالنفوس محذور وترك شغلها بما هو أهم منه محبوب . وهذه أحوال باطنة بين العبد وبين الله عز وجل . والناسد بصير والتليس غير رائج عليه بحال ، وكمن من جاهل يتعاطى هذه الأمور التفتاً إلى الخلق وهو يلبس على نفسه وعلى غيره ويدعم أن قصدته الخير ، قرى جماعة من العلماء يلبسون الثياب الفاخرة ويدعمون أن قصدهم إراغام المبتدعة والمجادلين والتقرب إلى الله تعالى به . وهذا ينكشف يوم نبلى السرائر ، ويوم يعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور ؛ فعند ذلك تميز السيكة الخاصة من الهرجة ، فنعوذ بالله من الخزي يوم العرض الأكبر . السادس : وسخ البراجم وهي معاطف ظهور الأنامل كانت العرب لا تكثر غسل ذلك لتركها غسل اليد عقيب الطعام فيجتمع في تلك الغضون وسخ فأمرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل البراجم (١) . السابع : تنظيف الرواجب (٢) أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العرب بتنظيفها وهي ردوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ لأنها كانت لا يحضرها المقرض في كل وقت فاجتمع فيها أوساخ ؛ فوقت لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً (٣) لكنه أمر رسول صلى الله عليه وسلم بتنظيف ما تحت الأظفار (٤) وجاء في الآثار « أن النبي صلى الله عليه وسلم استبطن الوحي فلما هبط عليه جبريل عليه السلام قال له : كيف ننزل عليك وأنت لا تغسلون رواجبكم ولا تنظفون رواجبكم وقلها لا تستأكون ، مر أمك بذلك (٥) » والآف وسخ الظفر ، والتف وسخ الأذن وقوله عز وجل « فلا تقل لما مأتى فمهما أتى بما تحت الظفر من الوسخ ، وقيل لا تأذى بها كما تأذى بما تحت الظفر . الثامن : الدرن الذي يجمع على جميع البدن برشح العرق وغبار الطريق ، وذلك يزيله الحمام ولا بأس بدخول الحمام ، دخل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حمامات الشام وقال بعضهم : نعم البيت بيت الحمام يطهر البدن ويذكر النار . روى ذلك عن أبي الدرداء وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهما . وقال بعضهم : بئس البيت بيت الحمام يبدى العورة ويذهب الحياء . فهذا تعرض لأفته وذلك تعرض لفأثته ولا بأس بطلب فأثته مع الاحتراز عن آفته ولكن على داخل الحمام وظائف من السنن والواجبات ، فعليه واجبان في عورته وواجبان في عورة غيره . أما الواجبان في عورته فهو أن يصونها عن نظر الغير ويصونها عن مس الغير فلا يتعاطى أمرها وإزالة وسخها إلا بيده ، ويمنع الدلال من مس الفخذ وما بين السرة إلى العانة ، وفي إباحة ما ليس بسوءة لإزالة الوسخ احتمال ، ولكن الأقيس التحريم إذ الحق مس السواطين في التحريم بالنظر فكذلك ينبغي أن تكون بقية العورة أعنى الفخذين . والواجبان في عورة الغير أن يعض بصرف نفسه عنها وأن ينهى عن كشفها لأن النبي عن المنكر واجب ، وعليه ذكر ذلك وليس عليه القبول ولا يسقط عنه وجوب الذكر إلا لخوف ضرب أو شتم أو ما يجرى عليه بما هو حرام في نفسه ، فليس عليه أن ينكر حراماً يرهق المنكر عليه إلى مباشرة حرام آخر . فأما قوله اعلم أن ذلك لا يفيد ولا يعمل به فهذا

- (١) « الأمر بغسل البراجم » أخرجه الترمذى الحكيم في النوادر من حديث عبد الله بن بسر « ثوبا براجمكم ولا ين عدى في حديث لأنس « وأن يتعاهد البراجم إذا توضأ » وسلم من حديث عائشة « عشر من الفطرة - وفيد وغسل البراجم » . (٢) « الأمر بتنظيف الرواجب » أخرجه أحمد من حديث ابن عباس « أنه قيل له يا رسول الله لقد أبطأ عنك جبريل فقال ولم لا يعطى وأنت لاتستنون ولا تقيمون أظفاركم ولا شواربكم ولا تقنون رواجبكم » وفيه اسماعيل بن عياش . (٣) « التوقيت في قلم الأظفار وتنف الإبط وحلق العانة أربعين يوماً » أخرجه الطبراني من حديث دأصة بن سعيد « سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن كل شيء حتى سألت عن الوسخ الذي يكون بين الأظفار فقال دع ما يريك إلى ما لا يريك » . (٤) « استبطن الوحي : فلما هبط عليه جبريل قال له : كيف ننزل عليك وأنت لا تنظفون رواجبكم ولا تنظفون رواجبكم » تقدم قبل هذا حديثين .

لا يكون عذرا بل لابد من الذكر ، فلا يخلو قلب عن التأثر عن سماع الإنكار واستشعار الاحتراز عند التعبير بالمعاصي وذلك يؤثر في تقبيح الأمر في عينه وتنفير نفسه عنه فلا يجوز تركه ، ولعل هذا صار الحزم ترك دخول الحمام في هذه الأوقات إذ لا تغفل عن عورات مكشوفة لاسيا ماتحت السرة إلى مافوق العانة ؛ إذ الناس لا يعدونها عورة وفد أحققها الشرع بالعمرة وجعلها كالحریم لها ولهذا يستحب تخليّة الحمام . وقال بشر بن الحرث : ما أصنف رجلا لا يملك إلا درهمًا دفعه ليخلى له الحمام . وروى ابن عمر رضي الله عنهما في الحمام ووجهه إلى الحائط وقد عصب عينه بمصاصة وقال بعضهم : لا بأس بدخول الحمام ولكن بإزارين ؛ إذ ار للعمرة وإزار للرأس يتنقع به ويحفظ عينه . وأما السنن فمشرقة : فالأول : الثبة وهو أن لا يدخل لما جل دنيا ولا عابثا لأجل هوى بل يقصد به التنظيف المحبوب تزيينا للصلاة ثم يعطى الحمامي الأجرة قبل الدخول فإن ما يستوفيه مجبور وكذا ما ينتظره الحمامي ، فقلسم الأجرة قبل الدخول دفع للجمالة من أحد العوصين وتطليب لنفسه ، ثم يقدم رجله اليسرى عند الدخول ويقول « بسم الله الرحمن الرحيم أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث الخبث الشيطان الرجيم » ثم يدخل وقت الخطوة أو يشكف تخليّة الحمام فإنه إن لم يكن في الحمام إلا أهل الدين والمختاطين للوروات فالنظر إلى الأبدان مكشوفة فيه شائبة من قلة الحياء وهو مذكر للنظر في العورات ، ثم لا يخلوا الإنسان في الحركات عن انكشاف العورات بانعطاف في أطراف الإزار فيقع البصر على العمرة من حيث لا يدري ، ولا جلّه عصب ابن عمر رضي الله عنهما عليه ، وبغسل الجنائين عند الدخول ولا يعجل بدخول البيت الحار حتى يبرق في الأول ، وأن لا يكثر صب الماء بل يقتصر على قدر الحاجة فإنه المأذون فيه بقرينة الحال والزيادة عليه لو غلبه الحمامي لكرمه ، لاسيا الماء الحار فله مشوثة وفيه نصب وأن يذكر حر النار بحرارة الحمام ويقدر نفسه محبوسا في البيت الحار ساعة ويقبسه إلى جهنم ، فإنه أنجبه بيت بهنم : النار من تحت والفلّام من فوق نعوذ بالله من ذلك ، بل العاقل لا يتفعل عن ذكر الآخرة في لحظة فإنها مصيره ومستقره فيكون له في كل مابراه من ماء أو نار أو غيرهما عبرة وموعظة ، فإن المرة ينظر بحسب همته . فإذا دخل برّاز ونجار وبناء وسائط دارا معمورة مفروشة فإذا تفقدتهم رأيت البراز ينظر إلى الفرش يتأمل قيمتها والحائلك ينظر إلى الثياب يتأمل نسجها والنجار ينظر إلى السقف يتأمل كيفية تركيبها والبناء ينظر الحيطان يتأمل كيفية إحكامها واستقامتها . فكذلك سالك طريق الآخرة لا يرى من الأشياء شيئا إلا ويكون له موعظة وذكرة للآخرة ، بل لا ينظر إلى شيء إلا ويفتح الله عز وجل له طريق عبرة فإن نظر إلى سواد تذكر ظلة اللحد وإن نظر إلى حية تذكر أفاعي جهنم وإن نظر إلى سورة قبيحة شنيعة تذكر منكرا ونكيرا والزبانية ، وإن سمع صوتا هائلا تذكر نفخة الصور وإن رأى شيئا حسنا تذكر نعم الجنة وإن سمع كلمة رد أو قبول في سوق أو دار تذكر ما يتكشف آخر أمره بعد الحساب من الرّد والقبول . وما أجد أن يكون هذا هو الغالب على قلب العاقل إذ لا يصرفه عنه إلا مهمات الدنيا ؛ فإذا نسب مدة المقام في الدنيا إلى مدة المقام في الآخرة استعجزوا إن لم يكن من أغفل قلبه وأعميت بصيرته . ومن السنن : أن لا يسلم عند الدخول وإن سلم عليه لم يجب بلفظ السلام بل يسكت إن أجاب غيره وإن أحب قال « عافاك الله » ولا بأس بأن يصافح الداخل ويقول « عافاك الله » لا ابتداء الكلام . ثم لا يكثر الكلام في الحمام ولا يقرأ القرآن الا سرا ولا بأس باظهار الاستعاذة من الشيطان ويكره دخول الحمام بين العشاءين وقريبا من الغروب فإن ذلك وقت انتشار الشياطين . ولا بأس أن يدلّسك غيره فقد نقل ذلك عن يوسف بن أسباط أوصى بأن يغسله إنسان لم يكن من أصحابه وقال إنه دلّسني في الحمام مرة فأردت أن أكلفه بما يفرح به وإنه ليفرح بذلك .

ويدل على جوازه ما روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزل منزلا في بعض أسفاره فنام

على بطنه وعبد أسود يضمن ظهره ، فقلت : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال : إن الثأفة تفتح في (١) ثم مهما فرغ من الحمام شكر الله عز وجل على هذه النعمة ؛ فقد قيل الماء الحار في الشتاء من النعم الذي يسأل عنه . وقال ابن عمر رضي الله عنهما : الحمام من النعم الذي أحذثوه . هذا من جهة الشرع . أما من جهة الطب فقد قيل : الحمام بعد الثورة أمان من الجذام . وقيل : الثورة في كل شهر مرة تطفيء المرة الصفراء وتنفق اللون وتزيد في الجراح . وقيل بواة في الحمام قائما في الشتاء أنفع من شربة دواء . وقيل : نومة في الصيف بعد الحمام تعدل شربة دواء . وغسل القدمين بماء بارد بعد الخروج من الحمام أمان من النقرس ويكره صب الماء البارد على الرأس عند الخروج وكذا شربه ، هذا حكم الرجال . وأما النساء فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام (٢) » وفي البيت مستحم ، والمشهور أنه حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر (٣) ، وحرام على المرأة دخول الحمام إلا نقساء أو مريضة . ودخلت عائشة رضي الله عنها حماما من سقم بها . فإن دخلت لضرورة فلا تدخل إلا بمئزر سابع ، ويكره للرجل أن يعطيا أجرة الحمام فيكون معينا لها على المكروه .

### النوع الثاني : فيما يحدث في البدن من الأجزاء وهي ثمانية

( الأول ) شعر الرأس ولا بأس بخلقه لمن أراد التنظيف ولا بأس بتركه لمن يدهنه ويرجله إلا إذا تركه قزعا أي قطعاً وهو دأب أهل الشطارة ، أو أرسل الذوائب على هيئة أهل الشرف حيث صار ذلك شعاراً لهم فإنه إذا لم يكن شريفاً كان ذلك تليهاً .

( الثاني ) شعر الشارب وقد قال صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم « قصوا الشارب » وفي لفظ آخر « حفوا الشوارب وأعفوا اللحى » (٤) أي اجعلوها حفاف الشمة أي حولها . ومنه « وترى الملائكة حافين من حول العرش » وفي لفظ آخر « احفوا » وهذا يشعر بالاستئصال ، وقوله « حفوا » يدل على دون ذلك . قال الله عز وجل « إن يستلكموها فيحلفكم بجهنم » أي يستقصي عليكم ، وأما الحلق فلم يرد . والإحفاء القريب من الحلق نقل عن الصحابة . نظر بعض التابعين إلى رجل أحفى شاربهُ فقال : ذكرني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال المغيرة بن شعبه « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعالى فقصه على سواك » (٥) ولا بأس بترك سباليه وهما طرفا الشارب ، فعل ذلك عمر وغيره لأن ذلك لا يستر الفم ولا يبق فيه غمر الطعام إذ لا يصل إليه . وقوله صلى الله عليه وسلم « أعفوا اللحى » أي كثرها وفي الخبر « إن اليهود يعفون شواربهم

(١) « نزل منزلا في بعض أسفاره فنام على بطنه وعبد أسود يضمن ظهره ... الحديث » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث عمر بسند ضعيف .

(٢) « لا يحل للرجل أن يدخل حليلته الحمام .. الحديث » يأتي في الذي يليه مع اختلاف .

(٣) « حرام على الرجال دخول الحمام إلا بمئزر ... الحديث » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث جابر « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل الحمام إلا بمئزر ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدخل حليلته الحمام » وللحاكم من حديث عائشة « الحمام حرام على نساء أمتي » قال صحيح الإسناد ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله ابن عمر « فلا يدخلها الرجال إلا بالإنزال وامنعوها النساء إلا من مريضة أو نقساء .

(٤) « قصوا » وفي لفظ « جزوا » وفي لفظ « احفوا الشوارب وأعفوا اللحى » متفق عليه من حديث بن عمر بلفظ « احفوا » ولمسلم من حديث أبي هريرة « جزوا » ولأحمد من حديثه « قصوا » .

(٥) المغيرة بن شعبه « نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد طال شاربه فقال : تعالى فقصه لي على سواك » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي في الشبائل .

ويقصون لحام (١) غالفوم » وكره بعض العلماء الحقن وراء بدة .

( الثالث ) شعر الإبط ويستحب تنه في كل أربعين يوما مرة وذلك سهل على من تعود تنه في الابتداء ، فأما من تعود الحقن فيكفيه الحقن إذ في التنف تمذيب وإيلاء ، والمقصود النظافة وأن لا يجتمع الوسخ في خللها ويحصل ذلك بالحقن .

( الرابع ) شعر العانة ويستحب إزالة ذلك إما بالحقن أو بالنورة ولا ينبغي أن تتأخر عن أربعين يوما .  
( الخامس ) الأظفار وتقليمها مستحب لشناعة صورتها إذا طالت ولما يجتمع فيها من الوسخ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة أقلم أظفاركم فإن الشيطان يقعد على ما طال منها (٢) » ولو كان تحت الظفر وسخ فلا يمتنع ذلك محض الوضوء لأنه لا يمنع وصول الماء ولأنه يتسائل فيه للحاجة لاسيما في أظفار الرجل وفي الأوساخ التي تجمع على الأبراجم وظهور الأرجل والأيدي من العرب وأهل السواد ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرهم بالقليم ويكره عليهم ما رثت تحت أظفارهم من الأوساخ ولم يأمرهم بإعادة الصلاة ، ولو أمر به لكل فيه فائدة أخرى وهو التغليظ والرجوع عن ذلك . ولم أر في الكتب خبرا مرويا في ترتيب قلم الأظفار ولكن سمعت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأ بمسبحة اليمنى وغتم بإبهامه اليمنى وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام (٣) ولما تأملت في هذا خطر لمن المعنى ما يدل على أن الزواجة فيه صحيحة إذ مثل المعنى لا يتكشف ابتداء إلا بنور النبوة ، وأما العالم ذو البصيرة فغايته أن يستنبطه من العقل بعد نقل الفعل إليه . فالذي لاح لي فيه والعلم عند الله سبحانه أنه لا بد من قلم أظفار اليد والرجل ، واليد أشرف من الرجل فيبدأ بها ، ثم اليمنى أشرف من اليسرى فيبدأ بها ، ثم على اليمنى خمسة أصابع والمسبحة أشرفها إذ هي المشيرة في كلتي الشهادة من جملة الأصابع ، ثم بعدها ينبغي أن يتدبى بما على يمينها إذ الشرع يستحب إدارة الظهور وغيره على اليمنى ، وإن وضعت ظهر الكف على الأرض فالإبهام هو البين ، وإن وضعت بطن الكف فالوسطى هي اليمنى ، واليد إذا تركت بطيها كان الكف مائلا إلى جهة حركة العين إلى اليسار واستقامت الحركة إلى اليسار يجعل ظهر الكف عاليًا فليقتضيه الطبع أولى ، ثم إذا وضعت الكف على الكف ضارت الأصابع في حكم حلقة دائرة ، فيقتضي ترتيب الدور الذهاب عن يمين المسحة إلى أن يعود إلى المسبحة ، فتقع البداية بخنصر اليسرى والخنم بإبهامها ويبقى إبهام اليمنى فيختم به التقليم . وإنما قدرت الكف موضوعة على الكف حتى تصير الأصابع كأشخاص في حلقة ليظهر ترتيبها . وتقدير ذلك أولى من تقدير وضع الكف على ظهر الكف أو وضع ظهر الكف على ظهر الكف فإن ذلك لا يقتضيه الطبع . وأما أصابع الرجل فالأولى عندي - إن لم يثبت فيها نقل - أن يبدأ بخنصر اليمنى ويختم بخنصر اليسرى كما في التخليل ، فإن المصافي التي ذكرناها في اليد لا تنتج هنا إذ لا مسبحة في الرجل . وهذه الأصابع في حكم صف واحد ثابت على الأرض فيبدأ من جانب اليمنى فإن تقديرها حلقة بوضع الأنصهر على الأنصهر يأباه الطبع بخلاف البدن . وهذه الدقائق في الترتيب تتكشف بنور النبوة في لحظة واحدة وإنما يطول التعب علينا ، ثم لو سئلنا ابتداء عن الترتيب في ذلك ربما لم يخطر لنا . وإذا ذكرنا قلمه صلى الله عليه

(١) « إن اليهود ينفون شواربهم ويقصون لحام غالفوم » أخرجه أحمد من حديث أبي أمامة « قلنا يا رسول الله إن أهل الكتاب يقصون عثانينهم ويوفرون بياهم فقال قصوا سألكم وفروا عثانينكم وخالفوا أهل الكتاب » قلت والمشهور أن هذا فعل الجوس في صحيح ابن حبان من حديث ابن عمر في الجوس « أنهم يوفرون سبيلهم ويحلقون لحام غالفوم » (٢) « يا أبا هريرة قل ظفرك فإن للشيطان يقعد على ما طال منها » أخرجه الخطيب في الجامع بإسناد ضعيف من حديث جابر « قصوا أظفاركم » فإن الشيطان يجري ما بين اللحم والظفر . (٣) « البداية في قلم الأظفار بمسبحة اليمنى والخنم بإبهامها وفي اليسرى بالخنصر إلى الإبهام » لم أجد له أصلا وقد أنكره أبو عبد الله المازري في الرد على الغزالي وشنع عليه به .

وسلم وترتيبه ربما تيسر لنا بما عاينته صلى الله عليه وسلم بشهادة الحكم وتنبهه على المعنى استنباط المعنى ، ولا تظن أن أفضاله صلى الله عليه وسلم في جميع حركاته كانت خارجة عن وزن وقانون وترتيب بل جميع الأمور الاختيارية التي ذكرناها يتردد فيها الفاعل بين قسمين أو أقسام كان لا يقدم على واحدمعين بالاتفاق بل بمعنى يقتضى الإقدام والتفديم . فإن الاسترسال مملوكمما يتفق مسجعية اليهاثم ، وضبط الحركات بموازن المعاني مسجعية أولياء الله تعالى . وكلما كانت حركات الإنسان وخطراته إلى الضبط أقرب وعن الإهمال وتركة سدى أبعد : كانت مرتبته إلى رتبة الأنبياء والأولياء أكثر وكان قربه من الله عز وجل أظهر ، إذ القريب من النبي صلى الله عليه وسلم هو القريب من الله عز وجل والقريب من الله لا بد أن يكون قريباً فالقريب من القريب قريب بالإضافة إلى غيره فنعود بالله أن يكون زمام حركاتنا وسكناتنا في يد الشيطان بواسطة الهوى . واعتبر في ضبط الحركات باكتحاله صلى الله عليه وسلم « فإنه كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين<sup>(١)</sup> » فيبدأ باليمنى لشرفها . وتفاوته بين العيتين لشكون الجملعة ترا ، فإن للوتر فضلاً عن الزوج فإن الله سبحانه وتر يحب الوتر فلا ينبغي أن يخلو فعل العبد من مناسبة لوصف من أوصاف الله تعالى . ولذلك استحب الإيتار في الاستحجار . وإنما لم يقتصر على الثلاث وهو وتر لأن اليسرى لا يخصها إلا واحدة والغالب أن الواحدة لا تستوعب أصول الإحضان بالأكمل ، وإنما خصص اليمنى بالثلاث لأن التفصيل لا بد منه للإيتار واليمنى أفضل فهي بالزيادة أحق .

فإن قلت : فلم اقتصر على اثنتين اليسرى وهي زوج ؟ فالجواب أن ذلك ضرورة إذ لو جعل لكل واحدة وتر لكان المجموع زوجاً إذ الوتر مع الوتر زوج ، ورعايته الإيتار في مجموع الفعل وهو في حكم الحصلة الواحدة أحب من رعايته في الأحاد . ولذلك أيضاً وجه وهو أن يكتحل في كل واحدة ثلاثاً على قياس الوضوء<sup>(٢)</sup> . وقد نقل ذلك في الصحيح وهو الأول . ولو ذهبت استقصى دقائق ما راعاه صلى الله عليه وسلم في حركاته لطال الأمر فقس بما سمعته مالم تسمعه . واعلم أن العالم لا يكون وارثاً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا إذا أطلع على جميع معاني الشريعة حتى لا يكون بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم إلا درجة واحدة وهي درجة النبوة ، وهي الدرجة الفارقة بين الوارث والموروث ، إذ الموروث هو الذي حصل المال له واشتغل بتحصيله واقتدر عليه والوارث هو الذي لم يحصل ولم يقدر عليه ولكن انتقل إليه وتلقاه منه بعد حصوله له ، فأمثال هذه المعاني مع سهولة أمرها بالإضافة إلى الأغوار والأسرار لا يستقل بدركها ابتداء إلا الأنبياء ولا يستقل باستنباطها تلقياً بعد تنبيه الأنبياء عليهم السلام الذين هم وروثة الأنبياء عليهم السلام .

(السادس والسابع) زيادة السرة قلفة الحشفة ؛ أما السرة فتقطع في أول الولادة وأما التطهير بالختان فعادة اليهود في اليوم السابع من الولادة ومخالفتهم بالتأخير إلى أن يشفى الولد أحب وأبعد عن الخطر قال صلى الله عليه وسلم « الختان سنة الرجال ومكرمة للنساء<sup>(٣)</sup> » وينبغي أن لا يبالغ في خفض المرأة قال صلى الله عليه وسلم « لا تمسحوا بغيره ولا تمسحوا به » عطفية أشمى ولا تبسكى فإنه أسرى للوجه وأخطى عند الزوج<sup>(٤)</sup> أي اكتملها الوجه ودمه وأحسن في جماعها فأنظر إلى جلالته لفضله صلى الله عليه وسلم في السكناية وإلى إشراف نور النبوة من مصالح الآخرة التي هي أهم مقاصد النبوة إلى

(١) « كان يكتحل في عينه اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنتين » أخرجه الطبراني عن حديث ابن عمر بإسناد ضعيف .

(٢) « الاكتحال في كل عين ثلاثاً » قال الغزالي ونقل ذلك في الصحيح ، قلت هو عند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس قال الترمذي حديث حسن . (٣) « الختان سنة الرجال ومكرمة النساء » أخرجه أحمد والبيهقي من رواية أبي الليث عن أسامة عن أبيه بإسناد ضعيف

(٤) « أم عطية أشمى ولا تبسكى ... الحديث » أخرجه الحاكم والبيهقي من حديث الضحاك بن قيس ولأبي داود نحو من حديث أم عطية وكلاهما ضعيف .

مصالح الدنيا حتى انكشف له وهو أمي من هذا الأمر النازل قدره مالو وقمت الغفلة عنه خيف ضرره فسبحان من أرسله رحمة للعالمين ليجمع لهم يمين بعثته مصالح الدنيا والدين صلى الله عليه وسلم .

( الثامن ) اعاطل من اللحية وإنما أخرناها لنلحق بها مافي اللحية من السنن والبذع إذ هذا أقرب موضع يليق به ذكرها وقد اختلفوا فيما طال منها فقليل إن قبض الرجل على لحيته وأخذ ما فضل عن القبضة فلا بأس فقد قبله ابن عمر وجماعة من التابعين واستحسنه الشعبي وابن سيرين وكرهه الحسن وقادة وقالوا تركها غافية أحب أقوله صلى الله عليه وسلم « اعفوا الله » والأمر في هذا قريب إن لم ينته إلى تقصيص اللحية وتدويرها من الجوانب فإن الطول المفرط قد يشوه الخلقة ويطلق ألسنة المفتاتين بالتبذ إليه فلا بأس باحتراز عنه على هذه النية . وقال النخعي عجت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته ويجعلها بين لحيتين فإن الوسط في كل شيء حسن ، ولذلك قيل كلما طالت اللحية تشمر العقل .

### فصل

وفي اللحية عشر خصال مكروهة وبعضها أشد كراهة من بعض ؛ خضابها بالسواد وتبييضها بالكبريت وتنفيها ونف الشيب منها والنقصان منها والزينة وتسريحها تصنعها لأجل الرياء وتركها شعثا لإظهار الأروء والنظر إلى سوادها عجباً بالشباب وإلى يباحها تكبرا بملو السن وخضابها بالحرمة والصفرة من غير نية تشبها بالصالحين .

أما الأول وهو الخضاب بالسواد فهو منهي عنه لقوله صلى الله عليه وسلم « خير شبابكم من تشبه بشيوخكم وشريوخكم من تشبه بشبابكم<sup>(١)</sup> » والمراد بالتشبه بالشيوخ في الوفاق لاقى تبييض الشعر و « نهى عن الخضاب بالسواد<sup>(٢)</sup> » وقال هو خضاب أهل النار<sup>(٣)</sup> وفي لفظ آخر « الخضاب بالسواد خضاب الكفار » وتزوج رجل على عهد عمر رضي الله عنه وكان يخضب بالسواد ففصل خضابه وظهرت شيبته فرفعه أهل المرأة إلى عمر رضي الله عنه فردنكاحه وأوجعه ضربا وقال غدرت القوم بالشباب وليست شيبتك ويقال أول من خضب بالسواد فروعون لعنه الله وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة<sup>(٤)</sup> » .

الثاني : الخضاب بالصفرة والحرمة وهو جائز تليسا للشيب على الكفار في الغزو والجهاد فإن لم يكن على هذه النية بل للتشبه بأهل الدين فهو مذموم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصفرة خضاب المسلمين والحرمة خضاب المؤمنين<sup>(٥)</sup> » وكانوا يخضبون بالحناء للحمرمة وبالخلوق والكتم للصفرة ، وخضب بعض العلماء بالسواد لأجل الغزو وذلك لا بأس به إذا صحت النية ولم يكن فيه هوى وشهوة .

الثالث : تبييضها بالكبريت استعجالا لإظهار علو السن توصلا إلى التوقير وقبول الصداقة والتصديق بالرواية عن الشيوخ وترقا عن الشباب وإظهاراً لكثرة العلم ظناً بأن كثرة الأيام تطعيه فضلا ومهيات فلا يزيد كبر السن للجاهل إلا جهلا فالعلم ثمرة العقل وهي غريزة ولا يؤثر الشيب فيها ومن كانت غريزته الحق فطول المدة يؤكد حاقته وقد كان الشيوخ يقدمون الشباب بالعلم . كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم ابن عباس وهو حديث

- (١) « خير شبابكم من تشبه بكمهولكم ... الحديث » أخرجه الطبراني من حديث واثلة بإسناد ضعيف .
- (٢) « نهى عن الخضاب بالسواد » أخرجه ابن سعد في الطبقات من حديث عمرو بن الماس بإسناد منقطع ، وسلم من حديث جابر « وغيروا هذا بشيء واجتنبوا السواد » قاله حين رأى يابض شعر أبي قحافة . (٣) « الخضاب بالسواد خضاب أهل النار » وفي لفظ « خضاب الكفار » أخرجه الطبراني والحاكم من حديث ابن عمر بلفظ « الكفار » قال ابن أبي حاتم منكر . (٤) « يكون في آخر الزمان قوم يخضبون بالسواد ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عباس بإسناد جيد . (٥) « الصفرة خضاب المسلمين والحرمة خضاب المؤمنين » أخرجه الطبراني والحاكم بلفظ من حديث ابن عمر قال ابن أبي حاتم منكر .

السن على أكابر الصحابة ويسأله دونهم . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : ما أتى الله عز وجل عبداً عبلاً لإشابة الخبير كله في الشباب ثم تلا قوله عز وجل ﴿ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ وقوله تعالى ﴿ أَنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَأَتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيحاً ﴾ وكان أنس رضى الله عنه يقول « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة فقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب فقيل أهو شين فقال كلكم بكروهه<sup>(١)</sup> » ويقال إن يحيى بن أكرم ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقال له رجل في مجلسه يريد أن يخجله بصفر سنه كم سن القاضي أيده الله فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إمارة مكة وقضاءها فأخبره<sup>(٢)</sup> ، وروى عن مالك رحمه الله أنه قال قرأت في بعض الكتب لا تنزلكم اللهي فإن التيس له لحية وقال أبو عمرو بن العلاء إذا رأيت الرجل طويل القامة صغير الهامة عريض اللحية فاقض عليه بالحق ولو كان أمية بن عبد شمس وقال أيوب السخيتاني أدركت الشيخ ابن ثمانين سنة يتبع الغلام يتعلم منه . وقال علي بن الحسين من سبق فيه العلم قبلك فهو إمامك فيه وإن كان أصغر سنأ منك ، وقيل لأبي عمرو بن العلاء أحسن من الشيخ أن يتعلم من الصغير فقال إن كان الجبل يقبض به وقال يحيى بن معين لأحد بن حنبل وقد رآه يمشي خلف بنة الشافعي يا أبا عبد الله تركت حديث سفيان بعلوه وتمشي خلف بنة هذا الفتى وتسمع منه فقال له أحد لو عرفت لكنت تمشي من الجانب الآخر إن علم سفيان إن فاتني بعلو أدركنت بزول وإن عقل هذا الشاب إن فاتني لم أدر كنت بعلو ولا نزول .

( الرابع ) تنف يباحها استنكافاً من الشيب « وقد نهى عليه السلام عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن<sup>(٣)</sup> » وهو في معنى الخضاب بالسواد وعلّة الكراهية ماسبق والشيب نور الله تعالى والرغبة عنه رغبة عن النور .

( الخامس ) تنفها أو تنف بعضها بحكم البعث والموت وذلك مكروه ومشوه للخلق وتنف الفتيكين بدعة وهما جانيبا التعففة . شهد عند عمر ابن عبد العزيز رجل كان ينتف فتيكه فرد شهادته ورد عمر بن الخطاب رضى الله عنه وابن أبي ليلى ليلى القاضي المدينة شهادة من كان ينتف لحيته وأما تنفها في أول الثبات تشبهاً بالمرء في المنكرات الكبار فإن اللحية ذينة الرجال فإن الله سبحانه ملائكة يقسمون والذي زين بني آدم بالحي وهو تمام الخلق وبها يتميز الرجال عن النساء وقيل في غريب التأويل اللحية هي المراد بقوله تعالى ﴿ يَزِدْ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ﴾ قال أصحاب الأحنف بن تيس وددنا أن نشترى الأحنف لحية ولو بعشرين ألفاً وقال شريح القاضي وددت أن لي لحية ولو بعشرة آلاف وكيف تتركه اللحية وفيها تعظيم الرجل والنظر إليه بعين العلم والوفاء في المجالس وإقبال الوجوه إليه والتقديم على الجماعة ووقاية المرض ؟ فإن من يشتم بمرض اللحية إن كان للشتم لحية وقد قيل إن أهل الجنة مرد لإهرون أخا موسى صلى الله عليهما وسلم فإن له لحية إلى سرته تخصيصاً له وتفصيلاً .

( ١ ) « قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس في رأسه ولحيته عشرون شعرة بيضاء فقيل له يا أبا حمزة وقد أسن فقال لم يشنه الله بالشيب » متفق عليه من حديث أنس دون قوله « قليل ... الخ » ومسلم من حديثه « وستر عن شيب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ما شأنه الله بيضاء » . ( ٢ ) حديث يحيى بن أكرم « ولى القضاء وهو ابن إحدى وعشرين سنة فقيل له كم سن القاضي فقال مثل سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قاضياً على أهل اليمن » أخرجه الخطيب في التاريخ بإسناده في نظر وما ذكره ابن أكرم صحيح بالنسبة إلى عتاب بن أسيد فإنه كان حين الولاية ابن عشرين سنة ، وأما بالنسبة إلى معاذ فلما يمت له ذلك على قول يحيى بن سعيد الأنصاري ومالك وابن أبي حاتم إنه كان حين مات ابن ثمان وعشرين سنة والمرجح أنه مات ابن ثلاث وثلاثين سنة في الطاعون سنة ثمانية عشر والله أعلم . ( ٣ ) « نهى عن تنف الشيب وقال هو نور المؤمن » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي وابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .



(السادس) تقصيصها كالتعمية طاعة على طاعة للتعزير للنساء والتصنم قال كعب : يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحام كدنب الحمامة ويعرقون ناعلم كالمناجل أولئك لاخلق لهم .

(السابع) الزيادة فيها وهو أن يزيد الشعر العارضين من الصديق وهو من شعر الرأس حتى يجاوز عظم الهي ويقتى إلى نصف الخد وذلك ببيان هيئة أهل الصلاح .

(الثامن) تريحها لأجل الناس قال بشر : في اللحية شركان : تريحها لأجل الناس وتركها مفتلة لإظهار الزهد .

(التاسع والعاشر) النظر في سوادها أو في بياضها بين العجب وذلك مذموم في جميع أجزاء البدن بل في جميع الأخلاق والأفعال على ما سيأتي بيانه فهذا ما أردنا أن نذكره من أنواع الزين والنظافة وقد حصل من ثلاثة أحاديث من سنن الجسد اثنتا عشرة خصلة خمس منها في الرأس وهي فرق شعر الرأس (١) والمضمضة والاستنشاق (٢) وقص الشارب والسواك وثلاثة في اليد والرجل وهي القلم وغسل البراجم وتنظيف الرواحب (٣) وأربعة في الجسد وهي تنف الإبط والاستحجام والختان والاستنجاء بالماء فقد وردت الأخبار بمجموع ذلك وإذا كان غرض هذا الكتاب التعرض للطهارة الظاهرة دون الباطنة فلنقتصر على هذا وليتحقق أن فضلات الباطن وأوساخه التي يجب التنظيف منها أكثر من أن تمحى وسيأتي تفصيلها في ربيع المهلكات مع تعريف الطرق في إزالتها وتطهير القلب إن شاء الله عز وجل ثم كتاب أسرار الطهارة محمد الله تعالى وعونه ويتلوه إن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصلاة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى كل عبد مصطفى .

## كتاب أسرار الصلاة ومبانيها

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي غمر العباد بطائفه ، وعمر قلوبهم بأنوار الدين ووظائفه التي تنزل عن عرش الجلال إلى السماء الدنيا من درجات الرحمة إحدى عواطفه فأرق الملوك مع التفرد بالجلال والكبرياء برغيب الخلق في السؤال والدعاء فقال : هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فأغفر له ؟ وبأين السلاطين يفتح الباب ، ورفع الحجاب فرخص للعباد في المناجاة بالصلوات كيفما تقلبت بهم الحالات في الجماعات والخلوات ولم يقتصر على الرخصة بل تطف بالترغيب والدعوة ، وغيره من صفاء الملوك لا يسمح بالخلوة إلا بعد تقديم الهدية والرشوة فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأقوى سلطانه ، وأتم لطفه ، وأعم إحسانه ؛ والصلاة على محمد نبيه المصطفى وولييه المجتبي وعلى آله وأصحابه مفاتيح الهدى ومصابيح الدجى وسلم تسليمًا .

أما بعد : فإن الصلاة عماد الدين ، وعمام اليقين ، ورأس القربات ، وغرة الطاعات ؛ وقد استقصينا في فن الفقه - في بسيط المذهب وبسيطه وجزئه - أصولها وفروعها ، صارفين جام العناية إلى تفاريعها النادرة . ووقائعها الشاذة لتكون خزنة اللفق منها يستمد ومعولاً إليها يفرع ويرجع . ونحن الآن في هذا الكتاب نقتصر على ما

(١) « فرق شعر الرأس . . . إلخ » من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسدل شعره إلى أن قال ثم فرق رسول الله صلى الله عليه وسلم رأسه » . (٢) « عشر من القطرة . . . » أخرجه مسلم من حديث عائشة ولقظه « قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم وتنف الإبط وخلق العانة وانتقاص الماء - قال وكيع يعني الاستنجاء - قال مصعب ونسيت العاشرة إلا أن تكون الضمضة ضغفه النساءى ولأبي داود وابن ماجه من حديث عمار بن ياسر نحوه فذكر فيه الضمضة والاختان والانتضاح ولم يذكر إعفاء اللحية وانتقاص الماء . قال أبو داود روى نحوه عن ابن عباس . قال « خمس كلها في الرأس » وذكر منها « الفرق » ولم يذكر « إعفاء اللحية » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « الفطرة خمس : الختان . . . » (٣) « تنظيف الرواحب » تقدم ( ١٩ - إحياء علوم الدين ) .

لا بد للمريد منه من أعمالها الظاهرة وأسرارها الباطنة، وكاشفون من دقائق معانيها الخفية في معاني الخشوع والإخلاص والثبوت ما لم نجر العادة بذكره في فن الفقه؛ ومربون الكتاب على سبعة أبواب؛ الباب الأول: في فضائل الصلاة. الباب الثاني: في تفضيل الأجل الظاهرة من الصلاة. الباب الثالث: في تفضيل الأجل الباطنة منها. الباب الرابع: في الإمامة والقدوة. الباب الخامس: في صلاة الجمعة وآدابها. الباب السادس: في مسائل متفرقة نعم بها البلوى يحتاج المريد إلى معرفتها. الباب السابع: في التطوعات وغيرها.

## الباب الأول: في فضائل الصلاة السجود والجماعة والأذان وغيرها

### فضيلة الأذان

قال صلى الله عليه وسلم «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك أسود لا يهولهم حساب ولا ينالهم فرع حتى يفرغ مما بين الناس: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل وأم يقوم وهم به راضون، ورجل أذن في مسجد ودعا إلى الله عز وجل ابتغاء وجه الله، ورجل ابتلى بالرزق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لا يسمع نداء المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه»<sup>(٣)</sup> وقيل في تفسير قوله عز وجل ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾ ترك في المؤذنين، وقال صلى الله عليه وسلم «إذا سمعت النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن»<sup>(٤)</sup> وذلك مستحب إلا في الحيملتين فإنه يقول فيهما: لا حول ولا قوة إلا بالله، وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض، وفي التشويب صدقت وبررت ونصحت، وعند الفراغ يقول: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة وإيهب للمقام المحمود الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد وقال سعيد بن المسيب من صلى بأرض فلاه صلى عن يمينه ملك وعن شماله ملك فإن أذن وأقام صلى وراه أمثال الجبال من الملائكة.

### فضيلة المكتوبة

قال تعالى ﴿إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوناً﴾ وقال صلى الله عليه وسلم «خمس صلوات كتبن الله على العباد فمن جاء بهن ولم يضيع منهن شيئاً استخفافا بحقهن كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بهن فليس له عند الله عهد إن شاء عذبه وإن شاء أدخله الجنة»<sup>(٥)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الصلوات الخمس كمثل نهر عذب غمر بآب أحدهم يغتحم فيه كل يوم خمس مرات فما ترون ذلك يبقى من درته قالوا لا شيء قال صلى الله عليه

### باب أسرار الصلاة

(١) «ثلاثة يوم القيامة على كثيب من مسك... الحديث» أخرجه الترمذي وحسنه من حديث ابن عمر مختصراً وهو في الصغير للطبراني بنحو مما ذكره المؤلف.

(٢) «لا يسمع صوت المؤذن جن ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد

(٣) «يد الله على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه» أخرجه الطبراني في الأوسط والحسن بن سعيد في مسند من حديث أنس بإسناد ضعيف.

(٤) «إذا سمعت النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن» متفق عليه من حديث أبي سعيد.

(٥) «خمس صلوات كتبن الله على العباد... الحديث» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت وصححه ابن عبد البر.

وسلم فإن الصلوات الخمس تذهب الذنوب كما يذهب الماء الدرن<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الصلوات كفارة لما يبينن ما اجتنب الكبائر<sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يبتنا وبين المنافقين شهودا لعمدة والصحيح لا يستعملونها<sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من لقي الله وهو مضيع للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته<sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الصلاة عماد الدين فمن تركها فقد هدم الدين<sup>(٥)</sup> » وسئل صلى الله عليه وسلم « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها<sup>(٦)</sup> » وقال عليه الصلاة والسلام « من حافظ على الخمس بإكمال طهور ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً يوم القيامة ومن ضيعها حشر مع فرعون وهامان<sup>(٧)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « مفتاح الجنة الصلاة<sup>(٨)</sup> » وقال « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد أحب إليه من الصلاة ولو كان شيء أحب إليه منها لتعبد به ملائكته ففهم راعى ومنهم ساجد ومنهم قائم ومنهم قاعد<sup>(٩)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر<sup>(١٠)</sup> » أى قارب أن يتخلع عن الإيمان بالتحلل عرويه وسقوط عماده كما يقال لمن قارب البلدة إنه يلغها ودخلها . وقال صلى الله عليه وسلم « من ترك صلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد عليه السلام<sup>(١١)</sup> » وقال أبو هريرة رضى الله عنه : من تركها فاحسن وضوءه ثم خرج حامداً إلى الصلاة فإنه في صلاة ما كان يعمد إلى الصلاة وأنه يكتب إليه بإحدى خطوتي حنة وتمحي عنه بالأخرى سيئة فإذا سمع أحدهم الإقامة فلا يبنئ له أن يتأخر فإن أعظمكم أجراً أبعدكم داراً ، قالوا : لم يا أبا هريرة ؟ قال : من أجل كثرة الخطأ . ويروى « إن أول ما ينظر فيه من عمل العبد يوم القيامة الصلاة<sup>(١٢)</sup> » فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله وقال صلى الله عليه وسلم « يا أبا هريرة مر إهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب<sup>(١٣)</sup> » وقال بعض العلماء : مثل المصلى مثل التاجر الذى لا يحصل له الربح حتى يخلص له رأس المال ، وكذلك المصلى لا تقبل له نافلة حتى يؤدي الفريضة . وكان أبو بكر رضى الله عنه يقول : إذا حضرت الصلاة قوموا إلى ناركم التى أوقدتموها فأطفئوها .

### فضيلة إتمام الأركان

قال صلى الله عليه وسلم « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى<sup>(١٤)</sup> » وقال يزيد الرقاشي « كانت

- (١) « مثل خمس صلوات مثل نهر ... » أخرجه مسلم من حديث جابر ولها نحوه من حديث أبي هريرة (٢) « الصلوات كفارة لما يبينن ما اجتنب الكبائر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٣) « يبتنا وبين المنافقين شهودا لعمدة والصحيح » أخرجه مالك من رواية سعيد بن السبب مرسل . (٤) « من لقي الله مضيعاً للصلاة لم يعبأ الله بشيء من حسناته » وفي معناه حديث « أول من يحاسب به العبد الصلاة » وفيه « فإن فسدت فسد سائر عمله » رواه الطبراني في الأوسط من حديث أنس (٥) « الصلاة عماد الدين » رواه البيهقي في الشعب بسند ضعيف من حديث عمر قال الحاكم : عكرمة لم يسمع من حمراق ورواه ابن عمر ولم يقف عليه ابن الصلاح فقال في مشکل الوسيط أنغير معروف (٦) « أى الأعمال أفضل فقال الصلاة لمواقيتها ؟ متفق عليه من حديث ابن مسعود (٧) من حافظ على الخمس بإكمال طهورها ومواقيتها كانت له نوراً وبرهاناً ... » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمرو (٨) « مفتاح الجنة الصلاة » رواه أبو داود الطيالسي من حديث جابر وهو عند الترمذي ولكن ليس داخل في الرواية (٩) « ما افترض الله على خلقه بعد التوحيد شيئاً أحب إليه من الصلاة ... » لم أجده هكذا وآخر الحديث عند الطبراني من حديث جابر وعند الحاكم من حديث ابن عمر (١٠) « من ترك صلاة متعمداً فقد كفر » أخرجه الزوار من حديث أبي الدرداء بإسناد في مقال (١١) « من ترك صلاة متعمداً فقد برىء من ذمة محمد صلى الله عليه وسلم » أخرجه أحمد والبيهقي من حديث أم أيمن بنحو وثقات (١٢) « أول ما ينظر الله فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة . » رويناه في الطبوريات من حديث سعيد أبي سعيد بإسناد ضعيف ولأصحاب السنن الحاكم وصححه إسناده نحوه من حديث أبي هريرة وسيأتي (١٣) « يا أبا هريرة مر إهلك بالصلاة فإن الله يأتيك بالرزق من حيث لا تحسب » لم أقف له على أصل (١٤) « مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى » أخرجه ابن المبارك في من حديث الحسن مرسل وإسناده البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد فيه جهالة

صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة<sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إن الرجلين من أمي يقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض<sup>(٢)</sup> » وأشار إلى الخشوع وقال عليه الصلاة والسلام « لا ينظر الله يوم القيامة إلى العبد لا يقيم صلبه بين ركوعه وسجوده<sup>(٣)</sup> » وقال « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار<sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظني ومن صلى للغير وقتها ولم يسبغ وضوءها ولم يتم ركوعها ولا سجودها ولا خشوعها عرجت وهي سوداء مظلمة تقول ضيعك الله كما ضيعني حتى إذا كانت حيث شاء الله لفت كما يلف الثوب الخلق فيضرب بها وجهه<sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته<sup>(٦)</sup> » وقال ابن مسعود رضي الله عنه وسلبان رضي الله عنه : الصلاة ميكال فمن أوفى استوفى ، ومن طلف فقد علم ما قال الله في المطففين .

### فضيلة الجماعة

قال صلى الله عليه وسلم « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة<sup>(٧)</sup> » وروى أبو هريرة أنه عليه الصلاة والسلام فقد ناسأ في بعض الصلوات فقال « لقد هممت أن أمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأهرق عليهم بيوتهم<sup>(٨)</sup> » وفي رواية أخرى « ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأمرهم فتحرق عليهم بيوتهم بحرم الجحطب ولو علم أحدهم أنه يجد عطلا سميئا أو مرمانين لشهدا » يعني صلاة العشاء . وقال عثمان رضي الله عنه مرفوعا « من شهد العشاء فكأنما قام نصف ليلة ومن شهد الصبح فكأنما قام ليلة<sup>(٩)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نخرة عبادة<sup>(١٠)</sup> » وقال سعيد بن المسيب : ما أذن مؤذن منذ عشرين سنة إلا وأنا في المسجد . وقال محمد بن واسع : ما أشتى من الدنيا إلا ثلاثة : أخا إن تعرضت قومي وقتها من الرزق عفواً من غير تبة وصلاة في جماعة يرفع عنى سهوها ويكتب لى فضلها . وروى أن أبا عبيدة بن الجراح أم قوما مرة فلما انصرف قال : ما زال الشيطان في آفتا حتى أريت أن لى فضلا عن غيرى لأؤم أبداً . وقال الحسن : لا صلوا خلف رجل لا يختلف إلى العلماء . وقال النخعي : مثل الذي يؤم الناس بغير علم مثل الذي يكيل الماء في البحر لا يدرى

(١) يزيد الرقاشي : كانت صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستوية كأنها موزونة ؟ رواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة وهو مرسل ضعيف . (٢) إن الرجلين من أمي يقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد .. ؟ أخرجه ابن المحبر في العقل من حديث أبي أبوب الأنصاري بنحوه وهو موضوع رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده عن ابن المحبر (٣) « لا ينظر الله إلى عبد لا يقوم صلبه بين ركوعه وسجوده » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح . (٤) « أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار » أخرجه ابن عدى في عوالي مشايخ مصر من حديث جابر « ما يؤمنه إذا التفت في صلاته أن يحول الله وجهه وجه كلب أو وجه خنزير » قال منكر بهذا الأسناد ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « أما يغشى الذي يرفع قبل الإمام أن يعمل الله وجهه وجه حمار » . (٥) « من صلى الصلاة لوقتها وأسبغ وضوءها وأتم ركوعها وسجودها وخشوعها عرجت وهي بيضاء مسفرة تقول حفظك الله كما حفظني ... » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بسند ضعيف والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عبادة ابن الصامت بسند ضعيف نحوه .. (٦) « أسوأ الناس سرقة الذي يسرق من صلاته » أخرجه أحمد والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي قتادة .

(٧) « صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة » متفق عليه من حديث ابن عمر .

(٨) « أبي هريرة لقد هممت أن أمر رجلا يصلي بالناس ثم أخالف إلى رجال يتخلفون ... » متفق عليه .

(٩) حديث عثمان « من شهد صلاة العشاء فكأنما قام نصف ليلة ... » أخرجه مسلم من حديثه مرفوعا قال الترمذي

وروى عن عثمان موقوفا . (١٠) « من صلى صلاة في جماعة فقد ملأ نخرة عبادة » لم أجده مرفوعا وإنما هو من قول سعيد بن المسيب رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة .

زيادته من نقصانه ؟ وقال حاتم الأصم : فاتفق الصلاة في الجماعة فعزاني أبو إسحق البخاري وحده ، ولو مات لولد لعزاني أكثر من عشرة آلاف لأن مصيبة الدين أهون عند الناس من مصيبة الدنيا . وقال ابن عباس رضي الله عنهما من سمع المنادي فلم يحب لم يرد غيراً ولم يرد به غير . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : لأن تملأ أذن ابن آدم رصاصاً هذا خير له من أن يسمع النداء ثم لا يحب . وروى أن ميمون بن مهران أتى المسجد فقيل له : إن الناس قد انصرفوا فقال (إنا لله وإنا إليه راجعون) ففضل هذه الصلاة أحب إلى من ولاية العراق . وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لانفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءة تين : براءة من النفاق وبراءة من النار<sup>(١)</sup> » ويقال إنه إذا كان يوم القيامة يحشر قوم وجوههم كالسكوك الدرى فتقول لهم الملائكة : ما كانت أعمالكم ؟ فيقولون : كنا إذا سمعنا الأذان قننا إلى الطهارة لا يشغلنا غيرها ثم تحشر طائفة وجوههم كالآفار فيقولون بعد السؤال : كنا نوصاً قبل الوقت ثم تحشر طائفة وجوههم كالشمس فيقولون : كنا نسمع الأذان في المسجد . وروى أن السلف كانوا يعزون أنفسهم ثلاثة أيام إذا فاتهم التكبيرة الأولى ويعزون سبعاً إذا فاتهم الجماعة .

### فضيلة السجود

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي<sup>(٢)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها سيئة<sup>(٣)</sup> » وروى « أن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مراقبتك في الجنة فقال صلى الله عليه وسلم : أعني بكثرة السجود<sup>(٤)</sup> » وقيل « إن أقرب ما يكون العبد من الله تعالى أن يكون ساجداً<sup>(٥)</sup> » وهو معنى قوله عز وجل (واسجد واقترب) وقال عز وجل (سجام في وجوههم من أثر السجود) فقيل هو ما يلتصق بوجوههم من الأرض عند السجود وقيل هو نور الخشوع فإنه يشرق من الباطن على الظاهر، وهو الأصح وقيل هي الفرر التي تكون في وجوههم يوم القيامة من أثر الوضوء . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي ويقول يا ويله أمر هذا بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت أنا بالسجود فعصيت في النار<sup>(٦)</sup> » وروى عن علي بن عبد الله بن عباس أنه كان يسجد في كل يوم ألف سجدة وكانوا يسمونه السجاد . وروى أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه كان لا يسجد إلا على التراب . وكان يوسف بن أسباط يقول : يامعشر الشباب بادروا بالصحة قبل المرض فإني أرى أحدهم إذا رجل يتم ركوعه وسجوده وقد حبل ببني وبين ذلك . وقال سعيد بن جبير : ما أسمى على شيء من الدنيا إلا على السجود . وقال عتبة بن مسلم : ما من خصلة في العبد أحب إلى الله عز وجل من رجل يحب لقاء الله عز وجل وما من ساعة العبد فيها أقرب إلى الله عز وجل

(١) « من صلى أربعين يوماً الصلوات في جماعة لانفوته تكبيرة الإحرام ... » أخرجه الترمذي من حديث أنس بإسناد رجاله ثقات . (٢) « ما تقرب العبد إلى الله بشيء أفضل من سجود خفي » رواه ابن المبارك في الزهد من حديث ضمرة بن حبيب مرسل . (٣) « ما من مسلم يسجد لله سجدة إلا رفعه الله بها درجة وحط عنه بها خطيئة » أخرجه ابن ماجه من حديث عباد بن الصامت بإسناد صحيح ولمس نحوه من حديث ثوبان وإبي الدرداء . (٤) « إن رجلاً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك ويرزقني مراقبتك في الجنة . » أخرجه مسلم من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي نحوه وهو الذي سأله ذلك . (٥) « إن أقرب ما يكون العبد إلى الله أن يكون ساجداً » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٦) « إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان وبكى ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

منه حيث يخر ساجداً . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : أقرب ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا سجد فأكثرُوا الدعاء عند ذلك .

### فضيلة الخشوع

قال الله تعالى ﴿ رَأْمُ الصَّلَاةِ لَذَكْرَى ﴾ وقال تعالى ﴿ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ وقال عز وجل ﴿ لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ قيل سكرارى من كثرة الهم وقيل من حب الدنيا . وقال وهب : المراد به ظاهره ففيه تنبيه على سكر الدنيا إذ بين فيه العلة فقال ﴿ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ ﴾ وكَم من مصل لم يشرب خمرًا وهو لا يعلم ما يقول في صلاته . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من صلى ركعتين لم يحدث نفسه بهما بشيء من الدنيا غفر له ما تقدم من ذنبه <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمْسُكُنْ وَتَوَاضِعُ وَتَضَرُّعُ وَتَأْوُهُ وَتَتَادَمُ وَتَضَعُ يَدَيْكَ فَتَقُولُ اللَّهُمَّ اللَّهُمَّ فَنَنْتَ لَمْ يَفْعَلْ فِيهِ حُدَاجٌ <sup>(٢)</sup> » وروى عن النبي سبحانه في الكتب السالفة أنه قال « ليس كل مصل أقبِلَ صلاته إِنَّمَا أقبِلَ صلاة من تواضع لِعِظَتِي وَلَمْ يَتَكَبَّرْ عَلَى عِبَادِي وَأَطْعَمَ الْفَقِيرَ الْجَانِعَ لَوْجِي » وقال صلى الله عليه وسلم « إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ وَأَمْرٌ بِالْحَجِّ وَالطَّوَّافِ وَأَشْعَرَتِ الْمَنَاسِكَ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَإِذَا لَمْ يَكُنْ فِي قَلْبِكَ لِلذِّكْرِ الَّذِي هُوَ الْمَقْصُودُ وَالْمُبْتَغَى عِظَةٌ وَلَا هَيْبَةٌ فَاقِيْمَةِ ذِكْرِكَ <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه « وَإِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مَوْدَعٍ <sup>(٤)</sup> أَي مَوْدَعٍ لِنَفْسِهِ مَوْدَعٍ لِعَمَرِهِ سَاطِرٌ إِلَى مَوْلَاهُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُلَاقِيهِ ﴾ وقال تعالى ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ﴾ وقال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَعْمَلُوا أَنْتُمْ مَلَاقِيَهُ ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « مَنْ لَمْ تَنْتَهِ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَرِدْ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا <sup>(٥)</sup> » والصلاة مناجاة فكيف تكون مع القفلة ؟ قال بكر بن عبد الله : يا ابن آدم إذا شئت أن تدخل على مولاك بغير إذن وتكلمه بلا ترجمان دخلت ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : تسبِّح ورضوءك وتدخل عرا بلك فإذا أنت قد دخلت على مولاك بغير إذن فتكلمه بغير ترجمان . وعن عائشة رضي الله عنها قالت « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْدِثُنَا وَنَحْدِثُهُ فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ نَعْرِفْهُ <sup>(٦)</sup> » اشتغالا بعظمة الله عز وجل وقال صلى الله عليه وسلم « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى صَلَاةِ الْرَجُلِ فِيهَا قَلْبُهُ مَعَ بَدَنِهِ <sup>(٧)</sup> » وكان إبراهيم الخليل إذا قام إلى الصلاة يسمع وجيب قلبه على مليون . وكان سعيد التورخي إذا صلى لم تنقطع الدموع من خديه على لحيته

(١) « مَنْ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ لَمْ يَحْدِثْ فِيهِمَا نَفْسُهُ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف من حديث صلة بن أشم مرسلًا وهو الصحيحين من حديث عثمان بزيادة في أوله دون قوله « شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيَا » وزاد الطيالسي إلا بخير . (٢) « إِنَّمَا الصَّلَاةُ تَمْسُكُنْ وَتَوَاضِعُ وَتَضَرُّعُ ... » أخرجه الترمذي بنحوه من حديث الفضل بن عباس بإسناد مضطرب . (٣) « إِنَّمَا فُرِضَتِ الصَّلَاةُ وَأَمْرٌ بِالْحَجِّ وَالطَّوَّافِ وَأَشْعَرَتِ الْمَنَاسِكَ لِإِقَامَةِ ذِكْرِ اللَّهِ » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث عائشة بنحوه دون ذكر « الصَّلَاةِ » قال الترمذي حسن صحيح . (٤) « إِذَا صَلَّيْتَ فَصَلِّ صَلَاةَ مَوْدَعٍ » أخرجه ابن ماجة من حديث أبي أيوب والحاكم من حديث سعد بن أبي وقاص ، وقال صحيح الإسناد والبيهقي في الزهد من حديث ابن عمر ومن حديث بنحوه . (٥) « مَنْ لَمْ تَنْتَهِ صَلَاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ لَمْ يَزِدْهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بَعْدًا » أخرجه علي بن معة في كتاب الطاعة والمصيبة من حديث الحسن مرسلًا بإسناد صحيح ورواه الطبراني وأسنده ابن مردويه في تفسيره من حديث أبي عباس بإسناد لين والطبراني من قول ابن مسعود « مَنْ لَمْ تَأْمَرْ صَلَاتَهُ بِالْعُرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ ... » وإسناده صحيح . (٦) « كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْدِثُنَا فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَكَأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْنَا وَلَمْ نَعْرِفْهُ » أخرجه الأزدي في الضعفاء من حديث سويد بن غفلة مرسلًا « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَمِعَ الْأَذَانَ كَانَ لَا يَعْرِفُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ » ، (٧) « لَا يَنْظُرُ اللَّهُ إِلَى صَلَاةِ الْرَجُلِ فِيهَا قَلْبُهُ مَعَ بَدَنِهِ لَمْ أَجِدْ هَذَا اللَّفْظَ وَرَوَى مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرٍ فِي كِتَابِ الصَّلَاةِ مِنْ رَوَايَةِ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي دَهْرٍ صَلَاةً مَرَّاسًا « لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ عَبْدٍ عَمَلًا حَتَّى يَشْهَدَ قَلْبُهُ مَعَ بَدَنِهِ » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي بن كعب وإسناده ضعيف .

« ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً يبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لحشمت جوارحه (١) »  
 ويروى أن الحسن نظر إلى رجل يبث بالحصى ويقول « اللهم زوجني الحور العين » فقال: بئس الخاطب أنت تخطب الحور  
 العين وأنت تبث بالحصى . وقيل لخلف بن أيوب : ألا يؤذيك الذباب في صلاتك فتطرد عنها قال : لأعود نفسي شيئاً  
 يفسد على صلاتي ، قيل له : وكيف تصبر على ذلك ؟ قال : بلغني أن الفساق يصبرون تحت أسواط السلطان ليقال  
 فلان صبور ويفتخرون بذلك فأنا قائم بين يدي ربّي أفأفكر لذنابة ؟ ويروى عن مسلم بن يسار أنه كان إذا أراد  
 الصلاة قال لأهله : يتحدثوا أنما فإني لست أسمعكم . ويروى عنه أنه كان يصلي يوماً في جامع البصرة فسقطت ناحية  
 من المسجد فاجتمع الناس لذلك فلم يشعر به حتى انصرف من الصلاة . وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم  
 وجهه إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون وجهه فقليل له : مالك يا أمير المؤمنين ؟ فيقول جاء وقت أمانته عرضها  
 الله على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها . ويروى عن علي بن الحسين أنه كان  
 إذا توضأ أصفر لونه فيقول له أهله : ما هذا الذي يمتريك عند الوضوء ؟ فيقول : أتدرون بين يدي من أريد أن  
 أقوم ؟ ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال « قال داود صلى الله عليه وسلم في مناجاته : إلهي من يسكن  
 بيتك ومن تقبل الصلاة ؟ فأوحى الله إليه : يا داود إنما يسكن بيتي وأقبل الصلاة منه من تواضع لمطعمي وقطع  
 نهاره بذكري وكف نفسه عن الشهوات ، من أجلى يطعم الجائع ويؤوي الغريب ويرحم المصاب فذلك الذي يعنى  
 نوره في السموات كالشمس ، إن دعائي لبيته وإن سألتني أعطيت ، أجعل له في الجمل حلماً وفي الغفلة ذكراً وفي الغلظة  
 نوراً ، وإنما مثله في الناس كالفرديوس في أعلى الجنان لا تيبس أنهارها ولا تغير ثمارها » ويروى عن حاتم  
 الأحمري رضي الله عنه أنه سئل عن صلاته فقال : إذا حانت الصلاة أسيغت الوضوء وأتيت الموضع الذي أريد  
 الصلاة فيه فأقعد فيه حتى يجتمع جوارحي ، ثم أقوم إلى صلاتي وأجعل التكبيرة بين حاجبي والصراف تحت قدمي  
 والجنحة عن يميني والثار عن شمالي وملك الموت ورأى أظنها آخر صلاتي ، ثم أقوم بين الزجاء والحلوف وأكبر  
 تكبيراً بتحقيق وأقرأ قراءة بترتيل وأركع ركوعاً بتواضع وأسجد سجوداً بتخشع وأقعد على الورك الأيسر وأفرش  
 ظهر قدمي وأنصب القدم اليمنى على الإبهام وأنيما الإخلاص ، ثم لا أدري أقبلت متى أم لا ؟ وقال ابن عباس  
 رضي الله عنهما : ركعتان مقتصدتان في تفكير خير من قيام ليلة والقلب ساه .

### فضيلة المسجد وموضع الصلاة

قال الله عز وجل ( إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر ) وقال صلى الله عليه وسلم « من بقی لله  
 مسجداً ولو كفحه من قطاة بنى الله له قصراً في الجنة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « من أتى المسجد ألفه الله  
 تعالى » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » (٤) وقال صلى الله  
 عليه وسلم « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم « الملائكة تصلي على أحدكم ما دام

(١) « رأى رجلاً يبث بلحيته في الصلاة فقال لو خشع قلب هذا لحشمت جوارحه » أخرجه الترمذي والحكيم في  
 النوادر من حديث أبي هريرة بسند ضعيف ، والمعروف أنه من قول سعيد بن المسيب رواه ابن أبي شيبة في المصنف  
 وفيه رجل لم يسم .

(٢) « من بنى مسجداً ولو مثل منقح قطاة ... الحديث » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند صحيح وابن  
 حبان من حديث أبي ذر وهو متفق عليه من حديث عثمان دون قوله « ولو مثل منقح قطاة »

(٣) « من أتى المسجد ألفه الله تعالى » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي سعيد بسند ضعيف .

(٤) « إذا دخل أحدكم المسجد فليركع ركعتين قبل أن يجلس » متفق عليه من حديث أبي قتادة .

(٥) « لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد » أخرجه الدارقطني من حديث جابر وأبي هريرة بإسنادين ضعيفين  
 والحاكم من حديث أبي هريرة .

في مصلاه الذي يصلي فيه تقول : اللهم صل عليه اللهم ارحمه اللهم اغفر له ما لم يحدث أو يخرج من المسجد<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « يأتي في آخر الزمان ناس من أمي يأتون المسجد فيقعلون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا يجالسهم فليس لله بهم حاجة<sup>(٢)</sup> » وقال صلى عليه وسلم « قال الله عز وجل في بعض الكتب إن بيوت في أرضي المساجد وإن زواري فيها عمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي حتى على المزور أن يكرم زائره<sup>(٣)</sup> » ، وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان<sup>(٤)</sup> » وقال سعيد ابن المسيب من جلس في المسجد قائما يجالس ربه فاحقه أن يقول إلا خيرا . ويروى في الأثر أو الخبر « الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهائم الحشيش<sup>(٥)</sup> » وقال النخعي : كانوا يرون أن المشي في الليلة المظلمة إلى المسجد موجب للجنة . وقال انس بن مالك : من أخرج في المسجد سراجا لم تزل الملائكة وحمة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوؤه . وقال علي كرم الله وجهه : إذا مات العبد يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء ، ثم قرأ ﴿ لسا بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴾ وقال ابن عباس : تبكى عليه الأرض أربعين صباحا . وقال عطاء الخراساني : ما من عبد يسجد لله سجدة في بقعة من بقاع الأرض إلا شهدت له يوم القيامة وبكت عليه يوم يموت . وقال انس بن مالك : ما من بقعة يذكر الله تعالى عليها بصلاة أو ذكر إلا افتخرت على ما حولها من البقاع واستشرت بذكر الله عز وجل إلى منهاها من سبع أرضين وما من عبد يقوم يصلي إلا ترخفت له الأرض . ويقال : ما من منزل ينزل فيه قوم إلا أصبح ذلك المنزل يصلي عليهم أو يلعنهم .

## الباب الثاني: في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة والبداءة بالتسكير وما قبله

ينبغي للصلي إذا فرغ من الوضوء والطهارة من الخيط في البدن والمكان والثياب وستر العورة من السرة إلى الركبة أن يتصبب قائما متوجها إلى القبلة ويزاوج بين قدميه ولا يضمهما فإن ذلك ما كان يستدل به على فقه الرجل وقد « نهى صلى الله عليه وسلم عن الصفن والصفد في الصلاة<sup>(١)</sup> » والصفد هو اقتران القدمين معا ومثله قوله تعالى ﴿ مفرنين في الأسفاد ﴾ والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومثله قوله عز وجل ﴿ الصافات الجياد ﴾ هذا ما يراعيه في رجله عند القيام ويراعي في ركبتيه ومعقنطافه الاتصاف ، وإما رأسه إن شاء تركه على استواء القيام وإن شاء أطرق والإطراق أقرب للخشوع واغض البصر وليكن بصره محصورا على مصلاه الذي يصلي عليه ، فإن لم يكن له

- (١) « الملائكة تصل على أحدكم مادام في مصلاه ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة . (٢) « يأتي آخر الزمان ناس من أمي يأتون المساجد فيقعلون فيها حلقة حلقة ذكرهم الدنيا ... » أخرجه ابن حبان من حديث ابن مسعود والحاكم من حديث أنس وقال صحيح الإسناد (٣) « قال تعالى : إن بيوت في الأرض المساجد وإن زواري فيها عمارها ... » أخرجه أبو نعيم من حديث أبي سعيد بسند ضعيف « يقول الله عز وجل يوم القيامة أين جيراني فقول الملائكة من هذا الذي يبنئ له أن يجاورك فيقول أين قراء القرآن وعمار المساجد » وهو في الشعب نحوه موقوفا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسناد صحيح ، وأسند ابن حبان في الضعفاء آخر الحديث من حديث سلمان ووضفه (٤) حديث « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد (٥) « الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش » لم أقف له على أصل

### الباب الثاني

- (٦) « التبي عن الصفن والصفد في الصلاة » عزاه زرير إلى الترمذي ولم أجده عنده ولا عند غيره ، وإما ذكره أصحاب الغريب كابن الأثير في النهاية ، وروى سعيد بن منصور أن ابن مسعود رأى رجلا صاغا أوصافا قديمة فقال : أخطأ هذا السنة .



مصلى فليقرب من جدار الحائط أو ليخط خطا ، فإن ذلك يقصر مسافة البصر ويمنع تفرق الفكر وليحجر على بصره أن يجاوز أطراف المصل وحده الخط ، ولیدم على هذا القيام كذلك إلى الركوع من غير التفات . هذا أدب القيام فإذا استوى قيامه واستقبله وإطرافه كذلك فليقرأ ﴿ قل أعوذ برب الناس ﴾ تحصنا به من الشيطان ، ثم ليأت بالإقامة وإن كان رجوا حضور من يقتدى به فليؤذن أولا ثم ليحضر التبة وهو أن ينوي في الظهر مثلا ويقول بقلبه : أودى فريضة الظهر لله ، فيقرأ بقلبه قوله أودى : عن القضاء وبالفرصة عن النفل ، وبالظهر عن العصر وغيره ، ولتكن معاني هذه الألفاظ حاضرة في قلبه فإنه هو التبة ، والألفاظ مذكرات وأسباب لحضورها ، ويحتمل أن يستديم ذلك إلى آخر التكبير حتى لا يعزب فإذا حضر في قلبه ذلك فليرفع يديه إلى حذو منكبيه بعد إرسالها بحيث يحاذي بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمتي أذنيه وبروس أصابعه رءوس أذنيه (١) ليكون جامعاً بين الأخبار الواردة فيه ، ويكون مقبلاً بكفيه وبإبهاميه إلى القبلة ويبسط الأصابع ولا يقبضها ، ولا يتكلف فيها تفرجاً ولا ضمناً بل يتركها على مقتضى طبيعتها ، إذ نقل في الآثار النثر والعتم (٢) وهذا بينهما فهو أولى ، وإذا استقرت اليدين في مقرهما ابتداء التكبير مع إرسالها وإحضار التبة . ثم يضع اليدين على مافوق السرة وتحت الصدر ويضع اليمنى على اليسرى لأكراما لليمن بأن تكون محمولة ، وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول الساعد ويقبض بالإبهام والخنصر والبنصر على كوع اليسرى . وقد روى أن التكبير مع رفع اليدين (٣) ومع استقرارهما (٤) ومع الإرسال (٥) فكل ذلك لا حرج فيه وأراه بالإرسال أليق فإنه كلة العقد ، ووضع إحدى اليدين على الأخرى في صورة العقد ومبدؤه الإرسال وآخره الوضع . ومبدأ التكبير الألف وآخره الزاء . فليبق مراعاة التوافق بين الفعل والعقد ، وأما رفع اليد فكأقدمه لهذه البداية . ثم لا ينبغي أن يرفع يديه إلى قدام رفا عند التكبير ولا يردهما إلى خلف منكبيه ولا ينفصهما عن يمين وشمال نفصاً إذا فرغ من التكبير ورسلهما إرسالاً خفيفاً رقيقاً ويستأنف وضع اليدين على الشمال بعد الإرسال ، وفي بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم « كان إذا كبر أرسل يديه وإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى (٦) » فإن صح هذا فهو أولى ما ذكرناه . وأما التكبير فينبغي أن يضم الهاء من قوله « الله » ضمة خفيفة من غير مبالغة ولا يدخل بين الهاء والألف شبه الواو ، وذلك ينساق إليه بالمبالغة ، ولا يدخل بين باء أكبر ورائه ألفاً كأنه يقول « أكبر » ويجزم راء التكبير ولا يضمها فهذه هيئة التكبير وما معه .

### القراءة

- ثم يبتدئ بدعاء الاستفتاح وحسن أن يقول عقب قوله الله أكبر « الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان (١) » رفع اليدين إلى حذو المنكبين « وورد « إلى شحمة أذنيه » وورد « إلى رءوس أذنيه » متفق عليه من حديث ابن عمر باللفظ الأول وأبو داود من حديث وائل بن حجر بإسناد ضعيف « إلى شحمة أذنيه » ولمسلم من حديث مالك بن الحويرث « فروع أذنيه »
- (٢) حديث « نشر الأصابع عند الافتتاح » ونقل « ضمها » وقال عطاء وابن خزيمة من حديث أبي هريرة والبيهقي « لم يفرج بين أصابعه ولم يضمها » ولم أجد التصريح بضم الأصابع .
- (٣) حديث التكبير مع رفع اليدين أخرجه البخاري من حديث ابن عمر « كان يرفع يديه حين يكبر » ولأبي داود من حديث وائل « يرفع يديه مع التكبير »
- (٤) التكبير مع استقرار اليدين أي مرفوعتين أخرجه مسلم من حديث ابن عمر « كان إذا أقام الصلاة رفع حتى يكونا حذو منكبيه ثم كبر » زاد أبو داود « وهما كذلك »
- (٥) « التكبير مع إرسال اليدين » أخرجه أبو داود من حديث أبي حميد « كان إذا قام إلى الصلاة يرفع يديه حتى يحاذي بهما منكبيه ثم كبر حتى يقر كل عظم في موضعه معتدلاً » قال ابن الصلاح في الشكلى فكلمة « حتى » التي هي للغاية تدل بالمعنى على ما ذكره أي من ابتداء التكبير مع الإرسال .
- (٦) « كان إذا كبر أرسل يديه فإذا أراد أن يقرأ وضع اليمنى على اليسرى » أخرجه مسلم من حديث معاذ بإسناد ضعيف

الله بكرة وأصيلاً<sup>(١)</sup> وجهت وجهي - إلى قوله - وأنا من المسلمين<sup>(٢)</sup> ثم يقول «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك وجل ثناؤك ولا إله غيرك<sup>(٣)</sup>» ليكون جامعاً بين مفرقات ما ورد في الأخبار . وإن كان خلف الإمام اختصر إن لم يكن للإمام سكتة طويلة يقرأ فيها ثم يقول «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» ثم يقرأ الفاتحة مبتدئ فيها بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» بتمام تشديداتها وحروفها ويمتد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول «آمين» في آخر الفاتحة ويعدها مداً ، ولا يصل «آمين» بقوله «ولا الضالين» وصلاً . ويجهر بالقراءة في الصبح والمغرب والعشاء إلا أن يكون مأموماً ، ويجهر بالآمين . ثم يقرأ السورة أو قدر ثلاث آيات من القرآن فما قوفها ، ولا يصل آخر السورة بكبير الهوى بأن يفصل بينهما بقدر قوم «سبحان الله» ويقرأ في الصبح من السور الطوال من المفصل وفي المغرب من قصاره ، وفي الظهر والعصر والعشاء نحو (والسما ذات البروج) وما قاربها . وفي الصبح في السفر (قل يا أيها الكافرون) قل هو الله أحد) وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية وهو في جميع ذلك مستدبر للقيام ووضع اليدين كما وصفنا في أول الصلاة .

### الركوع ولواحقه

ثم يركع ويراعي فيه أموراً وهو أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع وأن يمد التكبيرة مداً إلى الانتهاء إلى الركوع وأن يضع راحتيه على ركبتيه في الركوع وأصابعه منشودة موجهة نحو القبلة على طول الساق وأن ينصب ركبتيه ولا يثنهما وأن يمد ظهره مستوياً وأن يكون عنقه ورأسه مستويين مع ظهره كالصفيحة الواحدة لا يكون رأسه أخفض ولا أرفع وأن يحافى مرفقيه عن جنبيه . وتضم المرأة مرفقها إلى جنبها . وأن يقول «سبحان ربّي العظيم» ويقول «سمع الله لمن حمده» ويطمئن في الاعتدال ويقول «ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد» ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة التسليم والكسوف والصبح . ويقنت في الصبح في الركعة الثانية بالكلمات الماثورة قبل السجود<sup>(٤)</sup> .

### السجود

ثم يهوي إلى السجود مكبراً فيضع ركبتيه على الأرض ويضع جبهته وأنفه وكفيه مكشوفة وبكبر عند الهوى ولا يرفع يديه في غير الركوع ، ويبني أن يكون أول ما يقع منه على الأرض ركبته وأن يضع يدهما يديه ثم يضع يدهما وجهه وأن يضع جبهته وأنفه على الأرض وأن يحافى مرفقيه عن جنبيه . ولا تفعل المرأة ذلك وأن يفرج بين رجليه . ولا تفعل المرأة ذلك . وأن يكون في سجوده مخوياً على الأرض . ولا تكون المرأة مخوية .

(١) «أنه يقول بعد قوله الله أكبر : الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلاً» أخرجه مسلم من حديث ابن عمر قال «بينما نحن نصلّي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال رجل من القوم الله أكبر كبيرا ...» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث جابر بن مطعم «أنه رأى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلى صلاة قال : الله أكبر كبيراً ...» (٢) «دعاء الاستفتاح وجهت وجهي ...» أخرجه مسلم من حديث علي (٣) «سبحانك اللهم وبحمدك ...» في الاستفتاح أيضاً أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث عائشة وصفته الترمذي والدارقطني ورواه مسلم موقوفاً على عمر وعند البيهقي من حديث جابر الجعفي «وبين «سبحانك اللهم» (٤) «القنوت في الصبح بالكلمات الماثورة» أخرجه البيهقي من حديث ابن عباس «كان النبي صلى الله عليه وسلم يقنت في صلاة الصبح وفي وتر الليل هؤلاء الكلمات : اللهم اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ ...» أخرجه أبو داود والترمذي وجسنه والنسائي من حديث الحسن «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلم هؤلاء الكلمات ولم يكن في الوتر» وإسناده صحيح .

والتخوية : رفع البطن عن الفخذين والتفريق بين الركبتين . وأن يضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين أصابعهما بل يضمهما ويضم الإبهام إليهما ، وإن لم يضم الإبهام فلا بأس ، ولا يفترش ذراعيه على الأرض كما يفترش الكلب<sup>(١)</sup> فإنه منهي عنه ، وأن يقول « سبحان ربّي الأعلى » ثلاثاً فإن زاد حسن إلا أن يكون إماماً . ثم يرفع من السجود فيطمئن جالساً معتدلاً فيرفع رأسه مكبراً ويجلس على رجله اليسرى وينصب فيه اليمنى ويضع يديه على نغديه والأصابع منشورة ولا يتكلف ضمها ولا تفريجها . ويقول « رب اغفر لي وارحمني وارزقني واحفظني واجبرني وعافني واعف عني » ولا يطول هذه الجلسة إلا في سجود التسليم . ويأتي بالسجدة الثانية كذلك ويستوى منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة في كل ركعة لاتشد عقبها . ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه في حال الارتفاع ويمد التكبير حتى يستغرق ما بين وسط ارتفاعه من القعود إلى وسط ارتفاعه إلى القيام . بحيث تكون الهاء من قوله « الله » عند استوائه جالساً ، وكلف « أكبر » عند اعتداده على اليد للقيام ، وراء « أكبر » في وسط ارتفاعه إلى القيام ويبتدىء في وسط ارتفاعه إلى القيام حتى يقع التكبير في وسط ارتفاعه ولا يخلو عنه إلا طرفاه وهو أقرب إلى التعميم . ويصلي الركعة الثانية كالأولى ويعيد التعمد كالابتداء .

### التشهد

ثم يتشهد في الركعة الثانية التشهد الأول . ثم يصلي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ويضع يده اليمنى على نغذه اليمنى ويقبض أصابعه اليمنى إلا المسبحة ، ولا بأس بإرسال الإبهام أيضاً ، ويشير بمسبحة يمينه وحدها عند قوله « لا الله » لاعتد قوله « لا إله » ويجلس في هذا التشهد على رجله اليسرى كما بين السجدين . وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور<sup>(٢)</sup> بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وسننه كسنة التشهد الأول لكن يجلس في الأخير على ورقة الأيسر ، لأنه ليس مستوفراً للقيام بل هو مستقر ، ويضع رجله اليسرى خارجة من تحته وينصب اليمنى ويضع رأس الإبهام إلى جهة القبلة إن لم يثق عليه . ثم يقول « السلام عليكم ورحمة الله » ويلفت يميناً بحيث يرى خده الأيمن من وراءه من الجانب الأيمن ويلفت شمالاً كذلك . ويسلم تسليمه ثانية وينوي الخروج من الصلاة بالسلام . وينوي بالسلام على يمينه الملائكة والمسلمين في الأولى ، وينوي مثل ذلك في الثانية . ويجزم التسليم<sup>(٣)</sup> ولا يده مداً فهو السنة . وهذه هيئة صلاة المنفرد ، ويرفع صوته بالتكبير ولا يرفع صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوي الإمام الإمامة لينال الفضل فإن لم ينو صحت صلاة القوم إذا نواوا الاقتداء ونالوا فضل الجماعة ، ويسر بدعاء الاستفتاح والتعمد كالمنفرد . ويجهر بالفاتحة والسورة في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب . وكذلك المنفرد . ويجهر بقوله « آمين » في الصلاة الجهرية وكذلك المأموم . ويقرن المأموم تأمينه بتأمين الإمام معاً لاتعقياً ويسكت الإمام سكته صليب الفاتحة ليثوب إليه نفسه ويقرأ المأموم السورة في الجهرية في هذه السكته ليتمكن من الاستماع عند قراءة الإمام . ولا يقرأ المأموم السورة في الجهرية إلا إذا لم يسمع صوت الإمام . ويقول الإمام « سمع الله لحمد » عند رفع رأسه من الركوع وكذا المأموم . ولا يزيد الإمام على الثلاث في تسبيحات الركوع والسجود . ولا يزيد

(١) « انتهى عن أن يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب » متفق عليه حديث أنس . (٢) « الدعاء المأثور بعد التشهد » أخرجه مسلم من حديث علي في دعاء الاستفتاح قال « ثم يكون من آخر ما يقول بين التشهد والتسليم : اللهم اغفر لي ما قدمت ... الحديث » وفي الصحيحين من حديث عائشة « إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع : من عذاب جهنم ... الحديث » وفي الباب غير ذلك جميعاً في الأصل . (٣) « جزم السلام سنة » أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح ومنه ابن القطان .

في التشهد الأول بعد قوله « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد » ويقتصر في الركعتين الأخيرتين على الفاتحة ولا يطول على القوم ولا يزيد على دعائه في التشهد الأخير على قدر التشهد والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وينبى القوم على السلام : السلام على القوم والملائكة . وينبى القوم بتسليمهم جوابه . ويثبت الإمام ساعة حتى يفرغ الناس من السلام وقبل على الناس بوجهه . والأولى أن يثبت إن كان خيف الرجال نساء لينصرفن قبله ، ولا يقوم واحد من القوم حتى يقوم . وينصرف الإمام حيث يشاء عن يمينه وشماله واليمين أحب إلى . ولا يخص الإمام نفسه بالدعاء في قنوت الصبح بل يقول « اللهم اهدنا » ويجهر به ويؤمن القوم ويرفعون أيديهم حذاء الصدور ، ويسبح الوجه عند ختم الدعاء . لحديث نقل فيه ، وإلا فالقياس أن لا يرفع اليد كما في آخر التشهد .

### المنهيات

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصفن في الصلاة والصفود ذكرناهما عن الإقماء (١) وعن السدل (٢) والكف (٣) وعن الاختصار (٤) وعن الصلب (٥) وعن المواصل (٦) وعن صلاة الحاقن (٧) والخاب (٨) والخارق (٩) وعن صلاة الجامع والقبضان والمتمم (١٠) وهو ستر الوجه . أما الإقماء : فهو عند أهل اللغة أن يجلس على وركيه وينصب ركبتيه ويجعل يديه على الأرض كالكلب ، وعند أهل الحديث أن يجلس على ساقيه جاثيا وليس على الأرض منه إلا ورس أصابع الرجلين والركبتين . وأما السدل : فذهب أهل الحديث فيه أن يلتحف بشو به ويدخل يديه من داخل فركع ويسجد كذلك ، وكان هذا فعل اليهود في صلاتهم فنهوا عن التشبيه بهم والقميص في معناه فلا ينبغي أن يركع ويسجد ويده في بدن القميص . وقيل معناه أن يضع وسط الإزار على رأسه ويرسل طرفيه عن يمينه وشماله من غير أن يجعلا على كتفيه . والأول أقرب ، وأما الكف فهو أن يرفع ثيابه من بين يديه أو من خلفه إذا أراد السجود . وقد يكون الكف في شعر الرأس فلا يصلين وهو عاقص شعره والنهي للرجال . وفي الحديث « امرت

(١) « النهى عن الإقماء » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث علي بسند ضعيف « لا تقع بين السجدين » ومسلم من حديث عائشة « كان ينهى عن عقبة الشيطان ، والحاكم من حديث سمرة وصححه « نهى عن الإقماء » . (٢) « النهى عن السدل في الصلاة » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة . (٣) « النهى عن الكف في الصلاة » متفق عليه من حديث ابن عباس « أمرنا النبي صلى الله عليه وسلم أن نسجد على سبعة أعظم ولا نكف شعرا ولا ثوبا » . (٤) « النهى عن الاختصار » أخرجه أبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ « نهى أن يصلي الرجل مختصرا » . (٥) « النهى عن الصلب في الصلاة » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح . (٦) حديث وغير ذلك ، وقد روى أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث سمرة « سكتان حفظهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل في صلاته : إذا فرغ من قراءته وإذا فرغ قراءة القرآن » وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة « كان يسكت بين التكبير والقراءة إسكاته... الحديث » . (٧) « النهى عن صلاة الحاقن » أخرجه ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يصلي الرجل وهو حاقن » وأبو داود من حديث أبي هريرة « لا يحل لرجل أن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حاقن » وله للترمذي وحسنه نحوه من حديث ثوبان ومسلم من حديث عائشة « لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخثان » . (٨) « النهى عن صلاة الخاب » لم أجده بهذا اللفظ وفسره للمصنف تبعا للأزهري بمدافعة الغائط وفيه حديث عائشة الذي قبل هذا . (٩) « النهى عن صلاة الخارق » عزاه رزين إلى الترمذي ولم أجده عنده والذي ذكر أصحابه القريب حديث « لا رأى خارق » وهو صاحب الحنف الضيق . (١٠) « النهى عن التلم في الصلاة » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبي هريرة بسند حسن « نهى أن يغطي الرجل فاه في الصلاة » رواه الحاكم وصححه قال الخطابي هو التلم على الأنواء .

أن أسجد على سبعة أعضاء . ولا أكف شعراً ولا ثوباً (١) » وكره أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن يأتز فوق القميص في الصلاة ورأه من الكف . وأما الاختصار : فإن يضع يديه على غاصرتيه . وأما الصلب فإن يضع يديه على غاصرتيه في القيام ويجافي بين عضديه في القيام . وأما المواصله : فهي خمسة ؛ اثنان على الإمام أن لا يصل قراءته بتكبيره الإحرام ولا ركوعه بقراءته ، واثنان على المأموم أن لا يصل تكبيرة الإحرام بتكبيره الإمام ولا تسليمه بتسليمه ، وواحدة بينهما أن لا يصل تسليمه الفرض بالتسليم الثانية ويفصل بينهما . وأما الحاقن : فمن البول . والحاقب : من الفاظ . والحاذق : صاحب الخف الضيق . فإن كل ذلك يمنع من الخشوع . وفي معناه الجائع والمتم . وفيهم نهى الجائع من قوله صلى الله عليه وسلم « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء إلا أن يضيق الوقت أو يكون ساكن القلب (٢) » وفي الخبر « لا يدخل أحدكم الصلاة وهو مقطب ولا يصلي أحكم وهو غضبان (٣) » وقال الحسن : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وفي الحديث « سبعة أشياء في الصلاة من الشيطان : العراف والنماس والوسوسة والتثاؤب والبعث بالشئ (٤) » وزاد بعضهم « السهو والشك » وقال بعض السلف : أربعة في الصلاة من الجفاء - الالتفات ومسح الوجه وتسوية الحصى وأن تعلى بطريق من يمر بين يديك » ونهى أيضاً عن أن يشبك أصابعه (٥) أو يرفع أصابعه (٦) أو يستريح وجهه (٧) أو يضع إحدى كفيه على الأخرى ويدخلهما بين نظفيه في الركوع (٨) » وقال بعض الصحابة رضي الله عنهم : كنا نفعل ذلك فنهينا عنه . ويكره أيضاً أن ينفخ في الأرض عند السجود للتنظيف وأن يسوى الحصى بيده فإنها أفعال مستنقذ عنها ولا يرفع إحدى قدميه فيضعها على غلظه ولا يستند في قيامه إلى حائط فإن استند بحيث لو سل ذلك الحائط ل سقط فالأظهر بطلان صلاته والله أعلم .

### تمييز الفرائض والسنن

جهل ما ذكرناه يشتمل على فرائض وسنن وآداب وهيئات عما ينبغي لمريد طريق الآخرة أن يراعى جميعها . فافترض من جهاتها اثنا عشرة خصلة : الثانية والتكبير والقيام والفاضة ، والإختنا في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطأينة والاعتدال عنه قائماً ، والسرود مع الطأينة ولا يجب وضع اليدين والاعتدال عنه قاعداً ، والجلوس

- (١) « أمرت أن أسجد على سبعة أعضاء ولا أكف شعراً ولا ثوباً .. » متفق عليه من حديث ابن عباس .
- (٢) « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا بالعشاء » متفق عليه من حديث ابن عمر وعائشة . (٣) « لا يدخل أحدكم الصلاة وهو غضبان » لم أجده . (٤) « سبعة أشياء من الشيطان في الصلاة : العراف والنماس والوسوسة والتثاؤب والالتفات » وزاد بعضهم « السهو والشك » أخرجه الترمذي من رواية عدي بن ثابت عن أبيه عن جده فذكر منها العراف والنماس والتثاؤب وزاد ثلاثة أخرى وقال حديث غريب ولمسلم من حديث عثمان بن أبي العاص « يا رسول الله إن الشيطان قد حال بيني وبين صلاتي .. الحديث » وللبخاري من حديث عائشة في الالتفات في الصلاة وهو اختلاص غلظته الشيطان من صلاة أحدكم وللشيخين من حديث أبي هريرة التثاؤب من الشيطان ولها من حديث أبي هريرة إن أحدكم إذا قام يصلي جاء الشيطان فلبس عليه صلاته حتى لا يدري كم صلى . (٥) « النهى عن تشبكي الأصابع » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان نحوهم من حديث كعب بن عجرة . (٦) « النهى عن تقطيع الأصابع في الصلاة » أخرجه ابن ماجه من حديث علي بإسناد ضيف لضعف أصابعك في الصلاة . (٧) « النهى عن ستر الوجه » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة .
- (٨) « النهى عن أن تطبق في الركوع » متفق عليه من حديث سعد بن أبي وقاص : كنا نفعله فنهينا عنه وأمرنا أن نضع الأيدي على الركب .

للتشهد الأخير والتشهد الأخير والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، والسلام الأول . فأما نية الخروج فلا تجب وماعدا هذا فليس بواجب بل هي سنن وهيئات فيها وفي الفرائض . أما السنن فمن الأفعال أربعة : رفع اليدين في تكبيرة الإحرام وعند الهوى إلى الركوع وعند الارتفاع إلى القيام ، والجلسة للتشهد الأول . فأما ما ذكرناه من كيفية نثر الأصابع وحد رفعها فهي هيئات تابعة لهذه السنة ، والتورك والاقتراش هيئات تابعة للجلسة ، والإطراق وترك الالتفات هيئات للقيام وتحسين صورته ، وجملة الإستراحة لم نعدنا من أصول السنة في الأفعال لأنها كانتحسين طيبة لارتفاع من السجود إلى القيام لأنها ليست مقصودة في نفسها ولذلك لم تفرد بذكر . وأما السنن من الأذكار فدعاء الاستفتاح ثم التعوذ ثم قوله « آمين » فإنه سنة مؤكدة ثم قراءة السورة ثم تكبيرات الاعتقالات ، ثم الذكر في الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، ثم التشهد الأول والصلاة فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم الدعاء في آخر التشهد الأخير ، ثم التسليم الثانية وهذه إن جمعناها في اسم السنة فلها درجات متفاوتة إذ تجبر أربعة منها بسجود السهو . وأما من الأفعال فواحدة : وهي الجلسة الأولى للتشهد الأول فإنها مؤثرة في ترتيب نظم الصلاة في عين الناظرين حتى يعرف بها أنها رباعية أم لا ؟ بخلاف رفع اليدين فإنه لا يؤثر في تمييز النظم فغير عن ذلك بالبعض ، وقيل لبعض تجبر بالسجود . وأما الأذكار فكلها لا تقتضي سجود السهو إلا ثلاثة : القنوت والتشهد الأول والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ؛ بخلاف تكبيرات الاعتقالات وأذكار الركوع والسجود والاعتدال عنهما ، لأن الركوع والسجود في صورتها مخالفاً للعادة ويحصل بهما معنى العبادة مع السكوت عن الأذكار فعدم تلك الأذكار لا تغير صورة العبادة . وأما الجلسة للتشهد الأول ففعل معتاد وما زهدت إلا التشهد فتركها ظاهر التأثير . وأما دعاء الاستفتاح والسورة فتركها لا يؤثر مع أن القيام صار معمولاً بالفاضة ويمرأ عن العادة بها ، وكذلك الدعاء في التشهد الأخير والقنوت أبعد ما يجبر بالسجود ولكن شرع مد الاعتدال في الصباح لأجله فكان كد جلسة الاستراحة إذ صارت بآداء مع التشهد الأول . فبقى هذا قياماً معمولاً يعتاد ليس فيه ذكر واجب وفي الممدود احتراز عن غير الصحيح وفي خلوه عن ذكر واجب احتراز عن أصل القيام في الصلاة .

فان قلت : تمييز السنن عن الفرائض معقول إذ تفوت الصحة بفوت الفرض دون السنة ويتوجه العقاب به دونها فأما تمييز سنة عن سنة والشكل مأثور به على سبيل الاستحباب ولا عقاب في ترك الشكل والثواب موجود على الشكل فما معناه ؟

فاعلم ان ان اشتراكهما في الثواب والعقاب والاستحباب لا يرفع تفاوتهما ، ولنعكش ذلك لك بمثال : وهو ان الإنسان لا يكون إنساناً موجوداً كاملاً إلا بمعنى باطن وأعضاء ظاهرة ، فالنقى الباطن هو الحياة والروح ، والظاهر اجسام أعضائه . ثم بعض تلك الأعضاء ينعمد الإنسان بعمدها كالقلب والكبد والدماغ ، وكل عضو تفوت الحياة بفواته ، وبعضها لا تفوت بها الحياة ولكن يفوت بها مقاصد الحياة كالعين واليد والرجل واللسان ، وبعضها لا يفوت بها الحياة ولا مقاصدها ولكن يفوت بها الحسن كالحاجبين والحية والأهداب وحسن اللون ، وبعضها لا يفوت بها أصل الجمال ولكن كاله كاستقواس الحاجبين وسواد شعر الحية والأهداب وتناسب خلفه الأعضاء وامتزاج الحرة بالبياض في اللون فهذه درجات متفاوتة ؛ فكذلك العبادة صورة صورها الشرع وتعبداً باكتسابها فروحها وحياتها الباطنة النشوة والنية وحضور القلب والإخلاص - كما سيأتى - ونحن الآن في اجزائها الظاهرة فالركوع والسجود والقيام وسائر الأركان تجري منها مجرى القلب والرأس والكبد إذ يفوت وجود الصلاة بفواتها . والسنن التي ذكرناها من رفع اليدين ودعاء الاستفتاح والتشهد الأول تجري منها مجرى اليدين والعينين والرجلين ولا تفوت الصحة بفواتها كما لا تفوت الحياة بفوات هذه الأعضاء ولكن يصير الشخص بسبب فواتها مشوه الخلق مذموماً غير مرغوب فيه . فكذلك من اقتصر على أقل ما يجرى من الصلاة كان كمن أهدي إلى ملك من الملوك عبداً حياً مقطوع الأطراف . وأما الهيئات وهي ما وراء السنن فتجرى مجرى أسباب الحسن من الحاجبين والحية والأهداب

وحسن اللون . وأما وظائف الأذكار في تلك السنن فهي مكملات للحسن كاستقواس الحاجبين واستدارة اللحية وغيرها . فالصلاة عندك قربة وتحفة تتقرب بها إلى حضرة ملك الملوك كوصيفة يهديها طالب القربة من السلاطين إليهم وهذه التحفة تعرض على الله عز وجل . ثم ترد عليك يوم العرض الأكبر فأليك الخيرة في تحسين صورتها وتجميلها فإن أحسنت فلنفسك وإن أسأت فعلمها . ولا ينبغي أن يكون حفظك من ممارسة الفقه أن يتميز لك السنة عن الفرس فلا يعلق بفهمك من أوصاف السنة إلا أنه يجوز تركها فتركها فإن ذلك يضاهي قول الطيب : إن فقه العين لا يبطل وجود الإنسان ولكن يخرج عن أن يصدق رجاء المتقرب في قبول السلطان إذا أخرجه في معرض الهدية . فهكذا ينبغي أن تفهم مراتب السنن والهيئات والآداب . فكل صلاة لم يتم الإنسان ركوعها وسجودها فهي الخضم الأول على صاحبها تقول : ضيعك الله كاضيعتي . فطالع الأخبار التي أوردناها في كمال أركان الصلاة ليطهر لك وقعها .

### الباب الثالث : في الشروط الباطنة

#### من أعمال القلب

ولنذكر في هذا الباب ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب . ثم نذكر المعاني الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها . ثم لنذكر تفصيل ما ينبغي أن يحضر في كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لواد الآخرة .

### بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب

اعلم أن أدلة ذلك كثيرة فن ذلك قوله تعالى ﴿ أقم الصلاة لذكري ﴾ وظاهر الأمر الوجوب ، والغفلة تضاد الذكر فن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقبلاً للصلاة لذكره ؟ وقوله تعالى ﴿ ولا تكن من الغافلين ﴾ تنهى وظاهره التحريم وقوله عز وجل ﴿ حتى تعلوا ما تقولون ﴾ تعليل لنهي السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوَسْوَاسِ وأفكار الدنيا وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ إنما الصلاة تمسكن وتواضع ﴾ حصر بالآلف واللام وكلمة « إنما » للتحقيق والتوكيد . وقد فهم الفقهاء من قوله عليه السلام ﴿ إنما الشفعة فيما لم يقصر ﴾ الحصر والإثبات والنفي . وقوله صلى الله عليه وسلم ﴿ من لم تنه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً ﴾ وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر . وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ كمن قائم حظه من صلاته الثعب والثعب ﴾ (١) وما أراد به إلا الغافل وقال صلى الله عليه وسلم ﴿ ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها ﴾ (٢) والتحقيق فيه أن المصلئ مناجاة ربه عز وجل (٣) كما ورد به الخبر والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة ألبته . وببأنه أن الزكاة إن غفل الإنسان عنها مثلاً

### الباب الثالث

- (١) « كمن قائم حظه من صلاته الثعب والثعب » أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة « رب قائم ليس له من قيامه إلا السهر » ولأحمد « درب قائم حظه من صلاته السهر » وإسناده حسن .
- (٢) « ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل » لم أجده مرفوعاً وروى محمد بن نصر المروزي في الكتاب الصلاة من رواية عثمان بن أبي دهرش مرسلاً « لا يقبل الله من عبد عملاً حتى يشهد قلبه مع بدنه » ورواه أبو منصور الديلمي في مستندالدرود من حديث أبي بن كعب ولابن المبارك في الزهد موقوفاً على عمار لا يكتب للرجل من صلاته ما سبه عنه .
- (٣) « المصلئ يناجي ربه » متفق عليه من حديث أنس .

فبى في نفسها مخالفة للشبهة شديدة على النفس ، وكذا الصوم قاهر للقوى كاسر لسلطة الهوى الذى هو آلة للشيطان عدو الله ، فلا يبعد أن يحصل منها مقصود مع الغفلة ، وكذلك الحج أفعاله شاقة شديدة وفيه من المجاهدة ما يحصل به الإيلام كان القلب حاضرا مع أفعاله أو لم يكن ؟ أما الصلاة فليس فيها إلا ذكر وقراءة وركوع وسجود وقيام وقعود ، فأما الذكر فإنه مجاورة ومناجاة مع الله عز وجل فأما أن يكون المقصود منه كونه خطايا ومحاوراة أو المقصود منه الحروف والأصوات امتحانا للسان بالعمل كما تتمتع المعدة والفرج بالإمساك في الصوم ، وكما يتمتع البدن بشاق الحج ، ويتمتع القلب بمشقة إخراج الزكاة واقتطاع المال المشقوق . ولا شك أن هذا القسم باطل فإن تحريك اللسان بالهديان ما أخفه على الغافل فليس فيه امتحان من حيث أنه عمل بل المقصود الحروف من حيث إنه نطق ، ولا يكون تعافا إلا إذا أعرب عما في الضمير ولا يكون مرعا إلا بحضور القلب ، فأى سؤال في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلا ؟ وإذا لم يقصد كونه تضرا ودعاء فأى مشقة في تحريك اللسان به مع الغفلة لاسيما بعد الاحتياط ؟ هذا حكم الأذكار بل أقول لو حلف الإنسان وقال : لأشكن فلانا وأنتى عليه وأسأله حاجة ، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ، ولو جرت على لسانه في ظلمة وذلك الإنسان حاضرا وهو لا يعرف حضوره ولا يراه لا يصير بارا في يمينه إذ لا يكون كلامه خطايا ونطقا معه ما لم يكن هو حاضرا في قلبه ، فلو كانت تحرى هذه الكلمات على لسانه وهو حاضرا لا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرقا في فكر من الأفكار ولم يكن له قصد توجيه الخطاب إليه عند نطقه لم يصير بارا في يمينه . ولا شك في أن المقصود من القراءة والأذكار الحد والثبات والتضرع والدعاء ، والخطاب هو الله عز وجل وقلبه بمحاجات الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهد بل هو غافل عن الخطاب ولسانه يتحرك بحكم العادة فلا أبعاد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصفيل القلب وتجهيزه كراهة عز وجل ورسوخ عقد الإيمان به ! هذا حكم القراءة والذكر . وبالجمله فهذه الخاصية لا سبيل إلى إنكارها في النفاق وتمييزها عن الفعل . وأما الركوع والسجود فالمقصود بهما التعظيم قطعاً ولو جاز أن يكون معظما لله عز وجل بفعله وهو غافل عنه لجاز أن يكون معظما لعنه موضوع بين يديه وهو غافل عنه أو يكون معظما للحائط الذى بين يديه وهو غافل عنه ، وإذا خرج عن كونه تعظيما لم يبق إلا مجرد حركة الظهر والرأس وليس فيه من المشقة ما يقصد الامتحان به ، ثم يجعله عماد الدين والفاصل بين الكفر والإسلام ويقدم على الحج وسائر العبادات ويجب القتل بسبب تركه على الخصوص ، وما أرى أن هذه العظمة كلها للصلاة من حيث أعمالها الظاهرة إلا أن يضاف إليها مقصود المناجاة فإن ذلك يتقدم على الصوم والزكاة والحج وغيره بل الضحايا والقرابين التي هي مجاهدة للنفس بتقييس المال قال الله تعالى (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) أى الصفة التي استولت على القلب حتى حملته على امتثال الأوامر هي المطلوب فكيف الأمر في الصلاة ولا أرب في أفعالها ؟ فهذا ما يبدل من حيث المعنى على اشتراط حضور القلب .

فإن قلت : إن حكمت بطلان الصلاة وجعلت حضور القلب شرطا في صحتها خلقت إجماع الفقهاء فإنهم لم يشترطوا إلا حضور القلب عند التكبير ؟

فاعلم أنه قد تقدم في كتاب العلم : أن الفقهاء لا يتصرفون في الباطن ولا يشقون عن القلوب ولا في طريق الآخرة بل يثبتون ظاهرا أحكام الدين على ظاهر أعمدال الجوارح ، وظاهر الأعمال كاف لسقوط القتل وتعمير السلطان ، فأما أنه ينفع في الآخرة فليس هذا من حدود الفقه على أنه لا يمكن أن يدعى الإجماع . فقد نقل عن بشر بن الحرث فيما رواه عنه أبو طالب الملسكي عن سفيان الثوري أنه قال : من لم يخشع قبلت صلاته . وروى عن الحسن أنه قال : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهي إلى العقوبة أسرع . وعن معاذ بن جبل : من عرف من على يمينه وشماله متمعدا وهو في الصلاة فلا صلاة له . وروى أيضا مسندا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم



« إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له مدسها ولا عشرين وإنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها (١) » وهذا لو نقل عن غيره لجعل مذهبا فكيف لا يتمسك به ؟ وقال عبد الواحد بن زيد : أجمعت العلماء على أنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل عنها ، فجعله إجماعاً ، وما نقل من هذا الجنس عن الفقهاء المتورعين وعن علماء الآخرة أكثر من أن يحصى . والحق الرجوع إلى أدلة الشرع والأخبار والآثار ظاهرة في هذا الشرط إلا مقام الفتوى في التكليف الظاهر يتقدر بقدر قصور الحقائق . فلا يمكن أن يشترط على الناس إحضار القلب في جميع الصلاة فإن ذلك يمجز عنه كل البشر إلا الأفالين وإذا لم يمكن اشتراط الاستيعاب للضرورة فلا مرد له إلا أن يشترط منه ما ينطلق عليه الاسم ولو في اللحظة الواحدة ؛ وأولى اللحظات به لحظة التكبير فاقصرنا على التكليف بذلك ونحن مع ذلك نرجو أن لا يكون حال الغافل في جميع صلاته مثل حال التارك بالسكينة فإنه على الجملة أقدم على الفعل ظاهراً وأحضر القلب لحظة . وكيف لا والنبي صلى مع الحديث ناسياً صلاته باطلة عند الله تعالى ولكن له أجر ما يحسب فعله وعلى قدر قصوره وعلمه . ومع هذا الرجاء فيخشى أن يكون حاله أشد من حال التارك وكيف لا والنبي يحضر الخدمة ويتهاون بالحضرة ويتكلم بكلام الغافل المستحقر أشد حالاً من الذي يمرض عن الخدمة ؟ وإذا تعارض أسباب الخوف والرجاء وصار الأمر عظمياً في نفسه فأليك الخيرة بعده في الاحتياط والتساهل . ومع هذا فلا مطمع في مخالفة الفقهاء فيما أوتوا به من الصحة مع الغفلة فإن ذلك من ضرورة الفتوى . كما سبق التنبيه عليه . ومن عرف سر الصلاة علم أن الأفضلة تضادها . ولكن قد ذكرنا في باب الفرق بين العلم الباطن والظاهر في كتاب قواعد العقائد أن قصور الحقائق أحد الأسباب المانعة عن التصريح بكل ما يتكشف من أسرار الشرع . فلنقتصر على هذا القدر من البحث فإن فيه مقنعاً للبريد الطالب لطريق الآخرة . وأما المجادل المشغب فلنستأذن نقصد مخاطبته الآن . وحاصل الكلام أن حصول القلب هو روح الصلاة وأن أقل ما يتيق به روح الحضور عند التكبير ، فالنقصان منه هلاك وبقدرة الزيادة عليه تنبسط الروح في أجزاء الصلاة . وكل من حى لأحراك به قريب من ميت ؟ فصلاة الغافل في جميعها إلا عند التكبير كمثل حى لأحراك به نساء الله حسن العون .

### بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة

اعلم أن هذه المعاني تكثر بالمعارات عنها ولكن يجمعها ست عمل وهي : حضور القلب والتفهم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء فلنذكر تفصيلها ثم أسبابها ثم الملاجئ في اكتسابها . أما التفاصيل ؛ فالأول : حضور القلب وتتم به أن يفرغ عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به ، فيكون العلم بالفعل والقول مقروناً بهما ، ولا يكون الفكر جاثلاً في غيرهما ، ومهما انصرف في الفكر عن غير ما هو فيه وكان في قلبه ذكر لما هو فيه ولم يكن فيه غفلة عن كل شيء فقد حصل حضور القلب ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ؛ فربما يكون القلب حاضراً مع اللفظ ولا يكون حاضراً مع معنى اللفظ . فاشغال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذي أردناه بالتفهم . وهذا مقام يتفاوت الناس فيه إذ ليس يشترك الناس في تفهم المعاني للقرآن والتسبيحات . وكل من معان لطيفة يفهمها المصلي في أثناء الصلاة ولم يكن قد خطر بقلبه ذلك قبله ؟ ومن هذا الوجه كانت الصلاة تاهية عن الفحشاء والمنكر ، فإنها تفهم أموراً ؛ تلك الأمور تجمع عن الفحشاء لا محالة . وأما التنظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم إذ الرجل يتخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب

(١) « إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له مدسها ولا عشرين ... الحديث » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان

من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

فيه ومفهم لمعناه ولا يكون معظاً له فالتعظيم زائد عليهما . وأما الهيبة فزائدة على التعظيم بل هي عبارة عن خوف منشؤه التعظيم لأن من لا يخاف لا يسمى هائباً ، والخافة من العقرب وسوء خلق العبد وما يجري مجراه من الأسباب الخسيسة لا تسمى مهابة ، بل الخوف من السلطان المعظم يسمى مهابة ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال . وأما الرجاء فلا شك أنه زائد فكم من معظم ملكاً من الملوك يهابه أو يخاف سطوته ولكن لا يرجو موته . والعبد ينبغي أن يكون راجياً بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجل . وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار تقصير وتوهم ذنب ويشور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

وأما أسباب هذه المعاني الستة فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتكم فلا يحضر إلا فيما يملك ومهما أمرك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى فلو يجول على ذلك ومسخر فيه . والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متطلاً بل جاثلاً فيها الهمة مصروقة إليه من أمور الدنيا ، فلا حيلة ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة . والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن القرض المطلوب منوط بها وذلك هو الإيمان والتصدق بأن الآخرة خير وأبقى وأن الصلاة وسيلة إليها ، فإذا أضيف هذا إلى حقيقة العلم بحقارة الدنيا ومهبتها حصل من مجموعها حضور القلب في الصلاة ، وبمثل هذه العلة يحضر قلبك إذا حضرت بين يدي بعض الأكابر من لا يقدر على مضرتك ومنفعتك ، فإذا كان لا يحضر عبد المناجاة مع ملك الملوك الذي بيده الملك والمسكوت والنفع والعسر فلا تظن أن له سبباً سوى ضعف الإيمان فاجتهد الآن في تقوية الإيمان - وطريقه يستفهم في غير هذا الموضوع - وأما التفهم فسيب بعد حضور القلب إيمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى وعلاجه ما هو علاج إحضار القلب مع الإنزال على الفكر والتشمر لدفع الخواطر .

وعلاج دفع الخواطر الشاغلة فقلع موادها أعنى النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها وما لم تنقطع تلك المراتد لا تنصرف عنها الخواطر فمن أحب شيئاً أكثر ذكره فذكر المحبوب يهجم على القلب عن بالضرورة ، لذلك ترى من أحب غير الله لا يصفر له صلاة غن الخواطر . وأما التعظيم فهي حالة للقلب تولد من معرفتين :

إحداها : معرفة جلال الله عز وجل وعظمته وهو من أصول الإيمان فإن من لا يعتقد عظمته لا تدعن النفس لتعظيمه ؛

الثانية : معرفة حقارة النفس وخساستها وكونها عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم ، وما لم تتجز معرفة حقارة النفس بمعرفة جلال الله لا تنتظم حالة التعظيم والخشوع فإن المستغنى عن غيره الآمن على نفسه يجوز أن يعرف من غير صفات العظمة . ولا يكون الخشوع والتعظيم حاله لأن القرينة الأخرى وهي معرفة حقارة النفس وحاجتها لم تقترن إليه .

وأما الهيبة والخوف لحالة للنفس تولد من المعرفة بقدرته الله وسطوته وتقوذه شئيته فيه مع قلة المسالاة به ، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكة ذرة هذا مع مطالعة ما يجري على الأنبياء والأولياء من المصائب وأنواع البلاء مع التصدرة على الدفع على خلاف ما يشاهد من ملوك الأرض . وبالجملة أكسب زاد العلم بالله زادت الخشية والهيبة - وسيأتي أسباب ذلك في كتاب الخوف من رب العالمين - وأما الرجاء فسيب معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعظم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه وعده الجنة بالصلاة ، فإذا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلفظه انبثت من مجموعها الرجاء لا محالة . وأما الحياء فباستشعاره التقصير في العبادة وعلمه بالعجز عن القيام به عظم حق الله عز وجل ويتوهم ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتنا وقلة إخلاصها وخبت دختها وميلها إلى الخط العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظم ما يقضيه جلال الله عز وجل والعلم

بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت ، وهذه المعارف إذا حصلت يقينا انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء فهذه أسباب هذه الصفات وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه في معرفة السبب معرفة الملاج . ورابطة جميع هذه الأسباب الإيمان واليقين أعنى بمعرفة المعارف التي ذكرناها ومعنى كونها يقينا انتفاء الشك واستيلاؤها على القلب - كما سبق في بيان اليقين من كتاب العلم - وبقدر اليقين يخضع القلب ولذلك قالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة كأنه لم يمر بنا ولم نعرفه » وقد روى أن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام « يا موسى إذا ذكرتي فأذكرني وأنت تنفض أعضاءك وكن عند ذكرى خاشعا مطمئنا وإذا ذكرتي فأجعل لسانك من وراء قلبك وإذا كنت بين يدي فقم قيام العبد الدليل وناجني بقلب وجل ولسان صادق » وروى أن الله تعالى أوحى إليه « قل لهصافاً منك لا يذكرني فأني آليت على نفسي أن من ذكرني ذكرته فإذا ذكروني ذكرتهم باللعنة » هذا في حاص غير غافل في ذكره فكيف إذا اجتمعت الغفلة والعصيان ؟ وباختلاف المعاني التي ذكرناها في القلوب انقسم الناس إلى غافل يتم صلاته ولم يحضر قلبه في لحظة منها ، وإلى من يتم ولم يغيب قلبه في لحظة بل ربما كان مستوعب الهم بها بحيث لا يحس بما يجري بين يديه . ولذلك لم يحس مسلم بن يسار بسقوط الأسطوانة في المسجد وقد اجتمع الناس عليها . وبعضهم كان يحضر الجماعة مدة ولم يعرف قط من على منبته ويساره . وجيب قلب إبراهيم صلوات الله عليه وسلامه كان يسمع على منبته . وجماعة كانت تصفر وجوههم وترتعد فرجهم . وكل ذلك غير مستبعد فإن أضعافه مشاهد في همم أهل الدنيا وخوف ملوك الدنيا مع عجزهم وضعفهم وخساسة الحفظ والحاصلتهم حتى يدخل الواحد على ملك أو وزير ويحدثه بمهمته ثم يخرج ، ولو سئل عن حواليه أو عن ثوب الملك . لكن لا يقدر على الإخبار عنه لا شغاله همه به عن ثوبه وعن الحاضرين حواليه (ولكل درجات مما عملوا) فخط كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات . ولذلك قال بعض الصحابة رضي الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء من وجود النعم بها والذلة . ولقد صدق فإنه يحشر كل على مامات عليه وموت على ما عاش عليه . ويراعى في ذلك حال قلبه لأحال شخصه في صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

### بيان الدواء النافع في حضور القلب

اعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظما لله عز وجل وخائفا منه وراجيا له ومستحييا من تقصيره فلا ينزك عن هذه الأحوال بعد إيمانه ، وإن كانت قوتها بقدرته يقينه فانفكاكه عنها في مصلاه لاسبب إلا أن تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغلبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة . ولا يليق عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة ، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلنعلم سببه وسبب موارد الخواطر إما أن يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا . أما الخارج فما يقرع السمع أو يطر البصر فإن ذاك قد يحتفظ الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلسل ويكون الإبصار سببا للافتكار ، ثم نصير بعض تلك الأفكار سببا للبعض . ومن قويت نيته وعلت همته لم يله ما جرى على حواسه ولكن الضيف لا بد وأن يفرق به فكه . وعلاجه قلع هذه الأسباب بأن يفرض بصره أو يصلي في بيت مظلم أولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائله عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنفرشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة . ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعة قدر السجود ليكون ذلك أجمع لهم . والأقوياء منهم كانوا يحضرون المساجد وينضون البصر ولا يجاوزون به

موضع السجود ويرون كمال الصلاة في أن لا يرفعوا من على عيניהم وشمالهم ، وكان ابن عمر رضي الله عنهما لا يدع في موضع الصلاة مصحفاً ولا سيفاً إلا نزعوه ولا كتاباً إلا أعماه . وأما الأسباب الباطنة فهي أشد فإن من تثبتت به المحرم في أودية الدنيا لا يتحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب وغض البصر لا يفتنيه ، فان ما وقع في القلب من قبل كاف للشغل فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقروء في الصلاة ويشغلها به عن غيره ، على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يمدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وهو المطلع ويفرج قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يحمله فلا ينزك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعثمان بن أبي شيبة « إني نسيت أن أقول لك أن تحمر القدر الذي في البيت (١) » فانه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل الناس عن صلاتهم ؛ فهذا طريق تسكين الأفكار . فان كان لا يسكن هواجس أفكاره بهذا الدواء المسكن فلا يتجبه إلا المسهل الذي يجمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الصارفة للشاغلة عن إحضار القلب ، ولا شك أنها تعود إلى مهماته وأنها إنما صارت مهمات لشهواته فيعاقب نفسه بالزوع عن تلك للشهوات وقطع تلك العلائق ، فكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه وجند إبليس عدوه فامساكه أضر عليه من إخراجة فيتخلص منه بإخراجه كما روى أنه صلى الله عليه وسلم « لما لبس الخيضة التي أتاه بها أبو جهم وعليا علم وصلى بها نزعها بعد صلاته ، وقال صلى الله عليه وسلم : اذهبوا بها إلى أبي جهم فأتوا أختي عن صلاتي وأتوني بأبنجانية أبي جهم (٢) » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجديد شرارك نعله ثم نظر إليه في صلاته إذ كان جديداً فأمر أن ينزع منها ويرد الشرار الخلق (٣) . « وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى نملاً فأعجبه حسناً فمسجد وقال : تواضعت لربي عز وجل كي لا يمقتني » ثم خرج بها فدفقها إلى أول سائل لقيه . ثم أمر علياً رضي الله عنه أن يشتري ثلثين سبتيين جرداوين فلبسهما (٤) . وكان صلى الله عليه وسلم في يده خاتم من ذهب قبل التحريم وكان على المنبر فرماه وقال « شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم (٥) » وروى أن أبا طلحة صلى في حائط وفيه شجر فأعجبه دبى طار في الشجر يلتبس بخرجا فأنبهه بصره ساعة ثم لم يدرك صلى ؟ فذكر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أصابه من الفتنة ثم قال يا رسول الله هو صدقة فضمه حيث شئت (٦) » وعن رجل آخر أنه صلى في حائط له والتخل مطوقة بشرها فنظر إليها فأعجبه ولم يدرك صلى ؟ فذكر ذلك لعثمان رضي الله عنه وقال : هو صدقة فأعجله في سبيل الله عز وجل فباعه عثمان بخمسين ألفاً . فكانوا يفعلون ذلك قطعاً لمادة الفكر وكفارة

- (١) « إني نسيت أن أقول لك تحمر القدرتين اللتين في البيت . . . الحديث » أخرجه أبو داود من حديث عثمان الجحفي وهو عثمان بن طلحة كما في مسند أحمد ووقع للمصنف أنه قال ذلك لعثمان بن شيبة وهو وم .
- (٢) « نزع الخيضة وقال اتوني بأبنجانية أبي جهم » متفق عليه من حديث عائشة وقد تقدم في العلم .
- (٣) « أمره بنزع الشرار الجديد ورد الشرار الخلق إذ نظر إليه في صلاته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث أبي النضر مرسلاً بإسناد صحيح .
- (٤) « احتذى نملاً فأعجبه حسناً فمسجد وقال تواضعت لربي . . . الحديث » أخرجه أبو عبد الله بن حقيق في شرف الفقراء من حديث عائشة بإسناد ضعيف .
- (٥) « رمية بالخاتم الذهب من يده وقال شغلني هذا نظرة إليه ونظرة إليكم » أخرجه النسائي من حديث ابن عباس بإسناد صحيح وليس فيه بيان أن الخاتم كان ذهباً ولا فضة إنما هو مطلق .
- (٦) « إن أبا طلحة صلى في حائط له فيه شجر . . . الحديث » أخرجه في سهوه في الصلاة وتصدقه بالحائط مالك عن عبد الله بن أبي بكر أن أبا طلحة الأنصاري قد ذكره بنحوه .

لما جرى من نقصان الصلاة وهذا هو الدواء القامع لماده العلة ولا ينبغي غيره . فأما ما ذكره من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فذلك ينفع في الشهوات الضعيفة والهضم التي لا تشغل إلا حواشي القلب . فأما الشهوة القوية المرمقة فلا ينفع فيها التسكين بل لا تزال تجاذبها وتجاهدك ثم تغلبك وتنقض جميع صلاتك في شغل المجاذبة . ومثاله : رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره وكانت أصوات العصافير تشوش عليه ، فلم يزل يطيرها بخشبة في يده ويعود إلى فكره فتعود العصافير فيعود إلى التفكير بالخشبة ، فقليل له : إن هذا أسير السواني ولا يتقطع فإن أردت الخلاص فاقطع الشجرة . فكذا تلك الشهوات إذا تشعبت وتفرعت أغصانها اتجذبت إليها الأفكار التجذبات بالعصافير إلى الأشجار والتجذبات الذباب إلى الأقدار والشغل يطول في دفعها فإن الذباب كلما ذب أب ولأجله سمى ذبابا . فكذلك الخواطر ، وهذه الشهوات كثيرة وقلبا يحل المبد عنها ومجمعها أصل وهو عيب الدنيا ، وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنع كل فساد ، ومن انطوى بطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها لا ليتود منها ولا يستعين بها على الآخرة فلا يطمعن في أن تصفو له لذة المناجاة في الصلاة . فإن من فرح بالدنيا لا يفرح بالله سبحانه وبمناجاة ربه وممة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه في الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة ، فهذا هو الدواء المر والمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا ، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يجتهدوا أن يفسدوا فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فأذن لا مطمع فيه لأمثالنا ، ولينه سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لتكون بمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا . وعلى الجملة فهمة الدنيا وممة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قديم ملوئ بخل فبقدر ما يدخل فيه من الماء يخرج منه الخلل لا محالة ولا يجتمعان .

بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب - عند كل ركن وشرط -

### من أعمال الصلاة

فنقول : حقل إن كنت من المريدين للآخرة أن لا تنفل أولا عن التنبيهات التي في شروط الصلاة وأركانها . أما الشروط السوابق فهي الأذان والطهارة وستر العورة واستقبال القبلة والاتصاب قائما والنية . فإذا سمعت نداء المؤذن فأحضر في قلبك هول النداء يوم القيامة وتضرع بظاهره وباطنه للإجابة والمساعدة ؛ فإن المساعدة إلى هذا النداء هم الذين ينادون بالظلم يوم العرض الأكبر فأعرض قلبك على هذا النداء فإن وجدته ملوئا بالفرح والاستبشار مشحونا بالرغبة إلى الابتدار فاعلم أنه بأنك النداء بالبشرى والفوز يوم القضاء . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أرحنا يا بلال <sup>(١)</sup> » أي أرحنا بها وبالنداء إليها إذ كان قرة عينه فيها صلى الله عليه وسلم . وأما الطهارة فإذا أتيت بها في مكانك وهو ظرفك الأبعد ثم في ثيابك وهي غلافك الأقرب ، ثم في بشرتك وهي قشرك الأدنى فلا تنفل عن لبك الذي هو ذاتك وهو قلبك فاجتهد له تطهيرا بالتوبة والتدم على ما فرطت وتقصم العزم على الترك في المستقبل فطهرها بباطنك فإنه موضع نظر معبودك . وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقايح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع لنظر الخلق فبالك في عورت بباطنك وفضاخ سرائرك التي لا يطلع عليها إلا ربك عز وجل ؟ فأحضر تلك الفضاخ ببالك وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله سبحانه

(١) « أرحنا يا بلال » أخرجه الدارقطني في الملل من حديث بلال ولأبي داود ونحوه من حديث رجل من الصحابة لم يسم بإسناد صحيح .

سائر . وإنما بغيرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانها فتذل بها نفسك ويستكين تحت الحجة قلبك وتقوم بين يدي الله عز وجل قيام العبد المجرم المسوء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف . وأما الاستقبال فهو صرف ظاهر وجهك عن سائر الجهات إلى جهة بيت الله تعالى ، أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى الله عز وجل ليس مطلوباً منك مهات فلا مطلوب سواء . وإنما هذه الظواهر تحريكات للباطن وضبط للجوارح وتسكين لها بالإتيان في جهة واحدة حتى لا تبغى على القلب فلأنها إذا بغت وظلّت في حركاتها والتفاتها إلى جهاتها استبعت القلب وانقلبت به عن وجه الله عز وجل فليكن وجه قلبك مع وجهه بذلك . فاعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالانصراف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله عز وجل إلا بالتفرغ عما سواه وقد قال صلى الله عليه وسلم « إذا قام العبد إلى صلاته فكان هوأه ووجهه وقلبه إلى الله عز وجل انصرف كيوم ولدته أمه »<sup>(١)</sup> . وأما الاعتدال قائماً فإنما هو مشول بالخصص والقلب بين يدي الله عز وجل ، فليكن رأسك الذي هو أرفع أعضائك مطبقاً متمسكاً ، وليكن وضع الرأس عن ارتفاعه تنبيهاً على إزام القلب التواضع والتذلل والتبرى عن التوقُّس والتكبر . وليكن على ذكرك هنا خطر القيام بين يدي الله عز وجل في هول المطلق عند العرض للسؤال . واعلم في الحال أنك قائم بين يدي الله عز وجل وهو مطلع عليك فقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان إن كنت تنجز عن معرفة كنهه جلالة ، بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كائلة من رجل صالح من أهلك أو من ترغب في أن يعرفك بالصالح ، فإنه تهدأ عند ذلك أطرافك وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خيفة أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع . وإذا أحسست من نفسك بالتقاسم عند ملاحظة عبد مسكين فعانب نفسك وقل لها: إنك تدعين معرفة الله وحبه أفلا تستحين من استجرائك عليه مع توقيرك صيداً من عباده أو تخفين الناس ولا تحفئته وهو أحق أن يخشى ؟ ولذلك لما قال أبو هريرة « كيف الحياء من الله فقال صلى الله عليه وسلم : تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك »<sup>(٢)</sup> وروى « من أهلك » .

وأما الثانية فاعزم على إجابة الله عز وجل في امثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاص جميع ذلك لوجه الله سبحانه وجاء ثوابه وخوفاً من عقابه وطلباً للقربة منه متقدلاً للثمة منه بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك ، وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجى وكيف تناجى وبماذا تناجى ؟ وعند هذا ينبغي أن يرق جبينك من التخلل وترتد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف .

وأما التكبير فإذا نطق به اسنانك فبينى أن لا يكذب قلبك فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله سبحانه فالله يشهد أنك لكاذب وإن كان الكلام صدقاً كما شدد على المنافقين في قولهم : إنه صلى الله عليه وسلم رسول الله ، فإن كان هوأك أغلب عليك من أمر الله عز وجل فأنت أطوع له منك لله تعالى فقد اتخذته إلهك وكبرته فيوشك أن يكون قولك « الله أكبر » كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته ، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله تعالى وعفوهُ . وأما دعاء الاستفتاح فأول كلماته قولك : « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فأنك إنما وجهته إلى القبلة ، والله سبحانه يتقدس

(١) « إذا قام العبد إلى صلاته وكان وجهه وهوأه إلى الله انصرف كيوم ولدته أمه » لم أجده . (٢) « قال أبو هريرة كيف الحياء من الله قال تستحي منه كما تستحي من الرجل الصالح من قومك » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب من حديث سعيد بن زيد مرسل بنحوه وأرسله البيهقي بزيادة ابن عمر في السند وفي العلل الدارقطني عن ابن عمر له وقال إنه أشبه شيء بالصواب لوروده من حديث سعيد بن زيد أحد العشرة .

عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدتك عليه ، وإنما وجه القلب هو الذي توجه به إلى فاطر السموات والأرض فأنظر إليه أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق متبع للشهوات أو مقبل على فاطر السموات ؟ وإياك أن تكون أول مفاتحتك للنجاة بالكذب والاختلاق . وإن يتصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بانصرافه عما سواه فاجتهد في الحال في صرفة إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً . وإذا قلت « حنيفاً مسلماً » فينبغي أن يخطر ببالك أن المسلم هو الذي سلم المسلمون من لسانه ويده فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً فاجتهد في أن تعزم عليه في الاستقبال وتسلم على ما سبق من الأحوال . وإذا قلت « وما أنا من المشركين » فأخطر ببالك الشرك الخفي فإن قوله تعالى ( فمن كان رجوا لقاء ربه فيعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ) نزل فيمن يقصد بعبادته وجه الله وحده الناس ولكن حذراً مشفقاً من هذا الشرك ، واستشعر الحجة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير برائة عن هذا الشرك فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه . وإذا قلت « بحمى ومعاذ الله » فاعلم أن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيده وأنه إن صدر من رضاء وغضب وقيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورغبته من الموت لأمر الدنيا لم يكن ملائماً للحال . وإذا قلت « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » فاعلم أنه عدوك ومتصد لصرف قلبك عن الله عز وجل حسداً لك على مناجاتك مع الله عز وجل وبحمدك له مع أنه لمن يسبب بجملة واحدة تركها ولم يوفق لها ، وأن استأذنتك بالله سبحانه منه بترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله عز وجل لا بمجرد قولك ، فإن من قصده سبع أن عدو ليفترسه أو ليقته فقال : أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت على مكانه ، فإن ذلك لا ينفعه ، بل لا يعيذه إلا بتبديل المسكن ، فكذلك من يتبع الشهوات التي هي عاب الشيطان ومكروه الرحمن فلا يفتنه مجرد القول فليقرن قوله بالمرم على التحوذ بحسن الله عز وجل عن شر الشيطان وحسنه « لا إله إلا الله » إذ قال عز وجل فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي(١) » والمتحصن به من لا محبود له سوى الله سبحانه فأما من اتخذ إليه هواء فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله عز وجل . واعلم أن من مكابده أن يشغلك في صلاتك بذكر الآخرة وتدبير فعل الخيرات لينمك عن فهم ما تقرأ . فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير مقصودة بل المقصود معانيها . فأما القراءة فالناس فيها ثلاثة : رجل يتحرك لسانه وقلبه غافل ورجل يتحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيفهم ويسمع منه كأنه من غيره وهي درجات أصحاب اليقين ، ورجل يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يتقدم اللسان القلب فيترجمه . ففرق بين أن يكون اللسان ترجمان القلب أو يكون معلم القلب والمقرءون لسانهم ترجمان القلب ولا يتبعه القلب . وقصصيل ترجمة المعاني أنك إذا قلت « بسم الله الرحمن الرحيم » فأنو به الترك لابتداء القراءة لكلام الله سبحانه ، وإفهم أن معناها أن الأمور كلها بالله سبحانه . وأن المراد بالاسم ههنا هو المسمى . وإذا كانت الأمور بالله سبحانه فلا جرم كان « الحمد لله » ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله . ومن يرى من غير الله نعمة أو يقصد غير الله سبحانه بشكر لا من حيث إنه مسخر من الله عز وجل ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر النفاة إلى غير الله تعالى . فإذا قلت « الرحمن الرحيم » فاحضر في قلبك جميع أنواع لطفه لتتضح لك رحمة فينبعث بها رجاءك ثم استر من قلبك التعظيم والخوف بقولك « مالك يوم الدين » أما العظمة فلا تملك إلا له وأما الخوف فله يوم الجزاء والحساب الذي هو مالكه . ثم جدد الإخلاص بقولك « إياك نعبد » وجدد العجز واحتياج والتبري من الحول والقوة بقولك و « إياك نستعين » وتحقق أنه ما تيسرت طاعتك إلا بأعانه وأن له

(١) « قال الله تعالى لا إله إلا الله حصني » أخرجه الحاكم في التارخ وأبو نعيم في الحلية من طريق أهل البيت من حديث علي بإسناد ضعيف جدا ، وقول أبي منصور الديلمي إنه حديث ثابت مردود عليه .

المنة إذ وفقت لطاعته واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لما جاته . ولو حرمك التوفيق لكنت من المخطوئين مع الشيطان العين .

ثم إذا فرغت من التعوذ ومن قولك « بسم الله الرحمن الرحيم » ومن التحميد ومن إظهار الحاجة إلى الإغاثة مطعناً فحين سؤالك ولا تقلب إلا أهم حاجتك وقل « أهدنا الصراط المستقيم » الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك . وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيذاً واستشهاداً بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من التبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب عليهم من الكفار والزائفين من اليهود والنصارى والصابئين ثم اتسبب الإجابة وقل « آمين » فإذا تولت الفاتحة كذلك فينبغي أن تكون من الذين قال الله تعالى فيهم فيما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين نصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل<sup>(١)</sup> » يقول العبد « الحمد لله رب العالمين » فيقول الله عز وجل : حمدني عبدي وأثنى علي . وهو معنى قوله سمع الله لمن حمده... الحديث الخ ، فلم يكن لك من صلاتك حظ سوى ذكر الله لك في جلاله وعظمته فناهيك بذلك غنيمة فكيف بما ترجوه من ثوابه وفضله ؟

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأه من السور - كما سيأتي في كتاب تلاوة القرآن - فلا تغفل عن أمره ونهيهِ ووعده ووعيده ومواعظه وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه . ولكل واحد حق فالرجاء حق الوعد ، والخوف حق الوعيد ، والزم حق الأمر والنهي ، والاتعاظ حق الموعظة ، والشكر حق ذكر المنة ، والاعتبار حق إخبار الأنبياء .

ودروى أن زارة بن أوفى لما انتهى إلى قوله تعالى ( فإذا نقر في النافور ) خر ميتاً . وكان إبراهيم النخعي إذا سمع قوله تعالى ( إذا السماء انشقت ) اضطرب حتى تضطرب أوصاله . وقال عبد الله بن واقد : رأيت ابن عمر يصلي مغلولاً عليه ، وحق له أن يمتحن قلبه بوعده سيده ووعيده فإنه عبد مذنب ذليل بين يدي جبار قاهر .

وتكون هذه المعاني بحسب درجات الفهم ويكون الفهم بحسب وفور العلم وصفاء القلب . ودرجات ذلك لا تنحصر . والصلاة مفتاح القلوب فيها تنكشف أسرار السكيات فهذا حق القراءة وهو حق الأذكار التسبيحات أيضاً . ثم يراعى الهيبة في القراءة فيرتل ولا يسرد فإن ذلك أيسر للتأمل . ويفرق بين نهات في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتعظيم والتعجيل .

كان النخعي إذا مر بمثل قوله عز وجل ( ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله ) يخفض صوته كالاستحي عن أن يذكره بكل شيء لا يليق به . ودروى أنه يقال لقارئ القرآن « اقرأ وارقر ورتل كما كنت ترتل في الدنيا<sup>(٢)</sup> » . وأما دوام القيام فإنه تنبيه على إقامة القاب مع الله عز وجل على نعمت واحد من الحضور قال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل مقبل على المصلى ما لم يلتفت<sup>(٣)</sup> » وكما تجب خراصة الرأس والعين عن الالتفات إلى الجهات فكذلك تجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة . فإذا التفت إلى غيره فذكره باطلاع الله عليه وبتقيح التهاون بالمناجى عند غفلة المناجى ليعود إليه . والزم الخشوع للقلب فإن الخلاص عن الالتفات باطنياً وظاهراً بحمرة الخشوع . ومهما خشع الباطن خضع الظاهر قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى رجلاً مصلياً يعبث بلحيته « أما هذا

(١) « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ... الحديث » أخرجه مسلم عن أبي هريرة . (٢) « يقال لصاحب القرآن اقرأ وارقر » الحديث ... أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي من حديث عبد الله بن عمر وقال الترمذي حسن صحيح . (٣) « إن الله يقبل على المصلى ما لم يلتفت » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه إسناده أبي ذر .



لوحش قلبه خشعت جوارحه « فإن الرعية بحكم الراعي . ولهذا ورد في الدعاء « اللهم أصلح الراعي والرعية (١) » وهو القلب والجوارح . وكان الصديق رضي الله عنه في صلاته كأنه وتد . وابن الزبير رضي الله عنه كأنه عود . وبعضهم كان يسكن في ركوعه بحيث تقع المصافير عليه كأنه جماد . وكل ذلك يقتضيه الطبع بين يدي غير الله عز وجل خاشعاً وتضطرب أطرافه بين يدي الله عابثاً . فذلك لتصور معرفته عز وجل على اطلاع على سره وضميره . وقال عكرمة في قوله عز وجل « الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين » قال : قيامه وركوعه وسجوده وجلوسه .

وأما الركوع والسجود فينبغي أن يحدد عندهما ذكر كبرياء الله سبحانه وتدفيع يدك مستجيراً بعفو الله عز وجل من عقابه بتجديد نية ومتبوعاً سنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بروكعك وتجهتد في ترقيق قلبك وتجهيد خشوعك وتستشعر ذلك عز مولاك واتضاعك وعلو ربك . وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتشهد له بالعظمة وأنه أعظم من كل عظيم وتكرر ذلك على قلبك لتؤكد به التكرار . ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم لك ومؤكداً للرجاء في نفسك بقولك « سمع الله لمن حمده » أي أجلب لمن شكره . ثم تردف ذلك الفكر المتقاضى للزبد فتقول « وبنا لك الحمد » وتكثر الحمد بقولك « ملء السموات وملء الأرض » ثم تهوى إلى السجود وهو أعلى درجات الاستكانة فتتمكن أحر أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب وإن أمكنك ألا لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل . وإذا وضعت نفسك موضع الذل فأعلم أنك وضعتها موضعها ورددت الفرع إلى أصله فإنك من التراب خلقت وإليه تعود فعند هذا جدد على قلبك عظمة الله وتل « سبحان ربّي الأعلى » وأكده بالتكرار فإن الكثرة الوحيدة ضعيفة الأثر فإذا رق قلبك وظهر ذلك فتصدق بجمالك في رحمة الله فإن رحمة تتسارع إلى الضعف والذل لا إلى التكبر والبطر فأرفع رأسك مكبراً وسائلاً حائتكم وقائلاً « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم » أو ما أردت من الدعاء . ثم أكد التواضع بالتكرار فعد إلى السجود ثانياً كذلك .

وأما التشديد فإذا جلست له فاجلس متأدباً وصرح بأن جميع ما تدل به من الصلوات والطيبات أي من الأخلاق الطاهرة لله . وكذلك الملك لله وهو معنى « التحيات » وأحضر في قلبك النبي صلى الله عليه وسلم وخصه الكريم وقل « سلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته » وليصدق أملك في أنه يبلغه ويرد عليك ما هو أوفى منه . ثم على نفسك وعلى جميع عباد الله الصالحين . ثم تأمل أن يرد الله سبحانه عليك سلاماً وأقياً بعد عياده الصالحين . ثم تشهد له تعالى بالوحسديانية ولمحمد نبيه صلى الله عليه وسلم بالرسالة مجدداً عهد الله سبحانه بإعادة كلتي الشهادتين مستأنفاً للتحصن بها . ثم ادع في آخر صلاتك بالدعاء المأثور مع التواضع والخشوع والضرعة والإنبال وصدق الرجاء بالإجابة . وأشرك في دعائك أبوبك وسائر المؤمنين . وأقصده عند التسليم السلام على الملائكة والحاضرين وأنوختم الصلاة به . واستشعر شكر الله سبحانه على توفيقه لإتمام هذه الطاعة . وتوهم أنك مودع لصلاتك هذه وأنتك ربما لا تعيش مثلها . وقال صلى الله عليه وسلم للذي أوصاه « صل صلاة مودع » ثم أشعر قلبك الوجع والحياء من التقصير في الصلاة ، وتنف أن لا تقبل صلاتك وأن تكون عمقوتاً بذنب ظاهر أو باطن فردد صلاتك في وجهك ، وترجو مع ذلك أن يقبلها بكرمه وفضله . كان يحيى بن وقاب إذا صلى مكث ماشاء الله تعرف عليه كتابة الصلاة .

(١) « اللهم أصلح الراعي والرعية » لم أقف له على أصل فسر المصنف بالقلب والجوارح .

وكان إبراهيم يركب بعد الصلاة ساعة كأنه مريض. فهذا تفصيل صلاة الخاشعين : الذين هم في صلاتهم خاشعون .. والذين هم على صلواتهم يحافظون . . . والذين هم على صلاتهم دائمون . والذين هم يناجون الله على قدر استطاعتهم في العبودية فليعرض الإنسان نفسه على هذه الصلاة ، فبالقدر الذي يسر له منه ينبغي أن يفرح وعلى ما يفوته ينبغي أن يتحسر وفي مداراة ذلك ينبغي أن يجتهد . وأما صلاة الغافلين فهي عظيمة إلا أن يتممده الله برحمته والرحمة واسعة والكرم فائض فنسأل الله أن يتممنا برحمته ويقمنا بإخلاصنا لوجه الله عز وجل وأدائها بالشرط الباطنة التي ذكرناها بطاعته . وأعلم أن تخليص الصلاة عن الآفات وإخلاصها لوجه الله عز وجل وأدائها بالشرط الباطنة التي ذكرناها من الخشوع والتعظيم والحياء سبب لحصول أنوار في القلب تكون تلك الأنوار مفاتيح علوم الم Kashf . فأولياء الله المكشوفون يملكون السموات والأرض وأسرار الربوبية وإنما يكاشفون في الصلاة لأسباب السجود إذ يتقرب العبد من ربه عز وجل بالسجود . ولذلك قال تعالى ﴿ واجتهدوا لتقربوا ﴾ وإنما تكون مكشوفة كل مصل على قدر صفاته عن كدورات الدنيا . ويختلف ذلك بالقوة والضعف والقلة والكثرة والجلالة والحقارة حتى ينكشف لبعضهم الشيء بعينه وينكشف لبعضهم الشيء بمثاله ، كما كشف لبعضهم الدنيا في صورة جيفة والشیطان في صورة كلب جائع عليها يدعوا إليها . ويختلف أيضا بما فيه المكشوفة فبعضهم ينكشف له من صفات الله تعالى وجلاله ولبعضهم من أفعاله ولبعضهم من دقائق علوم المعاملة .

ويكون لتعين تلك المعاني في كل وقت أسباب خفية لا تحصى وأعدادها مناسبة المهمة فإنها إذا كانت مصروقة إلى شيء معين كان ذلك أولى بالانكشاف ولما كانت هذه الأمور لا تترى إلا في المراتب الصغرى وكانت المرأة كها صدمته فاحتجبت عنها الهداية لا لبخل من جهة المنعم بالهداية بل لحجب مراكم الصدا على مصب الهداية تسارعت الألسنة إلى إنكار مثل ذلك ، إذ الطبع مجبول على إنكار غير الحاضر ، ولو كان اللعين عقل لا ينكر إمكان وجود الإنسان في متسع الهواء ، ولو كان الطفل تمييزا ربما أنكر ما زعم العقلاء إدراكه من ملكوت السموات والأرض ، وهكذا الإنسان في كل طور يكاد ينكر ما بعده . ومن أنكر طور الولاية لزمه أن ينكر طور النبوة . وقد خلق الخلق أطوارا فلا ينبغي أن ينكر كل واحد ما وراء درجته . نعم لما طلبوا هذا من المجادلة والمباحثة المشوشة ولم يطلبوها من تصفية القلوب عما سوى الله عز وجل فقدوه فأنكروه .

ومن لم يكن من أهل المكشوفة فلا أقل من أن يؤمن بالنسب ويصدق به إلى أن يشاهد بالتجربة في الخبر « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله سبحانه الحجاب بينه وبين عبده وواجهه ووجهه وقامت الملائكة من لدى منكببيه إلى الهواء يصلون بصلاته ويؤمنون على دعائه . وإن المصل لينثر عليه البر من عنان السماء إلى مفرق رأسه وينادي مناد : لو لم هذا المناجى من يناجي ما ألفت . وإن أبواب السماء تفتح للمصلين . وإن الله عز وجل يبالي ملائكته بعبده المصل<sup>(١)</sup> ففتح أبواب السماء ومواجهة الله تعالى إياه بوجهه كناية عن الكشف الذي ذكرناه . وفي التوراة مكتوب : يا ابن آدم لا تميز أن تقوم بين يدي مصليا بأية ما الله الذي أقرت من قلبك وبالعقب رأيت نورى ، وقال : فكنا نرى أن تلك الرقة والبكاء والفتوح الذي يجده المصل في قلبه من دنو الرب سبحانه من القلب وإذا لم يكن هذا الدنو هو التقرب بالمكان فلا معنى له إلا الدنو بالهداية والرحمة وكشف الحجاب . ويقال : إن العبد إذا صلى ركعتين صحب منه عشرة صفوف من الملائكة كل صف منهم عشرة آلاف وبأهى الله به مائة ألف ملك . وذلك أن العبد قد جمع في الصلاة بين القيام والعقود والركوع والسجود وقد فرق الله ذلك على أربعين ألف ملك ، فالعالمون

(١) « إن العبد إذا قام في الصلاة رفع الله الحجاب بينه وبين عبده ... الحديث » لم أجده .

لا يركعون إلى يوم القيامة والساجدون لا يرفعون إلى يوم القيامة ، وهكذا الراكعون والقاعدون ، فإن ما رزق تعالى الملائكة من القرب والرتبة لازم مستمر على حال واحد لا يزيد ولا ينقص ذلك أخبر الله عنهم أنهم قالوا ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم ﴾ وفارق الإنسان الملائكة في الترقى من درجة إلى درجة فإنه لا يزال يتقرب إلى الله تعالى فيستفيد مزيد قرب . وباب المزيد مسدود على الملائكة عليهم السلام وليس لكل واحد إلا رتبته التي هو وقف عليه . وجهادته التي هو مشغول بها لا ينتقل إلى غيرها ولا يفتقرها ﴿ لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحوذون ﴾ يسبحون الليل والنهار لا يفترون ﴿ ومفتاح مزيد الدرجات هي الصلوات . قال الله عز وجل ﴿ قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون ﴾ فندهم بعد الإيمان بصلاة مخصوصة وهي المقرنة بالخشوع . ثم ختم أوصاف المفلحين بالصلاة أيضا فقال تعالى ﴿ والذين هم على صلواتهم يحافظون ﴾ ثم قال تعالى في ثمرة تلك الصفات ﴿ أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ فوصفهم بالفلاح أولا وبوراة الفردوس آخرا . وما عني أن هزيمة اللسان مع غفلة القلب تنهى إلى هذا الحد وذلك قال الله عز وجل في أضدادهم ﴿ ما سلككم في سقر قالوا منك من المصلين ﴾ فالصلون هم ورة الفردوس وهم المشاهدون لنور الله تعالى والمتمتعون بقربه ودونه من قلوبهم . نسال الله أن يجعلنا منهم وأن يبيدنا من عقوبة من تزينت أفعالهم وقبحت أفعاله إنه الكريم المنان القديم الإحسان وصلى الله على كل عبد مصطفى .

### حكايات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم

اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز وجل ومن رزق ذلك فإنه يكون خاشعا في الصلاة وفي غير الصلاة بل في خلوته وفي بيت المال عند الحاجة . فان موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تعالى على العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد . فمن هذه المعارف يتولد الخشوع وليست مختصة بالصلوات لذلك روى عن بعضهم أنه لم يرفع رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من الله سبحانه وخشوعا له . وكان الربيع بن خثيم من شدة خضه لبحره وإطرافه يظن بعض الناس أنه أعمى ، وكان يخلف إلى منزل ابن مسعود عشرين سنة فإذا رآته جاريته قالت لابن مسعود : صديقك الأعمى قد جاء ، فكان يضحك ابن مسعود من قولها ، وكان إذا دق الباب تخرج الجارية إليه فتراه مطرقا خاضا بصره ، وكان ابن مسعود إذا نظر إليه يقول ﴿ وبشر المختبين ﴾ وأما والله لو رأيك محمد صلى الله عليه وسلم لفرح بك . وفي لفظ آخر : لأحبك وفي لفظ آخر : لضحك . ومشى ذات يوم مع ابن مسعود في الحدادين فلما نظر إلى الأكوار تنفخ وإلى النار تلهب صق وسقط مفضيا عليه وقد ابن مسعود عند رأسه إلى وقت الصلاة فلم يبق فحمله على ظهره إلى منزله ، فلم يزل مفضيا عليه إلى مثل الساعة التي صق فيها فافتتحة خمس صلوات وابن مسعود عند رأسه يقول : هذا والله هو الخوف ، وكان الربيع يقول : ما دخلت في صلاة قط فأمنى فيها إلا ما أقول وما يقال لي . وكان عامر بن عبد الله من خاشعي المصلين وكان إذا صلى ربما ضربت ابنته بالدف وتحدث النساء بما يردن في البيت ولم يكن يسمع ذلك ولا يعقله . وقيل له ذات يوم هل تحب ذلك نفسك في الصلاة بشئ ؟ قال : نعم برفوق بين يدي الله عز وجل ومنصرف إلى إحدى الدارين ، قيل : فهل تجد شيئا مما نجد من أمور الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف الأسرة في أحب الي من أجد في صلاتي ما تجدون . وكان يقول : لو كشف الغطاء ما ازددت يقينا . وقد كان مسلم بن يسار منهم ، وقد نقلنا أنه لم يشعر بسقوط أسطوانة في المسجد وهو في الصلاة . وتأكل طرف من أعارف بعضهم واحتجيج فيه إلى القطع فلم يمكن منه فقيل : إنه في الصلاة لا يحس بما يجري عليه ، فقطع وهو في الصلاة . وقال بعضهم : الصلاة من الآخرة فإذا دخلت فيها خرجت من الدنيا . وقيل لآخر : هل تحت نفسك بشئ من الدنيا في الصلاة ؟ فقال : لا في الصلاة ولا في غيرها .

وسئل بعضهم : هل تذكر في الصلاة شيئاً ؟ فقال : وهل شيء أحب إلى من الصلاة فأذكره فيها ؟ وكان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول : من فقه الرجل أن يبدأ بحاجته قبل دخوله في الصلاة ليدخل في الصلاة وقلبه فارغ . وكان بعضهم يخفف الصلاة خيفة الوسواس . وروى أن عمار بن ياسر صلى صلاة فأخفها فقليل له : خففت بأبها اليقظان فقال : هل رأيتموني نقصت من حدودها شيئاً ؟ قالوا : لا . قال : إني بادرت سبب الشيطان ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن العبد ليصل الصلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها . وكان يقول إنما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها (١) » ويقال إن طلحة والزبير وطائفة من الصحابة رضي الله عنهم كانوا أخف الناس صلاة ، وقالوا نبادر بها وسوسة الشيطان . وروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال على المنبر : إن الرجل ليشيب عارضه في الإسلام وما أكل الله تعالى صلاة ، قيل : وكيف ذلك ؟ قال : لا يتم خشوعها وتواضعها وإقباله على الله عز وجل فيها . وسئل أبو العالية عن قوله ( الذين هم من صلاتهم ساهون ) قال هو الذي يسهون صلاته فلا يدري على كم ينصرف أهل شفع أم على وتر ؟ وقال الحسن : هو الذي يسهون وقت الصلاة حتى يخرج . وقال بعضهم : هو الذي إن صلاها في أول الوقت لم يفرح وإن أخرها عن الوقت لم يحزن فلا يرى تعجيلها خيراً ولا تأخيرها إثمياً . واعلم أن الصلاة قد يحسب بعضها ويكتب بعضها دون بعض كادلت الأخبار عليه وإن كان الفقيه يقول : إن الصلاة في الصحة لا تجزأ ، ولكن ذلك له معنى آخر ذكرناه وهذا المعنى دلت عليه الأحاديث إذ ورد جبر نقصان الفرائض بالنوافل (٢) وفي الخبر « قال عيسى عليه السلام : يقول الله تعالى بالفرائض نجما من عبدي وبالنوافل تقرب إلى عبدي » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضته عليه (٣) » وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما افتتلت قال ماذا قرأت فسكت القوم ؟ فسأل أبي بن كعب رضي الله عنه فقال : قرأت سورة كذا وتركت آية كذا فنادى أنسخت أم رفعت ؟ فقال : أنت لما يأتني . ثم أقبل على الآخرين فقال : ما بال أقوام يحضرون صلاتهم ويتمون صفوفهم وينهين بين أيديهم لا يدرون ما ينال عليهم من كتاب ربهم ؟ ألا إن بني إسرائيل كذا فعلوا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن قل لقومك تحضروني أهدانكم وتعطوني أستمك وتقيبون عني بقلوبكم باطل ما تذهبون إليه (٤) » وهذا يدل على أن استماع ما يقرأ الإمام وفهمه بدل عن قراءة السورة بنفسه . وقال بعضهم : إن الرجل يسجد السجدة عنده أنه تقرب بها إلى الله عز وجل ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لملكوا ، قيل وكيف يكون ذلك ؟ قال : يكون ساجداً عند الله وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد باطل قد استولى عليه . فهذه صفة الخاشعين . فدللت هذه الحكايات والأخبار مع ما سبق على أن الأصل في الصلاة الخشوع وحضور القلب وإن مجرد الحركات مع الغفلة قليل الجدوى في العباد والله اعلم . نسأل الله حسن التوفيق .

- (١) « أن عمار بن ياسر صلى فأخفها فقليل له خففت بأبها اليقظان ... الحديث » وفيه « إن العبد ليصل صلاة لا يكتب له نصفها ولا ثلثها .. إلى آخره » أخرجه أحمد بإسناد صحيح وتقدم الرفوع عنه وهو عند داود والنسائي .
- (٢) « جبر نقصان الفرائض بالنوافل » رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة « إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عمله صلاته » وفيه « فإن انتقص من فرضه شيئاً قال الرب عز وجل انظروا هل لعبدي من تطوع فيكمل بها ما تنقص من الفريضة » (٣) « قال الله تعالى لا ينجو مني عبدي إلا بأداء ما افترضت عليه » لم أجده .
- (٤) « صلى صلاة فترك من قراءتها آية فلما افتتت قال ماذا قرأت فسكت القوم فسأل أبي بن كعب ... الحديث » رواه محمد بن نصر في كتاب الصلاة ومرسلاً وأبو منصور الديلمي من حديث أبي بن كعب ورواه النسائي مختصراً من حديث عبد الرحمن بن أبيزى بإسناد صحيح .

## الباب الرابع : في القنوة والامامة

وعلى الإمام وظائف قبل الصلاة وفي القراءة وفي أركان الصلاة وبعد السلام

أما الوظائف التي هي قبل الصلاة فستة ؛ أولها : أن لا يتقدم للإمامة على قوم يكرهونه . فإن اختلفوا كان النظر إلى الأكثرين ، فإن كان الأقلون هم أهل الخير والدين فالتظر إليهم أولى ، وفي الحديث « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم ردوسهم : العبد الأبق وامرأة زوجها ساخط عليها وإمام أم قوما وهم له كارهون (١) » وكما ينبى عن تقدمه مع كراهيتهم فكذلك ينهى عن التقدم إن كان وراءه من هو أحقه منه إلا إذا امتنع من هو أولى منه فله التقدم ، فإن لم يكن شيء من ذلك فليتقدم مهما قدم وعرف من نفسه القيام بشروط الإمامة . ويكره عند ذلك المدافعة فقد قيل إن قوما تدافعوا للإمامة بعد إقامة الصلاة تخسف بهم . وما روى من مدافعة الإمامة بين الصحابة رضى الله عنهم فسيبه إيتارهم من رأوه أنه أولى بذلك أو خوفهم على أنفسهم السهو وخطر ضمان صلاتهم ، فإن الأئمة ضمانهم وكان من لم يعود ذلك ربما يشتغل قلبه ويتشوش عليه الإخلاص في صلاته حياء من المقتدين لا سيما في جهه بالقراءة ، فكان لاحتراز من احتراز أسباب من هذا الجنس . الثانية : إذا خير إنسان بين الأذان والإمامة فينبى أن يختار الإمامة فإن لكل واحد منها فضلا ولكن الجلع مكروه بل ينبى أن يكون الإمام غير المؤذن . وإذا تعدد الجلع فالإمامة أولى وقال قائلون : الأذان أولى لما تشتهى من فضيلة الأذان ولقوله صلى الله عليه وسلم « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن (٢) » فقالوا : فيها خطر الضمان . وقال صلى الله عليه وسلم « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا وإذا سجد فاسجدوا (٣) » وفي الحديث « فإن أتم فله ولهم وإن نقص فعليه ولا عليهم (٤) » ولأنه صلى الله عليه وسلم « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين (٥) » والمغفرة أولى بالطلب فإن الرشد يراد للمغفرة وفي الخبر « من أم في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة بلا حساب ومن أذن أربعين يوما دخل الجنة بغير حساب (٦) » ولذلك نقل عن الصحابة رضى الله عنهم أنهم كانوا يتدافعون للإمامة ، والصحيح أن الإمامة أفضل إذ واطب عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وصر رضى الله عنهما والأئمة بعدهم . نعم فيها خطر الضمان والفضيلة مع الخطر كما أن رتبة الإمارة والحلالة أفضل لقوله صلى الله عليه وسلم « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة (٧) » ولكن فيها خطر ولذلك

### الباب الرابع

(١) « ثلاثة لا تجاوز صلاتهم ردوسهم : العبد الأبق ... الحديث » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وضمنه البيهقي . (٢) « الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي هريرة ، وحكى عن ابن اللبني أنه لم يشته ورواه أحمد من حديث أبي أمامة بإسناد حسن . (٣) « الإمام أمين فإذا ركع فاركعوا ... الحديث » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة دون قوله « الإمام أمين » وهو بهذه الزيادة في مسند الحيرى وهو متفق عليه من حديث أنس دون هذه الزيادة . (٤) « فإن أتم فله ولهم » وإن انتقص فعليه ولا عليهم » أخرجه أبو داود وابن ماجه والحاكم وصحبه من حديث عقبة بن عامر والبخارى من حديث أبي هريرة « يسلون بك فإن أصابوا فلكم وإن أخطئوا فلكم وعليهم » . (٥) « اللهم أرشد الأئمة واغفر للمؤذنين » هو بقية حديث « الإمام ضامن » وتقدم قبل حديثين . (٦) « من أذن في مسجد سبع سنين وجبت له الجنة ومن أذن أربعين عاما دخل الجنة بغير حساب » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث ابن عباس بالشرط الأول نحوه قال الترمذى حديث غريب . (٧) « ليوم من سلطان عادل أفضل من عبادة سبعين سنة » أخرجه البرانى من حديث ابن عباس بسند حسن بلفظ ستين .

وجب تقديم الأفضل والأفقه فقد قال صلى الله عليه وسلم « أئمتكم شعاؤكم - أو قال وفدكم إلى الله - فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم قدموا خياركم (١) » وقال بعض السلف: ليس بعد الأنبياء أفضل من العلماء ولا بعد العلماء أفضل من الأئمة المصلين لأن هؤلاء قاموا بين يدي الله عز وجل وبين خلقه هذا بالنبوة وهذا بالعلم وهذا بهد الدين وهو الصلاة . وبهذه الحجة احتج الصحابة في تقديم أبي بكر الصديق رضي الله عنه وعنهم للخلافة ، إذ قالوا نظرنا فإذا الصلاة عماد الدين فاخترنا لدنيانا من رضىه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولديننا (٢) وما قدموا بلالا احتجاجا بأنه رضىه للأذان (٣) وما روى « أنه قال له رجل : يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة ، قال : كن مؤذنا ، قال لا أستطيع ، قال : كن إماما ، قال لا أستطيع ، فقال: صل بإزاء الإمام (٤) » قلله ظن أنه لا يرضى بأمامته إذا الأذان إليه والإمامة إلى الجماعة وتقديمهم له . ثم بعد ذلك توهّم أنه ربما يقدر عليها . الثالثة : أن يراضى الإمام أوقات الصلوات فيصلي في أولائها ليدرك رضوان الله سبحانه ففضل أول الوقت على آخره كفضل الأخيرة على الدنيا (٥) هكذا روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث « إن العبد ليصلي الصلاة في آخر وقتها ولم تفتحه ولما فاته من أول وقتها خير له من الدنيا وما فيها (٦) » ولا ينبغي أن يؤخر الصلاة لانتظار كثرة الجماعة بل عليهم المبادرة لحيازة فضيلة أول الوقت فهي أفضل من كثرة الجماعة ومن تطويل السورة . وقد قيل كانوا إذا حضرا ثنائين في الجماعة لم ينتظروا الثالث ، وإذا حضر أربعة في الجماعة لم ينتظروا الخامس » وقد تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة الفجر وكانوا في سفر وإنما تأخر للطهارة فلم ينتظر وقدّم عبد الرحمن بن عوف فصلى بهم حتى فاتت الرسول عليه الصلاة والسلام ركعة فقام يقضها ، قال : فأشفقنا من ذلك ، فقال عليه الصلاة والسلام « قد أحسنتم هكذا فافعلوا (٧) » وقد تأخر في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر رضي الله عنه حتى جاء النبي عليه الصلاة والسلام وهو في الصلاة فقام إلى جانبته (٨) وليس على الإمام انتظار المؤذن وإنما على المؤذن انتظار الإمام للإقامة فإذا حضر فلا ينتظر غيره الرابعة : أن يؤم غلصا لله عز وجل ومؤدبا أمانة الله تعالى في طهارته وجميع شروط صلاته . أما الإخلاص

(١) « أئمتكم وفدكم إلى الله تعالى فإن أردتم أن تزكوا صلاتكم قدموا خياركم » أخرجه الدارقطني والبيهقي وضمنه إسناده من حديث ابن عمر والبنوي وابن قانع والطبراني في معاجهم والحاكم من حديث مرثد بن أبي مرثد نحوه وهو منقطع وفيه يحيى الأسلى وهو ضعيف . (٢) « تقدم الصحابة أبا بكر وقولهم اخترنا لدنيانا من اختاره رسول الله صلى الله عليه وسلم لديننا » أخرجه ابن شاهين في شرح مذهب أهل السنة من حديث علي قال « لقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر أن يصلي بالناس وإني لشاهد - ما أنا بغائب ولا في مرض - فرضينا لدنيانا ما رضى به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا » والرفوع منمنعتك عليه من حديث عائشة وأبي موسى في حديث « قال مروا أبا بكر فليصل بالناس » . (٣) « تقديم الصحابة بلالا » احتجاجا بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضىه للأذان وفيه « قم مع بلال فألقى عليه ما رأيت فلوّذ بن ... الحديث » وأما تقديمهم له بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فروى الطبراني « أن بلالا جاء إلى أبي بكر فقال يا خليفة رسول الله أردت أن أربط نفسي في سبيل الله حتى أموت فقال أبو بكر أشدك بالله يا بلال وحرمتي وحق لقد كبرت سنّي وضعت قوتي واقترب أجلى فأقام بلال معه » فلما توفي أبو بكر جاء عمر فقال له مثل ما قال لأبي بكر فأبي عليه فقال عمر فمن يا بلال ؟ فقال إلى سعد فإنه قد أذن ببقاء علي عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمر الأذان إلى سعد وعقبة ، وفي إسناده جهالة . (٤) « قال له رجل يا رسول الله دلني على عمل أدخل به الجنة قال كن مؤذنا ... الحديث » أخرجه البخاري في التاريخ والعلقبلي في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف . (٥) « فضل أول الوقت على آخره كفضل الأخيرة على الدنيا » أخرجه أبو منصور الدبلي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناد ضعيف . (٦) « إن العبد ليصلي الصلاة في أول وقتها ... الحديث » أخرجه الدارقطني من حديث أبي هريرة نحوه بإسناد ضعيف . (٧) « تأخر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما عن صلاة الفجر وكان في سفر وإنما تأخر للطهارة فقدموا عبد الرحمن بن عوف ... الحديث » متفق عليه من حديث الثفيرة . (٨) « تأخره في صلاة الظهر فقدموا أبا بكر ... الحديث » متفق عليه من حديث سهل بن سعد .

فيأن لا يأخذ علماً أجرة فقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن أبي العاص الثقفي وقال «اتخذوا ذناً لا يأخذ على الأذان أجراً» (١) فالأذان طريق إلى الصلاة فهو أولى بأن لا يؤخذ عليه أجر، فإن أخذ رزقاً من مسجد قد وقف على من يقوم بإمامته من السلطان أو أحد الناس فلا يحكم بتعريمه ولكنه مكروه . والكراهية في الرأى أشد منها في الترويح . وتكون أجرة له على مداومته على حضور الموضع ومراقبة مصالح المسجد في إقامة الجماعة لأعلى نفس الصلاة . وأما الأمانة فهي الطهارة بائناً عن الفسق والكبائر والإصرار على الصفات ، فالترشح للإمامة ينبغي أن يحترز عن ذلك مجده فانه كالوفد والشفيع للقوم فينبغي أن يكون خيراً القوم وكذا الطهارة ظاهرها عن الحدث والحديث فانه لا يطلع عليه سواه . فان تذكر في أثناء صلاته حدثاً أو خرج منه ربح فلا ينبغي أن يستحي بل يأخذ بيد من يقرب منه ويستخلفه « فقد تذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنابة في أثناء الصلاة فاستخلف واشتغل ثم رجع ودخل في الصلاة » (٢) وقال سفيان : صلى خلف كل بر وفاجر إلا مدين عمر أو معلن بالفسوق أو عاق لوالديه أو عبد أبى . الخامسة : أن لا يكره حتى تستوى الصفوف قليلت يميناً وشمالاً فان رأى خلاً أمر بالتسوية . قيل كانوا يتحاذون بالمناكب ويتضامون بالكعاب . ولا يكره حتى يفرغ المؤذن من الإمامة . والمؤذن يؤخر الإمامة عن الأذان بقدر استعداد الناس في الصلاة . ففي الخبر « ليشتمل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه » (٣) وذلك لأنه نهى عن مدافعة الأخيشتين (٤) وأمر بتقديم العشاء على العشاء (٥) طلباً لفرار القلب السادسة : أن رفع صوته بتكبيرة الإحرام وسائر التكبيرات ولا يرفع المأموم صوته إلا بقدر ما يسمع نفسه . وينوي الإمامة لئال فضل فان لم ينو صحت صلاته وصلاة القوم إذا نواوا الاقتداء . ونالوا فضل القدرة وهو لا يزال فضل الإمامة . وليؤخر المأموم تكبيره عن تكبير الإمام فيبتدئ بعد فراغه والله أعلم .

وأما وظائف القراءة فثلاثة : أولاً : أن يسر بدعاء الاستفتاح والتعوذ كالنفردي ويحجر بالفاتحة والسورة بعدها في جميع الصبح وأولي العشاء والمغرب وكذلك المنفرد . ويحجر بقوله وأمين في الصلاة الجماعية وكذا المأموم ويقرن المأموم تأمينة بتأمين الإمام معاً لتعقيبها ويحجر بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » (٦) والأخبار فيه متعارضة (٧) واختيار الشافعي رضي الله عنه الجهر . الثانية : أن يكون الإمام في القيام ثلاث سكّنات (٨) هكذا رواه مرة من جندب وعمران

(١) « اتخذ مؤذناً لا يأخذ على أذانه أجرة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وصححه من حديث عثمان بن أبي العاص الثقفي (٢) « تذكر النبي صلى الله عليه وسلم الجنابة في صلاته فاستخلف واشتغل ثم رجع » أخرجه أبو داود من حديث أبي بكر بإسناد صحيح وليس فيه ذكر الاستخلاف وإنما قال « ثم أوماً إليهم مكانكم ... الحديث » وورد الاستخلاف من فضل عمر وعلى وعند البخاري استخلاف عمر في قصة طعنه . (٣) « يجمل المؤذن بين الأذان والإقامة بقدر ما يفرغ الأكل من طعامه والمعتصر من اعتصامه » أخرجه الترمذي والحاكم من حديث جابر « يا بلال اجعل بين أذانك وإقامتك قدر ما يفرغ الأكل من أكله والشارب من شربه والمعتصر إذا دخل لقضاء حاجته » قال الترمذي : إسناده مجهول وقال الحاكم ليس في إسناده مطعون فيه غير عمرو بن قايده . قلت : بل فيه عبد النعم منكر الحديث قاله البخاري وغيره . (٤) « انتهى عن مدافعة الأخيشتين » أخرجه مسلم من حديث عائشة بلفظ « صلاة » والبيهقي « لا يصلين أحداً » (٥) « الأمر بتقديم العشاء على العشاء » تقدم حديث ابن عمر وعائشة « إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤا ، بالعشاء » متفق عليه . (٦) حديث الجهر :- « بسم الله الرحمن الرحيم » أخرجه الدارقطني والحاكم وصححه من حديث ابن عباس (٧) « ترك الجهر بها » أخرجه مسلم من حديث أنس « صليت خلف النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم » وللنسائي يجهر له « بسم الله الرحمن الرحيم » . (٨) حديث سمرة بن جندب وعمران بن حصين في سكّنات الإمام أحمد من حديث سمرة قال « كانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكتبتوا في ذلك إلى أبي بن كعب ؟ فكتبت إن مرة قد حفظ » هكذا وجدته في غير نسخة صحيحة من السند والمعروف أن عمران أنكر ذلك على سمرة هكذا في غير موضع من السند رواه أبو داود وابن ماجه وابن حبان روى الترمذي « فأنكر ذلك عمران وقال حفظاً سكتة » وقال حديث حسن انتهى وليس في حديث سمرة إلا سكتان . ولكن اختلف عنه في محل الثانية ، فروى عنه بعد الفاتحة وروى عنه بعد السدرة وللدارقطني حديث أبي هريرة وضعفه « من صلى صلاة مكتوبة مع الإمام فليقرأ بفاتحة الكتاب في سكّاته » .

إن الحصى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أولاهن : إذا كبر وهي الطولى منهن مقدار ما يقرأ من خلفه فاتحة الكتاب وذلك وقت قراءته لدعاء الاستفتاح فانه إن لم يسكت بفوتهم الاستماع فيكون عليه ما نقص من صلاتهم ، فان لم يقرأوا فاتحة في سكوتهم واشتغلوا بغيرها فذلك عليهم لاعليه . السكتة الثانية : إذا فرغ من الفاتحة لين من يقرأ الفاتحة في السكتة الأولى فاتحته وهي كنصف السكتة الأولى . السكتة الثالثة : إذا فرغ من السورة قبل أن يركع وهي أخفها وذلك بقدر ما تنفصل القراءة عن التكبير فقد نهى عن الوصل فيه . ولا يقرأ المأموم لوراء الامام إلا الفاتحة فان لم يسكت الامام قرأ فاتحة الكتاب معه والمقصود هو الامام . وإن لم يسمع المأموم في الجهرية لبعده أو كان في السرية فلا بأس بقراءة السورة . الوظيفة الثالثة : أن يقرأ في الصبح سورتين من المشائي ما دون المائة فان الاطالة في قراءة الفجر والتغليس بها ستة ، ولا يضطر الخروج منها مع الإسفار . ولا بأس بأن يقرأ في الثانية بأواخر السور نحو الثلاثين أو العشرين إلى أن يعتصمها لأن ذلك لا يتكرر على الأصحاب كثيراً فيكون أبلغ في الوعظ وأدعى إلى التفكر ، وإنما كره بعض العلماء قراءة بعض أول السور وقطعها . وقد روى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بعض سورة يونس فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع فركع (١) وروى أنه صلى الله عليه وسلم قرأ في الفجر آية من البقرة (٢) وهي قوله ﴿ قولوا آمنا بالله وما أزل إلينا ﴾ وفي الثانية ﴿ ربنا آمنا بما أنزلت ﴾ وسمع بلالا يقرأ من ههنا وههنا ؛ فسأله عن ذلك فقال : أخطأ الطيب بالطيب ، فقال : أحسنت (٣) ، ويقرأ في الظهر بطوال المفصل إلى ثلاثين آية وفي العصر بنصف ذلك وفي المغرب بأواخر المفصل . وآخر صلاة صلاحاً رسول الله صلى الله عليه وسلم : المغرب ، قرأ فيها سورة المرسلات ما صلى بعدها حتى قبض (٤) . وبالجملة التخفيف أولى لاسيما إذا كثرت الجمع قال صلى الله عليه وسلم في هذه الرخصة « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف فان فهم الضعيف والكبير وذا الحاجة وإذا صلى لنفسه فليطول ما شاء (٥) » وقد كان معاذ بن جبل يصلي يقوم العشاء فقراً البقرة يخرج رجل من الصلاة وأتم لنفسه ، فقالوا : ناقد الرجل ، فقتلوا كذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجزج الرسول عليه الصلاة والسلام معاذ فقال « أفأنا أنت يا معاذ أقرأ سورة سبح والسماء والطارق والشمس وضحاها (٦) » وأما وظائف الأركان الثلاثة ، أولها : أن يخفف الركوع والسجود فلا يزيد في التسيبحات على ثلاث فقد روى عن أنس أنه قال « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام (٧) » ثم روى أيضاً أن أنس بن مالك لما صلى خلف عمر بن عبد العزيز وكان أميراً بالمدينة قال « ما صليت وراء أحد أشبه صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) « قرأ بعض سورة يونس ؟ فلما انتهى إلى ذكر موسى وفرعون قطع وركع » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب وقال : سورة المؤمنين وقال موسى وهرون وعلقه البخاري . (٢) يقرأ في الفجر « قولوا آمنا بالله » الآية ، وفي الثانية « ربنا آمنا بما أنزلت » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس كان يقرأ في ركعتي الفجر في الأولى منهما « قولوا آمنا بالله وما أزل إلينا » الآية التي في البقرة وفي الركعة الأخيرة « ربنا آمنا بما أنزلت » أو « إنا أرسلناك بالحق » .

(٣) « سمع بلالا يقرأ من ههنا ومن ههنا ، فسأله عن ذلك فقال أخطأ الطيب فقال أحسنت » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح نحوه .

(٤) « قراءته في المغرب بالمرسلات وهي آخر صلاة صلاحاً » متفق عليه من حديث أم الفضل .

(٥) « إذا صلى أحدكم بالناس فليخفف ... الحديث » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٦) « صلى معاذ يقوم العشاء فقراً البقرة يخرج رجل من الصلاة ... الحديث » متفق عليه من حديث جابر وليس فيه ذكر « والسماء والطارق » وهي عند البيهقي .

(٧) حديث أنس « ما رأيت أخف صلاة من رسول الله صلى الله عليه وسلم في تمام » متفق عليه .



وسلم من هذا الشاب ، قال : وكنا نسبح وراءه عشراً عشراً<sup>(١)</sup> » وروى بحملاً أنهم قالوا « كنا نسبح وراء رسول الله ﷺ في الركوع والسجود عشراً عشراً<sup>(٢)</sup> » وذلك حسن ، ولكن الثالث إذا كثّر الجمع أحسن . فإذا لم يحضر إلا المتجردون للدين فلا بأس بالعشر ، وهذا وجه الجمع بين الروايات . وينبغي أن يقول الإمام عند رفع رأسه من الركوع « سمع الله لمن حمده » . الثانية : في المأموم ، ينبغي أن لا يسأوى الإمام في الركوع والسجود بل يتأخر فلا يهوى للسجود إلا إذا وصلت جهة الإمام إلى المسجد ، هكذا كان اقتداء الصحابة برسول الله ﷺ<sup>(٣)</sup> ولا يهوى للركوع حتى يستوى الإمام راعياً . وقد قيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام : طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد الإمام ، وطائفة بصلاة واحد وهم الذين يسأون ، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسابقون الإمام . وقد اختلف في أن الإمام في الركوع هل ينتظر لحوق من يدخل لينال فضل الجماعة وإدراكهم بتلك الركعة ؟ ولعل الأولى أن ذلك مع الإخلاص لا بأس به إذا لم يظهر تفاوت ظاهر للحاضرين فإن حقه من ركعة في ترك التطويل عليهم . الثالثة : لا يزيد في دعاء التشهد على مقدار التشهد حسداً من التطويل ولا يخص نفسه في الدعاء بل يأتي بصيغة الجمع فيقول « اللهم اغفر لنا » ولا يقول « اغفر لي » فقد كره للإمام أن يخص نفسه ، ولا بأس أن يستعين في التشهد بالكلمات الخمس المأثورة عن رسول الله ﷺ فيقول « نعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ونعوذ بك من فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال وإذا أردت يقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين<sup>(٤)</sup> » وقيل : سمى مسيحاً لأنه يمسح الأرض بطولها ، وقيل : لأنه مسح الجن أي مطموسها .

وأما وظائف التحلل فثلاثة ، أولها : أن يتوكل بالتسليمتين السلام على القوم والملائكة . الثانية : أن يثبت عقيب السلام كذلك فعل الرسول ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيصلي الثالثة في موضع آخر . فإن كان خلفه نسوة لم يمتح حتى ينصرف<sup>(٥)</sup> وفي الخبر المشهور « أنه ﷺ لم يكن يقعد إلا قدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا الجلال والإكرام<sup>(٦)</sup> » . الثالثة : إذا وثب فينبغي أن يقبل بوجهه على الناس ويكره للمأموم القيام قبل انقضاء الإمام . فقد روى عن طلحة والزبير رضي الله عنهما أنهما صليا خلف إمام فلما سبأ قال الإمام ما أحسن صلاتك وأنتما إلا شيئاً واحداً أنك لما سلبت لم تنفل بوجهك ، ثم قال للناس : ما أحسن صلاتكم إلا أنكم انصرفتم قبل أن ينفل إمامكم . ثم ينصرف الإمام حيث شاء من يمينه وشماله واليمين أحب . هذه وظيفة الصلوات ، وأما الصحيح فزيد فيها القنوت فيقول الإمام « اللهم اهدنا » ولا يقول « اللهم اهدني » ويؤمن للمأموم فإذا انتهى إلى قوله « إنك تقضى ولا يقضى عليك » فلا يليق به التأمين وهو ثناء ، فيقرأ معه فيقول مثل قوله أو يقول « بلى وأنا على ذلك من الشاهدين » أو « صدقت وبررت » وما أشبه ذلك . وروى حديث في رفع اليدين<sup>(٧)</sup>

(١) عن أنس أنه صلى خلف عمر بن عبد العزيز فقال ماصليت وراء أحد أشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم من هذا الشاب ... أخرجه أبو داود والنسائي بإسناد جيد وضعفه ابن القطان . (٢) « كنا نسبح وراء رسول الله صلى الله عليه وسلم في الركوع والسجود عشراً » لم أجده أصلاً إلا في الحديث الذي قبله وفيه « حررنا في ركوعه عشر تسبيحات وفي سجوده عشر تسبيحات » . (٣) « كان الصحابة لا يهون للسجود إلا إذا وصلت جهة النبي عليه الصلاة والسلام إلى الأرض » متفق عليه من كلام البراء بن عازب . (٤) « التوعد في التشهد من عذاب جهنم وعذاب القبر ... » تقدم وزاد فيه الغزالي هنا « وإذا أردت يقوم فتنة فاقبضنا إليك غير مفتونين » لم أجده مقيداً بتأخر الصلاة ولترمذي من حديث ابن عباس « إذا أردت بعبادتك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون » روى الحاكم نحوه من حديث ثوبان وعبد الرحمن بن عمار وصححهما وسيأتي في الدعاء . (٥) « للكعب بعد السلام » أخرجه البخاري من كلام أم سلمة . (٦) « إنه لم يكن يقعد إلا بقدر قوله : اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت إذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من كلام عائشة . (٧) « رفع اليدين في القنوت » أخرجه البيهقي من كلام أنس بسند جيد في قصة قتل الفراء « ولقد رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام كلما صلى الغداة رفع يديه » يدعو بعلمهم .

في القنوت فإذا صح الحديث استحب ذلك وإن كان على خلاف الدعوات في آخر التشهد إذ لا يرفع يدها اليسرى بل التعويل على الترتيب وبينهما أيضاً فرق وذلك أن الأيدي وظيفة في التشهد وهو الوضع على الفخذين على هيئة مخصوصة ولا وظيفة لها هنا ، فلا يبعد أن يكون رفع اليدين هو الوظيفة في القنوت ، فإنه لا تقال بالدعاء والله أعلم بهذه جملة آداب القنوة والإمامة والله الموفق .

## الباب الخامس : في فضل الجمعة وآدابها وسننها وشروطها

### فضيلة الجمعة

اعلم أن هذا يوم عظيم عظم الله به الإسلام وخصص به المسلمين . قال الله تعالى ﴿ إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ حرم الاشتغال بأمور الدنيا وبكل صارف عن السعي إلى الجمعة . وقال ﷺ : « إن الله عز وجل فرض عليكم يوم الجمعة في يومى هذا في مقامى هذا <sup>(١)</sup> » وقال ﷺ : « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « فقد نبذ الإسلام وراء ظهره <sup>(٣)</sup> » واختلف رجل إلى ابن عباس يسأله عن رجل مات لم يكن يشهد جمعة ولا جماعة ، فقال : في النار ، فلم يزل يتردد إليه شهراً يسأله عن ذلك وهو يقول في النار ، وفي الخبر : إن أهل الكتائب أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرخوا عنه . وهذا ما الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجملة عبادا لهم فهم أولى الناس به سبقاً ، وأهل الكتائب لم تبع <sup>(٤)</sup> . وفي حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « أتاني جبريل عليه السلام في كفه مرآة بيضاء وقال : هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عبداً ولأمتك من بعدك . قلت : فما لنا فيها ؟ قال : لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له أعطاه الله سبحانه إياه أو ليس له قسم ذخره ما هو أعظم منه ، أو تعود من شره مكتوب عليه إلا أعاده الله عز وجل من أعظم منه وهو سيد الأيام وعدنا ونحن ندعوه يوم الآخرة يوم المزيد ، قلت : ولم ؟ قال : إن ربك عز وجل اتخذ في الجنة وادياً أبيض من المسك أبيض فاذا كان يوم الجمعة نزل تعالى من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه الكريم <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم عليه السلام وفيه أدخل الجنة وفيه أهبط إلى الأرض وفيه تيب عليه وفيه مات وفيه تقوم الساعة ، وهو عند الله يوم المزيد كذلك تسميه الملائكة في السماء وهو يوم النظر إلى الله تعالى في الجنة <sup>(٦)</sup> » وفي الخبر : « إن الله عز وجل في كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار <sup>(٧)</sup> » وفي حديث أنس رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم

### الباب الخامس

- (١) « إن الله فرض عليكم الجمعة في يومى هذا ... » أخرجه ابن ماجه من كلام جابر بإسناد ضعيف .
- (٢) « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع الله على قلبه » أخرجه أحمد واللفظ له وإسناد السنن ورواه الحاكم ومحمد بن حنبل وابن الجوزي .
- (٣) « من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر فقد نبذ الإسلام وراء ظهره » أخرجه الترمذي في الشعب من كلام ابن عباس .
- (٤) « إن أهل الكتائب أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة بنحوه .
- (٥) عن أنس « أتاني جبريل في كفه مرآة بيضاء فقال هذه الجمعة ... » أخرجه الشافعي في السنن والطبراني في الأوسط وابن مردويه في التفسير بأسانيد ضعيفة مع اختلاف .
- (٦) « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة ... » أخرجه مسلم من كلام أبي هريرة .
- (٧) « إن لله كل جمعة ستائة ألف عتيق من النار » أخرجه ابن عدي وابن حبان في الضعفاء وفي الشعب من كلام أنس قال الدارقطني في العلل والحديث غير ثابت .

قال « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الجمع تسمر في كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس في كبد السماء فلا تصلوا في هذه الساعة إلا يوم الجمعة فإنه صلاة كله وإن جهنم لا تسمر فيه »<sup>(٢)</sup> وقال كعب : إن الله عز وجل فضل من البلدان مكة ومن الشهور رمضان ومن الأيام الجمعة ومن الليالي ليلة القدر ويقال إن الطير والحوام يلقي بعضها بعضاً في يوم الجمعة فتقول : سلام سلام يوم صالح وقال صلى الله عليه وسلم « من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة كتب الله له أجر شهيد ووفى فتنه القبر »<sup>(٣)</sup> .

### بيان شروط الجمعة

اعلم أنها تشارك جميع الصلوات في الشروط وتبين عنها بستة شروط ( الأول ) الوقت : فإن وقعت تسليمه الإمام في وقت العصر فانت الجمعة وعليه أن يمتها ظهراً أربعا ، والمسبوق إذا وقعت ركعت الأخيرة خارجا من الوقت ففيه خلاف ( الثاني ) المكان : فلا تصح في الصحارى والبرارى وبين الخيام بل لابد من بقعة جامعة لأبنية لا تنقل بجمع أربعين من تلاميذ الجمعة والقرية فيه كالبلد ، ولا يشترط فيه حضور السلطان ولا إذنه ولكن الأحاب استثنأه ( الثالث ) العدد : فلا تنعقد بأقل من أربعين ذكورا مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنها شئ ولا صيفا ، فإن انقضوا حتى نقص العدد إما في الخطيئة أو في الصلاة لم تصح الجمعة بل لابد منهم من الأول إلى الآخر ( الرابع ) الجماعة : فلو صلى أربعون في قرية أو في بلد متفرقين لم تصح جمعهم . ولكن المسبوق إذا أدرك الركعة الثانية جاز له الانفراد بالركعة الثانية . وإن لم يدرك ركوع الركعة الثانية اقتدى ونوى الظهر وإذا سلم الإمام تممها ظهراً ( الخامس ) أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى في ذلك البلد . فإن تمدد اجتماعهم في جامع واحد جاز في جامعين وثلاثة وأربعة بقدر الحاجة . وإن لم تكن حاجة فالصحيح الجمعة التي يقع بها التحريم أولا . وإذا تحققت الحاجة فالأفضل الصلاة خلف الأفضل من الإمامين ، فإن تساويا فالمسجد الأقدم ، فإن تساويا في الأقرب ، ولكثرة الناس أيضا فضل راعي ( السادس ) الخطيئان : فيها فريضان والقيام فيهما فريضة والجلسة بينهما فريضة . وفي الأول أربع فرائض : التمجيد وأقله الحمد لله . والثانية : الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم . والثالثة : الوصية بتقوى الله سبحانه وتعالى . والرابعة : قراءة آية من القرآن . وكذا فرائض الثانية أربعة إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القراءة . واستباح الخطيئين واجب من الأربعين . وأما السنن : فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية ، والكلام لا ينقطع بافتتاح الخطبة . ويسلم الخطيب على الناس إذا أقبل عليهم بوجهه ويردون عليه السلام فإذا فرغ المؤذن قام مقبلا على الناس بوجهه لا يلتفت يمينا ولا شمالا ويشغل يديه بقائم السيف أو العزة والمنبر كي لا يمشي هما أو يضع إحداهما على الأخرى . ويخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة . ولا يستعمل غريب اللغة ولا معطوط ولا يشغى . وتكون الخطبة قصيرة بليغة جامعة . ويستحب أن يقرأ آية في الثانية أيضا . ولا يسلم من دخل والخطيب يخطب فإن سلم لم يستحق جوابا ، والإشارة بالجواب حسن ، ولا يشمت العاطسين أيضا ، هذه شروط الصحة ، فأما شروط الوجوب : فلا تجب الجمعة إلا على ذكر بالغ عاقل مسلم حرم مقرب في قرية تشتعل على أربعين جامعين

(١) حديث أنس « إذا سلمت الجمعة سلمت الأيام » أخرجه ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث عائشة ولم أجده من حديث أنس .

(٢) « إن الجمع تسمر كل يوم قبل الزوال عند استواء الشمس — إلى أن قال — إلا يوم الجمعة ... » أخرجه أبو داود من حديث أبي قتادة وأعله بالانقطاع .

(٣) « من مات يوم الجمعة كتب الله له أجر شهيد ، وفي فتنه القبر » أخرجه أبو نعيم في الحلية من حديث جابر روى الزندي نحوه مختصراً من حديث عبدالله بن عمر وقال غريب ليس إسناده بحصل . قلت : وصله الأثرمدى الحكيم في النوادر

هذه الصفات ، أوفى قرية من سواد البلد يبلغها نداء البلد من طرف بابها والأصوات ساكنة والمؤذن رفيع الصوت لقوله تعالى ﴿ إذا نودي للصلاة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ ويرخص لهؤلاء في ترك الجمعة لعذر المطر والوجل والفرع والمرض والتمريض إذا لم يكن للريض قيم غيره . ثم يستحب لهم أتعافى أصحاب الأعداء فأخير الظهر إلى أن يفرغ الناس من الجمعة ، فإن حضر الجمعة مريض أو مسافر أو عبيد أو امرأة صحت جمعتهم وأجزأت عن الظهر والله أعلم .

### بيان آداب الجمعة على ترتيب المادة وهي عشر مجل

( الأول ) أن يستعد لها يوم الخميس عزما عليها واستقبالا لفضلها فيستغل بالدعاء والاستغفار والتسليم بعد العصر يوم الخميس لأنها ساعة قبلت بالساعة المهمة في يوم الجمعة . قال بعض السلف : إن الله عز وجل فضلا سوى أرزاق العباد لا يعطى من ذلك الفضل إلا من سأله عشية الخميس ويوم الجمعة ، ويقبل في هذا اليوم ثيابه ويبيضها ويعد الطيب إن لم يكن عنده ، ويفرخ قلبه من الأشغال التي تتمتع من البكور إلى الجمعة ، ويروى في هذه الليلة صوم يوم الجمعة فإن له فضلا ولكن مضموما إلى يوم الخميس أو السبت لا مفردا فإنه مكروه . ويستغل بإحياء هذه الليلة بالصلاة وغنى القرآن فلها فضل كثير . وينسحب عليها أفضل يوم الجمعة . وجماع أهله في هذه الليلة أوفى يوم الجمعة فقد استحسب ذلك قوم حملوا عليه قوله صلى الله عليه وسلم « رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل »<sup>(١)</sup> وهو حمل الأهل على التسلي ، وقيل معناه غسل ثيابه سرفى بالتخفيف . واغتسل لجسده . وهذا تم آداب الاستقبال ويخرج من زمرة الغافلين الذين إذا أصبحوا قالوا ما هذا اليوم ؟ قال بعض السلف : أوفى الناس نصيبا من الجمعة من انتظرها ورعاه من الألس ، وأخفهم نصيبا من إذا أصبح يقول : إيش اليوم ؟ وكان بعضهم يبيت ليلة الجمعة في الجامع لأجلها . ( الثاني ) إذا أصبح ابتدأ بالفصل بعد طلوع الفجر ، وإن كان لا يكر فأقربه إلى الرواح أحب ليسكون أقرب عهدا بالنظافة ، فالغسل مستحب استحبابا مؤكدا . وذهب بعض العلماء إلى وجوبه قال صلى الله عليه وسلم « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »<sup>(٢)</sup> والمشهور من حديث نافع عن ابن عمر رضی الله عنهما « من أتى الجمعة فليغتسل »<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل »<sup>(٤)</sup> وكان أهل المدينة إذا تساب المصابان يقول أحدهما للآخر : لآنت أشر من لا يغتسل يوم الجمعة . وقال عمر لعثمان رضی الله عنهما لما دخل وهو مغطى « أهذه الساعة ؟ - مشكرا عليه ترك البكور - فقال : ما زدت بعد أن سمعت الأذان على أن توحضأت وخرجت فقال : الوضوء أيضا ؟ وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا بالفصل »<sup>(٥)</sup> وقد عرف بجواز ترك الغسل بوضوء عثمان رضی الله عنه وبما روى أنه صلى الله عليه وسلم قال « من توضأ يوم الجمعة فيها ونمت ومن اغتسل فالغسل أفضل »<sup>(٦)</sup> ومن اغتسل للجنباء فليفيض الماء على بدنه مرة أخرى

(١) « رحم الله من بكر وأبكر وغسل واغتسل ... » رواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أوس بن أوس « من غسل يوم الجمعة وبكر وأبكر ... » وحسنه الترمذي .

(٢) « غسل يوم الجمعة واجب على كل محتلم » متفق عليه من حديث أبي سعيد (٣) حديث نافع عن ابن عمر « من أتى الجمعة من الرجال والنساء فليغتسل » متفق عليه وهذا لفظ ابن حبان (٤) « من شهد الجمعة من الرجال والنساء فليغتسلوا » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث ابن عمر (٥) « قال عمر لعثمان لما دخل وهو مغطى : أهذه الساعة .. إلى أن قال - والوضوء أيضا وقد علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر بالفصل » متفق عليه من حديث أبي هريرة ولم يسم البخاري وعثمان (٦) « من توضأ يوم الجمعة فيها ونمت ... » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه ورواه النسائي من حديث سمرة

على نية غسل الجمعة ؛ فإن اكتفى بغسل واحد أجزأه وحصل له الفضل إذا نوى كليهما ودخل غسل الجمعة في غسل الجنابة . وقد دخل بعض الصحابة على ولده وقد اغتسل فقال له : أألجمعة ؟ فقال : بل عن الجنابة ، فقال : أعد غسلًا ثانيًا ، وروى الحديث في غسل الجمعة على كل محتمل . وإنما أمره به لأنه لم يكن نواه . وكان لا يبعد أن يقال المقصود النظافة . وقد حصلت دون النية ، ولكن هذا يتفقد في الوضوء أيضًا وقد جعل في الشرع قرينة فلا بد من طلب فضلها . ومن اغتسل ثم أحدث توشحًا ولم يبطئ غسله والأجيب أن يحرز عن ذلك ( الثالث ) الزينة ؛ وهي مستحبة في هذا اليوم وهي ثلاثة : الكسوة والنظافة وتطيب الرائحة . أما النظافة فيألسوا كرحلي الشعر وقلم الظفر ونحو الشارب وسائر ما سبق في كتاب الطهارة . قال ابن مسعود : من قلم أظفاره يوم الجمعة أخرج الله عن وجهه منه داء وأدخل فيه شفاء ؛ فإن كان قد دخل الحمام في الخيس أو الأربعماء فقد حصل المقصود . فليتطيب في هذا اليوم بأطيب طيب عنده ليغلب بها الروائح الكريهة ويوصل بها الروح والرائحة إلى مشام الحاضرين في جواره « وأحب طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » (١) ، رى ذلك في الآثار . وقال الشافعي رضي الله عنه : من نطف ثوبه قل همه ومن طاب ريحه زاد عقله ، وأما الكسوة فأحبها البياض من الثياب — إذا أحب الثياب إلى الله تعالى الأبيض — ولا يلبس ما فيه شهرة . وليس السوداء ليس من السنة ولا فيه فضل بل كره جماعة النظر إليه لأنه بدعة محدثة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم والعمامة مستحبة في هذا اليوم . وروى واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العائم يوم الجمعة » (٢) « فإن أكرهه الحر فلا بأس بزعمها قبل الصلاة وبعدها ولكن لا يزرع في وقت السعي من المنزل إلى الجمعة ولا في وقت الصلاة ولا عند صعود الإمام المنبر وفي خطبته ( الرابع ) البكور إلى الجامع : ويستحب أن يقصد الجامع من فرحين وثلاث وليبكر . ويدخل وقت البكور بطلوع الفجر وفضل البكور عظيم . وينبغي أن يكون في سعيه إلى الجمعة غاشمًا متواضعًا تائبًا للاحتكاك في المسجد إلى وقت الصلاة فأصدا للبادرة إلى جواب نداء الله عز وجل إلى الجمعة إياه ، والمسارة إلى مغفرته ورضوانه وقد قال صلى الله عليه وسلم « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فسكنا كما قرب بدته ومن راح في الساعة الثانية فسكنا كما قرب بقرة ومن راح في الساعة الثالثة فسكنا كما قرب كبشًا أقرن ومن راح في الساعة الرابعة فسكنا كما أهدى دجاجة ومن راح في الساعة الخامسة فسكنا كما أهدى بيضة فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر فن جاء بعد ذلك فأتى جاء حق الصلاة ليس له من الفضل شيء (٣) « والساعة الأولى إلى طلوع الشمس ، والثانية إلى ارتفاعها ، والثالثة إلى انبساطها حين ترمض الأقدام ، والرابعة والخامسة بعد الضحى الأعلى إلى الزوال وفضلها قليل ، ووقت الزوال حق الصلاة ولا فضل فيه . وقال صلى الله عليه وسلم « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركبوا ركض الإبل في طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » (٤) وقال أحمد بن حنبل رضي الله عنه : أفضلهن الغدو إلى الجمعة . وفي الخبر

(١) « طيب الرجال ما ظهر ريحه وخفي لونه وطيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث أبي هريرة (٢) حديث واثلة بن الأسقع « إن الله وملائكته يصلون على أصحاب العائم يوم الجمعة » أخرجه الطبراني وعدي ، وقال منكر من حديث أبي الدرداء ولم أره من حديث واثلة (٣) « من راح إلى الجمعة في الساعة الأولى فسكنا كما قرب بدته .. » متفق عليه من حديث أبي هريرة وليس فيه « ورفعت الأقلام » وهذه اللفظة عند البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (٤) « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركبوا ركض الإبل في طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » أخرجه أبو الشيخ في ثواب الأعمال من حديث أبي هريرة « ثلاث لو يعلم الناس ما فيهن لركبوا ركض الإبل في طلبهن : الأذان والصف الأول والغدو إلى الجمعة » وفي الصحيحين من حديثه « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستمعوا لاستمعوا ولو يعلمون ما في التهجير لاستبقوا إليه ».

« إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المساجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب يكتبون الأول فالأول على مراتبهم (١) » وجاء في الخبر «إن الملائكة يتفقدون الرجل إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً عنه : ما فعل فلان وما الذي أخره عن وقته ؟ فيقولون : اللهم إن كان أخره فقر فأغته وإن كان أخره مرض فأشفه وإن كان أخره شغل ففرغه لعبادته وإن كان أخره هوا فأقبل بقلبه إلى طاعتك (٢) » وكان يرى في القرن الأول حسراً وبعد الفجر الطرافات معلومة من الناس يمشون في السرج ويدعون بها إلى الجامع كأيام العيد حتى اندرس ذلك فقيل : أول بدعة حدثت في الإسلام ترك البكور إلى الجامع . وكيف لا يستحي المسلمون من اليهود والنصارى وهم يبكرون إلى البيع والكنايس يوم السبت والأحد ؟ وطلاب الدنيا كيف يبكرون إلى رحاب الأسواق للبيع والشراء والريح فلم لا يسابقهم طلاب الآخرة ؟ ويقال : إن الناس يكرنون في قريهم عند النظر إلى وجه الله سبحانه وتعالى على قدر بكورهم إلى الجمعة . ودخل ابن مسعود رضى الله عنه بكرة الجامع فرأى ثلاثة نفر قد سبقوه بالبكور فأغتم ذلك وجعل يقول في نفسه معاتباً لها : رابع أربعة ، وما رابع أربعة من البكور ببعيد (الحامس) في هيئة الدخول : ينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس ولا يمر بين أيديهم والبكور يسئل ذلك عليه فقد ورد وعيد شديد في تخطي الرقاب وهو أنه يجعل جسراً يوم القيامة يتخطاه الناس (٣) » وروى ابن جرير مراسلاً « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب يوم الجمعة إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس حتى تقدم مجلس فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته عارض الرجل حتى لقيه فقال : يا فلان ما منعك أن تجمع اليوم معنا قال : يا نبي الله قد جمعت معكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ألم ترك تتخطى رقاب الناس (٤) » أشار به إلى أنه أحبط عمله . وفي حديث مسند أنه قال « ما منعك أن تصلى معنا ؟ قال : أو لم ترق يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : رأيته تأتيت وآذيت (٥) » أى تأخرت عن البكور وآذيت الحضور . ومهما كان الصف الأول متروكاً خالياً فله أن يتخطى رقاب الناس لأنهم ضيعوا حقهم وتركوا موضع الفضيلة . قال الحسن : تخطوا رقاب الناس الذين يقعدون على أبواب الجوامع يوم الجمعة فإنه لا حرمة لهم . وإذا لم يكن في المسجد إلا من يصلى فينبغي أن لا يسلم لأنه تكليف جواب في غير عمله (السادس) أن لا يمر بين يدي الناس ويجلس حيث هو إلى قرب أسطوانة أو حائط حتى لا يمر بين يدي المصلى فإن ذلك لا يقطع الصلاة ولكنه منهي عنه قال صلى الله عليه وسلم « لا يقف أربعين عاماً خير له من أن يمر بين يدي المصلى (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يكون الرجل رمياً أو رمياً

(١) « إذا كان يوم الجمعة قعدت الملائكة على أبواب المسجد بأيديهم صحف من فضة وأقلام من ذهب... » أخرجه ابن مردويه في التفسير من حديث علي بإسناد ضعيف « إذا كان يوم الجمعة نزل جبريل فركز لواء بالمسجد الحرام وغدا سائر الملائكة إلى المساجد التي يجمع فيها يوم الجمعة فركزوا ألويتهم وراياتهم بياب المساجد ثم نشروا قراطيس من فضة وأقلاماً من ذهب » (٢) « إن الملائكة يتفقدون العبد إذا تأخر عن وقته يوم الجمعة فيسأل بعضهم بعضاً ما فعل فلان أخرجه البيهقي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مع زيادة ونقص بإسناد حسن . واعلم أن المصنف ذكر هذا أثرًا فلأن لم يرد به حديثاً مرفوعاً فليس من شرطنا وإنما ذكرناه احتياطاً (٣) « من تخطى رقاب الناس يوم الجمعة أخذ حشراً إلى جهنم » أخرجه الترمذي وضعفه وابن ماجه من حديث معاذ بن أنس .

(٤) حديث ابن جرير مراسلاً « أن النبي صلى الله عليه وسلم بينما هو يخطب إذ رأى رجلاً يتخطى رقاب الناس ... » وفيه « ما منعك أن تجمع معنا اليوم » أخرجه ابن المبارك في الرقائق . (٥) « ما منعك أن تصلى معنا فقال أو لم ترقني قال رأيته تأتيت وآذيت » أخرجه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن بسر مختصراً .

(٦) « لأن يقف أربعين سنة خير له من أن يمر بين يدي المصلى » أخرجه البزار من حديث زيد بن خالد وفي الصحيحين من حديث أبي جهنم « أن يقف أربعين » قال أبو النصر : لأدري « أربعين يوماً أو شهراً أو سنة » رواه داود وابن حبان من حديث أبي هريرة « مائة عام » .

تدروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصلى (١) « وقد روى في حديث آخر في المار والمصلى حيث صلى على الطريق أو قصر في الدفع فقال « لو يعلم المار بين يدي المصلى والمصلى ما عليهما في ذلك لكان أن يقف أربعين سنة خيرا له من أن يمر بين يديه (٢) » والاستطواتة والحائط والمصلى المفروش حد للمصلي فمن اجتاز به فبني أن يدفعه قال صلى الله عليه وسلم « ليدفعه فإن أبي فليدفعه فإن أبي فليقله فانه شيطان (٣) » وكان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه يدفع من يمر بين يديه حتى يصصره ، فربما تعاق به الرجل فاستدعى عند مروان فيخبره أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك ، فان لم يجد استطوانة فليتنصب بين يديه شيئا طوله قدر ذراع ليكون ذلك علامة لحده (السايع) أن يطلب الصف الأول فان فضله كثير كما رويناه وفي الحديث « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع كان ذلك له كفارة لما بين الجمعتين وزيادة ثلاثة أيام (٤) » وفي لفظ آخر « غفر الله له إلى الجمعة الأخرى — وقد اشترط في بعضها — ولم يتخط رقاب الناس (٥) » ولا يغفل في طلب الصف الأول عن ثلاثة أمور ، أولها : أنه إذا كان يرى يقرب الخطيب منكرا يعجز عن تغييره — من لبس حرير من الإمام أو غيره أو صلى في سلاح كثير ثقيل شاغل أو سلاح مذهب أو غير ذلك . مما يجب فيه الإنكار فالتأخير له أسلم وأجمع لهم ، فعل ذلك جماعة من العلماء طلبا للسلامة . قيل لبشر بن الحرث : تراك تبرك وتصل في آخر الصفوف ، فقال : إنما يراد قرب القلوب لأقرب الأجساد . وأشار به إلى أن ذلك أقرب لسلامة قلبه . ونظر سفيان الثوري إلى شبيب بن حرب عند المنبر يستمع إلى الخطبة من أبي جعفر المنصور فلما فرغ من الصلاة قال : شغل قلبي قربك من هذا هل أمنت أن تسمع كلاما يجب عليك إنكاره فلا تقوم به ؟ ثم ذكر ما أحدثوا من لبس السواد فقال : يا أبا عبد الله أليس في الخبر « ادن واستمع (٦) » فقال : ويحك ذلك للخلفاء الراشدين المهديين ، فأما هؤلاء فكلما بعدت عنهم ولم تنظر إليهم كان أقرب إلى الله عز وجل . وقال سعيد بن عامر « صليت إلى جنب أبي الدرداء لجلل يتأخر في الصفوف حتى كنا في آخر صف ، فلما صليتنا قلت له : أليس يقال خير الصفوف أولها ؟ قال : نعم إلا أن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم (٧) » فان الله تعالى إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولئن وراه من الناس فاتما تأخرت رجاء أن ينفر لي بواحد منهم ينظر الله إليه . وروى بعض الرواة أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذلك فمن أخر على هذه التثنية إثارة وإظهارا لحسن الخلق فلا بأس ، وعند هذا يقال « الأعمال بالنيات » ثانيها : إن لم تكن مقصورة عند الخطيب مقطعة عن المسجد للسلطين فالصف الأول محبوب وإلا فقد كره بعض العلماء دخول المقصورة ، كان الحسن وبكر المزني لا يصلين في المقصورة ورأيا أنها قصرت على السلاطين وهي بدعة أحدثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المساجد والمسجد مطاوع لجميع الناس وقد انتطع ذلك على خلافه. وصلى أنس بن مالك

(١) « لأن يكون الرجل رمادا تذروه الرياح خير له من أن يمر بين يدي المصلى » أخرجه أبو نعيم في تاريخ أصبهان وابن عبد البر في التمهيد موقفا على عبدالله بن عمر وزاد « متعمدا » . (٢) « لو يعلم المار بين يدي المصلى والمصلى ما عليهما في ذلك ... » رواه هكذا أبو العباس محمد بن يحيى السراج في مسنده من كلام زيد بن خالد بإسناد صحيح (٣) حديث أبي سعيد « فليدفعه فإن أبي فليقله فانه شيطان » متفق عليه . (٤) « من غسل واغتسل وبكر وابتكر ودنا من الإمام واستمع ... » أخرجه الحاكم من كلام أوس بن أوس وأصله عند أصحاب السنن . (٥) « أنه اشترط في بعضها ولم يتخط رقاب الناس » أخرجه أبو داود وابن حبان والحاكم من كلام أبي سعيد وأبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم (٦) « ادن واستمع » أخرجه أبو داود من كلام سمرة « احضروا الذكر وادنوا من الإمام » وتقدم بلفظ « من هجر ودنا واستمع » وهو عند أصحاب السنن من كلام شداد . (٧) حديث أبي الدرداء « إن هذه الأمة مرحومة منظور إليها من بين الأمم وإن الله إذا نظر إلى عبد في الصلاة غفر له ولئن وراه من الناس » ولم أجد

وعمران بن الحصين في المقصورة ولم يكرها ذلك لطلب القرب ، ولعل الكراهية تخص بحالة التخصيص والمنع فأما مجرد المقصورة إذا لم يكن منع فلا يوجد كراهة . وثالثها : أن المنبر يقطع بعض الصفوف وإنما الصف الأول الواحد المتصل الذي في فناء المنبر وما على طرفيه مقطوع . وكان الثوري يقول : الصف الأول هو الخارج بين يدي المنبر وهو متجه لأنه متصل ولأن الجالس فيه يقابل الخطيب ويسمع منه ، ولا يبعد أن يقال الأقرب إلى القبلة هو الصف الأول ولا يراعى هذا المعنى . وتكره الصلاة في الأسوان والرحاب الخارجة عن المسجد ، وكان بعض الصحابة يضرب الناس ويقيمهم من الرحاب . ( الثامن ) أن يقطع الصلاة عند خروج الإمام ويقطع الكلام أيضاً بل يستغل بحواب المؤذن ثم باستماع الخفلة ، وقد جرت عادة بعض العوام بالسجود عند قيام المؤذنين ولم يثبت له أصل في أثر ولا خبر ، ولكنه إن وافق سجود ثلاثة فلا بأس به للدعاء لأنه وقت فاضل ، ولا يحكم بتحريم هذا السجود فإنه لا سبب لحرمة ، وقد روى عن علي وعثمان رضي الله عنهما أنهما قالاً : من استمع وأصغت فله أجران ومن لم يستمع وأصغت فله أجر ومن سمع ولغا فعليه وزران ومن لم يستمع ولغا فعليه وزر واحد ، وقال عليه السلام : « من قال لصاحبه والإمام يخطف أنصت أو مه فقد لغا ومن لغا والإمام يخطف فلا جمعة له » (١) وهذا يدل على أن الإسكات ينبغي أن يكون بأشارة أو رضى حصة لا بالنطق . وفي حديث أبي ذر « أنه لما سأل أياً والنبي صلى الله عليه وسلم يخطف فقال : متى أنزلت هذه السورة ؟ فأروا لي أنه أنصت ؟ قلنا نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أبي : اذهب فلا جمعة لك ، فشكاه أبو ذر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صدق أبي » (٢) وإن كان بعيداً من الإمام فلا ينبغي أن يتكلم في العلم وغيره بل يسكت لأن كل ذلك يتسلسل ويفضي إلى هيمنة حتى ينتهي إلى المستمعين ولا يجلس في حلقة من يتكلم في عجز من الاستماع بالبعد فلينصت فهو المستحب . وإذا كان تكره الصلاة في وقت خطبة الإمام فالكلام أول بالسكراهية . وقال علي كرم الله وجهه : تكره الصلاة في أربع ساعات ، بعد الفجر وبعد العصر ونصف النهار والصلاة والإمام يخطف . ( التاسع ) أن يراعى في قدوة الجمعة ما ذكرناه في غيرها فإذا سمع قراءة الإمام لم يقرأ سوى الفاتحة ، فإذا فرغ من الجمعة قرأ « الحمد لله » سبع مرات قبل أن يتكلم وقل هو الله أحد والمعوذتين سبعاً سبعاً وروى بعض السلف أن من فصله عصم من الجمعة إلى الجمعة وكان حرزاً له من الشيطان . ويستحب أن يقول بعد الجمعة « اللهم يا غني يا حميد يا مبدئ يا معيد يا رحيم يا ودود أغني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » يقال من داوم على هذا الدعاء أغناه الله سبحانه عن خلقه ووزقه من حيث لا يحتسب . ثم يصل بعد الجمعة ست ركعات ، فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أنه عليه السلام كان يصل بعد الجمعة ركعتين (٣) ، وروى أبو هريرة أربعاً (٤) . وروى علي وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ستاً (٥) والكل صحيح في أحوال مختلفة ، والأكل أفضل

- (١) « من قال لصاحبه والإمام يخطف أنصت فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له » أخرجه الترمذي والنسائي عن أبي هريرة روى الترمذي قوله « ومن لغا فلا جمعة له » قال الترمذي حسن صحيح وهو في الصحيحين بلفظ « إذا قلت لصاحبك » أخرجه أبو داود من كلام علي « من قال صه فقد لغا ومن لغا فلا جمعة له »
- (٢) حديث أبي ذر « لما سأل أياً والنبي صلى الله عليه وسلم يخطف وقال متى أنزلت هذه السورة ... » أخرجه البيهقي وقال في المعرفة إسناده صحيح أخرجه أبو داود وابن ماجه من كلام أبي بن كعب بإسناد صحيح أن السائل له أبو الدرداء وأبو ذر ولأحمد من حديث أبي الدرداء أنه سأل أياً ولابن حبان من حديث جابر أن السائل عبد الله ابن مسعود ولأبي بصير من حديث جابر قال « قال سعد بن أبي وقاص لرجل : لا جمعة لك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لم يساعد ؟ فقال لأنه كان يتكلم وأنت تخطف فقال صدق سعد » (٣) حديث ابن عمر في الركعتين بعد الجمعة متفق عليه .
- (٤) حديث أبي هريرة في الأربع ركعات بعد الجمعة أخرجه مسلم « إذا صلى أحدكم الجمعة فليصل بعدها أربعاً » .
- (٥) حديث علي وعبد الله في صلاته ست ركعات بعد الجمعة أخرجه البيهقي مرفوعاً من علي وله موقوفاً على ابن مسعود وأربعاً وأبو داود من حديث ابن عمر : كان إذا كان بمكة صلى بعد الجمعة ستاً .



(العاشر) أن يلزم المسجد حتى يصلي العصر فإن أقام إلى المغرب فهو الأفضل . يقال من صلى العصر في الجامع كان له ثواب الحج ومن صلى المغرب لله ثواب حجة وعمرة بأن لم يأمن التصنع ودخول الآفة عليه من نظر الخلق إلى اعتكافه أو خاف الخوض فيها لا يفتي بالأفضل أن يرجع إلى بيته ذاكرًا الله عز وجل مفكرًا في آلائه شاكرًا لله تعالى على توفيقه خائفًا من تقصيره مراقبًا لقلبه ولسانه إلى غروب الشمس حتى لا تفوته الساعة الشريفة . ولا ينبغي أن يتكلم في الجامع وغيره من المساجد بحديث الدنيا قال صلى الله عليه وسلم « يأتي على الناس زمان يكون حديثهم في مساجدهم أمر دنياهم ليس لله تعالى فيهم حاجة فلا تجالسوه (١) » .

### بيان الآداب والسنن الخارجة عن الترتيب السابق الذي يع جميع النهار وهي سبعة أمور

(الاول) أن يحضر مجالس العلم بكرة أو بعد العصر ولا يحضر مجالس القصاص فلا خير في كلامهم ولا ينبغي أن يحضر المريد في جميع يوم الجمعة عن الخيرات والدعوات حتى توافيه الساعة الشريفة وهو في خير ولا ينبغي أن يحضر الخلق قبل الصلاة . وروى عبادة بن عمر رضي الله عنهما « أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن التحاق يوم الجمعة قبل الصلاة (٢) » إلا أن يكون عالماً بالله يذكر بأيام الله وبقية في دين الله يتكلم في الجامع بالفتاوى فيجلس إليه فيكون جامعاً بين البكور وبين الاستماع واستماع العلم النافع في الآخرة أفضل من اشتغاله بالثوفاً لقد روى أبو ذر « أن حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة (٣) » قال أنس بن مالك في قوله تعالى ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله ﴾ أما إنه ليس بطلب دنيا ولكن صيادة مريض وشود جنازة وتعلم علم وزيادة اخ في الله عز وجل : وقد سمي الله عز وجل العلم فضلاً في مواضع قال تعالى ﴿ وعلك مالم تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً ﴾ وقال تعالى ﴿ ولقد آتينا داود منا فضلاً ﴾ يعنى العلم فتعلم العلم في هذا اليوم وتعليمه من أفضل القربات ، والصلاة أفضل من مجالس القصاص إذ كانوا يرونه بدعة ويخرجون القصاص من الجامع . بكر ابن عمر رضي الله عنهما إلى مجلسه في المسجد الجامع فإذا قاص بقص في موضعه فقال : قم من مجلسي ا فقال : لا اقوم وقد جلست وسبقتك إليه ، فأرسل ابن عمر إلى صاحب الشرطة فأقامه . فلو كان ذلك من السنة لماجازت إقامته فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يقيم أحدكم اخاه من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن نفسحوها وتوسعوا (٤) » وكان ابن عمر إذا قام الرجل له من مجلسه لم يجلس فيه حتى يعود إليه . وروى ان قاصاً كان يجلس بفناء حجرة عائشة رضي الله عنها فأرسلت إلى ابن عمر : إن هذا قد آذاني بقصصه وشغفني عن سبحي ، فضربه ابن عمر حتى كسر عصاه على ظهره ثم طرده (الثاني) ان يكون حسن المراقبة للساعة الشريفة في الخير المشهور « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله عز وجل فيها شيئاً إلا أعطاه (٥) » وفي خير آخر « لا يصادفها عبد يصلي (٦) » واختلف فيها فقيل لأنها عند طلوع الشمس وقيل عند الزوال وقيل مع الأذان إذا صعد الإمام المنبر وأخذ في الخطبة وقيل إذا قام

- (١) « يأتي على أمتي زمن يكون حديثهم في مساجدهم أمر دنياهم . . . » أخرجه البيهقي في الشعب من كلام الحسن مرسلًا وأسنده الحاكم من كلام أنس وصححه إسناده وأخرج ابن حبان نحوه من كلام ابن مسعود وقد تقدم
- (٢) حديث عبد الله بن عمر في « النهي عن التحلق يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي ورواه ابن ماجه من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه من جده ولم أجده من كلام ابن عمر . (٣) حديث أبي ذر « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة » تقدم في العلم . (٤) « لا يقيم أحدكم اخاه من مجلسه . . . » متفق عليه من كلام ابن عمر . (٥) « إن في الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها شيئاً إلا أعطاه » أخرجه الترمذي وابن ماجه من كلام عمرو بن عوف المزني . (٦) « لا يصادفها عبد مصلي » متفق عليه من كلام أبي هريرة . (٢٤ - إحياء علوم الدين ١)

الناس إلى الصلاة وقيل آخر وقت العصر - أعنى وقت الاختيار - وقيل قبل غروب الشمس « وكانت فاطمة رضي الله عنها تراعى ذلك الوقت وتأمّر خادمها أن تنظر إلى الشمس فتؤذنها بسقوطها فتأخذ في الدعاء والاستغفار إلى أن تغرب الشمس ، وتخبّر بأن تلك الساعة هي المنتظرة وتؤثره عن أيّها صلى الله عليه وسلم وعليها <sup>(١)</sup> » وقال بعض العلماء : هي مهمة في جميع اليوم مثل ليلة القدر حتى تتوفر الدواعي على مراقبتها . وقيل إنما تنتقل في ساعات يوم الجمعة كنتنقل ليلة القدر وهذا هو الأشبه ، وله سر لا يليق بعلم المعاملة ذكره ولكن ينبغي أن يصدق بما قال صلى الله عليه وسلم « إن ربكم في أيام دهركم تفحات ألا فتعرضوا لها <sup>(٢)</sup> » ويوم الجمعة من جملة تلك الأيام فينبغي أن يكون العبد في جميع نهاره متعرضا لها بإحضار القلب وملازمة الذكر والنزوع عن وساوس الدنيا فعماء يحظى بشيء من تلك التفحات . وقد قال كعب الأحبار : إنها في آخر ساعة من يوم الجمعة وذلك عند الغروب . فقال أبو هريرة : وكيف تكون آخر ساعة وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة ؛ فقال كعب : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم من قعد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة <sup>(٣)</sup> قال : بلى ، قال : فذلك صلاة ؛ فسكت أبو هريرة . وكان كعب ما لا إلى أنها رحمة من الله سبحانه للقاتلين بحق هذا اليوم وأوان إرسالها عند الفراغ من تمام العمل . وبالجملة هذا وقت شريف مع وقت صعود الإمام المنبر فليكثر الدعاء فيها ( الثالث ) يستحب أن يكثّر الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم فقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على في يوم الجمعة ثمانين مرة غفر الله له ذنوب ثمانين سنة قيل يا رسول الله كيف الصلاة عليك ؟ قال : نقول اللهم صل على محمد عبدك ونبيك ورسولك النبي الأمي ، وتمتعوا واحدة ، وإن قلت اللهم صل على محمد وعلى آل محمد صلاة تكون لك رضا ولحقه أداء . وأعطه الوسيلة وابعثه المقام المحمود الذي وعدته واجزه عنا ما هو أهل واجزه أفضل ما جازيت نبيا عن أمته وصل عليه وعلى جميع إخوانه من النبيين والصالحين يا أرحم الراحمين <sup>(٤)</sup> » تقول هذا سبع مرات فقد قيل من قالها في سبع جمع في كل جمعة سبع مرات وجبت له شفاعته صلى الله عليه وسلم . وإن أراد أن يزيد أتى بالصلاة المأثورة فقال « اللهم اجعل فضائل صلواتك ونوامي بركاتك وشرائع ذكوانك وأثقت ورحمتك وتحيتك على محمد سيد المرسلين وإمام المتقين وخاتم النبيين ورسول رب العالمين قائد الحثيرة وفاتح البروجي الرحمة وسيد الأمة اللهم ابعثه مقاما محمودا ترفع به قربه وتقربه عينه يقبض به الأولون والآخرين اللهم اعطه الفضل والفضيلة والشرف والوسيلة والدرجة الرفيعة والمنزلة الشااعة المنيفة اللهم اعط محمد أسأله وبلغه مأموه واجعله أول شافع وأول مشفع اللهم عظم برهانه وثقل ميزانه وأبلغ حاجته وارفع في أعلى المقربين درجة اللهم احشرونا في زمرة واجعلنا من أهل شفاعته وأحيينا على سنته وتوفنا على ملته

(١) قول فاطمة في ساعة الجمعة أخرجه الدارقطني في الملل واليهيق في الشعب وعلته الاختلاف .

(٢) « إن ربكم في أيام دهركم تفحات . . . » أخرجه الحكيّم في النوادر والطبراني في الأوسط من كلام محمد ابن مسleme ولاين عبد البر في التمهيد نحوه من كلام أنس ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج من كلام أبي هريرة واختلف في إسناده . (٣) « اختلاف كعب وأبي هريرة في ساعة الجمعة وقول أبي هريرة سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول لا يوافقها عبد يصلي ولات حين صلاة فقال كعب ألم يقل عليه الصلاة والسلام من قعد ينتظر الصلاة فهو في الصلاة » قلت وقع في الإحياء أن كعبا هو القائل إنها آخر ساعة وليس كذلك وإنما هو عبد الله بن سلام وأما كعب فإما قال إنها في كل سنة مرة ثم يرجع الحديث رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان من حديث أبي هريرة وابن ماجه ونحوه من حديث عبد الله بن سلام . (٤) « من صلى في يوم الجمعة ثمانين مرة . . . » أخرجه الدارقطني من رواية ابن السليبي قال أظنه من أبي هريرة وقال حديث غريب ، وقال ابن النعمان حديث حسن .

وأوردنا حوضه واسقنا بكأسه غير خزايا ولا نادمين ولا شاكين ولا مبدلين ولا فائنين ولا مفتونين آمين يارب العالمين<sup>(١)</sup> وعلى الجملة فكل ما أتى به من أفاظ الصلاة ولو بالمشهورة في التشديد كان مصلياً . ويلغى أن يضيف إليه الاستغفار فإن ذلك أيضاً مستحب في هذا اليوم . ( الرابع ) قراءة القرآن فليكثر منه وليقرأ سورة الكهف خاصة . فقد روى عن ابن عباس وأبي هريرة رضي الله عنهما « أن من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة أعطى نوراً من حيث يقرأها إلى مكة وغفر له إلى يوم الجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام وصلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح وعوفي من الداء والديبيلة وذات الجنب والبرص والجذام وفئة البجال<sup>(٢)</sup> » ويستحب أن يحتم القرآن في يوم الجمعة وليلتها إن قدر ، وليكن ختمه القرآن في ركعتي الفجر إن قرأ بالليل أو في ركعتي المغرب أو بين الأذان والإقامة للجمعة فله فضل عظيم ، وكان العابدون يستحبون أن يقرءوا يوم الجمعة قل هو أحد ألف مرة . ويقال إن من قرأها في عشر ركعات أو عشرين فهو أفضل من ختمه وكانوا يصلون على النبي صلى الله عليه وسلم ألف مرة وكانوا يقولون « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ألف مرة وإن قرأ المسبحات الست في يوم الجمعة أو ليلتها حسن . وليس يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقرأ سوراً بأعيانها إلا في يوم الجمعة وليلتها كان يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة « قل يا أيها الكافرون . قل هو أحد » وكان يقرأ في صلاة العشاء الأخيرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمناقين<sup>(٣)</sup> وروى أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأها في ركعتي الجمعة . وكان يقرأ في الصبح يوم الجمعة : سورة سجدة لقمان وسورة هل أتى على الإنسان<sup>(٤)</sup> . ( الخامس ) الصلوات يستحب إذا دخل الجامع أن لا يجلس حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن « قل هو أحد » مائتي مرة في كل ركعة خمسين مرة<sup>(٥)</sup> فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أن من قعله لم يمض حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له » ولا يدع ركعتي التحية وإن كان الإمام يخطب ولكن يخفف . أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك<sup>(٦)</sup> وفي حديث غريب « أنه صلى الله عليه وسلم سكت للدخول حتى صلاهما<sup>(٧)</sup> » فقال الكوفيون : إن سكت له الإمام صلاهما . ويستحب في هذا اليوم أو في ليلة أن يصلي أربع ركعات بأربع سور : الأنعام والكهف وطه ويس . فإن لم يحسن قرأ يس وسورة سجدة لقمان وسورة الدخان وسورة الملك . ولا بد من قراءة هذه الأربع سور في ليلة الجمعة ففياً فضل كثير . ومن لا يحسن القرآن قرأ ما يحسن فبه له بمنزلة الحتمة . ويكثر من قراءة سورة الإخلاص . ويستحب أن يصلي صلاة التسبيح - كما سيأتى في باب الصلوات كيفيتها - لأنه صلى الله عليه وسلم قال لعنه العباس « صلها في كل جمعة<sup>(٨)</sup> » وكان ابن عباس رضي الله عنهما لا يدع هذه الصلاة يوم الجمعة بعد الزوال

- (١) « اللهم اجعل فضائل صلاتك ... » أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من حديث ابن مسعود نحوه سند ضعيف وقفه على ابن مسعود (٢) حديث ابن عباس وأبي هريرة « من قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة أو يوم الجمعة ... » لم أجده من حديثهما (٣) « القراءة في المغرب ليلة الجمعة قل يا أيها الكافرون ، وقل هو الله أحد ، وفي عشاها الجمعة والمناقين » أخرجه ابن حبان والبيهقي من حديث سمرة وفي ثقات ابن حبان المحفوظ عن سبائك مرسل قلت لا يصح مسنداً ولا مرسل (٤) « القراءة في الجمعة بالجمعة والمناقين ، وفي صبح الجمعة بالسجدة وهل أتى » أخرجه مسلم من حديث ابن عباس وأبي هريرة (٥) « من دخل يوم الجمعة المسجد فصل أربع ركعات يقرأ قل هو الله أحد مائتي مرة .. » أخرجه الخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر وقال غريب جداً . (٦) « الأمر بالتخفيف في التحية إذا دخل والأمم يخطب » أخرجه مسلم من حديث جابر والبخاري « الأمر بالركعتين ولم يذكر التخفيف (٧) « سكوتة صلى الله عليه وسلم عن الخطبة للدخول حتى فرغ من التحية » أخرجه البارقي من حديث أنس وقال أسنده عبيد بن محمد ووم فيه الصواب عن معتمر عن أبيه مرسل . (٨) « صلاة التسبيح وقوله لعنه العباس صلها في كل جمعة » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من حديث ابن عباس وقال العقيلي وغيره ليس فيها حديث صحيح . . . . .

وكان يغفر عن جلالة فضلها . والأحسن أن يجعل وقته إلى الزوال للصلاة وبعد يوم الجمعة إلى العصر لاستيعاب العلم وبعد العصر إلى المغرب للتسبيح والاستغفار . ( السادس ) الصدقة مستحبة في هذا اليوم خاصة فإنها تنضاعف إلا على من سأل والإمام يخطب وكان يتكلم في كلام الإمام فهذا مكروه . وقال صالح بن محمد : سأل مسكين يوم الجمعة والإمام يخطب - وكان إلى جانب أبي - فأعطى رجلاً أبي قطعة ليناوله إياها فلم يأخذها منه أبى . وقال ابن مسعود إذا سأل الرجل في المسجد فقد استحق أن لا يعطى وإذا سأل على القرآن فلا تعطوه . ومن العلماء من كره الصدقة على السؤال في الجامع الذين يخطون رقاب الناس ؛ إلا أن يسأل قائماً أو قاعداً في مكانه من غير تحط . وقال كعب الأحمار : من شهد الجمعة ثم أنصرف فتصدق بشيئين مختلفين من الصدقة ثم جمع فركع ركعتين يتم ركوعهما ويهودهما وخشوعهما ثم يقول : اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الذي لا إله إلا الله هو الحى القيوم الذى لا تأخذه سنة ولا نوم ، لم يسأل الله تعالى شيئاً إلا أعطاه . وقال بعض السلف : من أعلم مسكيناً يوم الجمعة ثم غداً وايشكر ولم يؤذ أحداً ثم قال حين يسلم الإمام « بسم الله الرحمن الرحيم الحى القيوم أسألك أت تغفر لى وترحمى وتعافينى من النار » ثم دعا بما بدا له استجيب له ( السابع ) أن يجعل يوم الجمعة الأخيرة فيكيف فيه من جميع أشغال الدنيا ويكثر فيه الأوراد ولا يتبدى فيه السفر فقد روى « أنه متى سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه (١) » وهو بعد طلوع الفجر حرام إلا إذا كانت الرفقة تفوت وكره بعض السلف شراء الماء في المسجد من السقا ليشربه أو يسبله حتى لا يكون مبتاعاً في المسجد مكروه . وقالوا لا بأس لو أعطى القطعة خارج المسجد ثم شرب أو سبل في المسجد . وبالجملة ينبغي أن يزيد في الجمعة في أوراده وأنواع خيراته فإن الله سبحانه وتعالى إذا أحب عبداً استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسوء الأعمال ليكون ذلك أوجه في عقابه وأشد لفتته لحرامه بركة الوقت وانتهاك حرمة الوقت . ويستحب في الجمعة دعوات ، وسياقى ذكرها في كتاب الدعوات إن شاء الله تعالى . وصلى الله على كل عبد مصطفى .

### الباب السادس

#### في مسائل متفرقة تعم بها البلوى ويحتاج المريد إلى معرفتها

فأما المسائل التي تقع نادرة فقد استقصيناها في كتب الفقه

مسألة الفعل القليل وإن كان لا يبطل الصلاة فهو مكروه إلا للحاجة وذلك في دفع المار وقتل العقرب التي تخاف ويمكن قتلها بضربة أو ضربتين فإذا صارت ثلاثاً فقد كثرت وبطلت الصلاة ، وكذلك القملة والبرغوث مهما نأذى مهما كان له دفعهما ، وكذلك حاجته إلى الحلك الذي يشوش عليه الخشوع . كان معاذ يأخذ القملة والبرغوث في الصلاة . وابن عمر كان يقتل القملة في الصلاة حتى يظهر الدم على يده . وقال النخعي : يأخذها وبرهنا ولا شيء عليه إن قتلها . وقال ابن المسيب : يأخذها ويحدرها ثم يطرحها . وقال مجاهد : الأحب إلى أن يدعها إلا أن تؤذيه فتشغله عن صلاته فيوهنا قدر ما لا تؤذى ثم يلقاها . وهذه رخصة وإلا فالسكال الاحتراز عن الفعل وإن قل . ولذلك كان بعضهم لا يطرد الذهاب وقال : لا أعود نفسى ذلك فيفسد على صلاتي . وقد سمعت أن الفساق بين يدي

(١) «من سافر يوم الجمعة دعا عليه ملكاه» أخرجه الدارقطني في الأفراد من كلام ابن عمر وفيه ابن لبيعة وقال غريب والحطيف في الرواة عن مالك من كلام أبي هريرة بسند ضعیف .

الملوك يصبرون على أذى كثير ولا يتحركون . ومهما تئادب فلا بأس أن يضع يده على فيه وهو الآولى . وإن عطس حمد الله عز وجل في نفسه ولا يحرك لسانه . وإن تحشأ فينبغي أن لا يرفع رأسه إلى السماء . وإن سقط رداؤه فلا ينبغي أن يسويه وكذلك أطراف عمامته فكل ذلك مكروه إلا للضرورة .

( مسألة ) الصلاة في الثملين جائزة وإن كان نزع الثملين سهلا ، وليست الرخصة في الخف لعسر النزع بل هذه التجاسة معفو عنها . وفي معناها المداس « صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في نعليه ، ثم نزع فزنع الناس نعالهم فقال : لم خلتهم نعالكم ؟ قالوا : رأيناك خلعت نعلنا فقال صلى الله عليه وسلم : إن جبرائيل عليه السلام أتاني فأخبرني أن بها خبثا فإذا أراد أحدكم المسجد فليقلب نعليه وليتظر فيهما فإن رأى خبثا فليمسحه بالأرض وليصل فيهما<sup>(١)</sup> » وقال بعضهم : الصلاة في الثملين أفضل لأنه صلى الله عليه وسلم قال « لم خلتهم نعالكم ؟ » وهذه مباغة فإنه صلى الله عليه وسلم سألهم ليبين لهم سبب خلعه إذ علم أنهم خلعوا على موافقته . وقد روى عبد الله بن السائب « أن النبي صلى الله عليه وسلم خلع نعليه<sup>(٢)</sup> » فإذا قد فعل كليهما فن خلع فلا ينبغي أن يضعهما عن يمينه ويساره لمضيق الموضوح ويقطع الصف بل يضعهما بين يديه ولا يتركهما وراءه فيكون قلبه ملتفا إليهما . ولعل من رأى الصلاة فيهما أفضل راض بهذا المعنى وهو التفات القلب إليهما . روى أبو هريرة رضى الله عنه : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه<sup>(٣)</sup> » وقال أبو هريرة لغيره : اجعلهما بين رجليك ولا تؤذ بهما مسلما . ووضعهما رسول الله صلى الله عليه وسلم على يساره وكان إماما<sup>(٤)</sup> فلإمام أن يفعل ذلك إذ لا يقف أحد على يساره . والأول أن لا يضعهما بين قدميه فتشغلانه ولكن قدام قدميه ، ولعله المراد بالحديث . وقد قال جبير بن مطعم : وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة .

( مسألة ) إذا بزق في صلاته لم تبطل صلاته لأنه فعل قليل . وما لا يحصل به صوت لا يعد كلاما وليس على شكل حروف الكلام إلا أنه مكروه فينبغي أن يحترز منه إلا كما أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه إذ روى بعض الصحابة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى في القبلة نخامة ففضب غضبا شديدا ثم حكها برجون كان في يده وقال : اثنوني بعير ، فطلع أثرها بيزفران ثم التفت إلينا وقال : أبكم يحب أن يزق في وجهه ؟ فقلنا : لا أحد ، قال : فإن أحدكم إذا دخل في الصلاة فإن الله عز وجل بينه وبين القبلة<sup>(٥)</sup> » وفي لفظ آخر « واجهه الله تعالى فلا يزقن أحدكم تلقاء وجهه ولا عن يمينه ولكن عن شماله أو تحت قدمه اليسرى فإن بدته بادره فليبهق في ثوبه وليقل به هكذا وذلك بعضه ببعض » .

( مسألة ) لوقوف المقتدى : سنة وفرض ، أما السنة : فإن يقف الواحد عن يمين الإمام متأخرا عنه قليلا ،

#### الباب السادس

(١) « صلى في نعليه ثم نزع فزنع الناس نعالهم ... » أخرجه أحمد واللفظ لابن ماجه وأبو داود والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد .

(٢) حديث عبد الله بن السائب في « خلع النبي صلى الله عليه وسلم نعليه » أخرجه مسلم .

(٣) حديث أبي هريرة « إذا صلى أحدكم فليجعل نعليه بين رجليه » أخرجه أبو داود بسند صحيح وضعفه المنذري وليس بجيد .

(٤) « وضعه نعليه على يساره » أخرجه مسلم من حديث عبد الله بن السائب .

(٥) « رأى في القبلة نخامة ففضب ... » أخرجه مسلم من حديث جابر واتفقا عليه مختصرا من حديث أنس وعائشة وأبي سعيد وأبي هريرة وابن عمر .

والمرأة الواحدة تقف خلف الإمام ، فإن وقفت بجانب الإمام لم يضرب ذلك ولكن خالفته السنة . فإن كان معها رجل وقف الرجل عن يمين الإمام وهي خلف الرجل . ولا يقف أحد خلف الصف منفرداً بل يدخل في الصف أو يخرج إلى نفسه واحداً من الصف . فإن وقف منفرداً صحته صلاته مع الكراهية . وأما الفرض : فاتصال الصف وهو أن يكون بين المتقدم والإمام رابطة جامعة فأنهما في جماعة فإن كانا في مسجد كفي ذلك جامعاً لأنه بئى له فلا يحتاج إلى اتصال صف بل إلى أن يعرف أفعال الإمام ، صلى أبو هريرة رضى الله عنه على ظهر المسجد بصلاة الإمام . وإذا كان المأموم على فناء المسجد في طريق أو صحراء مشتركة وليس بينهما اختلاف بناء مفرق فيمكن في القرب بقدر غلوة سهم وكفى بها رابطة إذ يصل فعل أحدهما إلى الآخر . وإنما يشترط إذا وقف في محن دار على يمين المسجد أو يساره وبابها لاطىء في المسجد فالشرط أن يعد صف المسجد في دهليزها من غير انقطاع إلى الصحن . ثم تصح صلاة من في ذلك الصف ومن خلفه دون من تقدم عليه وهكذا حكم الأبنية المختلفة ، فأما البناء الواحد والعروة الواحدة فكذلك الصحراء .

( مسألة ) المسبوق إذا أدرك آخر صلاة الإمام فهو أول صلاته فليوافق الإمام ولين عليه وليقنت في الصبح في آخر صلاة نفسه . وإن قنت مع الإمام وإن أدرك مع الإمام بعض القيام فلا يشتغل بالدعاء وليبدأ بالفاتحة وليخففها . فإن ركع الإمام قبل تمامها وقدر على لحوقه قبل اعتداله من الركوع فليتم . فإن عجز وافق الإمام وركع وكان لبعض الفاتحة حكم جميعها فتسقط عنه بالسبق . وإن ركع الإمام وهو في السجدة فليقطعها . وإن أدرك الإمام في السجود أو التشهد كبر للإحرام ثم جلس ولم يكبر بخلاف ما إذا أدركه في الركوع فإنه يكبر ثانياً في الهوى لأن ذلك انتقال محسوب له . والتكثيرات للاتصالات الأصلية في الصلاة لا للمواضع بسبب القدوة . ولا يكون مدركاً للركعة ما لم يعلمن راكمها في الركوع والإمام بعد في حد الراكعين . فإن لم يتم طمأنينته إلا بعد مجاوزة الإمام حد الراكعين فاتته تلك الركعة .

( مسألة ) من فاتته صلاة الظهر إلى وقت العصر فليصل الظهر أولاً ثم العصر ، فإن ابتدأ بالعصر أجزأه ولكن ترك الأول واقتصر بشبه الخلاف ، فإن وجد إماماً فليصل العصر ثم ليصل الظهر بعده فإن الجماعة أولى بالأداء . فإن صلى منفرداً في أول الوقت ثم أدرك جماعة صلى في الجماعة ونوى صلاة الوقت والله يحسب أيهما شاء . فإن نوى فاتته أو قطعاً جاز . وإن كان قد صلى في الجماعة فأدرك جماعة أخرى فليكن الفاتحة أو التافلة فإعادة المؤداة بالجماعة مرة أخرى لا وجه له وإنما احتمل ذلك لدرك فضيلة الجماعة .

( مسألة ) من صلى ثم رأى على ثوبه نجاسة فالأحب قضاء الصلاة ولا يلزمه . ولو رأى النجاسة في أثناء الصلاة رى بالثوب وأتم والأحب الاستئذان ، وأصل هذا قصة خلع الثمنين حين أخبر جبرائيل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن عليهما نجاسة فإنه صلى الله عليه وسلم لم يستأنف الصلاة .

( مسألة ) من ترك التشهد الأول أو الثنوت أو ترك الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم في التشهد الأول أو فعل فعلاً سهواً وكانت تبطل الصلاة بتعمده أو شك فلا يدر أصل ثلاثاً أو أربعاً : أخذ باليقين وسجد تسجد في السهو قبل السلام . فإن نسي فبعد السلام مبهاً تذكر على القرب . فإن سجد بعد السلام وبعد أن أحدث فإنه لما دخل في السجود كأنه جعل سلامه نسياناً في غير محله فلا يحصل التحلل به ، وعاد إلى الصلاة فلذلك يستأنف السلام بعد السجود . فإن تذكر سجود السهو بعد خروجه من المسجد أو بعد طول الفضل فقد فات .

( مسألة ) الوسوسة في نية الصلاة سبهاً خبيل في العقل أو جهل بالشرع ، لأن امتثال أمر الله عز وجل مثل

امثال أمر غيره وتعظيمه كعظيم غيره في حق القصد ومن دخل عليه عالم فقام له فلو قال: نويت أن أتصعب قائما تعظيما لدخول زيد الفاضل لأجل فضله مقبلا عليه بوجهي؛ كان سفيها في عقله بل كما يراه ويعلم فضله تبيعت داعية التعظيم فتقسيمه ويكون مضللا إلا إذا قام لشغل آخر أو في غفلة.

واشترط كون الصلاة ظهرا أداء فرضا في كونه امثالاً كاشتراط كون القيام مقرونا بالدخول مع الإقبال بالوجه على الداخل وانقضاء باعث آخر سواء. وقصد التعظيم به ليكون تعظيما. فإنه لو قام مدبرا عنه أو صبر فقام بعد ذلك بمدة لم يكن تعظيما. ثم هذه الصفات لا بد وأن تكون معلومة وأن تكون مقصودة ثم لا يطول حضورها في النفس في لحظة واحدة وإنما يطول نظم الألفاظ الدالة عليها إما تلفظا باللسان وإما تفكرا بالقلب. فمن لم يفهم نية الصلاة على هذا الوجه فكأنه لم يفهم النية. فليس فيه إلا أنك دعيت إلى أن تصلي في وقت فأجبت وقمت فالوسوسة محض الجهل. فإن هذه القصور وهذه العلوم تجتمع في النفس في حالة واحدة ولا تكون مفصلة الأحادي في الذهن بحيث تطالعها النفس وتأملها. وفرق بين حضور الشيء في النفس وبين تفصيله بالفكر. والحضور مصاد للعزوب والغفلة، وإن لم يكن مفصلا. فإن من علم الحادث مثلا فيقبله بعلم واحد في حالة واحدة وهذا العلم يتضمن علوما هي حاضرة وإن لم تكن مفصلة فإن من علم الحادث فقد علم الموجود والمعلوم والتقدم والتأخر والزمان، وأن التقدم للعدم وأن التأخر للوجود؛ فهذه العلوم متداوية تحت العلم بالحادث، بدليل أن العالم بالحادث إذا لم يعلم غيره لو قيل له هل علت التقدم فقط أم التأخر أو العدم أو تقدم العدم أو تأخر الوجود أو الزمان المنقسم إلى المتقدم والمتأخر؟ فقال ما عرفته قط كان كاذبا وكان قوله مناقضا لقوله: إنني أعلم الحادث.

ومن الجهل بهذه الدقيقة يشور الوسواس فإن الوسوس يكلف نفسه أن يحضر في قلبه الظهيرة والأدائية والفرضية في حالة واحدة مفصلة بألفاظها وهو يطالعها وذلك محال. ولو كلف نفسه ذلك في القيام لأجل العالم التمدد عليه فهذه المعرفة يتدفع الوسواس وهو أن يعلم أن امثال أمر الله سبحانه في النية كامثال أمر غيره.

ثم أزيد على سبيل التسهيل والترخص وأقول: لو لم يفهم الوسوس النية إلا بأصناف هذه الأمور مفصلة ولم يمثل في نفسه الامثال دفعة واحدة وأحضر جملة ذلك في أثناء التكبير من أوله إلى آخره بحيث لا يفرغ من التكبير إلا وقد حصلت إليه كفاؤه ذلك. ولا نكلفه أن يقرن الجميع بأول التكبير أو آخره فإن ذلك تكليف شغل. ولو كان مأمورا به لوقع للأولين سؤال عنه ولوسوس واحد من الصحابة في النية، فقدم وقوع ذلك دليل على أن الأمر على التساهل، فكيفما تسرت النية للوسوس ينبغي أن يقع به حتى يعود ذلك وتغافره الوسوسة، ولا يطالب نفسه بتحقيق ذلك فإن التحقيق يزيد في الوسوسة. وقد ذكرنا في الفتاوى وجوها من التحقيق في تحقيق العلوم. والقصور المتعلقة بالنية تقتدر العلماء إلى معرفتها أما العامة فربما ضلوا سماعها وبهيج عليها الوسواس فلذلك تركناها.

(مسألة) ينبغي أن لا يتقدم المأموم على الإمام في الركوع والسجود والرفع منهما ولا في سائر الأعمال ولا ينبغي أن يساويه بل يتبعه ويقفوا أثره فهذا معنى الاقتداء، فإن سواء عددا لم تبطل صلاته كما لو وقف بمجنبه غير متأخر عنه. فإن تقدم عليه في بطلان صلاته خلاف، ولا يهد أن يقضى بالبطلان تشديدا بما لو تقدم في الموقف على الإمام؛ بل هذا أولى لأن الجماعة اقتداء في الفعل لا في الموقف فالنوعية في الفعل أهم. وإنما شرط ترك التقدم في الموقف تسجيلا للمتابعة في الفعل وتحصيلا لصورة التبعية إذ اللائق بالمتدبر أن يتقدم فالتقدم عليه في الفعل لا وجه له إلا أن يكون سهوا. ولذلك شدد رسول الله صلى الله عليه وسلم التكبير فيه فقال: أما يخشى

الذي يرفع رأسه قبل الإمام أن يحول الله رأسه رأس حمار<sup>(١)</sup>» وأما التأخر عنه بركن واحد فلا يبطل الصلاة، وذلك بأن يعتدل الإمام عن ركوعه وهو بعد لم يركع ولكن التأخر إلى هذا الحد مكروه فإن وضع الإمام جبهته على الأرض وهو بعد لم ينته إلى حد الزا كعين بطلت صلاته . وكذا إن وضع الإمام جبهته للسجود الثاني وهو بعد لم يسجد السجود الأول .

(مسألة) حق على من حضر الصلاة إذا رأى من غيره إساءة في صلاته أن يغيره وينكر عليه . وإن صدر من جاهل رفق بالجاهل وعليه . فن ذلك الأمر بتسوية الصفوف ومنع المنفرد بالوقوف خارج الصف ، والإنكار على من يرفع رأسه قبل الإمام إلى غير ذلك من الأمور . فقد قال صلى الله عليه وسلم «ويل للعالم من الجاهل حيث لا يعلمه<sup>(٢)</sup>» وقال ابن مسعود رضي الله عنه : من رأى من يسئ صلاته فلم يبه فهو شريك في وزرها . وعن بلال ابن سعد أنه قال : الخطيئة إذا أخفيت لم تضر إلا صاحبها فإذا أظهرت فلم تغفر أضررت بالامة . وجاء في الحديث «أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرة<sup>(٣)</sup>» وعن عمر رضي الله عنه قال : تفقدوا إخوانكم في الصلاة فإذا قد تموم فإن كانوا مرضى فعودهم وإن كانوا أصحاء فمأنيهم . والعاب إنكار على من ترك الجماعة ولا ينبغي أن يتساهل فيه . وقد كان الأولون يبالغون فيه حتى كان بعضهم يحمل الجنائز إلى بعض من تغلف عن الجماعة إشارة إلى أن الميت هو الذي يتأخر عن الجماعة دون الحي . ومن دخل المسجد ينبغي أن يقصد بين الصف : ولذلك تراحم الناس عليه في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قيل له : تمطلت الميسرة فقال صلى الله عليه وسلم «من عمر ميسرة المسجد كان له كفلان من الأجر<sup>(٤)</sup>» ومبما وجد غلاما في الصف ولم يجد نفسه مكانا فله أن يخرجها إلى خلف ويدخل فيه . أعي إذا لم يكن بالغاً - وهذا ما أردنا أن نذكره من المسائل التي تم بها البلوى . وسيأتى أحكام الصلوات المتفرقة في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

### الباب السابع : في النوافل من الصلوات

اعلم أن أعداد الفرائض من الصلوات ينقسم إلى ثلاثة أقسام : سنن ومستحبات وتطوعات . ونعني بالسنن ما نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم المراقبة عليه كالرواتب عقيب الصلوات وصلاة الضحى والوتر والتهجد وغيرها ، لأن السنة عبارة عن الطريق المسلوكة . ونعني بالمستحبات ماورد الخبر بفضله ولم ينقل المواظبة عليه - كما سنقله في صلوات الأيام والليالي في الأسبوع - وكالصلاة عند الخروج من المنزل والدخول فيه وأمثاله . ونعني بالتطوعات ماورد ذلك مما لم يرد في عينه أثر ولكنه تطوع به العبد من حيث رغب في مناجاة الله عز وجل بالصلوة التي ورد الشرع بفضله مطلقا ، فكأنه متبرع به إذا لم يتدب إلى تلك الصلاة بعينها وإن ندب إلى الصلاة مطلقا ، والتطوع عبارة عن التبرع . وسميت الأقسام الثلاثة نوافل من حيث إن النفل هو الزيادة وجملة زائدة على الفرائض . فلفظ : الثالثة والسنة والمستحب والتطوع : أردنا الاصطلاح عليه لتعريف هذه المقاصد . ولا حرج على من يغير هذا الاصطلاح فلا مشاحة في الألفاظ بعد فهم المقاصد . وكل قسم من هذه الأقسام تتفاوت درجاته في

(١) «أما غشي الذي يرفع رأسه قبل الإمام» متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) «ويل للعالم من الجاهل ...» أخرجه صاحب مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف .

(٣) «أن بلالا كان يسوى الصفوف ويضرب عراقيهم بالدرة» لم أجده .

(٤) «قبل له قد تمطلت الميسرة فقال من عمر ميسرة المسجد ...» أخرجه ابن ماجه من حديث عمر بسند ضعيف .



الفضل بحسب ماورد فيها من الأخبار والآثار المعرفة لفضلها وبحسب طول مواظبة رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها وبحسب صحة الأخبار الواردة فيها واشتهارها ، ولذلك يقال سنن الجماعات أفضل من سنن الانفراد . وأفضل سنن الجماعات : صلاة العيد ثم الكسوف ثم الاستسقاء . وأفضل سنن الانفراد : الوتر ثم ركعة الفجر ثم ما بعدها من الرواتب على تفاوتها . واعلم أن التوافل باعتبار الإضافة إلى معلقاتها تنقسم إلى ما يتعلق بأسباب الكسوف والاستسقاء وإلى ما يتعلق بأوقات ، والمتعلق بالأوقات ينقسم إلى ما يتكرر بشكر اليوم والليلة أو بشكر الأربعة أو بشكر السنة فاجملة أربعة أقسام .

### القسم الأول : ما يتكرر بتكرار الايام والليالي وهي ثمانية

خمس هي راتبة الصلوات الخمس، وثلاثة وراهها وهي صلاة الضحى وإحياء ما بين العشاءين والتهجيد

(الأولى) راتبة الصبح وهي ركعتان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها»<sup>(١)</sup> ويدخل وقتها بطول الفجر الصادق وهو المستطير دون المستطيل . وإدراك ذلك بالمشاهدة عسير في أوله إلا أن يعلم منازل القمر أو يعلم اقتران طلوعه بالكواكب الظاهرة البصر . فيستدل بالكواكب عليه . ويعرف بالقمر في ليلتين من الشهر فإن القمر يطلع مع الفجر ليلة ست وعشرين ، ويطلع الصبح مع غروب القمر ليلة اثني عشر من الشهر هذا هو الغالب ، ويتطرق إليه تفاوت في بعض البروج وشرح ذلك يطول . وتعلم منازل القمر من المهمات للربيد حتى يطلع به على مقادير الأوقات بالليل وعلى الصبح ، وبفوت وقت ركعتي الفجر بفوت وقت فريضة الصبح وهو طلوع الشمس ، ولكن السنة أذاهما قبل الفرض . فإن دخل المسجد وقد قامت الصلاة فليشتغل بالمسكوبة فإنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة»<sup>(٢)</sup> ثم إذا فرغ من المكتوبة قام إليهما وصلهما والصحيح أنهما أداء ما وقتا قبل طلوع الشمس لأنهما تابعتان للفرض في وقته ولأنهما الترتيب بينهما سنة في التقديم والتأخير إذا لم يصادف جماعة . فإذا صادف جماعة انقلب الترتيب وبقينا أداء . والمستحب أن يصلهما في المنزل ويخففهما ، ثم يدخل المسجد ويصلي ركعتين تحية المسجد ، ثم يجلس ولا يصلي إلى أن يصلي المكتوبة . وفيما بين الصبح إلى طلوع الشمس الأخب فيه الذكر والفكر والاقتصار على ركعتي الفجر والفريضة .

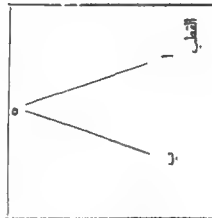
(الثانية) راتبة الظهر وهي ست ركعات : ركعتان بعدها وهي أيضاً سنة مؤكدة ، وأربع قبلها وهي أيضاً سنة وإن كانت دون الركعتين الأخيرتين . روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن وركوعهن وسجودهن صلى معه سبعون ألف ملك يستغفرون له حتى الليل»<sup>(٣)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم لا يبدع أربعاً بعد الزوال بطلين ويقول إن أبواب السماء تفتح في هذه الساعة فأحب أن يرفع لي فيها عمل<sup>(٤)</sup> » رواه أبو أيوب الأنصاري وتقدم به ، ودل عليه أيضاً ما روى أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «من صلى في كل يوم اثنتي عشرة ركعة غير المكتوبة بنى له بيت في الجنة

### الباب السابع

- (١) «ركعتا الفجر خير من الدنيا...» أخرجه مسلم من حديث عائشة .
- (٢) «إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة» أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .
- (٣) حديث أبي هريرة «من صلى أربع ركعات بعد زوال الشمس يحسن قراءتهن...» ذكره عبد الملك بن حبيب بلافا من حديث ابن مسعود لم أره من حديث أبي هريرة .
- (٤) حديث أبي أيوب «كان لا يبع أربعاً بعد الزوال...» أخرجه أحمد بسند ضعيف نحوه وهو عند أبي داود وابن ماجه مختصراً وروى الترمذي نحوه من حديث عبد الله بن السائب وقال حسن .

ركعتين قبل الفجر وأربعاً قبل الظهر وركعتين بعدها وركعتين قبل العصر وركعتين بعد المغرب<sup>(١)</sup> وقال ابن عمر رضي الله عنهما : حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات<sup>(٢)</sup> فذكر ما ذكرته أم حبيبة رضي الله عنها إلا ركعتي الفجر فإنه قال : تلك ساعة لم يكن يدخل فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن حدثني أختي حفصة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي ركعتين في بيتها ثم يخرج<sup>(٣)</sup>. وقال في حديثه : ركعتين قبل الظهر وركعتين بعد العشاء فصارت الركعتان قبل الظهر آكد من جملة الأربعة . ويدخل وقت ذلك بالزوال . والزوال يعرف بزيادة ظل الأشخاص المنتصبه مائلة إلى جهة الشرق ؛ إذ يقع للشخص ظل عند الطلوع في جانب المغرب يستطيل فلا تزال الشمس ترتفع والظل ينقص وينحرف عن جهة المغرب إلى أن تبلغ الشمس منتهى ارتفاعها وهو قوس نصف النهار فيكون ذلك منتهى نقصان الظل . فإذا زالت الشمس عن منتهى الارتفاع أخذ الظل في الزيادة فن حيث صارت الزيادة مدركة بالحس دخل وقت الظهر . ويعلم قطعاً أن الزوال في علم الله سبحانه وقع قبله ولكن التكاليف لا تربط إلا بما يدخل تحت الحس . والقدر الباقي من الظل الذي منه يأخذ في الزيادة يطول في الشتاء وينقص في الصيف ، ومنتهى طوله بلوغ الشمس أول الجدي ، ومنتهى قصره بلوغه أول السرطان . ويعرف ذلك بالأقدام والموازين . ومن الطرق القريبة من التحقيق لمن أحسن مراعاته أن يلاحظ القطب الشمالي بالليل ويضع على الأرض لوحاً مربعاً وضعا مستويا بحيث يكون أحد أضلاعه من جانب القطب ، بحيث لو توهمت سقوط حجر من القطب إلى الأرض ثم توهمت خطاً من مسقط الحجر إلى الضلع الذي يليه من اللوح لقام الخط على الضلع على زاويتين قائمتين أي لا يكون الخط مائلاً إلى أحد الضلعين . ثم تنصب عموداً على اللوح نصباً مستوياً في موضع علامة هـ وهو بإزاء القطب فيقع ظله على اللوح في أول النهار مائلاً إلى جهة المغرب في صوب خط أ ثم لا يزال يميل إلى أن ينطلق على خط ب ، بحيث لو مد رأسه لانتصب على الاستقامة إلى مسقط الحجر ، ويكون موازاً للضلع الشرق والغربي غير مائل إلى أحدهما ، فإذا ظل موله إلى الجانب الغربي فالشمس في منتهى الارتفاع ، فإذا انحرف الظل عن الخط الذي على اللوح إلى جانب الشرق فقد زالت الشمس . وهذا يدرك بالحس تحقيقاً في وقت هو قريب من أول الزوال في علم الله تعالى ، ثم يعلم على رأس الظل عند انحرافه علامة ، فإذا صار الظل من تلك العلامة مثل العمود دخل وقت العصر فهذا القدر لا بأس بمعرفته في علم الزوال وهذه صورته .

جانب الشرق



جانب الغرب

(الثالثة) رتبة العصر وهي أربع ركعات قبل العصر . روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « رحم الله عبداً صلى قبل العصر أربعاً<sup>(٤)</sup> » ففعل ذلك على رجاء الدخول في دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستجاباً استجابة مؤكدة فإن دعوته تستجاب لا محالة ولم تكن مواظبته على السنة قبل العصر كرواظبته على ركعتين قبل الظهر .

(الرابعة) رتبة المغرب وهما ركعتان بعد الفريضة

(١) حديث أم حبيبة « من صلى اثنتي عشر ركعة ... » أخرجه النسائي والحاكم وصححه إسناده على شرط مسلم ورواه مسلم مختصراً ليس فيه تعين أوقات الركعات .

(٢) حديث ابن عمر « حفظت من النبي صلى الله عليه وسلم في كل يوم عشر ركعات ... » متفق عليه واللفظ للبخاري ولم يقل في كل يوم (٣) حديث أبي هريرة « رحم الله عبداً صلى أربعاً قبل العصر » أخرجه أبو داود والترمذي وابن حبان من حديث ابن عمر وأعله ابن القطان ولم أره من حديث أبي هريرة .

تختلف الرواية فهما ، وأما ركعتان قبلها بين أذان المؤذن وإقامته على سبيل المبادرة فقد نقل عن جماعة من الصحابة كابن كعب وعبادة بن الصامت وأبي ذر وزيد بن ثابت وغيرهم قال عبادة أو غيره : كان المؤذن إذا أذن لصلاة المغرب ابتدأ أصحاب رسول الله ﷺ السواوي يصلون ركعتين (١) . وقال بعضهم : كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا (٢) . فيسأل : أصليتم المغرب ؟ وذلك يدخل في عموم قول النبي ﷺ « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » (٣) وكان أحمد بن حنبل يصلهما تخايه الناس فتركهما ، فقيل له في ذلك فقال : لم أر الناس يصلونهما ، فتركهما وقال : لئن صلاهما الرجل في بيته أو حيث لا يراه الناس فحسن . ويدخل وقت المغرب بشيوبة الشمس عن الأنظار في الأراضي المستوية التي ليست محفوفة بالجبال فإن كانت محفوفة بها في جهة المغرب فيتوقف إلى أن يرى إقبال السواد من جانب المشرق ، قال رسول الله ﷺ : « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » (٤) . والأحب المبادرة في صلاة المغرب خاصة ، وإن أخرجت وصليت قبل غيبوبة الشفق الأحمر وقمت أداء ، ولكنه مكره . وآخر عمر رضى الله عنه صلاة المغرب ليلة حتى طلع نجم فأثقت رقبة وأخبرها ابن عمر حتى طلع كوكبان فأثقت رقتين . (الخامسة) واثبة المشاء الآخرة أربع ركعات بعد الفريضة . قالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ يصلي بعد المشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » (٥) . واختار بعض العلماء من مجموع الأخبار أن يكون عدد الروايات سبع عشرة كعدد المكتوبة : ركعتان قبل الصبح ، وأربع قبل الظهر وركعتان بعدها وأربع قبل العصر وركعتان بعد المغرب وثلاث بعد المشاء الآخرة وهي الوتر (٦) ومهما عرفت الأحاديث الواردة فيه فلا معنى للتقدير ، فقد قال رسول الله ﷺ : « الصلاة خير موضع لمن شاء أكثر ومن شاء أقل » (٧) فإذا اختار كل مريد من هذه الصلاة بقدر رغبته في التحير فقد ظهر فيها ذكرناه أن بعضها أكد من بعض ، وترك الأكيد أبعد لاسمياً والفرائض تكل بالثوفاً فمن لم يستكثر منها يوشك أن لا تسلم له فريضة من غير جابر . (السادسة) : الوتر : قال أنس بن مالك : « كان رسول الله ﷺ يوتر بعد المشاء بثلاث ركعات ، يقرأ في الأولى سبع اسم ربك الأعلى وفي الثانية قل يا أيها الكافرون وفي الثالثة قل هو الله أحد (٨) » وجاء في الخبر : « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً وفي بعضها متربعا » (٩) . وفي بعض الأخبار : « إذا أراد أن يدخل في فراشه زحف إليه وصلى فوقه ركعتين قبل أن يرقد فهما إذا زالت الأرض وسورة التكاثر » (١٠) وفي رواية أخرى « قل يا أيها الكافرون » ويجوز الوتر موصولاً ومفصلاً ، بتسليمة

(١) قول عبادة أو غيره « في ابتداء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم السواوي إذا أذن لصلاة المغرب » متفق عليه من حديث أنس لامن حديث عبادة ، وروى عبد الله بن أحمد في زيادات المسند « أن أبي بن كعب وعبد الرحمن بن عوف كانا يركعان حين تغرب الشمس ركعتين قبل المغرب » . (٢) « كنا نصلي الركعتين قبل المغرب حتى يدخل الداخل فيحسب أنا صلينا » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٣) « بين كل أذانين صلاة لمن شاء » متفق عليه من حديث عبد الله بن مغفل . (٤) « إذا قبل الليل من ههنا . . . » متفق عليه من حديث عمر . (٥) قول عائشة « كان يصلي بعد المشاء الآخرة أربع ركعات ثم ينام » أخرجه أبو داود . (٦) « الوتر بثلاث بعد المشاء » أخرجه أحمد . واللفظ له وللنساء من حديث عائشة يوتر بثلاث لا يفصل بينهما » . (٧) « الصلاة خير موضع » أخرجه أحمد وابن جبان والحاكم وصححه من كلام أبي ذر . (٨) قول أنس « كان يوتر بعد المشاء بثلاث ركعات يقرأ في الأولى سبع . . . » أخرجه ابن عدي في ترجمة محمد بن أبان ورواه الترمذي والنسائي وابن ماجه من كلام ابن عباس بسند صحيح . (٩) « كان يصلي بعد الوتر ركعتين جالساً » أخرجه مسلم من كلام عائشة .

(١٠) « إذا أراد أن يدخل فراشه زحف إليه ثم صلى ركعتين . . . » أخرجه البيهقي من كلام أبي أمامه وأنس نحوه وضعفه وليس فيه « زحف إليه » ولا ذكر « الجاهك التكاثر » .

واحدة وتسليمتين . وقد أوتر رسول الله ﷺ بركعة (١) وثلاث (٢) وخمس (٣) وهكذا بالأوتار (٤) إلى إحدى عشرة ركعة (٥) والرواية مترددة في ثلاث عشرة (٦) وفي حديث شاذ «سبع عشرة ركعة» (٧) وكانت هذه الركعات - أعني ما سمينا - جعلتها ونرا صلاة بالليل وهو التهجّد والتجبد بالليل سنة مؤكدة - وسيأتي ذكر فضلها في كتاب الأوراد - وفي الأفضل خلاف فقيل إن الإيتار بركعة فردة أفضل لإدّصح أنه ﷺ كان يواطع على الإيتار بركعة فردة وقيل الموصولة أفضل للخروج عن شبه الخلاف لاسيما الإمام إذ قد يقتدى به من لا يرى الركعة الفردة صلاة بأن صلى موصولا نوى بالجميع الوتر وإن أقصر على ركعة واحدة بعد ركعتي العشاء أو بعد فرض العشاء . نوى الوتر وصح . لأن شرط الوتر أن يكون في نفسه وترّا وأن يكون موترّا لغيره مما سبق قبله وقد أوتر الفرض ولو أوتر قبل العشاء لم يصح ، أي لا يتال فضيلة الوتر الذي هو خير له من حجر النعم (٨) كما ورد به الخبر . وإلا فركعة فركعة صحيحة في أي وقت كان وإنما لم يصح قبل العشاء لأنه خرق إجماع الخلق في الفعل ولأنه لم يتقدم ما يصير به وترّا . فأما إذا أراد أن يوتر بثلاث مفصولة ففي نيته في الركعتين نظر . فإنه إن نوى بهما التهجّد أو سنة العشاء لم يكن هو من الوتر . وإن نوى الوتر لم يكن هو في نفسه وترّا ، وإنما الوتر ما بعده . ولكن الأظهر أن ينوي الوتر كما ينوي في الثلاث الموصولة الوتر . ولكن للوتر معنيان ، أحدهما : أن يكون في نفسه وترّا ، والآخر أن ينشأ ليجعله وترّا بما بعده فيكون مجموع الثلاثة وترّا ، والركعتان من جملة الثلاث إلا لأن وتريته موقوفة على الركعة الثالثة . وإذا كان هو على عزم أن يوترهما بثالثة كان له أن ينوي بهما الوتر . والركعة الثالثة وتر بنفسها وموترة لغيرها . والركعتان لا يوتران غيرهما وليستا وترّا بأنفسهما ولكنهما موترتان بغيرهما . والوتر ينبغي أن يكون آخر صلاة الليل فيقع بعد التهجّد . وسيأتي فضائل الوتر والتجبد وكيفية الترتيب بينهما في كتاب ترتيب الأوراد . ( السابعة ) صلاة الضحى : فالواظبة عليها من عزائم الأفعال وفواضلها ، أما عدد ركعاتها فأكثر ما نقل فيه ثمان ركعات . روت أم هانئ أنها أتت على بن أبي طالب رضي الله عنهما « أنه ﷺ صلى الضحى ثمان ركعات أطاها وأحسنهن » (٩) ولم ينقل هذا القدر غيرها . أما عائشة رضي الله عنها فذكرت « أنه ﷺ كان يصلي الضحى أربعا ويزيد ما شاء الله سبحانه » (١٠) . فلم تحدد الزيادة أي أنه كان يواطع على الأربعة ولا ينقص منها وقد يزيد زبادات . وروى في حديث مفرد « أن النبي ﷺ كان يصلي الضحى ست ركعات » (١١) وأما وقتها فقد روى

(١) « الوتر بركعة » متفق عليه من حديث ابن عمر وهو لمسلم من حديث عائشة . (٢) « الوتر بثلاث » تقدم .

(٣) « الوتر بخمس » من حديث عائشة « يوتر من ذلك بخمس ولا يجلس في شيء إلا في آخرها » .

(٤) « الوتر بسبع » أخرجه مسلم وأبو داود والنسائي واللفظ له من حديث عائشة « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كبر وصنف أوتر سبع ركعات لا يقعد إلا في السادسة ثم ينهض ولا يسلم فيسلي السابعة » حديث « الوتر تسع » أخرجه مسلم من حديث عائشة وهو في الذي قبله . (٥) « الوتر بإحدى عشرة » أخرجه أبو داود بإسناد صحيح من حديث عائشة « كان يوتر بأربع وثلاث ، وست وثلاث ، وثمان وثلاث ، وثلاث . . . » وسلم من حديثها « كان يصلي بالليل إحدى عشرة ركعة . . . » . (٦) « الوتر بثلاث عشرة » تقدم في الذي قبله . وللتزمذي والنسائي من حديث أم سلمة « كان يوتر بثلاث عشرة » وقال الترمذي حسن ، ولمسلم من حديث عائشة « كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة » زاد في رواية « بركعتي التجبر » . (٧) « الوتر سبع عشرة » أخرجه ابن المبارك من حديث طاووس مرسلا « كان يصلي سبع عشرة ركعة من الليل » . (٨) « الوتر خير من حجر النعم » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث خارجة بن جذافة « إن الله أمدكم بصلاة هي خير لكم من حجر النعم » وصنفه البخاري وغيره .

(٩) « قول أم هانئ » صلى الضحى ثمان ركعات أطاها وأحسنهن » متفق عليه دون زيادة « أطاها وأحسنهن » وهي منكردة . (١٠) قول عائشة « كان يصلي الضحى أربعة ويزيد ما شاء الله » أخرجه مسلم .

(١١) « كان يصلي الضحى ست ركعات » أخرجه الحاكم في فضل صلاة الضحى من حديث جابر ورجاله ثقات .

على رضى الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم كان يصل الضحى ستاً في وقتين ، إذا أشرقت الشمس وارتفعت قام وصلى ركعتين - وهو أول الورد الثاني من أوراد النهار كما سيأتى - وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربيع السماء من جانب الشرق صلى أربعاً (١) » فالأول إنما يكون إذا ارتفعت الشمس قيد نصف رمح والثاني إذا مضى من النهار ربه، بإزاء صلاة العصر فإن وقتاً أن يبقى من النهار ربه ، والظهر على منتصف النهار ، ويكون الضحى على منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ، كما أن العصر على منتصف ما بين الزوال إلى الغروب . وهذا أفضل الأوقات . ومن وقت ارتفاع الشمس إلى ما قبل الزوال وقت للضحى على الجملة . (الثامنة) لإحياء ما بين العشاءين وهي ستة مؤكدة وما نقل عدده من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بين العشاءين ست ركعات (٢) ولهذا الصلاة فضل عظيم . وقبل إنها المراد بقوله عز وجل (تتجافى عنهم عن المضاجع) وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى بين المغرب والعشاء فأبنا من صلاة الأوابين (٣) » وقال صلى الله عليه « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو بقرآن كان حقاً على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر منهما مائة عام ويغفر له بينهما غراسا لو طافه أهل الأرض لوسمهم (٤) » وسيأتى بقية فضلها في كتاب الأوراد إن شاء الله تعالى .

### القسم الثاني ما يتكرر بشكر الأسابيع

وهي صلوات أيام الأسبوع ولياليه لكل يوم ولكل ليلة

أما الأيام فتبدأ فيها بيوم الأحد . يوم الأحد : روى أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الأحد أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب وآمن الرسول مرة كتب الله له بعد كل نصراني ونصرانية حسنة وأعطاه الله ثواب نبي وكتب له حجة وعمره وكتب له بكل ركعة ألف صلاة وأعطاها الله في الجنة بكل حرف مدينة من مسك أذفر (٥) » وروى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد فإنه سبحانه واحد لا شريك له فن صلى يوم الأحد بد صلاة الظهر أربع ركعات بعد الفريضة والسنة يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وتزيل السجدة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وتبارك الملك ثم تشهد وسلم ثم قام فصلى ركعتين أخريين يقرأ فيهما فاتحة الكتاب وسورة الجمعة وسأل الله سبحانه حاجته كان حقاً على الله أن يقضى حاجته (٦) » .

يوم الاثنين : روى جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة مرة فإذا سلم

(١) « كان إذا أشرقت وارتفعت قام وصلى ركعتين وإذا انبسطت الشمس وكانت في ربيع النهار من جانب الشرق صلى أربعاً » أخرجه الترمذى والنسائى من حديث علي بن أبي طالب رضى الله عليه وسلم « إذا زالت الشمس من مطلعها قيد رمح أو رمحين كقدر صلاة العصر من مغربها صلى ركعتين ثم أمهل حتى إذا ارتفع الضحى صلى أربع ركعات » لفظ النسائى وقال الترمذى حسن (٢) « صلى بين العشاءين ست ركعات » أخرجه ابن منده في الضحى والطبرانى في الأوسط والأصغر من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف والترمذى وضعفه من حديث أبي هريرة « من صلى بعد المغرب ست ركعات لم يتكلم فيها يمين بسوء عدل له عبادة ثقي عشرة سنة » (٣) « من صلى بين المغرب والعشاء فأنها من صلاة الأوابين » أخرجه ابن المبارك في الرقائق من رواية ابن المنذر مرسل (٤) « من عكف نفسه بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة » أخرجه أبو الوليد الصغار في - كتاب الصلاة - من طريق عبد الملك بن حبيب بلاغا من حديث عبد الله بن عمر (٥) « من صلى يوم الأحد أربع ركعات ... » أخرجه أبو موسى المدنى من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) حديث علي « وحدوا الله بكثرة الصلاة يوم الأحد ... » ذكره أبو موسى المدنى فيه بتفسير إسناد .

استغفر الله عشر مرات وصلى على النبي ﷺ عشر مرات غفر الله تعالى له ذنوبه كلها (١) « وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال « من صلى يوم الاثنين ثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة فإذا فرغ قرأ قل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة واستغفر اثنتي عشرة مرة يتأدى به يوم القيامة : أين فلان بن فلان ليقيم فليأخذ ثوابه من الله عز وجل ؟ فأول ما يعطى من الثواب ألف حلة ويخرج ويقال له ادخل الجنة فيستقبله مائة ألف ملك مع كل ملك هدية يشيعونه حتى يدور على ألف قصر من نور يتلألأ (٢) » .

يوم الثلاثاء : روى يزيد الرقاشي عن أنس بن مالك قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انقضاء النهار (٣) » وفي حديث آخر « عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات لم تكتب عليه خطيئة إلى سبعين يوماً فإن مات إلى سبعين يوماً مات شهيداً وغفر له ذنوب سبعين سنة » .

يوم الأربعاء : روى أبو إدريس الخولاني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة عند ارتفاع النهار يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات والمؤذنين ثلاث مرات نادى مناد عند العرش : يا عبد الله استأنف العمل فقد غفر لك ما تقدم من ذنبك ، ورفع الله سبحانه عنك عذاب القبر وضيقه وظلمته ، ورفع عنك شدائد القيامة ، ورفع له من يومه عمل نبي (٤) » .

يوم الخميس : عن عكرمة عن ابن عباس قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وآية الكرسي مائة مرة ، وفي الثانية فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد مائة مرة ويصل على محمد مائة مرة أعطاه الله ثواب من صام رجب وشعبان ورمضان وكان له من الثواب مثل حاج البيت وكتب له بعدد كل من آمن بالله سبحانه وتوكل عليه حسنة (٥) » .

يوم الجمعة : روى عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يوم الجمعة صلاة كله ما من عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس وارتفعت قدر رمح أو أكثر من ذلك فتوضأ ثم أسبغ الوضوء ، فصل سبحة الضحى ركعتين إيماناً واحتساباً لا يكتب له مائة حسنة ومائة سيئة ، ومن صلى أربع ركعات رفع الله سبحانه له في الجنة أربع مائة درجة ، ومن صلى ثمان ركعات رفع الله تعالى له في الجنة ثمان مائة درجة وغفر له ذنوبه كلها ومن صلى ثنتي عشرة ركعة كتب الله له ألفين ومائتين حسنة ومائة سيئة ورفع له في الجنة ألفين ومائة درجة (٦) » وعن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال : من دخل الجامع يوم

(١) حديث جابر « من صلى يوم الاثنين عند ارتفاع النهار ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المديني من حديث جابر عن عمر مرفوعاً وهو حديث منكر . (٢) حديث أنس « من صلى يوم الإنسان اثنتي عشرة ركعة ... » ذكره أبو موسى المديني بغير سند وهو منكر (٣) حديث يزيد الرقاشي عن أنس « من صلى يوم الثلاثاء عشر ركعات عند انقضاء النهار ... » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف ولم يقل « عند انقضاء النهار ولا عند ارتفاعه » (٤) حديث أبي إدريس الخولاني عن معاذ « من صلى يوم الأربعاء اثنتي عشرة ركعة ... » أخرجه أبو موسى المديني وقال رواه ثقات والحديث مركب . قلت : بل فيه غير مسمى وهو محمد بن حميد الرازي أحد الكذابين (٥) حديث عكرمة عن ابن عباس « من صلى يوم الخميس بين الظهر والعصر ركعتين ... » أخرجه أبو موسى المديني بسند ضعيف جداً (٦) حديث علي « يوم الجمعة صلاة مائة عبد مؤمن قام إذا استقلت الشمس ... » لم أجد له أصلاً وهو باطل :

الجمعة فصلى أربع ركعات قبل صلاة الجمعة يقرأ في كل ركعة الحمد لله وقل هو الله أحد خمسين مرة لم يأت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له (١) .

يوم السبت : روى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال : « من صلى يوم السبت أربع ركعات يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاث مرات فإذا فرغ قرأ آية الكرسي كتب الله له بكل حرف حجة وعمره ورفعه له بكل حرف أجر سنة صيام نهارها وقيام ليلها وأعطاه الله عز وجل بكل حرف ثواب شهيد وكان تحت عرش الله مع النبيين والشهداء (٢) » .

وأما الليالي فليلة الأحد : روى أنس بن مالك في ليلة الأحد أنه ﷺ قال : « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد خمسين مرة والمعوذتين مرة واستغفر الله عز وجل مائة مرة واستغفر لنفسه ولو ألبه مائة مرة وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة وتبرأ من حوله وقوته والتجأ إلى الله ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن آدم صفة الله وفضلته وإبراهيم خليل الله وموسى كليم الله وعيسى روح الله ومحمدًا حبيب الله كان له من الثواب بعدد من دعا لله ولدا ومن لم يدع لله ولدا وبغشه الله عز وجل يوم القيامة مع الآمنين ، وكان حقاً على الله أن يدخله الجنة مع النبيين (٣) » .

ليلة الاثنين : روى الأعمش عن أنس قال : « قال رسول الله ﷺ : من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات يقرأ في الركعة الأولى الحمد لله وقل هو الله أحد عشر مرات ، وفي الركعة الثانية الحمد لله وقل هو الله أحد عشرين مرة ، وفي الثالثة الحمد لله وقل هو الله أحد ثلاثين مرة ، وفي الرابعة الحمد لله وقل هو الله أحد أربعين مرة ثم يسلم ويقرأ قل هو الله أحد خمسا وسبعين مرة ، واستغفر الله لنفسه ولو ألبه خمسا وسبعين مرة ثم سأل الله حاجته كان حقا على الله أن يعطيه سؤاله ما سأل (٤) » وهي تسمى صلاة الحاجة .

ليلة الثلاثاء : من صلى ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين خمس عشرة مرة ، ويقرأ بعد التسليم آية الكرسي خمس عشرة مرة واستغفر الله تعالى خمس عشرة مرة كان له ثواب عظيم وأجر جسيم . روى عن عمر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من صلى ليلة الثلاثاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة ولنا أنزلناه وقل هو الله أحد سبع مرات احتق الله رقبته من النار ويكون يوم القيامة قائمه ودليله إلى الجنة (٥) » .

ليلة الأربعاء : روت فاطمة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال : « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل أعوذ برب الفلق عشر مرات ، وفي الثانية بعد الفاتحة قل أعوذ برب الناس عشر مرات

(١) حديث نافع عن ابن عمر « من دخل الجامع يوم الجمعة فصلى أربع ركعات ... » أخرجه الهارقي في غرائب مالك وقال لا يصح وعبد الله بن وصيف مجهول والخطيب في الرواة عن مالك وقال غريب جدا ولا أعرف له وجهاً وهذا

(٢) حديث أبي هريرة « من صلى يوم السبت أربع ركعات ... » أخرجه أبو موسى المديني في كتاب وظائف الليالي والآيام بسند ضعيف جداً . (٣) « من صلى ليلة الأحد عشرين ركعة ... » ذكره أبو موسى المديني بغير إسناد وهو منكر وروى أبو موسى من حديث أنس « في فضل الصلاة فيها ست ركعات وأربع ركعات » وكلاهما ضعيف جداً

(٤) « الأعمش عن أنس « من صلى ليلة الاثنين أربع ركعات ... » ذكره أبو موسى المديني هكذا عن الأعمش بغير إسناد وأسند من رواية يزيد الرقاشي عن أنس حديثاً « في صلاة ست ركعات فيها » وهو منكر .

(٥) « الصلاة في ليلة الثلاثاء ركعتين ... » ذكره أبو موسى بغير إسناد حكاية عن بعض الصنفين وأسند من حديث ابن مسعود وجابر حديثاً « في صلاة أربع ركعات فيها » وكلاهما منكرة .

ثم إذا سلم استغفر الله عشر مرات ثم يصلي على محمد صلى الله عليه وسلم عشراً مرات نزل من كل سماء سبعون ألف ملك يكتبون ثوابه إلى يوم القيامة (١) « وفي حديث آخر « ست عشرة ركعة يقرأ بعد الفاتحة ما شاء الله ويقرأ في آخر الركعتين آية الكرسي ثلاثين مرة وفي الأوليين ثلاثين مرة قل نعم الله أحد يشفع في عشرة من أهل بيته كلهم وجبت عليهم النار » روت فاطمة رضي الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من صلى ليلة الأربعاء ست ركعات قرأ في ركعة بعد الفاتحة قل اللهم مالك الملك إلى آخر الآية فإذا فرغ من صلاته يقول حمزى الله محمداً عنا ما هو أهله غفر له ذنوب سبعين سنة وكشف له براءة من النار (٢) » .

ليلة الخميس : قال أبو هريرة رضي الله « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وآية الكرسي خمس مرات وقل هو الله أحد خمس مرات والمعوذتين خمس مرات فإذا فرغ من صلاته استغفر الله تعالى خمس عشر مرة وجعل ثوابه لو ألبه فقد أدى حق والديه عليه وإن كان عاقلاً ، وأعطاه الله تعالى ما يعطي الصديقين والشهداء (٣) » .

ليلة الجمعة : قال جابر « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة فسكناً ما عبد الله تعالى اثنتي عشرة سنة صيام نهارها وقيام ليلاً (١) » وقال أنس « قال النبي صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة الجمعة صلاة العشاء الأخيرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات قرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد والمعوذتين مرة ثم أمّ أوتر ثلاث ركعات ونام على جنبه الأيمن ووجهه إلى القبلة فسكناً ما أحييا ليلة القدر (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثرُوا من الصلاة على في الليلة الغراء واليوم الأزهري ليلة الجمعة ويوم الجمعة (٦) » .

ليلة السبت : قال أنس « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة بنى له قصر في الجنة وكان ما تصدق على كل مؤمن ومؤمنة ، وتبرأ من اليهود ، وكان حقاً على الله أن يغفر له (٧) » .

### القسم الثالث : ما يتكرر بتكرار السنين

وهي أربعة : صلاة العيدين والتراويح وصلاة رجب وشعبان (الأولى) صلاة العيدين : وهي سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين وينبغي أن يراعى فيها سبعة أمور ، الأول : التكبير ثلاثاً تسقاً فيقول « الله أكبر الله أكبر

(١) « من صلى ليلة الأربعاء ركعتين ... » لم أجد فيه إلا حديث جابر « في صلاة أربع ركعات فيها » ورواه أبو موسى اللدني وروى من حديث أنس « ثلاثين ركعة » . (٢) حديث فاطمة « من صلى ست ركعات - أي ليلة المغرب والعشاء ركعتين ... » أخرجه أبو موسى اللدني بسند ضعيف جداً . (٣) حديث أبي هريرة « من صلى ليلة الخميس ما بين المغرب والعشاء ركعتين ... » أخرجه أبو موسى اللدني وأبو منصور اللدني في مسند الفردوس بسند ضعيف جداً وهو منكر . (٤) حديث جابر « من صلى ليلة الجمعة بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة ... » باطل لا أصل له . (٥) حديث أنس « من صلى ليلة الجمعة العشاء الأخيرة في جماعة وصلى ركعتي السنة ثم صلى بعدها عشر ركعات ... » باطل لا أصل له وروى المظفر بن الحسين الأرجاني في كتاب فضائل القرآن وإبراهيم بن المظفر في كتاب وصول القرآن للبيت من حديث أنس « من صلى ركعتين ليلة الجمعة قرأ فيها فاتحة الكتاب وإذا زلزلت خمسة عشر مرة » وقال إبراهيم بن المظفر « خمسين مرة آمنه الله من عذاب القبر ومن أهوال يوم القيامة » ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من هذا الوجه ومن حديث ابن عباس أيضاً وكلها ضعيفة منكورة وليس يصح في أيام الأسبوع ولياليه شيء والله أعلم . (٦) « أكثرُوا على من الصلاة في الليلة الغراء واليوم الأزهري » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة وفيه عبد الله بن بشر ضعيف ابن معين وابن حبان . (٧) حديث أنس « من صلى ليلة السبت بين المغرب والعشاء اثنتي عشرة ركعة ... » لم أجد له أصلاً .



الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً لا إله إلا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » يفتح بالتكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد ، وفي العيد الثاني يفتح التكبير عقيب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر ، وهذا كل الأقاويل . ويكرر عقيب الصلوات المفروضة وعقب النوافل وهو عقيب الفرائض أكد . الثاني : إذا أصبح يوم العيد يغتسل ويترين ويتطيب كما ذكرناه في الجمعة والرداء والعلماء هو الأفضل للرجال ، وليجنب الصبيان الحرب والمعازير التنزين عند الخروج . الثالث : أن يخرج من طريق ويرجع من طريق آخر (١) هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان صلى الله عليه وسلم « يأمر بإخراج العواقي وذوات الحذور (٢) » . الرابع : المستحب الخروج إلى الصحراء لإيمكة وبيت المقدس ، فإن كان يوم مطر فلا بأس بالصلاة في المسجد ، ويجوز في يوم الصحوان يأمر الإمام رجلاً يصل بالضعفة في المسجد ويخرج بالأقوياء مكبرين . الخامس : يراعى الوقت فوق صلاة العيد ما بين طلوع الشمس إلى الزوال ووقت الذبح الضحاً ما بين ارتفاع الشمس بقدر خطبتين وركعتين إلى آخر اليوم الثالث عشر . ويستحب تعجيل صلاة الأضحية لأجل الذبح وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها . هذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . السادس : في كيفية الصلاة فليخرج الناس مكبرين في الطريق . وإذا بلغ الإمام المصل لم يجلس ولم ينفل ويقطع الناس التنفل ، ثم ينادى مناد : الصلاة جامعة . ويصل الإمام بهم ركعتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع سبع تكبيرات يقول بين كل تكبيرتين « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » ويقول « وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض » عقب تكبيرة الافتتاح ويؤخر الاستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ « سورة ق » في الأولى بعد الفاتحة « واقتربت » في الثانية . والتكبيرات الزائدة في الثانية خمس سوى تكبيرتي القيام والركوع . وبين كل تكبيرتين ما ذكرناه . ثم يخطف خطبتين بينهما جلسة ومن فاتته صلاة العيد قضاه . السابع : أن يضحي بكبش « ضحى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكبشين أملحين وذبح بيده وقال : بسم الله والله أكبر هذا ضحى وعن من يضع من أمي (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره ولا من أظفاره شيئاً (٥) » قال أبو أيوب الأنصاري : كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاء عن أهل بيته ويأكلون ويضعون (٦) . وله أن يأكل من الضحية بعد ثلاثة أيام فما فوق ، وردت فيه الرخصة بعد النهي عنه : وقال سفيان الثوري : يستحب أن يصلي بعد عيد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد عيد الأضحية ست ركعات (٧) وقال هو من السنة . ( الثانية ) التراويح : وهي

(١) « الخروج في العيد في طريق والرجوع في أخرى » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(٢) « كان يأمر بإخراج العواقي وذوات الحذور » متفق عليه من حديث أم عطية .

(٣) « تمجيل صلاة الأضحية وتأخير صلاة الفطر » أخرجه الشافعي من رواية أبي الحويرث مرسلاً « أن النبي عليه الصلاة والسلام كتب إلى عمرو بن حزم وهو بنجران أن يحل الأضحية وآخر الفطر » .

(٤) « ضحى بكبشين أملحين وذبح بيده وقال : بسم الله والله أكبر هذا ضحى وعن من يضع من أمي » متفق عليه دون قوله « عنى » الخ من حديث أنس وهذه الزيادة عند أبي داود والترمذي من حديث جابر وقال الترمذي غريب ومتقطع .

(٥) « من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذ من شعره وأظفاره » أخرجه من حديث أم سلمة .

(٦) حديث أبي أيوب « كان الرجل يضحي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاء عن أهله فيأكلون ويضعون » أخرجه الترمذي وابن ماجه قال الترمذي حسن صحيح . (٧) قال سفيان الثوري : من السنة أن يصلي بعد الفطر اثنتي عشرة ركعة وبعد الأضحية ست ركعات . لم أجده أصلاً في كونه سنة وفي الحديث الصحيح ما يخالفه وهو أنه صلى الله عليه وسلم لم يصل قبلها ولا بعدها وقد اختلفوا في قول التابسي كذا ، وأما قول تابي التابع كذلك كالثوري فهو مقطوع .

عشرون ركعة وكيفيتها مشهورة ، وهي سنة مؤكدة وإن كانت دون العدين ، واختلروا في أن الجماعة فيها أفضل أم الانفراد ؟ وقد خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها ليلتين أو ثلاثاً للجماعة ثم لم يخرج ، وقال : « أخاف أن توجب عليكم » (١) . وجع عمر رضي الله عنه الناس عليها في الجماعة حيث أمن من الوجوب بانقطاع الوحي فقيل إن الجماعة أفضل لفعل عمر رضي الله عنه ، ولأن الاجتماع ركعة وله فضيلة بدليل الفرائض ، ولأنه ربما يكسل في الانفراد ، وينقطع عند مشاهدة الجمع . وقيل الانفراد أفضل لأن هذه سنة ليست من الشعائر كالعدين فألحاقها بصلاة الضحى ونحية المسجد أولى ، ولم يشرع فيها جماعة . وقد جرت العادة بأن يدخل المسجد جمع معاً ثم لم يصلوا التحية بالجماعة ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاتها في البيت » (٢) . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « صلاة في مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة في غيره من المساجد ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدى ، وأفضل من ذلك كله رجل يصلي في زاوية بيته ركعتين لا يعلمها إلا الله عز وجل » (٣) وهذا لأن الرياء والتشنع ربما يتطرق إليه في الجمع ويأمن منه في الوحدة ، فهذا ما قيل فيه . واغتثار أن الجماعة أفضل كما رآه عمر رضي الله عنه . فإن بعض الثوالم قد شرعت فيها الجماعة ، وهذا جدير بأن يكون من الشعائر التي تظهر . وأما الالتماس إلى الرياء في الجمع والكسل في الانفراد عدول عن مقصود النظر في فضيلة الجمع من حيث إنه جماعة ، وكان قائله يقول : الصلاة خير من تركها بالكسل والإخلاص خير من الرياء . فلنفترض المسألة فيمن يثق بنفسه أنه لا يكسل لو انفرد ولا يراى لو حضر الجمع فأجما أفضل له ؟ فيدور النظر بين بركة الجمع وبين مزيد قوة الإخلاص وحضور القلب في الوحدة ، فيجوز أن يكون في تفضيل أحدهما على الآخر تردد ، وما يستحب القنوت في الوتر في النصف الآخر من رمضان . أما صلاة رجب : فقد روى بإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ثم يصل فيما بين العشاء والتمتع اثنتي عشرة ركعة بفصل بين كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب مرة وإننا أنزلناه في ليلة القدر ثلاث مرات وقل هو الله أحد اثنتي عشرة مرة ، فإذا فرغ من صلاته صلى على سبعين مرة يقول : اللهم صل على محمد النبي الأمي وعلى آل محمد ثم يسجد ويقول في سجوده سبعين مرة : سبح قوس رب الملائكة والروح ، ثم يرفع رأسه ويقول سبعين مرة : رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم ، ثم يسجد سجدة أخرى ويقول فيها مثل ما قال في السجدة الأولى ثم يسأل حاجته في سجوده فإنها تقضى » (٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصلي أحد هذه الصلاة إلا غفر له

(١) « خروجه لقيام رمضان ليلتين أو ثلاثاً ثم لم يخرج وقال أخاف أن توجب عليكم » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « خشيت أن تفرض عليكم » . (٢) « فضل صلاة التطوع في بيته على صلاته في المسجد كفضل صلاة المكتوبة في المسجد على صلاتها في البيت » رواه آدم بن أبي إياس في كتاب القوامين كلام شجرة بن حبيب مرسى ورواه ابن أبي شيبة في الصنف بلفظه عن شجرة بن حبيب عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم موقوفاً وفي ابن أبي داود بإسناد صحيح من حديث زيد بن ثابت صلاة المرأة في بيته أفضل من صلاة في مسجدى هذا إلا المكتوبة .

(٣) « صلاة في مسجدى هذا أفضل من مائة صلاة في غيره وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة في مسجدى وأفضل من هذا كله رجل يصلي ركعتين في زاوية بيته لا يعلمها إلا الله » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من حديث أنس « صلاة في مسجدى تعدل بشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الحرام تعدل بمائة ألف صلاة والصلاة بأرض الرباط تعدل بألبي ألف صلاة أو أكثر من ذلك كله الركعتان يصلهما العبد في جوف الليل لا يريد بهما إلا وجه الله عز وجل » وإسناده ضعيف وذكر أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة تعليقاً من حديث الأوزاعي قال : دخلت على يحيى فأسند لي حديثاً فذكره ، إلا أنه قال في الأولى « ألف » وفي الثانية « مائة » . (٤) « ما من أحد يصوم أول خميس من رجب ... » في صلاة الرغائب أورده ززين في كتابه وهو حديث موضوع .

الله تعالى له جميع ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر وعدد الرمل ووزن الجبال وورق الأشجار ويشفع يوم القيامة في سبعائة من أهل بيته عن قد استوجب النار » فهذه صلاة مستحبة ، وإنما أوردناها في هذا القسم لأنها تسكر بتكرار السنين وإن كانت رتبها لا تبلغ رتبة التراويح وصلاة العيد لأن هذه الصلاة نقلها الأحاد ، ولكني رأيت أهل القدس بأجمعهم يواظبون عليها ولا يسمعون بتكررها فأجبت إيرادها . وأما صلاة شعبان : فليلة الخامس عشر منه يصلي مائة ركعة كل ركعتين بتسليمه يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة قل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، وإن شاء صلى عشر ركعات يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة مائة مرة قل هو الله أحد ، فهذا أيضا مروى في جملة الصلوات كان السلف يصلون هذه الصلاة ويسمون صلاة الخير ويحتمون فيها وربما صلوها جماعة . روى عن الحسن أنه قال : حدثني ثلاثون من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن من صلى هذه الصلاة في هذه الليلة نظر الله إليه سبعين نظرة وقضى له بكل نظرة سبعين حاجة أدناها المغفرة (١) .

### القسم الرابع من النوافل : ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقيت وهي تسعة

صلاة الحسوف والكسوف والاستسقاء وتحية المسجد وركعتي الوضوء وركعتين بين الأذان والإقامة وركعتين عند الخروج من المنزل والدخول فيه . ونظائر ذلك فنذكر منها ما يحضرنا الآن (الأول) صلاة الحسوف : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يفسدان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله والصلاة (٢) » قال ذلك لما مات ولده إبراهيم صلى الله عليه وسلم وكسفت الشمس فقال الناس : إنما كسفتهاوته . والنظر في كفيئتها ووقتها ، أما الكيفية : فإذا كسفت الشمس في وقت الصلاة فيه مكروهة أو غير مكروهة نودى « الصلاة جامعة » وصلى الإمام بالناس في المسجد ركعتين وركع في كل ركعة ركوعين أو ألهما أطول من أواخرهما . ولا يجر فقيرا في الأولى من قيام الركعة الأولى الفاتحة والبقرة ، وفي الثانية الفاتحة وآل عمران ، وفي الثالثة الفاتحة وسورة النساء ، وفي الرابعة الفاتحة وسورة المائدة ، أو مقدار ذلك من القرآن من حيث أراد . ولو اقتصر على الفاتحة في كل قيام أجزاء ولو اقتصر على سور قصار فلا بأس . ومقصود التطويل دوام الصلاة إلى الانجلاء . ويسبح في الركوع الأول قدر مائة آية ، وفي الثاني قدر ثمانين ، وفي الثالث قدر سبعين ، وفي الرابع قدر خمسين . وليكن السجود على قدر الركوع في كل ركعة . ثم يخطب خطبتين بعد الصلاة بينهما جلسة ويأمر الناس بالصدقة والعق والتوبة . وكذلك يفعل بحسوف القمر إلا أنه يجر فيها لأنها ليلية . فأما وقتها فعند ابتداء الكسوف إلى تمام الانجلاء ويخرج وقتها بأن تفرق الشمس كسفة . ونفوت صلاة خسوف القمر : بأن يطلع قرص الشمس إذ يطل سلطان الليل ولا نفوت بغروب القمر خاسفاً لأن الليل كله سلطان القمر فإن انجلى في أثناء الصلاة أنها مخففة . ومن أدرك الركوع الثاني مع الإمام فقد فاتته تلك الركعة لأن الأصل هو الركوع الأول ( الثانية ) صلاة الاستسقاء : فإذا غارت الأنهار وانقطعت الأمطار وأوانهارت قناة فيستحب للإمام أن يأمر الناس أولاً بصيام ثلاثة أيام وما أطافوا من الصدقة والخروج من المظالم والتوبة من المعاصي ، ثم يخرج بهم في اليوم الرابع وبالعجايز والصبيان منتظفين في ثياب بدلة واستبانة متواضعين - بخلاف العيد - وقيل يستحب

(١) « صلاة ليلة شعبان » حديث باطل رواه ابن ماجه من حديث علي « إذا كانت النصف من شعبان قوموا ليها وصوموا نهارها » وإسناده ضعيف . (٢) « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله ... » أخرجه من حديث المغيرة بن شعبه .

إخراج الدواب لمشاركتها في الحاجة ولقوله صلى الله عليه وسلم «لولا صبيان وضع ومشايخ ركع وبهائم رنع لصب عليكم العذاب صبا» (١) «ولو خرج أهل الدمة أيضا متميزين لم يمتعوا فإذا اجتمعوا في المصلع الواسع من الصحراء نودي « الصلاة جامعة » فصلى بهم الإمام ركعتين مثل صلاة العيد - بفيرتكبير - ثم يخطب خطبتين وبينهما جلسة خفيفة ، وليكن الاستغفار معظم الخطبتين ، وينبغي في وسط الخطبة الثانية ، أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الساعة فتأولا بتحويل الحال (٢) . هكذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجعل أعداء أسفله وما على العين على الشمال وما على الشمال على العين . وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الساعة سرا ، ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أردتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب . ويقول في الدعاء : اللهم إنك أمرتنا بدعائك ووعدتنا إجابة لك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا اللهم فامن علينا بعفوة ما قارفنا وإجابة لك في سقيانا وسعة أرزاقنا . ولا بأس بالدعاء أذبار الصلوات في الأيام الثلاثة قبل الخروج ولهذا الدعاء آداب وشروط باطنة من التوبة ورد المظالم وغيرها ، وسيأتي ذلك في كتاب الدعوات ( الثالثة ) صلاة الجنائز : وكيفية مشهورة وأجمع دعاء مأثور مروي في الصحيح عن عوف بن مالك قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى على جنازة فصعدت من دعائه : اللهم اغفر له وارحمه وعافه واعف عنه وأكرم نزله ووسع مدخله واغسله بالماء والثلج والبرد ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس وأبدله دارا خيرا من داره وأهلا خيرا من أهله وزوجا خيرا من زوجته وأدخله الجنة وأعذه من عذاب القبر ومن عذاب النار » (٣) حتى قال عوف : تمنيت أن أكون أنا ذلك الميت ومن أدرك التكبيرة الثانية فينبغي أن يراعى ترتيب الصلاة في نفسه ويكبر مع تكبيرات الإمام فإذا سلم الإمام قضى تكبيرة الذي فات كفعل المسبوق ، فإنه لو بادر التكبيرات لم يبق للقدوة في هذه الصلاة معنى ، فالتكبيرات هي الأركان الظاهرة ، وجدير بأن تقام مقام الركعات في سائر الصلوات . هذا هو الأثره عندي وإن كان غيره محتملا . والأخبار الواردة في فضل صلاة الجنائز وتشجيعها مشهورة فلا تغليل بإيرادها ، وكيف لا يعظم فضلها وهي من فرائض الكفایات ؟ وإنما تصير نفلا في حق من لم تعين عليه بحضور غيره ، ثم ينال بها فضل فرض الكفایة وإن لم تعين لأنهم يحملتهم قاموا بما هو فرض الكفایة واسقطوا الحرج عن غيرهم ، فلا يكون ذلك كنفل لا يسقط به فرض عن أحد ، ويستحب طلب كثرة الجمع تبركا بكثرة المحرم والأدعية واشتاله على ذي دعوة مستجابة لما روى كريب عن ابن عباس : أنه مات له ابن فقال : يا كريب انظر ما اجتمع له من الناس قال : خرجت فإذا ناس قد اجتمعوا له فأخبرته فقال : تقول هم اربعون قلت : نعم ، قال : اخرجوه فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من رجل يموت فيقوم على جنازته اربعون رجلا لا يشركون بالله شيئا إلا شفهم الله عز وجل فيه » (٤) وإذا شيع الجنائز فوصل المقابر أو دخلها ابتداء قال : السلام عليكم أهل هذه الديار من المؤمنين والمسلمين ورحم الله المستقدمين منا والمستأخرين وإننا إن شاء الله بكم لاحقون . والأولى أن لا ينصرف حتى يدفن الميت فإذا سوى على الميت قبره قام عليه وقال : اللهم عبدك رد إليك فأرأف به وارحمه اللهم جاف الأرض عن جثتيه وافتح أبواب السماء لروحك وتقبله منك بقول حسن اللهم

(١) «لولا صبيان وضع ومشايخ ركع ...» أخرجه البيهقي وضعفه من حديث أبي هريرة .

(٢) « استدبار الناس واستقبال القبلة وتحويل الرداء في الاستسقاء » أخرجه من حديث عبد الله بن زيد المزاني .

(٣) حديث عوف بن مالك في الصلاة على الجنائز « اللهم اغفر لى وله وارحمه وعافنى وعافه ... » أخرجه مسلم دون الدعاء ليصلى

(٤) حديث ابن عباس « ما من رجل يموت فيقوم على جنازته اربعون ... » أخرجه مسلم .

إن كان محسناً فضايف له في إحسانه وإن كان مسيئاً فتجاوز عنه (الرابعة) تحية المسجد : ركعتان فصاعداً سنة مؤكدة حتى أنها لا تسقط وإن كان الإمام يغتسل يوم الجمعة تأكد وجوب الإصغاء إلى الخطيب . وإن اشتغل بفرض أو قضاء تأدى به التحية وحصل الفضل إذ المقصود أن يتخلو ابتداء دخوله عن العبادة الخاصة بالمسجد قيماً بحق المسجد . ولهذا يكره أن يدخل المسجد على غيره وضوء فإن دخل لمبور أو جلوس ليقبل « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » يقولها أربع مرات يقال إنها عدل ركعتين في الفضل . ومذهب الشافعي رحمه الله أنه لا تترك التحية في أوقات الكراهية : وهي بعد العصر وبعد الصبح ووقت الزوال ووقت الطلوع والغروب ، لما روى « أنه صلى الله عليه وسلم صلى ركعتين بعد العصر فقليل له أمانيتنا عن هذا ؟ فقال : هماركعتان كنت أصليهما بعد الظهر فتشغلني عنهما الوقت »<sup>(١)</sup> فأفاد هذا الحديث فائدتين إحداهما : أن الكراهية مقصورة على صلاة لأسباب لها ومن أضعف الأسباب قضاء التوافل إذ اختلف العلماء في أن التوافل هل يقضى وإذا فعل مثل ما فاته هل يكون قضاءً ؟ وإذا انتفت الكراهية بأضعف الأسباب فبأحرى أن تنقضي بدخول المسجد وهو سبب قوي . ولذلك لا تترك صلاة الجنائز إذا حضرت ولا صلاة الحسوف والاستسقاء في هذه الأوقات لأن لها أسباباً . الفائدة الثانية : قضاء التوافل إذ قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك ولنا فيه أسوة حسنة . وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غلبه نوم أو مرض فلم يقم تلك الليلة صلى من أول النهار اثنتي عشر ركعة »<sup>(٢)</sup> وقد قال العلماء : من كان في الصلاة ففاته جواب المؤذن فإذا سلم قضى وأجاب وإن كان المؤذن سكت ، ولا معنى الآن لقول من يقول : إن ذلك مثل الأول وليس يقضى ، إذ لو كان كذلك لما صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقت الكراهة . نعم من كان له ورد فعاقه عن ذلك عذر فينبغي أن لا يخصص لنفسه في تركه بل يتداركه في وقت آخر حتى لا تميل نفسه إلى الدعة والرفاهية . وتداركه حسن على سبيل مجامدة النفس ولأنه صلى الله عليه وسلم قال « أحب الأعمال إلى الله تعالى أدومها وإن قل »<sup>(٣)</sup> وفيصعد به أن لا يفتر في دوام عمله وروت عائشة رضي الله عنها عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « من عبد الله عز وجل بعبادة ثم تركها ملالة مقتته الله عز وجل »<sup>(٤)</sup> فليحذر أن يدخل تحت الوعيد . وتحقيق هذا الخبر : أنه مقتته الله تعالى بتركها ملالة فلولاً للمقت والإبعاد لما سلطت الملالة عليه . (الخامسة) ركعتان بعد الوضوء : مستحبتان لأن الوضوء قربة ومقصودها الصلاة والأحداث عارضة فربما يطرأ الحدث قبل صلاة فينتقض الوضوء ويضيق السعي فالجأدة إلى ركعتين استيفاء لمقصود الوضوء قبل الفوات . وعرف ذلك بحديث بلال إذ قال صلى الله عليه وسلم « دخلت الجنة فرأيت بلالاً فيها فقلت لبلال بهم سبقتني إلى الجنة ؟ فقال بلال لا أعرف شيئاً إلا أني لأحدث وضوءاً إلا أصلي عقبيه ركعتين »<sup>(٥)</sup> (السادسة) ركعتان عند دخول المنزل وعند الخروج منه : روى أبو هريرة رضي الله عنه قال « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين ينمناك عرج السوء وإذا دخلت إلى منزلك فصل ركعتين

- 
- (١) « صلى ركعتين بعد العصر فقليل له أمانيتنا عن هذا فقال هماركعتان كنت أصليهما بعد الظهر ... » أخرجه من حديث أم سلمة وسلم من حديث عائشة « كان يصلي ركعتين قبل العصر » ثم إن شغل عنهما ... »  
 (٢) حديث عائشة « كان إذا غلبه نوم مرض فلم يقم تلك الليلة ... » أخرجه مسلم .  
 (٣) « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » أخرجه من حديث عائشة .  
 (٤) حديث عائشة « من عبد الله عبادة ثم تركها ملالة مقتته الله » . ورواه ابن السني في رياضة المتعبدين موقوفاً على عائشة .  
 (٥) « دخلت فرأيت بلالاً فيها فقلت يا بلال بهم سبقتني إلى الجنة ... » أخرجه من حديث أبي هريرة .

يمنعنا ذلك مدخل السوء<sup>(١)</sup> وفي معنى هذا كل أمر يبدأ به بماله وقع ، ولذلك ورد ركعتان عند الإحرام<sup>(٢)</sup> وركعتان عند ابتداء السفر<sup>(٣)</sup> وركعتان عند الرجوع من السفر<sup>(٤)</sup> في المسجد قبل دخول البيت فكل ذلك مأثور من فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان بعض الصالحين إذا أكل أكلة صلى ركعتين وإذا شرب شربة صلى ركعتين ، وكذلك في كل أمر يحدثه . وبداية الأمور ينبغي أن يترك فيها بذكرا لله عز وجل ومحى على ثلاث مراتب : بعضها يتكرر مرارا كالأكل والشرب فيبدأ فيه باسم الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله الرحمن الرحيم فهو أبر »<sup>(٥)</sup> الثانية : ما لا يكثر تكروره ولموقع كتمتد النكاح وابتداء النصيحة والمشورة فالمستحب فيها أن يصدر بعمدك الله فيقول الزوج « الحمد لله والصلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجعتك ابنتي » ويقول القابل « الحمد لله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلت النكاح » وكانت عادة الصحابة رضي الله عنهم في ابتداء أدلة الرسالة والنصيحة والمشورة تقديم التحييد . الثالثة : ما لا يتكرر كثيرا وإذا وقع دام وكان له وقع كالسفر وشرادار جديدة الإحرام وما يجرى مجراه فيستحب تقديم ركعتين عليه واداءه الخروج من المنزل والدخول إليه فإنه نوع سفر قريب (السابعة) صلاة الاستخارة : فمن هم بأمر وكان لا يدري طاقبه ولا يعرف أن الخير في تركه أو في الإقدام عليه فقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم « بأن يصلي ركعتين يقرأ في الأولى فاتحة الكتاب وقل يا أيها الكافرون ، وفي الثانية قل هو الله أحد ، فإذا فرغ دعا وقال : اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فأقدره لي وبارك لي فيه ثم يسره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فأصرفني عنه واصرّفه عني وأقدر لي الخير إنيأ كان لك على كل شيء قدير<sup>(٦)</sup> » رواه جابر بن عبد الله قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا هم أحدكم بأمر فيصل ركعتين ثم ليسم الأمر ويدعو بما ذكرناه ، وقال بعض الحكماء : من أعطى أربعاً لم يمنع أربعاً ، من أعطى الفكرة لم يمنع المزيد ومن أعطى التوبة لم يمنع القبول ومن أعطى الاستخارة لم يمنع الخير ومن أعطى المشورة لم يمنع الصواب . (الثامنة) صلاة الحاجة : (٧) فمن ضاق عليه الأمر ومست الحاجة في صلاح دينه ودنياه إلى أمر تعذر عليه فيصل هذه الصلاة فقد روى عن وهيب بن الورد أنه قال : إن من الدعاء الذي لا يرذآن يصلي العبد ثلث عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة

(١) حديث أبي هريرة « إذا خرجت من منزلك فصل ركعتين بمنعناك مخرج السوء وإذا دخلت منزلك ... » أخرجه البيهقي في الشعب من رواية بكر بن عمرو عن صفوان بن سليم : قال بكر حسبته عن أبي سلمة عن أبي هريرة قد ذكره ، وروى الخرائطي في مكارم الأخلاق وابن عدى في الكامل من حديث أبو هريرة « إذا دخل أحدكم بيته فلا يجلس حتى يركع ركعتين فإن الله جاعل له من رخصتيه خيراً » قال ابن عدى : وهو هذا الإنسان منكسر وقال البخاري لا أصل له . (٢) « ركعتي الإحرام » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر . (٣) « صلاة ركعتين عند ابتداء السفر » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث أنس « ما استخلف في أهله من خليفة أحب إلى الله من أربع ركعات يصلهن العبد في بيته إذا شذ عليه ثياب تنفرد ... » وهو ضعيف . (٤) « الركعتين عند القدوم من السفر » أخرجه من حديث كعب بن مالك . (٥) « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه باسم الله أبر » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة . (٦) « صلاة الاستخارة » أخرجه البخاري من حديث جابر قال أحمد حديث منكسر .

(٧) حديث ابن مسعود « في صلاة الحاجة ثلث عشرة ركعة » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بإسنادين ضعيفين جداً فيها عمرو بن هارون البلخي كذبه ابن معين وفيه علل أخرى وقد وردت « صلاة الحاجة ركعتين » الترمذي ورواه ابن ماجه من حديث عبد الله بن أبي أوفى وقال الترمذي حديث غريب وفي إسناده مقال .

بأن الكتاب وآية الكرسي وقل هو الله أحد فإذا فرغ خر ساجداً ثم قال «سبحان الذي ليس له سبحةان الذي تطوف بالحمد وتكرم به سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه سبحان الذي لا ينبغي التسبيح إلا له سبحان ذي المن والفضل سبحان ذي العز والكرم سبحان ذي الطول أسألك بمقاعد العز من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك وباسمك الأعظم جددك الأعلى وكلما لك التمام العامت التي لا يمازهن بر ولا فاجر أن تصلى على محمد وعلى آل محمد ثم يسأل حاجته التي لا معصية فيها فيجيب إن شاء الله عز وجل. قال وهيب: بلغنا أنه كان يقال: لا تغفلوا أسفهاكم فيتعاونون بها على معصية الله عز وجل (التاسعة) صلاة التيسيع: وهذه الصلاة مأثورة على وجهها ولا تختص بوقت ولا بسبب ويستحب أن لا يخلو الأسبوع عنها مرة واحدة أو الشهر مرة. فقد روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما «أنه صلى الله عليه وسلم قال للعباس بن عبد المطلب: ألا أعطيك ألا أمنعك ألا أحبك بشيء إذا أنت فعلته غفر الله لك ذنبك أوله وآخره قديمه وحديثه خطاه وعمده سره وعلايته تغلى أربع ركعات تقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة، فإذا فرغت من القراءة في أول ركعة وأنت قائم تقول: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. خمس عشرة مرة ثم ركع فتقولها وأنت راكع عشر مرات، ثم ترفع من الركوع فتقولها قائماً عشراً، ثم تسجد فتقولها عشراً، ثم ترفع من السجود فتقولها جالساً عشراً، ثم تسجد فتقولها وأنت ساجد عشراً، ثم ترفع من السجود فتقولها عشراً، فلذلك خمس وسبعون في كل ركعة تفعل ذلك في أربع ركعات إن استطعت أن تصلها في كل يوم مرة فافعل فإن لم تفعل ففي كل جمعة مرة فإن لم تفعل ففي كل شهر مرة فإن لم تفعل ففي السنة مرة (١)». وفي رواية أخرى «أنه يقول في أول الصلاة سبحانك اللهم وبحممدك وتبارك اسمك وتعالى جددك وتقدس أسأوك ولا إله غيرك» ثم يسبح خمس عشرة تسبيحة قبل القراءة وعشراً بعد القراءة والباقي كما سبق عشراً عشراً ولا يسبح بعد السجود الأخير قاعداً، وهذا هو الأحسن وهو اختيار ابن المبارك. والمجموع من الروايتين ثلثمائة تسبيحة فإن صلاها نهاراً فبتسليمية واحدة وإن صلاها ليلاً فبتسليميتين أحسن؛ إذ ورد «أن صلاة الليل مثنى مثنى (٢)» وإن زاد بعد التسبيح قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم» فهو حسن فقد ورد ذلك في بعض الروايات فهذه الصلوات المأثورة. ولا يستحب شيء من هذه النوافل في الأوقات المكروهة إلا تحية المسجد. وما أوردناه بعد التحية من ركعتي الوضوء وصلاة السفر والخروج من المنزل والاستخارة فلا لأن النهي مؤكد، وهذه الأسباب ضعيفة فلا تبلغ درجة الخشوف والاستسقاء والتحية وقد رأيت بعض المتصوفة يصل في الأوقات المكروهة ركعتي الوضوء وهو في غاية البعد لأن الوضوء لا يكون سبباً للصلاة بل الصلاة سبب الوضوء. فينيئ أن يتوضأ ليصلي لا أنه يصل لأنه توضأ. وكل محدث يريد أن يصل في وقت الكراهية فلا سبيل له إلا أن يتوضأ ويصل فلا يبقى للكراهية معنى ولا ينيئ أن ينوي ركعتي الوضوء كما ينوي ركعتي التحية بل إذا توضأ صلى ركعتين تطوعاً كيلا يشغل وضوءه كما كان يفعل بلال فهو تطوع يحض يقبض عقيب الوضوء. وحديث بلال لم يدل على أن الوضوء سبب للخشوف والتحية حتى ينوي ركعتي الوضوء فيبتدئ أن ينوي بالصلاة الوضوء بل ينيئ أن ينوي بالوضوء الصلاة: وكيف ينتظم أن يقول في وضوئه «أتوضأ لصلاتي وفي صلاتي يقول أصلي لوضوئي. بل من أراد أن يحرس وضوءه عن التعطيل في وقت الكراهية فليتوضأ إن كان يجوز أن يكون في ذمته صلاة تطرح لإلها خلل لسبب من الأسباب فإن قضاء الصلوات في أوقات الكراهية غير مكروه. فأمانة التطوع فلا وجه لها. في النهي في أوقات الكراهية مهمات ثلاثة أحدها التوقي من مضاهاة عبدة الشمس، والثاني: الاحتراز من انتشار الشيعة إذ قال صلى الله عليه وسلم «إن

(١) «صلاة التيسيع» تقدم.

(٢) «صلاة الليل مثنى مثنى» أخرجه من حديث ابن عمر.

الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها وإذا ارتفعت فارقتها فإن استوت قارنها فإذا زالت فارقتها فإذا تضيفت للغروب قارنها فإذا غربت فارقتها<sup>(١)</sup> » ونهى عن الصلوات في هذه الأوقات ونهى على العلة ، والثالث : أن سالكى طريق الآخرة لا يزالون يواطون على الصلوات في جميع الأوقات والمواظبة على نخط واحد من العبادات يورث الملل . ومهما منع ساعة زاد النشاط ، وانبعثت الدواعي ، والإنسان حريص على ما منع منه في تعطيل هذه الأوقات زيادة تحريض . وبعث على انتظار انقضاء الوقت ، غشت هذه الأوقات بالتسبيح والاستغفار حذرا من الملل بالمداومة وتفرجا بالانتقال من نوع عبادة إلى نوع آخر . ففى الاستطراف والاستجداء لذة ونشاط وفى الاستمرار على شيء واحد استئفال وملال . ولذلك لم تكن الصلاة سجودا مجردا ولا ركوعا مجردا ولا قياما مجردا بل رتبت العبادات من أعمال مختلفة وأذكار متباينة ، فإن القلب يدرك من كل عمل منها لذة جديدة عند الانتقال إليها ولو واطب على الثناء الواحد لتسارع إليه الملل . فإذا كانت هذه أموراً مهمة في النهي عن ارتكاب أوقات السكرامة إلى غير ذلك من أسرار آخر ليس في قوة البشر الاطلاع عليها والله ورسوله أعلم بها ، فهذه المهمات لا تترك إلا بأسباب مهمة في الشرع مثل قضاء الصلوات وصلاة الاستسقاء والخسوف وتحية المسجد . فاما ما ضعف عنها فلا ينبغى أن يهضم به مقصود النهي . هذا هو الأوجه عندنا والله أعلم .

كل كتاب : أسرار الصلاة من كتاب إحياء علوم الدين . يتلوه إن شاء الله كتاب : أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . والحمد لله وحده وصلاته على خير خلقه محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا .

## كتاب أسرار الزكاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى أسعد وأشقى وأما وأحيا وأضعك وأبكى وأوجد وأفنى وأفقر وأغنى وأضر وأقنى الذى خالق الحيوان من نطفة تئى ، ثم تفرّد عن الخلق بوصف الغنى ، ثم خصص بعض عباده بالحسنى فأفاض عليهم من نعمه ما أيسر به من شاء واستغنى وأحوج إليه من أخفق في رزقه وأكدى إظهارا للإمتحان والابتلاء ثم جعل الزكاة للدين أساساً ومبى . وبين أن فضله تركى من عباده من تركى ومن غناه تركى ماله من تركى والصلاة على محمد المصطفى سيد الورى وشمس الهدى وعلى آله وأصحابه المخصوصين بالعلم والتقى .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الزكاة إحدى مبادئ الإسلام وادف بذكرها الصلاة التى هى على الأعلام فقال تعالى ﴿ راقبوا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة<sup>(٢)</sup> » وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعباب آليم ﴾ ومعنى الإتفاق فى سبيل الله إخراج حق الزكاة قال

(١) « إن الشمس تطلع ومعها قرن الشيطان فإذا طلعت قارنها . . . » أخرجه النسائي من حديث عبد الله الصنابحي . وهو مرسل وذلك هو الذى يقول عبد الله الصنابحي ووم فيه والصواب عبد الرحمن ولم يرى النبي صلى الله عليه وسلم .

كتاب أسرار الزكاة

(٢) « بنى الإسلام على خمس » أخرجه من حديث ابن عمر .



الأحفاف بن قيس : كنت في نفر من قريش فرأى أبو ذر فقال : يشر السكازين بك في ظلوهم يخرج من جنوبهم وبكى في أفتابهم يخرج من جباههم . وفي رواية أنه يوضع على حلة تدعى أحدهم فيخرج من نفث كنفه ويوضع على نفث كنفه حتى يخرج من حلة تدعى يتزول . وقال أبو ذر : انتهيت إلى النبي ﷺ وهو جالس في ظل السكبة فلما رأيته قال : « هم الآخرون ورب السكبة قتلتم » ومنهم من قال : الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم ، ما من صاحب ليل ولا نقر ولا غنى لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمئ تنطحه بقرونها وتطؤه بأظفارها كلها فنقدت أخراها عادت عليه أولها حتى يقضى بين الناس (١) » وإذا كان هذا التشديد غرضاً في الصحيحين فقد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة وشروطها الجلية والخفية ومعانيها الظاهرة والباطنة مع الاختصار على ما لا يستغنى عن معرفته مؤدى الزكاة وقابضها وينكشف ذلك في أربعة فصول : ( الفصل الأول ) في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها ( الثاني ) آدابها وشروطها الباطنة والظاهرة ( الثالث ) في القابض وشروط استحقاقه وآداب قبضه ( الرابع ) في صدقة التطوع وفضلها

## الفصل الأول : أنواع الزكاة وأسباب وجوبها والزكوات باعتبار متعلقاتها ستة أنواع

زكاة النعم والتفدين والتجارة وزكاة الركا والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر

### النوع الأول : زكاة النعم

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ، ولا يشترط البلوغ بل تجب في مال الصبي والمجنون ، هذا شرط من عليه . وأما المال فشروطه خمسة : أن يكون نماء سائمة باقية حولاً نصيباً كاملاً مملوكاً على الكمال . الأول : كونه نماء فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم . أما الخيل والبغال والحمير والمتولد من بين الغنم والغنم فلا زكاة فيها . الثاني : السوم : فلا زكاة في معلوفة ، وإذا أسيمت في وقت وعلفت في آخر تظهر بذلك مؤنتها فلا زكاة فيها . الثالث : الحول : قال رسول الله ﷺ « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول (٢) » ويستثنى من هذا نتائج المال فإنه ينسحب عليه حكم المال وتجب الزكاة فيه لحول الأصول ومهما باع المال في أثناء الحول أو وهبه انقطع الحول . الرابع : كمال الملك والتصرف : فتجب في الماشية المرهونة لأنه الذي حجب على نفسه فيه ولا تجب في الضال والمغصوب إلا إذا عاد بجميع نمائه فتجب زكاة ما مضى عند عوده ولو كان عليه دين يستغرق ماله فلا زكاة عليه فإنه ليس غنياً به إذ أغنى ما يفضل عن الحاجة . الخامس : كمال النصاب .

أما الإبل فلا شيء فيها حتى تبلغ نمساً ففيها جذعة من الضأن والجذعة هي التي تكون في السنة الثانية ، أو ثنية من المزم وهي التي تكون في السنة الثالثة . وفي عشر شاتان . وفي خمس عشرة ثلاث شياه . وفي عشرين أربع شياه . وفي خمس وعشرين بنت عفاض وهي التي في السنة الثانية ، فإن لم يكن في ماله بنت عفاض فابن لبون ذكر وهو الذي في السنة الثالثة يؤخذ وإن كان قادراً على شرائها . وفي ست وثلاثين ابنة لبون . ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة . فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها لبون . فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان . فإذا صارت إحدى وعشرين

(١) حديث أبي ذر « انتهيت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو جالس في ظل السكبة فلما رأيته قال هم الآخرون ورب السكبة ... » أخرجه مسلم والبخاري .

(٢) « لا زكاة في مال حتى يحول عليه الحول » أخرجه أبو داود من حديث علي بإسناد جيد وابن ماجه من حديث عائشة بإسناد ضيف .

ومائة ففيها ثلاث بنات لبون . فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ، ففي كل خمسين حقة ، وفي كل أربعين بنت لبون .

وأما البقر فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي في السنة الثانية . ثم في أربعين مسنة وهي التي في السنة الثالثة . ثم في ستين تيعان واستقر الحساب بعد ذلك . ففي كل أربعين مسنة ، وكل ثلاثين تبيع .

وأما الغنم فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المزم . ثم لاشيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان . إلى ما تاتي شاة واحدة ففيها ثلاث شياه إلى أربع مائة ففيها أربع شياه . ثم استقر الحساب في كل مائة شاة . وصدة الخيلطين كصدقة المالك الواحد في النصاب فإذا كان بين رجلين أربعون من الغنم ففيها شاة . وإن كان بين ثلاثة نفر مائة شاة وعشرون ففيها شاة واحدة ، على جميعهم . وخطة الجوار كخطة الشيوخ ولكن يشترط أن يربحها معا ويسقيها معا ويحلبها معا ويسرحها معا ويكون المرعى معا وإنزاه الفحل معا . وأن يكونا جميعاً من أهل الزكاة ولا حكم في الخلطة الذي والمسكاتب . ومهما نزل في واجب الإبل عن سن إلى سن فهو جائز ما لم يمازج بنت مخاض في التزول . ولكن تضم إليه جبران السن لسنة واحدة شاتين أو عشرين درهما . وستين أربع شياه أو أربعين درهما . وله أن يصعد في السن ما لم يمازج المجدعة في الصعود وبأخذ الجبران من الساعين من بيت المال . ولا تؤخذ في الزكاة مريضة إذا كان بعض المال مصحبا ولو واحده . ويؤخذ من الكرائم كريمة ومن اللثام لثيمة . ولا يؤخذ من المال الأكلولة ولا الماخض ولا الربا ولا الفحل ولا غراء المال .

### النوع الثاني : زكاة المعشرات

يجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة من ولا شيء فيما دونها ولا في الفواكه والقطن ، ولكن في الحبوب التي تقتات وفي التمر والزبيب . ويعتبر أن تكون ثمانمائة من تمر أو زبيباً ولا رطباً وعنباً ، ويخرج ذلك بعد التجفيف . ويكمل مال أحد الخيلطين بمال الآخر في خلطة الشيوخ كالبستان المشترك بين ورتة جميعهم ثمانمائة من زبيب ، فيجب على جميعهم ثمانون مثناً من زبيب بقدر حصصهم . ولا يعتبر خلطة الجوار فيه . ولا يكمل نصاب الخلطة بالشعير ، ويكمل نصاب الشعير بالسلت فإنه نوع منه ، هذا قدر الواجب إن كان يسقى بسبح أو قناة فإن كان يسقى بنضج أو دالية فيجب نصف العشر ، فإن اجتمعا فالأغلب يعتبر . وأما صفة الواجب فالتمر والزبيب اليابس والحلب اليابس بعد التنقية . ولا يؤخذ عنب ولا رطب إلا إذا حلت بالانجهار آفة وكانت المصلحة في قطعها قبل تمام الإدراك ، فيؤخذ الرطب فيكال تسعة للمالك وواحد للفقير . ولا يمنع من هذه القسمة قولنا : إن القسمة بيع ، بل يرخص في مثل هذا الحاجة . ووقت الوجوب أن يبدو الصلاح في الثمار وأن يشتد الحب . ووقت الأداء بعد الجفاف .

### النوع الثالث : زكاة النقدين

إذا تم الحول على وزن مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم ، وهو ربع العشر ، وما زاد فيحسبه ولو درهما . ونصاب الذهب عشرون مثقالاً خالصاً بوزن مكة ففيها ربع العشر ، وما زاد فيحسبه ، وإن نقص من النصاب حبة فلا زكاة ، ويجب على من معه دراهم مغشوشة إذا كان فيها هذا المقدار من النقرة الخالصة . ويجب الزكاة في التبر ، وفي الحلبي المحظور كأواني الذهب والفضة ، ومراكب الذهب للرجال . ولا تجب في الحلبي المباح . وتجب في الدين الذي هو على مليء . ولكن تجب عند الاستيفاء ، وإن كان مؤجلاً فلا تجب إلا عند حلول الأجل .

### النوع الرابع : زكاة التجارة

وهي كزكاة اتقدين ، وإنما ينعقد الحول من وقت ملك النقد الذي به اشترى البضاعة إن كان النقد نصاباً ، فإن كان ناقصاً أو اشترى بغيره على نية التجارة فالحول من وقت الشراء . وتؤدى الزكاة من نقد البلد وبه يقوم فإن كان ما به الشراء نقداً وكان نصاباً كاملاً كان التقويم به أولى من نقد البلد . ومن نوى التجارة من مال قنية فلا ينعقد الحول بمجرد نيته حتى يشتري به شيئاً ومهما قطع نية التجارة قبل تمام الحول سقطت الزكاة . والأولى أن تؤدى زكاة تلك السنة ، وما كان من ربح في السلعة في آخر الحول وجبت الزكاة فيه بحول رأس المال ولم يستأنف له حولا كافياً في النتائج . وأموال الصيارفة لا ينقطع حولها بالمبادلة الجارية بينهم كسائر التجارات وزكاة ربح مال القراض على العامل وإن كان قبل القسمة ؛ هذا هو الأقوى .

### النوع الخامس : الركاز والمعدن

والركاز مال دفن في الجاهلية ووجد في أرض لم يجر عليها في الإسلام ملك ، فعلى واجده في الذهب والفضة منه الخس والحول غير معتبر . والأولى أن لا يعتبر النصاب أيضاً لأن إيجاب الخس يؤكد شبهة النعينة . واعتباره أيضاً ليس بعيداً لأن مصرفه مصرف الزكاة ولذلك يخص على الصحيح بالتقدين . وأما المعدن فلا زكاة فيما استخرج منها سوى الذهب والفضة ؛ ففيها بعد الطحن والتخليص ربع المثل على أصح القولين ، وعلى هذا يعتبر النصاب . وفي الحول قولان ، وفي قول : يجب الخس ، فعلى هذا لا يعتبر . وفي النصاب قولان والأشبه - والعلم عند الله تعالى - أن يلحق في قدر الواجب بركاة التجارة فإنه نوع اكتساب . وفي الحول بالمعشرات فلا يعتبر لأنه عين الرقب . ويعتبر النصاب كالمعشرات ، والاحتياط أن يخرج الخس من القليل والكثير ، ومن عين التقدين أيضاً خروجاً عن شبهة هذه الاختلافات لأنها ظنون قريبة من التعارض وحزم الفتوى فيها خطر لتعارض الاشتباه .

### النوع السادس : في صدقة الفطر

وهي واجبة - على لسان رسول الله ﷺ - على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليك صاع مما يتقنات (١) بصاع رسول الله ﷺ وهو مثوان وثلاثون ، يخرج من جنس قوته أو من أفضل منه ، فإن اتقنات بالحنطة لم يجر الشعير ، وإن اتقنات حبوا بمختلفة اختار خيرها ومن أياها أخرج أجرها . وقسمتها كقسمة زكاة الأموال فيجب فيها استيعاب الأصناف ولا يجوز إخراج الدقيق والسويق . ويجب على الرجل المسلم فطرة زوجته وعالمه وكل أولاده وكل قريب هو في نفقته أعنى من يجب عليه نفقته من الآباء والأمهات والأولاد . قال صلى الله عليه وسلم : « أدوا صدقة الفطر عمن تمونون (٢) » ونجى صدقة العبد المشترك على الشريكين ، ولا تجب صدقة العبد الكافر . وإن تبرعت الزوجة بالإخراج عن نفسها أجرها وللزوج الإخراج عنها دون إذنها . وإن فضل عنه ما يؤدى عن بعضهم أدى عن بعضهم ، وأولاهم بالتقديم كانت نفقته أكد . وقد

(١) « وجوب صدقة الفطر على كل مسلم » أخرجه من حديث ابن عمر قال « فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر من رمضان ... » .

(٢) « أدوا زكاة الفطر عمن تمونون » أخرجه الدارقطني والبيهقي من حديث ابن عمر « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بصدقة الفطر عن الصغير والكبير والحر والعبد بمن تمونون » قال البيهقي إسناده غير قوى .

قدم رسول الله ﷺ نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتهما على نفقة الخادم (١) فهذه أحكام فقهية لا بد للفقهي من معرفتها ، وقد تعرض له وقائع نادرة خارجة عن هذا فله أن يتكلم فيها على الاستفتاء عند نزول الواقعة بعد إحاطته بهذا المقدار .

## الفصل الثاني : الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة

اعلم أنه يجب على مؤدى الزكاة مراعاة خمسة أمور :

( الأول ) النية : وهو أن ينوي بقلبه زكاة القرض ويسن عليه تعيين الأموال . فإن كان له مال غائب فقال هذا عن مالي الغائب إن كان سالما وإلا فهو نافلة جلا ، لأنه لم يصرح به فكذلك يكون عند إطلاقه . ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والعبي . ونية السلطان تقوم مقام نية المالك المنتفع عن الزكاة ولكن في ظاهر حكم الدنيا - أعني في قطع المطالبة عنه - أما في الآخرة فلا ، بل تبقى ذمته مشغولة لئلا أن يستأنف الزكاة وإذا وكل بأداء الزكاة ونوى عند التوكيل أو وكل الوكيل بالنية كفاه لأن توكيله بالنية نية .

( الثاني ) البسار عقيب الحول وفي زكاة الفطر لا يؤخرها عن يوم الفطر . ويدخل وقت وجوبها بغروب الشمس من آخر يوم من شهر رمضان . ووقت تمجيلها شهر رمضان كله . ومن أخر زكاة ماله مع التمكن معى ولم يسقط عنه بتلف ماله وتمكنه بمصادقة المستحق . وإن أخر لعدم المستحق تلفت ماله سقطت الزكاة عنه . وتمجيل الزكاة جائز بشرط أن يقع بعد كمال النصاب وانقضاء الحول ، ويجوز تمجيل زكاة حولين . ومهما عجل ومات المسكين قبل الحول أو ارتد أو صار غنيا بغير ما عجل إليه أو تلف مال المالك أو مات ، فالمدفوع ليس بزكاة ، واسترجاعه غير ممكن إلا إذا قيد الدفع بالاسترجاع فليكن المعجل مرافقا آخر الأمور وسلامة العاقبة .

( الثالث ) أن لا يخرج بدلا باعتبار القيمة بل يخرج المنصوص عليه ، فلا يجرى ورق عن ذهب ولا ذهب عن ورق وإن زاد عليه في القيمة . ولعل بعض من لا يدرك غرض الفاعلي رضى الله عنه يتساهل في ذلك ويلاحظ المقصود من سد الخلة وما أبده عن التحصيل ، فإن سد الخلة مقصود وليس هو كل المقصود بل واجبات الشرع ثلاثة أقسام : قسم هو تعبّد بعض لا مدخل للحفظ والأغراض فيه . وذلك كرمى الجرات مثلا إذ لا حظ للجمره في وصول المعصى إليها ، فقصود الشرع فيه الابتلاء بالعمل ليظهر العبد رقه وعبوديته بفعل ما لا يعقل له معنى ، لأن ما يعقل معناه فقد يساعده الطبع عليه ويدعوه إليه فلا يظهر به خلوص الرق والعبودية ، إذ العبودية تظهر بأن تكون الحركة لحق أمر المعبود فقط لا لمعى آخر . وأكثر أعمال الحج كذلك ولذلك قال ﷺ « لبيك بحجة حقا تعبداً » وبقا (٢) « تنبيه على أن ذلك إظهاراً للعبودية بالانقياد لجرد الأمر وامثاله كما أمر من غير استئناس العقل منه بما يميل إليه ويحث عليه . القسم الثاني : من واجبات الشرع ما المقصود منه حفظ معقول وليس يقصد منه التعبد كقضاء دين الآدميين ورد المفسوب فلا جرم لا يعتبر فيه قلمه ونيته . ومهما وصل الحق إلى مستحقه بأخذ المستحق أو ببذل عنه عند رضاه تأدى الوجوب وسقط خطاب الشرع . فهذان قسبان لا تركيب فيهما يشترك في دركهما جميع الناس . والقسم الثالث : هو المركب الذي يقصد منه الأمران جميعا وهو حفظ العباد وامتحان المكلف بالاستعداد ، فيجتمع فيه تعبّد رضى الجبار وحفظ رد الحقوق فهذا قسم في نفسه معقول ، فإن ورد الشرع به وجب

(١) « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة الولد على نفقة الزوجة ونفقتهما على نفقة الخادم » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة بسند صحيح وابن حبان والحاكم وصححه ورواه النسائي وابن حبان بتقديم « الزوجة على الولد » وسياق .  
(٢) « لبيك بحجة حقا تعبداً » وبقا « أخرجه البزار والدارقطني في العلل من حديث أنس .

الجمع بين المعنيين ولا ينبغي أن ينسأ أدق المعنيين وهو التعبد والاسترقاق بسبب أجلهما ، ولعل الآدق هو الآم والزكاة من هذا القبيل ولم ينسأ له غير الشافعي رضي الله عنه لفظ الفقير مقصود في سد الخلة وهو جلي سابق إلى الأفهام وحق التعبد في اتباع التفاصيل مقصود للشرع . وباعتباره صارت الزكاة قرينة للصلاة والحج في كونها من مباني الإسلام . ولا شك في أن على المسكف تميا في تميز أجناس ماله وإخراج حصه كل مال من نوعه جنسه وصفته . ثم توزيعه على الأصناف الثمانية كما سيأتي . والتساهل فيه غير قاذح في حظ الفقير لكنه قاذح في التعبد . ويدل على أن التعبد مقصود بتعيين الأنواع أمور ذكرناها في كتب الخلاف من الفقهيات . ومن أوضحتها أن الشرع أوجب في خمس من الإبل شاة فعدل من الإبل إلى الشاة ولم يعدل إلى النعدين والتقويم . وإن قدر أن ذلك لقلة النفود في أيدي العرب بطل بذكره عشرين درهما في الجبران مع الثاين فلم يذكر في الجبران قدر النقصان من القيمة ؟ ولم قدر عشرين درهما واثنتين ؟ وإن كانت الثياب والأمتعة كلها في معناها . فهذا وأمثاله من التخصيصات يدل على أن الزكاة لم تترك خالية عن التعبدات كما في الحج ولكن جمع بين المعنيين . والأذهان الضعيفة تقصر عن درك المركبات فهذا شأن الغلط به .

( الرابع ) أن لا ينقل الصدقة إلى بلد آخر فإن أعين المساكين في كل بلدة تمتد إلى أموالها ، وفي الثقل تخريب للظنون . فإن فعل ذلك أجزأه في قول ولكن الخروج عن شبهة الخلاف أولى فليخرج زكاة كل مال في تلك البلدة ثم لا بأس أن يصرف إلى الغرباء في تلك البلدة .

( الخامس ) أن يقسم ماله بعدد الأصناف الموجودين في بلده ، فإن استيعاب الأصناف واجب وعليه يدل ظاهر قوله ( إنما الصدقات للفقراء والمساكين ) الآية فإنه يشبه قول المريض إنما ثلث مالي للفقراء والمساكين وذلك يقتضي التشريك في التملك . والمعادات ينبغي أن يتوقى عن الهجوم فيها على الظواهر . وقد عدم من الثمانية صنفان في أكثر البلاد : وهم المؤلفة قلوبهم والمعاملون على الزكاة . ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف : الفقراء والمساكين والغارمون والمساقرن - أعنى أبناء السبيل - وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض : وهم الغزاة والمساكنون . فإن وجد خمسة أصناف مثلاً قسم بينهم زكاة ماله بخمسة أقبام متساوية أو متقاربة وعين لكل صنف قسم . ثم قسم كل قسم أسهم فافوقه إما متساوية أو متفاوتة وليس عليه التسوية بين آحاد الصنف . فإن له أن يقسمه على عشرة وعشرين فينقص نصيب كل واحد . وأما الأصناف فلا تقبل الزيادة والنقصان فلا ينبغي أن ينقص في كل صنف عن ثلاثة إن وجد . ثم لو لم يجب إلا صاع للفقرة ووجد خمسة أصناف فعليه أن يوصله إلى خمسة عشر نفراً . ولو نقص منهم واحد مع الامكان غرم نصيب ذلك الواحد . فإن عسر عليه ذلك لقلة الواجب فليشارك جماعة عن عليهم الزكاة وليخلط ماله نفسه بما لهم وليجمع المستحقين وليسلم إليهم حتى يتسامحوا فيه فإن ذلك لا بد منه .

### بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة

اعلم أن على مريد طريق الآخرة بركاته وظائف ، الوظيفة الأولى : فهم وجوب الزكاة ومعناها ووجه الامتحان فيها ولم جعلت من مباني الإسلام مع أنها تصرف مالى وليست من عبادة الأبدان ، وفيه ثلاث ممان :

الأول : أن التلطف بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بأفراد المعبود وشرط تمام الوفاء به أن لا يبقى للبوحده عيوب سوى الواحد الفرد فإن المحبة لا تقبل الشركة ، والتوحيد باللسان قليل الجدوى وإنما يتجن به درجة المحب بمفارقة المحبوب والأموال محبوبة عند الخلاق لأنها آله تتمتع بالدينا وبسببها يأسون بهذا العالم وينفرون من الموت مع أن فيه لقاء المحبوب ، فامتحنوا بتصدق دعواهم في المحبوب واستزلوا عن المال الذي هو مرقومهم ومعتقهم .

ولذلك قال الله تعالى ﴿ إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ وذلك بالجهد وهو مساعاة بهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمساعاة بالمال أهون . ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام : قسم صدقوا التوحيد ووفوا بعهدهم وزلوا عن جميع أموالهم فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً فأبوا أن يتعرضوا لوجوب الزكاة عليهم حتى قيل لبعضهم : كم يجب من الزكاة في مائتي درهم ؟ فقال : أما على العوام يحكم الشرع بخمسة دراهم ، وأما نحن فيجب علينا بذل الجميع . ولهذا تصدق أبو بكر رضي الله عنه بجميع ماله وعمر رضي الله عنه بشرط ماله فقال عليه السلام « ما أبقيت لأهلك ؟ » فقال : مثله . وقال لآبي بكر رضي الله عنه « ما أبقيت لأهلك » قال : الله ورسوله ، فقال عليه السلام « بينكما ما بين كلتيكما (١) » فالصديق وفي بتأم الصدق فلم يمسك سوى المحبوب عنده وهو الله ورسوله .

القسم الثاني : درجته من درجة هذا وهم المسكون أموالهم المرافيون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات ، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التثمن وصرف الفائض عن الحاجة إلى وجوه البر مهما ظهر وجوها ، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة . وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعي وعطاء ومجاهد . قال الشعبي بعد أن قيل له : هل في المال حق سوى الزكاة ؟ قال : نعم ، أما سمعت قوله عز وجل ﴿ وآتى المال على حبه ذوى القربى ﴾ الآية ، واستدلوا بقوله عز وجل ﴿ ومما رزقناهم ينفقون ﴾ وبقره تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾ وزعموا أن ذلك غير منسوخ بآية الزكاة ، بل هو داخل في حق المسلم على المسلم ، ومعناه أنه يجب على الموسر مهما وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلاً عن مال الزكاة ، والذي يصح في الفقه في هذا الباب أنه مهما أزهقه حاجته كانت إزالتها فرض كفاية إذ لا يجوز تضييع مسلم ، ولكن يحتمل أن يقال ليس على الموسر إلا تسليم ما يزيل الحاجة فرضاً ولا يلزمه بذله بيد أن أسقط الزكاة عن نفسه ، ويحتمل أن يقال يلزمه بذله في الحال ولا يجوز له الاقتراض أى لا يجوز له تكليف الفقير قبول القرض وهذا يختلف فيه ، والاقتراض نزول إلى الدرجة الأخيرة من درجات العوام وهى درجة القسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الواجب فلا يزيدون عليه ولا ينقصون عنه وهى أقل الرتب ، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبعثهم بالمسال وميلهم إليه ، وضعف جهم للأخرة قال الله تعالى ﴿ إن يسألوكها ويحفك تبخلوا ﴾ يحفك أى يستقص عليك فك من عبث اشترى منه ماله ونفسه بأن له الجنة وبين عبث لا يستقصى عليه لبخله ؛ فهذا أحد معاني أمر الله سبحانه عباده ببذل الأموال . المعنى الثاني : التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات قال عليه السلام « ثلاث مهلكات شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه (٢) » وقال تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ وسبأني في ربيع المهلكات وجه كونه مهلكاً وكيفية التفتى منه ، وإنما نزول صفة البخل بأن تعود بذل المال لشح الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقتها حتى يصير ذلك اعتياداً . فالزكاة بهذا المعنى طهرة أى تطهر صاحبها عن خبث البخل المهلك ، وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر فرحه بإخراجها ، واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى . المعنى الثالث : شكر الثمرة ، فإن عز وجل على عبده نعمة في نفسه وفي ماله ، فالعبادات البدنية شكر لثمرة البدن والمالية شكر لثمرة المال . وما أنص من ينظر إلى الفقير وقد ضيق عليه في الرزق وأحوج إليه ثم لا تسمع نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغناثه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله .

(١) « جاء أبو بكر بجميع ماله وعمر بشرط ماله .... » أخرجه أبو داود والترمذى والحاكم وصححه من حديث ابن عمر وليس فيه قوله « بينكما ما بين كلتيكما » .

(٢) « ثلاث مهلكات ... تقدم .

الوظيفة الثانية : في وقت الأداء ؛ ومن آداب ذوى الدين التعجيل عن وقت الوجوب إظهار الرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن تعوقه عن الخيرات وعلما بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب . ومما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم فإن ذلك لمة الملك « وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن » فما أسرع تقبله والشیطان يعد الفقر ويأمر بالفحشاء والمنكر . وله لمة عقيب لمة الملك فليغتنم الفرصة فيه وليعين لوزكاتها إن كان يؤديها جميعا شهرا معلوما وليجتهد أن يكون من أفضل الأوقات ليكون ذلك سببا لنقاء قربه وتضاعف زكاته . وذلك كشمس المحرم فإنه أول السنة وهو من الأشهر الحرم ، أو رمضان فقد كان ﷺ أجود الخلق وكان في رمضان كالريح المرسلة لا يمسك فيه شيئا (١) ورمضان فضيلة ليله القدر وأنه أنزل فيه القرآن . وكان مجاهد يقول : لا تقولوا رمضان فإنه اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان . وذو الحجة أيضا من الشهور الكثيرة الفضل فإنه شهر حرام وفيه الحج الأكبر وفيه الأيام المعلومات وهي الشهر الأول والأيام المعدودات وهي أيام التشريق . وأفضل أيام شهر رمضان العشر الاواخر ، وأفضل أيام ذي الحجة العشر الأول .

الوظيفة الثالثة : الإسرار ، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمة ، قال ﷺ « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر » (٢) وقال بعض العلماء : ثلاث من كنوز البر منها إخفاء الصدقة (٣) وقد روى أيضا مسندا وقال ﷺ « إن معبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر وكتب في العلانية فإن تحدث به نقل من السر والعلانية وكتب رياء » (٤) وفي الحديث المشهور « سبعة يظلمهم الله بظلمه يوم لا ظل إلا ظله ، أحدهم رجل تصدق بصدقة فلم يعلم شاله بما أعطت بحسنة » (٥) وفي الخبر « صدقة السر تطفى غضب الرب » (٦) وقال تعالى (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) وفائدة الإخفاء الخلاص من آفات الرياء والسمة فقد قال ﷺ « لا يقبل الله من مسمع ولا مرء ولا منان والمتحدث بصدقة يطلب السمة والمغلى في سلا من الناس يبغى الرياء والإخفاء والسكوت هو المخلص منه » (٧) وقد بالغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المغلى فكان بعضهم يلقيه في يد أعمى وبعضهم يلقيه في طريق الفقير وفي موضع جلوسه حيث يراه ولا يرى المغلى وبعضهم كان يصره في ثوب الفقير وهو نائم . وبعضهم كان يوصل إلى يد الفقير على يد غيره بحيث لا يعرف المغلى وكان يستكنم المتوسط شأنه ويوصيه ألا يفشيه ، كل ذلك توصلا إلى إطفاء غضب الرب سبحانه واحترازا من

(١) « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود أسلم أجود الخلق وأجود ما يكون في رمضان ... » أخرجه ابن عباس .

(٢) « أفضل الصدقة جهد المقل إلى فقير في سر » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم من حديث أبي ذر ولأبي داود من حديث أبي هريرة « أي الصدقة أفضل ؟ قال جهد المقل » .

(٣) « ثلاث من كنوز البر فذكر منها إخفاء الصدقة » أخرجه أبو نعيم في حكاية الإيجاز وجوامع الكلم من حديث ابن عباس بسند ضعيف .

(٤) « إن العبد ليعمل عملا في السر فيكتبه الله له سرا فإن أظهره نقل من السر ... » أخرجه الخطيب في التاريخ من حديث أنس نحوه بإسناده ضعيف .

(٥) « سبعة يظلمهم الله في ظله ... » أخرجه من حديث أبي هريرة .

(٦) « صدقة السر تطفى غضب الرب » أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب والبيق في الشعب من حديث أبي سعيد كلاهما ضعيف والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة « إن الصدقة لتطفى غضب الرب » ولابن حبان نحوه من حديث أنس وهو ضعيف أيضا .

(٧) « لا يقبل الله من مسمع ولا مرء منان » لم أقف به هكذا .

الرياء والسمة . ومهما لم يتمكن إلا بأن يعرفه شخص واحد فتسليمه إلى وكيل ليسلم إلى المسكين والمسكين لا يعرف أولى ، إذ في معرفة المسكين الرياء والمنة جميعا وليس في معرفة المتوسط إلا الرياء . ومهما كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله لأن الزكاة إزالة للبخل وتضعيف حب المال . وحب الجاه أشد استيلاء على النفس من حب المال وكل واحد منهما مهلك في الآخرة ، ولكن صفة البخل تنقلب في القبر في حكم المثل عقربا لأذا ، وصفة الرياء تنقلب في القبر أقصى من الأفاعى وهو مأمور بتضعيفهما أو قتلها لدفع أذاهما أو تخفيف أذاهما فيها قصد الرياء والسمة فسكانه يجعل بعض أطراف المقرب مقويا للحية فيقدر ما ضيف من المقرب زاحق قوة الحية ولو ترك الأمر كما كان لسكان الأمر أهون عليه . وقوة هذه الصفات التي بها قوتها العمل بمقتضاها ، وضبط هذه الصفات بمجاهدتها وعنايتها والعمل بخلاف مقتضاها فأى فائدة في أن يخالف داعى البخل ويحيب دواعى الرياء فيضعف الأدنى ويقوى الأقوى ؟ وسأق أسرار هذه المعاني في ربيع الملهاكات .

الوظيفة الرابعة : أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيبا للناس في الاقتداء ويعرس سره من داعية الرياء بالطريق الذى سنذكره في معالجة الرياء في كتاب الرياء فقد قال الله عز وجل ﴿ إن تبذر الصدقات فمعا هي ﴾ وذلك حيث يقتضى الحال الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصديق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يصدق ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان ، وهذا لأن في الإظهار محذورا ثالثا سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير ، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فن أظهر السؤال فهو الذى هتك ستر نفسه . فلا محذور هذا المعنى في إظهاره وهو كإظهار الفسق على من تستر به فإنه محذور ، والتجسس فيه والاعتقاد بذكره منهى عنه ، فأما من أظهره فأقامة الحد عليه إشاعة ولكن هو السبب فيها . ومثل هذا المعنى قال عليه السلام : « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له »<sup>(١)</sup> وقد قال الله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية ﴾ تنب إلى العلانية أيضا لما فيها من فائدة الترغيب فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذى فيه فإن ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص ، فقد يكون الإعلان في بعض الأحوال لبعض الأشخاص أفضل . ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال .

الوظيفة الخامسة : أن لا يفسد صدقة بالمن والأذى قال الله تعالى ﴿ لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ﴾ واعتزلوا في حقيقة المن والأذى ففيل المن أن يذكرها والأذى أن يظهرها . وقال سفيان : من من فسدت صدقته فقيل له : كيف المن ؟ فقال أن يذكره ويتحدث به . وقيل : المن أن يستخدمه بالعطاء ، والأذى أن يعبره بالفقر . وقيل المن أن يتكبر عليه لأجل عطائه ، والأذى أن ينتهره أو يوبخه بالمسألة . وقد قال عليه السلام : « لا يقبل الله صدقة منان »<sup>(٢)</sup> وعنى أن المن له أصل ومفرس وهو من أحوال القلب وصفاته ، ثم يتفرع عليه أحوال ظاهرة على اللسان والجوارح فأصله أن يرى نفسه محسنا إليه ومنعها عليه ، وحقه أن يرى الفقير محسنا إليه بقبول حق الله عز وجل منه الذى هو طهارته ونجاته من النار ، وأنه لو لم يقبله لبق مرتبها به لحقه أن يتقلد منة الفقير إذ جعل كفه ثائبا عن الله عز وجل في قبض حقه سبحانه وتعالى . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصدقة تقع بيد الله عز وجل قبل أن تقع في يد السائل »<sup>(٣)</sup> فليتحقق أنه مسلم إلى الله عز وجل حقه والفقير يأخذ من الله تعالى رزقه بعد صبروته إلى الله عز وجل . ولو كان عليه دين لإنسان فأحاله به عبده أو خادمه الذى هو متكفل برزقه

(١) « من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له » أخرجه عدى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس بسند ضعيف .

(٢) « لا يقبل الله صدقة منان » هو كالتى قبله بحديث لم أجده .

(٣) « إن الصدقة تقع بيد الله قبل أن تقع في يد السائل » أخرجه الدارقطنى في الأفراد من حديث ابن عباس

وقال غريب من حديث عكرمة عنه ورواه البيهقى في الشعب بسند ضعيف .



لسكان اعتقاد مؤدى الدين كون الفاض تحت منته سفها وجهلا ، فإن المحسن إليه هو المتكفل برزقه ، أما هو فإثمها يقضى الذى لزمه بشراء ما أحبه فهو ساع فى حق نفسه فلم ين به على غيره . ومهما عرف المعاني الثلاثة التى ذكرناها فى فهم وجوب الزكاة أو أحدها لم ير نفسه محسنا إلا إلى نفسه ؛ إما ببذل ماله لإظهار الحب لله تعالى أو تطهيره لنفسه عن رذيلة البخل أو شكرًا على نعمة المال طلبا للزبد . وكيفما كان فلا معاملة بينه وبين الفقير حتى يرى نفسه محسنا إليه ، ومهما حصل هذا الجهل بأن رأى نفسه محسنا إليه تفرغ منه على ظاهره ما ذكر فى معنى المن وهو التحديث به وإظهاره وطلب المكافأة منه بالفكر والدعاء والخدمة والتوقير والتعظيم والقيام بالحقوق والتقديم فى الجماس والمناخبة فى الأمور ؛ فهذه كلها ثمرات المنة ، ومعنى المنة فى الباطن ما ذكرناه . وأما الأذى : فظاهره التوبيخ والتعير وتخشين الكلام وتقطيع الوجه وهناك السر بالإظهار وفنون الاستخفاف ، وباطنه وهو منبه أمران ، أحدهما : كراهيته لرفع اليد عن المال وشدة ذلك على نفسه فإن ذلك يضيق الحلق لا محالة . والثانى : رؤيته أنه خير من الفقير وأن الفقير لسبب حاجته أخس منه وكلاهما منشؤه الجهل . أما كراهية تسليم المال فهو حق لأن من كره بذل درهم فى مقابلة ما يساوى ألفا فهو شديد الحق . ومعلوم أنه يبذل المال لطلب رضا الله عز وجل والثواب فى الآخرة وذلك أشرف مما بذله أو يبذله لتطهير نفسه عن رذيلة البخل أو شكرًا لطلب المزيد . وكيفما فرض فالكره لا وجه له . وأما الثانى : فهو أيضاً جهل لأنه لو عرف فضل الفقر على الغنى وعرف خطر الأغنياء لما استحقق الفقير بل تبرك به وتعنى درجته ، فصلحاء الأغنياء يدخلون الجنة بعد الفقراء بمسماة عام . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « هم الآخرون ورب السمكة فقال أبو ذر : من هم ؟ قال : هم الأكثرون أموالا » الحديث ، ثم كيف يستحق الفقير وقد جعله الله تعالى متجرة له ؟ إذ يكتسب المال بمجده ويستكثر منه ويجهد فى حفظه بمقدار الحاجة وقد أزم أن يسلم إلى الفقير قدر حاجته ويكف عنه الفاضل الذى يضطره لو سلم إليه ، فالفقير مستخدم للسعى فى رزق الفقير ويشير عليه بتقليد المظالم والتزام المشاق وحراسة الفضلات إلى أن يموت فيأكله أعداؤه ، فإذا منهما انتقلت الكراهية وتبدلت بالسرور والفرح بتوفيق الله تعالى له فى أداء الواجب وتفضيله الفقير حتى يخلصه عن عهده بقبوله منه اتنى الأذى والتوبيخ وتقطيع الوجه وتبدل بالاستيفار والثناء وقبول المنة فهذا منشأ المن والأذى

فإن قلت : فرؤيته نفسه فى درجة المحسن أمر غامض فهل من علامة يحتم بها قلبه فيعرف بها أنه لم ير نفسه محسنا ؟

فاعلم أن له علامة دقيقة واضحة وهو أن يقدر أن الفقير لو جنى عليه جناية أو مالا عدواً له عليه مثلاً هل كان يزيد استنكاره واستباده له على استنكاره قبل التصديق ؟ فإن زاد لم تخل صدقته عن شائبة المنة لأنه توقع بسببه ما لم يكن يتوقعه قبل ذلك .

فإن قلت : فهذا أمر غامض ولا ينفك قلب أحد عنه فادواؤه ؟

فاعلم أن له دواء باطنا ودواء ظاهراً . أما الباطن : فالمعرفة بالحقائق التى ذكرناها فى فهم الوجوب وأن الفقير هو المحسن إليه فى تطهيره بالقبول . وأما الظاهر : فالأعمال التى يتعاطاها متقصد المنة فإن الأعمال التى تصد عن الأخلاق تصبغ القلب بالأخلاق — كما سيأتى أسرارده فى الشطر الأخير من الكتاب — ولهذا كان بعضهم يضع الصدقة بين ينى الفقير ويمثل قائماً بين يديه بسأله قبلها حتى يكون هو فى صورة السائلين وهو يستشعر مع ذلك كراهية لو رده . وكان بعضهم يبسط كفه ليأخذ الفقير من كفه وتكون يد الفقير هى العليا . وكانت عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما إذا أرسلتا مرفوعاً إلى فقير قائلاً للرسول : احفظ ما يدعوك به ثم كاتنا تردان عليه مثل قوله ، ونقولان : هذا بذاك حتى نخاص لنا صدقتنا . فكانوا لا يتوقعون الداء لأنه شبه المكافأة وكانوا يقابلون الداء ( ٢٨ - لجة علوم الفقه ١ )

مثله . وهكذا فعل عمر بن الخطاب وابنه عبد الله رضي الله عنهما . وهكذا كان أرباب القلوب يداوون قلوبهم ولا دواء من حيث الظاهر إلا هذه الأعمال الدالة على النذل والتواضع وقبول المنّة ، ومن حيث الباطن المعارف التي ذكرناها ، هذا من حيث العمل وذلك من حيث العلم . ولا يعالج القلب إلا بجميعون العلم والعمل ، وهذه الشريطة من الزكوات تجري مجرى الخشوع من الصلاة وثبت ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم « ليس للره من صلاته إلا ما عقل منها <sup>(١)</sup> » وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « لا يتقبل الله صدقة من منان » وكقوله عز وجل ﴿ لا تطعوا صدقاتكم بالبن والاذى ﴾ وأما فتوى الفقيه بوقوعها وموقعها وبرائة ذمتها دون هذا الشرط لحديث آخر وقد أشرنا إلى معناه في كتاب الصلاة .

الوظيفة السادسة : أن يستصغر العظمة فإنه إن استعظمها أعجب بها والعجب من المهلكات وهو محبط للأعمال . قال تعالى ﴿ وبوم حين إذا اجتبتكم كثرتكم فلم تكن عنكم شيئاً ﴾ ويقال إن الطاعة كلها استصغرت عظمت عند الله عز وجل . والمعصية كلها استعظمت صغرت عند الله عز وجل . وقيل لا يتم المعروف إلا بثلاثة أمور : تصغيره وتمجيله وسره وليس الاستعظام هو المن والأذى ؟ فإنه لو صرف ماله إلى عمارة مسجد أو رباط أمكن فيه الاستعظام ولا يمكن فيه المن والأذى بل العجب والاستعظام يجري في جميع العبادات ودواؤه علم وعمل . أما العلم : فهو أن يعلم أن العشر أو ربع العشر قليل من كثير وأنه قد قنع لنفسه بأخص درجات البذل كما ذكرنا في فهم الوجوب فهو جدير بأن يستحي منه فكيف يستعظمه ؟ وإن ارتقى إلى الدرجة العليا فبذل كل ماله أو أكثره قليلاً ما أنه من أين له المال وإلى ماذا يصرفه ؟ فالمال لله عز وجل وله المنّة عليه إذ أعطاه ووفقه لبذله فم يستعظم في حق الله ما هو عن حق الله سبحانه ؟ وإن كان مقامه يقتضي أن ينظر إلى الآخرة وأنه يبذل للثواب فلم يستعظم بذل ما ينتظر عليه أضعافه ؟ وأما العمل : فهو أن يعطيه عطاء الخجل من بخله بامساك بقية ماله عن الله عز وجل فتكون هيئته الانكسار والحياء ، كميته من يطالب برد ودية فيمسك بعضها ويرد البعض ، لأن المال كله لله عز وجل وبذل جميعه هو الأحب عند الله سبحانه ، وإذ لم يأمر به عبده لأنه يشق عليه بسبب بخله كما قال الله عز وجل ﴿ فيحبكم بتخلوا ﴾ .

الوظيفة السابعة : أن يتقن من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه فإن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً . وإذا كان المخرج من شبهة فربما لا يكون ملكاً لمطلقاً فلا يقع الموقع . وفي حديث أبان عن أنس بن مالك « طوبى لعبد أففق من مال اكتسبه من غير معصية <sup>(٢)</sup> » وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الآداب إذ قد يسلك الجليل لنفسه أو لعبد أو لأهله فيكون قد أثر على الله عز وجل غيره ، ولو قل هذا بضيفه وقدم إليه أردأ طعام في بيته لأوغر بذلك صدره ، هذا إن كان نظره إلى الله عز وجل ، وإن كان نظره إلى نفسه وثوابه في الآخرة فليس بعامل من يؤثر غيره على نفسه ، ليس له من ماله إلا ما تصدق به فأبقى أو أكل فأفنى ، والذي يأكله فقراء وطرف في الحال فليس من العقل قصر النظر على العاجلة وترك الادخار وقد قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم وما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بأخذيه إلا أن تفضوا فيه ﴾ أي لاتأخذوه إلا مع كراهية وحياء وهو معنى الإغاض فلا تؤثروا به بهم . وفي الخبر « سبق درهم مائة ألف درهم <sup>(٣)</sup> »

(١) « ليس للمؤمن من صلاته إلا ما عقل منها » تقدم في الصلاة .

(٢) حديث أنس « طوبى لعبد أففق من مال اكتسبه من غير معصية » أخرجه عدوى واليزار .

(٣) « سبق درهم مائة ألف » أخرجه النسائي وابن جبان وصححه من الحديث أبي هريرة .

وذلك بأن يخرج الإنسان وهو من أجل ماله وأجوده فيصدر ذلك عن الرضا والفرح بالبلد ، وقد يخرج مائة ألف درهم مما يكره من ماله فيبدل ذلك على أنه ليس يؤثر الله عز وجل بشيء مما يحبه . وبذلك ذم الله تعالى قوما جعلوا لله ما يكرهون فقال تعالى ﴿ وَيَجْعَلُونَ لله مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى ﴾ لا وقت بعض القراء على النفي تكذيباً لهم ، ثم ابتداء وقال ﴿ جَرَمَ أَنْ لَهُمُ النَّارُ ﴾ أى كسب لهم جعلهم لله ما يكرهون النار . الوظيفة الثامنة : أن يطالب لصدقة من تزكو به الصدقة ولا يكتفى بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليخرج خصوص تلك الصفات وهي ستة :

الأولى : أن يطالب الأتقياء المرضيين عن الدنيا المتجردين لتجارة الآخرة ، قال عليه السلام : « لا تأكل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي (١) » وهذا لأن التقي يستعين به على التقوى فتكون شركاً له في طاعته بإعطائك إياه وقال عليه السلام : « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين (٢) » وفي لفظ آخر « أضف بطعامك من تحبه إلى الله تعالى (٣) » وكان بعض العلماء يؤثر بالطعام فقراء الصوفية دون غيرهم فقتل له : لو عمت بمعروفك جميع الفقراء لكان أفضل . فقال : لا هؤلاء قوم همهم لله سبحانه فإذا مارقتهم فاقة تشقت هم أحدهم فلأن أرد همة واحد إلى الله عز وجل أحب إلى من أن أعطى ألفاً ممن همته الدنيا ، فذكر هذا السلام للجنييد فاستحسنه وقال : هذا ولي من أولياء الله تعالى وقال : ما سمعت منذ زمان كلاماً أحسن من هذا ، ثم حكى أن هذا الرجل اختل حاله وهم بترك الحانوت فبعث إليه الجنييد مالا وقال : اجعله بضاعتك ولا تترك الحانوت فإن التجارة لا تضر مثلك ، وكان هذا الرجل بقالا لا يأخذ من الفقراء شئ مما يحتاجون منه .

الصفة الثانية : أن يكون من أهل العلم خاصة فإن ذلك إمانة له على العلم ، والعلم أشرف العبادات مهما صحته فيه النية . وكان ابن المبارك يخص بمعرفته أهل العلم فقيل له : لو عمت ، فقال : إني لا أعرف بعدد مقام الثبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل قلب أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفرغهم للعلم أفضل .

الصفة الثالثة : أن يكون صادقا في تقواه وعلمه بالتوحيد . وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه ولم ينظر إلى واسطة فهذا هو أشكر العباد لله سبحانه وهو أن يرى أن النعمة كلها منه . وفي وصية لقمان لابنه : لا تجعل بينك وبين الله متعيا واحدد نعمة غيره عليك مغرما . ومن شكر خير الله سبحانه فمكأنه لم يعرف المنعم ولم يتيقن أن الواسطة مقهور مسخر يتسخّر الله عز وجل إذ سلب الله تعالى عليه دواهي القمل ويسر له الأسباب فأعطى وهو مقهور ، ولو أراد تركه لم يقدر عليه بعد أن ألقى الله عز وجل في قلبه أن صلاح دينه ودينه في فعله . فهما قوى الباعث أوجب ذلك جزم الإرادة واتهاض القدرة ولم يستطع العبد مخالفة الباعث القوي الذي لا تردد فيه . والله عز وجل خالق البواعث ومهيئها ومزيل للضعف والتردد عنها ومسخر القدرة للاتهاض بمقتضى البواعث . فمن يتيقن هذا لم يكن له نظر إلا إلى مسبب الأسباب . ويتيقن مثل هذا العبد أنفع للبعثي من نناء غيره وشكره ، فذلك حركة لسان يقل في الأكثر جدواه وإعانة مثل هذا العبد الموحد لا تضيق ، وأما الذي يمدح بالعطاء ويدعو بالخير فيسبى بالمنع ويدعو بالشر عند الإيذاء وأحواله متفارقة . وقد روى أنه عليه السلام بعث معروفا إلى بعض الفقراء . وقال الرسول احفظ ما يقول ، فلما أخذ قال : الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ولا ينسئ من شكره ، ثم قال : اللهم لك لم تنس فلانا — يعنى نفسه — فأجعل فلانا لا ينسك — يعنى بفلان نفسه — فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك

(١) « لا تأكل كل إلا طعام تقي ولا يأكل طعامك إلا تقي » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث أبي سعيد بلقط  
« لا تصحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي » .

(٢) « أطعموا طعامكم الأتقياء وأولوا معروفكم المؤمنين » أخرجه ابن المبارك في البر والصلة من حديث أبي سعيد الخدرى قال ابن طاهر غريب فيه مجهول .

(٣) « أضف بطعامك من يحبه الله » أخرجه ابن المبارك أئبنا جوير عن الضحاك مرسلا .

فسر وقال عليه السلام : علمت أنه يقول ذلك (١) « فانظر كيف قصر الثقات على الله وحده » وقال عليه السلام لرجل : تب فقال : أتوب إلى الله وحده ولا أتوب إلى محمد ، فقال عليه السلام عرف الحق لأمله (٢) « ولما نزلت براءة عائشة رضی الله عنها في قصة الإفك قال أبو بكر رضي الله عنه لها : قومي فقبلي رأس رسول الله ﷺ ، فقالت : والله لا أفعل ولا أحمد إلا الله . فقال عليه السلام : دعها يا أبا بكر (٣) « وفي لفظ آخر « أنها رضي الله عنها قالت لأبي بكر رضي الله عنه : لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » فلم ينكر رسول الله ﷺ عليها ذلك مع أن الوحي وصل إليها على لسان رسول الله ﷺ . وروية الأشياء من غير الله سبحانه وصف الكافرين قال الله تعالى ﴿ وإذا ذكر الله وحده اشأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ﴾ ومن لم يصف باطنه عن رؤيته الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فلكأنه لم ينفك عن الشرك الحق سره . فليقت الله سبحانه في تصفية توحيده من كدورات الشرك وشوائبه .

الصفة الرابعة : أن يكون مستترا غنيا حاجته لا يكسر البت والفقوى أو يكون من أهل المروءة من ذهب نعمته وبقيت عادته فهو يعيش في جلباب التجميل قال الله تعالى ﴿ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا ﴾ أي لا يلحون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم ، وهذا ينبغي أن يطالب بالتفحص عن أهل الدين في كل محلة ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجميل فتواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال .

الصفة الخامسة : أن يكون معيلا أو محبوسا عرض أو سبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل : ﴿ للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ﴾ أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو صدق معيشة أو إصلاح قلب ﴿ لا يستطيعون ضرباً في الأرض ﴾ لأنهم مقصودوا الجناح مقيدوا الأعراف . فهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطى أهل البيت القطيع من الغنم - المشرة فاقوها - وكان عليه السلام يعطى المعطاء على قدر العيلة (٤) وسأل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال : كثرة البليات وقلة المال .

الصفة السادسة : أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدقة وصلة رحم وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى قال علي رضي الله عنه : لأن أصل أعمام من إخواني بدم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهما لأن أصله بعشرين درهما أحب إلي من أن أتصدق بمائة درهم ولأن أصله بمائة درهم أحب إلي من أن أعتق رقبة . والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً

(١) « بث معروفا إلى بعض الفقراء وقال الرسول احفظ مايقول فلما أخذه قال الحمد لله الذي لا ينسى من ذكره ... » لم أجده أصلا إلا في حديث ضعيف من حديث ابن عمر روى ابن منده في الصحابة أوله ولم يسبق هذه القطعة التي أوردها المصنف وسمى الرجل حديثا ، قد رويانا من طريق البيهقي « أنه وصل لحدير من أبي الرداء شيء . فقال اللهم إنك لم تنس حديثا فاحمل حديثا لا ينسك » وقيل إن هذا آخر لاصحبه له يكنى أبا حريرة وقد ذكره ابن حبان في ثقات التابعين . (٢) « قال لرجل تب قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد ... » أخرجه أحمد والطبراني من حديث الأسود ابن سريع بسند ضعيف . (٣) « لما نزلت براءة عائشة قال أبو بكر قومي فقبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ... » أخرجه أبو داود من حديث عائشة بلفظ « فقال أبواي قومي فقبلي رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت أحمد الله لا إياك » وللبخاري تعليقا « فقال أبي قومي إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدا ولكن أحمد الله » وله ومسلم « وقالت لي أبي قومي إليه فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمدا إلا الله » وللطبراني « وقالت محمد الله لا أحمده صاحبك » وله من حديث ابن عباس « وقالت لا بحمدك ولا بحمد صاحبك » وله من حديث ابن عمر « فقال أبو بكر قومي فاحضني رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت لا والله لا أدنو منه ... » وفيه « أنها قالت للبي صلى الله عليه وسلم بحمد الله لا بحمدك » . (٤) « كان يعطى المعطاء على مقدار العيلة » لم أره أصلا ولأبي داود من حديث عوف بن مالك « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أتاه النبي قسمه في يومه وأعطى الأهل حظين وأعطى العزب حظا » .

يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب ؛ فليراع هذه الدقائق فهذه هي الصفات المطلوبة ، وفي كل صفة درجات فيبني أن يطلب أعلاها ، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والنفيسة العظمى ومهما اجتهد في ذلك وأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر واحد ؛ فإن أحد أجره في الحال نظيره نفسه عن صفة البخل وتأكيد حب الله عز وجل في قلبه واجتهاده في طاعته ، وهذه الصفات هي التي تقوى في قلبه إلى لقاء الله عز وجل . والأجر الثاني ما يعود إليه من فائدة دعوة الأخذ ومهته فإن قلوب الأبرار لها آثار في الحال وللأس ، فإن أصاب حصل الأجران وإن أخطأ حصل الأول دون الثاني فهذا يضاعف أجر المصيب في الاجتهاد ههنا وفي سائر المواضع والله أعلم .

### الفصل الثالث : في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه

#### بيان أسباب الاستحقاق

أعلم أنه لا يستحق الزكاة إلا حر مسلم ليس بهاشي ولا بمطلي انصف بصفة من صفات الأصناف الثمانية المذكورين في كتاب الله عز وجل . ولا تصرف زكاة إلى كافر ولا إلى عبد ولا إلى هاشي ولا إلى مطلي . أما الصبي والمجنون فيجوز الصرف إليهما إذا قبض وليهما فلنذكر صفات الأصناف الثمانية :

( الصنف الأول ) الفقراء : والفقير هو الذي ليس له مال ولا قدرة له على الكسب ، فإن كان معه قوت يومه وكسوة ماله فليس بفقير ولكنه مسكين ، وإن كان معه نصف قوت يومه فهو فقير ، وإن كان معه قبض وليس معه سنديل ولا خف ولا سراويل ولم تكن قيمة القميص بحيث تنفي جميع ذلك كما يليق بالفقراء فهو فقير ؛ لأنه في الحال قد عدم ما هو محتاج إليه وما هو عاجز عنه فلا يبنى أن يشترط في الفقير أن لا يكون له كسوة سائر العورة فإن هذا غلو ، والغالب أنه لا يوجد مثله ولا يخرج عن الفقر كونه متتادا السؤال ؛ فلا يجعل السؤال كسبا بخلاف ما لو قدر على كسب فإن ذلك يخرج عن الفقر فإن قدر على الكسب بألة فهو فقير ويجوز أن يشتري له آلة . وإن قدر على كسب لا يليق بمرءته وبحال مثله فهو فقير ، وإن كان متفقها ويمتعه الاشتغال بالكسب عن التفقه فهو فقير ولا تضر قدرته ، وإن كان متعبدا بيمينه الكسب من وظائف العبادات وأوراد الأوقات فليكتسب لأن الكسب أولى من ذلك قال صلى الله عليه وسلم « طلب الحلال فريضة بعد الفريضة »<sup>(١)</sup> وأراد به السعي في الاكتساب ، وقال عمر رضي الله عنه : كسب في شبهة خير من مسألة . وإن كان مكنتها بنفقة أبيه أو من يحب عليه نفقته فهذا أهون من الكسب فليس بفقير .

( الصنف الثاني ) المساكين : والمسكين هو الذي لا يفي دخله بمخرجه فقصد بملك ألف درهم وهو مسكين وقد لا يملك إلا فأسا وحبالا وهو غني ، والدورية التي يسكنها والثوب الذي يستره على قدر حاله لا يسلبه اسم المسكين ، وكذا أثاث البيت - أعني ما يحتاج إليه - وذلك ما يليق به ، وكذا كتب الفقه لا تخرجه عن المسكينة إذ لم يملك إلا الكتب فلا تلزمه صدقة الفطر . وحكم الكتاب حكم الثوب وأثاث البيت فإنه محتاج إليه ولكن يبنى أن محتاط في قطع الحاجة بالكتب ، فالكتاب محتاج لثلاثة أغراض : التعلم والاستفادة والتفرج بالمطالعة . أما حاجة التفرج فلا تعتبر كافتناء كتب الأشعار وتواريخ الأخبار وأمثال ذلك مما لا ينفع في الآخرة ولا يجري في الدنيا إلا يجري التفرج والاستئناس فهذا يباع في الكفارة وزكاة الفطر وتمنع اسم المسكينة . وأما حاجة التعلم إن كان لأجل الكسب كالمؤدب والمعلم والمدرس بأجرة فهذه آتله فلا تباع في الفطرة كأدوات الخياط وسائر الحرفين ،

(١) « طلب الحلال فريضة » أخرجه الطبراني والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن مسعود بسند ضعيف.

وإن كان يدرس للقيام بفرض الكفاية فلا يتابع ولا يسلبه ذلك اسم المسكين لأنها حاجة ممة ، وأما حاجة الاستفاضة والكاتب من الكتاب كادخاره كتب طب ليعالج بها نفسه أو كتاب وعظ ليطلق فيه ويتعظ به فإن كان في البلد طبيب ورع عظم هذا مستغنى عنه وإن لم يكن فهو محتاج إليه . ثم ربما لا يحتاج إلى مطالعة الكتاب إلا بعد مدة فينبغي أن يضبط مدة الحاجة . والأقرب أن يقال مالا يحتاج إليه في السنة فهو مستغنى عنه فإن من فضل من قوت يومه شيء لزمته الفطرة . فإذا قدرنا القوت باليوم لحاجة أثاث البيت وثياب البدن ينبغي أن تقدر بالسنة ، فلا يتابع ثياب الصيف في الشتاء والكتاب بالثياب والأثاث أشبه وقد يكون له من كتاب نستختار فلاحا إلى إحداهما . فإن قال : إحداهما أصح والأخرى أحسن فأنا محتاج إليهما قلنا : اكف بالأصح وبع الأحسن ودع التفرج والترفه . وإن كان نستختار من علم واحد إحداهما بسيطة والأخرى حجيصة فإن كان مقصوده الاستفادة فليكتف بالبسيطة وإن كان قصده التدريس فيحتاج إليهما إذ في كل واحدة قاعدة ليست في الأخرى . وأمثال هذه الصور لا تنحصر ولم يتعرض له في فن الفقه وإنما أوردناه لعموم البلوى والتنبية بحسن هذا النظر على غيره . فإن استقصاء هذه الصور غير ممكن إذ يتعدى مثل هذا النظر في أثاث البيت في مقدارها وعددها ونوعها وفي ثياب البدن وفي الدار وسعتها وعينيتها . وليس لهذه الأمور حدود محدودة ولكن الفقيه يجتهد فيها برأيه ويقرب في التحديدات بما يراه ويقتحم فيه خطر الشهات . والمتروك يأخذ فيه بالأحوط ويدع ما يربيه إلى المأربيه . والدرجات المتوسطة المشكلة بين الأطراف المتقابلة الجلية كثيرة ولا ينبغي منها إلا الاحتياط والله أعلم .

(الصف الثالث) العالمون : وهم السعاة الذين يجمعون الزكوات سوى الخليفة والقاضي ويدخل فيه العريف والكاتب والمستوف والحافظ والنقال ولا يزداد واحد منهم على أجرة المثل ، فإن فضل شيء من الثمن عن أجر مثلهم رد على بقية الأصناف وإن نقص كل من مال المصالح .

(الصف الرابع) المؤلفون فلوهم على الإسلام : وهم الأشراف الذين أسلوا وهم مطاعون في قومهم ، وفي إعطائهم تقريرهم على الإسلام وترقيب نظائرهم وأتباعهم .

(الصف الخامس) المكاتبون : فيدفع إلى السيد سهم المكاتب وإن دفع إلى المكاتب جاز ولا يدفع السيد زكاته إلى مكاتب نفسه لأنه يعد عبدا له .

(الصف السادس) الغارمون : والغارم هو الذي استقرض في طاعة أو مباح وهو فقير فإن استقرض في معصية فلا يعطى إلا إذا تاب ، وإن كان غنيا لم يقض دينه إلا إذا كان قد استقرض لمصلحة أو إطفاء قننة

(الصف السابع) الغزاة : الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهم وإن كانوا أغنياء إعانة لهم على الغزو .

(الصف الثامن) ابن السبيل : وهو الذي شخص من بلده ليسافر في غير معصية أو اجتاز بها فيعطى إن كان فقيرا وإن كان له مال يبلد آخر أعطى بقدر بلقته .

فان قلت : فهم تعرف هذه الصفات قلنا : أما الفقر والمسكنة فيقول الآخذ ولا يطالب ببيئته ولا يحلف بل يجوز اعتدائه قوله إذا لم يعلم كذبه . وأما الغزو والسفر فهو أمر مستقبل فيعطى بقوله إن غار فإن لم يف به استرد . وأما بقية الأصناف فلا بد فيها من البيئة فهذه شروط الاستحقاق . وأما مقدار ما يصرف إلى كل واحد فمستأني .

### بيان وظائف القابض وهي خمسة

(الأولى) أن يعلم أن الله عز وجل أوجب صرف الزكاة إليه ليكني هموي يجعل همومهما واحدا . فقد تعبد الله عز وجل الخلق بأن يكون مهمهم واحداً وهو الله سبحانه واليوم الآخر هو المعنى بقوله تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدن ﴾ ولكن لما اقتضت الحكمة أن يسلب على العبد الشهوات والحاجات وهي تفرق همه

اقتضى الكرم إفاضة نعمة تكتفي الحاجات فأكثر الأموال وصحبها في أيدي عباده لتكون آلة لهم في دفع حاجاتهم ووسيلة لتفرغهم لطاعتهم ، فهم من أكثر ماله فتنة وبلية فأقحمه في الخطر ومنهم من أحبه فحماه عن الدنيا كما يحمي المشفق مريضه فزوى عنه فضولها وساق إليه قدر حاجته على يد الأغنياء ليكون سهل الكسب والتمتع في الجمع والحفظ عليهم ، وفادته تنصب إلى الفقراء فيتجدون لميادة الله والاستعداد لما بعد الموت فلا تصرفهم عنها فضول الدنيا ولا تقنطهم عن التأهب للفاقة وهذا انتهى النعمة . فتحق الفقير أن يعرف قدر نعمة الفقر ويتحقق أن فضل الله عليه فيما زواه عنه أكثر من فضله فيما أعطاه كما سيأتي في كتاب الفقر تحقيقه وبيانه إن شاء الله تعالى . فليأخذ ما يأخذه من الله سبحانه رزقا لهوعونا له على الطاعة ولتسكن نيته فيه أن يتقوى به على طاعة الله فإن لم يقدر عليه فليصرفه إلى ما أباحه الله عز وجل فإن استعان به على معصية الله كان كافرا لأنعم الله عز وجل مستحقا للبعد والمقت من الله سبحانه .

(الثانية) أن يشكر المعطى ويدعو له ويثني عليه ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج به عن كونه واسطة ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه ، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقا واسطة وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » (١) وقد أثني الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها واطر القدرة عليها نحو قوله تعالى ﴿ نعم المبدأ إنه أواب ﴾ إلى غير ذلك . وليقل القابض في دعائه طهر الله قلبك في قلوب الأبرار وزك عملك في عمل الأخيار وصلى على روحك في أرواح الشهداء وقد قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » (٢) ومن تمام الشكر أن يستر عيوب المطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه ولا يميزه بالمنع إذا منع وبفهم عند نفسه وعند الناس صليهم . فوظيفة المعطى الاستفسار ووظيفة القابض تذلل المنة والاستعظام . وعلى كل عبد القيام بحقه ؛ وذلك لانتافض فيه إذ موجبات التصغير والتعظيم تمارض . والنافع للمعطى ملاحظة أسباب التصغير ويضرب خلافه والأخذ بالمعكس منه . وكل ذلك لا ينافض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة واسطة فقد جهل وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلا .

(الثالثة) أن ينظر فيما يأخذه فإن لم يكن من حل تورع عنه ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾ وإن بعدم المتورع عن الحرام فتوحا من الحلال . فلا يأخذ من أموال الأتراك والجنود وعمال السلاطين ومن أكثر كسبه من الحرام إلا إذا ضاق الأمر عليه وكان ما يسلم إليه لا يعرف له مالكا معينا فله أن يأخذ بقدر الحاجة ، فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به . على ماسياتي بيانه في كتاب الحلال والحرام . وذلك لإذاعجر عن الحلال فاذا أخذ لم يكن أخذه . أخذ زكاة إذ لا يقع زكاة عن مؤديه وهو حرام .

(الرابعة) أن يتوق مواقع الريق والاشتباه في مقدار ما يأخذه إلا المقدار المباح ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق . فإن كان يأخذه بالكتابة والغرامة فلا يرد على مقدار الدين . وإن كان يأخذ بالعمل فلا يرد على أجرة المثل وإن أعطى زيادة أبي وامتنع إذ ليس المال للمعطي حتى يتبرع به . وإن كان مسافرا لم يرد على الزاد وكراء الدابة إلى مقصده . وإن كان غائرا لم يأخذ إلا ما يحتاج إليه للغزو خاصة من خيل وسلاح وثققة . وتقدير ذلك بالأجتهاد وليس له حد وكذا زاد السفر ، والزور ترك ما يريه إلا مالا يريه . وإن أخذ بالمسكنة فليستظر أولا إلى اثاث بيته وثيابه

(١) « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » أخرجه الترمذي وحسنه من حديث أبي سعيد وله ولأبي داود وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة وقال حسن صحيح . (٢) « من أسدى إليكم معروفًا فكافئوه ... » أخرجه أبو داود والنسائي من حديث ابن عمر بإسناد صحيح بلفظ « من صنع » .

وكتبه هل فيها ما يستغنى عنه بعينه أو يستغنى عن نفاسه فيمكن أن يبدل بما يكن ويفضل بعض قيمته ؛ وكل ذلك إلى اجتهاده . وفيه طرف ظاهر يشقق معه أنه مستحق وطرف آخر مقابل يتحقق معه أنه غير مستحق وبينهما أوساط مشكبة ، ومن حام حول الحى يوشك أن يقع فيه ، والاعتدال في هذا على قول الأخذ ظاهرا . وللحاج في تقدير الحاجات مقامات في التضييق والتوسيع ولا تنحصر مراتبه وميل الورع إلى التضييق وميل المتساهل إلى التوسيع حتى يرى نفسه محتاجا إلى فنون من التوسع وهو عمقوت في الشرع . ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذن مالا كثيرا بل ما يتم كفايته من وقت أخذه إلى سنة . فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث أن السنة إذا تكررت تكررت أسباب الدخول . ومن حيث إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ادخر لعياله قوت سنة<sup>(١)</sup> فهذا اقرب ما يجد به حد الفقير والمسكين ولو اقتصر على حاجة شهره أو حاجة يومه فهو اقرب للتقوى . ومذاهب العلماء في قدر المأخوذ بحكم الزكاة والصدقة مختلفة فمن مبالغ في التقليل إلى حد اوجب الاتصاف على قدر قوت برمه وليك وتمسكوا بما روى سهل بن الحنفلية « انه صلى الله عليه وسلم نهى عن السؤال مع الفنى فسل عن غناه فقال صلى الله عليه وسلم غداؤه وعشاؤه<sup>(٢)</sup> » وقال آخرون : يأخذ إلى حد الفنى . وحد الفنى نصاب الزكاة إذ لم يوجب الله تعالى الزكاة إلا على الأغنياء فقالوا له ان يأخذ بنفسه ولكل واحد من عياله نصاب زكاة . وقال آخرون : حد الفنى خمسون درهما أو قيمتها من الذهب لما روى ابن مسعود انه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله مال يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش فسل وما غناه ؟ قال خمسون درهما أو قيمتها من الذهب<sup>(٣)</sup> » وقيل : راويه ليس بقوى وقال قوم : اربعون ، لما رواه عطاء بن يسار منقطعاً انه صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال<sup>(٤)</sup> » وبألف آخرون في التوسيع فقالوا : له ان يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغنى به طول عمره أو يهيئ بضاعة ليتجر بها ويستغنى بها طول عمره لأن هذا هو الفنى وقد قال عمر رضى الله عنه : إذا أعطيت فأغنوا ؛ حتى ذهب قوم إلى ان من افتقر لله ان يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم إلا إذا خرج من حد الاعتدال ، ولما شغل أبو طلحة ببستانه عن الصلاة قال : جعلته صدقة ، فقال صلى الله عليه وسلم « اجعله في قرابتك فهو خير لك<sup>(٥)</sup> » فأعطاه حسان وأبا قتادة ، فحاط من نخل لرجلين كثير مغن وأعطى عمر رضى الله عنه اعرابيا ناقة معها ظئرها ، فهذا ما حكي فيه فأما التقليل إلى قوت اليوم أو الأوقية فذلك ورد في كراهية السؤال والتردد على الأبواب وذلك مستنكر وله حكم آخر ؛ بل التحويل إلى ان يشتري ضيعة فيستغنى بها اقرب إلى الاحتمال وهو ايضا مائل إلى الإسراف والأقرب إلى الاعتدال كفاية سنة فما وراءه فيه خطر وفيما دونه تضييق . وهذه الأمور إذا لم يكن فيها تقدير جرم بالتوقيف فليس للجهل إلا الحكم بما يقع له . ثم يقال للورع « استفت قلبك وإن أتوك<sup>(٦)</sup> » كما قاله صلى الله عليه وسلم إذ الإثم حراز القلوب ، فإذا وجد القابض في نفسه شيئا مما يأخذ فليترك الله فيه ولا يترخص تمللا بالفتوى من

- (١) « ادخر لعياله قوت سنة » أخرجه من حديث عمر « كان يوزل نفقة أهله سنة » وللطبراني في الأوسط من حديث أنس « كان إذا ادخر لأهله قوت سنة تصدق بما بقى » قال الذهبي حديث منكر .  
 (٢) حديث سهل بن الحنفلية « في النهي عن السؤال مع الفنى فيسأل ما يغنيه فقال غداؤه وعشاؤه » أخرجه أبو داود وابن جبان بلفظ « من سأل وله ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ... » .  
 (٣) حديث ابن مسعود « من سأل وله ما يغنيه جاء يوم القيامة وفي وجهه خموش ... » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذى وضعفه النسائي والخطابي .  
 (٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني اسد متصل وليس ينقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائي وابن جبان من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لما شغل أبا طلحة ببستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم في الصلاة (٦) « استفت قلبك وإن أتوك » تقدم في العلم .

(٤) حديث عطاء بن يسار منقطعاً « من سأل وله أوقية فقد ألحف في السؤال » أخرجه أبو داود والنسائي من رواية عطاء عن رجل من بني اسد متصل وليس ينقطع كما ذكر المصنف لأن الرجل صحابي فلا يضر عدم تسميته وأخرجه أبو داود والنسائي وابن جبان من حديث أبي سعيد (٥) حديث « لما شغل أبا طلحة ببستانه عن الصلاة قال جعلته صدقة » تقدم في الصلاة (٦) « استفت قلبك وإن أتوك » تقدم في العلم .



علاء الظاهر فإن لغتوام قيوداً ومطالعات من الضرورات ، وفيها تخمينات واقحام شبهات . والتوفى من الشبهات من شتم ذوي الدين وعادات السالكين لطريق الآخرة .

(الخامسة) أن يسأل صاحب المال عن قدر الواجب عليه فإن كان ما يعطيه فوق الثمن فلا يأخذ منه فإنه لا يستحق مع شريكه إلا الثمن فليستقص من الثمن مقدار ما يصرف إلى اثنين من صفته . وهذا السؤال واجب على أكثر الخلق فإنهم لا يراعون هذه القسمة إما لجهل وإما لتساهل ، وإنما يجوز ترك السؤال عن مثل هذه الأمور إذا لم يغلّب على الظل احتمال التحريم . وسيأتي ذكر مظان السؤال ودرجة الاحتمال في كتاب الحلال والحرام إن شاء الله تعالى .

## الفصل الرابع : في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها واعطائها

### بيان فضيلة الصدقة

من الأخبار : قوله ﷺ « تصدقوا ولو بتمره فإنها تسد من الجائع وتطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار » (١) وقال ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » (٢) وقال ﷺ « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً إلا كان الله أخذها بيمينه فيربها كما يرى أحدكم فصله حتى تبلغ الفترة مثل أحد » (٣) وقال ﷺ « إذا طبخت مرققة فأكثر ماها ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك أقصم منه بمعرفة » (٤) وقال ﷺ « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله عز وجل الخلافة على تركته » (٥) وقال ﷺ « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » (٦) وقال ﷺ « الحسننة تسد سبعين باباً من الشر » (٧) وقال ﷺ « صدقة السر تطفى غضب الرب » وقال رسول الله ﷺ « ما الذي أعطى من سعة بأفضل أجراً من الذي يقبل من حاجة » (٨) ولعل المراد به الذي يقصد من دفع حاجته التفرغ للدين فيكون مساوياً للمعطي الذي يقصد باعطائه عمارة دينه . وسئل رسول الله ﷺ « أي الصدقة أفضل ؟ قال : أن تصدق وأنت صحيح صحيح تأمل البقاء وتغشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الخلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا وقد كان لفلان (٩) » وقد قال ﷺ يوماً لأصحابه « تصدقوا فقال رجل إن عندي ديناراً فقال أنفق على نفسك فقال إن عندي آخر قال أنفق »

(١) « تصدقوا ولو بتمره فإنها تسد من الجائع وتطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث عكرمة مرسلًا ولأحمد من حديث عائشة بسند حسن « استترى من النار ولو بشق تمرة فإنها تسد من الجائع مسدها من الشيطان » ولأبي يعلى والبزار من حديث أبي بكر « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإنها تقوم الموضع وتدفع ميتة السوء وتفتح من الجائع موقعها من الشيطان » وإسناده ضعيف وللترمذي والنسائي في الكبرى وابن ماجه في حديث معاذ « والصدقة تطفى الخطيئة كما يطفى الماء النار » . (٢) « اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة » أخرجه من حديث عدي بن حاتم . (٣) « ما من عبد مسلم يتصدق بصدقة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا طيباً... » أخرجه البخاري تعليقاً ومسلم والترمذي والنسائي في الكبرى واللفظ لابن ماجه من حديث أبي هريرة . (٤) « قال لأبي الدرداء إذا طبخت مرققة فأكثر ماها... » أخرجه من حديث أبي ذر أنه قال ذلك له وما ذكره للصف أنه قال لأبي الدرداء وهم . (٥) « ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على تركته » أخرجه ابن المبارك في الزهد من حديث ابن شهاب مرسلًا بإسناد صحيح وأسنده الخطيب فيمن روى عن ذلك من حديث ابن عمر وضعفه . (٦) « كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس » أخرجه ابن حبان والحاكم وصححه على شرط مسلم من حديث عقبة ابن عامر . (٧) « الصدقة تسد سبعين باباً من الشر » أخرجه ابن المبارك في البر من حديث أنس بسند ضعيف « إن الله ليدرك بالصدقة سبعين باباً من ميتة السوء » . (٨) « ما المعطى من سعة بأفضل أجراً من الذي يقبل من حاجة » أخرجه ابن حبان في الضعفاء والطبراني في الأوسط من حديث أنس ورواه في الكبير من حديث ابن عمر بسند ضعيف . (٩) « سئل أي الصدقة أفضل قال أن تصدق وأنت صحيح صحيح » أخرجه من حديث أبي هريرة (٢٩ — إحياء علوم الدين ١)

على زوجتك قال إن عندى آخر قال أنفق على وادك قال إن عندى آخر قال أنفق على خادمك قال إن عندى آخر قال **بُني** أنت أبصر به<sup>(١)</sup> وقال **بُني** « لا تحمل الصدقة لآل محمد إنما هي أوساخ الناس »<sup>(٢)</sup> وقال « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام »<sup>(٣)</sup> وقال **بُني** « لو صدق السائل ما أفلح من رده »<sup>(٤)</sup> وقال عيسى عليه السلام : من رد سائلاً غائباً من بيته لم تنش الملائكة ذلك البيت سبعة أيام « وكان نبيها **بُني** لا يكل خصلتين إلى غيره كان يضع طهوره بالليل ويتعصره وكان يناول المسكين بيده »<sup>(٥)</sup> وقال **بُني** « ليس المسكين الذى ترده القرّة والقرتان واللّقة واللّقمات إنما المسكين المتعصف اقرءوا إن شئتم لا يسألون الناس إلحافاً »<sup>(٦)</sup> وقال **بُني** « مامن مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله عز وجل ما دامت عليه منه رقعة »<sup>(٧)</sup> . الآثار : قال عروة بن الزبير لقد تصدقت عائشة رضى الله عنها بمخمسين ألفاً وإن درعها لم رقع . وقال مجاهد بن جبر عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « من جبه مسكيناً وبقيا وأسيرا » فقال : وهم يشتهونه ، وكان عمر رضى الله عنه يقول : اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلمهم بعودون به على ذوى الحاجة . وقال عمر بن عبد العزيز : الصلاة تبلغك نصف الطريق والصوم يبلغك باب الملك والصدقة تدخلك عليه . وقال ابن أبي الجعد : إن الصدقة تدفع سبعين باباً من السوء وفضل سرها على علانياتها بسبعين ضعفاً وإنها تنفك لحي سبعين شيطانا وقال ابن مسعود : إن رجلاً جلا به سبعين سنة ثم أصاب فاحشة فأحبط عمله ثم مرسى بن مسعود تصدق عليه فغفر الله ذنبه ورد عليه عمل السبعين سنة . وقال ليمان لابنه : إذا أخطأت خطيئة فاعط صدقة . وقال يحيى بن معاذ : ما أعرف حجة تزجبال الدنيا إلا الحجة من الصدقة . وقال عبد العزيز بن أبي رواد : كان يقال ثلاثة من كنوز الجنة كتمان المرض وكتمان الصدقة وكتمان المصائب . وروى مستنداً وقال عمر بن الخطاب : إن الأعمال نباهت : فقالت الصدقة أنا أفضلهن . وكان عبد الله بن عمر يتصدق بالسكر ويقول : سمعت الله يقول « لن تتناولوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » والله يعلم أنى أحب السكر . وقال التيمي : إذا كان الشيء لله عز وجل لا يسرنى أن يكون فيه عيب . وقال عبيد بن حمير : يمشى الناس يوم القيامة أجروحاً قط وأعطش ما ما كانوا قط وأعرى ما كانوا قط ، فمن أطعم فقعه وجل أشبعه الله ومن سقى الله عز وجل سقاء الله ومن كسا الله عز وجل كساء الله . وقال الحسن : لو شاء الله لجعلكم أغنياء لا فقير فيكم ولكن الله ابتلى بعضكم ببعض . وقال الشعبي : من لم ير نفسه إلى ثواب الصدقة أخرج من الفقر إلى صدقة فقد أبطل صدقة وضرب بها وجهه . وقال مالك : لا ترى بأساً من شرب الموسر من الماء الذى يتصدق به ويسقى به المسجد لأنه إنما جعل للمطشأن من كان ، ولم يرد به أهل الحاجة والمسكنة على الخصوص . ويقال : إن الحسن مر به نفاس

(١) « قال يوماً لأصحابه تصدقوا فقال رجل إن عندى ديناراً فقال أنفق على نفسك ... » أخرجه أبو داود والنسائي واللفظه وابن حبان والحاكم من حديث أبي هريرة وقد تقدم قبل يسير .

(٢) « لا تحمل الصدقة لآل محمد ... » أخرجه مسلم من حديث المطلب بن ربيعة .

(٣) « ردوا مذمة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام » أخرجه القليل في الضعفاء من حديث عائشة .

(٤) « لو صدق السائل ما أفلح من رده » أخرجه القليل في الضعفاء وابن عبد البر في التمهيد من حديث عائشة قال القليل لا يصح في هذا الباب شيء وللطبراني نحوه من حديث أبي أمامة بسند ضعيف .

(٥) « كان لا يكل خصلتين إلى غيره ... » أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس بسند ضعيف ورواه ابن المبارك في البر مرسلاً .

(٦) « ليس للمسكين الذى ترده القرّة والقرتان ... » متفق عليه من حديث عائشة .

(٧) « مامن مسلم يكسو مسلماً إلا كان في حفظ الله ... » أخرجه الترمذى وحسنه والحاكم وصحح إسناده من حديث ابن عباس وفيه خالد بن طهمان ضعيف .

ومعه جارية فقال لانتخاس أترضئ ثمنها الدرهم والدرهمين ؟ قال لا : قال : فاذهب فإن الله عز وجل رضى فى الحور العين بالنفس والقيمة .

### بيان إخفاء الصدقة وإظهارها

قد اختلف طريق طلاب الإخلاص فى ذلك قال قوم إلى أن الإخفاء أفضل ومال قوم إلى أن الإظهار أفضل ونحن نشير إلى مافى كل واحد من المعاني والآفات ثم نكشف الغطاء عن الحق فيه .

أما الإخفاء ففيه خمسة معان ( الأول ) أنه أبقي للستر على الآخذ فإن أخذه ظاهرا هلك لستر المروءة وكشف عن الحاجة وخروج عن هيئة التتفف والتصون المحبوب الذى يحسب الجاهل أهله أغنياء من التتفف . ( الثانى ) أنه أسلم لقلوب الناس وأستقيم فأنهم ربما يحسدون أو يشكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء أو ينسبونه إلى أخذ زبادة . والحسد وسوء الظن والفتنة من الذنوب الكبائر وصياتهم عن هذه الجرائم أولى . وقال أبو أيوب السخيتاني : إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث فى جيراني حسدا . وقال بعض الزهاد : ربما تركت استعمال الشيء لأجل إخواني يقولون من أين له هذا ؟ وعن إبراهيم التيمي : أنه رأى عليه قميص جديد فقال بعض إخوانه من أين لك هذا ؟ فقال كسانيه أخى خيشمة ولوعت أن أهله علوا به ما قبلته . ( الثالث ) إمانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر فى الإعطاء أكثر والإعانة على إتمام المعروف معروف ، والكتمان لا يتم إلا باثنين فهما أظهر هذا انكشف أمر المعطى . ودفع رجل إلى بعض العلماء شيئا ظاهرا فرده إليه ودفع إليه آخر شيئا فى السر فقبله ، فقيل له فى ذلك فقال : إن هذا عمل الأدب فى إخفاء معروفه فقبلته وذلك أساء أدبه فى عمله فردته عليه وأعطى رجلا لبعض الصوفية شيئا فى الملاء فردة فقال له : لم ترد على الله عز وجل ما أعطاك ؟ فقال : إنك أشركت غير الله سبحانه فيما كان لله تعالى ولم تقنع بالله عز وجل فرددت عليك شركك وقبل بعض العارفين فى السر شيئا كان رده فى العلانية فقيل له فى ذلك ، فقال عصيت الله بالجهر فلم أعوانك على المعصية وأطعته بالإخفاء فأعنتك على برك . وقال الثوري : لوعت أن أعدم ما يذكر صدقته ولا يتحدث بها لقلت صدقته ( الرابع ) أن فى إظهار الآخذ ذلا وامتهانا وليس للؤمن أن يذل نفسه . كان بعض العلماء يأخذ فى السر ولا يأخذ فى العلانية ويقول : إن فى إظهاره إذلالا للعلم وامتهانا لأهله لما كنت بالذى أرفع شيئا من الدنيا بوضع العلم وإذلال أهله ( الخامس ) الاحترار عن شبهة الشركه قال صلى الله عليه وسلم « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » (١) « وبأن يكون ورقا أو ذهباً لا يخرج عن كونه هدية قال صلى الله عليه وسلم « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يعطيه خبزا » (٢) لجلل الورق هدية بانفراده لما يعطى فى الملاء مكروه إلا برضا جميعهم ولا يخلو عن شبهة ، فإذا انفرده سلم من هذه الشبهة .

أما الإظهار والتحدث به ففيه معان أربعة ( الأول ) الإخلاص والصدق والسلامة عن تلبس الحال والمراماة ( والثاني ) إسقاط الجاه والمزلة وإظهار التبودية والمسكنة والتبرى عن الكبرياء ودعوى الاستغناء وإسقاط النفس من أعين الخلق . قال بعض العارفين لتلميذه : أظهر الآخذ على كل حال إن كنت آخذ فإناك لا تخلو عن أحد رجلين

(١) « من أهدى له هدية وعنده قوم فهم شركاؤه فيها » أخرجه القتيبي وابن حبان فى الضعفاء والطبراني فى الأوسط والبيهقي من حديث ابن عباس قال القتيبي لا يصح فى هذا المتن حديث .

(٢) « أفضل ما يهدى الرجل إلى أخيه ورقا أو يعطيه خبزا » أخرجه عدى وضعفه من حديث ابن عمر « أفضل العمل عند الله أن يقضى غن مسلم دينه أو يدخل عليه سرورا أو يعطيه خبزا » ولأحمد والترمذى وصححه من حديث البراء « من منح منحة ورق أو منحة لبن أو أهدى رفقا فهو كمن قاتل نسيمة » .

رجل تسقط من قلبه إذا فعلت ذلك فذلك هو المراد لأنه أسلم لدينك وأقل لآفات نفسك ، أو رجل تزداد في قلبه بإظهارك الصدق فذلك الذي يريد أخوك لأنه يزداد ثواباً بزيادة حبه لك وتعظيمه إياك فتجوز أنت إذ كنت سبب مزيد ثوابه . (الثالث) هو أن العارف لا ينظر له إلا إلى الله عز وجل والسر والعلائية في حقه واحد باختلاف الحال شرك في التوحيد قال بعضهم : كنا لانمياً بدعاء من يأخذ في السر ويرد في العلانية . والالتفات إلى الحق حضروا أم غابوا نقصان في الحال ، بل ينبغي أن يكون النظر مقصوراً على الواحد الفرد . حكى أن بعض الشيوخ كان كثير الميل إلى واحد من جملة المريدين فشق على الآخرين فأراد أن يظهر لهم فضيلة ذلك المريد ، فأعطى كل واحد منهم دجاجة وقال : لينفرد كل واحد منكم بها وليدبجها حيث لا يراه أحد . فانفرد كل واحد وذبح إلا ذلك المريد فإنه رد الدجاجة . فسأهم فقالوا : فعلنا ما أمرنا به الشيخ ، فقال الشيخ للمريد : مالك لم تدبح كما ذبح أصحابك ؟ فقال ذلك المريد : لم أقدر على فكان لا يراني فيه أحد فان الله يراني في كل موضع ، فقال الشيخ : لهذا أميل إليه لأنه لا يلتفت لغير الله عز وجل . (الرابع) أن الإظهار إقامة لسنة الشكر وقد قال تعالى ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾ والسكتان كفران النعمة وقد ذم الله عز وجل من كتم ما آتاه الله عز وجل وقرنه بالبخل فقال تعالى ﴿ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا انعم الله على عبد نعمة أحب أن ترى نعمته عليه<sup>(١)</sup> » وأعطى رجل بعض الصالحين شيئاً في السر فرجع به يده وقال : هذا من الدنيا والعلانية فيها الفضل والسر في أمور الآخرة الفضل . ولذلك قال بعضهم : إذا أعطيت في المال لخدم الله اردد في السر والشكر فيه عثوث عليه . قال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر الناس لم يشكر الله عز وجل<sup>(٢)</sup> » والشكر قائم مقام المكافأة حتى قال صلى الله عليه وسلم « من أسدى إليكم معروفا فكافئوه فان لم تستطيعوا فأنشؤا عليه به خيراً وادعوا له حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه » ولما قال المهاجرون في الشكر « يا رسول الله مارأينا خيراً من قوم نزلنا عندهم فأمسروا الأموال حتى خفنا أن ينهبوا بالآجر كله فقال صلى الله عليه وسلم كلما شكرتم لهم وإنتم عليهم به فهو مكافأة<sup>(٣)</sup> » .

فالآن إذا عرفت هذه المعاني فاعلم أن ما نقل من اختلاف الناس فيه ليس اختلافاً في المسئلة بل هو اختلاف حال ، فكشف الظاهر في هذا أننا لا نحكم حكماً بئاً بأن الإخفاء الفضل في كل حال أو الإظهار الفضل بل يختلف ذلك باختلاف النيات ويختلف النيات باختلاف الأحوال والأشخاص فينبغي أن يكون المخلص مراقباً لنفسه حتى لا يتبدل بجبل الفرور ولا يتخدر بتليس الطبع ومكر الشيطان والمسكر والخذاع أغلب في معاني الإخفاء منه في الإظهار مع أنه خلاف في كل واحد منهما . فأما مدخل الخداع في الإصرار فمن ميل الطبع إليه لما فيه من خفض الجاه والمزلة وسقوط القدر عن أعين الناس ونظر الخلق إليه بين الإزدواء وإلى المعطى بين المنعم المحسن فهذا هو الداء الدفين ويستكن في النفس . والشيطان بواسطه يظهر معاني الخير حتى يتعمل بالمعاني الخسة التي ذكرناها . ومعيار كل ذلك ومحكمه أمر واحد وهو أن يكون تأله بالكشف أخذه الصدقة كنهاله بالكشف صدقة أخذه بعض نظرائه وأمثاله ، فإنه لو كان ينبغي صيانة الناس عن الغيبة والحسد وسوء الظن أو يتق

(١) « إذا انعم الله تعالى على عبد نعمة أحب أن ترى عليه » أخرجه أحمد من حديث عمران بن حصين بسند صحيح وحسنه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

(٢) « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » تقدم .

(٣) « قالت المهاجرون يا رسول الله ما رأينا خيراً من قوم نزلنا عليهم ... » أخرجه الترمذي وصححه من حديث أنس ورواه مختصراً أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وإلحاً وصححه ابن ماجه .

انتهاك السر أو إعاقة المعطى على الإسرار أو صيانة العلم عن الابتذال فكل ذلك مما يحصل بانكشاف صدقة أخيه . فإن كان انكشاف أمره أقل عليه من انكشاف أمر غيره فتقديره الحذر من هذه المعاني أغاليط وأباميل من مكر الشيطان وخدعه ، فإن إذلال العلم بخسره من حيث إنه علم لا من حيث إنه علم زيد أو علم عمرو . والغنية مخدورة من حيث إنها تعرض لعرض مصون لامن حيث إنها تعرض لعرض زيد على الخصوص ومن أحسن من ملاحظة مثل هذا ربما يمتحن الشيطان عنه وإلا فلا يزال كثير العمل قليل الحظ . وأما جانب الإظهار قبل الطبع إليه من حيث إنه تطليب لقلب المعطى واستثبات له على مثله وإظهاره عند غيره أنه من المبالغين في الشكر حتى يرغبوا في إكرامه وتفقدوه وهذا داء دفين في الباطن ، والشيطان لا يقدر على المتدين إلا بأن يروج عليه هذا الخبث في معرض السنة ويقول له الشكر من السنة والإخفاء من الرياء ويورد عليه المعاني التي ذكرناها ليحمله على الإظهار وقصده الباطن ما ذكرناه ومعيار ذلك ومحكم أن ينظر إلى ميل نفسه إلى الشكر حيث لا يفتنى الخير إلى المعطى ولا إلى من يرغب في عطائه ، وبين يدي جماعة يكرهون إظهار العطية ويرغبون في إخفائها وعادتهم أنهم لا يعطون إلا من يخفى ولا يشكر . فإن استوت هذه الأحوال عنده فليعلم أن باعته هو إقامة السنة في الشكر والتحدث بالنعمة وإلا فهو مغرور . ثم إذا علم أن باعته السنة في الشكر فلا ينبغي أن يقفل عن قضاء حق المعطى فينظر فإن كان هو من يجب الشكر والنشر فينبغي أن يخفى ولا يشكر ؛ لأن قضاء حقه أن لا ينصره على الظن وطلبه الشكر ظلم . وإذا علم من حاله أنه لا يجب الشكر ولا يقصده فمند ذلك يشكره ويظهر صدقته . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي مدح بين يديه « ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » (١) « مع أنه صلى الله عليه وسلم كان يثني على قوم في وجوههم لثقتهم بيمينهم وعلمه بأن ذلك لا يضرهم بل يزيد في رغبتهم في الخير فقال الواحد « إنه سيد أهل الوب » (٢) « وقال صلى الله عليه وسلم في آخر « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » (٣) وسمع كلام رجل فأعجبه فقال صلى الله عليه وسلم « إن من اليان لسحرا » (٤) « وقال صلى الله عليه وسلم « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره يزداد رغبة في الخير » (٥) « وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه » (٦) « وقال الثوري : من عرف نفسه لم يضره مدح الناس . وقال أيضا ليوسف بن أسباط : إذا أوليتك معروفا كنت أنا أسر به منك ورأيت ذلك نعمة من الله عز وجل على فاشكر وإلا فلا تشكر . ودقائق هذه المعاني ينبغي أن يلحظها من يراعي قلبه فإن أعمال الجوارح مع إهمال هذه الدقائق ضحكة للشيطان وشأنه له لكثرة التعب وقلة النفع ، ومثل هذا العلم هو الذي يقال فيه : إن تعلم مسألة واحدة منه أفضل من عبادة سنة إذ بهذا العلم تصياعبادة العمر وبالجهل به تموت عبادة العمر كله وتعطل . وعلى الجملة فالأخذ في المأ والرد في السر أحسن المسالك وأسلمها ، فلا ينبغي أن يدفع بالتزويقات إلا أن تكمل المعرفة

(١) « قال للرجل الذي مدح بين يديه ضربتم عنقه لو سمعها ما أفلح » متفق عليه من حديث أبي بكره بلفظ « وبحك قطعت عنق صاحبك » زاد الطبراني في رواية « والله لو سمعها ما أفلح أبدا » وفي سننه علي بن زيد بن جدعان متكم فيه وابن ماجه نحوه من حديث أبي موسى . (٢) « إنه سيد الوب » أخرجه العنبري والطبراني وابن قانع في معاجهم وابن حبان في الثقات من حديث قيس بن عاصم اللقري « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له ذلك » .

(٣) « إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عمر ورواه أبو داود في الراسل من حديث الشعبي مرسلًا بسند صحيح وقال روى متصلًا وهو ضعيف والحاكم نحوه من حديث معبد بن خالد الأنصاري عن أبيه وصححه إسناده .

(٤) « إن من اليان لسحرا » أخرجه البخاري من حديث ابن عمر .

(٥) « إذا علم أحدكم من أخيه خيرا فليخبره فإنه يزداد رغبة في الخير » أخرجه الدارقطني في العلل من رواية ابن

السيب عن أبي هريرة . وقال لا يصح عن الزهري وروى عن ابن السيب مرسلًا .

(٦) « إذا مدح المؤمن ربا الإيمان في قلبه » أخرجه من حديث أسلمه بن زيد بسند ضعيف .

بحيث يستوى السر والعلانية وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يتحدث به ولا يرى . نأله الله الكريم حسن العون والتوفيق .

### بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة

كان لإبراهيم الخواص والجنييد وجماعة يرون . أن الأخذ من الصدقة أفضل فإن في أخذ الزكاة مزاحمة للمساكين وتعنيفاً عليهم ولأنه ربما لا يكمل في أخذه صفة الاستحقاق كما وصف في الكتاب العزيز وأما الصدقة فالأمر فيها أوسع . وقال قائلون : الزكاة دون الصدقة لأنها أمانة على الواجب . ولو ترك المساكين كلهم أخذ الزكاة لأثموا . ولأن الزكاة لأمنة فيها وإنما هو حق واجب لله سبحانه وزعاً لعباده المحتاجين . ولأنه أخذ بالحاجة والإنسان يعلم حاجة نفسه قطعاً . وأخذ الصدقة أخذ بالدين فإن الغالب أن المتصدق يعطى من يعتقد فيه خيراً ؛ ولأن مرافقة المساكين أدخل في الذل والمسكنة وأبعد من التكبر ؛ إذ قد يأخذ الإنسان الصدقة في معرض الهدية فلا تميز عنه ؛ وهذا تنصيص على ذل الأخذ وحاجته . والقول الحق في هذا أن هذا يختلف بأحوال الشخص وما يغلب عليه وما يحضره من النية فإن كان في شبهة من اتصافه بصفة الاستحقاق فلا ينبغي أن يأخذ الزكاة . فإذا علم أنه مستحق قطعاً إذا حصل عليه دين صرفه إلى غير وليس له وجه في قضائه فهو مستحق قطعاً . فإذا خبر هذا بين الزكاة وبين الصدقة فإذا كان صاحب الصدقة لا يتصدق بذلك المال لو لم يأخذه هو فليأخذ الصدقة ؛ فإن الزكاة الواجبة يصرفها صاحبها إلى مستحقها ففي ذلك تكثير للخير وتوسيع على المساكين . وإن كان المال معرضاً للصدقة ولم يكن في أخذ الزكاة تنصيص على المساكين فهو غير الأمر فيها يتفاوت وأخذ الزكاة أشد في كسر النفس وإذلالها في أغلب الأحوال والله أعلم .

كل كتاب أسرار الزكاة بحمد الله وعونه وحسن توقيفه ، ويتلوه أن شاء الله تعالى كتاب أسرار الصوم والحد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين وعلى الملائكة والمقربين من أهل السموات والأرضين وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً إلى يوم الدين والحد لله وحده وحيثما الله ونعم الوكيل .

## كتاب أسرار الصوم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم على عبادة المنة ، بما دفع عنهم كيد الشيطان وقته ، ورد أمه وخيب فته ، إذ جعل الصوم حصناً لأولياته وجنة ، وفتح لهم به أبواب الجنة ، وعرفهم أن وسيلة الشيطان إلى قلوبهم الشهوات المستكنة ، وأن بقومها تصبح النفس المطمئنة ظاهرة الشوكة في قسم خصمها قوة المنة ، والصلاة على محمد قائد الخلق ومحمد السنة وعلى آله وأصحابه ذرى الأبصار الثاقبة والعقول المرجحة وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن الصوم ربع الإيمان بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصوم نصف الصبر (١) » وبمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف

كتاب أسرار الصيام

(١) «الصوم نصف الصبر» أخرجه الترمذي وحسنه من حديث رجل من بني سليم وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

الإيمان (١) « ثم هو متعين بمخاصة النسبة إلى الله تعالى من بين سائر الأركان إذ قال الله تعالى فيها حكاية عنه نبيه صلى الله عليه وسلم « كل حسنة بشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فإنه لي وأنا أجزي به » (٢) » وقد قال الله تعالى « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » والصوم نصف الصبر فقد جاوز ثوابه قانون التدبير والحساب وناهيك في معرفة فضله قوله صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك يقول الله عز وجل « إنما يندر شهوته وطعامه وشرابه لأجل الصوم لي وأنا أجزي به » (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « للجنة باب يقال له الريان لا يدخله إلا الصائمون وهو موعود ببقاء الله تعالى في جزاء صومه » (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « للصائم فرحتان فرحة عند إقطاره وفرحة عند لقاء ربه » (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم » (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « نوم الصائم عبادة » (٧) » وروى أبو هريرة رضي الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة وغلقت أبواب النار وصعدت الشياطين ونادى مناد يا باغي الخير هلم ويا باغي الشر أقصر » (٨) » وقال وكيع في قوله تعالى « كانوا واشربوا هنثا بما أسلفتم في الأيام الخالية » هي أي أيام الصيام إذ تركوا فيها الأكل والشرب وقد جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم في رتبة المباحة بين الزهد في الدنيا وبين الصوم فقال « إن الله تعالى يباهي ملائكته بأشباب العابد فيقول : أيها الشاب اتارك شهوته لأجل الميزل شبابه لي أنت عندي كبر بعض ملائكتي » (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم في الصائم « يقول الله عز وجل : انظروا ياملائكتي إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه وشرابه من أجل » (١٠) » وقيل في قوله تعالى « فلا تمس لم نفس ما أخفى من قرة عين جزاء بما كانوا يعملون » قيل كان عليهم الصيام لأنه قال « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغا ويحذف جزاؤه فلا يدخل تحت وهم وتقدير ، وجليد بأن يكون كذلك لأن الصوم إنما كان له ومشرفا بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له كما شرف البيت بالنسبة إلى نفسه والأرض كلها للمعنيين ، أحدهما : أن الصوم كف وترك وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد ، وجميع أعمال الطاعات بمشهد من الخلق ومرأى والصوم لا يراه إلا الله عز وجل فإنه حمل في الباطن بالصبر المجرد . والثاني : أنه قهر لعنوا الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات ؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب . ولذلك قال ﷺ « إن الشيطان ليحمرى من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا

(١) « الصبر نصف الإيمان » أخرجه أبو نعيم في الحلية والخطيب في التاريخ من حديث ابن مسعود بسند حسن .

(٢) « كل حسنة بشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم ... » أخرجه من حديث أبي هريرة .

(٣) « والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم ... » أخرجه من حديثه وهو بعض الذي قبله .

(٤) « للجنة باب يقال له الريان ... » أخرجه من حديث سهل بن سعد .

(٥) « للصائم فرحتان ... » أخرجه من حديث أبي هريرة . (٦) « لكل شيء باب وباب العبادة الصوم »

أخرجه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه أبو الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف .

(٧) « نوم الصائم عبادة » رواه في أمالي ابن منده من روايه ابن الغيرة القراس عن عبد الله بن عمر بسند ضعيف

ولعله عبد الله بن عمرو فإنهم لم يذكروا لابن المغيرة ، رواية إلا عنه ، ورواه أبو المنصور الديلمي في مسند الفردوس من

حديث عبد الله بن أبي أوفى وفيه سليمان بن عمرو النخعي أحد الكذابين .

(٨) « إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب الجنة ... » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه والحاكم وصححه

على شرطهما من حديث أبي هريرة وصحح البخاري وقفه على مجاهد وأصله متفق عليه دون قوله « ونادى مناد » .

(٩) « إن الله تعالى يباهي ملائكته بأشباب العابد فيقول أيها الشاب اتارك شهوته ... » أخرجه عندي من حديث

ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) « يقول الله تعالى للملائكة ياملائكتي انظروا إلى عبدي ترك شهوته ولذته وطعامه

وشرابه من أجل » .

بجاريه بالجوع (١) » ولذلك قال صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها « داوى قرع باب الجنة ؛ قالت بماذا قال ﷺ بالجوع (٢) » - وسيأتي فضل الجوع في كتاب : شره الطعام - وعلاجه من ربح المهلكات - فلما كان الصوم على الخصوص قوماً للشيطان وسداً لمساكنه وتضييقاً لمجاريه استحق التخصيص بالنسبة إلى الله عز وجل ففي قح عدو الله نصرته لله سبحانه وناصر الله تعالى موقوف على النصرة قال الله تعالى ﴿ إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصَرُوا ﴾ وبشبه أقدامكم فالبداية بالجهد من العبد والجزاء بالهداية من الله عز وجل ولذلك قال تعالى ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ وقال تعالى ﴿ إِنْ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ وإنما التغيير تكثير الشهوات فهي مرتع الشياطين ومرعاهم فإدماحت غصبة لم ينقطع ترددهم وما داموا يترددون لم يشكف للعبد جلال الله سبحانه وكان محجوباً عن لقائه : وقال ﷺ « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السموات (٣) » فن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جنة وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه الظاهرة والباطنة بذكر أركانه وسننه وشروطه الباطنة . ونبين ذلك بثلاثة فصول .

## الفصل الأول : في الواجبات والسنن الظاهرة والوازيم بافساده

### أما الواجبات الظاهرة فسته

(الأول) مراقبة أول شهر رمضان وذلك برؤية الهلال فإن غم فاستكمال ثلاثين يوماً من شعبان . ونهى بالرؤية العلم ، ويحصل ذلك بقول عدل واحد . ولا يثبت هلال شوال إلا بقول عدلين احتياطاً للعبادة . ومن سمع عدلاً ووقع بقوله وغلب على ظنه صدقه لومه الصوم وإن لم يقض القاضي به فليتبع كل عبد في عبادته موجب ظنه . وإذا رؤى الهلال ببيلة لم ير بأخرى وكان بينهما أقل من مرحلتين وجب الصوم على الكل . وإن كان أكثر كان لكل بلدة حكمها ولا يعمد الجواب . (الثاني) النية : ولا بد لكل ليلة من نية مبينة معينة جازمة فلو نوى أن يصوم شهر رمضان دفعة واحدة لم يكفه ، وهو الذي عتينا بقولنا « كل ليلة » ولو نرى بالتهار لم يجزه صوم رمضان ولا صوم الفرض إلا التطوع ، وهو الذي عتينا بقولنا « مبينة » ولو نوى الصوم مطلقاً أو الفرض مطلقاً لم يجزه حتى ينوى فريضة الله عز وجل صوم رمضان ولو نوى ليلة الشك أن يصوم غداً إن كان من رمضان لم يجزه فاتها ليست جازمة إلا أن تستند نيته إلى قول شاهد عدل ، واحتمال غلط العدل أو كذبه لا يبطل الجزم أو يستند إلى استصحاب حال كالتك في الليلة الأخيرة من رمضان ، فذلك لا يمنع جزم النية أو يستند إلى اجتهد كالجبوس في المطورة إذا غلب على ظنه دخول رمضان واجتهاده فشكه لا يمنعه من النية ومهما كان شاكاً ليلة الشك لم ينفعه جزمه النية باللسان فإن النية عمها القلب . ولا يتصور فيه جزم القصد مع الشك كالأول قال في وسط رمضان : أصوم غداً إلى كان من رمضان فإن ذلك لا يضره لأنه ترديد لفظ وعمل النية لا يتصور فيه تردد بل هو قاطع بأنه من رمضان . ومن نوى ليلاً ثم أكل لم تفسد نيته ولو نوى امرأة في الحيض ثم طهرت قبل الفجر صح صومها . (الثالث) الإمساك عن إصصال شيء إلى الجوف عمداً مع ذكر الصوم فيفسد صومه بالآكل والشرب والسوط والحقنة ، ولا يفسد بالقصد والحجامة

(١) « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ... » متفق عليه من حديث صفية دون قوله « فضيخوا بجاريه بالجوع » .

(٢) « قال لعائشة داوى قرع باب الجنة » لم أجده أصلاً .

(٣) « لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم ... » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة بنحوه .



والاكتحال وإدخال الميل في الأذن والإحليل إلا أن يقطر فيه ما يبلغ المثانة وما يصل بغير قصد من غبار الطريق أو ذبابة تسبق إلى جوفه أو ما يسبق إلى جوفه في المضمة . فلا يفطر إلا إذا بالغ في المضمة فيفطر لأنه مقصر وهو الذي أردنا بقولنا « عمدا » فأما ذكر الصوم فأردنا به الاحتراز عن الناس فإنه لا يفطر أما من أكل عامدا في طرفي النهار ثم ظهر له أنه أكل نهارا بالتحقيق فعليه القضاء . وإن على كل حكم ظنه واجتهاده فلا قضاء عليه ولا ينبغي أن يأكل في طرفي النهار إلا بنظر واجتهاد . ( الرابع ) الإمساك عن الجماع : وحده منقب الحشفة وإن جامع ناسيا لم يفطر وإن جامع ليلا أو احتلم فأصبح جنباً لم يفطر وإن طلع الفجر وهو غافل أهله فزيع في الحال صح صومه فإن صبر فسد وزمته الكفارة . ( الخامس ) الإمساك عن الاستمنا : وهو إخراج المني قصداً بجماع أو بغير جماع فإن ذلك يفطر . ولا يفطر بقبلة زوجته ولا بمضاجعتها ما لم ينزل ، لكن يكره ذلك إلا أن يكون شيئاً أو ماسكاً لإربه ، فلا بأس بالتقبيل وتركه أولى وإذا كان يخاف من التقبيل أن ينزل فقبل وسبق المني أفطر لتقصيره . ( السادس ) الإمساك عن إخراج القيء : فالاستقاء يفسد الصوم وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه ، وإذا ابتلع نخامة من حلقه أو صدره لم يفسد صومه رخصة لموم البلوى به إلا أن يتلته بعد وصوله إلى فيه فإنه يفطر عند ذلك .

### وأما لوازم الإفطار فأربعة

القضاء والكفارة والتدبئة وإمساك بقية النهار تقبيلها بالصائمين . أما القضاء : فوجوبه عام على كل مسلم مكاف ترك الصوم بعذر أو بغير عذر ، فالخائض تقضي الصوم وكذا المرتد . أما الكافر والصبي والمجنون فلا قضاء عليهم ولا يشترط التتابع في قضاء رمضان ولكن يقضى كيف شاء متفرقا ومجموعا .

وأما الكفارة : فلا تجب إلا بالجماع . وأما الاستمنا والأكل والشرب وما عدا الجماع لا تجب به كفارة فكفارة عتق رقبة فإن أصبر فصوم شهرين متتابعين وإن عجز فأطعام ستين مسكينا مداً مداً . وأما إمساك بقية النهار : فيجب على من عصى بالفطر أو قصر فيه ولا يجب على الخائض إذا طهرت إمساك بقية نهارها ولا على المسافر إذا قدم مفطرا من سفر بلغ مرحلتين . ويجب الإمساك إذا شدد بالهلل صدل واحد يوم الشك . والصوم في السفر أفضل من الفطر إلا إذا لم يطق ولا يفطر يوم يخرج وكان مقيا في أوله ولا يوم يقدم إذا قدم صائما .

وأما التدبئة : فتجب على الحامل والمرضع إذا أفطرا خوفا على ولديهما ، لكل يوم مد حنطة لمسكين واحد مع القضاء . والشيوخ الهرم إذا لم يهضم تصدق عن كل يوم مداً . وأما السنن فست : تأخير السجود . وتجيل الفطر بالتر أو الماء قبل الصلاة ، وترك السواك بعد الزوال ، والجود في شهر رمضان لما سبق من فضائله في الزكاة ، ومدارسة القرآن . والاعتكاف في المسجد ، ولا سيما في المنبر الأخير فهو عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا دخل العشر الأواخر طوى الفراش وشد المئزر ودأب وأدأب أهله (١) » أي أداموا النصب في العبادة إذ فيها لذة القدر والأغلب أنثافي أوتارها وأشبها الأوتار لئلا إحدى وثلاث وخمس وسبع . والتتابع في هذا الاعتكاف أولى فإن نذر اعتكافا متتابعا أو نواه انقطع تنابه بالخروج من

(١) « كان إذا دخل الأواخر ملوى الفراش ... » متفق عليه من حديث عائشة بلفظ « أحيا الليل وأيقظ أهله وجد وشد المز » .

غير ضرورة ؛ كما لو خرج لميادة أو شهادة أو جئانة أو زيارة أو تجديد طهارة وإن خرج لقضاء الحاجة لم ينقطع . وله أن يتوضأ في البيت . ولا ينبغي أن يعرج على شغل آخر « كان صلى الله عليه وسلم لا يخرج إلا حاجة الإنسان ولا يسأل عن المريض إلا ماراً <sup>(١)</sup> » وينقطع التاج بالجماع ولا ينقطع بالتقبيل . ولا بأس في المسجد بالطيب وعقد النكاح وبالأكل والثوم وغسل اليد في الطست فكل ذلك قد يحتاج إليه في التتابع . ولا ينقطع التتابع بخروج بعض بدنه « كان صلى الله عليه وسلم يدي رأسه فترجله عائشة رضي الله عنها وهي في الحجره <sup>(٢)</sup> » ومهما خرج المعتكف لقضاء حاجته فإذا عاد ينبغي أن يستأنف التنية إلا إذا كان قد نوى أولاً عشرة أيام مثلاً . والأفضل مع ذلك التجديد .

### الفصل الثاني : في أسرار الصوم وشروطه الباطنة

اعلم أن الصوم ثلاث درجات : صوم العموم وصوم الخصوص وصوم الخصوص . أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة كما سبق تفصيله . وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام . وأما صوم خصوص الخصوص فهو صوم القلب عن الهمم الدنيوية والآفات الدنيوية وكفه عما سوى الله عز وجل بالكلية ، ويحصل الفطر في هذا الصوم بالفكر فيما سوى الله عز وجل واليوم الآخر وبالفكر في الدنيا والآخرة ، فإن ذلك من زاد الآخرة وليس من الدنيا حتى قال أرباب القلوب : من تحركت همته بالتصرف في نهاره لتدبير ما يقطر عليه كثبت عليه خطيئة ، فإن ذلك من قلة الوثوق بفضل الله عز وجل وقلة اليقين برزقه الموعود ، وهذه رتبة الأنبياء والصديقين والمقربين ولا يطول النظر في تفصيلها . ولكن في تحقيقها عملاً ، فإنه إقبال بكنهه الهمة على الله عز وجل وانصراف عن غير الله سبحانه وتلبس بمعنى قوله عز وجل ﴿ قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون ﴾ . وأما صوم الخصوص وهو صوم الصالحين فهو كف الجوارح عن الآثام ونجمه بسة أمور :

الأول : غش البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله عز وجل قال صلى الله عليه وسلم « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لئن الله فر تكبها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيماناً يجد حلاله في قلبه <sup>(٣)</sup> » وروى جابر عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « خمس يفسدن الصائم الكذب والنية والفدية والعين والكاذبة والنظر بشهوة <sup>(٤)</sup> » .

الثاني : حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنية والفحش والجفاء والخصومة والمراء ، وإلزامه الكروت وشغله بذكر الله سبحانه وتلاوة القرآن فهذا صوم اللسان . وقد قال سفيان : الغيبة تفسد الصوم . رواه بشر بن الحرث عنه . وروى ليث عن مجاهد : خصلتان يفسدان الصيام الغيبة والكذب . وقال صلى الله عليه وسلم « إنما الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إلى صائم إلى صائم <sup>(٥)</sup> » وجاء في الخبر « أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله ﷺ فأجهدهما الجوع والعطش من آخر النهار حتى كادتا أن تتلفا فقبضا إلى رسول الله ﷺ يستأذنا في الإفطار فأرسل إليهما قدحا وقال ﷺ : قل لهما

(١) « كان لا يخرج إلا حاجة ولا يسأل عن المريض إلا ماراً » متفق على الشطر الأول من حديث عائشة والشطر الثاني رواه أبو داود بنحوه بسند لين .

(٢) « كان يدي رأسه لعائشة » متفق عليه من حديثها .

(٣) « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ... » أخرجه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة .

(٤) حديث جابر عن أنس « خمس يفسدن الصائم ... » أخرجه الأزد في الضعفاء من رواية جابر عن أنس وقوله جابر تصحيف قال أبو حاتم الرازي هذا كذاب .

(٥) « الصوم جنة فإذا كان أحدكم صائماً ... » أخرجه من حديث أبي هريرة .

قيتاً فيه ما أكلناه فقامت إحداهما نصفه دماً عبيطاً ولحماً غريباً وقامت الأخرى مثل ذلك حتى مالتأناه فعجب الناس من ذلك فقال عليه السلام هاتان صامتاهما أحل الله لهما وأفطرنا على ما حرم الله تعالى عليهما . فعدت إحداهما إلى الأخرى فجعلتا يفتانان الناس فهنا ما أكلنا من لحومهم (١) .

الثالث : كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه ولذلك سوى الله عز وجل بين المستمع وآكل السحت فقال تعالى (سمعون للكذب آكلون السحت) وقال عز وجل (ولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت) فالسكوت على النغية حرام وقال تعالى (إنكم إذا مثلهم) ولذلك قال عليه السلام «الغتاب والمستمع شريكان في الإثم» (٢) .

الرابع : كف بقية الجوارح عن الآثام من اليد والرجل عن المكاره ، وكف البطن عن الشهوات وقت الإفطار . فلا معنى للصوم وهو الكف عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام . فثالث هذا الصائم مثال من يبنى قصر أو يهدم معبراً فإن الطعام الحلال إنما يضر بكثرة لا بنوعه ، فالصوم لتقليله : وتارك الاستكثار من الدواء خوفاً من ضرره إذا عدل إلى تناول السم كان سفيهاً . والحرام سم مهلك للدين . والحلال دواء ينفع قلبه ويضر كثيره . وقصد الصوم تقليله ، وقد قال عليه السلام «كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش» (٣) فقيل هو الذي يفطر على الحرام ، وقيل هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالنغية وهو حرام ، وقيل هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام .

الخامس : أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يتلى جوفه فها من وعاء أبفض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال . وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاتته ضحوة نهاره وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات حتى تدخر جميع الأطعمة لمضام فيؤكل من الأطعمة فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر . ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى . وإذا دفعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى حاجت شهوتها وقويت رغبتها ثم أعطمت من اللذات واشبعت زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعث من الشهوات ما عساها كانت رأكدة لو تركت على عادتها ، فروح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور ، وإن يحصل ذلك إلا بالتقليل وهو أن يأكل أكلته التي كان يأكلها كل ليلة لو لم يصم فأما إذا جمع ما كان يأكل ضحوة إلى ما كان يأكل ليلاً فلم ينفع بصومه . بل من الآداب أن لا يكثر النوم بالنهار حتى يحس بالجوع والعطش ويستشعر ضعف القوى فيصفو عند ذلك قلبه ويستديم في كل ليلة قدر من الضعف حتى يخف عليه تهجده وأوراده ، فمضى الشيطان أن لا يحوم على قلبه فينظر إلى ملكوت السماء . وليلة القدر عبارة عن الليلة التي يتكشف فيها شيء من الملكوت وهو المراد بقوله تعالى (إنا أنزلناه في ليلة) ومن جعل بين قلبه وبين صدره غلالة من الطعام فحره محجوب . ومن أخلى مدته فلا يكفه ذلك لرفع الحجاب ما لم يخل همة عن غير الله عز وجل وذلك هو الأمر كله ومبدأ جميع ذلك تقليل الطعام . وسيأتي له مزيد بيان في كتاب الأطعمة إن شاء الله عز وجل .

السادس : أن يكون قلبه بعد الإفطار معلقاً ، منظرًا بين الخوف والرجاء إذ ليس بدري أيقبل صومه فهو من المقرين أو يرد عليه فهو من المعقوتين ؟ ولكن كذلك في آخر كل عبادة يفرغ منها فقد روى عن الحسن بن

(١) «أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ... في النغية للصائم أخرجه أحمد من حديث عبيد مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث بسند فيه مجهول .

(٢) «الغتاب والمستمع شريكان في الإثم» غريب للطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن النغية وعن الاستماع إلى النغية .

(٣) «كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش» أخرجه النسائي من حديث أبي هريرة .

أبي الحسن بن الحسن البصري أنه مر يقوم وهم مضجكون فقال: إن الله عز وجل جعل شهر رمضان مضياراً خلقه يستيقظون فيه لطاعته فسيق قوم ففازوا وتخلف أرقام غلابوا فالعجب كل العجب للصالح اللعاب في اليوم الذي فاز فيه السابقون وخاب فيه المبطون . أما والله لو كشف الغطاء لاشتغل المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته أي كان سرور المقبول يشغله عن اللعب وحسرة المردود تسد عليه باب الضحك . وعن الأصمعي بن قيس : أنه قيل له إنك شيخ كبير وأن الصيام يضعفك فقال : إني أعدت أسفر طويلاً والصبر على طاعة الله سبحانه أهون من الصبر على عذابه . فهذه هي المعاني الباطنة في الصوم .

لأن قلت : فن اقتصر على كشف شربة البطن والفرج وترك هذه المعاني فقد قال الفقهاء : صومه صحيح فامعناه ؟

فاعلم أن فقهاء الظاهر يثبتون شروط الظاهر بأدلة هي أضعف من هذه الأدلة التي أوردناها في هذه الشروط الباطنة لأسباب الغيبة وأمثالها ، ولكن ليس إلى فقهاء الظاهر من التكاليف إلا ما يتيسر على عموم الغافلين المقيمين على الدنيا الدخول تحته . فاما علماء الآخرة فيعتنون بالصحة القبول والقبول الوصول إلى المقصود . ويفهمون أن المقصود من الصوم التخلق بخلق من أخلاق الله عز وجل وهو الصمدية ، والافتقار بالملائكة في الكف عن الشهوات بحسب الإمكان لأنهم منزّهون عن الشهوات . والإنسان رتبته فوق رتبة الهائم لقدرته بنور العقل على كسر شهوته ودون رتبة الملائكة لاستيلاء الشهوات عليه وكونه مبتلى بمجاهدتها ، فلما انهمك في الشهوات انحط إلى أسفل السافلين والتحق بنهار الهائم ، وكلما قمع الشهوات ارتفع إلى أعلى عليين والتحق بأفق الملائكة والملائكة مقربون من الله عز وجل والذي يقتدى بهم ويتشبه بأخلاقهم يقرب من الله عز وجل كقربهم ، فإن الشبهة من القريب قريب ، وليس القرب ثم بالمسكن بل بالصفات . وإذا كان هذا سر الصوم عند أرباب الآليات وأصحاب القلوب فأى جدوى لتأخير أكلة وجمع أكلتين عند العشاء مع الانهماك في الشهوات الآخر طول النهار ؟ ولو كان مثله جدوى فأى معنى لقوله صلى الله عليه وسلم « كم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش » ولهذا قال أبو الدرداء : يا حنظلة نوم الأكياس وقطرم كيف لا يعبون صوم الحنفي وسهرهم ! والردة من ذرى يقين وتقوى أفضل وأرجح من أمثال الجلبال عبادة من المغترين . ولذلك قال بعض العلماء : كم من صائم مفطر وكَم من مفطر صائم . والمفطر الصائم هو الذي يحفظ جوارحه عن الآثام ويأكل ويشرب ، والصائم المفطر هو الذي يجمع ويعطش ويطلق جوارحه . ومن فهم معنى الصوم وسره علم أن مثل من كف عن الأكل واللباس وأفطر بمخالطة الآثام كن مسح على عضو من أعضائه في الوضوء ثلاث مرات فقد وافق في الظاهر العدد إلا أنه ترك المهم وهو الفصل فصلاته مردودة عليه بجملة . ومثل من أفطر بالأكل وصام بجوارحه عن المسكارة كن غسل أعضائه مرة مرة فصلاته متقبلة إن شاء الله لإحكامه الأصل وإن ترك الفضل . ومثل من جمع بينهما كن غسل كل عضو ثلاث مرات لجمع بين الأصل والفضل وهو الكمال . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إن الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته <sup>(١)</sup> » . ولما تلا قوله عز وجل ﴿ إن الله يأمرك أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وضع يده على سمعه وبصره فقال : « السمع أمانة والبصر أمانة <sup>(٢)</sup> » ولولا أنه من أمانات الصوم لما قال صلى الله عليه وسلم « فليقل إلى صائم » أي إني أودعت لساني لأحفظه فكيف أطلقه بجوارحك ؟ فأذن قد ظهر أن لكل عبادة ظاهراً وباطناً

(١) « إنما الصوم أمانة فليحفظ أحدكم أمانته » أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث ابن مسعود في حديث في الأمانة والصوم وإسناده حسن .

(٢) « لما تلا قوله تعالى ﴿ إن الله يأمرك أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ وضع يده على سمعه وبصره وقال السمع والبصر أمانة » أخرجه أبو داود من حديث أبي هريرة دون قوله « السمع أمانة » .

وقشراً ولباً ، ولتشرها درجات ولكل درجة طبقات ، فأليك الخيرة الآن في أن تقنع بالقشر عن الباب أو تتعبد إلى غدار أبواب الآلاباب .

### الفصل الثالث : في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد في الأيام الفاضلة وفواصل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها يوجد في كل شهر وبعضها في كل أسبوع . أما في السنة بفد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم وهي أوقات فاضلة « وكان رسول الله ﷺ يكثر صوم شعبان حتى كان يظن أنه في رمضان »<sup>(١)</sup> وفي الخبر « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم »<sup>(٢)</sup> لأنه ابتداء السنة فينأقما على الخير أحب وأرجى لدوام بركته . وقال ﷺ « صوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من رمضان أفضل من ثلاثين من شهر حرام »<sup>(٣)</sup> وفي الحديث « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخنيس والجمعة والسبت كتب الله له بكل يوم عبادة تسعائة عام »<sup>(٤)</sup> وفي الخبر : إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان<sup>(٥)</sup> ولهذا يستحب أن يقفل قبل رمضان أياماً فإن وصل شعبان برمضان لحاقاً<sup>(٦)</sup> فعل ذلك رسول الله ﷺ مرة وفصل مراراً كثيرة<sup>(٧)</sup> ولا يجوز أن يقصد استقبال رمضان يومين أو ثلاثة إلا أن يوافق ورذا له ، وكره بعض الصحابة أن يصام رجب كله حتى لا يضاهى بشهر رمضان . فالأشهر الفاضلة : ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان . والأشهر الحرم : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ؛ واحد فرد وثلاثة سرد . وأفضلها ذو الحجة لأن فيه الحج والأيام المعلومات والممدودات . وذو القعدة من الأشهر الحرم وهو من أشهر الحج ، وشوال من أشهر الحج وليس من الحرم ، والمحرم ورجب ليسا من أشهر الحج . وفي الخبر « ما من أيام العمل فهن أفضل وأحب إلى الله عز وجل من أيام عشر ذي الحجة إن صوم يوم منه يعدل صيام سنة وقيام ليلة منه تعدل قيام ليلة القدر ، قيل : ولا الجهاد في سبيل الله ، قال ؛ ولا الجهاد في سبيل الله إلا من عقر جواده أو أهرق دمه »<sup>(٨)</sup> وأما ما يتكرر في الشهر : فأول الشهر وأوسطه وآخره . ووسطه الأيام البيض وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر . وأما في الأسبوع : فالثلاثين والخنيس والجمعة فنه هي الأيام الفاضلة فيستحب فيها الصيام وتكثر الخيرات لنضاعف أجورها ببركة هذه الأوقات . وأما صوم الدهر فانه شامل للسكل وزيادة ، وللسالكين فيه طرق فتم من

(١) « كان يكثر صيام شعبان » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) « أفضل الصيام بعد شهر رمضان شهر الله المحرم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٣) « صوم يوم من شهر حرام أفضل من صوم ثلاثين ... » لم أجده هكذا وفي المعجم الصغير للطبراني من حديث ابن عباس « من صام يوماً من المحرم فله بكل يوم ثلاثين يوماً » (٤) « من صام ثلاثة أيام من شهر حرام الخنيس والجمعة والسبت ... » أخرجه الأزدى في الضمء من حديث أنس (٥) « إذا كان النصف من شعبان فلا صوم حتى رمضان » أخرجه الأربعة من حديث أبي هريرة وابن جبان في صحيحه عنه (٦) « إذا كان النصف من شعبان فأفطروا حتى يجيء رمضان » وصححه الترمذى (٦) « وصل شعبان برمضان مرة ... » أخرجه الأربعة من حديث أم سلمة « لم يكن يصوم من السنة شهراً تاماً إلا شعبان يصل به رمضان وأخرج أبو داود والنسائي نحوه من حديث عائشة (٧) « فصل شعبان من رمضان مراراً » أخرجه أبو داود من حديث عائشة قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحفظ من هلال شعبان مالا يتحفظ من غيره فإن غم عليه عد ثلاثين يوماً ثم صام » وأخرجه الدارقطني وقال إسناده صحيح والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين (٨) « ما من أيام العمل فهن أفضل وأحب إلى الله من عشر ذي الحجة ... » أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبي هريرة دون قوله « قيل والجهاد » إلخ وعند البخارى من حديث ابن عباس « ما للعمل في أيام أفضل من العمل في الشر قالوا ولا الجهاد قال ولا الجهاد إلا رجل خرج بخاطر نفسه وماله فلم يرجع بشيء »

كره ذلك إذ وردت أخبار تدل على كراهته . والصحيح أنه إنما يكره لشيئين ؛ أحدهما : أن لا يفطر في العيدين وأيام التشريق فهو الدهر كله (١) والآخر أن يرغب عن السنة في الإفطار ويجعل الصوم حجراً على نفسه مع أن سبحانه يحب أن توفى رغبته كما يحب أن توفى عزائمه . فإذا لم يكن شيء من ذلك ورأى صلاح نفسه في صوم الدهر فليفعل ذلك . فقد فعله جماعة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم وقال عليه السلام فيما رواه أبو موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم وعقد تسعين (٢) » ومعناه لم يكن له فيها موضع ، ودونه درجة أخرى وهو صوم نصف الدهر بأن يصوم يوماً ويفطر يوماً وذلك أشد على النفس وأقوى في غيرها وقد ورد في فضله أخبار كثيرة لأن العبد فيه بين صوم يوم وشكر يوم فقد قال عليه السلام « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا وكُنُوز الأرض فردتها وقلت أجور يوماً وأشبع يوماً أحملك إذا شيعت وأنضرك إذا جعت (٣) » وقال عليه السلام « أفضل الصيام صوم أخى داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً (٤) » ومن ذلك « منازلته لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما في الصوم وهو يقول : إني أطيق أكثر من ذلك فقال عليه السلام : صم يوماً وأفطر يوماً ، فقال : إني أريد أفضل من ذلك ، فقال عليه السلام : لا أفضل من ذلك (٥) » وقد روى « أنه عليه السلام ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان (٦) » بل كان يفطر منه ، ومن لا يقدر على صوم نصف الدهر فلا بأس بشكله وهو أن يصوم يوماً ويفطر يومين ، وإذا صام ثلاثة من أول الشهر وثلاثة من الوسط وثلاثة من الآخر فهو ثلث ، وواقع من الأوقات الفاضلة . وإن صام الاثنين والخميس واجتمع فهو قريب من الثلث . وإذا ظهرت أوقات الفضيلة فالكمال في أن يفهم الإنسان معنى الصوم وأن مقصوده تصفية القلب وتفرغ القلب لله عز وجل . والفقيه بدقائق الباطن ينظر إلى أحواله فقد يقتضى حاله دوام الصوم وقد يقتضى دوام الفطر وقد يقتضى مزج الإفطار بالصوم . وإذا فهم المعنى وتحقق وحده في سلوك طريق الآخرة . بمراقبة القلب لم يخف عليه صلاح قلبه وذلك لا يوجب ترتيباً مستمراً . ولذلك روى أنه عليه السلام « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم ، ويصوم حتى يقال لا يفطر ويفطر حتى يقال لا يصوم » وكان ذلك بحسب ما ينكشف له بنور النبوة من القيام بحق الأوقات . وقد كره العلماء أن يوالى بين الإفطار أكثر من أربعة أيام تقدير أيام العيد وأيام التشريق وذكروا أن ذلك يقضى القلب ويولد ردى العادات ويفتح أبواب الشبوات ولعمري هو كذلك في حق أكثر الخلق لاسيما من يأكل في اليوم واليلة مرتين . فهذا ما أردنا ذكره من ترتيب الصوم المطروح به ، والله أعلم بالصواب .

تم كتاب : أسرار الصوم ، والحمد لله بجميع محامده كلها ما علمنا منها وما لم نعلم على جميع نعمه كلها ما علمناها

(١) الأحاديث الدالة على كراهة صيام الدهر أخرجه البخارى ومسلم من حديث عبد الله بن عمرو في حديث لابن ماجة « لاصام من صام الأبد » ولمسلم من حديث أبي قتادة « قبل يارسول الله كيف بمن صام الدهر قال لا صام ولا أفطر » أخرجه النسائي نحوه من حديث عبد الله بن عمر وعمران بن حصين وعبد الله بن الشخير . (٢) حديث أبي موسى الأشعري « من صام الدهر كله ضيقت عليه جهنم هكذا وعقد تسعين » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى وابن حبان وحسنه أبو على الطوسى (٣) « عرضت على مفاتيح خزائن الدنيا ... » أخرجه الترمذى من حديث أبي أمامة بلفظ « عرض على ربي ليجعل لى بطيخان مكة ذهباً » وقال حسن (٤) « أفضل الصيام صوم أخى داود ... » أخرجه من حديث عبد الله بن عمر (٥) « منازلته لعبد الله بن عمرو وقوله : صم يوماً وأفطر يوماً » أخرجه من حديثه (٦) « ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان » أخرجه من حديث عائشة . (٧) « كان يصوم حتى يقال لا يفطر ... » أخرجه من حديث عائشة وابن عباس دون ذكر « القيام والنوم » والبخارى من حديث أنس « كان يفطر من الشهر حتى يظن أن لا يصوم منه شيئاً ويصوم حتى يظن أن لا يفطر منه شيئاً وكان لا تشاء تراه من الليل مصلياً إلا رأيته ولا نائمًا إلا رأيته »

وما لم نعلم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكرم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : أسرار الحج ، والله المعين لأرب غيره وما توفيقى إلا بالله وحسبنا الله ونعم الوكيل .

## كتاب أسرار الحج

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل كلمة التوحيد لبياده حرزاً وحصناً ، وجعل البيت العتيق مثابة للناس وأماناً ، وأكرمه بالنسبة إلى نفسه تشريفاً وتحصيناً ، وجعل زيارته والطواف به حجاباً بين العبد وبين العذاب ومجناً ، والصلاة على محمد نبي الرحمة وسيد الأمة وعلى آله وصحبه قادة الحق وسادة الخلق وسلم تسليماً كثيراً . أما بعد : فإن الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين . فيه أنزل الله عز وجل قوله ( اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً ) وفيه قال صلى الله عليه وسلم « من مات ولم يحج فليمت إن شاء . يهودياً وإن شاء نصرانياً » فأعظم بعبادة يعدم الدين بفقدائها الكمال ويسارى تاركها اليهود والنصارى فى الضلال ، وأجدر بها أن تصرف العناية إلى شرحها وتفصيل أركانها وسلطانها وآدابها وفضائلها وأسرارها . وبجملة ذلك يتكشف بتوفيق الله عز وجل فى ثلاثة أبواب :

الباب الأول : فى فضائلها وفضائل مكة والبيت العتيق وجعل أركانها وشرائط وجوبها .

الباب الثانى : فى أعمالها الظاهرة على الترتيب من مبدأ السفر إلى الرجوع .

الباب الثالث : فى آدابها الدقيقة وأسرارها الخفية وأعمالها الباطنة فليبدأ بالبَاب الأول وفيه فصلان :

### الفصل الأول : فى فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى

#### وشد الرجال إلى المساجد

##### فضيلة الحج

قال الله عز وجل ( وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ) وقال قتادة لما أمر الله عز وجل إبراهيم صلى الله عليه وسلم وعلى نبيينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل يقبض قبضاً منكم فليحجوا وقال تعالى ( ليشهدوا منافع لهم ) قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . ولما سمع بعض السلف هذا قال : غفر لهم ورب الكعبة . وقيل فى تفسير قوله عز وجل ( لآتعبن لهم صراطك المستقيم ) أى طريق مكة يقصد الشيطان عليها لينتفع الناس منها وقال صلى الله عليه وسلم « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه »<sup>(١)</sup> وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم « ما رؤى

#### كتاب أسرار الحج

(١) « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً » أخرجه عدنى من حديث أبى هريرة والترمذى نحوه من حديث طى وقال غريب وفى إسناده مقال .

(٢) « من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » أخرجه من حديث أبى هريرة .

الشیطان في يوم أصفر ولا أحمر ولا أعظم منه يوم عرفة (١) « وما ذلك إلا لما يرى من نزول الرحمة وتجاوز الله سبحانه عن الذنوب العظام إذ يقال « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة (٢) » وقد أسنده جعفر بن محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وذكر بعض المكشفين من المقرئين أن إبليس لعنة الله عليه ظهر له في صورة شخص بعرة فإذا هو نازل الجسم مصفر اللون بأك العين مقصوف الظهر فقال له : ما الذي أبكى عينك ؟ قال خروج الحاج إليه بلا تجارة ، أقول قد قصدوه أخاف أن لا ينجيهم فيحزنني ذلك قال : فما الذي أحل جسمك ؟ قال : صهيل الخيل في سبيل الله عز وجل ولو كانت في سبيل كان أحب إلي ، قال : فما الذي غير لونك ؟ قال : تعاون الجماعة على الطاعة ولو تعاونوا على المصيبة كان أحب إلي ، قال : فما الذي قصف ظهرك ؟ قال : قول العبد أسألك حسن الخاتمة ، أقول يا ولبقي متى يعجب هذا بعمله أخاف أن يكون قد فطن ؟ وقال صلى الله عليه وسلم « من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فأتى أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في إحدى الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبررة ليس لها جزاء إلا الجنة (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الحجاج والمعتمر وفد الله عز وجل وزواره إن سألوه أعطاهم وإن استغفروهم غفر لهم وإن دعوا استجيب لهم وإن شفّعوا شفّعوا (٥) » وفي حديث مسند من طريق أهل البيت عليهم السلام « أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله تعالى لم يغفر له (٦) » وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة سنون للظالمين وأربعون للبصليين وعشرون للناظرين (٧) » وفي الخبر « استكثروا من الطواف بالبيت فإنه من أجل شيء تجددت فيه صفته يوم القيامة وأعطيت عمل تجدوته (٨) » ولهذا يستحب الطواف ابتداء من غير حج ولا عمرة وفي الخبر « من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنبه (٩) » ويقال : إن الله عز وجل إذا غفر لعبده ذنباً في الموقف غفره لكل من أصابه في ذلك الموقف . وقال بعض السلف : إذا وافق يوم عرفة يوم جمعة غفر لكل أهل عرفة وهو أفضل

- (١) « مارؤى الشيطان في يوم هو أصفر ... » أخرجه مالك عن إبراهيم بن أبي عبلة عن طلحة بن عبد الله بن كرز مرسلًا . (٢) « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الوقوف بعرفة » لم أجده أصلاً . (٣) « من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فأتى أجر الحاج للمعتمر إلى يوم القيامة ومن مات في أحد الحرمين لم يعرض ولم يحاسب وقيل له ادخل الجنة » أخرجه البيهقي في الشعب بالشرط الأول من حديث أبي هريرة . وروى هو والدارقطني من حديث عائشة الشطر الثاني نحوه وكلاهما ضعيف . (٤) « حجة مبرورة خير من الدنيا وما فيها وحجة مبررة ليس لها جزاء إلا الجنة » أخرجه ابن أبي هريرة الشطر الثاني بلفظ « الحج المبرور » وقال « إن الحجة المبرورة » وعند ابن عدي « حجة مبرورة » . (٥) « الحجاج والمعتمر وفد الله وزواره .. » أخرجه من حديث أبي هريرة دون قوله « : و » وادع قوله « إن سألوه أعطاهم وإن شفّعوا شفّعوا » وله من حديث ابن عمر « وسألوه فأعطاهم » ورواه ابن جبان . (٦) « أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة فظن أن الله لم يغفر له » أخرجه الخطيب في المتفق والمفترق وأبو منصور شهردار بن شيرويه الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بإسناده ضعيف . (٧) « ينزل على هذا البيت في كل يوم مائة وعشرون رحمة » أخرجه ابن جبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بإسناد حسن وقال أبو حاتم حديث منكر . (٨) « استكثروا من الطواف بالبيت ... » أخرجه ابن جبان والحاكم من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة » وقال الحاكم على شرط الشيخين . (٩) « من طاف أسبوعاً حافياً حاسراً كان له كعتق رقبة ومن طاف أسبوعاً في المطر غفر له ما سلف من ذنوبه » لم أجده هكذا وعند الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بهذا البيت أسبوعاً فأحصاه كان كعتق رقبة » لفظ الترمذي وحسنه .



يوم في الدنيا وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان واقفاً إذ نزل قوله عز وجل ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ (١) «قال أهل الكتاب: لو أزلت هذه الآية علينا لطمعنا بها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه: أشهد لقد أزلت هذه الآية في يوم عيدين اثنين؛ يوم عرفة ويوم الجمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة. وتال ﷺ «اللهم اغفر للحاج ولبن استغفر له الحاج» (٢) «ويروى أن علي ابن موفّق حج عن رسول الله ﷺ حججاً قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام فقال لي: يا ابن موفّق حجبت عني؟ قلت: نعم؛ وليبت عني؟ قلت: نعم، قال: فأني أكافئك بها يوم القيامة آخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب. وقال مجاهد وغيره من العلماء: إن الحاج إذا قدموا مكة تلقّتهم الملائكة فسلموا على ركبنا الإبل وصالحوا ركبنا الحر واعتنقوا المشاة اعتناقاً. وقال الحسن: من مات عقيب رمضان أو عقيب غر أو عقيب حج مات شهيداً. وقال عمر رضي الله عنه: الحاج مغفور له ولبن يستغفر له في شهر ذي الحجة والمحرم وصفر وعشرين من ربيع الأول. وقد كان من سنة السلف رضي الله عنهم أن يشيعوا الغزاة وأن يستقبلوا الحاج ويقبلوا بين أعينهم ويسألون الدعاء ويبادرون ذلك قبل أن يدنسوا بالأنام. ويروى عن ابن موفّق قال: حججت سنة فلما كان ليلة عرفة تمت عني في مسجد الخيف فرأيت في المنام كأن ملكين قد نزلا من السماء عليهما ثياب خضر فنادى أحدهما صاحبه: يا عبد الله فقال الآخر: لبيك يا عبد الله، قال: تدري كم حج بيت ربنا عز وجل في هذه السنة؟ قال: لا أدري قال: حج بيت ربنا ستائة ألف أتدري كم قبل منهم؟ قال: لا، قال: ستة أنفس، قال: ثم ارتفعوا في الهواء فنادى عني فالتفت فرعاً واغمضت غما شديداً وأمنى أمرى فقلت: إذا قيل حج ستة أنفس فأين أكون أنا في ستة أنفس؟ قلب أفضت من عرفة قت عند المشعر الحرام فجعلت أفكر في كثرة الخلق وفي قلة من قبل منهم؛ لحملني النوم فإذا الشخصان قد نزلا على هبتهما؛ فنادى أحدهما صاحبه وأعاد الكلام بمعني ثم قال: أتدري ماذا حكم ربنا عز وجل في هذه الليلة؟ قال: لا، قال: فإنه وهب لكل واحد من الستة مائة ألف، قال: فالتفت وبني من السرور ما يجيل عن الوصف. وعنه أيضاً رضي الله عنه قال: حججت سنة فلما قضيت مناسكي تفكرت فيمن لا يقبل حجه فقلت: اللهم إني قد وهبت حتى وجعلت ثوابها لمن لم تقبل حجه قال: فرأيت رب العزة في النوم جل جلاله فقال لي: يا علي تنسخني على وأنا خلقت السخاء والاستغناء وأنا أجدد الأجودين وأكرم الأكرمين وأحق بالجدود والكرم من المالمين قد وهبت كل من لم أقبل حجه لمن قبله.

### فضيلة البيت ومكة المشرفة

قال صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل قد وعد هذا البيت أن يحججه كل سنة ستائة ألف فإن نقصوا أكلهم الله عز وجل من الملائكة» (٣) «وأن السكبة تحشر كالمرس المزفوفة وكل من حجها يتعاقب بأسانها يسعون حولها حتى تدخل الجنة فيدخلون معها وفي الخبر «إن الحجر الأسود ياقوتة من يواقيت الجنة وإنه يبعث يوم القيامة له عيان ولسان ينطق

(١) «قوله في حجة الوداع يوم الجمعة ونزول ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ الحديث» أخرجه من حديث عمر.

(٢) «اللهم اغفر للحاج ولبن استغفر له الحاج» أخرجه من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم.

(٣) «إن الله قد وعد البيت أن يحججه في كل سنة ستائة ألف ...» لم أجده أصلاً.

به يشهد لكل من استلمه بحق<sup>(١)</sup> وكان صلى الله عليه وسلم يقبله كثير<sup>(٢)</sup> وروى أنه صلى الله عليه وسلم سجد عليه وكان يطوف على الراحلة فيضع المصحح عليه ثم يقبل طرف المصحح<sup>(٣)</sup> وقبله عمر رضي الله عنه ثم قال : إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع<sup>(٤)</sup> ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ، ثم بكى حتى علا نحيجه فالتفت إلى ورائه فرأى علياً كرم الله وجهه ورضي الله عنه فقال : يا أبا الحسن ههنا تسكب المبرات وتستجاب الدعوات ، فقال علي رضي الله عنه : يا أمير المؤمنين بل هو يضر ويمنع ، قال : وكيف ؟ قال : إن الله تعالى لما أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم القمه هذا الحجر ؛ فهو يشهد للمؤمنين بالوفاة ويشهد على الكافر بالجمود . قيل : فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام « اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك » وروى عن الحسن البصري رضي الله عنه : أن صوم يوم فيها مائة ألف يوم وصدة درهم مائة ألف درهم وكذلك كل حسنة مائة ألف ويقال : طواف سبعة أسابيع يعدل عمرة وثلاث عمر يعدل حجة . وفي الخبر الصحيح « عمرة فريضة كحجة معي<sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا أول من تلتق عنه الأرض ثم أتى أهل البقيع فيحشرون معي ثم أتى أهل مكة فأحشر بين الحرمين<sup>(٦)</sup> » وفي الخبر « إن آدم صلى الله عليه وسلم لما قضى مناسكه لقيته الملائكة فقالوا : برحمتك يا آدم لقد حججنا هذا البيت قبلك بألني عام<sup>(٧)</sup> » وجاء في الآثار : إن الله عز وجل ينظر في كل ليلة إلى أهل الأرض فأول من ينظر إليه أهل الحرم وأول من ينظر إليه من أهل الحرم أهل المسجد الحرام فمن رآه طائفاً غفر له ومن رآه مصلياً غفر له ومن رآه قائماً مستقبل الكعبة غفر له . وكشف بعض الأولياء رضي الله عنهم قال : إني رأيت الثغور كلها تسجد لعبادان ورأيت عبادان ساجدة لجدة ويقال : لا تغرب الشمس من يوم إلا يطوف بهذا البيت رجل من الأبدال ، ولا يطلع القمر من ليلة إلا طاف به واحد من الأتداد ، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعة من الأرض فيصبح الناس وقد رفعت الكعبة لا يرى الناس لها أثراً ؛ وهذا إذا أتى عليا سبع سنين لم يحجها أحد . ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض يلوح ليس فيه حرف . ثم يمشي القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة . ثم يرجع الناس إلى الأشعار والأغاني وأخبار الجاهلية . ثم يخرج الدجال ويؤول عيسى عليه السلام فيقتله والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب التي تتوقع ولادتها . وفي الخبر « استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع فقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة<sup>(٨)</sup> » وروى عن علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : قال

(١) « إن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة ويعت يوم القيامة له عنبان .. » أخرجه الترمذي وصححه النسائي من حديث ابن عباس « الحجر الأسود من الجنة » لفظ النسائي وباقي الحديث رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن عباس أيضاً وللحاكم من حديث أنس « إن الركن والمقام ياقوتتان من يواقيت الجنة » وصححه إسناده ورواه النسائي وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن عمر .

(٢) « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبله كثيراً » أخرجه من حديث محمد بن عيسى قوله « كثيراً » والنسائي « أنه كان يقبله كل مرة ثلاثاً إن رآه خالياً . (٣) « إنه كان يسجد عليه » أخرجه البزار والحاكم من حديث عمر وصححه إسناده (٤) « قبله عمر وقال إني لأعلم أنك حجر » أخرجه دون الزيادة التي رواها علي ورواه بذلك الزيادة الحاكم وقال ليس من شرط الشيخين . (٥) « عمرة في رمضان كحجة معي » أخرجه من حديث ابن عباس دون قوله « معي » فهي عند مسلم على الشك « تقضى حجة أو حجة معي » ورواه الحاكم بزيادتها عن غير شك . (٦) « أنا أول من تشق عنه الأرض ثم أتى أهل البقيع فيحشرون معي ... » أخرجه الترمذي وحسنه وابن حبان من حديث ابن عمر .

(٧) « إن آدم لما قضى مناسكه لقيته للملائكة فقالوا برحمتك يا آدم ... » رواه الفضل الجبلدي ومن طريقة ابن الجوزي في العالم من حديث ابن عباس وقال لا يصح ورواه الأزرقي في تاريخ مكة موقوفاً على ابن عباس .

(٨) « استكثروا من الطواف بهذا البيت ... » أخرجه البزار وابن حبان والحاكم وصححه من حديث ابن عمر « استمتعوا من هذا البيت فإنه هدم مرتين ويرفع في الثالثة » .

الله تعالى « إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببقي غزيرته ثم أخرب الدنيا على أثره (١) ».

### فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكرامته

كره الخائفون والمحتاطون من العلماء المقام بمكة لمعان ثلاثة :

الأول : خوف الثبم والأنس بالبيت ، فإن ذلك ربما يؤثر في تسكين حرقة القلب في الاحترام ، وهكذا كان عمر رضى الله عنه يضرب الحجاج إذا حجوا ويقول : يا أهل الإن بمنكم وبيا أهل الشام شامكم وبيا أهل العراق صرافكم . ولذلك هم عمر رضى الله عنه بمنع الناس من كثرة الطواف ، وقال : خشيت أن يأنس الناس بهذا البيت .  
الثاني : تهييج الشوق بالمفارقة لتبعية داعية العود ، فإن الله تعالى جعل البيت مثابة للناس وأماناً ، أى يثوبون ويعودون إليه مرة بعد أخرى ولا يقضون منه وطراً . وقال بعضهم : تكون في بلد وقلبك مشتاق إلى مكة متعلق بهذا البيت خير لك من أن تكون فيه وأنت متبرم بالمقام وقلبك في بلد آخر . وقال بعض السلف : كم من رجل بخراسان وهو أقرب إلى هذا البيت ممن يطوف به ١ ويقال : إن الله تعالى عبادة تطوف بهم الكعبة تقرباً إلى الله عز وجل .

الثالث : الخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها ؛ فإن ذلك غطر وبالحرى أن يورث مقت الله عز وجل أشرف الموضع . وروى عن وهيب بن الورد المسكى قال : كنت ذات ليلة في الحجر أصلى فسمعت كلاماً بين الكعبة والأستار يقول : إلى الله أشكركم إليك يا جبرائيل ما ألقى من العائفين حولي من تفكيرهم في الحديث ولغوم ولهوم أن لم يتهوا عن ذلك لا تنقض انتفاضة يرجع كل حجر منى إلى الجبل الذى قطع منه . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : ما من بلد يؤخذ فيه العبد بالنية قبل العمل إلا مكة وتلا قوله تعالى ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم ﴾ أى أنه على مجرد الإرادة . ويقال : إن السيئات تضاعف بها كما تضاعف الحسنات . وكان ابن عباس رضى الله عنه يقول : الاحتكار بمكة من الإلحاد في الحرم ، وقيل الكذب أيضاً . وقال ابن عباس : لأن أذن سبعين ذنباً بركية أحب إلى من أن أذن ذنباً واحداً بمكة . وركبة : منزل بين مكة والطائف . ولخوف ذلك انتهى بعض المقيمين إلى أن لم يقض حاجته في الحرم بل كان يخرج إلى الحل عند قضاء الحاجة . وبعضهم أقام شهراً وما وضع جنبه على الأرض . وللنعم من الإقامة كره بعض العلماء أجور دور مكة . ولا تظن أن كراهة المقام يتنافى فضل البقعة لأن هذه كراهة عليها ضعف الخلق وقصورهم عن القيام بحق الموضع . فعنى قولنا إن ترك المقام به أفضل أى بالإضافة إلى مقام مع التقصير والثرم ، ولما أن يكون أفضل من المقام مع الوفاء بحقه فهيئات ١ وكيف لا ولما عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة استقبل الكعبة وقال : « إنك خير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى ولولا أنى أخرجت منك لما خرجت (٢) » والنظر إلى البيت عبادة والحسنات فيها مضاعفة كما ذكرناه .

### فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد

ما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله ﷺ فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة ، قال ﷺ : « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام (٣) » وكذلك كل عمل بالمدينة بألف

(١) « قال الله إذا أردت أن أخرب الدنيا بدأت ببقي غزيرته ثم أخرب الدنيا على أثره » ليس له أصل .

(٢) « إنك خير أرض الله وأحب بلاد الله إلى الله ولولا أنى أخرجت منك ما خرجت » أخرجه الترمذى وصححه النسائى فى الكبرى وابن ماجه وابن حبان من حديث عبد الله بن عدى بن الحمراء (٣) « صلاة في مسجدى هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام » متفق عليه من حديث أبى هريرة ورواه مسلم من حديث ابن عمر .

وبعد مديته الأرض المقدسة فإن الصلاة فيها بحسب آفة صلاة فيها سواها إلا المسجد الحرام ، وكذلك سائر الأعمال .  
 وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال : « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » (١) وقال ﷺ : « من صبر على شدتها ولأوائها كنت له شفيعاً يوم القيامة » (٢) وقال ﷺ : « من استطاع أن يموت بالمدينة فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة » (٣) وما بعد هذه البقاع الثلاث فالماضع فيها متساوية إلا الثغور فإن المقام بها للرابطة فيها فيه فضل عظيم . ولذلك قال ﷺ : « لا تعد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدي هذا ، والمسجد الأقصى » (٤) وقد ذهب بعض العلماء إلى الاستدلال بهذا الحديث في المنع من الرحلة لزيارة المشاهد وقبور العلماء والصلحاء . وما تبين لي أن الأمر كذلك بل الزيارة مأمور بها قال ﷺ : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجراً » (٥) . والحديث إنما ورد في المساجد وليس في منهاها المشاهد ، لأن المساجد بعد المساجد الثلاثة متائلة ولا بد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر ، وأما المشاهد فلا تتساوى بل بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله عز وجل ، نعم لو كان في موضع لا مسجد فيه فله أن يشد الرحال إلى موضع فيه مسجد وينتقل إليه بالسكينة إن شاء . ثم لبيت شعري هل يمتنع هذا القائل من شد الرحال إلى قبور الأنبياء مثل إبراهيم وموسى ويحيى وغيرهم عليهم السلام ، فالتنع من ذلك في غاية الإحالة ، فإذا جوز هذا فقبور الأرياء والعلماء والصلحاء في منهاها ، فلا يبعد أن يكون ذلك من أغراض الرحلة كما أن زيارة العلماء في الحياة من المقاصد ، هذا في الرحلة أما المقام فالأولى بالمدينة أن يلازم مكانه إذا لم يكن قصده من السفر استفادة العلم مهما سلم له حاله في وطنه ، فإن لم يسلم فيطلب من المواضع ما هو أقرب إلى التحول وأسلم للدين وأفرغ للقلب وأيسر للعبادة فهو أفضل المواضع له قال ﷺ : « البلاد بلاد الله والحقن عبادته فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم واحمد الله تعالى » (٦) وفي الخبر « من بورك له في شيء فليزمه ومن جعلت مدينته في شيء فلا ينتقل عنه حتى لا يتغير عليه » (٧) وقال أبو نعيم : رأيت سفيان الثوري وقد جعل جراحه على كتفه وأخذ نعله بيده فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ فقال : إلى بلد أملأ فيه جراحى بدم . وفي حكاية أخرى : بلغني عن قرية رخص أقيم فيها ، قال فقلت : وتفضل هذا يا أبا عبد الله ؟ فقال : نعم إذا سمعت برخص في بلد فأقصده فإنه أسلم لدينك وأقل لحملك ، وكان يقول هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الحاملين فكيف

(١) حديث ابن عباس « صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة » غريب لم أجده بحملته هكذا وأخرجه ابن ماجه من حديث يمينونة بإسناد جيد في بيت المقدس « انثو فصولا فيه فإن صلاة فيه كالف صلاة في غيره » ولابن ماجه من حديث أنس « صلاة بالمسجد الأقصى بمئتين ألف صلاة وصلاة في مسجدي بمئتين ألف صلاة » وليس في إسناده من ضعف وقال الذهبي إنه منكر  
 (٢) « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيعاً يوم القيامة » من حديث أبي هريرة وابن عمر وإني سعيد  
 (٣) « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ... » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث ابن عمر قال الترمذي حسن صحيح .

(٤) « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد .  
 (٥) « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها » أخرجه مسلم من حديث بريدة بن الحصيب  
 (٦) « البلاد بلاد الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم » أخرجه أحمد والطبراني من حديث الزبير بسند ضعيف .

(٧) « من رزق في شيء فليزمه ومن جعلت مدينته في شيء فلا ينتقل عنه حتى يتغير عليه » أخرجه ابن ماجه من حديث بالجملة الأولى بسند حسن ومن حديث عائشة بسند فيه جهالة بلفظ « إذا سبب لأحدكم رزقا من وجه فلا يدعه حتى يتغير أو يتسكر له » .

بالمشهورين ؟ هذا زمان تنقل ينتقل الرجل من قرية إلى قرية يفر بديته من الفتن . ويحكى عنه أنه قال : والله أدرى أى البلاد أسكن ؟ فقيل له : خراسان ، فقال : مذاهب مختلفة وآراء فاسدة . قيل : فالشام ، قال : يشار إليك بالأصابع . أراد الشجرة . قيل : فالعراق ، قال : بلد الجبابرة ، قيل : مكة ، قال : مكة تذيب الكيس والبدن . وقال له رجل غريب : عزمت على المجاورة بمكة فأوصنى ، قال : أوصيك بثلاث لا تهلين في الصف الأول ولا تصحبن قرشياً ولا تظهرن صدقة ، وإنا كره الصف الأول لأنه يشتر فيفتقد إذا غاب فيخناط بعمله التزين والتصنع .

## الفصل الثاني

### في شروط وجوب الحج وصحة أركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشروط فشرط صحة الحج اثنان : الوقت والإسلام . فيصح حج الصبي ويحرم بنفسه إن كان مميزاً ويحرم عنه وليه إن كان صغيراً ويفعل به ما يفعل في الحج من الطواف والسعى وغيره . وأما الوقت فهو شوال وذو القعدة وتسع من ذى الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر ، فمن أحرم بالحج في غير هذه المدة فهو عمرة وجميع السنة وقت العمرة ، ولكن من كان معكولاً على النكس أيام منى فلا ينبغي أن يحرم بالعمرة لأنه لا يتمكن من الاشتغال بقيمه لاشتغاله بأعمال منى . وأما شروط وقوعه عن حجة الإسلام فخمسة : الإسلام والحرية والبلوغ والعقل والوقت . فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وباغ الصبي بهرة أو بمزدلفة وعاد إلى حرفة قبل طلوع الفجر أجزأهما عن حجة الإسلام ، لأن الحج عرفة ، وليس عليهما دم إلا شاة . وتشرط هذه الشروط في وقوع العمرة عن فرض الإسلام إلا الوقت . وأما شروط وقوع الحج فثلاثة : نفاً عن الحر البالغ فهو بعد براءة ذمته عن حجة الإسلام . لحج الإسلام متقدم ، ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف ، ثم التذرع ، ثم النيابة ، ثم النفل ؛ وهذا الترتيب مستحق ، وكذلك يقع وإن نوى خلاله . وأما شروط لزوم الحج فخمسة : البلوغ والإسلام والعقل والحرية والاستطاعة . ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة . ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطاً بالزمه الإحرام على قول ثم يتحل بعمل عمرة أو حج . وأما الاستطاعة فثلاثة : أحدها المباشرة وذلك له أسباب أما في نفسه فبالصحة ، وأما في الطريق فبأن تكون خصبة آمنة بلا يصر خطر ولا عدو قاهر . وأما في المال فبأن يجد نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه . كان له أهل أو لم يكن . لأن مفارقة الوطن شديدة وأن يملك نفقة من نلزمه نفقته في هذه المدة وأن يملك ما يقضى به دينه وأن يقدر على رحلته أو كراهتها بحمل أو زاملة إن استمسك على الزامته وأما النوع الثاني : فاستطاعة المعضوب بماله وهو أن يستأجر من يبيع عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه . ويمكن نفقة الذهاب بزاملة في هذا النوع ، والابن إذا عرض طاعته على الأب الزمن صار به مستطاعاً ولو عرض ماله لم يصر به مستطاعاً ؛ لأن الخدمة بالبدن فيها شرف للولد ، وبذل المال فيه منة على الوالد . ومن استطاع لزمه الحج وله التأخير ولكنه فيه على خطر فإن تيسر له ولو في آخر عمره سقط عنه ، وإن مات قبل الحج لقي الله عز وجل عاصياً بترك الحج ، وكان الحج في تركته يبيع عنه وإن لم يوص كسائر دينه . وإن استطاع في سنة لم يخرج مع الناس وهلك ماله في تلك السنة . قبل حج الناس . ثم مات لقي الله عز وجل ولا حج عليه . ومن مات ولم يبيع مع الناس فأمره شديد عند الله تعالى . قال عمر رضي الله عنه : لقد هممت أن أكتب في الأمصار بضر بالجرية على من لم يبيع من يستطيع إليه سبيلاً وعن سعيد بن جبير وإبراهيم النخعي ومجاهد وطاوس ولعيس رجلان غنياً وجب عليه الحج ثم مات قبل أن يبيع ما صلبت عليه . وبعضهم كان له جار وموسر فمات ولم يبيع فلم يصل عليه وكان ابن عباس يقول : من مات ولم يرك ولم يبيع سأل الرجعة إلى الدنيا وقرأ قوله عز وجل ﴿ رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فأتزكك ﴾ قال .

الحج وأما الأركان التي لا يصح الحج بدونها الخمسة : الإحرام والطواف والسعى بعده والوقوف بعرفة والحاق بعده على قول وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف والواجبات المجبورة بالدم ست : الإحرام من الميقات فن تركه تجاوز الميقات محلاً فعليه شاة والرمي فيه الدم قولاً واحداً ، وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمى وعطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين ، وفي القول الثاني فيها دم على وجه الاستحباب وأما وجوه أداء الحج والعمرة ثلاثة :

(الأول) : الأفراد وهو الأفضل وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل فأحرم واعتصر . وأفضل الحل لإحرام العمرة الجمعانة ثم التمتع ثم الحديبية . وليس على المفرد دم إلا أن يتطوع .

(الثاني) القرآن وهو أن يجمع فيقول « لبيك بحجة وعمرة معاً » فيصير محرماً بهما ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل ؛ إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف بعرفة فضعه محسوب من التسكين وأما طوافه فغير محسوب ؛ لأن شرط الطواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف ، وعلى القارئ دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه لأنه لم يترك ميقاته إذ ميقاته مكة .

(الثالث) التمتع وهو أن يجاوز الميقات محرماً بعمرة ويتحل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط ؛ أحدها : أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا تقصر فيها الصلاة . الثاني : أن يقدم العمرة على الحج . الثالث : أن تكون عمرته في أشهر الحج . والرابع : أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج . الخامس : أن يكون حججه وعمرته عن شخص واحد . وإذا وجدت هذه الأوصاف كان متمتعاً وزمه دم شاة ؛ فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا جمع إلى الوطن ، وإن لم يصم الثلاثة حتى يرجع إلى الوطن صام العشرة تتابعاً أو متفرقاً وبدل دم القرآن والتمتع سواء . والأفضل للأفراد ثم التمتع ثم القرآن . وأما محظورات الحج والعمرة فستة ؛ الأول : اللبس للقميص والسرراويل والخف والهامة بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين . فإن لم يجد نعلين فكعبين فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستغلال في الحمل أن يغطي رأسه فإن إحرامه في الرأس ؛ وللرأة أن تلبس كل غنيط بعد أن لا تستر وجهها بما يماسه فإن إحرامها في وجهها . الثاني الطيب فليجنب كل ما يعده العفلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة . الثالث : الخلق والقلم وفيهما الفدية أعنى دم شاة ؛ ولا بأس بالسكحل ودخول الحمام والغصد والحجامة وترجيل الشعر . الرابع : الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه وإن كان بعد التحلل الأول لزمه البدنة ولم يفسد حججه . الخامس : مقدمات الجماع كالقبلة والملاسة التي تنقض الطهر مع النساء فهو محرم وفيه شاة وكذا في الاستمناء ، ويحرم التكاح والإنكاح ولا دم فيه لأنه لا ينمقد . السادس : قتل صيد البر أعنى ما يؤكل أو هو متولد من الحلال والحرام فان قتل صيداً فعليه مثله من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة وصيد البحر حلال ولا جزاء فيه .

الباب الثاني في ترتيب الأعمال الطاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة حمل

الجله الأولى : في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية

(الأولى) في المال : فينبغي أن يبدأ بالتوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد الثقة لكل من تلامه نفقته إلى وقت الرجوع ويرد ما عنده من الودائع . ويستحب من المال الحسب الطيب ما يكفيه لإعنايه وإيابه من غير

تقدير بل على وجه يمكنه معه التوسع في الزاد والرفق بالضعفاء والفقراء . ويتصدق بشئ قبل خروجه ويشترى لنفسه دابة قوية على الحمل لاتضعف أو يكثرها فإن اكرى فليظهر للساكنى كل ما يريد أن يحمله من قليل أو كثير ويحصل رضاه فيه .

( الثانية ) في الرفيق : ينبغي أن يلتصق رفيقاً صالحاً عباً للخير معيناً عليه إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه وإن جبن عجمه وإن عجز قواه وإن ضاق صدره صبره . ويودع رفقاءه المقيمين وإخوانه وجيرانه فيودعهم ويلتصق أديعتهم فإن الله تعالى جاعل في أديعتهم خيراً ، والسنة في الوداع أن يقول : أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك (١) ، وكان ﷺ يقول لمن أراد السفر : « في حفظ الله وكفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما كنت » (٢) .

( الثالثة ) في الخروج من الدار : ينبغي إذا هم بالخروج أن يصلي ركعتين أولاً بقرأ في الأولى بعدد الفاتحة : قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص فإذا فرغ رفع يديه ودعا الله سبحانه عن إخلاص صاف ونية صادقة وقال : اللهم أنت صاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا وإياهم من كل آفة وعاءة . اللهم إنا نسألك أن تطوى لنا الأرض وتكون علينا السفر وأن ترزقنا في سفرنا سلامة البدن والدين والمال وتبلغنا حج بيتك وزيارة قبر نبيك محمد ﷺ . اللهم إنا نفوذ بك من وعاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال والولد والأصحاب . اللهم اجعلنا وإياهم في جوارك ولا تسلبنا وإياهم نعمتك ولا تغربنا بنا وبهم من عافيتك . ( الرابعة ) إذا حصل على باب الدار قال : بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله رب أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أذل أو أذل أو أزل أو أزل أو أعظم أو أعظم أو أجمل أو أجمل على . اللهم إني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة بل خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك وقضاء فرضك واتباع سنة نبيك وشوقاً إلى لقاءك . فإذا مشى قال : اللهم بك انتشرت وعليك توكلت وبك اعتصمت وإليك توجهت . اللهم أنت تقوى وأنت رجائي فاكفني ما أعنى وما لا أهتم به وما أنت أعلم به مني عز جارك وجل ثناؤك ولا اله غيرك . اللهم زودني التقوى واغفر لي ذنبي ووجهني للخير أينما توجهت . ويبدو بهذا الدعاء في كل منزل يدخل عليه .

( الخامسة ) في الركوب : فإذا ركب الرحلة يقول : بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ما شاء . الله كان وما لم يمشأ لم يكن سبحانه الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون . اللهم إني وجهت وجهي إليك وفوضت أمري كله إليك وتوكلت في جميع أموري عليك أنت حسي ونعم الوكيل . فإذا استوى على الرحلة واستوت تحته قال : سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر - سبع مرات - وقال : ( الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ) اللهم أنت الحامل على الظاهر المستعان على الأمور .

( السادسة ) في النزول : والسنة أن لا ينزل حتى يحصى النهار ويكون أكثر سيره بالليل قال ﷺ « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار » (٣) « وليقلل نومه بالليل حتى يكون عوناً على السير . ومهما أشرف

#### الباب الثاني : في ترتيب الأعمال الظاهرة

(١) « أستودع الله دينك وأمانتك وخواتم عملك » أخرجه الترمذي وصححه والنسائي من حديث ابن عمر « أنه كان يقول للرجل إذا أراد سفراً : ادن مني حتى أودعك كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يودعنا » .

(٢) « كان صلى الله عليه وسلم يقول لمن أراد سفراً : في حفظ الله وكفه زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير أينما توجهت » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس وهو عند الترمذي وحسنه دون قوله « في حفظ الله وكفه » .

(٣) « عليكم بالدجلة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار » أخرجه أبو داود من حديث أنس دون قوله « ماتطوى بالنهار » وهذه الزيادة في الوطأ من حديث خالد بن معدان مرسلاً .

على المنزل فليقل : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن ورب الشياطين وما أضللن ورب الرياح وما ذرين ورب البحار وما جرين أسألك خير هذا المنزل وخير أهله وأعوذ بك من شره وشر ما فيه أصرف عني شر شرارهم . فإذا نزل المنزل صلى ركعتين فيه ثم قال : أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن مر ولا فاجر من شر ما خلق فأذا جن عليه الليل يقول : يا أرض ربى وربك الله أعوذ بالله من شرك وشرك ما فيك وشر ما دب عليك أعوذ بالله من شر كل أسد وأسود وحية وعقرب ومن شر ساكن البلد ووالد وما ولد (١) وله ما سكن في الليل والنهار وهو السميع العليم (٢) .

( السابعة ) في الحراسة : ينبغي أن يحتاط بالنهار فلا يمضى منفرداً خارج الغافلة لأنه ربما يغتال أو ينقطع ويكون بالليل متحفظاً عند النوم فإن نام في ابتداء الليل افترش ذراعه ، وإن نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل رأسه في كفه هكذا كان ينام النبي ﷺ في سفره (٣) لأنه ربما استقبل النوم قطع الشمس وهو لا يدري فيكون ما يفوته من الصلاة أفضل مما يناله من الحج والأوجب في الليل أن يتناول الريقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر (٤) فهو السنة فإن قصده عدو أو سبع في ليل أو نهار فليقرأ آية الكرسي وشهد الله والإخلاص والمعوذتين وليقل بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله حسبي الله توكلت على الله ماشاء الله لا بأتى بالخير إلا الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله حسبي الله وكفى جمع الله لمن دعا ليس وراء الله منتهى ولادون الله ملجأ (٥) كتب الله لأغلبين أنا ورسلي إن الله قوي عزيز (٦) تحصنت بالله العظيم واستغثت بالحي الذي لا يموت اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام واكفنا بركنك الذي لا يرام . اللهم أعطف علينا قلوب عبادك وإيمانك برأفة ورحمة إنك أنت أرحم الراحمين .

( الثامنة ) مهما علا نثرأ من الأرض في الطريق فيستحب أن يكبر ثلاثاً ثم يقول : اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال . ومهما هبط سبى ومهما خاف الوحشة في سفره قال : سبحان الله الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات بالعزة والجبروت .

### الجملة الثانية: في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

( الأول ) أن يغسل وينوى به غسل الإحرام أعنى إذا انتهى إلى الميقات المشهور الذي يحرم الناس منه . ويتم غسله بالتنظيف ويسرح لحية ورأسه ويقل أطفاله ويقص شاربه ويستكمل النظافة التي ذكرناها في الطهارة ( الثاني ) أن يفارق الثياب المخيطة ويلبس ثوبي الإحرام فيرتدى ويترى شوبين أبيضين فالأبيض هو أحب الثياب إلى الله عز وجل ، ويغطي في ثيابه وبدنه ولا بأس بطيب يبقى بعد الإحرام ، فقد روى بعض المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام بما كان استعمله قبل الإحرام (٣) . ( الثالث ) أن يصبر بعد لبس الثياب حتى تلعبت به راحلته إن كان راكباً أو يبدأ بالسير إن كان راكباً فعند ذلك ينوى الإحرام بالحج أو العمرة

(١) « كان إذا نام في أول الليل افترش ذراعه وإذا نام في آخر الليل نصب ذراعه نصباً وجعل ذراعه في كفه » أخرجه أحمد والترمذي في الثمالة من حديث أبي قتاده بإسناد صحيح وعزاه أبو مسعود الدمشقي والنجيدي إلى مسلم ولم أره فيه .

(٢) « تناول الريقان في الحراسة فإذا نام أحدهما حرس الآخر » أخرجه البيهقي من طريق ابن إسحق من حديث جابر في حديث فيه « فقال الأنصاري للمهاجرى أى الليل أحب إليك أن أكفيك أوله أو آخره ؟ قال : بل أكفى أوله فاضطجع للمهاجرى ... » والحديث عند أبي داود ولكن ليس فيه قول الأنصاري للمهاجرى .

(٣) « رؤية ويص المسك على مفرق رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الإحرام » متفق عليه من حديث عائشة قالت « كأنما أنظر إلى ويص المسك » الحديث .



قرأنا أو أفراداً كما أراد . ويكنى مجرد التنية لانعقاد الإحرام ولكن السنة أن يقرن بالتنية لفظ التلبية فيقول « لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك » وإن زاد قال « لبيك وسعديك والخير كله بيدك والربياء إليك بحجة حقاً تعبدوا وفقاً اللهم صل على محمد وعلى آل محمد »

(الرابع) إذا انعقد إحرامه بالتلبية المذكورة فيستحب أن يقول : اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني . اللهم إني تويت أداء فريضتك في الحج فأجعلني من الذين استجابوا لك وآمنوا بوعدك واتبعوا أمرك واجعلني من وفدك الذين رخصت عنهم وأرخصيت عنهم . اللهم فيسر لي أداء ما نويت من الحج . اللهم قد أحرم لك طمى وشعرى ودى وعصى وغنى وعظاى وحرمت على نفسى النساء والطيب وليس الخيط ابتغاء وجهك والدار الآخرة . ومن وقت الإحرام حرم عليه المحظورات الستة التي ذكرناها من قبل فليجتنبها .

(الخامس) يستحب تجديد التلبية في دوام الإحرام خصوصاً عند اصطدام الرقاق وعند اجتماع الناس وعند كل صعود وهبوط وعند كل ركوب ونزول رافعا بها صوته بحيث لا يبلس حلقه ولا ينهر ، فإنه لا ينادى أحم ولا غابا (١) كما ورد في الخبر . ولا بأس برفع الصوت بالتلبية في المساجد الثلاثة فإنها مظنة المناسك — أعني المسجد الحرام ومسجد الخيف ومسجد الميقات — وأما سائر المساجد فلا بأس فيها بالتلبية من غير رفع صوت . وكان صلى الله عليه وسلم إذا أعجبه شيء قال « لبيك إن العيش عيش الآخرة (٢) » .

### الجملة الثالثة : في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة

(الاول) أن يغتسل بئى طوى لدخول مكة . والاعتسالات المستحبة المسنونة في الحج تسعة ؛ الاول : الإحرام من الميقات ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم للوقوف بمزدلفة ثم ثلاثة أسسال لرى الجمار الثلاث ، ولا غسل لرى جرة العقبة ، ثم لطواف الوداع . ولم ير الشافعى رضى الله عنه في الجديد : الفصل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة . الثاني : أن يقول عند الدخول في أول الحرم وهو خارج مكة « اللهم هذا حرمك وأمنك حرم طمى ودى وشعرى وبشرى على النار وآمنى من عذابه يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك . الثالث : أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهو من ثنية كداء — بفتح الكاف — عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم من جادة الطريق إليها (٣) فالتأسي به أولى ، وإذا خرج خرج من ثنية كدى — بضم الكاف — وهى الثنية السفلى والأولى هى العليا . الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الرمد فعنده يقع بصره على البيت فليقل « لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام اللهم إن هذا بيتك عظمت وكرمت وشرفته اللهم فزده تعظيما وزده تشريفا وتكراما وزده مهابة وزده من حجه برا وكرامة اللهم افتح أبواب رحمتك وأدخلني جنتك وأعذني من الشيطان الرجيم » . الخامس : إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بنى شيبه وليقل « بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى . اللهم

(١) «إنكم لاتأدون أصم ولا غلبا» متفق عليه من حديث أبى موسى

(٢) «كان إذا كان أعجبه شيء قال : لبيك إن العيش عيش الآخرة» أخرجه الشافعى في السند من حديث مجاهد مرسل ولحاكم وصححه من حديث ابن عباس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف برفات فلما قال لبيك اللهم لبيك » قال «إنما الخير خير الآخرة» .

(٣) « دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم من ثنية كداء — بفتح الكاف — » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل مكة من الثنية العليا التي بالبطح . . . » .

صلى على محمد عبدك ورسولك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك « وايرفع يديه وليقل « اللهم إني أسألك في مقامى هذا أول مناسكى أن تقبل توبى وأن تتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزرى الحمد لله الذى بلغنى بيته الحرام الذى جعله مثابة للناس وأماناً وجعله مباركاً وهدي للعالمين . اللهم إني عبدك والبلد بلدك والحرم حرمك والبيت بيتك حبسك أطلب رحمتك وأسألك مسئلة المضطر الخائف من عقوبتك الراجى لرحمتك الطالب مرضاتك . السادس : أن نقصد الحجر الأسود بعد ذلك ونمسح بيدك اليمنى وتقبله وتقول « اللهم أما تقبلى أدبتي وميثاقى وفيتي أشهدلى بالموافاة فإن لم يستطع التقبيل وقفتنى مقابلته ويقول ذلك . ثم لا يخرج على شيء دون الطواف وهو طواف القدوم إلا أن يجد الناس فى المكتوبة فيصلى معهم ثم يطوف .

### الجملة الرابعة: فى الطواف

فإذا أراد اقتناح الطواف إما للقدوم وإما لغيره فينبغى أن يراعى أموراً ستة (الأول) أن يراعى شروط الصلاة من طهارة الحدث والحديث فى الثوب والبدن المكان وستر العورة . فالطواف بالبيت صلاة ولكن الله سبحانه أباح فيه الكلام . وليضطجع قبل ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط رداءه تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبيه الأيسر فيرخى طرفاً وراء ظهره وطرفاً على صدره . ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتمل بالأدعية التى سنذكرها (الثانى) إذا فرغ من الاضطجاع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتجنب عنه قليلاً ليكون الحجر قدماه فيمر بجميع الحجر بجميع بدنه فى ابتداء طوافه . وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت فإنه أفضل ولكيلاً يكون طائفاً على الشاذران فإنه من البيت ، وعند الحجر الأسود قد يتصل الشاذران بالأرض ويلتبس ، والطائف عليه لا يصح طوافه ؛ لأنه طائف فى البيت ، والشاذران هو الذى فضل عن عرض جدار البيت بعد أن ضيق أعلى الجدار ثم من هذا الموقف يتبدى الطواف (الثالث) أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل فى ابتداء الطواف « بسم الله والله أكبر اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد صلى الله عليه وسلم » ويطوف . فأول ما يجاوز الحجر ينتهى إلى باب البيت فيقول « اللهم هذا البيت بيتك وهذا الحرم حرمك وهذا الأمن أمنك وهذا مقام العائذ بك من النار » وعند ذكر المقام يشير بعينه إلى مقام إبراهيم عليه السلام « اللهم إني بيتك عظيم ووجهك كريم وأنت أرحم الراحمين فأعذنى من النار ومن الشيطان الرجيم وحرم حتى ودى على النار وأخفى من أهوال يوم القيامة واكفنى مؤنة الدنيا والآخرة » ثم يسبح الله تعالى ويحمده حتى يبلغ الركن العراقى فعنده يقول « اللهم إني أعوذ بك من الشرك والشك والكفر والنفاق والشقاق وسوء الأخلاق وسوء المنظر فى الأهل والمال والولد » فإذا بلغ الميزاب قال « اللهم أظننا تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك اللهم اسقنى بكأس محمد صلى الله عليه وسلم شرية لا أظلم بعدها أبداً » فإذا بلغ الركن الشامى قال « اللهم اجعله حجاً مبروراً وسعياً مشكوراً وذنباً مغفوراً ونجاة من تور يا عزيز يا غفور رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم » فإذا بلغ الركن المائى قال « اللهم إني أعوذ بك من الكفر وأعوذ بك من الفقر ومن عذاب القبر ومن فتنة الحيا والميت وأعوذ بك من الخزي فى الدنيا والآخرة » ويقول بين الركن المائى والحجر الأسود « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا برحمتك فتنة القبر وعذاب النار » فإذا بلغ الحجر الأسود قال « اللهم اغفرلى برحمتك أعوذ برب هذا الحجر من الدين والفقر وضيق الصدر وعذاب القبر » وعند ذلك قد تم شوط واحد فيطوف كذلك سبعة أشواط فيدعو بهذه الأدعية فى كل شوط (الرابع) أن يرمل فى ثلاثة أشواط ويمشى فى الأربعة الأخر على الهيئة المعتادة . ومعنى الرمل الإسراع فى المشى مع تقارب الخطأ ، وهو دون العدو وفوق المشى المعتاد . والمقصود

منه ومن الاضطباع إظهار الشطارة والجلادة والقوة، هكذا كان الفصد وألا قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة<sup>(١)</sup> والأفضل الرمل مع الدنو من البيت فإن لم يمكنه للرحمة فالرمل مع البعد أفضل فيخرج إلى حاشية المطاف ويومل ثلاثاً ثم يقرب إلى البيت في المزدحم وليس أربما . وإن أمكنه استلام الحجر في كل شوط فهو الأحب ، وإن منعه الزحام أشار باليد وقبل يده ، وكذلك استلام الركن الثاني يستحب من سائر الأركان . وروى « أنه صلى الله عليه وسلم كان يستلم الثاني<sup>(٢)</sup> ويقول<sup>(٣)</sup> ويضع خده عليه<sup>(٤)</sup> » ومن أراد تخصيص الحجر بالتقبيل وانصرف في الركن الثاني على الاستلام أغنى عن اللبس باليد فهو أولى ( الخامس ) إذا تم الطواف سبعا فليات للماتزم وهو بين الحجر وأبواب وهو موضع استجابة الدعوة ، وليلتزم بالبيت وليتعلق بالآستار وليصق بطنه بالبيت وليضع عليه خده الأيمن وليبسط عليه ذراعيه وكفيه ، وليقل « اللهم يارب البيت العتيق أعق ربتي من النار وأعدني من الشيطان الرجيم وأعدني من كل سوء وقنني بما رزقتني وبارك لي فيما آتيتني اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك » ثم ليحمد الله كثيراً في هذا الموضع وليصل على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الرسل كثيراً وليدع بمواجبه الخاصة وليستغفر من ذنوبه . كان بعض السلف في هذا الموضع يقول لمواليه : تنحروا عني حتى أفر لربي بذنوبي ( السادس ) إذا فرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى قل يا أيها الكافرون وفي الثانية الإخلاص وهما ركعتا الطواف . قال الزهري : مضت السنة أن يصلي لكل سبع ركعتين<sup>(٥)</sup> . وإن قرن بين أسابيع وصلى ركعتين جاز<sup>(٦)</sup> فعل ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل أسبوع طواف . وليدع بعد ركعتي الطواف وليقل « اللهم يسر لي اليسرى وجنبي اليسرى واغفر لي في الآخرة والأولى واعصمني بألفافك حتى لا أعصيك وأعني على طاعتك بتوفيقك وجعني معاصيك واجعلني ممن يحبك ويحب ملائكتك ورسلك ويجب عبادك الصالحين . اللهم حبيبي إلى ملائكتك ورسلك وإلى عبادك الصالحين

(١) « مشروعية الرمل والاضطباع قطعاً لطمع الكفار وبقيت تلك السنة » أما الرمل فنشئ عليه من حديث ابن عباس قال « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقال المشركون إنه يقدم عليكم قوم قد وهنتهم حتى يثرث فأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يرموا الأضواء الثلاثة ... » وأما الاضطباع فروى أبو داود وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث عمر قال « فم الملان الآن والكشف عن المناكب وقد أظهر الله الإسلام ونفى الكفر وأهلهم ومع ذلك لاتدع شيئاً كنا نفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم » . (٢) « استلامه صلى الله عليه وسلم للركن الثاني » متفق عليه من حديث ابن عمر قال « رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يقدم مكة إذا استلم الركن الأسود ... » ولها من حديثه « لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يس من الإزكان إلا الجيانيين » وللمسلم من حديث ابن عباس « لم أره يستلم غير الركنين الجيانيين » وله من حديث جابر الطويل « حتى إذا أتيت البيت معه استلم الركن » . (٣) « تقبيله عليه الصلاة والسلام له » متفق عليه من حديث عمر « أنه قبل الحجر وقال لولا أني رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام قبلك ماقبلتك » وللبخاري من حديث ابن عمر « رأيت رسول الله عليه الصلاة والسلام يستلمه ويقول « وله في التاريخ من حديث ابن عباس « كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا استلم الركن الثاني قبله » . (٤) « وضع الخد عليه » أخرجه الدارقطني من حديث ابن عباس « أن رسول الله عليه الصلاة والسلام قبل الركن الثاني ... » قال الحاكم صحيح الإسناد قلت فيه عبد الله بن مسلم بن هرمز ضعفه الجمهور . (٥) حديث الزهري مضت السنة أن يصلي لكل أسبوع ركعتين ذكره البخاري تعليقاً السنة أفضل ليطفأ النبي عليه الصلاة والسلام أسبوعاً لإلاصلي ركعتين وفي الصحيحين من حديث ابن عمر « قدم رسول الله عليه الصلاة والسلام وطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين » .

(٦) « قرانه عليه الصلاة والسلام بين أسابيع » ابن أبي حاتم من حديث ابن عمر « أن النبي عليه الصلاة والسلام قرن ثلاثة أطواف ليس بينها صلاة » ورواه القليل في الضعفاء وابن شاهين في أماليه من حديث أبي هريرة وزاد « ثم صلى لكل أسبوع ركعتين » وفي إسناده عيد السلام بن أبي الجبوس منكر الحديث .

اللهم فبكا هديتني إلى الإسلام فثبتني عليه بألطافك وولائتك واستعملني لطاعتك وطاعة رسولك وأجرني من ضلالت  
العتى، ثم ليمد إلى الحجر وليستله وليختم به الطواف قال ﷺ « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من  
الأجر كعتق رقبة<sup>(١)</sup> » وهذه كيفية الطواف . والواجب من جملة بعد شروط الصلاة أن يستكمل عدد الطواف سبعا  
بجمع البيت ، وأن يبتدىء بالحجر الأسود ويجعل البيت على يساره وأن يطوف داخل المسجد وغارج البيت لاعلى  
الشاذروان ولا في الحجر، وأن يوالى بين الأشواط ولا يفرقها تفريقا خارجا عن المعتاد وماعادها فهو سنن وهيات.

### الجملة الخامسة: في السعي

فإذا فرغ من الطواف فليخرج من باب الصفا وهو في معاذة الضلع الذى بين الركن الثانى والحجر . فإذا خرج  
من ذلك الباب وانتهى إلى الصفا وهو جبل قريب فيه درجات في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل . رقى رسول الله  
صلى الله عليه وسلم حتى بدت له الكعبة<sup>(٢)</sup> . وابتداء السعي من أصل الجبل كاف وهذه الزيادة مستحبة ، ولكن  
بعض تلك الدرج مستحبة فينبغي أن لا يخلطها وراء ظهره فلا يكون متما للسعي . وإذا ابتدأ من هنا سعى بينه وبين  
المروة سبع مرات . وعند رقيه في الصفا يبنى أن يستقبل البيت ويقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر الحمد لله على ما هدانا  
الحمد لله بما هدانا كلها على جميع نعمه كلها لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيى ويميت بيده الخير وهو  
على كل شيء قدير لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده لا إله إلا الله  
مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا إله إلا الله مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين » فسبحان الله حين تمسون  
وحين تصبحون وله الحمد في السموات والأرض وحشا وحين تظهرون يخرج الحصى من الميث ويخرج الميث من الحصى  
ويحصى الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون » اللهم إني أسألك  
إيمانا دائما وبقينا صادقا وعلما نافعا وقلبا عاشقا ولسانا ذاكرا وأسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدنيا  
والآخرة ويسئلى على محمد ﷺ « ويدعو الله عز وجل بما شاء من حاجته عقيب هذا الدعاء . ثم ينزل ويبتدىء  
السعي وهو يقول « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم إنك أنت الأعز الأكرم اللهم آتاني الدنيا حسنة وفي الآخرة  
حسنة وقنا عذاب النار » ويمشي على هيئة حتى ينتهى إلى الميل الأخضر وهو أول ما يلقاه إذا نزل من الصفا - وهو  
على زاوية المسجد الحرام - فإذا بقي بينه وبين معاذة الميل ستة أذرع أخذ في السير السريع وهو الرمل حتى ينتهى  
إلى الميلين الأخضرين . ثم يعود إلى الهيئة فإذا انتهى إلى المروة صعدا كما صعد الصفا وأقبل بوجهه على الصفا ودعا  
يمثل ذلك الدعاء . وقد حصل السعي مرة واحدة؛ فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان يفعل ذلك سبعا ويرمل في موضع الرمل  
في كل مرة ويمكن في موضع السكون - كما سبق - وفي كل نوبة يصعد الصفا والمروة فإذا فعل ذلك فقد فرغ من  
طواف القدوم والسعي وهما ستان . والطهارة مستحبة للسعي وليست بواجبة بخلاف الطواف وإذا سعى فينبغي أن  
لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفى بهذا ركنا ، فإنه ليس من شروط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط  
في طواف الركن . نعم شرط كل سعى أن يقع بعد طواف أى طواف كان .

(١) « من طاف بالبيت أسبوعا وصلى ركعتين فله من الأجر كعتق رقبة » أ رجه الزمذى وحسنه والنسائى وابن  
ماجه من حديث ابن عمر « من طاف بالبيت وصلى ركعتين كان كعتق رقبة » لفظ ابن ماجه وقال الآخر « من طاف  
بهذا البيت أسبوعا فأصغاه كان كعتق رقبة وللبقي في الشعب « من طاف أسبوعا وركع ركعتين كانت كعتق رقبة » .  
(٢) « أنه رقى على الصفا حتى بدت له الكعبة » أخرجه مسلم من حديث جابر « فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى  
البيت » وله من حديث أبى هريرة « أتى الصفا فصلا عليه حتى نزل إلى البيت » ..

## الجملة السادسة . في الوقوف وما قبله

الحاج اذا انتهى يوم عرفة الى عرفات يتفرغ لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف . واذا وصل قبل ذلك بأيام طواف القدوم فيمكث حرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة . فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها ، وبالغدو منها إلى عرفة لإقامة قرص الوقوف بعد الزوال ؛ اذ وقت لوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر ، فينبغي أن يخرج إلى منى ملياً ، ويستحب له المني من مكة في المناسك إلى انقضاء حجته ان قدر عليه . والمني من مسجد ابراهيم عليه السلام إلى الموقف أفضل وأكد . فاذا انتهى إلى منى قال « اللهم هذه منى فأمن على بما مننت به على أربائك وأهل طاعتك ولبيك هذه الليلة بئى - وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك - فاذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فاذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات ويقول « اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها قط وأقربها من رضوانك وأبعدا من سخطك اللهم إليك غدوت وإياك رجوت وعليك اعتمدت ووجهك أردت فأجعلني من تباها به اليوم من هو خير مني وأفضل . فاذا أتى عرفات فليضرب خيابه بنمرة قريباً من المسجد فثم ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبته <sup>(١)</sup> ونمرة هي بطن عرفة دون الموقف ودون عرفة . وليغتسل للوقوف فاذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد ، وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية ووصل الإقامة بالأذان ، وفرغ الإمام مع تمام إقامة المؤذن . ثم جمع بين الظهر والعصر بأذان واقامتين ، وقصر الصلاة ، وراح إلى الموقف فليتبع بعرفة ولا يقف في وادي عرفة . وأما مسجد ابراهيم عليه السلام فصدده في الوادي وأخرياته من عرفة فن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة . ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار فرشت ثم . والأفضل ان يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبلاً للقبلة راكباً . وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتلهيل والثناء على الله عز وجل والدعاء والتوبة . ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء . ولا يقطع التلبية يوم عرفة بل الأحب ان يلبى تارة ويكب على الدعاء أخرى . وينبغي ان لا ينفصل من طرف عرفة الا بعد الغروب ليجمع في عرفة بين الليل والنهار . وان أمكنه الوقوف يوم الثامن ساعة عند امكان الغلطي في الهلال فهو الحزم وبه الأمان من الفوات . ومن فاته الوقوف حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج ، فعليه ان يتحلل عن احرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ، ثم يقضى العام الآتي ، وليكن اهم اشتغاله في هذا اليوم الدعاء . ففي مثل تلك البقعة ومثل ذلك الجلع ترجى اجابة الدعوات . والدعاء المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> وعن السلف

(١) « ضربه صلى الله عليه وسلم قبته بنمرة » أخرجه مسلم من جابر الطويل « فأمر بقبته من شعر تضرب له بنمرة ... » (٢) « الدعاء المأثور في يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... » أخرجه الترمذي من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال خير الدعاء دعاء يوم عرفة وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك والحمد وهو على كل شيء قدير » وقال حسن غريب وله من حديث علي قال « أكثر مداداً به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة في الموقف اللهم لك الحمد كالذي تقول وخيراً مما تقول لك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي وإليك مآتي ولك رب ترائي اللهم إني أعوذ بك من شر ما يجيء به الريح » وقال ليس بالقوى إسناده وروى المستغفرى في الدعوات من حديثه « يا علي إن أكثر دعاء من قبلي يوم عرفة أن أقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير اللهم اجعل في بصري نوراً وفي سمعي نوراً وفي قلبي نوراً اللهم اشرح في صدري ويسر لي أمري اللهم إني أعوذ بك من وسواس الصدر وشتات الأمر وقتنة القبر وشر ما يلج في الليل وشر ما يلج في النهار وشر ما تنهب به الريح ومن شر بوائق الدهر » وإسناده ضيف وروى الطبراني

في يوم عرفة أول ما يدعو به فيلقل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير . اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً وفي لساني نوراً . اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري » وليقل : اللهم رب الحمد كما تقول وخيراً مما تقول وخيراً مما تقول لك صلاتي ونسكي ومحاسني وعماقي وإليك مآبي وإليك ثوابي . اللهم إني أعوذ بك من وساوس الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر . اللهم إني أعوذ بك من شر ما يلج في الليل ومن شر ما يلج في النهار ومن شر ما تب به الريح . ومن شر بوائق الدهر . اللهم إني أعوذ بك من تحول عافيتك ولجأه فجميع سخطك . اللهم اهدني بالهدى وأغفر لي في الآخرة والأولى ياخير مقصود وأسنى منزل به وأكرم مسئول ما لديه أعطى العشية أفضل ما أعطيت أحداً من خلقك وحجاج يترك بأرحم الراحمين . اللهم يارفع الدرجات ومنزل البركات ويافاطر الأرضين والسموات ضجت إليك الأصوات بصنوف اللغات يسألونك الحاجات وحجتك إليك أن لا تنساني في دار البلاد إذا نسيت أهل الدنيا . اللهم إنك تسمع كلامي وترى مكاني وتعلم سري وعلائي ولا يخفي عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الرجل المشفق المعترف بذنبي أسألك مسألة المسكين وأبتهل إليك أبتهال المذنب الذليل وأدعوك دعاء الخائف الضعيف دعاء من خضعت لك رقبته وفاضت لك عبرته وذل لك جسده ورغم لك أنفه . اللهم لا تجعاني بدنائك رب شقياً وكفي في ردوفا رحماً ياخير المسئولين وأكرم المعطين إلهي من مدح لك نفسه فأني لأتم نفسي . إلهي أخرست المعاصي لساني فإني وسيلة من عمل ولا شفيع سوى الأمل . إلهي إني أعلم أن ذنوبي لم تبق لي عندك جاهاً ولا للاعتذار وجهاً ولكنك أكرم الأكرمين . إلهي ان لم أكن أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهدأ من أن تبلغني ورحمتك وسعت كل شيء وأنا شيء . إلهي إن ذنوبي وإن كانت عظيماً ولكنك صغائر في جنب عفوك فاغفرها لي يا كريم إلهي أنت أنت وأنا أنا ، أنا العواد إلى الذنوب وأنت العواد إلى المغفرة . إلهي إن كنت لا ترحم إلا أهل طاعتك فإني من يفرح المذنبون . إلهي تجنبت عن طاعتك حمداً وتوجهت إلى معصيتك قصداً فسبحانك ما أعظم حجتك علي وأكرم عفوك عني فبوجوب حجتك علي وانقطاع حقي عنك وفقري إليك وغناك عني إلا غفرت لي يا خير من دعاء داع وأفضل من رجاء راح بحرمة الإسلام وبذمة محمد عليه السلام أتوسل إليك فاغفر لي جميع ذنوبي وأصرفني من موقفي هذا مقضى الحوائج وهب لي ما سألت وحقق رجائي فبما تجتبت . إلهي دهوتك بالدعاء الذي علمته فلا تحرمي الرجاء الذي عرفته إلهي ما أنت صانع العشية بعيد مقر لك بذنبي خاشع لك بذلك مستكين بحرمة متضرع إليك من عمله نائب إليك من اقترافه مستغفر لك من ظله مبتهل إليك في العفو عنه طالعك إليك لنجاح حوائجي راج إليك في موقفه مع كثرة ذنوبه فياملجاً كل حي وولي كل مؤمن من أحسن فبرحمتك يفوز ومن أخطأ فبخطيئته يهلك . اللهم اليك خرجنا وبفنائك أنحنأ وإياك أملنا وما عندك طلبنا وإحسانك نعرضنا ورحمتك رجونا ومن عذابك أشفقنا وإليك بأفقال الذنوب هربنا وليبتك الحرام حججنا يامن يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين يا من ليس معه رب يدعي ويامن ليس فوقه خالق يخشى ويامن ليس له وذير يؤذي ولا حاجب يرشئ يامن لا يزداد على كثرة السؤال الا جوداً وكراماً على كثرة الحوائج الا انفضالاً واحساناً . اللهم انك جعلت لكل ضيف قري ونحن أضيافك فاجعل قرانا منك الجنة . اللهم إن لسكل وفد جائرة ولسكل زائر كرامة ولسكل سائل عطية ولسكل راج ثواباً ولسكل ملتمس لمسا عندك جزاء ولسكل

== في المعجم الصغير من حديث ابن عباس قال « كان بما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم عشية عرفة : اللهم إنك ترم مكاني وتسمع كلامي وتعلم سري وعلائي ولا يخفي عليك شيء من أمري أنا البائس الفقير » الحديث إلى قوله ياخير المسئولين وياخير المعطين؛ وإسناده ضيف وباقي الدعاء من دعاء بعض السلف وفي بعض ما هو مرفوع ولكن ليس مقيداً بموقف عرفة .

مسترحم عندك رحمة ولسلك راعب إليك ذلي وللكل مترسل إليك عفواً وقد وفدنا إلى بيتك الحرام ووقفنا بهذه المشاعر العظام وشهدنا هذه المشاهد الكرام رجاء لما عندك فلا تحيب رجاءنا . إلهنا تابعت النعم حتى اطمأنت الأنفس بتتابع نعمك وأظهرت العبر حتى نطق الصوامت بحجبتك وظهرت المن حتى اعترف أولياؤك بالتمصير عن حقك وأظهرت الآيات حتى أفصحتم السموات والأرضون بأدليك وقهرت بقدرتك حتى خضع كل شيء لعزتك وعنت الوجوه لعظمتك إذا أساءت عبادك حلت وأمهات وإن أحسنوا تفضلت وقبلت وإن عصوا سرت وإن أذنبوا عفوت وغفرت وإذا دعونا أجبت وإذا نادينا سمعت وإذا أقبلنا إليك قربت وإذا ولينا عنك دعوت . إلهنا إنك قلت في كتابك المبين لمحمد خاتم النبيين ﴿ قل للذين كفروا إن يفتواهم ما قد سلف ﴾ فأرضاك عنهم الإفرار بكلمة التوحيد بعد الجحود وإنا نشهد لك بالتوحيد عجزتين ومحمد بالرسالة مخلصين فأغفر لنا بهذه الشهادته سوائف الإجماع ولا تجعل حظنا فيه أنقص من حظ من دخل في الإسلام إلهنا إنك أحببت التقرب إليك بمقتى ماملكت أيماننا ونحن عبيدك وأنت أولى بالفضل فاعفنا . وإنك امرتنا أن نتصدق على فقرائنا ونحن فقرائك وأنت أحق بالطول فتصدق علينا . ووصيتنا بالمعفو عن ظلمنا وقد ظلمنا أنفسنا وأنت أحق بالكرم فاعف عنا . ربنا اغفر لنا وارحمنا أنت مولانا ربنا آتاني الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا برحمتك عذاب النار .

وليكثر من دعاء الحضرة عليه السلام وهو أن يقول « يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا سمع من سمع ولا تشبه عليه الأصوات ، يا من لا تلهيه المسائل ولا تختلف عليه اللغات ، يا من لا يبرمه إلحاح المعين ولا تضجره مسئلة السائلين أذقنا برد عفوك وحلاوة مناجاتك » وليدع بما بداله وليستغفر له ولوالديه ولجميع المؤمنين والمؤمنات وليبلغ في الدعاء وليعظم المسألة فإن الله لا يتعاظمه شيء . وقال مطرف بن عبد الله وهو بصرى : اللهم لا ترد الجميع من أجل . وقال بكر المزني : قال رجل لما نظرت إلى أهل عرفات ظننت أنهم قد غفر لهم لولا أني كنت فيهم .

### الجملة السابعة : في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت

#### والرمي والنحر والحلق والطواف

فإذا أقاض من عرفة بعد غروب الشمس فلينبئ أن يكون على السكينة والوقار وليجتنب وجف الخيل وإيضاع الإبل كما يعتاده بعض الناس ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل وقال : اقوا الله وسيروا سيراً جميلاً لا تظأوا ضميماً ولا تؤذوا مسلماً » (١) فإذا بلغ المزدلفة اغتسل لها لأن المزدلفة من الحرم فليدخله بغسل ، وإن قدر على دخوله ماشياً فهو أفضل وأقرب إلى توقير الحرم . ويكون في الطريق رافقاً صوته بالتلبية فإذا بلغ المزدلفة قال « اللهم ان هذه مزدلفة جمعت فيها السنة مختلفة تسالك مواعيد مؤتلفة فاجعلني من دعاك فاستجبت له وتوكل عليك فكفيت » ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً له بأذان وإقامتين ليس بينهما نافلة ، ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين ، ويبدأ بنافلة المغرب ثم بنافلة العشاء كما في الفريضتين . فإن ترك التوافل في السفر خسران ظاهر . وتكليف إيقافها في الأوقات أصراً وقطع التلبية بينهما وبين الفرائض . فإذا جاز أن يؤدي التوافل مع الفرائض يتيمم واحد بحكم التلبية فيأن يجوز أدائها معاً على حكم الجمع بالتلبية الأولى . ولا يمنع من هذا مفارقة الثقل للفرض في جواز أدائه على الراحة إما أو ما نأاليه من التلبية والحاجة . ثم يمكن تلك الليلة

(١) « نهى النبي عن وجيف الخيل وإيضاع الإبل » أخرجه النسائي والحاكم وصححه من حديث أسامة بن زيد عابك بالسكينة والوقار فإن البر ليس في إيضاع الإبل . وقال الحاكم « ليس البر بل يجاف الخيل والإبل » . والبخاري من حديث ابن عباس « فإن البر ليس بالإيضاع » .

بمزدلفة وهو مبيت نسك ، ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فقلبه دم ، واحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه ثم اذا انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها - ففيها أحجار رخوة - فليأخذ سبعين حصاة فإنها قدر الحاجة ، ولا بأس بأن يستظهر بزيادة قربما يسقط منه بعضها ، ولتكن الحصى خفافا بحيث يحتوي عليه أطراف البراجم . ثم ليغاس بصلاة الصبح وليأخذ في المسير حتى اذا انتهى الى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة فيقف ويدعو الى الأسفار ويقول « اللهم بحق المشعر الحرام والبيت الحرام والشجر الحرام والركن والمقام أبلغ روح محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار السلام يا ذا الجلال والإكرام » ثم يدفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينهي الى موضع يقال له وادي محسر فيستحب له أن يعرك دابته حتى يقطع عرض الوادي وإن كان راجلا أسرع في المشي . ثم اذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فيلبي تارة ويكبر أخرى ، فينتهي الى منى ومواقع الجمرات وهي ثلاثة فيتجاوز الأولى والثانية فلا شغل له معها يوم النحر ، حتى ينتهي الى جملة العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجمادة - والمرى مرتفع قليلا في سفح الجبل وهو ظاهر بمواقع الجمرات - ويرى جمرة العقبة بعد طلوع الشمس بقدر رمح . وكيفيته أن يقف مستقبلا القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرى سبع حصيات رافعا يده ، ويدل التلبية بالتكبير ويقول مع كل حصاة « الله أكبر على طاعة الرحمن ورغم الشيطان اللهم تصديقا بكتابتك وأتباعا لسنة نبيك » فإذا رأى قطع التلبية والتكبير الا التكبير عقيب فرائض الصلوات من ظهر يوم النحر الى عقيب الصبح من آخر أيام التشريق . ولا يقف في هذا اليوم للدعاء بل يدعو في مؤذنه . وصفة التكبير أن يقول « الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيرا والحمد لله كثيرا وسبحان الله بكرة وأصيلا لا اله الا الله وحده لا شريك له مخلصين له الدين ولو كره الكافرون لا اله الا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده لا اله الا الله والله أكبر » ثم ليذبح الهدى إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل « بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك واليك تقبل مني كما تقبلت من خليلك ابراهيم » والتضحية بالبدن أفضل ثم بالبقرة ثم بالشاء . والشاء أفضل من مشاركة ستة في البدنة أو البقرة . والضأن أفضل من المعز قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير الأضحية الكبش الأقرن والبيضاء أفضل من الغبراء والسوداء<sup>(١)</sup> » وقال أبو هريرة : البيضاء أفضل في الأضحية من دم سوداوين ولها كل منه إن كانت من هدى التطوع ولا يضحين بالمرجاء والجذعاء والعصاء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابلة والمدابة والعجفاء والجهدق في الأنف والأذن للقطع منهما ، والعنصب في القرن وفي نقصان القوائم ، والشرقاء المشقوقة الأذن من فوق ، والخرقاء من أسفل ، والمقابلة المخروقة الأذن من قدام ، والمدابرة من خلف ، والعجفاء المزولة التي لا تنقي أى لاخ فيها من المزال . ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويتبدى بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن الى العظمين المشرفين على القفا ثم ليحلق الباقي ويقول « اللهم أثبت لي بكل شجرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة » والمرأة تقصر الشعر . والأصلح يستحب له إمرار الموسى على رأسه . ومهما حلق بعد رمى الجرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحنورات الا النساء والعصيد . ثم يفيض الى مكة يطوف كما وصفناه . وهذا الطواف طواف ركن في الحج ويسعى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر ، وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له أن يؤخر إلى وقت شاء ، ولكن يبق مقيدا بهلقة الإحرام فلا تحل له النساء الى أن يطوف فاذا طاف ثم التحلل وحل الجماع وارتفع الإحرام بالكيفية ولم يبق

(١) « خير الأضحية الكبش » أخرجه أبو داود من حديث عبادة الصامت والترمذي من حديث أبي أمامة . قال

الترمذي غريب وغير ضعف في الحديث .



إلا رمى أيام التشريق والمبيت بمنى وهى واجبات بعد زوال الإحرام على سبيل الاتباع للحق وكيفية هذا الطواف مع الركعتين كما سبق في طواف القدوم ، فإذا فرغ من الركعتين فليسح كما وصفنا إن لم يكن سعى بعد طواف القدوم وإن كان قد سعى فقد وقع ذلك ركعاً فلا ينبغي أن يعيد السعى ، وأسباب التحلل ثلاثة : الرمي والحلق والطواف الذى هو ركن ، ومهما أتى بأثنين من هذه الثلاثة فقد تحلل أحد التحللين ، ولا خرج عليه في التقديم والتأخير بهذه الثلاث مع الذبح ، ولكن الأحسن أن يرمى ثم يذبح ثم يحلق ثم يطوف ، والسنة للإمام في هذا اليوم أن يخطب بعد الزوال وهى خطبة وداع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحج أربع خطب : خطبة يوم السابع وخطبة يوم عرفة وخطبة يوم النحر (١) وخطبة يوم النفر الأول ، وكلها عقيب الزوال وكلها لإفراد إلا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة . ثم إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للبيت والرمى فببيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القر لأن الناس في غد يقرّون بمنى ولا ينفرون . فإذا أصبح اليوم الثانى من العید وزالت الشمس اغتسل للرمى وقصد الجرة الأولى التى تلى عرفة وهى على يمين الجمادة ويرمى إليها بسبع حصيات ، فإذا تعداها انصرف قليلاً عن يمين الجمادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلل وكبر ودعا مع حضور القلب وخشوع الجوارح ووقف مستقبل القبلة قدر قراءة سورة البقرة مقبلاً على النماء ، ثم يتقدم إلى الجرة الوسطى ويرمى كما رمى الأولى ويقف كما وقف للأول ثم يتقدم إلى جرة العقبة ويرمى سبعاً ، ولا يصرح على شغل بل يرجع إلى منزله ويبعث تلك الليلة بمنى وتسمى هذه الليلة ليلة النفر الأول ، ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثانى من أيام التشريق رمى في هذا اليوم إحدى وعشرين حصاة كالיום الذى قبله ، ثم هو غير بين المقام بمنى وبين العود إلى مكة . فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شئ عليه وإن صبر إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمى في يوم النفر الثانى أحداً وعشرين حجراً كما سبق ، وفى ترك المبيت والرمى إزاحة دم وليتصدق بالهجم ، وله أن يزور البيت في ليالى منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك (٢) ولا يترك حضور الفرائض مع الإمام في مسجد الخيف فإن فضله عظيم فإذا أفاض من منى فالأول أن يقيم بالمحصب من منى ويصلى العصر والمغرب والعشاء ويرقد رقة (٣) فهو السنة . رواه جماعة من الصحابة رضى الله عنهم ، فإن لم يفعل ذلك فلا شئ عليه .

### الجملة الثامنة : في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع

من أراد أن يمتد قبل حجة أو بعده كيفما أراد فليغتسل ويلبس ثياب الإحرام كما سبق في الحج ويعمر بالعمرة من ميقاتها ، وأفضل مواقيتها الجمرة ثم التمتع ثم الحديفة ، وينوى العمرة ويلبى ويقصد مسجد عائشة رضى الله

(١) « الخطبة يوم النحر وهى خطبة وداع النبي ﷺ » أخرجه البخارى من حديث أبي بكره « خطبنا النبي ﷺ يوم النحر » وله من حديث ابن عباس « خطب الناس يوم النحر » وفي حديث علقه البخارى واصله ابن ماجه من حديث ابن عمر « وقف النبي ﷺ يوم النحر بين الجمرات في الحجة التى حج فيها فقال : أى يوم هذا ؟ ... » وفيه « ثم ودع الناس فقالوا هذه حجة الوداع » .

(٢) « زيارة البيت في ليالى منى والمبيت بمنى » أخرجه أبو داود في الراسل من حديث طاوس « قال أشهد أن رسول الله ﷺ كان يفيض كل ليلة من ليالى منى » قال أبو داود وقد أسند قلت وصله ابن عسدى عن طاوس عن ابن عباس « كان النبي ﷺ يزور البيت أيام منى » وفيه عمر بن رباح ضعيف والرسول صحيح الإسناد ولأبى داود من حديث عائشة « أن النبي ﷺ مكث بمنى ليالى أيام التشريق »

(٣) « زول المحصب وصلاة العصر والمغرب والعشاء به والوقوف به رقة » أخرجه البخارى من حديث أنس « أن النبي ﷺ صلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء بالطعام ثم هجع هجعة ... »

عنها ويصلي ركعتين ويدعو بما شاء . ثم يعود إلى مكوهو يلبى حتى يدخل المسجد الحرام ، فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف سبعا وسمى سبعا كما وصفنا ، فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته ، والمقيم بمكة ينبغي أن يكثر الاعتدال والطواف وليكثر النظر إلى البيت . فإذا دخله فليصل ركعتين بين العمودين فهو الأفضل وليدخله حافياً موقراً . قيل لبعضهم : هل دخلت بيت ربك اليوم ؟ فقال : والله ما أرى هاتين القمدين أهلاً للطواف حول بيت ربك فكيف أراهما أهلاً لأن أطأ بهما بيت ربى ! وقد علمت حيث مشيتا وإلى أين مشيتا ، وليس كثر شرب ماء زمزم وليست يديه من غير استئابة إن أمكنه وليرتو منه حتى يتصلح وليقل : اللهم اجعله شفاء من كل داء وسقم وارزقني الإخلاص واليقين والمعافة في الدنيا والآخرة قال صلى الله عليه وسلم « ماء زمزم لما شرب له »<sup>(١)</sup> أي يشفي ما قصد به .

### الجملة التاسعة : في طواف الوداع

مهما عن له الرجوع إلى الوطن بعد الفراغ من إتمام الحج والعمرة فليخرج أولاً أشغاله وليشده رحاله وليجعل آخر أشغاله وداع البيت ، ودواعه بأن يطوف به سبعا كسبق ولكن من غير رمل واضطباع ، فإذا فرغ منه صلى ركعتين خلف المقام وشرب من ماء زمزم ، ثم يأتي المارم ويدعو ويتضرع ويقول « اللهم إن البيت بيتك والعباد عبدك وابن عبدك وابن أمك حملتي على ما سخرت لي من خلقك حتى سيرتني في بلادك وبلغتني بنعمتك حتى اعتقني على قضاء مناسكتك ، فإن كنت رضىت عني فازد عني رضا وإلا فن الآن قبل تباعدى عن بيتك هذا أو أن انصرافى إن أذنت لي غير مستبدل بك ولا يبيتك ولا راغب عنك ولا عن بيتك . اللهم أصحبنى المعافاة في بدنى والمعصمة في دينى وأحسن منقلبي وارزقني طاعتك أبداً ما بقيتني واجمع لي خير الدنيا والآخرة إنك على كل شيء قدير ، اللهم لا تجعل هذا آخر عهدي ببيتك الحرام وإن جعلته آخر عهدي فمعونتي عنه الجنة » والأحِبُّ أن لا يصرف بهره عن البيت حتى يشيب عنه .

### الجملة العاشرة : في زيارة المدينة وآدابها

قال صلى الله عليه وسلم « من زارني بعد وفاتي فمكأ بما زارني في حياتي »<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « من وجدني زائراً لأهله إلا زيارتي كان حقا على الله سبحانه أن أكون له شفيعاً »<sup>(٣)</sup> فمن قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريقه كثيراً فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال « اللهم هذا حرم رسولك فاجعله لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب » وليفتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليستطيب وليلبس أنظف ثيابه فإذا دخلها فليدخلها

(١) « ماء زمزم لما شرب له » أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بسند ضعيف ورواه الدارقطني والحاكم في المستدرک من حديث ابن عباس قال الحاكم صحيح الإسناد إن سلم من محمد بن حبيب الجارودي قال ابن القطان سلم منه فإن الخطيب قال فيه كان صدوقاً ، قال ابن القطان لكن الراوى عنه مجهول وهو محمد بن هشام المروزي . (٢) « من زارني بعد وفاتي فمكأ بما زارني في حياتي » أخرجه الطبراني والدارقطني من حديث ابن عمر . (٣) « من وجد سعة ولم يقد إلى فقد جفائي » أخرجه ابن عدى والدارقطني في غرائب مالك وابن حبان في الضعفاء والخطيب في الرواة عن مالك من حديث ابن عمر « من حج ولم يزرني فقد جفائي » وذكره ابن الجوزي في الموضوعات وروى ابن التجار في تاريخ المدينة من حديث أنس « مامن أحد من أمي له سعة ثم لم يزرني فليس له عذر » (٤) « من جادى زائراً لأهله إلا زيارتي كان حقا على الله أن أكون له شفيعاً » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر وصححه ابن السكن

متواضعاً معظماً وليقل : بسم الله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً ﴾ ثم يقصد المسجد ويدخله ويصلي بمجنب المنبر ركعتين . ويجعل عمود المنبر حذاء منكبيه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه فذلك موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يغير المسجد . وليجتهد أن يصلي في المسجد الأول قبل أن يزداد فيه . ثم يأتي قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدير القبلة ويستقبل جدار القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية التي في زاوية جدار القبر ، ويجعل القنديل على رأسه وليس من السنة أن يمس الجدار ولأن بقيله بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام ، فيقف ويقول « السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا نبي الله السلام عليك يا أمين الله السلام عليك يا حبيب الله السلام عليك يا صفة الله السلام عليك يا خير الله السلام عليك يا أحد السلام عليك يا محمد السلام عليك يا أبا القاسم السلام عليك يا ماضي السلام عليك يا عاقب السلام عليك يا حاضر السلام عليك يا بisher السلام عليك يا نذير السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا طاهر السلام عليك يا كرم ولد آدم السلام عليك يا سيد المرسلين السلام عليك يا خاتم النبيين السلام عليك يا رسول رب العالمين السلام عليك يا قائد الخير السلام عليك يا فاعل البر السلام عليك يا نبي الرحمة السلام عليك يا هادي الأمة السلام عليك يا قائد الفرح المحجلين السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين جزاك الله عنا أفضل ما جرى نبيا عن قومه ورسولاً عن أمته وصلى عليك كما ذكرك إذا كرون وكما غفل عنك الغافلون وصلى عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكل وأعلى وأجل وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استندنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهذا ناك من الجلالة أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد باضت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمته وعبدت ربك حتى أتاك اليقين فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم ٥ وإن كان قد أوصى بتبليغ سلام فيقول « السلام عليك من - فلان - السلام عليك من - فلان - ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنه . ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق رضي الله عنه ويقول السلام عليك يا وزير رسول الله صلى الله عليه وسلم والمعاونين له على القيام بالدين مادام حيا والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسننه فجزا كما الله خير ما جرى وزيرى نبي عن دينه ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم - بين القبر والاسطوانة اليوم - ويستقبل القبلة وليحمد الله عز وجل وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم يقول « اللهم إنك قد قلت وقولك الحق ﴿ ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ اللهم إنا قد سمعنا قولك وأعلمنا أمرك وقصدنا نبيك متشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تابعين من زلنا معترفين بخطايانا وتقصيرنا تقب اللهم علينا وشفع نبيك هذا فينا وارفعنا بمنزلة عندك وحقه عليك . اللهم اغفر للناس المجرمين والانصار واغفر لنا وإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . اللهم لتجمعه آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك يا أرحم الراحمين . ثم يأتي الروضة فيصلي فيها ركعتين ويكثر من الدعاء ما استطاع اتقوله صلى الله عليه وسلم « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي (١) » ويدعو عند المنبر ويستحب

(١) « ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي » متفق عليه من حديث أبي هريرة وعبد الله ابن زيد .

أن يضع يده على الرمانة السفلى التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يضع يده عليها عند الخطبة (١) ويستحب له أن يأتي أحدا يوم الخميس ويزور قبور الشهداء فيصلّي الغداة في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثم يخرج ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر فلا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد ، ويستحب أن يخرج كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويزور قبر عثمان رضي الله عنه وقبر الحسن بن علي رضي الله عنهما ، وفيه أيضا قبر علي بن الحسين ومحمد بن علي وجعفر بن محمد رضي الله عنهم ، ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبر صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فذلك كله بالبقيع ويستحب له أن يأتي مسجد قباء في كل سبت ويصلي فيه لما روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان له عدل حمرة » (٢) ويأتي بئر أريس يقال إن النبي صلى الله عليه وسلم نفل فيها وهي عند المسجد فيتوضأ منها ويشرب من مائها (٣) ويرآى مسجد الفتح وهو على الخندق وكذا يأتي سائر المساجد والمشاهد ويقال إن جميع المشاهد والمساجد بالمدينة ثلاثون موضعا يعرفها أهل البلد فيقصد ما قدر عليه وكذلك يقصد الآبار التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ منها ويغتسل ويشرب (٤) وهي سبع آبار طلبها الشفاء

(١) « وضعه ﷺ يده عند الخطبة على رمانة المنبر » لم أقف له على أصل وذكر محمد بن الحسن ابن زبالة في تاريخ المدينة أن طول رمانتي المنبر اللتين كان يحسبهما ﷺ بيديه الكريمتين إذا جلس شربا وأصبعان  
(٢) « من خرج من بيته حتى يأتي مسجد قباء ويصلي فيه كان عدل حمرة » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث سهل بن حنيف بإسناد صحيح (٣) « أن النبي ﷺ نفل في بئر أريس » لم أقف له على أصل وإنما ورد أنه نفل في بئر البصة وبئر غرس - كما سيأتي عند ذكرها - (٤) « الآبار التي كان النبي ﷺ يتوضأ منها ويغتسل ويشرب منها وهي سبعة آبار . قلت : وهي بئر أريس وبئر حا وبئر رومة وبئر غرس وبئر بضاعة وبئر البصة وبئر السقيا أو العهن أو بئر جمل . الحديث « بئر أريس » رواه مسلم من حديث أبي موسى الأشعري في حديث فيه « حتى دخل بئر أريس قال : جلست عند بابها وبابها من حديد حتى قضى النبي ﷺ حاجته وتوضأ ... » وحديث « بئر حا » متفق عليه من حديث عثمان « كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة تحلا وكان أحب أمواله إليه بئر حا وكانت متقبلة المسجد وكان النبي ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ... » وحديث « بئر رومة » رواه الترمذي والنسائي من حديث عثمان أنه قال أشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أن النبي ﷺ قدم المدينة وليس بها ماء يستعذب غير بئر رومة فقال من يشتري بئر رومة ويجعل دلوها مع دلاء المسلمين ... » قال الترمذي حديث حسن ، وفي رواية لها « هل تعلمون أن رومة لم يكن يشرب منها أحدا إلا بالخن فانتصها فجعلتها للفقير وابن السبيل ... » وقال حسن صحيح وروى البغوي والطبراني من حديث بشر الأسلمي قال « لما قدم المهاجرين المدينة استنكروا الماء وكانت لرجل من بني غفار عين يقال لها رومة وكان يبيع منها القربة بمد » وحديث « بئر غرس » رواه ابن حبان في الثقات من حديث أنس « أنه قال اتوني بماء من بئر غرس فإني رأيت النبي ﷺ يشرب منها ويتوضأ » ولابن ماجه بإسناد جيد مرفوعا « إذا أنا مت فأغسلوني بسبع قرب من بئر غرس » وروينا في تاريخ المدينة لابن الجار بإسناد ضعيف مرسل « أن النبي ﷺ توضأ وبزق فيها وغسل منها حين توفي » وحديث « بئر بضاعة » رواه أصحاب السنن من حديث أبي سعيد الخدري « أنه قيل للنبي ﷺ أتوضأ من بئر بضاعة » وفي رواية « أنه يستقي لك من بئر بضاعة ... » قال يحيى بن معين إسناده جيد وقال الترمذي حسن والطبراني من حديث أبي أسيد « بصق النبي ﷺ في بئر بضاعة » ورويناه أيضاً في تاريخ ابن الجار من حديث سهل بن سعد وحديث « بئر البصة » رواه ابن عدي من حديث أبي سعيد الخدري « أن النبي ﷺ جاءه يوما فقال هل عندكم من سدر أغسل به رأسي فإن اليوم الجمعة ؟ قال نعم فأخرج له سدرا وأخرج معه إلى البصة فنسل النبي ﷺ رأسه وصوب غسالة رأسه ومراق شعره في البصة » وفيه محمد بن زبالة ضعيف وحديث « بئر السقيا » ولأحمد من حديث عائشة « أن النبي ﷺ كان يستعذب له من يوت السقيا » زاد البراء في مسنده « أو من بئر السقيا » ولأحمد من حديث علي « خرجنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بالسقيا التي كانت لسعد بن أبي وقاص =

وتبركا به صلى الله عليه وسلم وإن أمكنه الإقامة بالمدينة مع مراعاة الحرمة فلما فضل عظم قال صلى الله عليه وسلم « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت له شفيماً يوم القيامة » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت فإنه لن يموت بها أحد إلا كنت له شفيماً أو شهيداً يوم القيامة » (٢) ثم إذا فرغ من أشغاله وعزم على الخروج من المدينة فالمستحب أن يأتي القبر الشريف ويعيد دعاء الزيارة - كما سبق - ويودع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسأل الله عز وجل أن يرزقه العودة إليه ويسأل السلامة في سفره . ثم يهتدي ركعتين في الروضة الصغيرة وهي موضع مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن زيدت المقصورة في المسجد . فإذا خرج فليخرج رجله اليسرى أولاً ثم اليمنى وليقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ولا تجعله آخر العهد بنبيك وحط أوزاري بزيارته وأصحبتي في سفرى السلامة ويسر رجوعى إلى أهلى ووطنى سالماً يأرحم الراحمين » وليتصدق على جيران رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قدر عليه وليتبع المساجد التي بين المدينة ومكة فيصلى فيها وهي عشرون موضعاً .

### فصل : في سنن الرجوع من السفر

« كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكر على رأس كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات ويقول : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير آيئون تائبون جابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده » (٣) وفي بعض الروايات « كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » فينبغي أن يستعمل هذه السنة في رجوعه . وإذا أشرف على مدينته يحرك الدابة ويقول « اللهم اجعل لنا بها قراراً ورزقاً حسناً . ثم يرسل إلى أهله من يخبرهم بقدمه كي لا يقدم عليهم بغتة فذلك هو السنة » (٤) ولا ينبغي أن يترك أهله ليلاً فإذا دخل البلد فليقصد المسجد أولاً وليهتدي ركعتين فهو السنة (٥) كذلك كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فإذا دخل بيته قال « توباً توباً لربنا أرباباً فإفادع علينا حوباً » فإذا استقر في منزله فلا ينبغي أن ينسى ما أنعم الله به عليه من زيارة بيته وحرمة وقبر نبيه صلى الله عليه وسلم فليكثر تلك النعمة بأن يعود إلى الغفلة والهوى والخرف من المعاصي ، فإذا ذلك علامة الحج المبرور بل علامة أن يعود زاهداً في الدنيا راغباً في الآخرة متأهباً للقاء رب البيت بعد لقاء البيت .

## الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

### بيان دقائق الآداب وهي عشرة

(الاول) أن تكون النفقة حلالاً وتكون اليد خالية من تجارة تشغل القلب وتفرق الهم حتى يكون الهم مجرداً

== قال النبي ﷺ اتقوا بوضوء فلما توضأ قام ... « وأما بشر جعل في الصحيحين من حديث أبي الجهم » أقبل النبي ﷺ نحو بشر جعل ... « وصلة البخاري وعلقه مسلم والشهور أن الآبار بالمدينة سبعة . وقد روى الدارمي من حديث عائشة « أن النبي ﷺ قال في مرضه : صبوا على سبع قرب من آبار شق ... وهو عند البخاري دون قوله » من آبار شق » .

(١) « لا يصبر على لأوائها وشدتها أحد إلا كنت شفيماً يوم القيامة » تقدم في الباب قبله . (٢) « من استطاع أن يموت بالمدينة فليمت بها ... » تقدم في الباب قبله . (٣) « كان النبي ﷺ إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكر على كل شرف من الأرض ... » متفق عليه من حديث ابن عمر وما زاده في آخره في بعض الروايات من قوله « وكل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون » رواه الهاملي في الدعاء بإسناد جيد . (٤) « إرسال المسافر إلى أهل بيته من يخبرهم بقدمه كيلا يقدم عليهم بغتة » لم أجده في ذكر الإرسال في الصحيحين من جابر « كنا مع النبي ﷺ في غزاة فلما قدمنا المدينة ذهبنا لندخل فقال امهلوا حتى تدخل ليلاً أى عشاء كي تمتشط الشمة وتستجد الغيبة » .

(٥) « صلاة ركعتين في المسجد عند القدوم من السفر » تقدم في الصلاة .

الله تعالى والقلب مطمئناً منصرفاً إلى ذكر الله تعالى وتعميق شعائره . وقد روى في خبر من طريق أهل البيت « إذا كان آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزعة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للسمعة (١) » وفي الخبر إشارة إلى جملة أغراض الدنيا التي يتصور أن تتصل بالحج ، فكل ذلك مما بمنح فضيلة الحج ويخرجه عن حيز حج الخصوص ، ولا سيما إذا كان متجرداً بنفس الحج بأن يبيع غيره بأجرة فيطلب الدنيا بهمل الآخرة . وقد ذكره الورعون وأرباب القلوب ذلك إلا أن يكون قصده المقام بمكة ولم يكن له ما يبلغه فلا بأس أن يأخذ ذلك على هذا القصد ، لا ليتوصل بالدين إلى الدنيا بل بالدنيا إلى الدين . فعند ذلك ينبغي أن يكون قصده زيارة بيت الله عز وجل ومعاونة أخيه المسلم بإسقاط الفرض عنه . وفي مثله ينزل قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « يدخل الله سبحانه بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة : الموصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه (٢) » واستأقول لا يحمل الأجرة أو يحرم ذلك بعد أن أسقط فرض الإسلام عن نفسه ، ولكن الأولى أن لا يفعل ولا يتخذ ذلك مكسبه ومتجره فإن الله عز وجل يعطي الدنيا بالدين ولا يعطي الدين بالدنيا . وفي الخبر « مثل الذي يفرق في سبيل الله عز وجل ويأخذ أجراً مثل أم موسى عليه السلام ترضع ولدها وتأخذ أجراً (٣) » فن كان مثاله في أخذ الأجرة على الحج مثال أم موسى فلا بأس بأخذه فإنه يأخذ ليمكن من الحج والزيارة فيه ، وليس يبيع لأخذ الأجرة بل يأخذ الأجرة ليعرج كما كانت تأخذ أم موسى ليتيسر لها الإرضاع بتليبس حلقاً عليهم .

( الثاني ) أن لا يعاون أعداء الله سبحانه بتسلم المكس وهم الصادون عن المسجد الحرام من أمراء مكة والأعراب المترصدين في الطريق . فإن تسليم المال لإهم إعانة على الظلم وتيسير لأسبابه عليهم فهو كالإعانة بالنفس ، فليست على حيلة الخلاص فإن من يقدرف قد قال بعض العلماء - ولا بأس بما قاله - إن ترك التنفل بالحج والرجوع عن الطريق أفضل من إعانة الفلانة فان هذه بدعة أحدثت وفي الانقياد لها ما يجعلها سائطة مطردة وفيه ذل وصغار على المسلمين ببذل جزية . ولا معنى لقول الثقات إن ذلك يؤخذ متى وأنا مضطر فإنه لو قعد في البيت أو رجع من الطريق لم يؤخذ منه شيء . بل ربما يظهر أسباب الترفه فتكثر مطالبته فلو كان في ذى الفقراء لم يطالب فهو الذى ساق نفسه إلى حالة الاضطراب .

( الثالث ) التوسع في الزاد وطيب النفس بالبذل والإنفاق من غير تقتير ولا إسراف بل على اقتصاد ، وأعلى بالإسراف التمتع بأطياب الأطعمة والترفه بشرب أنواعها على عادة المترفين . فأما كثرة البذل فلا سرف فيه . إذ لا خير في السرف ولا سرف في الخير ، كما قيل . وبذل الزاد في طريق الحج نفقة في سبيل الله عز وجل والدرهم بسببها درهم . قال ابن عمر رضى الله عنهما : من كرم الرجل طيب زاده في سفره . وكان يقول أفضل الحاج أخاهم نية وأزكاهم نفقة وأحسنهم يقيناً . وقال صلى الله عليه وسلم « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة قيل له يا رسول الله ما بر الحج ؟ فقال : طيب الكلام وإطعام الطعام (٤) » .

#### الباب الثالث : في الآداب الدقيقة والأعمال الباطنة

(١) « إذا كان في آخر الزمان خرج الناس إلى الحج أربعة أصناف سلاطينهم للزعة وأغنياؤهم للتجارة وفقراؤهم للسؤال وقراؤهم للسمعة » أخرجه الخطيب من حديث أنس بإسناد مجهول وليس فيه ذكر السلاطين ، ورواه أبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين فقال « تعج أغنياء أمي للزعة وأوساطهم للتجارة وفقراؤهم للسألة وقراؤهم للرياء والسمعة » .

(٢) « يدخل الله بالحجة الواحدة ثلاثة الجنة الوصى بها والمنفذ لها ومن حج بها عن أخيه » أخرجه البيهقي من حديث جابر بسند ضعيف . (٣) « مثل الذى يفرق ويأخذ أجراً مثل أم موسى ترضع ولدها وتأخذ أجراً » أخرجه ابن عدى من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد منكر المتن . (٤) « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » قيل له ما بر الحج ؟ قال طيب الكلام وإطعام الطعام » أخرجه أحمد من حديث جابر بإسناد لين ورواه الحاكم مختصراً وقال صحيح الإسناد .

(الرابع) ترك الأرقط والفسوق والجدال كما نطق به القرآن . والرأثاسم جامع لكل لغو وخفى وخش من الكلام ويدخل فيه مغازلة النساء ومدابهن والتحدث بشأن الجلاع ومقدماته ، فإن ذلك يهيئ داعية الجلاع المحذور والداعى إلى المحذور محذور . والفسق اسم جامع لكل خروج عن طاعة الله عز وجل . والجدال هو المبالغة في الخصومة والمعاراة بما يورث الضغائن ويفرق في الحال المهمة وينافض حسن الخلق . وقد قال سفيان : من رقت فسد حجه . وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج . والمعاراة تناقض طيب الكلام فلا ينبغي أن يكون كثير الاعتراض على رفيقه وجهاته وعلى غيره من أصحابه بل يلين جانبه وينفض جناحه للسائرين إلى بيت الله عز وجل ويلزم حسن الخلق وليس حسن الخلق كف الأذى بل احتيال الأذى وقيل سعى السفر سفرا لأنه يسفر عن أخلاق الرجال . ولذلك قال عمر رضي الله عنه لمن زعم أنه يعرف رجلا : هل سمعته في السفر الذي يستدل به على مكارم الأخلاق ؟ قال : لا ، فقال : ما أراك تعرفه .

(الخامس) أن يصح ماشيا إن قدر عليه فذلك الأفضل . أوصى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بنيه عند موته فقال : يا بني حجوا مشاة فإن للحاج الماشي بكل خطوة يحطوها سبعمائة حسنة من حسنات الحرم ، قيل وما حسنات الحرم ؟ قال : الحسنة بمائة ألف والاستجاب في المشي في المناسك والتردد من مكة إلى الموقف وإلى ما آكد منه في الطريق . وإن أضاف إلى المشي الإحرام من ذبيرة أهله فقد قيل إن ذلك من إتمام الحج قاله عمر وعلى وابن مسعود رضي الله عنهم في معنى قوله عز وجل ﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعَمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ وقال بعض العلماء : الركوب أفضل لما فيه من الإنفاق والمؤنة ولأنه أبعد عن ضجر النفس وأقل لأداء وأقرب إلى سلامته وتمام حجه . وهذا عند التحقيق ليس مخالفا للأول بل ينبغي أن يفصل . ويقال من سهل عليه المشي فهو أفضل فإن كان يضعف ويؤذي به إلى سوء الخلق وفصور عن عمل فالركوب له أفضل ، كما أن الصوم للسافر أفضل وللريض مالم يفض إلى ضعف وسوء خلق . وسأل بعض العلماء عن العمرة أئمنى فيها أو يكثرى حماراً بدرهم ؟ فقال : إن كان وزن الدرهم أشد عليه فالكراهة أفضل من المشي ، وإن كان المشي أشد عليه كالأغنياء فالمشي له أفضل ، فكأنه ذهب فيه إلى طريق مجاهدة النفس وله وجه . ولكن الأفضل له أن يمشي ويصرف ذلك الدرهم إلى خير فهو أولى من صرفه إلى المكارى عوضا عن ابتذال الدابة . فإذا كانت لا تنفع نفسه للجمع بين مشقة النفس ونقصان المال فاذكره غير بعيد فيه .

(السادس) أن لا يركب إلا زاملة أما المحمل فليجتنبه إلا إذا كان يضاف إلى الزاملة أن لا يملك عليها لعذر وفيه معنيان أحدهما : التخفيف على البعير فإن المحمل يؤذي . والثاني : اجتناب ذي المتربين المتكبرين « حج رسول الله صلى الله عليه وسلم على راحلة وكان تحته رجل رث وقطيفة خلفة قيمتها أربعة دراهم »<sup>(١)</sup> وطاف على الراحلة لينظر لينظر الناس إلى هديه وشماته<sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « خذوا عني منا سككم<sup>(٣)</sup> » وقيل إن هذه المحامل أحدثها الحجاج وكان العلماء وقته ينكرونها . فروى سفيان الثوري عن أبيه أنه قال : برزت من السكوة إلى القادسية للحج ووافيت الرفاق من البلدان فرأيت الحجاج كلهم على زوامل وجوالمات ودواحل وما رأيت في جميعهم إلا محملين . وكان ابن عمر إذا نظر إلى ما أحدث الحجاج من الزي والمحامل يقول الحاج قليل والركب كثير ثم نظر إلى رجل مسكين رث الهيئة تحته جوالق فقال : هذا نعم من الحجاج .

(١) « حج النبي ﷺ على راحلته وكان تحته رجل رث وقطيفة خلفة قيمتها أربعة دراهم » أخرجه الترمذي في المعجمين وابن ماجه من حديث أنس بسند ضيف . (٢) « طوافه ﷺ على راحلته » تقدم . (٣) « خذوا عني مناسككم » أخرجه مسلم والنسائي واللفظ له من حديث جابر .

(السابع) أن يكون رث الهيئة أشعث أغبر غير مستكثر من الزينة ولا مائل إلى أسباب التفاخر والتكاثر فيسكتب في ديوان المسكرين المترفين ويخرج عن حزب الضمفاء والمساكين وخصوص الصالحين، فقد أمر صلى الله عليه وسلم بالشمع والاختفاء<sup>(١)</sup> ونهى عن التثمم والرفاهية<sup>(٢)</sup> في حديث فضالة بن عبيد وفي الحديث «إنما الحاج الشعث الثفت<sup>(٣)</sup>» ويقول الله تعالى: انظروا إلى زوار ياتي قد جاءوا في شعثا غبرا من كل فج عميق<sup>(٤)</sup> « وقال تعالى ﴿لنم ليقضوا ثمهم﴾ والثفت الشعث والالاغبرار ، وقضاؤه بالخلق وقص الثارب والأظفار وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أمراء الأجناد: اخولقوا واخشوشنو أى البسوا الخفاف واستعملوا الخشونة في الأشياء . وقد قيل : زين الحبيص أهل اليمن لأنهم على هيئة التواضع والضعف وسيرة السلف . فينبغي أن يحتجب الحررة في زيه على الخصوص والشهرة كفيها كانت على العموم . فقد روى « أنه صلى الله عليه وسلم كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أ كسية حمراء على الأتقاب فقال صلى الله عليه وسلم أرى هذه الحررة قد غلبت عليكم<sup>(٥)</sup> قالوا قلنا فمنا إليها ونزعناها عن ظهورها حتى شرد بعض الإبل » .

(الثامن) أن يرفق بالذابة فلا يحملها بالانطيق والمحمل خارج عن حد طاقتها والنوم عليها يؤذيها ويشغل علمها كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة عن قومود كانوا لا يقفون عليها الوقوف الطويل قال صلى الله عليه وسلم «لا تخذوا ظهور دوابكم كراسى<sup>(٦)</sup>» ويستحب أن ينزل عن دابته غدوة وعشية يروحها بذلك فهو سنة<sup>(٧)</sup> وفيه آثار عن السلف . وكان بعض السلف يكثر بشرط أن لا ينزل ويوفى الأجرة ثم كان ينزل عنها ليكون بذلك محسنا إلى الدابة ، فيكون في حسنة ووضع في ميزانه لآلئ ميزان المكاري . وكل من آذى بهيمة وحملها بالانطيق طولب طولب به يوم القيامة . قال أبو الدرداء ليعبر له عند الموت : بأياها البعير لانتفاصني إلى ربك فأني لم أكن أحلك فوق طاقتك . وعلى الجملة في كل كبد حراء أجر فليراع حق الدابة وحق المكاري جميعا وفي نزوله ساعة ترويح الدابة وسرور قلب المكاري قال رجل لابن المبارك : احمل لي هذا الكتاب معك لتوصله فقال: حتى استأمر الجبال فأني قد أكثريت . فانظر كيف تورع من استصحاب كتاب لا وزن له وهو طريق الحزم في الورع فان فتح باب القليل انجر إلى الكثير يسيرا يسيرا .

(التاسع) أن يقرب بارة دم وإن لم يكن واجبا عليه ويحتد أن يكون من سمين التعم وقفيه ، ليا كل منه إن كان: تعاطوا ولا يكل منه إن كان واجبا فيل في تفسير قوله تعالى ﴿ذلك ومن يعظم شئنا الله﴾ إنه تحميمه وتسميته . وسوق الهدى من الميقات أفضل إن كان لا يجهد ولا يكده . وليرتك المسكس في شرائه فقد كانوا يبالغون في ثلاث ويكرهون

(١) «أمر بالشمع والاختفاء» أخرجه البغوي والطبراني من حديث عبد الله بن أبي حذرد قال «قال النبي ﷺ تعددوا واخشوشنوا وانصلوا وامشوا حفاة» وفيه اختلاف ورواه ابن عدى من حديث أبي هريرة وكلاهما ضعيف .  
(٢) حديث فضالة بن عبيد «في النهي عن التثمم والرفاهية وأن النبي ﷺ كان ينهى عن كثير من الإفراء» ولأحمد من حديث معاذ «إياك والتثمم ...» (٣) «إنما الحاج الشعث والثفت» أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث عمر وقال غريب . (٤) «يقول الله تعالى انظروا إلى زوار ياتي قد جاءوا في شعثا غبرا من كل فج عميق» أخرجه الحاكم وصححه من حديث أبي هريرة دون قوله «من كل فج عميق وكذا رواه أحمد من حديث عبد الله بن عمرو (٥) «أنه ﷺ كان في سفر فنزل أصحابه منزلا فسرحت الإبل فنظر إلى أ كسية حمراء على الأتقاب فقال أرى هذه الحررة قد غلبت عليكم ...» أخرجه أبو داود من كلام رافع بن خديج وفيه رجل يسم . (٦) «لا تخذوا ظهور دوابكم كراسى» أخرجه أحمد من حديث سهل بن معاذ بسند ضعيف ورواه الحاكم وصححه من رواية معاذ بن أنس عن أبيه . (٧) «النزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك» أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث أنس بإسناد جيد «أن النبي ﷺ كان إذا صلى الفجر في السفر مشى» وزواه البيهقي في الادب وقال «مشى قليلا وناقته ثم عاد»



المكاس فيمن : الهدى والأضحية والرقبة ، فإن أفضل ذلك ثمناً وأنفسه عند أهله . وروى ابن عمر « أن عمر رضي الله عنهما أهدى بختية فطلبت منه بثلاثة دنانير فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بشئها بدنان قنهاء عن ذلك وقال بل أهدها<sup>(١)</sup> » وذلك لأن القليل الجيد خير من الكثير الدون . وفي ثلاثة دنانير قيمة ثلاثين بدنة وفيها تكثير اللحم ولكن ليس المقصود اللحم إنما المقصود تزكية النفس وتطهيرها عن صفة البخل وتزيينها بهجاء التعظيم لله عز وجل<sup>(٢)</sup> (إن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منك) وذلك يحصل بمراعاة النفاسة في القيمة كثر العدد أو قل « وسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ير الحج فقال الحج والتج<sup>(٣)</sup> » والعج هو رفع الصوت بالتلبية ، والتج هو نحر البدن . وروى عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « ما عمل آدمي يوم النحر أحب إلى الله عز وجل من إهرافه دماً وإنها ثأني يوم القيامة بقروننا وأخلافنا وإن النحر يقع من الله عز وجل بمكان قبل أن يقع بالأرض فطيبوا بها نفساً<sup>(٤)</sup> » وفي الخبر « لكم بكل صوفة من جلدنا حسنة وكل قطرة من دما حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا<sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « استنجدوا هداياكم فإنها مطاياكم يوم القيامة » . (العاشر) إن يكون طيب النفس بما أنفقته من نفقة وهدى وبما أصابه من خسران ومصيبة في مال أو بدن إن أصابه ذلك فإن ذلك من دلائل قبول حجه . فإن المصيبة في طريق الحج تعدل النفقة في سبيل الله عز وجل الدرهم بسبعائة درهم وهو بمثابة الشدائد في طريق الجهاد فله بكل أذى احتمله وخسران أصابه ثواب فلا يضيع منه شيء عند الله عز وجل . ويقال إن من علامة قبول الحج أيضاً ترك ما كان عليه من المعاصي وأن يقبل بإخوانه الباطلين إخواناً صالحين ، وبمحاسن اللهب والغفلة بمحاسن الذكر واليقظة .

### بيان الأعمال الباطلة ووجه الإخلاص في التنية وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة

وكيفية الاقتدار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها من أول الحج إلى آخره

أعلم أن أول الحج الفهم - أهني فهم موقع الحج في الدين - ثم الشوق إليه ثم العزم عليه ثم قطع العلائق المانعة منه ثم شراء ثوب الإحرام ثم شراء الزاد ثم اكتناء الرحلة ثم الخروج ثم المسير في البادية ثم الإحرام من الميقات بالتلبية ثم دخول مكة ثم استتمام الأفعال كما سبق . وفي كل واحد من هذه الأمور تذكرة للتذكر وعبرة للمعتبر وتنبيه للبريد الصادق وتعريف وإشارة للفظن . فلنر من إلى مفاتيحها حتى إذا افتتح بابها وعرفت أسبابها انكشفت لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وطهارة باطنه وغزارة فهمه .

أما الفهم : أعلم أنه لاوصول إلى الله سبحانه وتعالى إلا بالتزهد عن الشهوات والكف عن اللذات والاعتصام على الضرورات فيها والتجرد لله سبحانه في جميع الحركات والسكنات . ولاجل هذا انفرد الربانيون في المال السالفة

(١) حديث ابن عمر « أن عمر أهدى نجبية فطلبت منه بثلاثة دنانير فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبيعها ويشتري بشئها بدنان قنهاء عن ذلك وقال بل أهدها » أخرجه أبو داود وقال « أنحرها » (٢) « سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما ير الحج ؟ فقال : العج والتج » أخرجه الترمذي واستشر به وابن ماجه والحاكم والبرز واللفظ له من حديث ابن بكر وقال الباقر « أي الحج أفضل » (٣) حديث عائشة « ما عمل ابن آدم يوم النحر أحب إلى الله من إهرافه دماً ... » أخرجه الترمذي وحسنه وابن ماجه وضعفه ابن حبان وقال البخاري إنه مرسل ووصله ابن خزيمة (٤) « لكم بكل صوفة من جلدنا حسنة وكل قطرة من دما حسنة وإنها لتوضع في الميزان فأبشروا » أخرجه ابن ماجه وصححه البيهقي من حديث زيد بن أرقم في حديث فيه « بكل شرة حسنة قالوا فالصوف قال بكل شرة عن الصوف حسنة » وفي رواية للبيهقي « بكل قطرة حسنة » قال البخاري لا يصح وروى أبو الشيخ في كتاب الضعفاء من حديث علي « أما أنما يجاء به يوم القيامة بلحومها ودماؤها حتى توضع في ميزانك » يقولها لفاطمة .

عن الخلق وانجازوا إلى قتل الجبال وآثروا التوحش عن الخلق لطلب الأنس بالله عز وجل . فتركوا الله عز وجل اللذات الحاضرة والرما أنفسهم المجاهدات الشاقة طمعاً في الآخرة وأبغى الله عز وجل عليهم في كتابه فقال (ذلك بأنهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون) فلما اندرس ذلك وأقبل الخلق على اتباع الشبوات وهجروا التجرّد لعبادة الله عز وجل وفتروا عنه يمت الله عز وجل نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم لإحياء طريق الآخرة وتجدد بسنة المرسلين في ملوكها . فساءله أهل الملل عن الرهبانية والسياسة في دينه فقال صلى الله عليه وسلم : أبدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف<sup>(١)</sup> . يعني الحجج « وسئل صلى الله عليه وسلم عن السائحين فقال : هم الصائمون<sup>(٢)</sup> » فأنتم الله عز وجل على هذه الأمة بأن جعل الحجج رهبانية فلم تشرف البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه تعالى . ونصبه مقصداً لعباده وجعل ماحوليه حرماً لبيته تفخجاً لأمره . وجعل عرقات كليلزاب على فناء حوضه . وأكد حرمة الموضوع بتجريم صيده وشجره . ووضعه على مثال حضرة الملوك بقصده الزوار من كل فج عميق ومن كل أوطى سحيق شعناً غيراً متواضعين أرب البيت ومستكئين له خصوصاً لجلاله واستكانة لزمته . مع الاعتراف بتزيمه عن أن يحويه بيت أو يكتمفه بله ليكون ذلك أبلغ في وقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وإقنيادهم . ولذلك وظف عليهم فيها أفعالا لأناس بها النفوس ولا تهتدي إلى معانيها العقول كرمي الجار بالأحجار ، والتردد بين الصفا والمروة على سبيل التكرار . وبمثل هذه الأعمال يظهر كمال الرق والعبودية . فإن الزكاة إرفاق ووجه مفهوم وللعقل إليه ميل . والصوم كسر للشهوة التي هي آلة عدو الله وتفريغ العبادة بالكشف عن الشواغل . والركوع والسجود في الصلاة تواضع لله عز وجل بأفعال هي هيئة التواضع والنفوس أنس بتعظيم الله عز وجل . فأما ترددات السعي ورمي الجار وأمثال هذه الأعمال فلا حظ للنفوس ولا أنس للطبع فيها ولا اعتناء للعقل إلى معانيها . فلا يكون في الإقدام عليها باعث إلا الأمر المجرد وقصد الامثال الأمر من حيث إنه أمر واجب الاتباع فقط . وفيه عزل للعقل عن تصرفه وصرف النفس والطبع عن محل أنسه فإن كل ما أدرك العقل معناه ؛ مال الطبع إليه ميلاً . فيكون ذلك الميل معيّن الأمر وباعثاً معه على الفعل فلا يكاد يظهر به كمال الرق والاقنياد . ولذلك قال عليه السلام في الحجج على الخصوص « بليك بحجة حقاً تعبد<sup>(٣)</sup> » ولم يقل ذلك في صلاة ولا غيرها . وإذا اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى ربط بحجة الخلق بأن تكون أعمالهم على خلاف هوى طباعهم وأن يكون زمامها بيد الشرع فيترددون في أعمالهم على سنن الاقنياد وعلى مقتضى الاستعداد . وكان لا يمتد إلى معانيه أبلغ أنواع التبدلات في تزكية النفوس وصرافها عن مقتضى الطباع والأخلاق ؛ مقتضى الاسترقاق . وإذا تفتطت لهذا فهمت أن تعجب النفوس من هذه الأفعال العجيبة مصدره الذهول عن أسرار التبدلات . وهذا القدر كاف في تفهم أصل الحجج إن شاء الله تعالى .

وأما الشوق : فإنما ينبعث بعد الفهم والتحقق بأن البيت يست الله عز وجل وأنه وضع على مثال حضرة الملوك

(١) « سئل عن الرهبانية والسياسة فقال : بدلنا الله بها الجهاد والتكبير على كل شرف » أخرجه أبو داود من حديث أبي أمامة « أن رجلاً قال يارسول الله ائذن لي في السياحة فقال إن سياحة أمي الجهاد في سبيل الله » رواه الطبراني بلفظ « إن لكل أمة سياحة وسياحة أمي الجهاد في سبيل الله ولكل أمة رهبانية ورهبانية أمي الرباط في نحر العدو » والبيهقي في الشعب من حديث أنس « رهبانية أمي الجهاد في سبيل الله » وكلاهما ضعيف والترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن رجلاً قال يارسول الله إنني أريد أن أسافر فأوصني قال عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف » .

(٢) « سئل عن السائحين فقال هم الصائمون » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة وقال المحفوظ عن عبيد بن عمير عن عمر مرسل .

(٣) « ليك بحجة حقاً تعبدوا ورقاً » تقدم في الزكاة .

فقاصده قاصد إلى الله عز وجل وزارته وأن من قصد البيت في الدنيا جدير بأن لا يضع زيارته فيرقض مقصود الزيارة في ميماده المضروب له وهو النظر إلى وجه الله الكريم في دار القرار ، من حيث إن العين القاصرة الغائية في دار الدنيا لا تنبأ لقبول نور النظر إلى وجه الله عز وجل ولا تطبيق احتماله ولا تستعد للاكتحال به لقصورها ، وأنها إن أمدت في الدار الآخرة بالبقاء وزهت من أسباب التغير والفناء استعدت للنظر والإبصار ولكنها بقصد البيت والنظر إليه تستحق لقاء رب البيت بحكم الوعد الكريم . فالشوق إلى لقاء الله عز وجل يشوقه إلى أسباب اللقاء لا محالة ، هذا مع أن الحب مشتاق إلى كل ماله إلى محبوبه إضافة والبيت مضاف إلى الله عز وجل فبالحرى أن يشاق إليه مجرد هذه الإضافة فضلا عن الطلب لثيل ما وعد عليه من الثواب الجزيل .

وأما العزم : فليعلم أنه بعزمه قاصدا إلى مفارقة الأهل والوطن ومهاجرة الشهوات واللذات متوجها إلى زيارة بيت الله عز وجل . وليعظم في نفسه قدر البيت وقدر رب البيت وليعلم أنه عزم على أمر رفيع شأنه خطير أمره وأن من طلب عظاما خاطر عظيم ، وليجمل عزمه حالصا لوجهه اقتسبها به بعيدا عن شوائب الرياء والسعفة . ولينعقد أنه لا يقبل من قصده وحمله إلا الخالص وإن من ألحس الفواحش أن يقصد بيت الله وحرمو المقصود غيره . فليصح مع نفسه العزم وتصحيحه بإخلاصه وإخلاصه باجتناب كل ما فيه رياء وسعفة فليحذر أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير .

وأما قطع العلائق : فعناء رد المظالم والتوبة الخالصة لله تعالى عن جملة المعاصي فشكل مظلة علاقة وكل علاقة مثل غريم حاضر متعلق بتلابيه يتأذى عليه ويقول : إلى أين توجه أقصد بيت ملك الملوك وأنت مضيع أمره في منزلك هذا ومستعين به ومهمل ؟ أو لا تستحي أن تقدم عليه قدوم العبد العاصي فيردك ولا يقبلك ؟ فإن كنت راغبا في قبول زيارتك نفذ أوامره ورد المظالم وتب إليه أولا من جميع المعاصي واقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى ماوراءك لتشكون متوجها إليه بوجه قلبك كما أنك متوجه إلى بيته بوجه ظاهرك . فإن لم تفعل ذلك لم يكن لك من سفرك أولا إلا النصب والشقاء وآخر إلا الطرد والرد . وليقطع العلائق عن وطنه قطع من انقطع عنه وقدر أن لا يعود إليه وليسكت وصيته لأولاده وأهله فإن المسافر وماله على خطر إلا من وقى الله سبحانه . وليذكر عند قطعه العلائق لسفر الحج قطع العلائق لسفر الآخرة فإن ذلك بين يديه على القرب وما يقدمه من هذا السفر طمع في تسير ذلك السفر فهو المستقر واليه المصير . فلا ينبغي أن يفغل عن ذلك السفر عند الاستعداد بهذا السفر .

وأما الزاد : فليطلبه من موضع حلال وإذا أحسن من نفسه الحرص على استكثاره وطلب ما يبق منه على طول السفر ولا يتغير ولا يفسد قبل بلوغ المقصد فليذكر أن سفر الآخرة أطول من هذا السفر ، وأن زاده النقوى وأن ما عدها مما يظن أنه راده يتخلف عنه عند الموت ويخونه فلا يبق معه ، كالطعام الرطب الذي يفسد في أول منازل السفر فيبقى وقت الحاجة متحيرا لا حيلة له . فليحذر أن تكون أعماله التي هي زاده إلى الآخرة لا تصحبه بعد الموت بل يفسدها شوائب الرياء وكدورات التقصير .

وأما الراحة : إذا أحضرها فليشكر الله بقلبه على تسخير الله عز وجل له الدواب لتحمل عنه الأذى وتخفف عنه الحقة . وليذكر عنده المركب الذي يركبه إلى دار الآخرة وهي الجنائزة التي يحمل عليها . فإن أمر الحج من وجه يوازي أمر السفر إلى الآخرة ولينظر يصلح سفره على هذا المركب لأن يكون زادا له لذلك السفر على ذلك المركب ؟ فما أقرب ذلك منه . وما يندري لعل الموت قريب ويكون ركوبه للجنائزة قبل ركوبه للجمل . وركوب

الجنائز مقطوع به وتيسر أسباب السفر مشكوك فيه فكيف يحتاج في أسباب السفر المشكوك فيه ويستظهر في زاده وراحته ويهمل أمر السفر المستيقن ؟

وأما شراء ثوبي الإحرام : فليذكر عنده الكفن ولفه فيه فإنه سيرتدى ويتزود بثوبي الإحرام عند القرب من بيت الله عز وجل وربما لا يتم سفره إليه . وأنه سيلقى الله عز وجل ملفوفا في ثياب الكفن لا محالة . فكأنه لا يلقى بيت الله عز وجل إلا مخالفا عادة في الزى والهيئة فلا يلقى الله عز وجل بعد الموت إلا في زى مخالف لرى الدنيا . وهذا الثوب قريب من ذلك الثوب إذ ليس فيه مخيط كما في الكفن .

وأما الخروج من البلد : فليعلم عنده أنه غارق الأهل والوطن متوجها إلى الله عز وجل في سفر لا يضاهي أسفار الدنيا . فليحضر في قلبه أنه ماذا يريد وأين يتوجه وزيارة من يقصد ؟ وأنه متوجه إلى ملك الملوك في ذمرة الرازي له الذين نودوا فأجابوا وشوقوا فاشتاخوا واستهنضوا فنهضوا وقطعوا العلائق وفارقوا الخلائق وأقبلوا على بيت الله عز وجل الذي نظم أمره وعظم شأنه ورفع قدره تسليبا بلقاء البيت عن لقاء رب البيت إلى أن يرزقوا منتهى مثام ويسعدوا بالنظر إلى مولاهم . وليحضر في قلبه رجاء الوصول والقبول لا إذللا بأعماله في الارتحال ومفارقة الأهل والمال ولكن ثقة بفضل الله عز وجل ورجاء لتحقيقه وعده لمن زاد بيته . وليرج أنه إن لم يصل إليه وأدركته المنية في الطريق لقي الله عز وجل وافداً إليه إذ قال جل جلاله ﴿ ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ﴾ .

وأما دخول البادية إلى الميقات ومشاهدة تلك العقبات : فليذكر فيها ما بين الخروج من الدنيا بالموت إلى ميقات يوم القيامة وما بينهما من الأحوال والمطالبات . وليتذكر من هول قطاع الطريق هول سؤال منكبر وتكبر ومن سباج البوادي عقارب القبر وديدانه وما فيه من الأفاقي والحيات ومن انفراده عن أهله وأقاربه وحشة القبر وكربه ووحده . وليسكن في هذه المخاوف في أعماله وأقواله متزودا لمخاوف القبر .

وأما الإحرام والتلبية من الميقات : فليعلم أن معناه إجابة نداء الله عز وجل فأرج أن تكون مقبولا واخش أن يقال لك لا لبيك ولا سعديك فكأن بين الرجاء والخوف مترددا وعن حولك وقوتك متربثا وعلى فضل الله عز وجل وكرمه متسكلا . فإن وقت التلبية هو بداية الأمر وهي محل الخطر . قال سفيان بن عيينة : حج على ابن الحسين رضى الله عنهما فلما أحرم واستوت به راحته اصفر لونه وانقضت ووقفت عليه الزعدة ولم يستطع أن يلب فقيل له : لم لا تلبى ؟ فقال : أخشى أن يقال لي لا لبيك ولا سعديك . فلما لبى غشى عليه ووقع عن راحته فلم يزل يعتربه ذلك حتى قضى حجه وقال أحمد بن أبي الخوارى : كنت مع أبي سليمان الداراني رضى الله عنه حين أراد الإحرام فلم يلب حتى سرنا ميلا فأخذته الغشية ثم أفاق وقال : يا أحمد إن الله سبحانه أوحى إلى موسى عليه السلام مر ظلة بنى إسرائيل أن يقولوا من ذكرى فأنى أذكر من ذكرى منهم بالمنة . ويحك يا أحمد بلغنى أن من حج من غير حله ثم لبى قال الله عز وجل لا لبيك ولا سعديك حتى ترد ما في يدك فا تأمن أن يقال إنما ذلك . وليتذكر الملبى عند رفع الصوت بالتلبية في الميقات لإجابته لنداء الله عز وجل إذ قال ﴿ وأذن في الناس بالحج ﴾ ونداء الخلق بفتح الصور وحشرهم من القبور وازدحامهم في عرصات القيامة يجيبين لنداء الله سبحانه ، ومنقسمين إلى مقرين ومقوتين ، ومقبولين ومردودين . ومترددون في أول الأمر بين الخوف والرجاء : تردد الحاج في الميقات حيث لا يدرون أيتيسر لهم إتمام الحج وقبوله أم لا ؟

وأما دخول مكة : فليتذكر عندها أنه قد انتهى إلى حرم الله تعالى آمناً وليرجع عنده أن يأمن بدخوله من عقاب الله عز وجل وليخش أن لا يكون أهلاً للقرب فيكون بدخوله الحرم خائباً ومستحقاً للقتل . وليسكن رجلاه في جميع الأوقات غالباً فالكرم عميم والرب رحيم وشرف البيت عظيم وحق الزائر مرعى وذمام المستجير اللاتئذ غير مضيق .

وأما وقوع البصر على البيت : فينبغي أن يحضر عنده عظمة البيت في القلب ويقدر كأنه مشاهد لرب البيت لشدة تعظيمه إياه . وارج أن يرزقك الله تعالى النظر إلى وجهه الكريم كما رزقك الله النظر إلى بيته العظيم . واشكر الله تعالى على تبليغه إياك هذه الرتبة وإلحاقه إياك بزمرة الوافدين عليه . واذكر عند ذلك انصباب الناس في القيامة إلى جهة الجنة آمليين لدخولها كافة ثم انقسامهم إلى مأذنين في الدخول ومصروفين انقسام الحاج إلى مقبولين ومردودين . ولا تغفل عن تذكر أمور الآخرة في شيء مما تراه فإن كل أحوال الحاج دليل على أحوال الآخرة .

وأما الطواف بالبيت : فاعلم أنه صلاة فأحضر في قلبك فيه من التعظيم والخوف والرجاء والمحبة ما فصلناه في كتاب الصلاة . واعلم أنك بالطواف متشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش الطائفين حوله . ولا تظن أن المقصود طواف جسمك بالبيت بل المقصود طواف قلبك بذكر رب البيت حتى لا تتبدى الذكر إلا منه ولا تختم إلا به كما تتبدى الطواف من البيت وتختم بالبيت . واعلم أن الطواف الشريف هو طواف القلب بمحضره الربوبية وأن البيت مثال ظاهر في عالم الملك تلك الحضرة التي لا تشاهد بالبصر وهي عالم الملكوت ، كما أن البدن مثال ظاهر في عالم الشهادة للقلب الذي لا يشاهد بالبصر وهو في عالم الغيب . وأن عالم الملك والشهادة مدركة إلى عالم الغيب والمملكوت لمن فتح الله له الباب وإلى هذه الموازنة وقعت الإشارة بأن البيت المعمور في السموات بإزاء الكعبة . فإن طواف الملائكة به كطواف الإنس بهذا البيت . ولما قصرت رتبة أكثر الخلق عن مثل ذلك الطواف أمروا بالتشبه بهم بحسب الإمكان ووعدوا بأن من تشبه بقوم فهو منهم<sup>(١)</sup> والذي يقدر على مثل ذلك الطواف هو الذي يقال إن الكعبة تزوره وتطوف به على مائة بعض المكاشفين لبعض أولياء الله سبحانه وتعالى .

وأما الاستلام : فاعتقد عنده أنك مبايع لله عز وجل على طاعته فصمم عزيمتك على الوفاء بيمينك فمن غدر في المبايعة استحق الموت . وقد روى ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال « الحجر الأسود يمين الله عز وجل في الأرض يضاف بها خلقه كما يضافح الرجل أخاه<sup>(٢)</sup> » .

وأما التعلق بأستار الكعبة والاتصاف بالمأتم : فلتكن نيتك في الالتزام طلب القرب حياً وشوقاً للبيت ولرب البيت وتبركاً بالماسة ورجاءاً للتحصن عن النار في كل جزء من بدنك لا في البيت . ولتكن نيتك في التعلق بالستر الإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كاللذنب المتعلق بثياب من أذنب لإليه المتضرع إليه في عفو عنه المظهر له أنه لا ملجأ له منه إلا إليه ولا مفرج له إلا كرمه وعفوه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو وبذل الأمن في المستقبل .

وأما السعى بين الصفا والمروة في فناء البيت : فانه يضاهي تردد العبد بفناء دار الملك جاتياً وذاهباً مرة بعد أخرى

(١) « من تشبه بقوم فهو منهم » أخرجه أبو داود من حديث ابن عمر بسند صحيح .

(٢) حديث ابن عباس « الحجر يمين الله في الأرض يضافح بها خلقه ... » تقدم في العلم من حديث عبد الله بن عمرو .

إظهاراً للخلاص في الخدمة ورجاءاً لللاحظة بعين الرحمة ، كالأذى الذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضى به الملك في حقه من قبول أو رد ؟ فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى . ولينذكر عند ترده بين الصفا والمروة ترده بين كفتي الميزان في عرصات القيامة وليثقل الصفا بكفة الحسنة والمروة بكفة السيئات . ولينذكر ترده بين السكفتين ناظراً إلى الرجحان والنقصان متردداً بين العذاب والغفران .

وأما الوقوف بعرفة : فاذكر - بما ترى من ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات واختلاف اللغات واتباع الفرق أنهم تم في الترددات على المشاعر اقتفاء لهم وسيراً بسيرهم - عرصات القيامة واجتماع الأمم مع الأنبياء والأئمة واقتفاء كل أمة نبيها وطعمهم في شفاعتهم وتخبرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول وإذا تذكرت ذلك فألزم قلبك الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل فتعشر في ذمرة الفائزين المرحومين وحقق رجاءك بالإجابة فالوقت شريف والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب المزينة من أوتاد الأرض ولا ينفك الموقف عن طبقة من الأبدال والأوتاد وطبقة من الصالحين وأرباب القلوب . فإذا اجتمعت معهم وتجمدت للضراعة والابتهال فليهم وارفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إلى أعناقهم وشخصت نحو السماء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم . ولذلك قيل : إن من أعظم الذنوب أن يحضر عرفات ويظن أن الله تعالى لم يغفر له . كأن اجتماع الهمم والاستظهار بمجاورة الأبدال والأوتاد مجتمعين من أقطار البلاد هو سر الحج وغاية مقصوده فلا طريق إلى استدراحة الله سبحانه مثل اجتماع الهمم وتعاون القلوب في وقت واحد على صعيد واحد .

وأما رمي الجمار : فأقصد به الاتقياد للأمر بإظهار الرق والعبودية واتهاماً لمجرد الامتثال من غير حظ للعقل والنفس فيه . ثم أقصد به التشبه بإبراهيم عليه السلام حيث عرض له إبليس لعنه الله تعالى في ذلك الموضع ليندخل على حبه شبهة أو يفتنه بمغصية فأمره الله عز وجل أن يرميه بالحجارة طرداً له وقطعاً لآله . فان خطر لك : أن الشيطان عرض له وشاهده فذلك رماه . وأما أنا فليس يعرض لي الشيطان ؟ فاعلم أن هذا الخاطر من الشيطان وأنه الذي ألقاه في قلبك ليفتر عزمك في الرمي ويخيل إليك أنه فعل لافائدة فيه وأنه يضاهي اللعب فلم تشتغل به ؟ فأخبره عن نفسك بالجد والتشمير في الرمي فيه برغم أنف الشيطان . واعلم أنك في الظاهر ترمي الحصى إلى العقبة وفي الحقيقة ترمي به وجه الشيطان وتقم به ظهره إذا لا يحصل إرغام أنفه إلا بامتثالك أمر الله سبحانه وتعالى تعظيماً له بمجرد الأمر من غير حظ للنفس والمقل فيه .

وأما ذبح الهدي : فاعلم أنه تقرب إلى الله تعالى بحكم الامتثال فأكل الهدي وأرج أن يعتق الله بكل جزء منه جزءاً منك من النار<sup>(١)</sup> فهكذا ورد الوعد . فكلما كان الهدي أكبر وأجزؤه أوفر كان فداؤك من النار أعم .

وأما زيارة المدينة : فإذا وقع بصرك على حيطانها فذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه صلى الله عليه وسلم وجعل لإليها هجرته وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عز وجل وسنة ومجاهدة عدوه وأظهر بها دينه إلى أن

(١) « أنه يمتق بكل جزء من الأنحية جزءاً من المضحي من النار » لم أقف له على أصل وفي كتاب الضحايا لأبي الشيخ من حديث أبي سعيد « فإن لك بأول قطرة تشطر من دمها أن يغفر ذلك ما تقدم من نوبك » يقوله لقاطعة وإسناده ضعيف .

بوفاء الله عز وجل . ثم جعل رتبته فيها وترتبة وزيره القائم بالحق بعده رضى الله عنهما . ثم مثل في نفسك مواقع أقدام رسول الله صلى الله عليه وسلم عند تردداته فيها وأنه مامن موضع قدم تقاؤه إلا وهو موضع أقدامه العزيرة فلا تضع قدمك عليه إلا عن سكينه ووجل . وتذكر مشيه وتحطيه في سبكه وتصور خشوعه وسكينة في المشي وما استودع الله سبحانه قلبه من عظيم معرفته ورفعة ذكره مع ذكره تعالى حتى قرنه بذكر نفسه وإحباطه عمل من هناك حرمته ولو يرفع صوته فوق صوته . ثم تذكر مامن الله تعالى به على الذين أدركوا محبته وسعدوا بمشاهدته واستمتع كلامه وأعظم تأسفاً على ما فاتك من محبته ومحبة أصحابه رضى الله عنهم . ثم اذكر أنك قد فاتك رؤيته في الدنيا وإنك من رؤيته في الآخرة على خطر ، وإنك ربما لا تراه إلا بحسرة وقد حيل بينك وبين قبوله إياك بسوء عملك كما قال صلى الله عليه وسلم « يرفع الله إلى أقواما فيقولون يا محمد يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول بدءاً وشفافاً<sup>(١)</sup> » فإن تركت حرمة شربته ولو في دقيقة من الدقائق فلا تأمن أن يحال بينك وبينه بعد ذلك عن محبته . وليعلم مع ذلك رجائك أن لا يحول الله تعالى بينك وبينه بعدد أن رزقك الإيمان وأغفلك من وطنك لأجل زيارته من غير تجارة ولا حظ في دنيا بل لمحض حبك له وشوقك إلى أن تنظر إلى آثاره وإلى حافظ قهره . إذ سمعت نفسك بالسر بمجرد ذلك لما فاتك رؤيته فأجذرك بأن ينظر الله تعالى إليك بعين الرحمة . فإذا بلغت المسجد فاذا ذكر أنها العرصة التي اختارها الله سبحانه لئيبه صلى الله عليه وسلم ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة . وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك العرصة . وأما جمعت أفضل خلق الله حياً وميتاً فليعلم أملك في الله سبحانه أن يرحمك بدخولك إياه فادخله غاشماً معظماً . وما أجدر هذا المكان بأن يستدعى الخشوع من قلب مؤمن كما حكى عن أبي سليمان أنه قال : حج أويس القرني رضى الله عنه ودخل المدينة فلما وقف على باب المسجد قيل له : هذا قبر النبي صلى الله عليه وسلم ففشى عليه . فلما أفاق قال : أخرجنى فليس يلذل بلد فيه محمد صلى الله عليه وسلم مدفون .

وأما زيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فينبغي أن تقف بين يديه كما وصفاً وتزوره ميتاً كما تزوره حياً ولا تقرب من قبره إلا كما كنت تقرب من شخصه الكريم لو كان حياً . وكما كنت ترى العرمة في أن لا تمس شخصه ولا تقبله بل تقف من بعد ما تلا بين يديه فكذلك فاعمل فإن المس والتقبيل للشاهد عادة النصارى واليهود . واعلم أنه عالم بحضورك وقيامك وزيارتك وأنه يبلغه سلامك وصلاتك ، فقل صورته الكريم في خيالك موضوعاً في الوجد بإذائك وأحضر عظيم رتبته في قلبك فقد روى عنه صلى الله عليه وسلم « أن الله تعالى وكل بقبره ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته<sup>(٢)</sup> » هذا في حق من لم يحضر قبره فكيف بمن فارق الوطن وقطع البوادي شوقاً إلى لقائه واكتفى بمشاهدة مشهد الكريم لإذفاته مشاهدة غرته الكريم ؟ وقد قال صلى الله عليه وسلم « من صلى على مرة واحدة صلى الله عليه عشر<sup>(٣)</sup> » فهذا جزاؤه في الصلاة عليه بلسانه فكيف بالحضور لزيارته بيده ؟ ثم أتت منبر الرسول صلى الله عليه وسلم وتوم صعود النبي صلى الله عليه وسلم المنبر ومثل في قلبك طلعت الهيئة كأنها على المنبر وقد أحرق به المهاجرون والأنصار رضى الله عنهم وهو صلى الله عليه وسلم يحتم على طاعة الله عز وجل تحطبه

(١) « يرفع إلى أقوام فيقولون يا محمد يا محمد فأقول يارب أصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول بدءاً وشفافاً » متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس وغيرهما دون قوله « يا محمد يا محمد » .

(٢) « إن الله وكل بقبره صلى الله عليه وسلم ملكاً يبلغه سلام من سلم عليه من أمته » أخرجه النسائي وابن جبان والحاكم من حديث ابن مسعود بلفظ « إن الله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام » .

(٣) « من صلى على واحدة صلى الله عليه عشر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وعبد الله بن عمر .

وسل الله عز وجل أن لا يفارق في القيامة بينك وبينه فبهذه وظيفة القلب في أعمال الحج . فإذا فرغ منها كلها فينبغي أن يلزم قلبه الحزن والحلم والخوف وأنه ليس يدري أقبل منه حجه وأثبت في زمرة المحبوبين أم رد حجه وألحق بالمعزودين ؟ وليتعرف ذلك من قلبه وأعماله فإن صادف قلبه قد ازداد تجافيا عن دار الغرور وانصرافا إلى دار الأمان بالله تعالى ووجد أعماله قد اتزنت بميزان الشرع فليثق بالقبول فإن الله تعالى لا يقبل إلا من أحبسه ، ومن أحبه تولاه وأظهر عليه آثار محبة وكف عنه سطوة عدوه إبليس لعنه الله . فإذا ظهر ذلك عليه دل على القبول ، وإن كان الأمر بخلافه فيوشك أن يكون حظه من سفره : العناء والتعب نموذ بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

تم كتاب : أسرار الحج . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب آداب تلاوة القرآن .

## كتاب آداب تلاوة القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي امتن على عباده بنبيه المرسل صلى الله عليه وسلم وكتبه المنزل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ( حتى اتسع على أهل الأفكار طريق الاعتبار بما فيه من القصص والأخبار واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم بما فصل فيه من الأحكام ، وفرق بين الحلال والحرام فهو الضياء والنور وبه النجاة من الغرور وفيه شفاء لما في الصدور . ومن خالفه من الجبابرة قصمه الله ومن ابتغى العلم في غيره أضله الله . هو جبل الله المتين ونوره المبين والعروة الوثقى والمستمع الأوفى وهو المحيط بالقليل والكثير والصغير والكبير . لا تنتفض عجايبه ولا تنفأ غرائب لا يحيط بقوائمه عند أهل العلم تحديد ولا يخلفه عند أهل التلاوة كثرة التردد . هو الذي أرشد الأولين والآخرين ولما سمعه الجن لم يلبثوا أن ولوا إلى قومهم منذرين ( فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشاد فآمننا به وإن نشارك ربنا أحدا ) فكل من آمن به فقد وفق ومن قال به فقد صدق ومن تمسك به فقد هدى ومن عمل به فقد فاز وقال تعالى ( إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون ) ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف استدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه والمحافظة على ما فيه من الأعمال الباطنة والآداب الظاهرة . وذلك لا بد من بيانه وتفصيله وتكشيف مقاصده في أربعة أبواب :

(الباب الأول) في فضل القرآن وأهله .

(الباب الثاني) في آداب التلاوة في الظاهر .

(الباب الثالث) في الأعمال الباطنة عند التلاوة .

(الباب الرابع) في فهم القرآن وتفسيره بالرأى وغيره .

الباب الأول : في فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

### فضيلة القرآن

قال صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن ثم رأى أن أحدا أوفى أفضل مما أوفى فقد استصغر ما عظمه الله



تمالي (١) » وقال ﷺ « ما من شفيح أفضل منزلة عند الله تعالى من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره (٢) » وقال ﷺ « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار (٣) » وقال « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن (٤) » وقال ﷺ « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت : طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لأسنة تنطق بهذا (٥) » وقال ﷺ « خيركم من تعلم القرآن وعلمه (٦) » وقال ﷺ « يقول الله تبارك وتعالى من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومسااتي أعطيت أفضل ثواب الشاكرين (٧) » وقال ﷺ « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك أسود لا يوهنهم فزع ولا يناههم حساب حتى يفرغ ما بين الناس : رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله عز وجل ورجل أم به قوما وهم به راضون (٨) » وقال ﷺ « أهل القرآن أهل الله وخاصته (٩) » وقال ﷺ « إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد فليلبس رسول الله ما يجلاؤها ؟ فقال : تلاوة القرآن وذكر الموت (١٠) » وقال ﷺ « لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته (١١) » الآثار : قال أبو أمامة الباهلي : اقرءوا القرآن ولا تفرنكم هذه المصاحف المعلقة فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء للقرآن . وقال ابن مسعود : إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين . وقال أيضاً : اقرءوا القرآن فإنكم توجرون عليه بكل حرف منه عشر حسنات أما إني لا أقول : الحرف الم ولكن الألف حرف واللام حرف والم حرف . وقال أيضاً لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن ويعبجه فهو يحب الله ورسوله ﷺ وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله سبحانه ورسوله ﷺ . وقال عمرو بن العاص : كل آية في القرآن درجة في الجنة ومصباح في بيوتكم وقال أيضاً : من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يرحى إليه . وقال أبو هريرة : إن البيت الذي يتلى فيه القرآن اتسع بأهله وكثرة خيره وحضرته الملائكة وخرجت منه

### كتاب آداب تلاوة القرآن

#### الباب الأول في فضل القرآن وأهله

- (١) « من قرأ القرآن ثم رأى أحداً أوتي أفضل مما أوتي قد استصغر ماعظمه الله » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمر بسند ضعيف (٢) « مامن شفيح أعظم منزلة عند الله من القرآن لا نبي ولا ملك ولا غيره » رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلًا للطبراني من كلام ابن مسعود « القرآن شافع مشفع » ولمسلم من كلام أبي أمامة « اقرءوا القرآن فإنه يجيء يوم القيامة شفيحاً لصاحبه » . (٣) « لو كان القرآن في إهاب ما مسته النار » أخرجه الطبراني وابن حبان في الضعفاء من حديث سهل بن سعد ولأحمد والداري والطبراني من حديث عتبة بن عامر وفيه لطمعة ورواه ابن عدي والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عصمة بن مالك بسند ضعيف (٤) « أفضل عبادة أمتي تلاوة القرآن » أخرجه أبو نعيم في فضائل القرآن من حديث الثمان بن بشير وأنس وإسنادها ضعيف (٥) « إن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل أن يخلق الخلق بألف عام ... » أخرجه الدارمي من حديث أبي هريرة بسند ضعيف (٦) « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » أخرجه البخاري من حديث عثمان بن عفان (٧) « يقول من شغله قراءة القرآن عن دعائي ومستلتي أعطيه ثواب الشاكرين » أخرجه الترمذي من حديث أبي سعيد « من شغله عن ذكرى أو مستلتي أعطيه أفضل ما أعطى السائلين » وقال حسن غريب ورواه ابن شاهين بالنقل المصنف (٨) « ثلاثة يوم القيامة على كتيب من مسك ... » تقدم في الصلاة . (٩) « أهل القرآن أهل الله وخاصته » أخرجه النسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس بإسناد حسن . (١٠) « إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد قيل ما جلاؤه قال تلاوة القرآن وذكر الموت » أخرجه البيهقي من حديث ابن عمر بسند ضعيف (١١) « لله أشد أذناً إلى قارئ القرآن من صاحب القينة إلى قينته » أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث فضالة بن عبيد .

الشياطين ، وإن البيت الذي لا تلي فيه كتاب الله عز وجل : ضاق بأهله وقل خيرهم وخرجت منه الملائكة وحضرته الشياطين . وقال أحمد بن حنبل : رأيت الله عز وجل في المنام فقلت : يا رب ما أفضل ما تقرب به المتقربون إليك قال : بكلامي يا أحمد ، قال قلت : يارب بفهم أو بغير فهم ؟ قال : بفهم وبغير فهم . وقال محمد بن كعب القرظي : إذا سمع الناس القرآن من الله عز وجل يوم القيامة فكأنهم لم يسموه قط . وقال الفضيل بن عياض : ينبغي لحامل القرآن أن لا يكون له إلى أحد حاجة ولا إلى الخلفاء فمن دونهم فينبغي أن تكون حوائج الخلق إليه . وقال أيضاً : حامل القرآن حامل راية الإسلام فلا ينبغي أن يلبو مع من يلبو ولا يسهو مع من يسهو ولا يباغو مع من يباغو تعظيماً لحق القرآن . وقال سفيان الثوري : إذا قرأ الرجل القرآن قبل الملك ما بين عينيه . وقال عمرو بن ميمون : من نشر مصحفاً حين يصلي الصبح فقرأ منه مائة آية رفع الله عز وجل له مثل حمل جميع أهل الدنيا . وروى أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله ﷺ وقال : اقرأ على القرآن ، فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ الآية ، فقال له : أعد ، فقال : والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمورق وإن أعلاه ثمر ، وما يقول هذا بشر <sup>(١)</sup> . وقال الحسن : والله ما دون القرآن من غنى ولا بعده من فاقة . وقال الفضيل : من قرأ خاتمة الحشر حين يصبح ثم مات من يومه ختم له بطابع الشهداء ومن قرأها حين يمسي ثم مات ختم له بطابع الشهداء . وقال القاسم بن عبد الرحمن : قلت لبعض الناسك : ما ههنا أحد نستأنس به ؟ فدبده إلى المصحف فوضعه على حجره قائلاً : هذا . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ثلاث يزدن في الحفظ ويذهبن البلم ، السواك والصيام وقراءة القرآن .

### في ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رب تال للقرآن والقرآن يلعنه . وقال ميسرة : الغريب هو القرآن في جوف الفاجر وقال أبو سليمان الداراني : الزبانية أسرع إلى حلة القرآن الذين يمعنون الله عز وجل منهم إلى عبدة الأوثان حين عصوا الله تعالى بعد القرآن . وقال بعض العلماء : إذا قرأ ابن آدم القرآن ثم خلط ثم عاد فقرأ قيل له : مالك ولكلامي وقال ابن الرماح : تدمت على استظهار القرآن لأنه بلغني أن أصحاب القرآن يسألون عما يسأل عنه الأنبياء . يوم القيامة . وقال ابن مسعود ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذا الناس ينامون وبنهاره إذا الناس يفرطون ويحزنه إذا الناس يفرحون وببكاؤه إذا الناس يضحكون وبصمته إذا الناس يخوضون وبخشوعه إذا الناس يتكلمون . وينبغي لحامل القرآن أن يكون مستكيناً ليناً وليس له أن يكون جافياً ولا عارياً ولا صياحاً ولا صغاباً ولا حديثاً . وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر منافع هذه الأمة قراؤها » <sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرأه » <sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » <sup>(٤)</sup> وقال بعض السلف

(١) « أن خالد بن عقبة جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال اقرأ على فقرأ عليه ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ﴾ فقال أعد فأعد فقال : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وإن أسفله لمندق وإن أعلاه ثمر وما يقول هذا بشر » ذكره ابن عبد البر في الاستيعاب بغير إسناد ورواه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بسند جيد إلا أنه قال « الوليد بن المغيرة » بدل « خالد بن عقبة » وكذا ذكره ابن إسحق في السيرة بنحوه (٢) « أكثر منافع أمي قراؤها » أخرجه أحمد من حديث عقبة بن عامر وعبد الله بن عمر وفيها ابن لهيعة (٣) « اقرأ القرآن ما نهاك فإن لم ينهك فلست تقرأه » أخرجه الطبراني من حديث عبد الله بن عمرو بسند ضعيف (٤) « ما آمن بالقرآن من استحل محارمه » أخرجه الترمذي من حديث سهيب وقال ليس إسناده بالقوي .

إن العبد ليفتح سورة قصص عليه الملائكة حتى يفرغ منها ، وإن العبد ليفتح سورة فتلتمه حتى يفرغ منها ، فقيل له وكيف ذلك ؟ فقال : إذا أحل حلالها وحرم حرامها صلت عليه وإلا لعنته . وقال بعض العلماء : إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول ﴿ ألا لعنة الله على الظالمين ﴾ وهو ظالم نفسه ﴿ ألا لعنة الله على الكاذبين ﴾ وهو منهم . وقال الحسن : إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل وجعلتم الليل جملا فأتمت تركبونه فتقطعون به مراحل ، وإن من كان قبلكم أروه رسائل من ربهم فكانوا يتدبرونها بالليل وينفذونها بالنهار . وقال ابن مسعود أنزل القرآن عليهم ليعملوا به فاتخذوا دراسته محلا إن أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفا وقد أسقط العمل به . وفي حديث ابن عمر وحديث جندب رضي الله عنهما : لقد عشنا دهرا طويلا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن فتنزل السورة على محمد ﷺ فيعلم حلالها وحرامها وأمرها وذاجرها وما ينبغي أن يقف عنده منها ، ثم لمد رأيت رجلا يؤتى أحدهم القرآن قبل الإيمان فيقرأ الكتاب إلى خاتمته لا يدري ما أمره ولا ذاجره ولا ما ينبغي أن يقف عنده منه يثره أثر الدقل (١) وقد ورد في التوراة : يا عبيدي أما تستحي مني يا نبيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق وتعدل لأجله وتقرؤه وتدبره حرفا حرفا حتى لا يفوتك شيء منه ، وهذا كتابي أنزله إليك انظر كم فصلت لك من القول وكم كررت عليك فيه لتأمل طوله وعرضه ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك ؟ يا عبيدي يقعد إليك بعض إخوانك فتقبل عليه بكل وجهك وتصفى إلى حديثه بكل قلبك فإن تكلم متكلم أو شغل شغل عن حديثه أو مات إليه أن كف وما أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت معرض بقلبك عنى أجمعتي أهون عندك من بعض إخوانك ؟

### الباب الثاني : في ظاهر آداب التلاوة وهي عشرة

- ( الأول ) في حال الفرائض : وهو أن يكون على وضوء واقفا على هيئة الآداب والسكون إما قائما وإما جالسا . مستقبل القبلة مطرقا رأسه غير مترقب ولا متكى ولا جالس على هيئة التكبر ، ويكون جلوسه وحده كجلوسه بين يدي أستاذه . وأفضل الأحوال أن يقرأ في الصلاة قائما وأن يكون في المسجد فذلك من أفضل الأعمال . فإن قرأ على غير وضوء وكان مضطجعا في الفراش فله أيضا فضل ولكنه دون ذلك . قال الله تعالى ﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ﴾ فأنهى على الشكل ولكن قدم القيام في الذكر ثم القعود ثم الذكر مضطجعا ، قال على رضي الله عنه من قرأ القرآن وهو قائم في الصلاة كان له بكل حرف ما تحسنة ومن قرأه وهو جالس في الصلاة فله بكل حرف خمسون حسنة . ومن قرأ في غير صلاة وهو على وضوء غفس وعشرون حسنة . ومن قرأه على غير وضوء ففسر حسنت . وما كان من القيام بالليل فهو أفضل لأنه أفرغ للقلب قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : إن كثرة السجود بالنهار وإن طول القيام بالليل أفضل ( الثاني ) في مقدار القراءة : وللقراء عادات مختلفة في الاستكثار والاختصار ففهم من يحتم القرآن في اليوم واللييلة مرة وبعضهم مرتين وانتهى بعضهم إلى ثلاث ومنهم من يحتم في الشهر مرة وأول ما يرجع إليه في التقديرات قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يَفقهه » (٢) وذلك لأن الزيادة عليه تمنحه الترتيل . وقد قالت عائشة رضي الله عنها - لما سمعت رجلا يهذر القرآن هذرا - « إن هذا مقرأ القرآن ولا سكت » وأمر النبي صلى الله

(١) حديث ابن عمر وحديث « لقد عشنا دهرا وأحدنا يؤتى الإيمان قبل القرآن ... » تقدم في العلم .

الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة

(٢) « من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه » أخرجه أصحاب السنن من حديث عبد الله بن عمر وصححه الترمذى .

عليه وسلم عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن يحتم القرآن في كل سبع (١) وكذلك كان جماعة من الصحابة رضى الله عنهم يحتمون القرآن في كل جمعة كعثان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضى الله عنهم ففي الختم أربع درجات : الختم في يوم وليلة وفدكره جماعة والختم في كل شهر كل يوم جزء من ثلاثين جزءا - وكأنه مبالغه في الاقتصاد كما أن الأول مبالغه في الاستكثار - وبينهما درجتان معدلتان إحداهما في الأسبوع مرة والثانية في الأسبوع مرتين تقريباً من الثلاث والأحب أن يحتم ختمه بالليل وختمه بالنهار ، ويجعل ختمه بالمها يوم الاثنين في ركعتي الفجر أو بعدهما ، ويجعل ختمه بالليل ليلة الجمعة في ركعتي المغرب أو بعدهما ، ليستقبل أول النهار وأول الليل بختمته . فإن الملائكة عليهم السلام تصلى عليه إن كانت ختمته ليلاً حتى يصبح وإن كان نهاراً حتى يمسي فتشمل بركتهما جميع الليل والنهار . والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع . وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة : وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكفي في الشهر بمرة . لكثرة حاجته إلى كثرة التريد والتأمل .

( الثالث ) في وجه القسمة : أما من ختم في الأسبوع مرة فيقسم القرآن سبعة أحزاب فقد حزب الصحابة رضى الله عنهم القرآن أحزاباً (٢) فروى أن عثمان رضى الله عنه كان يفتح ليلة الجمعة بالبقرة إلى المائدة ، وليلة السبت بالأنعام إلى هود ، وليلة الأحد بيسوف إلى مريم ، وليلة الاثنين بعه إلى طه ، موسى وفرعون ، وليلة الثلاثاء بالعنكبوت إلى ص ، وليلة الأربعاء بتنزيل إلى الرحمن ، ويحتم ليلة الخميس . وابن مسعود كان يقسمه أقساماً لا على هذا الترتيب وقيل أحزاب القرآن سبعة فالخزب الأول ثلاث سور والحزب الثاني خمس سور والحزب الثالث سبع سور والرابع تسع سور والخامس إحدى عشرة سورة والسادس ثلاث عشرة سورة والسابع المفضل من ق إلى آخره فيكذا حزبه الصحابة رضى الله عنهم وكانوا يقرءونه كذلك ، وفيه خبر عن رسول الله ﷺ وهذا قبل أن تعمل الأحماس والأعشار والأجزاء فأسوى هذا حديث .

( الرابع ) في الكتابة : يستحب تحسين كتابة القرآن وتبيينه ولا بأس بالنقط والعلامات بالحره وغيرها فإنها تزيين وتبين وصد عن الخطأ واللحن لمن يقرؤه ، وقد كان الحسن وابن سيرين يشكرون الأحماس والعواشر والأجزاء . وروى عن الشعبي وإبراهيم كراهية النقط بالحره وأخذ الأجرة على ذلك ، وكانوا يقولون جردوا القرآن . والظن هؤلاء أنهم كرهوا فتح هذا الباب خوفاً من أن يؤدي إلى إحداث زيادات وحسب الباب وتشوقاً إلى حراسة القرآن عما يطرأ إليه تغييراً . وإذا لم يؤد إلى محذور واستقر أمر الأمة فيسهل على ما يحصل به مزيد معرفة فلا بأس به . ولا يمنع من ذلك كونه محدثاً فكم من محدث حسن كما قيل في إقامة الجاهات في التراويح أنها من محدثات عمر رضى الله عنه وأنها بدعة حسنة . إنما البدعة المذمومة ما يصادم السنة القديمة أو يكاد يقضي إلى تغييرها . وبعضهم كان يقول : أقرأ من المصحف في المنقوط ولا أقطعه بنفسى . وقال الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير : كان القرآن مجرداً في المصاحف فأول ما أحدثوا فيه النقط على الباء والتاء قالوا

(١) « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عمرو أن يحتم القرآن في كل أسبوع » متفق عليه من حديثه

(٢) « تحزب القرآن على سبعة أجزاء » أخرجه ابن ماجه من حديث أوس بن حذيفة في حديث فيه « طراً على حزبي من القرآن » قال أوس فسألت أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام كيف تحزبون القرآن ؟ قالوا : ثلاث وخمس وسبع وتسع وإحدى عشرة وثلاث عشرة وحزب المفضل ، وفي رواية للطبراني سألتنا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يحزب القرآن ؟ فقالوا : كان يجزئه ثلاثاً . فذكره مرفوعاً وإسناده حسن .

لا بأس به فإنه نور له . ثم أخذوا بعده نقطا كباراً عند منتهى الآي فقالوا : لا بأس به يعرف به رأس الآية . ثم أخذوا بعد ذلك الحواميم والفواخ . قال أبو بكر الهذلي : سألت الحسن عن تنقيط المصاحف بالأحمر فقال : وما تنقيطها ؟ قلت : يعربون الكلمة بالعربية قال : أما إعراب القرآن فلا بأس به . وقال خالد الحذاء : دخلت على ابن سيرين فرأيت به يقرأ في مصحف منقوط وقد كان يكره النقط . وقيل : إن الحجاج هو الذي أحدث ذلك وأحضر القراء حتى عدوا كلمات القرآن وحروفه وسووا أجزاءه وقسموه إلى ثلاثين جزءاً وإلى أقسام أخرى .

( الخامس ) الترتيل : هو المستحب في هيئة القرآن لأناسين أن المقصود من القراءة التذكر والترتيل معين عليه . ولذلك نعتت أم سلمة رضي الله عنها قراءة ﷺ فإذا هي تنعت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً (١) وقال ابن عباس رضي الله عنه : لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرثلهما وأتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ القرآن كله هزومة . وقال أيضاً : لأن أقرأ إذا زلزلت والقارعة أتدبرهما أحب إلي من أن أقرأ البقرة وآل عمران تهذيراً . وسئل مجاهد عن رجلين دخلا في الصلاة فكان قيامهما واحداً إلا أن أحدهما قرأ البقرة فقط والآخر القرآن كله فقال : هما في الآخر سواء . واعلم أن الترتيل مستحب لا ليجرد التدبر فإن المعنى الذي لا يفهم معنى القرآن يستحب له في القراءة أيضاً الترتيل والتؤدة لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهزيمة والاستعجال .

( السادس ) البكاء : البكاء مستحب مع القراءة قال رسول الله ﷺ : « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » (٢) وقال ﷺ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٣) وقال صالح المري : قرأت القرآن على رسول الله ﷺ في المنام فقال لي يا صالح هذه القراءة فأين البكاء ؟ وقال ابن عباس رضي الله عنهما : إذا قرأتم سجدة سبحان فلا تعجلوا بالسجود حتى تبكوا فإن لم تبك حين أحدكم فليبك قلبه وإنما طريق تكلف البكاء أن يحضر قلبه الحزن فن الحزن ينشأ البكاء . قال ﷺ « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » (٤) ووجه إحضار الحزن أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد والمواثيق والعهود . يتأمل قصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي فإن لم يحضره حزن وبكاء يحضر أرباب القلوب الصافية فليبك على فقد الحزن فإن ذلك أعظم المصائب .

( السابع ) أن يراعى حق الآيات : فإذا مر بآية مجيدة ، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالى ولا يسجد إلا إذا كان على طهارة . وفي القرآن أربع عشرة سجدة : في الحج سجدتان وليس في ص سجدة ، وأقله أن يسجد بوضع جبهة على الأرض وأكله أن يكبر فيسجد ويدعو في سجوده بما يليق بالآية التي قرأها مثل أن يقرأ قوله تعالى ( غروا سجداً وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ) فيقول « اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك المسبحين بحمدك وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك أو على أولياتك » وإذا قرأ قوله تعالى ( ويغرون للأذان يكون ويريدهم خشوعاً ) فيقول « اللهم اجعلني من الباكين إليك الخاشعين لك » وكذلك كل سجدة . ويشترط في هذه السجدة شروط الصلاة من ستر المودق واستقبال القبلة وطهارة الثوب والبدن من الحدث والخبث ، ومن لم يكن على طهارة عند السجود فإذا تطهر يسجد ، وقد قيل في كماله أن يكبر رافعاً يديه لئلا يجرحه ثم يكبر للهوى للسجود ثم يكبر للارتقاء ثم يسلم . وزاد زائدون التشهد . ولا أصل لهذا إلا القياس على سجود الصلاة وهو

(١) نعتت أم سلمة قراءة النبي عليه الصلاة والسلام فإذا هي نمت قراءة مفسرة حرفاً حرفاً « أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح .

(٢) « اتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا » أخرجه ابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص بإسناد جيد

(٣) « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة .

(٤) « إن القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا » أخرجه أبو يعنى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر

بإسناد ضعيف .

بعيد فإنه ورد الأمر في السجود فليقيم فيه الأمر وتكبيره الموحى أقرب للبداية وما عدا ذلك ففيه بعد . ثم المأموم يجب أن يسجد عند سجود الإمام ولا يسجد لتلاوة نفسه إذا كان مأموماً .

( الثامن ) أن يقول في مبتدأ قراءته : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ﴿ رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون ﴾ وليقرأ قل أعوذ برب الناس وسورة الحمد لله وليقل عند فراغه من فراغه من القراءة : صدق الله تعالى وبلغ رسول الله ﷺ اللهم اغفر لنا فيه ، الحمد لله رب العالمين ، واستغفر الله الحق القيوم . وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح وكبر ، وإذا مر بآية دعاء واستغفر دعا واستغفر ، وإذا مر بمرجو سأل ، وإن مر بخوف استعاذ . يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه فيقول : سبحان الله نعوذ بالله ، اللهم ارزقنا اللهم أرحننا . قال حذيفة : صليت مع رسول الله ﷺ فابتدأ بسورة البقرة فكان لا يمر بآية رحمة إلا سأل ولا بآية عذاب إلا استعاذ ولا بآية تنزيه إلا سبح<sup>(١)</sup> ، فإذا فرغ قال ما كان بقوله ﷺ عند ختم القرآن « اللهم أرحمي بالقرآن واجعله لي إماماً ونوراً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلني ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين (٢) » .

( التاسع ) في الجهر بالقراءة : لا شك في أنه لا بد أن يجهر به إلى حد يسمع نفسه إذ القراءة عبارة عن تقطيع الصوت بالحروف ولا بد من صوت فأقله ما يسمع نفسه ، فإن لم يسمع نفسه لم تصح صلاته ، فأما الجهر بحيث يسمع غيره فهو محبوب على وجهه ، مكروه على آخر . ويدل على استحباب الإصرار ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » وفي لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر به كالسر بالصدقة<sup>(٣)</sup> » وفي الخبر العام « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً<sup>(٤)</sup> » وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى<sup>(٥)</sup> » وفي الخبر « لا يجهر بهضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء<sup>(٦)</sup> » وسمع سعيد بن المسيب ذات ليلة في مسجد رسول الله ﷺ عمر بن عبد العزيز يجهر بالقراءة في صلاته - وكان حسن الصوت - فقال لغلامه : اذهب إلى هذا المصلي فراه أن يخفف صوته ، فقال الغلام : إن المسجد ليس لنا وللرجل فيه نصيب ، فرفع سعيد صوته وقال : يا أيها المصلي إن كنت تريد الله عز وجل بهلاكك فأخضع صوتك وإن كنت تريد الناس فإنهم لن يغفروا عنك من الله شيئاً ، فسكت عمر بن عبد العزيز وخفف ركبته فلما سلم أخذ نعليه وانصرف وهو يومئذ أمير المدينة . ويدل على استحباب الجهر ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم سمع جماعة من أصحابه يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك<sup>(٧)</sup> وقد قال صلى الله

(١) حديث حذيفة « كان لا يمر بآية عذاب إلا نعوذ ولا بآية تنزيه إلا سبح » أخرجه مسلم مع اختلاف لفظ . (٢) « كان عليه الصلاة والسلام يقول عند ختم القرآن اللهم أرحمي بالقرآن واجعله لي إماماً وهدى ورحمة اللهم ذكرني منه ما نسيت وعلني منه ما جهلت وارزقني تلاوته آناء الليل وأطراف النهار واجعله لي حجة يا رب العالمين » رواه أبو منصور المظفر بن الحسين الأزرقي في فضائل القرآن وأبو بكر بن الصالح في التماثيل كلاهما من طريق أبي ذر الهروي من رواية داود بن قيس مفصلاً . (٣) « فضل قراءة السر على قراءة العلانية كفضل صدقة السر على صدقة العلانية » قال وفي لفظ آخر « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالسر بالصدقة » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه من حديث عتبة بن عامر باللفظ الثاني . (٤) « يفضل عمل السر على عمل العلانية سبعين ضعفاً » أخرجه البيهقي في الشعب من حديث عائشة . (٥) « خير الرزق ما يكفى وخير الذكر الخفى » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث سعد بن أبي وقاص . (٦) « لا يجهر بعضكم على بعض في القراءة بين المغرب والعشاء » رواه أبو داود من حديث اليابس دونه قوله « بين المغرب والعشاء » والبيهقي في الشعب من حديث علي « قبل العشاء وبعدها » وفي الحرف الأعور وهو ضعيف . (٧) « سمع أنه جماعة من الصحابة يجهرون في صلاة الليل فصوب ذلك » في الصحيحين من حديث عائشة « أن رجلاً قام من الليل قرأ فرفع صوته بالقرآن فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام رحم الله فلاناً... » ومن حديث أبي موسى قال قال رسول الله عليه الصلاة والسلام لورائتي وأنا أسمع قراءتك البارحة =

عليه وسلم « إذا قام أحدكم من الليل صلى فليجهر بالقراءة فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون قراءته ويصلون بصلاته <sup>(١)</sup> » ومر صلى الله عليه وسلم بثلاثة من أصحابه رضى الله عنهم يحتلن الأحوال فر على أبي بكر رضى الله عنه وهو يخافت فسأله عن ذلك فقال : إن الذى أناجيهِ هو يسمعى . ومر على عمر رضى الله عنه وهو يجهر فسأله عن ذلك فقال : أو قفل الوستان وأزجر الشيطان . ومر على بلال وهو يقرأ يأمن هذه السورة ويأمن هذه السورة فسأله عن ذلك فقال : أخاطب العليين بالطيب . فقال صلى الله عليه وسلم : كلِّمكم قد أحسن وأصاب <sup>(٢)</sup> . فالوجه في الجمع بين هذه الأحاديث أن الإصرار أبعد عن الرياء والتصنع فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش الوقت على مصل آخر فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر ، ولأن فائدته أيضاً تتعلق بغيره فالخير المعتدى لأفضل من اللازم ، ولأنه يوقظ قلب القارىء . ويجمع همه إلى الفكر فيه ويصرف إليه سمعه ، ولأنه يطرد النوم فيرفع الصوت ولأنه يزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله ، ولأنه يرجو بجهره تيقظ قائم فيكون هو سبب إحيائه ، ولأنه قد يراه بطال غافل فينشط بسبب نشاطه ويشتاق إلى الخدمة . ففى حضرة شيء من هذه النيات فالجهر أفضل . وإن اجتمعت هذه النيات تصاعف الأجر وبكثرة النيات تزكو أعمال الأبرار وتتضاعف أجورهم فإن كان في العمل الواحد عشر نيات كان فيه عشر أجور . ولهذا نقول قراءة القرآن في المصاحف أفضل إذ يزيد في العمل النظر وتأمل المصحف وحمله فزيد الأجر بسببه . وقد قيل الختم في المصحف يسبح لأن النظر في المصحف أيضاً عبادة ، وغرق عثمان رضى الله عنه مصحفين لسكثرة قراءته منهما فكان كثير من الصحابة يقرءون في المصاحف ويكرهون أن يخرج يوم ولم ينظروا في المصحف ، ودخل بعض فقهاء مصر على الشافعى رضى الله عنه في السحر وبين يديه مصحف فقال له الشافعى : شأنكم الفكر عن القرآن إلى لأسمى النعمة وأضعب المصنف بين يدي فما أطبقه حتى أصبح ( العاشر ) تحسين القراءة وترتيبها بترديد الصوت من غير تعطيل مفرد بغير النظم فذلك سنة قال صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم <sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام « ما أذن الله لشيء إلا أنه لحسن الصوت بالقرآن <sup>(٤)</sup> » وقال عليه السلام « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » فقيل أتراد به الاستغناء وقيل أتراد به الترم وترديد الألحان به وهو أقرب عند أهل اللغة . وروى « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ليلة ينتظر عائشة رضى الله عنها فأبطأت عليه فقال صلى الله عليه وسلم : ما حبسك قالت : يا رسول الله كنت أستمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه ، فقام صلى الله عليه وسلم حتى أستمع إليه طويلاً ثم رجع فقال صلى الله عليه وسلم : هذا سالم مولى أبي حذيفة الحمد لله الذى جعل في أمي مثله <sup>(٥)</sup> » وأستمع صلى الله عليه وسلم أيضاً ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر رضى الله عنهم فوقفوا طويلاً ثم قال

= الحديث « ومن حديثه أيضاً « إنما أعرف أصوات رقة الأشعرين بالقرآن حين يدخلون بالليل وأعرف مناظهم من أصواتهم بالقرآن ... » .

(١) « إذا قام أحدكم من الليل صلى فليجهر بقراءته فإن الملائكة وعمار الدار يستمعون إلى قراءته ويصلون بصلاته » رواه نحوه زيادة فيه أبو بكر البرزاني ونضر القدسي في الواعظ وأبو شعجان من حديث معاذ بن جبل وهو حديث منكر منقطع . (٢) « مروى صلى الله عليه وسلم بأبي بكر وهو يخافت ويهمل وهو يجهر ويبلال وهو يقرأ من هذه السورة ومن هذه السورة ... » تقدم في الصلاة . (٣) « زينوا القرآن بأصواتكم » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه من حديث البراء بن عازب . (٤) « ما أذن الله لشيء إلا أنه لحسن الصوت بالقرآن » متفق عليه من حديث أبي هريرة بلقط « ما أذن الله لشيء ما أذن لبي يتغن بالقرآن » زاد مسلم « لبي حسن الصوت » وفي رواية له « كما أذن لبي يتغن بالقرآن » .

(٥) « كان ينتظر عائشة فأبطأت عليه فقال ما حبسك قالت يا رسول الله كنت أسمع قراءة رجل ما سمعت أحسن صوتاً منه فقام عليه الصلاة والسلام حتى أستمع إليه طويلاً ثم رجع فقال هذا سالم مولى أبي حذيفة الجدة الذى جعل في أمي مثله » أخرجه أبو داود من حديث عائشة ورجال إسناده ثقات .

صلى الله عليه وسلم « من أراد أن يقرأ القرآن غضا طريا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد »<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم لابن مسعود « اقرأ على فقال يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال صلى الله عليه وسلم : إني أحب أن أسمع من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله صلى الله عليه وسلم تفيضان »<sup>(٢)</sup> « واستمع صلى الله عليه وسلم إلى قراءة أبي موسى فقال « لقد أتى هذا من مزامير آل داود » فبلغ ذلك أبا موسى فقال : يا رسول الله لو علمت أنك تسمع لحبته لك تحبيرا »<sup>(٣)</sup> ورأى هيثم القاري رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام قال : فقال لي انت الهيثم الذي نزين القرآن بصوتك قلت نعم قال جزاك الله خيرا ، وفي الخبر : كان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن . وقد كان عمر يقول لأبي موسى رضي الله عنهما : ذكرنا ربنا فيقرأ عنده حتى يكاد وقت الصلاة أن يتوسط فيقال يا امير المؤمنين الصلاة فيقول : أولسنا في صلاة ؟ إشارة إلى قوله عز وجل ( ولذكر الله أكبر ) وقال صلى الله عليه وسلم « من استمع إلى آية من كتاب الله عز وجل كانت له نورا يوم القيامة »<sup>(٤)</sup> وفي الخبر : كتب له عشر حسنات . ومما عظم اجر الاستماع وكان الثاني هو السبب فيه كان شريكا في الاجر لان لا يكون قصده الرياء والتصنع .

### الباب الثالث : في أعمال الباطن في التلاوة وهي عشرة

فهم أصل الكلام . ثم التعظيم . ثم حضور القلب . ثم التدبر . ثم التفهم . ثم التخلي عن موانع الفهم . ثم التخصيص . ثم التأثر . ثم الترقى . ثم التبرى .

( فالأول ) فهم عظمة الكلام وعلوه وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إلهام خلقه . فليتنظر كيف لطف بخلقه في إيصال معاني كلامه الذي هو صفة قديمة قائمة بذاته إلى أفهام خلقه ؟ وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف واصوات هي صفات البشر إذ يعجز البشر عن الوصول إلى فهم صفات الله عز وجل إلا بوسيلة صفات نفسه . ولولا استتار كنهه جلاله لكلامه بكسوة الحروف لما ثبت لسباع الكلام عرش ولا ترى ولثلاثي ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره . ولولا تثبت الله عز وجل لموسى عليه السلام لما أطاق لبلاغ كلامه كما لم يطق الجليل مبادئ تجليه حيث صار دكا : ولا يمكن تفهم عظمة الكلام إلا بمثالة على حذفهم الخلق . ولهذا عبر بعض العارفين عنه فقال : إن كل حرف من كلام الله عز وجل في اللوح المحفوظ اعظم من جبل قاف وإن الملائكة عليهم السلام لو اجتمعت على الحرف الواحد أن يقلوه ما أطافوه حتى يأتي أسرافيل عليه السلام وهو ملك اللوح فيرفعه فيقله يأذن الله عز وجل ورحمته لا يقوته وطاقته ولكن الله عز وجل طوقه ذلك واستعمله به ، ولقد تأني بعض الحكماء في التعبير عن وجه اللطاف في إيصال معاني الكلام مع علو درجته إلى فهم الإنسان وتثبيته مع قصور رتبته وعزب له مثلا لم يقصر فيه ؛ وذلك أنه دعا

(١) « استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر فوقوا طويلا ثم قال من أراد أن يقرأ القرآن غضا كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم عبد » أخرجه أحمد والنسائي في الكبرى من حديث عمرو الترمذي وابن ماجه من حديث ابن مسعود « أن أبا بكر وعمر بشراه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال من أحب أن يقرأ القرآن ... » قال الترمذي حسن صحيح . (٢) « أنه قال لابن مسعود : اقرأ فقال يا رسول الله أقرأ عليك وعليك أنزل فقال إني أحب أن أسمع من غيري ... » متفق عليه من حديث ابن مسعود . (٣) « استمع إلى قراءة أبي موسى فقال لقد أتوني هذا من مزامير آل داود » متفق عليه من حديث أبي موسى . (٤) « من استمع إلى آية من كتاب الله كانت له نورا يوم القيامة » وفي الخبر « كتب له عشر حسنات » أخرجه أحمد من حديث أبي هريرة « من استمع إلى آية من كتاب الله كتب له حسنة مضاعفة ومن تلاها كانت له نورا يوم القيامة » وفيه ضعف وانقطع .



بعض الملوك حكم إلى شريعة الأنبياء عليهم السلام فسأله الملك عن أمور فأجاب بما لا يحتمله فهمه ؛ فقال الملك : أرايت مأتاتي به الأنبياء ، إذا ادعت أنه ليس بكلام الناس وأنه كلام الله عز وجل فكيف يطبق الناس حمله ؟ فقال الحكميم : إنا رأينا الناس لما أرادوا أن يفهموا بعض الدواب والطير ما يريدون من تقديمها وتأخيرها وإقبالها وإدبارها ورواها الدواب يقرر تمييزها عن فهم كلامهم الصادر عن أنوار عقولهم مع حسنة وتزيينه وبديع نظمها ، فزولوا إلى درجة تمييز الهائم وأوصلوا مقاصدهم إلى مواطن الهائم بأصوات يضعونها لا تفتق بهم من النقر والصغير والأصوات القريبة من أصواتها لكي يطبقوا حلما . وكذلك الناس يعجزون عن حمل كلام الله عز وجل بكنهه وكال صفاته . فصاروا بما تراجعوا بينهم من الأصوات التي يسمونها الحكمة كصوت النقر والصغير الذي سمعت به الدواب من الناس . ولم ينبع ذلك معاني الحكمة المخبوءة في تلك الصفات من أن شرف الكلام أي الأصوات لشرفها وعظم تعظيمها فكان الصوت للحكمة جسداً ومسكنها للحكمة للصوت نفساً وروحاً . فكان أن أجساد البشر تكرم وتمز لمكان الروح فكذلك أصوات الكلام تشرف للحكمة التي فيها . والكلام على المنزلة فيع الدرجة قاهر السلطان نافذ الحكم في الحق والباطل وهو القاضي العدل والشاهد المرتضى بأمر وبهوى ، ولا طاقة للباطل أن يقوم قدام الحكمة كالاستطیع الظل أن يقوم قدام شمع الشمس ولا طاقة للبشر أن ينفذوا غور الحكمة كالإطاعة لهم أن ينفذوا بأبصارهم ضوء عين الشمس ، ولكنهم يتناولون من ضوء عين الشمس ماتحيا به أبصارهم ويستدلون به على حوائجهم فقط . فالكلام كذلك المحجوب الغائب وجهه النافذ أمره وكالشمس الغزيرة الظاهرة مكنون عنصرها وكانجوم الزاهرة التي قد تبدى بها من لا يقف على سيرها فهو مفتاح الخزانة النفيسة وشراب الحياة الذي من شرب منه لم يموت ودواء الأسقام الذي من سقى منه لم يسم ، فهذا الذي ذكره الحكميم نبذة من تفهم معنى الكلام والزيادة عليه لا يليق بمسلم المعاملة فينبغي أن يقتصر عليه .

( الثاني ) التعظيم للتكليم : فالقارئ عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر وأن في تلاوة كلام الله عز وجل غاية الخطر فإنه تعالى قال ﴿ لا يمسسه إلا المطهرون ﴾ وكما أن ظاهر جلد المصحف وورقه محروس عن ظاهر بشرة اللامس إلا إذا كان متطهراً ، فباطن معناه أيضاً بحسب عزه وجلاله محجوب عن باطن القلب إلا إذا كان متطهراً عن كل دجس ومستثيراً بنور التعظيم والتوقير . وكذا لا يصلح لمس جلد المصحف كل يد فلا يصلح لتلاوة حروفه كل لسان ولانليل معانيه كل قلب . ولمثل هذا التعظيم كان عكرمة ابن أبي جهل إذا نشر المصحف غشى عليه ويقول : هو كلام ربى هو كلام ربى ! فتعظيم الكلام تعظيم المتكلم وإن تحضره عظمة المتكلم مالم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله . فإذا حضر بالله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما من الجن والإنس والدواب والأشجار ؛ وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد ، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته وبين تقصيره وسخطه إن أنعم بفضله وإن عاقب بقميله ، وأنه الذي يقول هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي هؤلاء إلى النار ولا أبالي وهذا غاية العظمة والتعالى . فليأتكسفر في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم ثم تعظيم الكلام .

( الثالث ) حضور القلب وترك حديث النفس : قيل في تفسير ﴿ يا أيحي خذ الكتاب بقوة ﴾ أى مجد واجتهاد وأخذه بالجد أن يكون مجرداً له عند قراءته منصرف الهممة إليه عن غيره . وقيل لبعضهم : إذا قرأت القرآن تحدث نفسك بشئ ؟ فقال أروشى : أحب إلى من القرآن حتى أحدث به نفسى ؛ وكان بعض السلف إذا قرأ آية لم يكن قلبه فيها أعادها ثانية وهذه الصفة تولد عما قبلها من التعظيم للكلام الذى يتلوها يستبشر به ويستأنس ولا يغفل عنه . ففى القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالى أملا له فكيف يطلب الأناى بالفكر فى غير وهو فى متزوه ومنفرد

والذي يتفرج في المتزهات لا يتفكر في غيرها ؟ فقد قيل إن في القرآن ميادين وبساتين ومقاصير وعرائس وديابيج ورياضاً وخانات فالملات ميادين القرآن والراءات بساتين القرآن والحاء مقاصيره والمسبجات عرائس القرآن والحاميات ديابيج القرآن والمفصل رياضته والخانات ماسوى ذلك فإذا دخل القارئ الميادين وقطف من البساتين ودخل المقاصير وشهد العرائس ولبس الديابيج وتزه في الرياض وسكن غرف الخانات استغرق ذلك وشغله عما سواه فلم يعزب قلبه ولم يتفرق فكره .

( الرابع ) التدبر : وهو وراء حضور القلب فإنه قد يتفكر في غير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره ، والمقصود من القراءة التدبر . ولذلك سن فيه الترتيل لأن الترتيل في الظاهر ليتمكن من التدبر بالباطن . قال علي رضي الله عنه : لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها . وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام . فإنه لو بقي في تدبر آية وقد اشتغل الإمام بآية أخرى كان مسبباً مثل من يشتغل بالتعجب من كلفة واحدة عن يناجيه عن فهم بقية كلامه . وكذلك إن كان في تسبيح الركوع وهو متفكر في آية قرأها إمامه فهذا وسواس . فقد روى عن عامر بن عبد قيس أنه قال : الوسواس يعتريني في الصلاة ، فقيل : في أمر الدنيا ؟ فقال : لأن تختلف في الأسئلة أحب إلى من ذلك ؛ ولكن يشتغل قلبي بموقفي بين يدي ربى عز وجل ، وأنى كيف أنصرف ؟ فقد ذلك وسواسا وهو كذلك فإنه يشغله عن فهم ما هو فيه . الشيطان لا يقدر على مثله إلا بأن يشغله بهم ديني ولكن يمنه به عن الأفضل . ولما ذكر ذلك للحسن قال : إن كنتم صادقين عنه فما اصطنع الله ذلك عندنا ويروى « أنه صلى الله عليه وسلم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة <sup>(١)</sup> » وإنما ردها صلى الله عليه وسلم لتدبره في معانيها . وعن أبي ذر قال « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بنا ليلة فقام بآية يرددناها وهي ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم ﴾ الآية » وقام تيمم الداردي ليلة بهذه الآية ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ﴾ الآية . وقام سعيد بن جبير ليلة يردد هذه الآية ﴿ وامتازوا اليوم أيها الجرمون ﴾ وقال بعضهم : إنى لأفتح السورة فيوقفني بعض ما أشهد فيها عن الفراغ منها حتى يطلع الفجر . وكان بعضهم يقول : آية لا تفهمها ولا يكون قلبي فيها لأعد لها ثوابا . وحكى عن أبي سلمان الداردي أنه قال : إنى لأتلو الآية فأتمم فيها أربع ليال أو خمس ليال ونولاً أني أقطع الفكر فيها ماجاوزتها إلى غيرها . وعن بعض السلف أنه بنى في سورة هود ستة أشهر يكررها ولا يفرغ من التدبر فيها . وقال بعض العارفين : لى في كل جمعة ختمة وفي كل شهر ختمة وفي كل سنة ختمة ولى ختمة منذ ثلاثين سنة ما فرغت منها بعد . وذلك بحسب درجات تدبره ونفسيته . وكان هذا أيضاً يقول : أقمت نفسى مقام الأجراء فأنا أعمل مياومة ومجاعة ومشاهدة ومسانة .

( الخامس ) التفهم : وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله عز وجل . وذكر أفعاله . وذكر أحوال الأنبياء عليهم السلام . وذكر أحوال المكذبين لهم وأنهم كيف أهلكوا ، وذكر أوامره وزواجره ، وذكر الجنة والنار .

أما صفات الله عز وجل فكقوله تعالى ﴿ ليس كمثل شيء وهو السميع البصير ﴾ وكقوله تعالى ﴿ الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر ﴾ فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها ففتحها معان

#### الباب الثانى . فى أعمال الباطن فى التلاوة

(١) « أنه قرأ بسم الله الرحمن الرحيم فرددها عشرين مرة » رواه أبو ذر الحارثى في مجمله من حديث أبى هريرة بسند ضعيف .

(٢) حديث أبى ذر « قام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا ليلة بآية يرددناها وهي ﴿ إن تعذبهم فإنهم عبادك ﴾ » أخرجه النعماني وابن ماجه بسند صحيح .

مدنونه لا تنسكدهف إلا للوفقين . وإليه أشار على رضى الله عنه بقوله ما أمر إلى رسول الله ﷺ شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عز وجل عبدا فها في كتابه فليكن حريصا على طلب ذلك الفهم (١) وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والأخريين فليثور القرآن . وأعظم علوم القرآن تحت أسماء الله عز وجل وصفاته إذ لم يدرك أكثر الخلق منها إلا أمورا لا تفهم بأفهامهم ولم يعثروا على أغوارها .

وأما أفعاله تعالى فكذكره خالق السموات والأرض وغيرها . فليفهم التالى منها صفات الله عز وجل وجلاله إذ الفعل يدل على الفاعل فتدل عظمته على عظمت . فينبى أن يشهد فى الفعل الفاعل دون الفعل . فن عرف الحق وآه فى كل شىء فهو منه وإليه وبه وله فهو الكل على التحقيق . ومن لا يراه فى كل ما يراه فكأنه ما عرفه . ومن عرفه عرف أن كل شىء ما خلا الله باطل وأن كل شىء هالك إلا وجهه ؛ لأنه سيظل فى نانى الحال ؛ بل هو الآن باطل إن اعتبر ذاته من حيث هو إلا أن يعتبر وجوده من حيث إنه موجود بالله عز وجل وبقدرته فيكون له بطريق التبعية ثبات وبطريق الاستقلال بطلان محض . وهذا مبدأ من مبادئ علم المكاشفة . ولهذا ينبى إذا قرأ التالى قوله عز وجل ﴿ أفرايت ما منحرون - أفرايت ما تمنون - أفرايت الماء الذى تشربون - أفرايت النار التى تورون ﴾ فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرق والمنى بل يتأمل فى المنى وهو قطعة متشابهة الأجزاء ثم ينظر فى كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والمصعب وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والسكبد والقلب وغيرها ثم إلى مظاهر فيها من الصفات الشريفة مع السمع والبصر والعقل وغيرها ثم إلى مظاهر فيها من الصفات المذمومة من الغضب والشهوة والسكر والجمل والتكذيب والمجادلة كما قال تعالى ﴿ أولم ير الإنسان أنا خلقناه من طرفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ فيتأمل هذه المعائب ليترقى إلى عجب المعائب وهو الصفة التى منها صدرت هذه الأحاجيب فلا يزال ينظر إلى الصنعة فيرى الصانع .

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام : فاذا سمع منها أنهم كيف كذبوا وضربوا وقتل بعضهم ، فليفهم منه صفة الاستفناء لله عز وجل عن الرسل والمرسل إليهم وأنه لو أمهلك جميعهم لم يؤثر فى ملكك شيئا . وإذا سمع نصرتهم فى آخر الأمر فليفهم قدرة الله عز وجل وإرادته لنصرة الحق .

وأما أحوال المكذبين : كعاد وتماد وما جرى عليهم فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمة وليكن حظه منه الاعتبار فى نفسه وإنه إن غفل وأسأء الأدب واغتر بما أمل فربما تدركه النقمة وتنفذ فيه القضية . وكذلك إذا سمع وصف الجنة والنار وسائر ما فى القرآن فلا يحسن استقصاء ما يفهم منه لأن ذلك لا نهاية له وإنما لكل عبد منه بقدر رزقه . فلا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا ﴾ ولذلك قال على رضى الله عنه : لو شئت لأوفرت سبعين بعيرا من تفسير فاتحة الكتاب . فالغرض مما ذكرناه التنبيه على طريق التفهم لينفتح بابه فأما الاستقصاء فلا مطمع فيه . ومن لم يكن له فهم ما فى القرآن ولو فى أدنى الدرجات دخل فى قوله تعالى ﴿ ومنهم من يستمع إليك حتى إذا

(١) حديث على « ما أمر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا كتمه عن الناس إلا أن يؤتى الله عبدا فها فى كتابه » أخرجه النسائي من رواية أبى جحيفة قال « سألنا عليا قلنا هل عندكم من رسول صلى الله عليه وسلم شىء سوى القرآن ؟ فقال : لا والذى تلقى الحبة وبرأ النسمة إلا أن يعطى الله عبدا فها فى كتابه ... » وهو عند البخارى بلفظ « هل عندكم من رسول الله عليه وسلم ما ليس فى القرآن » وفى رواية « وقال مرة ما ليس عند الناس » ولأبى داود والنسائي « قلنا هل عهد إليك رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا لم يعهد إلى الناس ؟ قال : لا إلا ما فى كتابى هذا ... » ولم يذكر « الفهم فى القرآن » .

خرجوا من عندك قالوا للذين أتوا العلم ماذا قال آنفا أولئك الذين طبع الله على قلوبهم والطابع هي الموانع التي سئذ كرها في موانع الفهم . وقد قيل : لا يكون المريد مريدا حتى يجد في القرآن كل ما يريد ويعرف منه نقصان من المزيد ويستغنى بالحولى عن العبد .

(السادس) التغلى عن موانع الفهم فإن أكثر الناس منعو عن فهم معاني القرآن لأسباب وحجب أسد لها الشيطان على قلوبهم فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن قال عليه السلام «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» (١) ومعاني القرآن من جملة الملكوت وكل ماغاب عن الحواس ولم يدرك إلا بنور البصيرة فهو من الملكوت .

وحجب الفهم أربعة :

أولها : أن يكون الهم منصرفا إلى تحقيق الحروف بإخراجها من مخارجها ، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقرءاء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف بخيل إليهم أنه لم يخرج من مخرجه . فهذا يكون تأملهم مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تتكشف له المعاني ؟ وأعظم ضحكة للشيطان من كان معطياً لمثل هذا التلبس .

ثانياً : أن يكون مقلداً للذهب سماعه بالتقليد وجمد عليه وثبت في نفسه التعصب له بمجرد الاتباع المسموع من غير وصول إليه ببصيرة ومشاهدة . فهذا شخص قيده معتقده عن أن يجاوزه فلا يمكنه أن يخطر بباله غير معتقده فصار نظره موقوفاً على مسموعه ، فإن لمع برق على بعد وبدأ للمعنى من المعاني التي تبين مسموعه حمل عليه شيطان التقليد حيلة وقال كيف يخطر هذا ببالك وهو خلاف معتقد آبائك فيرى أن ذلك غرور من الشيطان فيبتاعد منه ويحترز عن مثله . ولمثل هذا قالت الصوفية : إن العلم حجاب وأرادوا بالعلم العقائد التي استمر عليها أكثر الناس بمجرد التقليد أو بمجرد كلمات جدلية حررها المتعصبون للذهاب وألقوها إليهم . فأما العلم الحقيقي الذي هو الكشف والمشاهدة بنور البصيرة فكيف يكون حجاباً وهو منتهى المطلب ؟ وهذا التقليد قد يكون باطلاً فيكون مانعاً كما كن يعتقد في الاستواء على العرش السكن والاستقرار فإن خطر له مثلاً في القنوس أنه المقدس عن كل مايجوز على خلقه لم يمكنه تقليده من أن يستقر ذلك في نفسه . ولو استقر في نفسه لايجز إلى كشف ثان وثالث وتواصل ولكن يتسارع إلى دفع ذلك عن خاطره لمناقضته تقليده الباطل . وقد يكون حقاً ويكوناً أيضاً مانعاً من الفهم والكشف لأن الحق الذي كلف الخلق اعتقاده له مراتب ودرجات وله مبدأ ظاهر وغور باطن وجوده الطبع على الظاهر يمنع الوصول إلى الغور الباطن - كما ذكرناه في الفرق بين العلم الظاهر والباطن في كتاب قواعد العقائد .

ثالثاً : أن يكون مصراً على ذنب أو متصفاً بكبر أو مبتلى بالجملة جهوى في الدنيا مطاع فإن ذلك سبب ظلمة القلب وصداء ، وهو كالخشب على المرأة فيمنع جليلة الحق من أن يتجلى فيه وهو أعظم حجاب القلب وبه حجب الأكثرون وكلما كانت الشهوات أشد ترا كما كانت معاني الكلام أشد احتجاباً وكلما خف القلب من أفعال الدنيا قرب تجلى المعنى فيه . فالقلب مثل المرأة والشهوات مثل الصدأ ومعاني القرآن مثل الصور التي تراه في المرأة والباطنة للقلب بإمالة الشهوات مثل تصفيل الجملاء للرداء ولذلك قال عليه السلام «إذا عظمت أمي الدينار والدرهم نزع منها هبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي» (٢) وقال الفضيل : يعني حرموا فهم القرآن . وقد سد شرط الله عز وجل الإنابة في الفهم والتذكير فقال تعالى (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقال عز وجل (وما يذكر إلا من يبين) وقال تعالى (إنما يذكر أولو الألباب) فالذي أثر غرور الدنيا على نعيم الآخرة

(١) «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت» تقدم في الصلاة .

(٢) «إذا عظمت أمي الدينار والدرهم نزع منها هبة الإسلام وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرموا بركة الوحي» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الأمر بالمعروف مفصلاً من حديث الفضل بن عياض قال : ذكر عن نبي الله صلى الله عليه وسلم

فليس من ذوى الأبواب ولذلك لا نتكشف له أسرار الكتاب .

وابعد : أن يكون قد قرأ تفسيراً ظاهراً واعتقد أنه لا معنى لسكلمات القرآن إلا ما تناوله النقل عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وأن ماوراء ذلك تفسير بالرأى وأن من فسر القرآن برأيه فقد نبوا مقعده من النار فهنا أيضاً من المحجب العظيمة . وسنبين معنى التفسير بالرأى في الباب الرابع وأن ذلك لا ينافض قول علي رضي الله عنه إلا أن يؤتى الله عبداً فهما في القرآن . وأنه لو كان المعنى هو الظاهر المنقول لما اختلفت الناس فيه .

( السابع ) التخصيص وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهى والمأمور وإن سمع وعداً أو وعيداً فكنش ذلك . وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود ليحتر به وليأخذ من تصاعيفه ما يحتاج إليه فما من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي صلى الله عليه وسلم وأمة . ولذلك قال تعالى ﴿ ما ثبت به فؤادك ﴾ فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإذناء وثباتهم في الدين لا انتظار نصر الله تعالى وكيف لا يقدر هذا القرآن ما أنزل الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم لرسول الله خاصة بل هو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين ؟ ولذلك أمر الله تعالى السكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى ﴿ واذكروا نعمت الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به ﴾ وقال عز وجل ﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون ﴾ . وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم . كذلك يضرب الله للناس أمثالهم . وانبهوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم . هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للبتقين ﴾ وإذا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الأحاديث القارئة الواحد مقصود فماله ولسائر الناس فليقدر أنه المقصود قال الله تعالى ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنزلكم به ومن بلغ ﴾ قال محمد بن كعب القرظي : من بلغه القرآن فكأنما كله الله . وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتأمله ويعمل بمقتضاه . ولذلك قال بعض العلماء : هذا القرآن رسائل أتقنا من قبل ربنا عز وجل بمهوده تدبرها في الصلوات وتقف عليها في الخلوات وننفذها في الطاعات والسنن المتبعات . وكان مالك بن دينار يقول : ما ذرع القرآن في قلوبكم بأهل القرآن إن القرآن ربيع المؤمن كما أن الغيث ربيع الأرض . وقال قتادة : لم يجالس أحد هذا القرآن إلا قام بزيادة أو نقصان قال تعالى ﴿ هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً ﴾ .

( الثامن ) التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به قلبه من الحزن والخوف والرجاء وغيره . ومهما تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التعيين غالب على آيات القرآن فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نبيلها كقولها عز وجل ﴿ وإن لغفارا ﴾ ثم أتبع ذلك بأربعة شروط ﴿ لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى ﴾ وقوله تعالى ﴿ والعصر إن الإنسان لئى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ ذكر أربعة شروط وحيث اقتصر ذكر شرطاً جامعاً فقال تعالى ﴿ إن رحمت الله قريب من المحسنين ﴾ فالإحسان يجمع الكل وهكذا من يتصفح القرآن من أوله إلى آخره . ومن فهم ذلك الجدير بأن يكون حاله الخشية والحزن . ولذلك قال الحسن : والله ما أصبح اليوم عبد يتلو القرآن يؤمن به إلا أكثر حزنه وقل فرحه وأكثر بكاءه وقل ضحكوك أكثر نصبه وشغله وقلت راحته وبطالته . وقال وهيب بن الورد نظرنا في هذه الأحاديث والمواعظ فلم نجد شيئاً أرق للآلوبي ولا أشد استجلاباً للحنن من قراءة القرآن وتفهيمه وتدبره . فتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفته الآية المتلوة . فعند الوعيد وتقيد المغفرة بالشروط يتضاد من خيفته كأنه يكاد يموت . وعند التوسع ووعد المغفرة يستبشر كأنه يطير من

الفرح . وعند ذكر الله وصفاته وأسمائه بتطاماً خضوعاً لجلاله واستشعاراً لعظمته . وعند ذكر الكفار ما يستحيل على الله عز وجل كذا كرم الله عز وجل ولذا وساحبة يفض صوته وينسكب في باطنه حياء من قبح مقاتلتهم . وعند وصف الجنة ينبعث بباطنه شوقاً إليها . وعند وصف النار ترتد فرائضه خوفاً منها ، ولما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا بين مسعود أقرأ على (١) قال : فالتحت سورة النساء فلما بلغت ( فكيف إذا جئنا من كل أمة بشييد وجئنا بك على هؤلاء شييدا ) رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي : حسبك الآن » وهذا لأن مشاهدة تلك الحالة استفرقت قلبه بالسكينة .

ولقد كان في الخائفين من خر مغشياً عليه عند آيات الوعيد . ومنهم من مات في سماع الآيات . فمثل هذه الأحوال يخرجهم عن أن يكون حاكياً في كلامه . فإذا قال ( إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ) ولم يكن عاتفاً كان حاكياً . وإذا قال ( عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ) ولم يكن حاله التوكل والإيابة كان حاكياً . وإذا قال ( ولنصبر على ما آذينا ) فليكن حاله الصبر أو الزينة عليه حتى يجد حلاوة التلاوة . فإن لم يكن بهذه الصفات ولم يتردد قلبه بين هذه الحالات كان حفظه من التلاوة حركة اللسان مع صريح اللحن على نفسه في قوله تعالى ( ألا لعنة الله على الظالمين ) وفي قوله تعالى ( كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ) وفي قوله عز وجل ( وهم في غفلة معرضون ) وفي قوله ( فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ) وفي قوله تعالى ( ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ) إلى غير ذلك من الآيات وكان داخلاً في معنى قوله عز وجل ( ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني ) يعني التلاوة المجردة وقوله عز وجل ( وكأين من آية في السموات والأرض يمررن عليها وهم عنها معرضون ) لأن القرآن هو المبين لتلك الآيات في السموات والأرض ، ومهما تجاوزها ولم يتأثر بها كان معرضاً عنها . ولذلك قيل : إن من لم يكن متصفاً بأخلاق القرآن فإذا قرأ القرآن ناداه الله تعالى : مالك وليكلام وانت معرض عنى دع عنك كلامي إن لم تقب إلى . ومثال العاصي إذا قرأ القرآن وكرره مشاك من يكرر كتاب الملك في كل يوم مرات وقد كتب إليه في عصاة مملكته وهو مشغول بتخريبها ومقتصر على دراسة كتابه ؛ فقلعه لو ترك الدراسة عند المخالفة لكان أبعد عن الاستزاء واستحقاق المفت . ولذلك قال يوسف بن اسباط : إني لأهم بقرأة القرآن فإذا ذكرت ما فيه خشيت المفت فأعدل إلى التيسير والاستغفار . والمعرض عن العمل به أريد بقوله عز وجل ( فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون ) ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اقربوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم ولانث له جلودكم فإذا اختلفتم فليست تقروءه — في بعضها — فإذا اختلفتم فقوموا عنه » قال الله تعالى ( الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون ) وقال صلى الله عليه وسلم « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » قال صلى الله عليه وسلم « لا يسمع القرآن من أحد أشبه بمن يخشى الله عز وجل » (٢) يراد لاستجلاب هذه الأحوال إلى القلب والعمل به ، وإلا فالقوة في تحريك اللسان بحروفه خفيفة . ولذلك قال بعض الفراء : قرأت القرآن على شيخ لي ثم رجعت لأقرأ ثانياً فالتزني وقال جملت القرآن على عملا اذهب فأقرأ على الله عز وجل فانظر بماذا بأمرك وبماذا ينالك . بهذا كان شغل

(١) « أنه قال لا بين مسعود أقرأ على ... » تقدم في الباب قبله .

(٢) « اقربوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم ولانث له جلودكم فإذا اختلفتم فليست تقروءه — في بعضها — فإذا اختلفتم فقوموا عنه » متفق عليه من حديث جندب بن عبد الله البجلي في اللفظ الثاني دون قوله « ولانث جلودكم » . (٣) « إن أحسن الناس صوتاً بالقرآن الذي إذا سمعته يقرأ رأيت أنه يخشى الله تعالى » أخرجه ابن ماجة بسند ضعيف .

(٤) « لا يسمع القرآن من أحد أشبه بمن يخشى الله تعالى » رواه أبو عبد الله الحاكم في ذكره أبو القاسم النافق في كتاب فضائل القرآن .

الصحابة رضي الله عنهم في الأحوال والأعمال. فأتى رسول الله ﷺ عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة اختلف في اثنين منهم. وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين، وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم (١)، ولما جاء واحد ليتعلم القرآن فاتته إلى قوله عز وجل ﴿قن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (٢) قال: يكفي هذا وانصرف، فقال ﷺ: انصرف الرجل وهو فقيه. ولما العزير مثل تلك الحالة التي من الله عز وجل بها على قلب المؤمن عقيب فهم الآية. فأما مجرد حركة اللسان فتقيل الجدوى بل التالي باللسان المعرض عن العمل جدير بأن يكون هو المراد بقوله تعالى ﴿من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضحكا ونحشره يوم القيامة أعمى﴾ وبقوله عز وجل ﴿كذلك أتتك أبايتا قنسيتهما وكذلك اليوم تنسى﴾ أي تركتها ولم تنظر إليها ولم تعبأ بها فإن المقصر في الأمر يقال إنه نسي الأمر وتلاوة القرآن حتى تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب؛ لحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحفظ العقل تفسير المعاني وحفظ القلب الاتعاط والتأثر بالأنوار والآثار. فاللسان يرثل والعقل يترجم والقلب يتعظ.

(التاسع) الترقى: وأقبح به أن يترقى إلى أن يسمع الكلام من الله عز وجل لا من نفسه. فدرجات القراءة ثلاث: أداؤها: أن يقدر المقدس كأنه يقرؤه على الله عز وجل واقعاً بين يديه وهو ناظر إليه ومستمع منه: فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتضرع والابتال. الثانية: أن يشهد بقلبه كان الله عز وجل يراه ويخطبه بألفاظه ويناجيه بأنعامه وإحسانه فقامه الحياء والتظيم والإصغاء والفهم. الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي السمكات الصفات، فلا ينظر إلى نفسه ولا إلى قراءته ولا إلى تعاقب الإنعام به من حيث إنه منهم عليه بل يكون مقصور الهم على التكلم موقوف الفكر عليه كأنه مستغرق بمشاهدة المتكلم غير. وهذه درجة المقلين وما قبله درجة أصحاب اليقين وما خرج من هذا فهو درجات الغافلين. وعن الدرجة العليا أخبر جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه قال: والله لقد تجلّى الله عز وجل خلقه في كلامه ولستكم لا يبصرون: وقال أيضاً وقد سأله عن حالة لحقته في الصلاة حتى خرم مغشياً عليه فلما سري عنه قيل له في ذلك فقال: ما زلت أردد الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم

(١) «مات رسول الله صلى الله عليه وآله تعالى على آلِهِ وسلم عن عشرين ألفاً من الصحابة لم يحفظ القرآن منهم إلا ستة - اختلف في اثنين منهم - وكان أكثرهم يحفظ السورة والسورتين وكان الذي يحفظ البقرة والأنعام من علمائهم» قلت: «مات عن عشرين ألفاً» لعله أراد بالبلدية وإلا فقد رويناه عن أبي زرعة الرازي أنه قال: قبض عن مائة ألف وأربعة عشر ألفاً من الصحابة ممن روى عنه وسمع منه انتهى. وأما من حفظ القرآن في عهده ففي الصحيحين من حديث أنس قال «جمع القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة - كلهم من الأنصار - أبي بن كعب ومعاذ ابن جبل وزيد وأبو زيد» قلت: ومن أبو زيد؟ قال: أحد عمومتى وزاد ابن أبي شيبة كما صنف من أربعة من رواية الشعبي مرسل وأبو الدرداء وسعيد بن عبيد وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر «استقرئوا القرآن من أربعة من عبد الله بن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب» وروى ابن الأثير بسنده إلى عمر قال «كان الفاضل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر هذه الأمة يحفظ من القرآن السورة ونحوها...» وسنده ضعيف وللتزمذي وحسنه من حديث أبي هريرة قال «بث رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثا وهم ذو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل رجل مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدتهم سنا فقال مامعك يا فلان قال مئى كذا وكذا، وسورة البقرة فقال أملك سورة البقرة؟ قال: نعم، قال: اذهب فأنت أميرهم...»

(٢) «الرجل الذي جاء ليتعلم فاتته إلى قوله تعالى ﴿قن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ فقال يكفي هذا وانصرف، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: انصرف الرجل وهو فقيه» أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عبد الله بن عمرو قال «أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أقرئني يا رسول الله...» وفيه «فأقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا زلزلت الأرض حتى فرغ منها فقال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهما أبداً. ثم أدبر الرجل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح الروييل أفلح الروييل» ولأحمد والنسائي في الكبرى من حديث مصعب عم الفرزدق أنه صاحب القصة فقال «حسي لأبالي أن لا أسمع غيرها».

بها فلم يثبت جسمي لمائة قدرته . ففي مثل هذه الدرجة تنظم الخلوة ولذة المناجاة . ولذلك قال بعض الحكماء : كنت أقرأ القرآن فلا أجد له حلاوة حتى تلوته كافي أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلوه على أحماء به ، ثم رفعت إلى مقام فوقه كنت أتلوه كافي أسمعه من جبريل عليه السلام يلقه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جاء الله بمنزلة أخرى فأنا الآن أسمعه من المتكلم به فعندها وجدت له لذة ونعما لا أصبر عنه . وقال عثمان وحذيفة رضي الله عنهما : لو طهرت القلوب لم تشبع من قراءة القرآن ، وإنما قالوا ذلك لأنهم بالطهارة ترقى إلى مشاهدة المتكلم في الكلام . ولذلك قال ثابت البناني : كابدت القرآن عشرين سنة وتعمت به عشرين سنة . وبمشاهدة المتكلم دون ماسواه يكون العبد مثلاً لقوله عز وجل ﴿ ففروا إلى الله ﴾ ولقوله تعالى ﴿ ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر ﴾ فمن لم يره في كل شيء فقد رأى غيره وكل ما ألقت إليه العبد سوى الله تعالى تضمن التفاته شيئاً من الشرك الخفي . بل التوحيد الخالص أن لا يرى في كل شيء إلا الله عز وجل .

( العاشر ) التبرى : وأعني به أن يتبرأ من حوله وقوته والالتفات إلى نفسه بين الرضا والتزكية . فإذا تلا آيات الوعد والمدح للصالحين فلا يشهد نفسه عند ذلك بل يشهد الموقنين والصدّيقين فيها ويتشوف إلى أن يلحقه الله عز وجل بهم ، وإذا تلا آيات المقت وذم العصاة والمقصرين شهد على نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً . ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما يقول اللهم إني أستغفرك لظلمي وكفري ، ف قيل له : هذا الظلم فما بال الكفر فلا قوله عز وجل ﴿ إن الإنسان لظالم كفار ﴾ وقيل ليوسف بن أسباط : إذا قرأت القرآن بماذا تدعو ؟ فقال بماذا أدعو ! أستغفر الله عز وجل من نفسي سيئ مرة . فإذا رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان رؤيته سبب قرب . فإن من شدد البعد في القرب لطف به في الخوف حتى يسوقه الخوف إلى درجة أخرى في القرب وادها ومن شهد القرب في البعد مكربه بالأمن الذي يفضيحه إلى درجة أخرى في البعد أسفل مما هو فيه . ومهما كان مشاهداً نفسه بعين الرضا صار محبوباً بنفسه ، فإذا جاوز حد الالتفات إلى نفسه ولم يشاهد إلا الله تعالى في قراءته كشف له سر الملكوت . قال أبو سليمان الداراني رضي الله تعالى عنه : وعد ابن ثوبان أما له أن يفعل عنده فأبطأ عليه حتى طلع الفجر فبقية أخوه من الغد فقال له : وعدتي أنك تفعل عندي فأخلفت فقال لولا ميمادي معك ما أخبرتك الذي حبسني عنك ! إني لما صليت العتمة قلت : أو ترقب أن أجيئك فأني لا آمن ما يحدث من الموت فلما كنت في الدهاء من الوتر رفعت إلى روضة غصراء فيها أنواع الزهر من الجنة فأزلت أنظر إليها حتى أصبحت . وهذه المكاشفات لا تكون إلا بعد التبرى عن النفس وعدم الالتفات إليها وإلى هواها ثم تخصص هذه المكاشفات بحسب أحوال المكاشف بحيث يتلو آيات الرجاء ويلب على حاله الاستيقار تنكشف له صورة الجنة فيشاهدها كأنه يراها عياناً وإن غلب عليه الخوف كوشف بالناظر حتى يرى أنواع عذابها ، وذلك لأن كلام الله عز وجل يشتمل على السهل اللطيف والشديد المسوف والمرجو والخوف وذلك بحسب أوصافه ؛ إذ منها الرحمة واللطف والاتقان والبخش . فبحسب مشاهدة الكلمات والصفات يتقلب في اختلاف الحالات وبحسب كل حالة منها يستعد للكشفة بأمر يناسب تلك الحالة ويقاربها ؛ إذ يستحيل أن يكون حال المستمع واحد والمسموع مختلفاً إذ فيه كلام راض وكلام غضبان وكلام منعم وكلام منقم . وكلام جبار متكبر لا يبالي وكلام حنان متعطف لا يهمل .

### الباب الرابع

#### في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

أملك تقول : عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه



فكيف يستحب ذلك وقد قال ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (١) ؟ وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف من المقصرين المنسوين إلى التصوف في تأويل كتابات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين وذهبوا إلى أنه كفر فإن صح ما قاله أهل التفسير فما معنى فهم القرآن سوى حفظ تفسيره ؟ وإن لم يصح ذلك فما معنى قوله ﷺ « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ؟ فاعلم أن من رعم أن لا معنى للقرآن إلا ما رجه ظاهر التفسير فهو مخبر عن حد نفسه وهو مصيب في الإخبار عن نفسه ، ولكنه غلط في الحكم برد الحاق كافة إلى درجته التي هي حده وعطله . بل الإخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم (٢) قال على رضى الله عنه : إلا أن يؤتى الله عبداً فيما في القرآن . فإن لم يكن سوى الترجمة المنقولة فما ذلك الفهم ؟ وقال ﷺ « إن للقرآن ظهراً وباطناً وحداً ومطلقاً » (٣) ويروى أيضاً عن ابن مسعود موقوفاً عليه وهو من علماء التفسير . فما معنى الظاهر والباطن والحد والمطلق ؟ وقال على كرم الله وجهه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فما معناه وتفسير ظاهرها في غاية الاختصار ؟ وقال أبو الدرداء : لا يفقه الرجل حتى يجمل للقرآن وجوهاً . وقد قال بعض العلماء : لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر . وقال آخرون : القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ لكل كلمة علم . ثم يضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلق . وترديد رسول الله ﷺ « بسم الله الرحمن الرحيم عشرين مرة » (٤) لا يكون إلا لتدبره باطن معانيها وإلا فترجمتها وتفسيرها ظاهر لا يحتاج مثله إلى تكرير . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : من أراد علم الأولين والآخرين فليتدر القرآن . وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر . وبالجملة فالعلوم كلها داخلية في أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته . وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها ، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن ، وبمجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك ، بل كل ما أشكل فيه على النظر واختلف فيه الخلائق في النظريات والمقولات في القرآن ليس رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها ، فكيف يفي بذلك ترجمة ظاهره وتفسيره ؟ ولذلك قال ﷺ « اقرأوا القرآن واتقوا غرائب » (٥) وقال ﷺ في حديث على كرم الله وجهه « والذي بعثني بالحق نبياً لتفترق أمتي عن أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله عز وجل فإن فيه نبأ من كان قبلكم ونبأ ما يأتي بعدكم وحكم ما ينشكم ، من خالفه من الجبابرة فسمه الله عز وجل ومن ابتغى السلم في غيره أضله الله عز وجل وهو حبل الله المتين وتوره اليبين وشفاؤه النافع ، عصمة لمن تمسك به ونجاة لمن اتبعه لا يوجع فيقوم ولا يزيغ فيستقيم ولا ينقض عجايبه ولا يخلفه كثرة التردد » (٦) الحديث

#### الباب الرابع : في فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل

- (١) « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » تقدم في الباب الثالث من العلم .
- (٢) « الأخبار والآثار الدالة على أن في معاني القرآن متسعا لأرباب الفهم » تقدم قول على في الباب قبله « إلا أن يؤتى الله عبداً فيما في كتابه » .
- (٣) « إن للقرآن ظهراً وباطناً وحداً ومطلقاً » تقدم في قواعد العقائد .
- (٤) « تكرير النبي عليه الصلاة والسلام البسملة عشرين مرة » تقدم في الباب قبله .
- (٥) « اقرأوا القرآن واتقوا غرائب » أخرجه ابن أبي شيبة في اللصنف وأبو يعلى الوصل والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة بلفظ « أقرأوا » وسنده ضعيف .
- (٦) حديث على « والذي بعثني بالحق لتفترق أمتي على أصل دينها وجماعتها على اثنين وسبعين فرقة كلها ضالة مضلة يدعون إلى النار فإذا كان ذلك فعليكم بكتاب الله فإن فيه نبأ من كان قبلكم ... » بطوله هو عند الترمذي دون ذكر اقتراح الأمة بلفظ « ألا إنها ستكون فتنة مضلة قلت ما المخرج منها يارسول الله قال كتاب الله فيه نبأ من كان قبلكم » فذكره مع اختلاف وقال غريب وإسناده مجهول .

وفي حديث حذيفة « لما أخبره رسول صلى الله عليه وسلم بالاختلاف والفرقة بعده قال : فقلت يا رسول الله فساد تأمرني إن أدركت ذلك ؟ فقال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه فهو المخرج من ذلك ، قال : فأعدت عليه ذلك ثلاثاً ، فقال ﷺ ثلاثاً : تعلم كتاب الله عز وجل واعمل بما فيه ففيه النجاة (١) » وقال على كرم الله وجهه : من فهم القرآن فسر به جهل العلم ، أشار به إلى أن القرآن يشير إلى مجامع العلوم كلها . وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ) يعني الفهم في القرآن . وقال عز وجل ( ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً ) عليهما صلى الله عليه وسلم ما آتاهما علياً وحكماً وخصص ما انفرد به سليمان بالتفطن له باسم الفهم وجعله مقدماً على الحكم والعلم . فبهذه الأمور تدل على أن في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه . فأما قوله ﷺ : من فسر القرآن برأيه ونهيه عنه ﷺ (٢) وقول أبي بكر رضي الله عنه أي أرض تقفني وأرى سماء تطاني إذا قلت في القرآن برأىي ؟ إلى غير ذلك مما ورد في الأخبار والآثار في النهي عن تفسير القرآن بالرأى ، فلا يخلو إيمان أن يكون المراد به الاختصار على النقل والمسموع وترك الاستنباط والاستقلال بالفهم ، أو المراد به أمراً آخر .

وباطل قطعاً أن يكون المراد به أن لا يتكلم أحد في القرآن إلا بما يسمعه لوجوه :  
( أحدها ) أنه يشترط أن يكون مسموعاً من رسول الله ﷺ ومُسند إليه وذلك بما لا يصادف إلا في بعض القرآن . فأما ما يقوله ابن عباس وابن مسعود من أنفسهم فينبغي أن لا يقبل ويقال هو تفسير بالرأى لأنهم لم يسمعه من رسول الله ﷺ وكذا غيرهم من الصحابة رضي الله عنهم .

( والثاني ) أن الصحابة والمفسرين اختلفوا في تفسير بعض الآيات فقالوا فيها أقوال مختلفة لا يمكن الجمع بينها ، وسامع جميعها من رسول الله ﷺ حال ، ولو كان الواحد مسموعاً لرد الباقي ، فتبين على القطع أن كل مفسر قال في المعنى بما ظهر له باستنباطه ، حتى قالوا في الحروف التي في أوائل السور سبعة أقوال مختلفة لا يمكن الجمع بينها فقول : إن «الر» هي حروف من الرحمن ، وقيل إن الألف الله واللام لطيف والراء رحيم وقيل غير ذلك ، والجمع بين السكك غير ممكن فكيف يكون الكل مسموعاً ؟

( والثالث ) أنه ﷺ « دعا لابن عباس رضي الله عنه وقال : اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل (٣) » فإن كان التأويل مسموعاً كالتأويل ومحفوظاً مثله فما معنى تخصيصه بذلك ؟

( والرابع ) أنه قال عز وجل « لعلمه الذي يستنبطونه منهم » فأثبت لأهل العلم استنباطاً ، ومعلوم أنه وراء السماع وجعله مانعاً من الآثار في فهم القرآن يناقض هذا الخيال فيطُل أن يشترط السماع في التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله . وأما النهي فإنه ينزل على أحد وجهين : أحدهما : أن يكون له في الشيء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح عرضه ، ولولم يكن له ذلك الرأى والهوى لسكان لا يلوح له من القرآن ذلك المعنى . وهذا تارة يكون مع العلم كالذي يحتاج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ولكن يلبس به على خصمه . وتارة يكون مع الجهل وسكن إذا كانت الآية محتملة فيحمل فهمه إلى الوجه الذي يوافق غرضه ويرجح ذلك الجانب برأيه وهواه ،

(١) حديث حذيفة في الاختلاف والفرقة بعده « فقلت تأمرني إن أدركت ذلك ؟ قال : تعلم كتاب الله واعمل بما فيه ... » أخرجه أبو داود والنسائي في الكبرى وفيه « تعلم كتاب الله واتبع ما فيه — ثلاث مرات — » .

(٢) « التبي عن تفسير القرآن بالرأى » غريب .

(٣) حديث دعائه لابن عباس « اللهم فقهِه في الدين وعلمه التأويل » تقدم في الباب الثاني من العلم .

فيكون قد فسر برأيه أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يرجع عنده ذلك الوجه . وتارة قد يكون له غرض صحيح فيطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه كنى يدعو إلى الاستغفار بالأخبار فيستدل بقوله **﴿تَسْحَرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَةً﴾** (١) . ويضع أن المراد التسخير بالذكر وهو يعلم أن المراد به الأكل ، وكذلك يدعو إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول قال الله عز وجل **﴿اذْهَبْ إِنَّ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾** ويشير إلى قلبه ويؤىء إلى أنه المراد بفِرْعَوْنَ وهذا الجنس قد يستعمله بعض الوعاظ في المقاصد الصحيحة تحسينا للسلام وترغيبا للمستمع وهو متنوع . وقد تستعمله الباطنية في المقاصد الفاسدة لتثوير الناس ودعوتهم إلى مذهبهم الباطل فينبزولن القرآن على وفق رأيهم ومذهبهم على أمور يعلمون قطعاً أنها غير مرادة به ، فلهذه الفنون أحد وجهي المنع من التفسير بالراى . ويكون المراد بالراى الراى الفاسد الموافق للهوى دون الاجتهاد الصحيح والراى يتناول الصحيح والفاسد والموافق للهوى قد ينحصر باسم الراى والوجه الثانى أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالساج والنقل فيما يتعاقب بفرائب القرآن وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة وما فيه من الاختصار والحذف والإختار والتقديم والتأخير .

فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعانى بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زهرة من يفسر بالراى فالنقل والساج لابد منه في ظاهر التفسير أولا ليتق به مواضع الغلط ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط . والغرائب التى لا يفهم إلا بالساج كثيرة ، ونحن نرمز إلى جعل منها ليستدل بها على أمثالهـا ويـعلم أنه لا يجوز التاوان بحفظ التفسير الظاهر أولا ، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر .

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن يدعى البلوغ إلى صدر البيت قبل مجاوزة الباب . أو يدعى فهم مقاصد الأتراك من كلامهم وهو لا يفهم لغة الترك . فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لا بد منها للفهم .

وما لابد فيه من الساج فنون كثيرة منها الإيجاز بالحذف والإختصار كقوله تعالى **﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلُّوا بِهَا﴾** معناه آتت بمبصرة فظللوا أنفسهم بقتلها ؛ فالناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد به أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن حمياء . ولم يدر أنهم بماذا ظلموا غيرهم أو أنفسهم . وقوله تعالى **﴿وَأَشْرَوْا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾** أى حب العجل بخلف الحب وقوله عز وجل **﴿إِذَا لَذُتْكَ لَظْفُ الْحَيَاةِ وَنَعْفُ الْمَمَاتِ﴾** أى ضعف عذاب الأحياء وضعف عذاب الموتى ، لخلف العذاب ، وأبدل الأحياء والموتى بذكر الحياة والموت وكل ذلك جائز في فصيح اللغة . وقوله تعالى **﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾** أى أهل القرية وأهل العير . فالأهل فيها محذوف مضمحل . وقوله عز وجل **﴿فَلَقْتُ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾** معناه خفيت على أهل السموات والأرض ، والشئ إذا غنى ثقل فأبدل اللفظ به وأقيم في مقام **﴿على﴾** وأضرر الأهل وحذف . وقوله تعالى **﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْذِبُونَ﴾** أى شكر رزقكم وقوله عز وجل **﴿آتَا مَا وَعَدَنَا عَلَى رَسُولِكَ﴾** أى على السنة رسلك ؛ لخلف أسنة وقوله تعالى **﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾** أراد القرآن وما سبق له ذكر . وقال عز وجل **﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾** أراد الشمس وما سبق لها ذكر . وقوله تعالى **﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَنْعِيهِمْ إِلَّا يَقْرَبُوا إِلَى اللَّهِ ذُلُّنِ﴾** أى يقربون ما نعيدهم . وقوله عز وجل **﴿قَالَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** وما أصابك من سيئة فمن نفسك . معناه لا يفقهون حديثا يقولون ما أصابك من حسنَةٍ فإن الله أنزلها كما كان مناقضا **﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾** وسبق إلى الفهم منه مذهب القدريـة . ومنها المنقول المتقلب كقوله تعالى **﴿وَطُورَ سِينِينَ﴾** أى طور

(١) « تسحروا فإن في السحور بركة » تقدم في الباب الثالث من العلم .

سيناء ﴿سلام على آل يانين﴾ أى على الياس وقيل لإدريس ؛ لأن فى حرف ابن مسعود ﴿سلام على إدريس﴾ ومنها المكرر القاطع لوصول الكلام فى الظاهر كقوله عز وجل ﴿وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن﴾ وقوله عز وجل ﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا من آمن منهم﴾ معناه : الذين استكبروا لمن آمن من الذين استضعفوا ومنها المقدم والمؤخر وهو مظنة الغلط كقوله عز وجل ﴿ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى﴾ معناه لولا الكلمة وأجل مسمى لكان لزاما ولولا لكان نصبا كاللزام وقوله تعالى ﴿يسألوكك كالك حتى عنها﴾ أى يسألونك عنها كالك حتى بها . وقوله عز وجل ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ كما أخرجه ربك من بيتك بالحق ﴿فهذا الكلام غير متصل وإنما هو عائد إلى قوله السابق ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾ كما أخرجه ربك من بيتك بالحق أى فصارت أنفال الغنائم لك إذ أنت راض بخروجك وهم كلهم فاعترض بين الكلام الأمر بالتقوى وغيره ومن هذا النوع قوله عز وجل ﴿حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ - لا أقول إبراهيم لأبيه ﴿الآية﴾ ومنها المهم وهو اللفظ المشترك بين معان من كلمة أو حرف . أما الكلمة فسكانى والقرين والأمة والروح ونظائرها قال الله تعالى ﴿ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء﴾ أراد به النفقة مما رزق وقوله عز وجل ﴿وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء﴾ أى الأمر بالعدل والاستقامة . وقوله عز وجل ﴿إن أنتم متقى فلا تسألى عن شيء﴾ أراد به من صفات الربوبية . وهو العلوم التى لا يحل السؤال عنها حتى يتبدى بها المعارف فى أوان الاستحقاق . وقوله عز وجل ﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾ أى من غير خلق فرمى بآتهم به أنه يدل على أنه لا يخلق شيء إلا من شيء . وأما القرين فكقوله عز وجل ﴿وقال قرينه هذا مالى عتيد لقيتني بهم كل كفار﴾ أراد به الملك الموكل به وقوله تعالى ﴿قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان﴾ أراد به الشيطان وأما الأمة فتعلق على ثمانية أوجه ، الأمة : الجماعة كقوله تعالى ﴿وجعله آمنة من الناس يسقون﴾ وأتباع الأنبياء كقوله عز وجل ﴿إن الله عليه وسلم ورجل جامع للخير يقتدى به كقوله تعالى ﴿إن إبراهيم كان أمة قاتلناه﴾ والأمة : الذين كقوله عز وجل ﴿إننا وجدنا آباءنا على أمة﴾ والأمة : الحين والزمان كقوله عز وجل ﴿إلى أمة معدودة﴾ وقوله عز وجل ﴿واذكر بعد أمة﴾ والأمة : القائمة يقال فلان حسن الأمة أى القائمة ، وأمة : رجل منفرد بدين لا يشرك فيه أحد قال صلى الله عليه وسلم «يعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده»<sup>(١)</sup> والأمة : الأم يقال هذه أمة زيد أى أم زيد . والروح أيضا ورد فى القرآن على معان كثيرة فلا نطول بإيرادها . وكذلك قد يقع الإيهام فى الحروف مثل قوله عز وجل ﴿فأثرن به﴾ فمعنى فوسطن به جمعا . فالهاء الأولى : كناية عن الحوافر وهى الموريات أى أغرن بالحوافر فمعنا ، والثانية : كناية عن الإغارة وهى المفريات فصعبا فوسطن به جماع المشركون فأغاروا جميعهم وقوله تعالى ﴿فأزلفنا به الماء﴾ بمعنى السحاب ﴿فأخرجنا به من كل الثمرات﴾ يعنى الماء . وأمثال هذا فى القرآن لا ينحصر . ومنها التدرج فى البيان كقوله عز وجل ﴿شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن﴾ إذ لم يظهر به أنه ليل أنوار ، وبأن بقوله عز وجل ﴿إننا أنزلناه فى ليلة مباركة﴾ ولم يظهر به أى ليلة فظهر بقوله تعالى ﴿لنا أنزلناه فى ليلة القدر﴾ وربما يظن فى الظاهر الاختلاف بين هذه الآيات ؛ فهذا وأمثاله مما لا يفتى فيه إلا النقل والسماع فالقرآن من أوله إلى آخره غير خال عن هذا الجنس لأنه أنزل بلغة العرب فكان مشتملا على أصناف كلامهم من إيجاز وتطويل وإحداث وجذف وإبدال وتقديم وتأخير ، ليكون ذلك مفعما لهم ومعجرا فى حقهم . فكل من اكتفى بفهم ظاهر العربية وبأدنى تفسير القرآن ولم يستظهر بالسماع والنقل فى هذه الأمور فهو داخل فىمن قسر القرآن برأيه . مثل أن يفهم من الأمة المعنى الأشهر منه فيميل طبعه ورأيه إليه فإذا سمعه فى موضع آخر مال برأيه إلى سمعه من مشهور

(١) «يعث زيد بن عمرو بن نفيل أمة وحده» أخرجه النسائى والكبرى من حديث زيد بن حارثة وأما بنت أبى بكر بإسنادين جيدين .

معناه وترك تتبع النقل في كثير معانيه فهذا ما يمكن أن يكون منبها عنه دون التفهم لأسرار المعاني - كما سبق - فإذا حصل السماع بأمثال هذه الأمور علم ظاهر التفسير وهو ترجمة الألفاظ ، ولا يمكن ذلك في فهم حقائق المعاني . ويدرك الفرق بين حقائق المعاني وظاهر التفسير بمثال : وهو أن الله عز وجل قال ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ فظاهره تفسير واضح وحقيقة معناه غامض . فإنه إثبات للرؤى ونفى له . وهما متضادان في الظاهر مالم يفهم أنه رمى من وجه ولم يرم من وجه ومن الوجه الذي لم يرم رماه الله عز وجل . وكذلك قال تعالى ﴿ فأنزلهم بعنهم الله بأيديكم ﴾ فإذا كانوا هم المقاتلين كيف يكون الله سبحانه هو المذهب ؟ وإن كان الله تعالى هو المذهب بتحريك أيديهم فإ معنى أمرهم بالقتال ؟ حقيقة هذا يستمد من بحر عظيم من علوم المكاشفات لا يفنى عنه ظاهر التفسير وهو أن يعلم وجه ارتباط الأفعال بالقدرة الحادثة . ويفهم وجه ارتباط القدرة بقدرة الله عز وجل حتى يتكشف - بعد إيضاح أمور كثيرة غامضة - صدق قوله عز وجل ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ ولعل المرء لو أفق في استكشاف أسرار هذا المعنى وما يرتبط بمقدماته ولواحقه لانقضى العمر قبل استيفاء لراحته وما من كلمة من القرآن إلا وتحققها مخرج إلى مثل ذلك . وإنما يتكشف للأسرخين في العلم من أسرارهم بقدر غزارة علومهم وصفاء قلوبهم وتوفر دواعيهم على التدبر وتجردهم للطلب . ويكون لكل واحد حد في الترقى إلى درجة أعلى منه . فأما الاستيفاء فلا مطمع فيه ولو كان البحر مدادا والأشجار أقلاما فأسرار كلمات الله لا نهاية لها فتتفد الأبحر قبل أن تنفذ كلمات الله عز وجل فمن هذا الوجه تتفاوت الخلق في الفهم بعد الاشتراك في معرفة ظاهر التفسير وظاهر التفسير لا يفنى عنه . ومثاله فهم بعض أرباب القلوب من قوله ﷺ في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمافانك من عقوبتك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك (١) أنه قيل له اسجد واقترب فوجد القرب في السجود فنظر إلى الصفات فاستأذ ببعضها من بعض ؟ فإن الرضا والسخط وصفان ثم زاد قربهما فاندراج القرب الأول فيه فرقى إلى الذات فقال « أعوذ بك منك » ثم زاد قربهما بما استحيا به من الاستعاذة على بساط القرب فالتجأ إلى الإثناء فأثنى بقوله « لا أحصى ثناء عليك » ثم علم أن ذلك قصور فقال « أنت كما أثنيت على نفسك » فهذه خواطر تفتح لأرباب القلوب . ثم لها أغوار وراء هذا وهو فهم معنى القرب واختصاصه بالسجود ومعنى الاستعاذة من صفة بصفة ومنه به . وأسرار ذلك كثيرة . ولا يدل تفسير ظاهر اللفظ عليه وليس هو مناقضا لظاهر التفسير بل هو استكمال له ووصول إلى لبابه عن ظاهره فهذا ما توردته لفهم المعاني الباطنة لآما يناقض الظاهر والله أعلم . ثم كتاب : آداب التلاوة . واخذ الله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين وعلى كل عبد مصطنع من كل العالمين وعلى آل محمد وصحبه وسلم . يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب : الأذكار والدعوات . والله المستعان لأرب سواه .

## كتاب الاذكار والدعوات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الشاملة وألفه العامة رحمة الذي جازى عباده عن ذكرهم بذكره فقال تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾

(١) « قوله صلى الله عليه وسلم في سجوده أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمافانك من عقوبتك ... » أخرجه مسلم من حديث عائشة .



تضرب به حتى ينقطع ، ثم تضرب بحتى ينقطع <sup>(١)</sup> » وقال عليه السلام : « من أحب أن يرتع في رياض الجنة فليكثر ذكر الله عز وجل <sup>(٢)</sup> » وسئل رسول الله ﷺ : « أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تموت ولسانك وطب بذكر الله عز وجل <sup>(٣)</sup> » وقال عليه السلام : « أصبح وأمس ولسانك وطب بذكر الله تصبىح وتمسى وليس عليك خطيئة <sup>(٤)</sup> » وقال عليه السلام : « لذكر الله عز وجل بالعداة والعشى أفضل من حطم السيف في سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً <sup>(٥)</sup> » وقال عليه السلام : « يقول الله تبارك وتعالى إذا ذكرنى عبدى في نفسه ذكرته في نفسى وإذا ذكرنى فى ملا ذكرته فى ملا خير من ملته وإذا تقرب منى شبرا تقربت منه ذواعا وإذا تقرب منى ذواعا تقربت منه باعا وإذا مشى إلى هرواوت إليه <sup>(٦)</sup> » حتى بالهرولة سرعة الإجابة . وقال عليه السلام : « سبعة يظلمهم الله عز وجل يظلمه يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه من خشية الله <sup>(٧)</sup> » وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ : « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الورق والذهب وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربون أعناقهم ويضربون أعناقكم ؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : ذكر الله عز وجل دائماً <sup>(٨)</sup> » وقال عليه السلام : « قال الله عز وجل من شغله ذكرى عن مسأتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين <sup>(٩)</sup> » . وأما الآثار فقد قال الفضيل : بلغنا أن الله عز وجل قال : عبدى اذكرنى بعد الصبح ساعة وبعد العصر ساعة أكفك ما بينهما . وقال بعض العلماء : إن الله عز وجل يقول : أما عبد اطلمت على قلبه فرأيت الغالب عليه التسك بذكرى تولى سياسة وكنت جليسه ومحادته وأنيسه . وقال الحسن : الذكر ذكران ، ذكر الله عز وجل بين نفس وبين الله عز وجل وما أحسنه وأعظم أجره وأفضل من ذلك ذكر الله سبحانه عندما حرم الله عز وجل . ويروى « إن كل نفس تخرج من الدنيا عطشى إلا ذاكرة الله عز وجل » وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : ليس يتحسر أهل الجنة على شئ إلا على ساعة مرت بهم لم يذكروا الله سبحانه فيها ، والله تعالى أعلم .

- (١) « ما عمل ابن آدم من عمل أنجى له من عذاب الله من ذكر الله قالوا يا رسول الله ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال ولا الجهاد فى سبيل الله إلا أن تضرب بسيفك حتى ينقطع ثلاث مرات » أخرجه بن أبى شبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بإسناد حسن (٢) « من أحب أن يرتع فى رياض الجنة فليكثر ذكر الله تعالى » أخرجه ابن أبى شبة فى المصنف والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف ورواه الطبرانى من حديث أنس وهو عند الترمذى بلفظ « إذا مررت برياض الجنة فارتعوا » وقد تقدم فى الباب الثالث من العلم (٣) « سئل أى الأعمال أفضل ؟ قال أن تموت ولسانك وطب من ذكر الله تعالى » أخرجه أبو جبان والطبرانى فى الدعاء والبيهقى فى الشعب من حديث معاذ (٤) « أمس وأصبح ولسانك وطب بذكر الله تصبىح وتمسى وليس عليك خطيئة » أخرجه أبو القاسم الأصبهاني فى الترغيب والترهيب من حديث « من أصبح وأمس ولسانه وطب من ذكر الله يمسى ويصبح وليس عليه خطيئة » وفيه من لا يعرف (٥) « لذكر الله بالعداة والعشى أفضل من حطم السيف فى سبيل الله ومن إعطاء المال سحاً » وروناه من حديث أنس بسند ضعيف فى الأصل وهو معروف من قول ابن عمر كما رواه ابن عبد البر فى التمهيد . (٦) « قال الله عز وجل إذا ذكرنى عبدى فى نفسه ذكرته فى نفسى ... » متفق عليه من حديث أبى هريرة . (٧) « سبعة يظلمهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله - من جملتهم - رجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » متفق عليه من حديث أبى هريرة أيضاً (٨) « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم... » أخرجه الترمذى والحاكم وابن ماجه وصححه إسناده من حديث أبى الدرداء (٩) « قال الله تعالى من شغله ذكرى عن مسأتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » أخرجه البخارى فى التاريخ والزار فى السند والبيهقى فى الشعب من حديث عمر بن الخطاب عن ابن أبى الصفا ذكره ابن جبان فى الضعفاء وفى الثقات أيضاً .





## فضيلة التهليل

قال عليه السلام «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» (١) وقال عليه السلام «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت حرزاً له من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك» (٢) وقال عليه السلام «ما من عبد توفناً فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة يدخل من أيها شاء» (٣) وقال عليه السلام «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في نشورهم كآني أنظر إليهم عند الصيحة ينفضون رؤوسهم من التراب ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور» (٤) وقال عليه السلام «يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فبين كان لا إله إلا الله أرجح من ذلك» (٥) وقال عليه السلام «لو جاء قائل لا إله إلا الله صادقاً بقراب الأرض ذنوباً لغفر الله له ذلك» (٦) وقال عليه السلام «يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب هدماً، قلت: يا رسول الله هذا للموتى فكيف للأحياء؟ قال عليه السلام: هي أهدم وأهدم» (٧) وقال «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» (٨) وقال عليه السلام «لندخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد عن الله عز وجل شراد البعير عن أهله فقيل: يا رسول الله من الذي أبى ويشرد عن الله قال من لم يقل لا إله إلا الله» (٩)، فأكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم

- (١) «أفضل ما قلته أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله ...» تقدم في الباب الثاني من الحج.
- (٢) «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير مائة مرة ...» متفق عليه من حديث أبي هريرة. (٣) «ما من عبد توفناً فأحسن الوضوء ثم رفع طرفه إلى السماء فقال أشهد أن لا إله إلا الله» أخرجه من حديث عقبة بن عامر وقد تقدم في الطهارة. (٤) «ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في النشور ...» أخرجه أبو يعلى والطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ضعيف.
- (٥) «يا أبا هريرة إن كل حسنة تعملها توزن يوم القيامة إلا شهادة أن لا إله إلا الله فإنها لا توضع في ميزان؛ لأنها لو وضعت في ميزان من قالها صادقاً ووضعت السموات السبع والأرضون السبع وما فبين كانت لا إله إلا الله أرجح من ذلك» قلت وصية أبي هريرة هذه موضوعة، وآخر الحديث رواه المستغفرى في الدعوات «ولو جعلت لا إله إلا الله» وهو معروف من حديث أبي سعيد مرفوعاً «لو أن السموات السبع وعمارهن غيري والأرضين السبع في كفة مالت بهن لا إله إلا الله» رواه النسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم ومصححه.
- (٦) «لو جاء حامل لا إله إلا الله صادقاً بقراب الأرض ذنوباً لغفر الله له» غريب بهذا اللفظ. وللمتذم في حديث أنس «يقول الله يا بن آدم إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة» ولأبي الشيخ في التواب من حديث أنس «يارب ماجزاء من هلك مخلصاً من قلبه قال جزاؤه أن يكون كيوم ولدته أمه من الذنوب» وفيه انقطاع. (٧) «يا أبا هريرة لقن الموتى شهادة أن لا إله إلا الله فإنها تهدم الذنوب ...» أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من طريق أبي هريرة وفيه موسى ابن وردان مختلف فيه ورواه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في المختصرين من حديث الحسن مرسل.

- (٨) «من قال لا إله إلا الله مخلصاً دخل الجنة» أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف.
- (٩) «لندخلن الجنة كلكم إلا من أبى وشرد على الله شرود البعير على أهله» أخرجه البخاري «كل أمق يدخلون الجنة إلا من أبى» زاد الحاكم ومصححها «وشرد على الله شرود البعير على أهله» قال البخاري «قالوا يا رسول الله ومن أبى قال من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى» ولابن عدي وأبي يعلى والطبراني في الدعاء من حديث «أكثرُوا من قول لا إله إلا الله قبل أن يحال بينكم وبينها» وفيه ابن وردان أيضاً ولأبي الشيخ في التواب من حديث الحكم بن عمير التميمي مرسل «إذا قلت لا إله إلا الله وهي كلمة التوحيد ... والحكم ضعيف، ولأبي بكر بن =

وبينها فإنها كلمة التوحيد والإخلاص وهي كلمة التقوى وهي كلمة العلية وهي دعوة الحق وهي العروة الوثقى وهي من الجنة « وقال الله عز وجل ( هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ) فقيل الإحسان في الدنيا قول لا إله إلا الله وفي الآخرة الجنة . وكذا قوله تعالى ( للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ) وروى البراء بن عازب أنه رضي الله عنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير - عشر مرات - كانت له عدل رقبة أو قال نسمة <sup>(١)</sup> » وروى عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده أنه قال قال النبي ﷺ « من قال في يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير لم يسقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد كان بعده إلا من عمل بأفضل من عمله <sup>(٢)</sup> » وقال ﷺ « من قال في سوق من الأسواق لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير كتب الله له ألف ألف حسنة وعما عنه مثلها سيئات وبني له بيتا في الجنة » ويروى « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أنت إلى مصيبتك فلا تمر على خطيئة إلا محنتها حتى تجدد حسنة مثلها فتجلس إلى جنبها <sup>(٣)</sup> » وفي الصحيح عن أيوب عن النبي ﷺ أنه قال « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ﷺ » وفي الصحيح أيضا عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ أنه قال « من تعالى من الليل فقال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، ثم قال : اللهم اغفر لي غفر له أو دعا استجيب له فإن توشأ وصلى فبات صلاته <sup>(٤)</sup> » .

### فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال ﷺ « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين وحمد ثلاثا وثلاثين وكبر ثلاثا وثلاثين ونغم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر <sup>(١)</sup> » وقال ﷺ « من قال سبحان الله ومحمده في اليوم مائة مرة حطت عنه خطايا وإن كانت مثل زبد البحر <sup>(٢)</sup> » وروى « أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال : تولت عن الدنيا وقلت ذات يدي فقال النبي ﷺ فأين أنت من

الضحاك في التماثل من حديث ابن مسعود في إجابة المؤذن « اللهم رب هذه الدعوة المجابة المستجاب لها دعوة الحق وكلمة الإخلاص » ولابن عدي من حديث ابن عمر في إجابة المؤذن « دعوة الحق » وللطبراني في الدعاء عن عبد الله بن عمرو « كلمة الإخلاص لا إله إلا الله ... » وللطبراني من حديث سلمة بن الأكوع « وألزمهم كلمة التقوى قال : لا إله إلا الله » وللطبراني في الدعاء عن ابن عباس « كلمة طيبة قال شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه في قوله « دعوة الحق » قال « شهادة أن لا إله إلا الله » وله عنه « قد استمسك بالعروة الوثقى قال « لا إله إلا الله » ولابن عدي والمستغفر من حديث أنس « نحن الجنة لا إله إلا الله » ولا يصح شيء منها . (١) حديث البراء « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... » أخرجه الحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين وهو في مسند أحمد دون قوله « عشر مرات » (٢) حديث عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده « أنه صلى الله عليه وسلم قال من قال في كل يوم مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... » أخرجه أحمد بلفظ « مائة » وكذا رواه الحاكم في المستدرک وإسناده جيد وهكذا هو في بعض نسخ الإحياء (٣) « إن العبد إذا قال لا إله إلا الله أنت إلى مصيبتك فلا تمر على خطيئة إلا محنتها حتى يمدح حسنة مثلها فتجلس إليها » أخرجه أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف (٤) حديث أبي أيوب « من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل » متفق عليه (٥) حديث عبادة بن الصامت « من تمار من الليل فقال لا إله إلا الله ... » رواه البخاري (٦) « من سبح دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين ... » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة (٧) « من قال سبحان الله ومحمده مائة مرة حطت خطايا وإن كانت مثل زبد البحر » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ؟ قال : قلت وماذا يا نبي الله ؟ قال : قل سبحان الله وبحمده سبحان العظيم استغفر الله مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى تولى الصبح تأنيك الدنيا راغمة صاغرة ويخفق الله من كل كلمة مسلماً يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه (١) » وقال عليه السلام « إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والسابعة إلى الأرض السفلى فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله عز وجل سل تعطه (٢) » وقال رفاعة الزرق « كنا نصلي وراء النبي صلى الله عليه وآله وسلم فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه صلى الله عليه وآله وسلم : ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، فلما انصرف النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن صلاته قال : من المتكلم آنفا ؟ قال : أنا يا رسول الله ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لقد رأيت بضعة عشر مسلماً يتدرونها أيهم يكتبها أولاً (٣) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله أو جز ولا حول ولا قوة إلا بالله (٤) » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر (٥) » رواه ابن عمر وروى الثعالب بن بشير عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده ينعتقون حول العرش لمن دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبهم أولاً يحب أحدكم أن لا يزال عند الله ما يذكر به (٦) » وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وآله وسلم قال : « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس (٧) » وفي رواية أخرى زاد : « لا حول ولا قوة إلا بالله وقال هي خير من الدنيا وما فيها » وقال صلى الله عليه وآله وسلم « أحب الكلام إلى الله تعالى أربع : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر لا يضررك بآمين بدأت (٨) » رواه سمرة بن جندب . وروى أبو مالك

(١) « أن رجلاً جاء إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال تولى عن الدنيا وقلت ذات يدي فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام فأين أنت عن صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون ... » أخرجه المستغفرى في الدعوات من حديث ابن عمر وقال غريب من حديث مالك ولا أعرف له أصلاً في حديث مالك والأحمد من حديث عبد الله بن عمر « أن نوحاً قال لابنه آدمك بلا إله إلا الله ... » ثم قال « وسبحان الله وبحمده فلها صلاة كل شيء وبها يرزق الخلق » وإسناده صحيح .

(٢) « إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض وإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء والسابعة إلى الأرض وإذا قال الحمد لله الثالثة قال تعالى سل تعطه » غريب بهذا اللفظ لم أجده .

(٣) حديث رفاعة الزرق « كنا يوماً نصلي وراء النبي عليه الصلاة والسلام فلما رفع رأسه من الركوع وقال سمع الله لمن حمده قال رجل وراءه ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ... » رواه البخاري . (٤) « الباقيات الصالحات هن لا إله إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه النسائي في اليوم والليالي وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة دون قوله « ولا حول ولا قوة إلا بالله » . (٥) « ما على الأرض رجل يقول لا إله إلا الله والله أكبر وسبحان الله والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله إلا غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر » أخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمر وقال صحيح على شرط مسلم وهو عند الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليالي مختصراً دون قوله « سبحان الله والحمد لله » .

(٦) حديث الثعالب بن بشير « الذين يذكرون من جلال الله وتسبيحه وتكبيره وتحميده وتهليله وتحميده ينعتقون حول العرش له دوى كدوى النحل يذكرون بصاحبه ... » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه على شرط مسلم .

(٧) حديث أبي هريرة « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحب إلى مما طلعت عليه الشمس » وزاد في رواية « ولا حول ولا قوة إلا بالله وقال خير من الدنيا وما فيها » أخرجه مسلم باللفظ الأول وللمستغفرى في الدعوات من رواية مالك بن دينار « أن أبا أمامة قال للنبي صلى الله عليه وسلم قلت سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر خير من الدنيا وما فيها قال أنت أغنى القوم » وهو مرسل جيد الإسناد .

(٨) حديث سمرة بن جندب « أحب الكلام إلى أربع ... » رواه مسلم .

الأشعري أن النبي ﷺ كان يقول « الطهور شعار الإيمان والحمد لله تملأ الميزان وسبحان الله أكبر يملأ ما بين السماء والأرض والصلاة نور والصدقة برهان والصبر ضياء والقرآن حجة لك أو عليك ، كل الناس يغدو فبائع نفسه فموقبها أو مشتر نفسه فمعتقها » (١) وقال أبو هريرة : قال النبي ﷺ « كلتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (٢) وقال أبو ذر رضي الله عنه « قلت لرسول الله ﷺ : أي الكلام أحب إلى الله عز وجل قال ﷺ : ما أصطفى الله تعالى الملائكة ، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » (٣) وقال أبو هريرة قال النبي ﷺ « إن الله أصطفى من الكلام : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر » (٤) فإذا قال العبد : سبحان الله ، كتب له عشرون حسنة وتحط عنه عشرون سيئة ، وإذا قال : الله أكبر ، مثل ذلك وذكر إلى آخر الكلمات « وقال جابر : قال النبي ﷺ من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » (٥) وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال : قال الفقراء لرسول الله ﷺ « ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصل ويصومون كما نصوم ويتصدقون بفضول أموالهم ، فقال : أوليس قد جعل لكم ما تصدقون به ؟ إن بكل تسليحة صدقة وتبليغة صدقة وتكبير صدقة ونهى عن منكر صدقة ، وبضع أحكم للثمة في أهله فهي له صدقة ، وفي بضع أحكم صدقة . قالوا : يا رسول الله يأتي أعدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ فقال ﷺ : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ قالوا : نعم . قال : كذلك إن وضعها في الحلال كان له فيها أجر » (٦) وقال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه : قلت لرسول الله ﷺ « سبق أهل الأموال بالأجر ، يقولون ما نقول ولا نثق ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفلا أدلك على عمل إذا أنت عمته أدركت من قبلك وفقت من بعدك إلا من قال مثل قولك ؟ تسبح الله بعد كل صلاة ثلاثا وثلاثين ، وتحمده ثلاثا وثلاثين ، وتكبر أربعا وثلاثين » (٧) وروى بسرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « عليكم بالتسبيح والتبجيل والتقديس فلا تغفلن واعتدن بالأنامل فإنها مستطقات » (٨) يعني بالشهادة في القيامة . وقال ابن عمر : رأيت النبي ﷺ يعقد التسبيح » (٩) . وقد قال ﷺ فيها شهد عليه أبو هريرة وأبو سعيد الخدري : « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله عز وجل : صدق عبدي ، لا إله إلا أنا وأنا أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له قال تعالى : صدق عبدي لا إله إلا أنا وحدي لا شريك لي ، وإذا قال : لا إله إلا الله ولا حول ولا

(١) حديث أبي مالك الأشعري « الطهور تشطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان ... » رواه مسلم وقد تقدم في الطهارة

(٢) حديث أبي هريرة « كلتان خفيفتان على اللسان ... » متفق عليه . (٣) حديث أبي ذر « أي الكلام أحب إلى الله قال ما أصطفى الله الملائكة سبحان الله العظيم » رواه مسلم أبو داود والنسائي « قوله سبحان الله العظيم » .

(٤) « إن الله أصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ... » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد إلا أنهما قالوا في ثواب الحمد لله « كتبت له ثلاثون حسنة وحطت عنه ثلاثون سيئة » . (٥) حديث جابر « من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة » أخرجه الترمذي وقال

حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط مسلم وصححه . (٦) حديث أبي ذر « قال الفقراء لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصل ويصومون كما نصوم » رواه مسلم .

(٧) حديث أبي ذر « قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم سبق أهل الأموال بالأجر يقولون كما نقول وينفقون ولا تنفق ... » رواه ابن ماجه إلا أنه قال : قال سفيان لا أدري أيهن أربع ، ولأحمد في هذا الحديث « وتحمده أربعا وثلاثين » وإسناده جيد ولأبي الشيخ في الثواب من حديث أبي الدرداء « وتكبر أربعا وثلاثين » كما ذكر المصنف

(٨) حديث بسرة « عليكم بالتسبيح والتبجيل والتقديس ولا تغفلن واعتدن بالأنامل فإنها مستطقات » أخرجه أبو داود والترمذي والحاكم بإسناد جيد . (٩) حديث ابن عمر « رأيت النبي ﷺ يعقد التسبيح » قلت إنما هو عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه الحاكم .

إلا بالله يقول الله سبحانه صدق عبدي لا حول ولا قوة إلا بالله ومن قاله عند الموت لم تحسه النار (١) وروى مصعب ابن سعد عن أبيه عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة فقيل : كيف ذلك يا رسول الله ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : يسبح الله مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة ويحط عنه ألف سيئة (٢) » . وقال صلى الله عليه وسلم « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كثر من كنوز الجنة قال : بلى قال : قل لا حول ولا قوة إلا بالله (٣) » وفي رواية أخرى « ألا أدلك على كنز تحت العرش : لا حول ولا قوة إلا بالله » وقال أبو هريرة : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أدلك على عمل من كنوز الجنة من تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله تعالى أسلم عبدي واستسلم (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يصبح رضىته بالله ربا وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً ورسولاً كان حقاً على الله أن يرضيه يوم القيامة (٥) » وفي رواية « من قال ذلك رضى الله عنه » وقال مجاهد : إذا خرج الرجل من بيته فقال : بسم الله قال الملك : هديت . فإذا قال : نولت على الله ، قال الملك : كفيت . وإذا قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ، قال الملك : وقيت فتفرق عنه الشياطين فيقولون ما تريدون من رجل قد هدى وكفى ووقى ؟ لا سبيل لكم إليه . فان قلت : فما بال ذكر الله سبحانه مع خفته على اللسان وقلة التعب فيه صار أفضل وانفع من جملة العبادات مع كثرة المشقات فيها ؟ فاعلم أن تحقيق هذا لا يليق إلا بعلم المكاشفة . والقدر الذي يسبح به ذكره في علم المعاملة : أن المؤثر النافع هو الذكر على الدوام مع حضور القلب فأما الذكر باللسان والقلب لاه فهو قليل الجدوى . وفي الأخبار ما يدل عليه أيضاً (٦) وحضور القلب في لحظة بالذكر والذهول عن الله عز وجل مع الاشتغال بالدنيا أيضاً قليل الجدوى بل حضور القلب مع الله تعالى على الدوام أو في أكثر الأوقات هو المقدم على العبادات بل به تشرف سائر العبادات وهو غاية ثمرة العبادات العملية . والذكر أول وآخر ، فأوله يوجب الأنا والحب وآخره يوجب الأنا والحب ويصدر عنه . والمطلوب ذلك الأنا والحب . فإن المريد في بداية أمره قد يكون متكلفاً بصرف قلبه ولسانه الوسواس إلى ذكر الله عز وجل . فان وفق للمداومة أنس به وانفرد في قلبه حب المذكور ، ولا ينبغي أن يتعجب من هذا فان من المشاهد في العبادات أن تذكر غالباً غير مشاهد بين يدي شخص وتكرر ذكر خصاله عنده فيحبه وقد يعشق بالوصف وكثرة الذكر . ثم إذا عشق بكثرة الذكر المتكافؤ أولاً صار مضطراً إلى كثرة الذكر آخراً بحيث لا يصبر عنه . فان من أحب شيئاً أكثر من ذكره . ومن أكثر ذكر شيء - وإن كان تكلفاً - أحبه . فيمكنك أول الذكر متكلف إلى أن يثمر الأنا بالمذكور والحب له ثم يتمتع الصبر عنه آخره فيصير الموجب موجبا

(١) حديث أبي هريرة وأبي سعيد « إذا قال العبد لا إله إلا الله والله أكبر قال الله صدق عبدي ... » أخرجه الترمذى وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم ومصححه (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه « أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة ... » أخرجه مسلم إلا أنه قال « أو يحط » كما ذكره المصنف وقال حسن صحيح (٣) « يا عبد الله بن قيس - أو يا أبا موسى - ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة قال بلى قال لا حول ولا قوة إلا بالله » متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة « عمل من كنز الجنة ومن تحت العرش قول لا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدي واستسلم » أخرجه الترمذى في اليوم والليلة والحاكم « من قال سبحان الله وأجلده ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله يقول الله أسلم عبدي واستسلم » وقال صحيح الإسناد . (٥) « من قال حين يصبح رضىته بالله ربا ... » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث خادم النبي صلى الله عليه وسلم ورواه الترمذى من حديث ثوبان وحسنه وفيه نظر فيه سعد بن الربان ضعيف جداً (٦) « الدال على أن الذكر والقلب لاه قليل الجدوى » أخرجه الترمذى وقال حسن والحاكم وقال حديث مستقيم الإسناد من حديث أبي هريرة « واعلموا أن الله لا يقبل الدعاء من قلب لاه » .

والنجر مشعرا . وهذا معنى قول بعضهم : كابت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . ولا يصدر التمتع إلا من الأنس والحب ولا يصدر الأنس إلا من المداومة على المسكابد والتسكف مدة طويلة حتى يصير التسكف طبعاً . فكيف يستبعد هذا وقد يتكلف الإنسان تناول طعام يستشبهه أولاً ويكابد أكله ويواطب عليه فيصير موافقاً لطبعه حتى لا يصير عنه فالتفصيص معتادة متحملة لما يتكلف . هي النفس ماعودتها تعود . أى ما كلفتها أولاً يصير لها طبعاً آخر . ثم إذا حصل الأنس بذكر الله سبحانه انقطع عن غير ذكر الله وما سوى الله عز وجل والذى يفارقه عند الموت فلا يبقى معه في القبر أهل ولا مال ولا ولد ولا ولاية ولا يبقى إلا ذكر الله عز وجل . فإن كان قد أنس به تمتع به وتلذذ بانقطاع العوائق الصارفة عنه إذ ضرورات الحاجات في الحياة الدنيا تصد عن ذكر الله عز وجل ، ولا يبقى بعد الموت عائق ، فكأنه خلى بينه وبين محبوبه فغطت فبطته وتخلص من السجن الذى كان ممنوعاً فيه عما به أنسه . ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة (١) » أراد به كل ما يتعلق بالدنيا فإن ذلك يبقى في حقه بالموت فـ « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وإنما نفث الدنيا بالموت في حقه إلى أن نفث في نفسها عند بلوغ الكتاب أجله . وهذا الأنس يتلذذه العبد بعد موته إلى أن ينزل في جوار الله عز وجل ويترقى من الذكر إلى اللقاء . وذلك بعد أن يعثر مافي القبور ويحصل مافي الصدور ولا ينسكب بقاء ذكر الله عز وجل معه بعد الموت فيقول إنه أعدم فكيف يبقى معه ذكر الله عز وجل ؟ فإنه لم يعد عدما يتمتع الذكر بل عدما من الدنيا وعالم الملك والشهادة ومن عالم الملوكوت . وإلى ما ذكرناه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة » (٢) وبقوله صلى الله عليه وسلم « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر » (٣) ويقول صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين « يا فلان يا فلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فأنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً » (٤) فسمع عمر رضى الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله كيف يسمعون وأنى يجيبون وقد جيفوا ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : والذى نفسى بيده ما أتم بأسمع لكلامى منهم ولا يقدرون أن يجيبوا » والحديث في الصحيح . هذا قوله عليه السلام في المشركين فأما المؤمنين والشهداء فقد قال صلى الله عليه وسلم « أرواحهم في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش » (٥) وهذه الحالة وما أشير بهذه الألفاظ إليه لا يثافي ذكر الله عز وجل وقال تعالى ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ﴾ الآية ولأجل شرف ذكر الله عز وجل عظمت رتبة الشهادة لأن المطلوب للحاتمة ونفى بالحاقمة وداع الدنيا والقنوم على الله والقلب مستغرق بالله عز وجل منقطع العلائق

- (١) « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فإنك مفارقة » تقدم في الكتاب السابع من العلم .  
 (٢) « القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من الجنة » أخرجه الترمذى من حديث أبى سعيد بتدقيقه وتأخير وقال غريب . قلت فيه عيبه الله بن الوليد الرصاصى ضعيف . (٣) « أرواح الشهداء في حواصل طيور خضر » أخرجه مسلم من حديث ابن مسعود « أنه سئل عن هذه الآية ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ﴾ الآية قال : أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال في جوف طير خضر فلم يسم فيه النبي صلى الله عليه وسلم » وفي رواية الترمذى « أما إنا سألنا عن ذلك فأخبرنا » وذكر صاحب الفردوس أن ابن منيع صرح برفعه في مسنده . (٤) « نداه لقتلى بدر من المشركين يا فلان يا فلان وقد سماهم النبي صلى الله عليه وسلم هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فأنى وجدت ما وعدنى ربي حقاً » أخرجه مسلم من حديث أنس . (٥) « أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش » أخرجه ابن ماجه من حديث كعب بن مالك « إن أرواح المؤمنين في طير خضر تملق يشجر الجنة » وروى النسائي بلفظ « إنما نسمة المؤمن الطائر » ورواه الترمذى بلفظ « أرواح الشهداء » وقال حسن صحيح .

عن غيره فإن قدر عبد على أن يجعل همه مستغرقا بآفة عز وجل فلا يقدر على أن يموت على تلك الحالة إلا في صف القتال . فإنه قطع الطمع عن مهجته وأهله وماله وولده بل من الدنيا كله فإنه يريد بها حياته وقد هون على قلبه حياته في حب الله عز وجل وطلب مرضاته فلا تجرد لله أعظم من ذلك . ولذلك عظم أمر الشهادة وورد فيه من الفضائل ما لا يحصى فن ذلك أنه لما استشهد عبد الله بن عمرو الأنصاري يوم أحد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك يا جابر ! قال : بلى يشرك الله بالخير قال : إن الله عز وجل أحيا أباك فأقده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى : نحن على ما بعدى ما شئت أعطيك فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل : سبق القضاء متى بأنهم إليها لا يرجعون<sup>(١)</sup> » ثم القتل سبب الخاتمة على مثل هذه الحالة فإنه لو لم يقتل بريق مدة ربما عادت شهوات الدنيا إليه وغلبت على ما استولى على قلبه من ذكر الله عز وجل ولهذا عظم خوف أهل المعرفة من الخاتمة . فإن القلب وإن ألزم ذكر الله عز وجل فهو متقلب لا يخلو عن الالتفات إلى شهوات الدنيا ولا ينفك عن فترة تمتريه . فإذا تمثل في آخر الحال في قلبه أمر من الدنيا والحالة هذه فيوشك أن يبقى استيلاؤه عليه فيمنع بعد الموت إليه ويخنى الرجوع إلى الدنيا . وذلك لقلة حظه في الآخرة إذ يموت المرء على ما عاش عليه ويمشعر على ما مات عليه . فاسأل الأحوال عن هذا الخطر خاتمة الشهادة إذا لم يكن قصد الشهيد نيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك<sup>(٢)</sup> كما ورد به الخبر بل حب الله عز وجل وإعلاء كلمته فهذا الحالة التي عبر عنها (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ومثل هذا الشخص هو البائع الدنيا بالآخرة وحالة الشهيد توافق معنى قولك « لا إله إلا الله » فإنه لا مقصود له سوى الله عز وجل وكل مقصود معبود وكل معبود إلا فهذا الشهيد قائل بلسان حاله « لا إله إلا الله » إذ لا مقصود له سواء . ومن يقول ذلك بلسانه ولم يساعده حاله فأمره في مشيئة الله عز وجل ولا يؤمن في حقه الخطر . ولذلك فضل رسول الله ﷺ قول لا إله إلا الله على سائر الأذكار<sup>(٣)</sup> وذكر ذلك مطلقا في مواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الترغيب . ثم ذكر في بعض المواضع الصدق والإخلاص فقال مرة « من قال لا إله إلا الله غلظا ومعنى الإخلاص مساعدة الحال للقول . فنسأل الله تعالى أن يجعلنا في الخاتمة من أهل لا إله إلا الله حالا ومقالا ظاهرا وباطنا حتى نودع الدنيا غير متلفتين إليها بل متبرمين بها وبحبين لقاء الله فان من أحب لقاء الله أحب لقاء الله ومن كره لقاء الله كره لقاء الله فلهذه مرام من المعاني الذكر التي لا يمكن الزيادة عليها في علم المعاملة .

### الباب الثاني : في آداب الدعاء وفضله وفضل بعض الأدعية المأثورة

وفضيلة الاستغفار والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

#### فضيلة الدعاء

قال الله تعالى ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي ﴾ وقال تعالى

(١) « ألا أبشرك يا جابر قال بلى يشرك الله بالخير قال إن الله أحيا أباك وأقده بين يديه وليس بينه وبينه ستر فقال تعالى نحن على ما بعدى ما شئت أعطيك فقال يارب أن تردني إلى الدنيا حتى أقتل فيك وفي نبيك مرة أخرى . فقال عز وجل : سبق القضاء متى بأنهم إليها لا يرجعون » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وصححه إسناده من حديث جابر .

(٢) « الرجل يقال لنيل مال أو أن يقال شجاع أو غير ذلك » متفق عليه من حديث أبي موسى « قال جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال الرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل للمغنم والرجل يقاتل ليرى مكانه فمن في سبيل الله ؟ قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله » .

(٣) « فضيل لا إله إلا الله على سائر الأذكار » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه

( ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين ) وقال تعالى ( وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين ) وقال عز وجل ( قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ) وروى الثيمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال ( إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ ) ( ادعوني استجب لكم ) (١) الآية - وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مع العبادة » (٢) وروى أبو هريرة أنه صلى الله عليه وسلم قال « ليس شيء أكرم على الله عز وجل من الدعاء » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له » (٤) وقال أبو ذر رضى الله عنه : يكفى من الدعاء مع البر ما يكفى الطعام من الملح . وقال ﷺ « سلوا الله تعالى من فضله فإن الله تعالى يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج » (٥) .

### آداب الدعاء وهي عشرة

( الأول ) أن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة كيوم عرفة من السنة ، ورمضان من الأشهر ويوم الجمعة من الأسبوع ، ووقت السحر من ساعات الليل . قال تعالى ( وبالأسماء هم يستغفرون ) وقال صلى الله عليه وسلم « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول عز وجل من يدعوني فأستجب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له » (١) وقيل إن يعقوب صلى الله عليه وسلم إنما قال ( سوف أستغفر لكم ربى ) ليدعو في وقت السحر . فقيل إنه قام في وقت السحر يدعو وأولاده يؤمنون خلفه فأوحى الله عز وجل إليه (إن قد غفرت لهم وجعلتهم أنبياء ) (الثاني) يفتت الأحوال الشريفة . قال أبو هريرة رضى الله عنه : إن أبواب السماء تفتح عند زحف الصفوف في سبيل الله تعالى وعند أول الفتح وعند إقامة الصلوات المكتوبة فأغتموا الدعاء فيها . وقال مجاهد : إن الصلاة جعلت في خير الساعات فعليك بالدعاء خلف الصلوات . وقال صلى الله عليه وسلم « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم أيضاً « الصائم لا ترد دعوته » (٣) وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشاوشات : ويوم عرفة ويوم الجمعة وقت اجتماع الحمم وتعاون القلوب على استدرا رحمة الله عز وجل فهذا أحد أسباب شرف الأوقات سوى ما فيها من أسرار لا يطلع البشر عليها . وحالة السجود أيضاً أجدر بالإجابة قال أبو هريرة رضى الله عنه : قال النبي

### الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله

(١) حديث الثيمان بن بشير « إن الدعاء هو العبادة » أخرجه أصحاب السنن والحاكم وقال صحيح الإسناد وقال الترمذي حسن صحيح . (٢) « الدعاء مع العبادة » أخرجه الترمذي من حديث أنس وقال غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث أبي ليحة . (٣) حديث أبي هريرة « ليس شيء أكرم عند الله من الدعاء » أخرجه الترمذي وقال غريب وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح الإسناد . (٤) « إن العبد لا يخطئه من الدعاء إحدى ثلاث : إما ذنب يغفر له وإما خير يعجل له وإما خير يدخر له » أخرجه الديلمي في الفردوس من حديث أنس وفيه روح . أخرجه ابن مسافر عن أبان بن عياش وكلاهما ضعيف ولأحمد والبخاري في الأدب والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي سعيد « إما تجبل له دعوته وإما أن يدخر له في الآخرة وإما أن يدفع عنه من السوء مثله » . (٥) « سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسأل وأفضل العبادة انتظار الفرج » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حماد ابن واقد ليس بالحافظ قلت وضعفه ابن معين وغيره .

(٦) « ينزل الله كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٧) « الدعاء بين الأذان والإقامة لا يرد » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة والترمذي وحسنه من حديث أنس وضعفه ابن القطاف ورواه في اليوم والليلة بإسناد آخر جيد وابن حبان والحاكم وصححه .

(٨) « الصائم لا ترد دعونه » أخرجه الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي هريرة زيادة فيه .



صلى الله عليه وسلم « أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل وهو ساجد فأكثر وأقرب من الدعاء »<sup>(١)</sup> وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إنّي نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً فأما الركوع فعظموا فيه الرب تعالى وأما السجود فاجتهدوا فيه بالدعاء فإنه قرن أن يستجاب لكم »<sup>(٢)</sup> (الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطيه . وروى جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس »<sup>(٣)</sup> وقال سلمان : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفعوا أيديهم إليه أن يردهما صفراً »<sup>(٤)</sup> وروى أنس أنه صلى الله عليه وسلم « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعيه »<sup>(٥)</sup> وروى أبو هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم مر على إنسان يدعو ويشير بأصبعيه السبائتين فقال صلى الله عليه وسلم أحد أحد<sup>(٦)</sup> « أى أقصر على الواحدة . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : أرفعوا هذه الأيدي قبل أن تغفل بالأغلال ، ثم ينبغي أن يسمح بهما وجهه في آخر الدعاء . قال عمر رضي الله عنه « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يسمح بهما وجهه »<sup>(٧)</sup> وقال ابن عباس « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه »<sup>(٨)</sup> فنهض هيثم اليد ولا يرفع بصره إلى السماء قال صلى الله عليه وسلم « ليتبين أرقام عن رفع إصابعهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم »<sup>(٩)</sup> (الرابع) خفض الصوت بين الخافت والجهر لما روى أن أبا موسى الأشعري قال : قدما مع رسول الله فلما دونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب إن الذي تدعون بينكم وبين أعناق ركابكم<sup>(١٠)</sup> « وقالت عائشة رضي الله عنها في قوله عز وجل ( ولا تبهر بصلاتك ولا تخافت بها ) »<sup>(١١)</sup> أى بدعائك وقد أنى الله عز وجل على نبيه ذكر بآية عليه السلام حيث قال ( إذ نادى ربه نداء خفياً ) وقال عز وجل ( ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ) ( الخامس ) أن لا يكلف السجعة في الدعاء فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع والتكلف لا يناسبه قال صلى الله عليه وسلم « سيكون قوم يعتدون في الدعاء »<sup>(١٢)</sup> وقد قال عز وجل : ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه

- (١) حديث أبي هريرة « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثر ما من الدعاء » رواية مسلم .
- (٢) حديث ابن عباس « إنّي نهيت أن أقرأ القرآن راكعاً أو ساجداً ... » أخرجه مسلم أيضاً .
- (٣) حديث جابر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى الموقف بعرفة واستقبل القبلة ولم يزل يدعو حتى غربت الشمس ... » أخرجه مسلم دون قوله « يدعو » فقال مكانها « واقفا » والنسائي من حديث أسامة بن زيد « كنت ردفه بعرفات فرفع يديه يدعو » ورجاله ثقات . (٤) حديث سلمان « إن ربكم حي كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفراً » أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه وابن ماجه والحاكم وقال إسناده صحيح على شرحهما .
- (٥) حديث أنس « كان يرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه في الدعاء ولا يشير بأصبعه » أخرجه مسلم دون قوله ولا يشير بأصبعه . والحديث متفق عليه لكن مقيد بالاستسقاء . (٦) حديث أبي هريرة « مر على إنسان يدعو بأصبعيه السبائتين فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد أحد » أخرجه النسائي وقال حسن وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد .
- (٧) حديث عمر « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا مد يديه في الدعاء لم يردهما حتى يسمح بهما وجهه » أخرجه الترمذي وقال غريب والحاكم في المستدرک وسكت عليه وهو ضعيف . (٨) حديث ابن عباس « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا دعا ضم كفيه وجعل بطونهما مما يلي وجهه » أخرجه الطبراني في الكبير بسند ضعيف .
- (٩) « ليتبين أرقام عن رفع إصابعهم إلى السماء عند الدعاء أو لتخطفن أبصارهم » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وقال عبد الدعاء في الصلاة . (١٠) حديث أبي موسى الأشعري « يا أيها الناس إن الذي تدعون ليس بأصم ولا غائب » متفق عليه مع اختلاف ، واللفظ الذي ذكره المصنف لأبي داود . (١١) حديث عائشة في قوله تعالى « ولا تبهر بصلاتك ولا تخافت بها » أى بدعائك متفق عليه . (١٢) « سيكون قوم يعتدون في الدعاء » وفي الرواية « والظهور » أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم من حديث عبد الله بن مغفل .

لا يحب المعتدين ﴿ قيل معناه التكليف الأسعاج والأولى أن يجاوز الدعوات المأثورة فإنه قد يبتدى في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحته فأكمل أحد يحسن الدعاء ولذلك روى عن معاذ رضى الله عنه : إن العلماء يحتاج إليهم في الجنة إذ يقال لأهل الجنة تنموا فلا يدرسون كيف يتمنون حتى يتعلموا من العلماء ؛ وقد قال ﷺ « ياكم والسجع في الدعاء حسب أحكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » وفي الخبر : سياتي قوم يمتدون في الدعاء والطهور . ومن بعض السلف بقا صعد يدعو بسجع فقال له : أعلى الله نباله ؟ أشهد لقد رأيت حبيباً المجع يدعو وما يزيد على قوله : اللهم اجمعنا لخيرين اللهم لا تفنصنا يوم القيامة اللهم وفقنا للخير ، والناس يدعون من كل ناحية وراه وكان يعرف بركة دعائه وقال بعضهم : ادع بلسان الذلة والافتقار لا بلسان الفصاحة والانطلاق ويقال إن العلماء والأبطال لا يزيدون في الدعاء على سبع كلمات فادونها ويشده آخر سورة البقرة فإن الله تعالى لم يخبر في موضع من أدعية عباده أكثر من ذلك واعلم أن المراد بالسجع هو التكلف من الكلام فإن ذلك لا يلزم الضراعة والذلة ولا في الأدعية المأثورة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات متوازنة لكنها غير متكلفة كقوله صلى الله عليه وسلم « أسألك الآمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الصلوات والركع أو ليأتمس بلسان التضرع والخشوع من غير سجع وتكلف فالتضرع هو المحبوب عند الله عز وجل (النادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة قال الله تعالى ﴿ إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغياً ورهياً ﴾ وقال عز وجل ﴿ ادعوا ربكم تضرعاً وخفية ﴾ وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه » (السابع) أن يجرم الدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يقل أحدكم إذا دعا اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » وقال صلى الله عليه وسلم « ادعوا الله وأتمموا مقتون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل » وقال سفيان بن عيينة : لا يضمن أحدكم من الدعاء ما يعلم من نفسه فإن الله عز وجل أجاب دعاء شر الخلق إبليس لعنه الله ﴿ إذا قال رب فانظري إلى يوم يبعثون قال إنك من المخترين ﴾ (الثامن) أن يلعن في الدعاء ويكرره ثلاثاً قال ابن مسعود :

(١) « ياكم والسجع في الدعاء بحسب أحكم أن يقول اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل » غريب بهذا السياق للبخاري عن ابن عباس « وانظر السجع من الدعاء فاجتنبه فإني عهدت أصحاب رسول الله عليه الصلاة والسلام لا يفعلون إلا ذلك » وابن ماجه والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد من حديث عائشة « عليك بالسكوا مل » وفيه « وأسألك الجنة ... إلى آخره » .

(٢) « أسألك الآمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقربين الصلوات والركع السجود الوافين باليهود إنك رحيم ودود وإنك تفعل ما تريد » أخرجه الترمذي من حديث ابن عباس « سمعت رسول الله عليه الصلاة والسلام يقول ليلة حين فرغ من صلاته ... فذكر حديثاً طويلاً من جلته هذا » وقال حديث غريب انتهى ، وفيه محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى سوء الحفظ . (٣) « إذا أحب الله عبداً ابتلاه حتى يسمع تضرعه » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس « إذا أحب الله عبداً صب عليه البلاء صبا ... » وفيه « دعه فإن أحب أن أسمع صوته » واللفظ إن من حديث أبي أمامة « إن الله يقول للملائكة انطلقوا إلى عبدي فصبوا عليه البلاء ... » وفيه « فإني أحب أن أسمع صوته » وسندها ضعيف . (٤) « لا يقل أحدكم اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة فإنه لا مكره له » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٥) « إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة فإن الله لا يتعاظمه شيء » أخرجه ابن حبان من حديث أبي هريرة .

(٦) « ادعوا الله وأتمموا مقتون بالإجابة واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلب غافل » أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة وقال غريب والحاكم وقال مستقيم الإسناد فردد به صالح المري وهو أحد زهاد البصرة قلت لكنه ضيف في الحديث .

كان عليه السلام إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا<sup>(١)</sup>» وينبغي أن لا يستعجل الإجابة لقوله **وَيَسْتَجِيبُ** « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول قد دعوت فلم يستجب لي فإذا دعوت فأسأل الله كثيرا فانك تدعو كريما<sup>(٢)</sup> » وقال بعضهم : إن أسأل الله عز وجل منذ عشرين سنة حاجة وما آجاني وأنا أرجو الإجابة سألت الله تعالى أن يوفقي لترك ما لا يعنيني . وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سأل أحدكم ربه مسألة فاعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي ينعمته تتم الصالحات ومن أبطل عنه شيء من ذلك فليقل الحمد لله على كل حال<sup>(٣)</sup> » ( التاسع ) أن يفتح الدعاء بذكر الله عز وجل فلا يبدأ بالسؤال . قال سلمة بن الأكوع « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتح به بقول : سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب<sup>(٤)</sup> » قال أبو سليمان الداراني رحمه الله : من أراد أن يسأل الله حاجة فليبدأ بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم يسأله حاجته ثم يختم بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل يقبل الصلواتين وهو أكرم من أن يدع ما بينهما ، وروى في الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سألت الله عز وجل حاجة فابتدئ بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسئل حاجتين فيقتضى أحدهما ويرد الأخرى<sup>(٥)</sup> » رواه أبو طالب المسكي ( العاشر ) وهو الأدب الباطن وهو الأصل في الإجابة : التوبة ورد المظالم والإقبال على الله عز وجل بكنهه الهمزة فذلك هو السبب القريب في الإجابة . فيروى عن كعب الأحبار أنه قال : أصاب الناس قطعت شديد على عبد موسى رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج موسى بنى إسرائيل يستقي بهم فلم يسقوا حتى خرج ثلاث مرات ولم يسقوا : فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام لا أستجب لك ولا لمن مملك وفيكم تمام ، فقال موسى : يا رب ومن هو حق تخرجه من بيتنا فأوحى الله عز وجل إليه : يا موسى أنا هم من النعمة وأكون ناسما ! فقال موسى لبنى إسرائيل توبوا إلى ربكم بأجمعكم عن النعمة فأتوا فأرسل الله تعالى عليهم الغيث . وقال سعيد بن جبير : قطعت الناس في زمن ملك من ملوك بني إسرائيل فاستسقوا فقال الملك لبنى إسرائيل : ليس الله تعالى علينا السماء أو لنؤذنه قيل له وكيف تقدر أن تؤذيه وهو في السماء ؟ فقال اقل أوليائه وأهل طاعته فيكون ذلك أذى له فأرسل الله تعالى عليهم السماء وقال سفيان الثوري بلغني أن بنى إسرائيل قطعوا سبع سنين حتى أكلوا الميتة من المزابل وأكلوا الأطفال وكانوا كذلك يخرجون إلى الجبال ليكون ويتضرعون ، فأوحى الله عز وجل إلى أنبيائهم عليهم السلام لو مشيتم إلى بأقدامكم حتى تحفى ركبكم وتبلغ أيديكم عتات السماء وتكل السنن من الدعاء فاني لا أجيب لكم داعيا ولا أرحم لكم بأكميا حتى تردوا المظالم إلى أهلها ففعلوا فطروا من يومهم . وقال مالك بن دينار : أصاب الناس في بنى إسرائيل قطعت فخرجوا مرارا فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم أنكم تخرجون إلى بأبدان نجسة وترفعون إلى أكمفا قد سفكنم بها الدماء والملائم بطونكم من الحرام الآن قد اشتد غضبي عليكم وإن زردادوا مني إلا بعدا . وقال أبو الصديق التاجي : خرج سليمان عليه السلام يستسقى فر بنملة لمقاة على ظهرها رافعة قوائمها

- (١) حديث ابن مسعود « كان صلى الله عليه وسلم إذا دعا دعا ثلاثا وإذا سأل سأل ثلاثا » رواه مسلم وأصله متفق عليه
- (٢) « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل فيقول دعوت فلم يستجب لي » متفق عليه من حديث أبي هريرة .
- (٣) « إذا سأل أحدكم مسألة فاعرف الإجابة فليقل الحمد لله الذي ينعمته تتم الصالحات ومن أبطل عنه من ذلك شيء فليقل الحمد لله على كل حال » أخرجه البيهقي في الدعوات من حديث أبي هريرة وللحاكم نحوه من حديث عائشة مختصرا بإسناد ضعيف .
- (٤) حديث سلمة بن الأكوع « ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستفتح الدعاء إلا استفتح به سبحان ربى العلى الأعلى الوهاب » أخرجه أحمد والحاكم وقال صحيح الإسناد قلت فيه عمر بن راشد البخاني ضعه في الجمهور .
- (٥) « إذا سألت الله حاجة فابتدئ بالصلاة على فإن الله تعالى أكرم من أن يسأل حاجتين فيعطى إحداها ويرد الأخرى » لم أجده مرفوعا وإنما هو موقوف على أبي الدرداء .

إلى السماء وهي تقول : اللهم إنا خلقنا من خلقك ولا غنى بنا عن رزقك فلا تملكننا بذنوب غيرنا ، فقال سليمان عليه السلام : ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم ، وقال الأوزاعي : خرج الناس يستسقون فقام بهم بلال بن سعد لحمد الله وأثنى عليه ثم قال يا معشر من حضر أستمع من الإساءة ؟ فقالوا : اللهم نعم ، فقال اللهم إنا قد سمعناك تقول ﴿ ما على المحسنين من سبيل ﴾ وقد أقررنا بالإساءة فهل تكون مغفرتك إلا مثلنا ؟ اللهم فاغفر لنا وارحمنا واسقنا ، فرفع يديه ورفعوا أيديهم فسقوا . وقيل لمالك بن دينار : ادع لنا ربك فقال إنكم تستبطون المطر وأنا أستطو . الحجارة وروى أن عيسى صلوات الله عليه وسلامه خرج يستسقي فلما صجروا قال لهم عيسى عليه السلام : من أصاب منكم ذنباً فليرجع فرجعوا كلهم ولم يبق معه في المفاضة إلا واحد ، فقال له عيسى عليه السلام : أما لك من ذنوب ؟ فقال : والله ما علمت من شيء غير أني كنت ذات يوم أصلي فمرت بي امرأة ففطرت ليها بعمى هذه فلما جاوزتني أدخلت أصبعي في عيني فأنزعتها وبعت المرأة بها ، فقال له عيسى عليه السلام : فادع الله حتى تؤمن على دعائك ، قال فدعا فتجلت السماء سحاباً ثم صبت فسقوا . وقال يحيى النخعي : « أصاب الناس قحط على عهد داود عليه السلام فاختاروا ثلاثة من علمائهم فخرجوا حتى يستسقوا بهم فقال أحدهم : اللهم إنك أنزلت في نوراتك أن نعوذ عن ظلمنا اللهم إنا قد ظلمنا أنفسنا فاعف عنا ، وقال الثاني : اللهم إنك أنزلت في توراتك أن نعطي أرقانا اللهم إنا أرقاؤك فأعفنا ، وقال الثالث : اللهم إنك أنزلت في توراتك أن لا ترد المساكين إذا وقفوا بأبوابنا اللهم إنا مساكينك وقفنا ببابك فلا ترد دعاءنا فسقوا » وقال عطاء السبي : مثعن الغيث فخرجنا نستسقي فإذا نحن بسمدون الجحشون في المبار فنفطر إلى فقال يا عطاء أهذا يوم النشور أو بعشر ما في القبور ؟ فقلت : لا ولكننا مثعن الغيث فخرجنا نستسقي فقال يا عطاء بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية ؟ فقلت : بل بقلوب سماوية فقال : هيأت يا عطاء قل للمتبرجين لا تتهربوا فإن الناقد بصير . ثم رقى السماء بطرفة وقال إلهي وسيدى ومولاي لاتهلك بذاك بذنوب عبادك ولكن بالسرا المسكون من أسمائك وما وارت الحجب من آلائك الا ماسيتئاماً غداً فرانا تحيي به العباد وتروى به البلاد يامن هو على كل شيء قدير ، قال عطاء : فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجاءت بطل كأفواه القرب فولى وهو يقول :

أفلح الزاهدون والعابدون إذ لمولاهم أجاءوا البطونا

أسهروا الأعين العلية حبا فانقضى ليلهم وهم ساهرون

شغلتهن عبادة الله حتى حسب الناس أن فيهم جنونا

وقال ابن المبارك : قدمت المدينة في عام شديد القحط فخرج الناس يستسقون فخرجت معهم إذ أقبل غلام أسود عليه قطعنا خيش قد أترز بإحداهما والقي الأخرى على عاتقه فجلس إلى جنبى فسمعتة يقول لى أخلت الوجوه عندك كثرة الذنوب ومساي الأعمال وقد حبست عنا غيث السماء لتؤدب عبادك بذلك فأسألك يا حليماً ذا أناة يامن لا يعرف عباده منه إلا الجليل أن تسبهم الساعة الساعة فليزل يقول الساعة الساعة حتى اكتست السماء بالانعام وأقبل المطر من كل جانب ، قال ابن المبارك : بحث إلى الفضيل فقال مالى أراك كثيراً ؟ فقلت : أمر سبقتنا إليه غيرنا فتولاه دوننا وقصصت عليه القصة فصاح الفضيل وخر مشتماً عليه ، ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه استسقى بالعباس رضى الله عنه فلما فرغ عمر من دعائه قال العباس : اللهم إنه لم ينزل بلاء من السماء الا بذنوب ولم يكشف إلا بتوبة وقد توجه إلى القوم اليك لمكانى من نبيل صلى الله عليه وسلم نوهبه أيدينا اليك يا للذنوب وتواصينا بالتوبة وأنت

الرأعي لا تهمل الصلاة ولا تدع الكسبر بدار مضيفة فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالتكوير وأنت تعلم السر وأخفى اللهم أغثهم بغيالك قبل أن يقتلوا فهلكوا فإنه لا يباس من روح الله إلا القوم السكافرون قال فما أتم كلامه حتى ارتفعت السماء مثل الجبال .

### فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضله صلى الله عليه وسلم

قال الله تعالى ﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكَ الرُّسُلُ أِنْ كُنَّ لَكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكَ فَتَذَكَّرُوا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ وإن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً وروى أنه ﷺ « جاء والبشرى ترى في وجهه فقال ﷺ إنه جاءني جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمته صلاة واحدة إلا صليت عليه عشرًا ولا يسلم عليك أحد من أمته إلا سلمت عليه عشرًا (١) » وقال ﷺ « من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على فليقل عند ذلك أو ليكثر (٢) » وقال « وإن أولى الناس بي أكرهم على صلاة (٣) » وقال ﷺ « بحسب المؤمن من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي على (٤) » وقال « أكثروا من الصلاة على يوم الجمعة (٥) » وقال ﷺ « من صلى على من أمي كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات (٦) » وقال ﷺ « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والشفاعة يوم القيامة ، حلت له شفاعتي (٧) » وقال رسول الله ﷺ « من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم

(١) « أنه صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى ترى في وجهه فقال أنه جاءني جبريل عليه الصلاة والسلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمته إلا صليت عليه عشرًا ولا يسلم عليك أحد من أمته إلا سلمت عليه عشرًا » أخرجه النسائي وابن حبان من حديث أبي طلحة بإسناد جيد . (٢) « من صلى على صلت عليه الملائكة ما صلى على فليقل عند من ذلك أو ليكثر » أخرجه ابن ماجه من حديث عامر بن ربيعة بإسناد ضعيف والطبراني في الأوسط بإسناد حسن (٣) « إن أولى الناس بي أكرهم على صلاة » أخرجه الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب وابن حبان (٤) « بحسب امرئ من البخل أن أذكر عنده فلا يصلي على » أخرجه قاسم بن أبيع من حديث الحسن بن علي بن هكذا والنسائي وابن حبان من حديث أخيه الحسن « البخل من ذكرت عنده فلم يصلي على » ورواه الترمذي من رواية الحسين بن علي عن أبيه وقال صحيح . (٥) « أكثروا على من الصلاة يوم الجمعة » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث أوس بن أوس وذكره ابن أبي حاتم في العلل وحكى عن أبيه أنه حديث منكر . (٦) « من صلى على من أمي كتب له عشر حسنات ومحيت عنه عشر سيئات » أخرجه النسائي في اليوم والليلة من حديث عمرو بن دينار وزاد فيه « مخلصا من قلبه صلى الله عليه بها عشر صلوات ورفعه بها عشر درجات » وله في السير وابن حبان من حديث أنس نحوه دون قوله « مخلصا من قلبه » ودون ذكر : نحو السيئات . ولم يذكر ابن حبان أيضا رفع الدرجات . (٧) « من قال حين يسمع الأذان والإقامة اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة صل على محمد عبدك ورسولك وأعطه الوسيلة والفضيلة والشفاعة يوم القيامة حلت له شفاعتي » أخرجه البخاري من حديث جابر دون ذكر الإقامة والشفاعة والصلاة على النبي وقال النداء وللمستغفر في الدعوات « حين يسمع الدعاء للصلاة » وزاد بن وهب ذكر الصلاة والشفاعة فيه بسند ضعيف وزاد الحسين بن علي المعمرى في اليوم والليلة من حديث أبي الدرداء ذكر الصلاة فيه وله وللمستغفرى في الدعوات بسند ضعيف من حديث أبي رافع « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمع الأذان » فذكر حديثا فيه « وإذا قال قد قامت الصلاة قال اللهم رب هذه الدعوة التامة ... » وزاد « وتقبل شفاعته في أمته » ونسلم من حديث عبد الله بن عمر « إذا سمعت المؤذن يقولوا مثل ما يقول ثم صلوا على من سألوا الله في الوسيلة » وفيه « فمن سأل الوسيلة حلت عليه الشفاعة » . (٨) « من صلى على في كتاب لم تزل الملائكة تستغفر له مادام اسمي في ذلك الكتاب » أخرجه الطبراني في الأوسط وأبو الشيخ في التواب والمستغفرى في الدعوات من حديث أبي هريرة بسند ضعيف . (٩) « إن في الأرض ملائكة سياحين يبلغوني عن أمتي السلام » تقدم في آخر الحج

« ليس أحد يسلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام »<sup>(١)</sup> و « قيل له يا رسول الله كيف نصلى عليك ؟ فقال قولوا اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وآل إبراهيم وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد »<sup>(٢)</sup> وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سمع بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكى ويقول بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد كان جذع تخطب الناس عليه فلما كثر الناس اتخذت مثبراً لتسميهم نحن الجذع لفراقك حتى جعلت بك عليه فسكن فأمثك كانت أولى بالحنين إليك لما فارقتهم ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن جعل طاعتك طاعته فقال عز وجل ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يغفر لك بالذنوب فقال تعالى ( عفا الله عنك لم أذنت لهم ) بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن بعثك آخر الأنبياء ، وذكرك فى أولهم فقال عز وجل ( وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم ) الآية بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون ياليتنا أطلعنا الله وأطلعنا الرسولا ، بأبى وأنت وأمى يا رسول الله لئن كان موسى بن عمران أعطاه حجرا تنفجر منه الأنهار فاذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى الله عليك ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لئن كان سليمان ابن داود أعطاه الله الريح غدوها شهر ورواحها شهر فاذا بأعجب من البراق حين سربت عليه إلى السماء السابعة ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى الله عليك ، بأبى وأنت وأمى يا رسول الله لئن كان عيسى بن مريم أعطاه الله إحياء الموتى فاذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كنتك وهى مشوبة فقالت لك الذراع لا تأكلنى فأتى مسمومة ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد دعا نوح قومه فقال رب لا تنزل على الأرض من الكافرين ديارا ولو دعوت علينا بمثلها لمسكنا كلنا فلقد وطئ ظهرك وأدمى وجهك وكسرت رباعيتك فأبيت أن تقول إلا خيرا فقلت اللهم اغفر لى ولقوى فإنهم لا يعلمون ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لقد أتبعك فى قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحا فى كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل ، بأبى أنت وأمى يا رسول الله لو لم تجالس إلا كفؤا لك ما جالسنا ولو لم تتكلم إلا كفؤا لك ما تكلمت إلينا ولو لم توال كل إلا كفؤا لك ما واكلنا فلقد والله جالسنا ونكحت إلينا وواكلنا ولبست الصوف وركبت الحمار وأردفت خلفك ووضعت طعامك على الأرض ولعقت أصابعك تواضعا منك صلى الله عليك وسلم<sup>(٣)</sup> وقال بعضهم : كنت أكتب

(١) « ليس أحد سلم على إلا رد الله على روحى حتى أرد عليه السلام » أخرجه أبو داود من حديث أبى هريرة بسند جيد (٢) « قيل له يا رسول الله كيف نصلى عليك قال قولوا اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته ... » متفق عليه من حديث أبى حميد الساعدى . (٣) حديث عمر « فى حين الجذع ونبع الماء من بين أصابعه والإسراء به على البراق إلى السماء السابعة ثم صلاة الصبح من ليله بالأبطح وكلام الشاة المسمومة وأنه دعى وجهه وكسرت رباعيته فقال اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون وأنه لبس الصوف وركب الحمار وأردف خلفه ووضع طعامه بالأرض ولقى أصابعه » وغريب بطوله من حديث عمر وهو معروف من أوجه أخرى لحديث حنين الجذع متفق عليه من حديث جابر وابن عمر ، وحديث نبع الماء من بين أصابعه متفق عليه من حديث أنس وغيره وحديث الإسراء متفق عليه من حديث أنس دون ذكر صلاة الصبح بالأبطح ، وحديث كلام الشاة للمسمومة رواه أبو داود من حديث جابر وفيه انقطاع ، وحديث أنه دعى وجهه وكسرت رباعيته متفق عليه من كلام سهل بن سعد فى غزوة أحد ، وحديث اللهم اغفر لقوى فإنهم لا يعلمون رواه البيهقى فى دلائل النبوة والحديث فى الصحيح من كلام ابن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم حكاه عن نبي من الأنبياء ضربه قومه ، وحديث لبس الصوف رواه الطيالسى من كلام سهل بن سعد ، وحديث ركوبه الحمار وإردافه خلفه متفق عليه من كلام أسامة بن زيد . ووضع طعامه بالأرض رواه أحمد فى الزهد من كلام الحسن مرسلًا والبخارى من حديث أنس ما كل رسول الله صلى الله عليه وسلم على خوان قط ، وحديث لعقه أصابعه رواه مسلم من حديث كعب بن مالك وأنس بن مالك .

الحديث وأصله على النبي صلى الله عليه وسلم فيه ولا أسلم فرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال لي : أما تتم الصلاة على في كتابك ؟ فما كتبت بعد ذلك إلا صليت وسلمت عليه . وروى عن أبي الحسن قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقلت : يا رسول الله بم جودى الشافعي عنك حيث يقول في كتابه الرسالة « وصلى الله على عبدك كما ذكره الذّاكرون وغفل عن ذكره الغافلون ؟ » فقال صلى الله عليه وسلم جودى عنى انه لا يوقف للحساب .

### فضيلة الاستغفار

قال الله عز وجل ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ﴾ وقال علقمة والأسود قال عبد الله مسعود رضى الله عنهم : في كتاب الله عز وجل آيات ما أذنّب عبد ذنباً فقرأها واستغفر الله عز وجل إلا غفر الله تعالى له ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ﴾ الآية وقوله عز وجل ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾ وقال عز وجل ﴿ تسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ﴾ وقال تعالى ﴿ والمستغفرين بالأسحار ﴾ وكان صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم (١) . وقال صلى الله عليه وسلم « من أكثر من الاستغفار جعل الله عز وجل له من كل هم فرجاً ومن كل ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » (٣) . هذا مع أنه صلى الله عليه وسلم غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وقال صلى الله عليه وسلم « إنه ليغان على قلبي حتى إني أستغفر الله تعالى في كل يوم مائة مرة » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو المحى القيوم وأتوب إليه ثلاثة مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر - أو عدد رمل عالج أو عدد ورق الشجر أو عدد أيام الدنيا - » (٥) وقال صلى الله عليه وسلم في حديث آخر « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الرحف » (٦) وقال حذيفة : كنت ذرب اللسان على أهلى فقلت « يا رسول الله لقد خشيت أن يدخلني لسان النار ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فأين أنت من الاستغفار ؟ فإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة » (٧) وقالت عائشة رضى الله عنها : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوب إلى الله فإن التوبة من الذنب التدم والاستغفار » (٨) وكان صلى الله

(١) « كان النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يكثر أن يقول سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي إنك أنت التواب الرحيم » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح إن كان أبو عبيدة سمع من أبيه والحديث متفق عليه من حديث عائشة « أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه وسجوده » دون قوله « إنك أنت التواب الرحيم » .  
(٢) « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ومن كل غم مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن عباس وضعفه ابن حبان .  
(٣) « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة » أخرجه البخارى من حديث أبي هريرة إلا أنه قال « أكثر من سبعين » وهو في الدعاء للطبراني كما ذكره المصنف .

(٤) « إنه ليغان على قلبي حتى إني لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة » أخرجه مسلم من كلام الأغر .

(٥) « من قال حين يأوى إلى فراشه استغفر الله الذى لا إله إلا هو المحى القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله له ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر . . . » أخرجه الترمذى من كلام أبي سعيد وقال غريب لا نعرفه إلا من كلام عبد الله ابن الوليد الوصافى ، قلت الوصافى وإن كان ضعيفاً فقد تابعه عليه عصام بن قدامة وهو ثقة رواه البخارى في التاريخ دون قوله « حين يأوى إلى فراشه » وقوله « ثلاثة مرات » . (٦) « من قال ذلك غفرت ذنوبه وإن كان فاراً من الرحف » أخرجه أبو داود والترمذى من حديث زيد مولى النبي صلى الله عليه وسلم وقال غريب قلت ورجاله موثقة ورواه ابن مسعود وقال صحيح على شرط الشيخين . (٧) حديث حذيفة « كنت ذرب اللسان على أهلى ... » وفيه « أين أنت من الاستغفار » أخرجه النسائي في اليوم والليلة وابن ماجه والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين .  
(٨) حديث عائشة « إن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله فإن التوبة من الذنب التدم والاستغفار » متفق عليه دون قوله =

عليه وسلم يقول في الاستغفار « اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطي وعمدي وكل ذلك عبيدك اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير (١) » وقال علي رضي الله عنه : كنت رجلاً إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً نفعتني الله عز وجل بما شاء أن ينفعني منه وإذا جددني أحد من أصحابه استحلته فإذا حلف صدقته ، قال : وحدثنى أبو بكر وصديق أبو بكر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله عز وجل إلا غفر له ثم تلا قوله عز وجل (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم) الآية (٢) وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه منها فإن زاد زادت حتى تغلف قلبه (٣) فذلك الزان الذي ذكره الله عز وجل في كتابه (كلا بل على قلوبهم ما كانوا يكسبون) وروى أبو هريرة رضي الله عنه « أنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله سبحانه ليرفع الدرجة للعبد في الجنة فيقول يارب أني لى هذه فيقول الله عز وجل باستغفار ولدك لك (٤) » وروى عائشة رضي الله عنها : أنه صلى الله عليه وسلم قال اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسأموا استغفروا (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا أذنب العبد ذنباً فقال اللهم اغفر لي فيقول الله عز وجل أذنب عبيدك ذنباً فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويفغر الذنب عبيدك عمل ما شئت فقد غفرت لك (٦) » وقال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة (٧) » وقال صلى الله عليه وسلم « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لى رباً يأخذ بالذنب ويفغر فقال الله عز وجل قد غفرت لك (٨) » وقال صلى الله عليه وسلم « من أذنب ذنباً فعلم أن الله قد أطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر (٩) » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى يا عبادي كل من أذنب ذنباً إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي (١٠) » وقال صلى الله عليه وسلم « من قال سبحانك ظلمت نفسه وعملت سوء فاعف عنى فإني لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت كدب الخيل (١١) » وروى

« فإن النوبة ... إلخ » وزاد « أو توبى إليه فإن أتى العبد بذنبه ثم تاب تاب الله عليه » للطبراني في الدعاء « فإن العبد إذا أذنب ثم استغفر الله غفر له » . (١) « كان يقول اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني اللهم اغفر لي جدي وهزلي ومتفق عليه من حديث أبي موسى واللفظ لمسلم (٢) حديث علي عن أبي بكر « ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلي ركعتين ثم يستغفر الله إلا غفر الله له » أخرجه أصحاب السنن وحسنه الترمذي . (٣) حديث أبي هريرة « إن المؤمن إذا أذنب ذنباً كانت نكته سوداء في قلبه فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه ... » أخرجه الترمذي وصححه النسائي في اليوم والليلتين وإن ماجه وابن حبان والحاكم (٤) حديث أبي هريرة إن الله ليرفع العبد الدرجة في الجنة فيقول أني لى هذا فيقول باستغفار ولدك لك » رواه أحمد بإسناد حسن (٥) حديث عائشة « اللهم اجعلني من الذين إذا أحسنوا استبشروا وإذا أسأموا استغفروا » أخرجه ابن ماجه وفيه بن زيد بن جعدان مختلف فيه (٦) « إذا أذنب العبد فقال اللهم اغفر لي يقول الله أذنب عبيدك فعلم أن له رباً يأخذ بالذنب ويفغر الذنب ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » أخرجه أبو داود والترمذي من كلام أبي بكر وقال غريب وليس إسناده بالقوى . (٨) « إن رجلاً لم يعمل خيراً قط نظر إلى السماء فقال إن لى رباً يارب اغفر لي فقال الله تعالى قد غفرت لك » لم أقف له على أصل . (٩) « من أذنب فعلم أن الله أطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » أخرجه الطبراني في الأوسط من حديث ابن مسعود بسند ضعيف . (١٠) « يقول الله يا عبادي كل من أذنب ذنباً إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث أبي ذر وقال الترمذي حسن وأصله عند مسلم بلفظ آخر . (١١) « من قال سبحانك ظلمت نفسه وعملت سوء فاعف عنى فإني لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه وإن كانت كدب الخيل » أخرجه البيهقي



« إن أفضل الاستغفار: اللهم أنت ربي وأنا عبدك خلقتني وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء على نفسي بذنبي فقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فأغفر لي ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت فإنه لا يغفر الذنوب جميعا إلا أنت (١) » الآثار : قال خالد بن معدان يقول الله عز وجل إن أحب عبادي إلى المتحابون بحبي والمتعلقة قلوبهم بالمساجد والمستغفرون بالأسحار أولئك الذين إذا أردت أهل الأرض بعقوبة ذكرهم فتركتهم وصرفت العقوبة عنهم . وقال قتادة رحمه الله : القرآن يدلكم على دانكم ردواكم إماماؤكم فالذنوب وأما دواؤكم فالاستغفار . وقال علي كرم الله وجهه : العجب عن يهلك ومعه النجاة قليل وما هي ؟ قال الاستغفار وكان يقول : ما ألهم الله سبحانه عبدا الاستغفار وهو يريد أن يعذبه . وقال الفضيل : قول العبد « أستغفر الله » تفسيرها : ألقني . وقال بعض العلماء : العبد بين ذنب ونعمة لا يصلحهما إلا الحمد والاستغفار . وقال الربيع بن خثيم رحمه الله : لا يقول أحدكم أستغفر الله وأتوب إليه فيسكون ذنبا وكذبا إن لم يفعل ، ولكن ليقل : اللهم اغفر لي وأتوب علي . وقال الفضيل رحمه الله : الاستغفار بلا إقلاع توبة للكذابين . وقالت رابعة العدوية رحمها الله : استغفارا يحتاج إلى استغفار كثير . وقال بعض الحكماء : من قدم الاستغفار على الندم كان مستترا بالله عز وجل وهو لا يعلم . وسبع أعرابي وهو مشلق بأستار الكعبة يقول : اللهم إن استغفاري مع إصراري للثم وإن تركي استغفارك مع علمي بسمعة عفوك لعجز ، فكم تحبب إلي بالنعم مع غناك عني وكم أنفض ليك بالمعاصي مع فقري إليك ؛ يا من إذا وعد وفى وإذا أوعد عفا أدخل عظيم جرمي في عظيم عفوك يا أرحم الراحمين . وقال أبو عبد الله الواري : لو كان عليك مثل عدد القطر وزبد البحر ذنوبا لحيت عنك إذا دعوت ربك هذا الدعاء خلاصا إن شاء الله تعالى « اللهم إني أستغفرك من كل ذنب تبث ليك منه ثم صلت فيه وأستغفرك من كل ما وعدتك به من نفسي ولم أوف لك به وأستغفرك من كل عمل أردت به وجهك غفاله غيرك وأستغفرك من كل نعمة أنعمت بها علي فاستغنت بها على ممصيتك وأستغفرك يا عالم الغيب والشهادة من كل ذنب أتيت في ضياء النهار وسواد الليل في ملأ أؤاخلا وسرو علانية باحليم . ويقال إنه استغفار آدم عليه السلام وقيل الخضر عليه الصلاة والسلام .

### الباب الثالث : في أدعية مأثورة ومعزية إلى أسبابها وأربابها مما يستحب

#### أن يدعى بها المرء صباحا ومساء ويعقب كل صلاة

فمنها : دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ركعتي الفجر قال ابن عباس رضى الله عنهما : بعثنى العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته مسيا وهو في بيت خالتي ميمونة فقام يصلي من الليل فلما صلى ركعتي الفجر قبل صلاة الصبح قال « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شملتي وتل بها شعثي وترد بها الفتن عني وتصلح بها ديني وتحفظ بها غائي وترفع بها شاهدي وترزق بها عملي وتبيض بها وجهي وتلهي بها رشدي وتصفيني بها من كل سوء . اللهم أعطني إيمانا صادقا وبقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف كرامتك في الدنيا والأخرة . اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء والنصر على الأعداء ومرافقة الأنبياء . اللهم إني

== في الدعوات من كلام علي « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ألا أعلمك كلمات تقولن لو كان عليك كعدد الغل — أو كعدد النثر — ذنوبا غفرها الله لك » فذكره زيادة « لا إله إلا أنت » في أوله وفيه ابن خزيمة .

(١) « أفضل الاستغفار اللهم أنت ربي وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ... » أخرجه البخاري من حديث شدد بن أوس دون قوله « وقد ظلمت نفسي واعترفت بذنبي » ودون قوله « ذنوبي ما قدمت منها وما أخرت » ودون قوله « جميعا » .

أزل بك حاجتي وإن ضعف رأيي وقالت حيلتي وقصر عملي واقفرت إلى رحمتك فأسألك يا كافي الأمور وبأشافي الصدور كما تحير بين البحور أن تحيرني من عذاب السمير ومن دعوة الثور ومن فتنة القبور . اللهم ماقصر عنه رأيي وضعف عنه عملي ولم تبلغه نيتي وأمنيتي من خير وعدته أحدا من عبادك أو خير أنت معطيه أحدا من خلقك فأني أطلب إليك فيه وأسألك يا رب العالمين . اللهم اجعلنا هادين مهتدين غير ضالين ولا مضلين حربا لأعدائك وسليبا لأوليائك تحبب بحبك من أطاعك من خلقك ونعادي بعدوا لك من خالفك من خلقك . اللهم هذا الدعاء وعليك الإجابة وهذا الجهد وعليك التكلان وإن الله وإننا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ذي الجلال الشديد والامر الرشيد أسألك الأمن يوم الوعيد والجنة يوم الخلود مع المقر بين الشهود والركم السجود الخوفين بالهოდ ذلك رحيم ودود وأنت تفعل ما تريد . سبحان الذي ليس المرز وقال به سبحان الذي تعطف بالمجد وتكرم به سبحان الذي لا يذبح التسليم إلا له سبحان ذي الفضل والنعم سبحان ذي العزة والكرم سبحان الذي أحصى كل شيء بعلمه . اللهم اجعل لي نوراً في قلبي ونورا في قبري ونورا في سمعي ونورا في بصري ونورا في شمعي ونورا في بشري ونورا في فمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي . اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا (١) »

### دعاء عائشة رضي الله عنها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها « عليك بالجوامع الكوامل قولي اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما عدت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله عاجله وآجله ما عدت منه وما لم أعلم وأسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل وأسألك من الخير ما سألك عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأستعينك بما استعاذك منه عبدك ورسولك محمد صلى الله عليه وسلم وأسألك ما قضيت لي من أمر أن تجعل حاجتي رضاء برحمتك يا أرحم الراحمين (٢) » .

### دعاء فاطمة رضي الله عنها

قال رسول الله ﷺ « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به ؟ أن تقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفه عين وأصلح لي شأني كله (٣) » .

### دعاء أبي بكر رضي الله عنه

علم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله عنه أن يقول « اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى كنكك وروحك وبشارة موسى وإسماعيل عيسى وزبور داود وفرقان محمد صلى الله عليه وسلم

### الباب الثالث : في أدعية مأثورة

- (١) حديث ابن عباس « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجعل بها عملي وتلم بها شعبي... » أخرجه الترمذي وقال غريب ولم يذكر في أوله : يث الباس لابنه عبد الله ولا نومه في بيت ميمونة ، وهو بهذه الزيادة في الدعاء للطبراني .
- (٢) حديث قوله لعائشة « عليك بالجوامع الكوامل قولي : اللهم إني أسألك من الخير كله عاجله وآجله ما عدت منه وما لم أعلم... » أخرجه ابن ماجه والحاكم وصححه من حديثها .
- (٣) « يا فاطمة ما يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أن تقول : يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث لا تسكني إلى نفسي طرفه عين وأصلح لي شأني كله » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من كلام أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

وعلمهم أجمعين وبكل وحى أوحته أو قضاء قضيته أو مسائل أعطيته أو غنى أفقرته أو فقير أغنيته أو ضال هديته وأساءك باسمك الذى أرسلته على موسى عليه السلام وأساءك باسمك الذى بثت به أرزاق العباد وأساءك باسمك الذى وضعت على الأرض فاستقرت وأساءك باسمك الذى وضعت على السموات فانقلبت وأساءك باسمك الذى وضعت على الجبال فرست وأساءك باسمك الذى استقل به عرشك وأساءك باسمك الطهر الطاهر الأحمد الصمد الترانزل فى كتابك من لدنك من النور المبين وأساءك باسمك الذى وضعت على النهار فاستنار وعلى الليل فأظلم وبهظمتك وكبر باتك وبزور وجهك الكريم أن ترزقنى القرآن والعلم به وتخلطه بلحمى ودمى وسمى وبصرى وتستعمل به جسدى بحولك وقوتك فإنه لاحول ولا قوة إلا بك يا أرحم الراحمين (١) .

### دعاء بريدة الأسلمى رضى الله عنه

روى أنه قال له رسول الله ﷺ « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ثم لم يضمن إياه أبداً قال : فقلت بلى يا رسول الله قال قل : اللهم إني ضعيف فقو رى رضاك تمنى وخذ إلى الخير بناصيتى واجعل الإسلام منتهى رضاى . اللهم إني ضعيف فقو رى وإني ذليل فأعزنى وإني فقير فأغننى يا أرحم الراحمين (٢) »

### دعاء قبيصة بن الحارث

إذا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم « علمنى كلمات ينفعنى الله عز وجل بها فقد كبر سئى وعجزت عن أشياء كثيرة كنت أعلمها فقال عليه السلام : أما لديك فإذا صليت الغداة فقل ثلاث مرات سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم فإنك إذا قلتى ثلاثاً من الغم والجندام والبرص والفالج . وأما الآخر فك قل : اللهم امسكنى من عندك وأفض على من فضلك وانشر على من رحمتك وأزل على من بكراتك ثم قال صلى الله عليه وسلم : أما إنه إذا وفى بهن عجب يوم القيامة لم يدعن فتح له أربعة أبواب من الجنة يدخل من أياها شاء (٣) .

### دعاء أبي الدرداء رضى الله عنه

قيل لأبي الدرداء رضى الله عنه : قد احترقت دارك - وكانت النار قد وقعت فى محلة - فقال ما كان الله ليفعل ذلك ، فقيل له ذلك ثلاثا وهو يقول : ما كان الله ليفعل ذلك . ثم أتاه آت فقال : يا أبا الدرداء إن النار حين دنت من دارك طمشت ، قال : قد علمت ذلك ، فقيل له : ما ندرى أى قوليك أعجب؟ قال إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من يقول هؤلاء الكلمات فى ليل أو نهار لم يضره شيء . وقد قلتى وهى « اللهم أنت ربى إلا أنه أنت عليك توكلت وأنت رب العرش العظيم لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ماشاء الله كان وعالم يشأ لم يكن أعلم أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علما وأحصى كل شيء عدداً . اللهم أعوذ بك من شر نفسى

(١) « علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن يقول اللهم إني أسألك بمحمد نبيك وإبراهيم خليلك وموسى نبيك وعيسى نبيك ... » فى الدعاء لحفظ القرآن رواه أبو الشيخ ابن جبان فى كتاب الثواب من رواية عبد الملك بن هارون عشرة عن أبيه « أن أبا بكر أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال إني أعلم القرآن وينفلت منى » فذكره وعبد الملك وأبو هارون ضعيفان وهو متقطع بين هارون وأبي بكر .

(٢) « يا بريدة ألا أعلمك كلمات من أراد الله به خيراً علمهن إياه ... » أخرجه الحاكم من كلام بريدة وقال صحيح الإسناد .

(٣) « إن قبيصة بن الحارث قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم علمنى ينفعنى الله بها فقد كبرت سئى وهجرت ... » أخرجه ابن السنى فى اليوم واليلة من كلام ابن عباس وهو عند أحمد فى المسند مختصرا من كلام قبيصة نفسه وفيه رجل لم يسم .

ومن شركل دابة أنت أخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (١) .

### دعاء الخليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

كان يقول إذا أصبح : اللهم إن هذا خلق جديد فاقضه على بطاعتك واختمه لي بمغفرتك ورضوانك وارزقني فيه حسنة تقبلها مني وزكها وضعتها لي وما عملت فيه من سيئة فاغفرها لي إنك غفور رحيم ودود كريم . قال : ومن دعا بهذا الدعاء إذا أصبح فقد أدى شكر يومه .

### دعاء عيسى عليه الصلاة والسلام

كان يقول : اللهم إني أصبحت لا أستطيع دفع ما أكره ولا أملك نفع ما أرجو وأصبح الأمر بيد غيري وأصبحت مرتبها بعمل فلا فقير أفقر مني . اللهم لا تشمت بي عدوى ولا تسؤني صديق ولا تجعل مصيبتى في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط علي من لا يحرمي يا حي يا قيوم .

### دعاء الحضر عليه السلام

يقال : إن الحضر وإلياس عليهما السلام إذا التقيا في كل موسم لم يفترقا إلا عن هذه الكلمات « بسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله ما شاء الله كل نعمه من الله ما شاء الله الخير كله بيد الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله » فن قالها ثلاث مرات إذا أصبح أمن من الحرق والفرق والرق إن شاء الله تعالى .

### دعاء معروف الكرخي رضي الله عنه

قال محمد بن حسان : قال لي معروف الكرخي رحمه الله ألا أعلمك عشر كلمات تحبس الدنيا وخمس الآخرة من دعا الله عز وجل بين يديه وجد الله تعالى عندهن ؟ قلت : اكتبها لي قال لا ، ولكن أرددها عليك كما رددتها على بكر بن خنيس رحمه الله « حسبي الله لديني حسبي الله لديناي حسبي الله الكريم لما أمني حسبي الله الحليم القوي لمن بغى علي حسبي الله الشديد لمن كادني بسوء حسبي الله الرحيم عند الموت حسبي الله الزموم عند المسألة في القبر حسبي الله الكريم عند الحساب حسبي الله الطيف عند الميزان حسبي الله القدير عند الصراط حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » وقد روى عن أبي الدرداء أنه قال « من قال في كل يوم سبع مرات ﴿ فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ كفاه الله عز وجل ما هم به من أمر آخرته صادقا كان أو كاذبا » .

### دعاء عتبة الغلام

وقد روي في المنام بعد موته فقال : دخلت الجنة بهذه الكلمات « اللهم يا هادي المضلين ويا راحم المذنبين ويا مقبل صرات العائرين أرحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين وأجعلنا من الأخيار المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يا رب العالمين » .

### دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

قالت عائشة رضي الله عنها : لما أراد الله عز وجل أن يتوب على آدم صلى الله عليه وسلم طاف بالبيت سبعا

(١) « قيل لأبي الدرداء : أحرقت دارك فقال ما كان الله ليفعل ذلك ... » أخرجه الطبراني في الدعاء من كلام أبي الدرداء ضعيف .

وهو يومئذ ليس بمبني ربوة حراء ثم قام فصلى ركعتين ثم قال « اللهم إنك تعلم سرى وعلايتى فأقبل معذرتى وتعلم حاجتى فأعطني سؤل وتعلم مافى نفسى فأغفر لى ذنوبى . اللهم إنى أسألك إيماناً يباشر قلبى ويقيناً صادقاً حقى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبته على والرضا بما قسمته لى ياذا الجلال والإكرام » فأوحى الله عز وجل لى إني قد غفرت لك ولم يأتني أحد من ذربتك فيدعوني بمثل الذى دعوتني به إلا غفرت له وكشفت غمومه وهموه وتزعت الفقر من بين عينيه وانحرت له من وراء كل تاجر وجهاته الدنيا وهى راغمة وإن كان لا يريدھا .

### دعاء على بن أبى طالب رضى الله عنه

رواه عن النبي ﷺ أنه قال « إن الله تعالى يمجّد نفسه كل يوم ويقول : ائى أنا الله رب العالمين : إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا العلى العظيم . إنى أنا الله لا إله إلا أنا لم ألد ولم أولد إنى أنا الله لا إله إلا أنا العفو الغفور . إنى أنا الله لا إله إلا أنا مبدئ كل شىء وإلى يعود العزيز الحكيم الرحمن الرحيم مالك يوم الدين خالق الخير والشر خالق الجنة والنار الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولدا الفرد الوتر عالم الغيب والشهادة الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور الكبير المتعال المتقدر الفهار الحليم الكريم أهل الثناء والمجد أسلم السر وأخفى القادر الرزاق فوق الخلق والخالقة (١) » وذكر قبل كل كلمة « إنى أنا الله لا إله إلا أنا » كما أوردناه فى الأول فمن دعا بهذه الأسماء فليقل « إنك أنت الله لا إله إلا أنت كذا وكذا » فمن دعا بهن كتب من الساجدين الختئين الذين يجاورون محمدا وإبراهيم وموسى وعيسى والتبيين صلوات الله عليهم فى دار الجلال . وله ثواب العابدين فى السموات والأرضين وصلى الله على عبد محمد وعلى كل عبد مصطفى .

### دعاء ابن المعتز وهو سيهان التميمى وتسبيحاته رضى الله عنه

روى أن يونس بن عبيد رأى رجلا فى المنام عن قتل شهيدا ببلاد الروم فقال : ما أفضل ما رأيت ثم من الأعمال ؟ قال : رأيت تسبيحات ابن المعتز من الله عز وجل بمكان وهى هذه « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم عدد ما خلق وعدد ما هو خالق وزنة ما خلق وزنة ما هو خالق وملء ما خلق وملء ما هو خالق وملء سمواته وملء أرضه ومثل ذلك وأضعاف ذلك وعدد خلقه وزنة عرشه ومنتهى رحمته ومداد كتابه ومبلغ رضاه حتى يرضى وإذا رضى وعدد ما ذكره به خلقه فى جميع ماضى وعدد ما ذكره فيما بقى فى كل سنة وشهر وجمعة ويوم وليلة وساعة من الساعات وشم ونفس من الأنفاس وأبد من الأباد من أبد إلى أبد أبد الدنيا وأبد الآخرة وأكثر من ذلك لا ينقطع أوله ولا ينفذ آخره . »

### دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه

روى إبراهيم بن يشار خادمه : انه كان يقول هذا الدعاء فى كل يوم جمعة إذا أصبح وإذا أمسى « مرحبا بيوم المزيد والصبح الجديد والكتاب والشهيد يومنا هذا يوم عيد اكتب لنا فيه ما نقول بسم الله الحميد الحميد الرفيع الودود الفعال فى خلقه ما يريد أصبحت بأفء مؤمنا وبلغائه مصدقا وبهجته معترفا ومن ذنبى مستغفرا ولربوبية الله خاضعا

(١) كلام على « إن الله تعالى يمجّد نفسه كل يوم فيقول إنى أنا الله رب العالمين إنى أنا الله لا إله إلا أنا الحى القيوم

... بطوله لم أجده أصلا .

ورسول الله في الآلهة جاحدا وإلى الله فقيرا وعلى الله متكللا وإلى الله متبينا أشهد الله وأشهد ملائكته وأنبياءه ورسوله وحملته عرشه ومن خلقه ومن هو خالقه بأنه هو الله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ﷺ تسليما وأن الجنة حق وأن النار حق والحوض حق والشفاعة حق ومنسكرا ونكبرا حق ووعدهك حق ولفظك حق والساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور على ذلك أحيا وعليه أموت وعليه أبعث إن شاء الله . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك اللهم من شر ما صنعت ومن شر كل ذي شر . اللهم انى ظلمت نفسى فاغفر لى ذنوب فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدنى لأحسن الأخلاق فإنه لا يهدى لأحسنها إلا أنت واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت لبيك وسعديك والخير كله بيدك أنا لك وإليك أستغفرك وأتوب إليك . آمين اللهم بما أرسلت من رسول وآمنت اللهم بما أنزلت من كتاب وصلى الله على محمد وآل محمد وآل محمد تسليما كثيرا خاتم كلامى ومفتاحه وعلى أنبيائه ورسوله أجمعين آمين يارب العالمين . اللهم أوردنا حوض محمد واسقنا بكأسه مشربا رويًا ساقنا هنيئا لا نظلما بعده ابدا واحشرنا في زمرة غير خزايا ولا نكسين للهدى ولا مرتابين ولا مفتونين ولا مفضوب علينا ولا ضالين . اللهم اعصمى من فتن الدنيا ووقفنى لما تحب وترضى وأصلح لى شأنى كله وبنيتى بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولا تضلنى وإن كنت ظالما سبحانه ، سبحانه يا عظيم يا بارى يا رحيم يا عزيز يا مجاب سبحان من سبحت له السموات بأكتافها وسبحان من سبحت له البحار بأموحها وسبحان من سبحت له الجبال بأصدائها وسبحان من سبحت له الحيتان بلفتها وسبحان من سبحت له النجوم في السماء بأبراجها وسبحان من سبحت له الأشجار بأصولها ونمازها وسبحان من سبحت له السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن ومن عليهن سبحان من سبى كل شيء من مخلوقاته تباركت وتعالى تسبحنا بك ، سبحانه يا حي يا قيوم يا حي يا كريم سبحانه لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك تحيى وتميت وأنت حي لا تموت بيدك الخير . أنت على كل شيء قدير .

### الباب الرابع

في أدعية مأثورة عن النبي ﷺ وعن أصحابه رضوا الله عنهم

مخولة الأسانيد متنتية من جملة ما جمعه أبو طالب المكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله يستحب للريد إذا أصبح أن يكون أحب أرواده الدعاء - كما سيأتى ذكره في كتاب الأوراد - فإن كنت من المرادين لحث الآخرة المقتدين برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دعا به قبل في مفتاح دعواتك<sup>(١)</sup> أعقاب صلواتك<sup>(٢)</sup> سبحانه ربي العلى الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير . وقل: رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً<sup>(٣)</sup> ثلاث مرات وقل اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسى وشر الشيطان وشركه<sup>(٤)</sup> . وقل : اللهم إني أسألك العفو والعافية في دينى ودنياى وأهلى ومالى اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى وأقل

الباب الرابع : في أدعية مأثورة عن النبي عليه الصلاة والسلام

- (١) « افتتاح الدعاء بسبحان ربي العلى الأعلى الوهاب » تقدم في الباب الثانى في الدعاء .
- (٢) « القول عقب الصلوات لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » متفق عليه من كلام المغيرة بن شعبة .
- (٣) « رضيت بالله ربا ... » تقدم في الباب الأول من الأذكار .
- (٤) « اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك =

عثراني واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بك أن أغتال من تحتي (١) اللهم لا تؤمنني بمكرك ولا تؤنني بخديك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تمنعني من الغافلين (٢) وقل : اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٣) — ثلاث مرات وقل : اللهم عافني في بدني وعافني في سمعي وعافني في بصري لا إله إلا أنت (٤) — ثلاث مرات وقل : اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم وشوقا إلى لقائك من غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة وأعوذ بك أن أعظم أو أعظم أو اعتدى أو يعتدي علي أو أكسب خطيئة أو ذنبا لا تغفره (٥) اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك وأسألك قلبا عاشقا سليما وخلقاً مستقيماً ولساناً صادقاً وعلماً متقبلاً وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم واستغفرك لما تعلم فأنت تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب (٦) اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني فإنك أنت المقدم وأنت المؤخر وأنت على كل شيء قدير وعلى كل غيب شهيد (٧) اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعم لا ينفد وقرعة عين الأبد ومرافقة نبيك محمد ﷺ في أعلى جنة الخلد (٨) اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات وترك المنكرات وحسب المساكين أسألك حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقرب إلى حبك وأن تتوب علي وتغفر لي وترحمني وإذا أردت بقرعة فتنة فاقبضني إليك غير مفتون (٩) اللهم بملك القيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني ما كانت الوفاة خيراً لي أسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة العدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر ولذة النظر إلى وجهك والشوق إلى لقائك وأعوذ بك من ضراء مضرة وفتنة مضلة . اللهم زينا

من شر نفسي وشر الشيطان وشركه ، أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من كلام أبي هريرة « إن أبا بكر الصديق قال : يا رسول الله مررت بكلمات أقولهن إذا أمسيت قال قل اللهم » فذكره .

(١) « اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي اللهم استر عورتی وأقل عثرتي واحفظني من بين يدي ومن خلفي وعن يميني وعن شمالي ومن فوق وأعوذ بظلمتك أن أغتال من تحتي » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه والحاكم من كلام ابن عمر « قال لم يكن النبي عليه الصلاة والسلام يدع هؤلاء الكلمات حين يمسى وحين يصبح » .

(٢) « اللهم لا تؤمنني بمكرك ولا تؤنني بخديك ولا تنزع عني سترك ولا تنسني ذكرك ولا تمنعني من الغافلين » رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من كلام ابن عباس دون قوله « ولا تؤنني بخديك » وإسناده ضعيف .

(٣) « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البخاري من كلام شدد بن أوس وقد تقدم

(٤) « اللهم عافني في بدني وعافني في بصري لا إله إلا أنت — ثلاث مرات — » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من كلام أبي بكره وقال النسائي جعفر بن ميمون ليس بالقوي .

(٥) « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء ... » إلى قوله « أو ذنبا لا يغفر » أخرجه أحمد والحاكم من كلام زيد ابن ثابت في أثناء كلام وقال صحيح الإسناد . (٦) « اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد ... » إلى

قوله « وأنت علام الغيوب » أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم وصححه من كلام شدد بن أوس قلت : بل هو منقطع وضعيف (٧) « اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت ... » إلى قوله « وعلى كل غيب شهيد » متفق عليه من كلام أبي موسى دون قوله « وعلى كل غيب شهيد » وقد تقدم في الباب الثاني من هذا الكتاب .

(٨) « اللهم إني أسألك إيماناً لا يرتد ونعم لا ينفد وقرعة عين الأبد ... » أخرجه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من كلام عبد الله بن مسعود دون قوله « وقرعة عين الأبد » وقال صحيح الإسناد والنسائي من كلام عمار بن يسر بإسناد جيد « وأسألك نملاً لا يبيد وقرعة عين لا تقطع » . (٩) « اللهم إني أسألك الطيبات وفعل الخيرات ... » إلى قوله « غير مفتون » أخرجه الترمذي من كلام معاذ « اللهم إني أسألك فعل الخيرات ... » وقال حسن صحيح ولم يذكر « الطيبات »

وهي في الدعاء للطهارة من كلام عبد الرحمن بن عيسى وقال أبو حاتم ليس له صحبة .

بريئة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين (١) اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك . ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا والآخرة (٢) اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا منك فرقا واسكن في نفوسنا من عظمتك ما تذل به جوارحنا لخدمتك واجعلك اللهم أحب إلينا من سواك واجعلنا أخشى لك من سواك (٣) اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكمرة ومغفرة (٤) الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته وخضع كل شيء للملك واستسلم كل شيء لقدرته والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته وأظهر كل شيء بجمته وتصاغر كل شيء لكبريائه (٥) اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأزواج محمد وذريته وبارك على محمد وعلى آل محمد وبنيك ورسولك النبي الأمي رسولك الأمين وأعطه المقام المحمود الذي وعدته يوم الدين (٦) اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين وعبادك الصالحين واستعملنا لمرضاتك عنا ووقفنا لحبابك منا وصرفنا بحسن اختيارك لنا (٨) نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائمه وخواتمه (٩) اللهم بقدرتك على تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحبك على اعف عن إنك أنت الغفار الحليم وبملك في أرقى بي إنك أنت أرحم الراحمين وبملكك لي ملكني نفسي ولا تسلمها على إنك أنت الملك الجبار (١٠) سبحانهك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت جعلت سوءا وظلمت قسي فافغر لي ذنبي إنك أنت ربي ولا بغفر الذنوب إلا أنت (١١) اللهم الهني رشدي وقني شر نفسي (١٢) اللهم ارحمني حلالا لا تعاقبني عليه وتعقني بما رزقني

(١) اللهم إني أسألك بملكك الغيب . وقدرتك على الخلق أحين ما كانت الحياة خيرا لي ... إلى قوله « واجعلنا هداة مهتدين » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من كلام عمار بن ياسر « قال كان النبي ﷺ يدعو به » (٢) « اللهم اقم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك ... » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي في اليوم والليلة والحاكم وقال صحيح على شرط البخاري من حديث ابن عمر « أن النبي ﷺ كان يختم مجلسه بذلك » (٣) « اللهم املا وجوهنا منك حياء وقلوبنا بك فرحا ... » إلى قوله « واجعلنا أخشى لك من سواك » لم أقف له على أصل . (٤) « اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وآخره نجاحا ، اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكمرة » أخرجه عبد بن حميد في المنتخب والطبراني من حديث ابن أوفى بالشرط الأول فقط إلى قوله « نجاحا » وإسناده ضعيف . (٥) « الحمد لله الذي تواضع كل شيء لعظمته وذل كل شيء لعزته ... » إلى قوله : « وتصاغر كل شيء لكبريائه » أخرجه الطبراني من حديث ابن عمر بسند ضعيف دون قوله « والحمد لله الذي سكن كل شيء لهيبته » إلى آخره وكذلك رواه في الدعاء من حديث أم سلمة وسنده ضعيف أيضا . (٦) « اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته ... » إلى قوله « حميد مجيد » تقدم في الباب الثاني . (٧) « اللهم صل على عبدك وبنيك ورسولك النبي الأمي رسول الأميين وأعطه المقام المحمود يوم الدين » لم أجده هذا اللفظ مجمعا والبخاري من كلام أبي سعيد « اللهم صل على محمد عبدك ورسولك » وابن جابر والدارقطني والحاكم والبيهقي من كلام ابن مسعود « اللهم صل على محمد النبي الأمي » والنسائي من حديث جابر « وابشع المقام المحمود الذي وعدته » وهو عند البخاري بلفظ « وابشع مقام محمود » قال الدارقطني إسناده حسن وقال الحاكم صحيح وقال البيهقي في المعرفة إسناده صحيح .

(٨) « اللهم اجعلنا من أوليائك المتقين وحزبك المفلحين ... » إلى قوله « صرفنا بحسن اختيارك لنا » لم أقف له على أصل . (٩) « نسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه ونعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه » أخرجه الطبراني من حديث أم سلمة « أنه كان يدعو هؤلاء الكلمات » فذكر منها « اللهم إني أسألك فوائع الخير وخواتمه وأوله وآخره وظاهره وباطنه والدرجات العلى من الجنة آمين » فيه عاصم بن عبيد لا أعلم روى عنه إلا موسى بن عقبة . (١٠) « اللهم بقدرتك تب على إنك أنت التواب الرحيم وبحبك على اعف عن ... » إلى قوله « إنك الملك الجبار » لم أقف له على أصل . (١١) « سبحانهك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءا وظلمت نفسي فافغر لي ذنبي أنت ربي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه البيهقي في الدعوات من كلام علي دون قوله « ذنبي إنك أنت ربي » وتقدم في الباب الثاني . (١٢) « اللهم الهني رشدي وقني شر نفسي » أخرجه الترمذي من حديث عمران بن حصين =



واستعملني به صالحاً تقبله مني (١) أسألك العفو والعافية وحسن اليقين والمعافاة في الدنيا والآخرة (٢) يا من لا تنصر الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك ربنا أنزع علينا صبراً وتوفناً مسلمين . أنت ولي في الدنيا والآخرة توفي مسلماً وألحقني بالصلحين . أنت ولينا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين . واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدانا إليك . ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير . ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين . ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا وأغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم . ربنا آتتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً . ربنا آتانا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار . ربنا إنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان - إلى قوله عز وجل - إليك لا تخلف الميعاد . ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا - إلى آخر السورة (٣) رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً . واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات (٤) رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأكرم وأنت خير الراحمين وأنت خير الغافرين وإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على محمد خاتم النبيين وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً (٥) .

### أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم

اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر (١) اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع ومن طمع في غير مطمع ومن

== وأن النبي ﷺ عليه لصحين « وقال حسن غريب ورواه النسائي في اليوم والليلة والحاكم من كلام حصين والدمعاني وعمران وقال صحيح على شرط الشيخين . (١) « اللهم ارزقني حلالاً لا يعاقبني فيه وقعي بما رزقني واستعملني به صالحاً تقبله مني » أخرجه الحاكم من كلام ابن عباس « كان النبي ﷺ يدعو اللهم قنني بما رزقني وبارك لي فيه وأخلف على كل غائبة لي بخير » وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه . (٢) « اللهم إني أسألك العفو والعافية والمعافاة وحسن اليقين في الدنيا والآخرة » أخرجه النسائي من حديث أبي بكر الصديق بلفظ « سلوا الله العافية فإنه ما يؤت أحد بعد اليقين خيراً من العافية » وفي رواية للبيهقي « سلوا الله العفو والعافية واليقين في الأولى والآخرة فإنه ما أوتي العبد بعد اليقين خيراً من العافية » وفي رواية لأحمد « أسأل الله العفو والعافية » . (٣) « يا من لا تنصر الذنوب ولا تنقصه المغفرة هب لي ما لا يضرك وأعطني ما لا ينقصك » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من كلام علي بن إسحاق . (٤) « رب اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً واغفر للمؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات » أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن من حديث أبي أسيد الساعدي « قال رجل من بني سلمة : هل بقي علي من بر أبي شيء ؟ قال : نعم الصلاة عليهما والاستغفار لهما ... » ولأبي الشيخ ابن حبان في الثواب والمستغفري في الدعوات من حديث أنس « من استغفر للمؤمنين والمؤمنات رد الله عليه عن كل مؤمن مؤمنة من أول الدهر أو هو كائن إلى يوم القيامة » وسنده ضعيف وفي صحيح ابن حبان من حديث أبي سعيد « أما رجل مسلم لم يكن عنده صدقة فليتل في دعائه : اللهم صل على محمد عبدك ورسولك وصل على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » . (٥) « رب اغفر وارحم وتجاوز عما تعلم وأنت الأعز الأكرم وأنت خير الراحمين وخير الغافرين » أخرجه أحمد من حديث أم سلمة « أن النبي ﷺ كان يقول : رب اغفر وارحم واهدني السبيل الأقوم » وفيه زيد ابن زيد بن جدهان مختلف فيه ، وللطبراني في السعاء من كلام ابن مسعود « أنه ﷺ كان يقول إذا سقى في بطن المسيل : اللهم اغفر وارحم وأنت الأعز الأكرم » وفيه ليث بن أبي سلم مختلف فيه ورواه موقفاً عليه بسند صحيح . (٦) « اللهم إني أعوذ بك من البخل وأعوذ بك من الجبن وأعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر وأعوذ بك من فتنة الدنيا وأعوذ بك من عذاب القبر » أخرجه البخاري من حديث سعد بن أبي وقاص .

طمع حيث لا مطمع (١) اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ونفس لا تشبع وأعوذ بك من الجور فإنه يفسد الضجيع ومن الحياة فإنه يفسد البطانة ومن الكسل والبخل والجنون والهرم ومن أن ارد إلى أرذل العمر ومن فتنة الدجال وعذاب القبر ومن فتنة الحيا والممات اللهم إنا نسألك قلباً أوهاة عتبة منية في سبيلك . اللهم إني أسألك عزائم مغفرتك وموجبات وحتك والسلامة من كل لائم والنجاة من كل بر والفوز بالجنة والنجاة من النار (٢) . اللهم إني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم والفرق والهدم وأعوذ بك من أن أموت في سبيلك مذبراً وأعوذ بك من أن أموت في طلب الدنيا (٣) اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم (٤) . اللهم جنّني منكرات الأخلاق والأعمال والأدواء والآهواء (٥) . اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء (٦) اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال (٧) اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وبصري وشر لساني وقلبي وشر مني (٨) . اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول (٩) . اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة والنسيان والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق وسوء الأخلاق وضيق الأرزاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسوء الأسقام (١٠) اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك ومن تحول عاقبتك ومن لجأة نعمتك ومن جميع منخلتك (١١) اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفتنة النار وعذاب القبر وفتنة القبر وشر فتنة الغنى وشر فتنة الفقر وشر فتنة

(١) « اللهم إني أعوذ بك من طبع يهدي إلى طمع وطمع في غير مطمع ومن طمع حيث لا مطمع » أخرجه أحمد والحاكم من حديث معاذ وقال مستقيم الإسناد . (٢) « اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع وقلب لا يخشع ودعاء لا يسمع ... » إلى قوله « والنجاة من النار » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال إلا أنه ورد مرفوعاً في أحاديث جيدة الأسانيد . (٣) « اللهم إني أعوذ بك من التردى وأعوذ بك من الغم ... » إلى قوله « وأعوذ بك من أن أموت في طلب الدنيا » أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه إسناده من حديث أبي اليسر راحمه كعب بن عمر زيادة فيه دون قوله « وأعوذ بك من أن أموت في طلب الدنيا » وتقدم من عند البخاري الاستعاذة من فتنة الدنيا . (٤) « اللهم إني أعوذ بك من شر ما علمت ومن شر ما لم أعلم » قلت : هكذا في غير نسخة « علمت » وإنما هو « عملت » وأعمل ، كذا رواه مسلم من حديث عائشة ولأبي بكر بن الضحاك في الشامل في حديث مرسل في الاستعاذة وفيه « وشر ما لم أعمل وشر ما لم أعلم » . (٥) « اللهم جنّني منكرات الأفعال والأعمال والأدواء والآهواء » أخرجه الترمذي وحسنه الحاكم وصححه واللفظ له من حديث قصبة بن مالك . (٦) « اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء ودرك الشقاء وسوء القضاء وشماتة الأعداء » متفق عليه من كلام أبي هريرة .

(٧) « اللهم إني أعوذ بك من الكفر والدين والفقر وأعوذ بك من عذاب جهنم وأعوذ بك من فتنة الدجال » أخرجه النسائي والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث سعيد الحديري عن النبي ﷺ « أنه كان يقول : من الكفر والدين » وفي رواية للنسائي « من الكفر والفقر » ولمسلم من كلام أبي هريرة عن النبي ﷺ « أنه كان يتعوذ من عذاب القبر وعذاب جهنم وفتنة الدجال » وللشيخين من كلام عائشة « ومن شر فتنة المسيح الدجال » . (٨) « اللهم إني أعوذ بك من شر سمعي وشر بصري وشر لساني وقلبي وشر مني » أخرجه أبو داود والنسائي والترمذي وحسنه الحاكم وصححه إسناده من حديث سهل بن حميد . (٩) « اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة فإن جار البادية يتحول » أخرجه النسائي والحاكم من حديث أبي هريرة وقال صحيح على شرط مسلم . (١٠) « اللهم إني أعوذ بك من القسوة والغفلة واليأس والمسكنة وأعوذ بك من الكفر والفقر والفسوق والشقاق والنفاق والسمة والرياء وأعوذ بك من الصمم والبكم والجنون والجذام والبرص وسوء الأسقام » أخرجه أبو داود والنسائي مقتصرين على الأربعة الأخيرة والحاكم بتمامه من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين . (١١) « اللهم إني أعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عاقبتك ولجأة نعمتك ومن جميع منخلتك » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر .

المسبح الدجال وأعوذ بك من المغرم والمأثم<sup>(١)</sup> اللهم إني أعوذ بك من نفس لا يشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من شر الغم وفئة الصدر<sup>(٢)</sup> . اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماته الأعداء<sup>(٣)</sup> وصلى الله على محمد وعلى كل عند مصطفى من كل العالمين آمين .

### الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الحوادث

إذا أصبحت وسمعت الأذان فيستحب لك جواب المؤذن وقد ذكرناه وذكرنا أدعية دخول الحلاء والخروج منه وأدعية الوضوء في كتاب الطهارة فإذا خرجت إلى المسجد فقل « اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً واجعل في سمعي نوراً واجعل في بصرى نوراً واجعل خلفي نوراً وأمامي نوراً واجعل من فوقى نوراً اللهم أعطني<sup>(١)</sup> نوراً . وقل أيضاً : اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك<sup>(٢)</sup> فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تنقذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » فإن خرجت من المنزل لحاجة فقل « بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي<sup>(٣)</sup> بسم الله الرحمن الرحيم لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم بسم الله التكلان على الله<sup>(٤)</sup> » فإذا انتهيت إلى المسجد تريد دخوله فقل « اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اغفر لي جميع ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك<sup>(٥)</sup> » وقدم رجلك اليمنى في الدخول فإذا رأيت في المسجد من يبيع أو يتنازع فقل « لا أربح الله تجارتك<sup>(٦)</sup> » وإذا رأيت من ينشد ضالة في المسجد فقل « لا ردّها الله عليك » أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٧)</sup> فإذا صليت ركعتي الصبح فقل « بسم الله اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي... الدعاء إلى آخره<sup>(٨)</sup> »

(١) « اللهم إني أعوذ بك من عذاب النار وفئة النار وعذاب القبر وفئة القبر وشر فئمة الفقر وشر فئمة المسبح الدجال وأعوذ بك من المأثم والمغرم » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) « اللهم إني أعوذ بك من نفس لا تشبع وقلب لا يخشع وصلاة لا تنفع ودعوة لا تستجاب وأعوذ بك من سوء المعروفة الصدر » أخرجه مسلم من كلام زيد بن أرقم أثناء حديث « اللهم إني أعوذ بك من قلب لا يخشع ونفس لا تشبع وعمل لا يرفع ودعوة لا يستجاب لها وصلاة لا تنفع » وشك أبو المعتمر في سماعه من أنس والنسائي بإسناد جيد من حديث عمر في أثناء حديث « وأعوذ » وأبو داود من حديث أنس « اللهم إني أعوذ بك من سوء العمر وأعوذ بك من فئمة الصدر » (٣) « اللهم إني أعوذ بك من غلبة الدين وغلبة العدو وشماته الأعداء » أخرجه النسائي والحاكم من حديث عبد الله بن عمرو وقال صحيح على شرط مسلم

### الباب الخامس : في الأدعية المأثورة عند كل حادث من الحوادث

(٤) « القول عند الخروج إلى المسجد اللهم اجعل في قلبي نوراً وفي لساني نوراً .. » متفق عليه من حديث ابن عباس . (٥) « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشأى هذا إليك... » من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن . (٦) « القول عند الخروج من المنزل لحاجة بسم الله رب أعوذ بك أن أظلم أو أظلم أو أجهل أو يجهل علي » أخرجه أصحاب السنن من حديث أم سلمة قال الترمذي حسن صحيح . (٧) « بسم الله الرحمن الرحيم ولا حول ولا قوة إلا بالله التكلان على الله » أخرجه ابن ماجه من حديث أبي هريرة « أن النبي ﷺ كان إذا خرج من منزله قال بسم الله » فذكره إلا أنه لم يقل « الرحمن الرحيم » وفيه ضعف . (٨) « القول عند دخول المسجد اللهم صل على محمد اللهم اغفر لي ذنوبي وافتح لي أبواب رحمتك » أخرجه الترمذي وابن ماجه من حديث فاطمة ابنة النبي ﷺ قال الترمذي حسن وليس إسناده متصل ومسلم من حديث أبي حنيفة أو أبي أسيد « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل اللهم افتح لي أبواب رحمتك » وزاد أبو داود في أوله « فليسلم على النبي ﷺ » . (٩) « القول إذا رأى يبيع أو يتنازع المسجد لا أربح الله تجارتك » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والنسائي في اليوم والليلة من حديث أبي هريرة . (١٠) « القول إذا رأى من ينشد ضالة في المسجد لا ردّها الله عليك » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة .

(١١) حديث ابن عباس في القول بعد ركعتي الصبح « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي » إلخ قد تقدم في الدعاء .

كما أورده عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم فإذا ركعت فقل في ركوعك « اللهم لك ركعت ولك خشعت وبك آمنت ولك أسلمت وعليك توكلت أنت ربّي خشع سمعي وبصري وعي وعظمي وعصبي وما استقلت به قدمي له رب العالمين (١) » وإن أجبت فقل « سبحان ربّي العظيم - ثلاث مرات - (٢) أو سبح قدوس رب الملائكة والروح » (٣) فإذا ركعت رأسك من الركوع فقل « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد أهل الثناء والمجد أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد لا مانع لما أعطيت ولا ممتنع لما منعت ولا ينفع ذا الجد منك الجد (٤) وإذا مجدت فقل اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت سجد وجهي الذي خلقه وصوره وشق سمعه وبصره فتبارك الله أحسن الخالقين اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي أنه نعمتكم وأبوء بذنبي وهذا ما جئت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٥) أو تقول « سبحان ربّي الأعلى - ثلاث مرات - (٦) فإذا فرغت من الصلاة فقل « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام (٧) وتدعو بسائر الأدعية التي ذكرناها. فإذا قمت من المجلس وأردت دعاء يكفر لغف المجلس فقل « سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك عملت سوءا وظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت (٨) فإذا دخلت السوق فقل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير (٩) بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها ما فيها اللهم إني أعوذ بك أن أصيب فيها بما فيها فاجرة أو صفقة خاسرة (١٠) فإن كان عليك دين فقل « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وأغنني بفضلك عن سواك (١١) » فإذا لبست ثوبا جديدا فقل « اللهم كسرني هذا الثوب فلك الحمد أسألك من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له (١٢) » وإذا

- (١) حديث ابن عباس في القول في الركوع « اللهم لك ركعت ولك أسلمت ... » أخرجه مسلم من حديث علي (٢) حديث القول فيه « سبحان ربّي العظيم » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من حديث ابن مسعود وفيه انقطاع . (٣) حديث القول فيه « سبح قدوس رب الملائكة والروح » أخرجه مسلم من حديث عائشة (٤) حديث القول عند الرفع من الركوع « سمع الله لمن حمده ربنا لك الحمد ... » أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد الخدري وابن عباس دون قوله « سمع الله لمن حمده » فهي في اليوم واليلة الحسن بن علي العمري وهي عند مسلم من حديث ابن أبي أوفى وعند البخاري من حديث أبي هريرة . (٥) حديث القول في السجود « اللهم لك سجدت ... » أخرجه مسلم من حديث علي « اللهم سجد لك سوادي وخيالي وآمن بك فؤادي أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي وهذا ما جئت على نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » أخرجه الحاكم من حديث ابن مسعود وقال صحيح الإسناد وليس كما قال بل هو ضعيف . (٦) « سبحان ربّي الأعلى » ثلاثا أخرجه أبو داود والترمذي والبيهقي من كلام ابن مسعود وهو منقطع . (٧) حديث القول إذ فرغ من الصلاة « اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أخرجه مسلم من حديث ثوبان (٨) « كفارة المجلس سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت » أخرجه النسائي في اليوم واليلة من حديث رافع بن خديج بإسناد حسن . (٩) حديث القول عند دخول السوق « لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير » من حديث عمر وقال غريب والحاكم وقال صحيح على شرط الشيخين . (١٠) « بسم الله اللهم إني أسألك خير هذه السوق وخير ما فيها اللهم إني أعوذ بك من شرها وشر ما فيها بما فيها فاجرة أو صفقة خاسرة » أخرجه الحاكم من حديث يزيد وقال أقربها لثرائط هذا الكتاب حديث يزيد . قلت فيه أبو عمر جار لشعيب بن حرب ولعله حصص بن سلم الأسدي يختلف فيه . (١١) حديث دعاء الدين « اللهم اكفني بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك » أخرجه الترمذي وقال حسن غريب والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث علي بن أبي طالب (١٢) حديث الدعاء إذا لبس ثوبا جديدا « اللهم كسوتني هذا الثوب فلك الحمد من خيره وخير ما صنع له وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » أخرجه الترمذي وقال حسن والنسائي من حديث أبي سعيد الخدري ورواه ابن السني بلفظ المصنف .

رأيت شيئاً من الطيرة تكرهه قل « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسئآت إلا أنت لاحول ولا قوة إلا بالله » (١) وإذا رأيت الحلال فقل « اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والبر والسلامة والإسلام والتوفيق لما تحب وترضى والحفظ عن تمسخط ربي وربك الله » ويقول « هلال رشد وخير أمنت بخالقك » (٢) اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » (٣) وتكبر قبله أولاً ثلاثاً وإذا هبت الريح فقل « اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها ومن شر ما أرسلت به » (٤) وإذا بلغك وفاة أحد فقل « إنا لله وإنا إليه راجعون وإنا إلى ربنا المنتقلون اللهم اكشفه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله » (٥) وتقول عند الصدق « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » وتقول عند الحشران « عسى ربنا أن يبد لنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » وتقول عند ابتداء الأمور « ربنا آتانا من لذك رحمة وهي لنا من أمرنا رشداً - رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري » وتقول عند النظر إلى السماء « ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقلنا عذاب النار - تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجاً وقراً منيراً » وإذا سمعت صوت الرعد فقل « سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » (٦) فإن رأيت الصواعق فقل « اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » (٧) قال كعب . فإذا أمطرت السماء فقل « اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً » (٨) اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب » (٩) فإذا غضبت فقل « اللهم اغفر لي ذنبي واغضب غيظ قلبي

(١) حديث القول إذا رأى شيئاً من الطيرة يكرهه « اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يذهب بالسئآت إلا أنت لاحول ولا قوة إلا بالله » أخرجه ابن أبي شيبة وأبو نعيم في اليوم واليلة والبهقي في الدعوات من كلام عروة بن عاصم مرسلًا ورجاله ثقات وفي اليوم واليلة لابن السني عن عقبه بن عاصم جعله مسنداً . (٢) التكبير عند رؤية الهلال - ثلاثاً - ثم يقول : اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان والسلام والإسلام ربي وربك الله » أخرجه الدارمي من كلام ابن عمر إلا أنه أطلق التكبير ولم يقل « ثلاثاً » ورواه الترمذي وحسنه من كلام طلحة بن عبيد الله دون ذكر التكبير والبهقي في الدعوات من كلام قتادة مرسلًا « كان النبي ﷺ إذا رأى الهلال كبر ثلاثاً » . (٣) « هلال خير ورشد أمنت بخالقك » أخرجه أبو داود مرسلًا من كلام قتادة « أنه بلغه أن النبي ﷺ كان إذا رأى الهلال قال هلال خير ورشد هلال خير ورشد أمنت بخالقك - ثلاث مرات - » وأسنده الدارقطني في الأفراد والطبراني في الأوسط من كلام أنس وقال داود وليس في هذا عن النبي ﷺ كلام مسند صحيح . (٤) « اللهم إني أسألك خير هذا الشهر وخير القدر وأعوذ بك من شر يوم الحشر » أخرجه ابن شيبة وأحمد في مسندهما من كلام عبادة بن الصامت وفيه من لم يسم بل قال الراوي عنه حدثني من لا أتهم . (٥) « القول إذا هبت الريح : اللهم إني أسألك خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به » أخرجه الترمذي وقال حسن صحيح والنسائي في اليوم واليلة من كلام أبي بن كعب . (٦) « القول إذا بلغه وفاة أحد إنا لله وإنا إليه راجعون » وإنا إلى ربنا المنتقلون اللهم اكشفه من المحسنين واجعل كتابه في عليين واخلفه على عقبه في الغابرين اللهم لا تحرمنا أجره ولا تفتنا بعده واغفر لنا وله » أخرجه ابن السني في اليوم واليلة وابن جبان من كلام أم سلمة « إذا أصاب أحدكم مصيبة فليقل إنا لله وإنا إليه راجعون » ولمسلم من حديثها « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين واخلفه في عقبه في الغابرين واغفر لنا وله يارب العالمين وافصح له في قبره ونور له فيه » .

(٧) « القول إذا سمع صوت الرعد : سبحانه من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته » أخرجه مالك في الموطأ عن عبد الله بن الزبير موقوفًا ولم أجده مرفوعاً . (٨) « القول عند الصواعق : اللهم لا تقتلنا بغضبك ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك » أخرجه الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم واليلة من كلام ابن عمر وابن السني بإسناد حسن .

(٩) « القول عند المطر : اللهم سقياً هنيئاً وصيباً نافعاً » أخرجه البخاري من كلام عائشة « كان إذا رأى المطر قال : اللهم اجعله صيباً نافعاً » وابن ماجه « صيباً » بالسین أوله والنسائي في اليوم واليلة « اللهم اجعله صيباً هنيئاً » وإسنادهما صحيح . (١٠) « اللهم اجعله سيب رحمة ولا تجعله سيب عذاب » أخرجه النسائي في اليوم واليلة من كلام سعيد بن المسيب مرسلًا .

وأجرني من الشيطان الرجيم<sup>(١)</sup> » فإذا خفت قوماً فقل « اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم<sup>(٢)</sup> » فإذا غرقت فقل « اللهم أنت عضدى ونصيرى وبك أقاتل » وإذا طنت أذنك فصل على محمد صلى الله عليه وسلم وقل « ذكر الله من ذكرى بخير<sup>(٣)</sup> » فإذا رأيت استجابة دعائك فقل « الحمد لله الذى بعزته وجلاله تم الصالحات » وإذا أبطأت فقل « الحمد لله على كل حال<sup>(٤)</sup> » وإذا سمعت أذان المغرب فقل « اللهم هذا أقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك أسألك أن تغفر لى<sup>(٥)</sup> » وإذا أصابك هم فقل « اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيعاً قلبي وفور صدري وجلاء غمي وذهب حزني وحيي<sup>(٦)</sup> » قال صلى الله عليه وسلم « ما أصاب أحداً حزن فقال ذلك إلا ذهب الله همه وأبدله مكانه فرحاً فرحاً قيل له يا رسول الله أفلا تعلمها ؟ فقال صلى الله عليه وسلم بل ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها » وإذا وجدت وجعاً في جسدك أو جسد غيرك فارقه بريقة رسول الله صلى الله عليه وسلم « كان إذا اشتكى الإنسان قرحة أو جرحاً وضع سبابة على الأرض ثم رفعها وقال بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا<sup>(٧)</sup> » وإذا وجدت وجعاً في جسدك فضع يدك على الذى يتألم من جسدك وقل « بسم الله - ثلاثاً - وقل سبع مرات : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر<sup>(٨)</sup> » فإذا أصابك كرب فقل « لا إله إلا الله العليّ الحليم لا إله إلا الله ربّ العرش العظيم لا إله إلا الله ربّ السموات السبع وربّ العرش الكريم<sup>(٩)</sup> » فإن أردت النوم فقول ثلاثاً وثلاثين<sup>(١٠)</sup> : « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك وثلاثين واحده ثلاثاً وثلاثين<sup>(١١)</sup> » ثم قل « اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم إني لا أستطيع أن أبغى ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك<sup>(١٢)</sup> » اللهم باسمك أحيأ وأموت<sup>(١٣)</sup> اللهم ربّ السموات وربّ الأرض وربّ كل شيء وملئكه فاتق الحب والنوى ومنزل التوارة والإنجيل

- (١) « القول إذا غضب : اللهم اغفر ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من الشيطان الرجيم » أخرجه ابن السني في اليوم والليلة من كلام عائشة بسند ضعيف .
- (٢) « القول إذا خاف قوماً : اللهم إني أجعلك في نحورهم وأعوذ بك من شرورهم » أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة من كلام أبي موسى بسند صحيح .
- (٣) « القول إذا غزا : اللهم أنت عضدى ونصيرى بك أقاتل » أخرجه أبو داود والترمذى .
- (٤) « القول عند طنين الأذن : اللهم صل على محمد ذكر الله بخير من ذكرنى » أخرجه الطبراني وابن عدى وابن السني في اليوم والليلة من كلام أبي رافع بسند ضعيف .
- (٥) « القول إذا رأى استجابة دعائه : الحمد لله الذى نعمته تتم الصالحات » تقدم في الدعاء .
- (٦) « القول إذا سمع أذان المغرب : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك وحضور صلواتك » فإنها عند الخرافاتى في مكازم الأخلاق والحسن بن على للمعمري في اليوم والليلة
- (٧) « القول إذا أصابه هم : اللهم إني عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ... » أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم بن كرام ابن مسعود وقال صحيح على شرط مسلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه فإنه يختلف في سماعه من أبيه .
- (٨) « رقية رسول الله ﷺ بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا يشفى سقيمنا بإذن ربنا » متفق عليه من كلام عائشة
- (٩) « وضع يده على الذى يتألم من جسده ويقول : بسم الله - ثلاثاً - ويقول : أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر سبع مرات » أخرجه مسلم من كلام عثمان بن أبي العاص .
- (١٠) « دعاء الكرب لا إله إلا الله » على الحليم ... متفق عليه من كلام ابن عباس .
- (١١) « التيسير عند النوم أربعا وثلاثين والتيسير ثلاثا وثلاثين » متفق عليه من كلام على .
- (١٢) « القول عند إرادة النوم : اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك اللهم لا أستطيع أن أبغى ثناء عليك ولو حرصت ولكن أنت كما أثبتت على نفسك » أخرجه النسائي في اليوم والليلة من كلام على وفيه اشطاع .
- (١٣) « اللهم باسمك أحيأ وأموت » أخرجه البخارى من كلام حذيفة ومسلم من كلام البراء :

والقرآن أعوذ بك من شر كل ذي شر ومن كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر (١) اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة (٢) باسمك ربّي وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي (٣) اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك (٤) اللهم أسألك نفسي وإليك ووجوهي وإليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ورغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجأ منك إلا إليك آمين بكنا بك الذي أتيتك وتيتك الذي أرسلت (٥) ويكون هذا آخر دعائك فقد أمر رسول الله ﷺ بذلك وليقل قبل ذلك اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زلي وتبعدني من سخطك بعد أسألك تعطيني واستغفر لك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي (٦) فإذا استيقظت من نومك عند الصباح فقل «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أمانا وإليه النشور» (٧) أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعز والقدرة لله (٨) أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة بينا إبراهيم خنيفا وما كان من المشركين (٩) اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير (١٠) اللهم اني أسألك أن تبعثنا في هذا اليوم الى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا ونجبره الى مسلمنا فإني كنت (هو الذي يوفى بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى) (١١) اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسباناً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه (١٢) بسم الله ماشاء الله لا قوة إلا بالله ماشاء الله

- (١) « اللهم رب السموات والأرض رب كل شيء ومليكه فائق الحب والنوى ... الحديث » إلى قوله « وأغنا من الفقر » أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة . (٢) « اللهم أنت خلقت نفسي وأنت تتوفأها . . الحديث » إلى قوله « اللهم إني أسألك العافية » أخرجه مسلم من حديث ابن عمر . (٣) « باسمك ربّي وضعت جنبي فاغفر لي ذنبي » أخرجه النسائي في اليوم واللييلة من حديث عبد الله بن عمر وبسند جيد وللشيخين من حديث أبي هريرة « باسمك ربّي وضعت جنبي وبك أرفعه إن أمسكت نفسي فاغفر لها » وقال البخاري « فأرحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » . (٤) « اللهم قني عذابك يوم تجمع عبادك » أخرجه الترمذي في التبايل من حديث ابن مسعود وهو عند أبي داود من حديث حفصة بلفظ « تبعث » وكذا رواه الترمذي من حديث حذيفة وصححه من حديث البراء وحسنه . (٥) « اللهم إني أسألك نفسي وإليك وفوضت أمري إليك . . . الحديث » متفق عليه من حديث البراء . (٦) « اللهم أيقظني في أحب الساعات إليك واستمعني في أحب الأعمال إليك تقربني إليك زلي وتبعدني من سخطك بعداً أسألك تعطيني واستغفر لك فتغفر لي وأدعوك فتستجيب لي » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « اللهم أبشنا في أحب الساعات حتى نذكرك فذكرنا ونسألك فتعطينا ندعوك فتستجيب لنا ونستغفر لك فتغفر لنا » وإسناده ضعيف وهو معروف من قول حبيب الطائي كما رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء . (٧) « القول : إذا استيقظ من منامه الحمد لله الذي أحيانا بعدما أمانا وإليه النشور » أخرجه البخاري من حديث حذيفة ومسلم من حديث البراء . (٨) « أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والسلطان لله والعزة والقدرة لله » أخرجه الطبراني في الأوسط من كلام عائشة « أصبحنا وأصبح الملك لله والحمد والحوال والقوة والقدرة والسلطان والسموات والأرض وكل شيء لله رب العالمين » وله في الدعاء من حديث ابن أبي أوفى « أصبحت وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والخلق والليل والنهار وما سكن فيها لله » وإسناده ضعيف ولمسلم من كلام ابن مسعود « أصبحنا وأصبح الملك لله » (٩) « أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص ودين نبينا محمد ﷺ وملة بينا إبراهيم خنيفا وما كان من المشركين » أخرجه النسائي في اليوم واللييلة من كلام عبد الرحمن بن أبزي بسند صحيح ورواه أحمد من كلام ابن أبزي عن أبي بن كعب مرفوعاً (١٠) « اللهم بك أصبحنا وبك أمسينا وبك نحيا وبك نموت وإليك المصير » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان وحسنه والترمذي إلا أنهم قالوا « وإليك النشور » ولابن السني « وإليك المصير » . (١١) « اللهم إنا نسألك أن تبعثنا في هذا اليوم إلى كل خير ونعوذ بك أن نجترح فيه سوءا نجبره إلى مسلم ... » لم أجد أوله والتزمذي من كلام أبي بكر في حديث له « وأعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه أو شهرف على أمسينا سوءا أو نجبره إلى مسلم » رواه أبو داود من كلام أبي مالك الأشعري بإسناد جيد . (١٢) « اللهم فائق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس =

كل نعمة من الله ماشاء الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله (١) رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً - ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير (٢) - وإذا أمسى قال ذلك إلا أنه يقول «أمسينا» ويقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم (٣) وإذا نظر في المرأة قال الحمد لله الذي سوى خافي فعدله وكرم صورته وجهي وحسنا وجهي من المسلمين (٤) وإذا اشتريت خادماً أو غلاماً أو دابة فخذ بناصيته وقل اللهم إني أسألك خير ما خبيل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما خبيل عليه (٥) وإذا هنأت بالنكاح فقل بارك الله فيك وبارك عليك وجمع بينكما في خير (٦) وإذا قضيت الدين فقل للمقضى له بارك الله لك في أهلك ومالك إذا قال ﷺ وإنما جزاء السلف الحمد والأداء (٧)

فهذه أدعية لا يستغنى المرء عن حفظها وما سوى ذلك من أدعية السفر والصلاة والوضوء كرها في كتاب الحج والصلاة والطهارة فإن قلت: فما فائدة الدعاء والقضاء لا مرد له؟ فأعلم أن من القضاء رد البلاء بالدعاء فالدعاء سبب

والقهر حسباً أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه « قلت: هو مركب من حديثين فروى أبو منصور الديلمي في القردوس من حديث أبي سعيد قال «كان النبي ﷺ يدعو : اللهم فاقني الإصباح وجاعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباً أقض عني الدين وأغنني من الفقر وقوف على الجهاد في سبيلك » والدارقطني في الأفراد من حديث البراء « نألك خير هذا اليوم وخير ما بعده ، ونعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » وأبو داود من حديث ابن مالك الأشعري اللهم إنا نسألك خير هذا اليوم فتحه ونصره ونوره وهدايته وبركته أعوذ بك من شر ما فيه وشر ما بعده » وسنده جيد وللحسن بن علي بن الميمون في اليوم والليلة من حديث ابن مسعود « اللهم إني أسألك خير ما في هذا اليوم وخير ما بعده وأعوذ بك من شر هذا اليوم وشر ما بعده » والحديث عند مسلم في النساء « خير هذه الليلة ... » ثم قال : وإذا أصبح قال ذلك أيضاً .

(١) « بسم الله ماشاء لاقوة إلا بالله لاقوة إلا ماشاء الله كل نعمة فمن الله الخير كله بيد الله ماشاء الله لا يصرف السوء إلا الله » عند في الكامل من حديث ابن عباس ولا أعلمه إلا مرفوعاً إلى النبي ﷺ «قال يلتقي الخضر والياسن عليهما الصلاة والسلام كل عام بالموسم بمجي فيخلق كل واحد منهما رأس صاحبه فيفترقان عن هذه الكلمات » فذكره ولم يقل « الخير كله بيد الله » قال موضعها « لا يسوق الخير إلا الله » قال ابن عباس : من قالهن حين يصبح وحين يمسي أمته الله من الترق والخرق وأحسبه قال : ومن الشيطان والسلطان والحيلة والمقرب . أوردته في ترجمة الحسين بن زرير قال ليس بالمعروف وهو الإسناد منكرو . (٢) « رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد نبياً » تقدم في الباب الأول (٣) « القول عند النساء مثل الصباح إلا أنك تقول : أمسينا وتقول مع ذلك أعوذ بكلمات الله التامات وأسمائه كلها من شر ما ذرأ وبرأ ومن شر كل ذي شر ومن شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم » أخرجه أبو الشيخ في كتاب الثواب من كلام عبد الرحمن بن عوف « من قال حين يصبح أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ إذا اعتصم من شر الثقلين ... » وفيه « وإن قالهن حين يمسي كن له كذلك حق يصبح » وفيه ابن لجة ولأحمد من حديث عبد الرحمن بن حسين في حديث « إن جبريل قال يا أحمد قل أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر ما ينزل من السماء ... » وإسناده جيد ولمسلم من كلام أبي هريرة في الدعاء عند النوم « أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها » للطبراني في الدعاء من حديث أبي الدرداء « اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ومن شر كل دابة أنت ... » وقد تقدم في الباب الثاني . (٤) « القول إذا نظر في المرأة » الحمد لله الذي سوى خافي فعدله وكرم صورته وجهي وحسنا وجهي وحسنا وجهي من المسلمين » أخرجه الطبراني في الأوسط وابن السني في اليوم والليلة من كلام أنس بسند ضعيف . (٥) « القول إذا اشترى خادماً أو دابة : اللهم إني أسألك خيره وخير ما جبل عليه وأعوذ بك من شره وشر ما جبل عليه » أخرجه أبو داود وابن ماجه من كلام عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بسند جيد . (٦) « التهنة بالنكاح : بارك الله لك وبارك عليك وجمع بينكما في خير » أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه من حديث أبي هريرة قال الترمذي حسن صحيح . (٧) « الدعاء لصاحب الدين إذا قضى الله دينه . بارك الله لك في أهلك ومالك وإنما جزاء السلف الحمد والأداء » أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن أبي ربيعة قال استغفرني النبي ﷺ أربعين ألفاً فجاءه مال فدفعه إلي » قال فذكره وإسناده حسن



لرد البلاء واستجلاب الرحمة كما أن الترس سبب لرد السهم والماء سبب لخروج النبات من الأرض فسبحا أن الترس يدفع السهم فيندافمان فيكذلك الدعاء والبلاء يتعالمجان . وليس من شرط الاعتراف بقضاء الله تعالى أن لا يحمل السلاح وقد قال تعالى ( خذوا حذركم ) وأن لا يسقى الأرض بعد بت البذر يقال إن سبق القضاء بالنبات نبت البذر وإن لم يسبق لم ينبت . بل ربط الأسباب بالمسببات هو القضاء الأول الذي هو كليج البصر أو هو أقرب وترتيب تفصيل المسببات على تفاصيل الأسباب على التدرج والتقدير هو القدر والذي قدر الخير قدره بسبب . والذي قدر الشر لدفعه سبباً فلا تناقض بين هذه الأمور عند من انفتحت بصيرته . ثم في الدعاء من الفائدة ما ذكرناه في الذكر فإنه يستدعى حضور القلب مع الله وهو منتهى العبادات ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء مخ العبادة »<sup>(١)</sup> والغالب على الخلق أنه لا تنصرف قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل إلا عند إلمام حاجة وإرهاق ملة فإن الإنسان إذا مسه الشر فذود دعاء عريض . فالحاجة تتوج إلى الدعاء والدعاء يرد القلب إلى الله عز وجل بالتضرع والاستكافة فيحصل به الذكر الذي هو أشرف العبادات . ولذلك صار البلاء موكلاً بالأنبياء عليهم السلام ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل لأنه يرد القلب بالافتقار والتضرع إلى الله عز وجل ويمنع من نسيانه وأما الغنى فسبب للغر في غالب الأمور فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى . فهذا ما أردنا أن نورد من جملة الأذكار والدعوات والله الموفق للخير . وأما بقية الدعوات في الأكل والسفر وعبادة المريض وغيرها فستأتى في مواضعها إن شاء الله تعالى وعلى الله التكلان . نجز كتاب الأذكار والدعوات ، بكماله . يتلو إن شاء الله تعالى كتاب : الأوراد . والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

## كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل

وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين

وبه اختتام ربع العبادات نفع الله به المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله على آلائه جداً كثيراً ونذكره ذكراً لا يغادر في القلب استكباراً ولا نفورا ونشكره إذ جعل الليل والتهار خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا ونصلى على نبيه الذي بعثه بالحق بشيراً ونذيراً وعلى آله الطاهرين وصحبه الأكرمين الذين اجتهدوا في عبادة الله عبادة وشهية وبكرة وأصيلاً حتى أصبح كل واحد منهم نجاة في الدين هادياً وسراجاً مثيراً .

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الأرض ذللاً لعباده لا ليستقروا في مناكبها بل ليتخذوها موطئاً فيزودوها منها زاداً يحملهم في سفرهم إلى أوطانهم ويكثرون منها تحفاً لنفوسهم عملاً وفضلاً يحترزين من معاصيها ومعاظيها ويتحققون أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها . فالتاس في هذا العالم سفر وأول منازلهم الممدود آخرها الصدور والوطن هو الجنة أو النار . والعمر مسافة السفر ؛ فسئلهم مراجله . وشهوه فراسخه . وأيامه أمياله وأفئاسه خطواته . وطاعته بضاعته وأوقاته رءس أمواله . وشهوته وأعراضه قطاع طريقه . وريحه القوز بقاء الله تعالى في دار السلام مع الملك

(١) « الدعاء مخ العبادة » تخدم في الباب الأول .

الكبير والتعظيم المقيم ، وخسرانه البعد من الله تعالى مع الانكاد والاعلال والعذاب الآليم في دركات الجمع . فالغافل في نفس من أنفاسه حتى ينقضى في غير طاعة تقربه إلى الله زلنى متعرض في يوم التغابن لضيقه وحسرة ما لها منتهى ولهذا الخطر العظيم والخطب الهائل شمر الموفقون عن ساق الجند وودعوا بالكلية ملاذ النفس واغتصموا بقايا العمر . ورتبوا بحسب تكرار الأوقات وظائف الأوراد حرصا على إحياء الليل والنهار في طلب القرب من الملك الجبار والسعى إلى دار القرار قصار من مهمات علم طريق الآخرة تفصيل القول في كيفية قسمة الأوراد وتوزيع العبادات التي سبق شرحها على مقادير الأوقات ويتضح هذا المهم بذكر بابين : ( الباب الأول ) في فضيلة الأوراد وترتيبها في الليل والنهار . ( الباب الثاني ) في كيفية إحياء الليل وفصيلته وما يتعلق به .

## الباب الأول

### في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

فضيلة الأوراد وبيان أن المواظبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى

أعلم أن الناظرين بنور البصيرة علموا أنه لانجاة إلا في لقاء الله تعالى وأنه لاسبيل إلى اللقاء إلا بأن يموت العبد بحيا لله تعالى وعارفا بالله سبحانه . وأن الحية والأنس لا يحصل إلا من دوام ذكر المحبوب والمواظبة عليه . وأن المعرفة لا تحصل إلا بدوام الفكر فيه وفي صفاته وأفعاله . وليس في الوجود سوى الله تعالى وأفعاله . ولن يتيسر دوام الذكر والفكر إلا بوداع الدنيا وشهواتها والاجتهاد منها بقدر البلغة والضرورة وكل ذلك لا يتم إلا باستغراق أوقات الليل والنهار في وظائف الأذكار والأفكار . والنفس لما جبلت عليه السامة والمال والاشتغال وأن الله تعالى لا يعمل حتى تموتوا . فمن ضرورة اللطف بها أن تروح بالانتقل من فن إلى فن ومن نوع إلى نوع بحسب كل وقت لتعزز بالانتقال لذتها وتعظم باللذة رغبتها وتدوم بدوام الرغبة مواظبتها . فذلك تقسم الأوراد قسمة مختلفة فالذكر والفكر ينبغي أن يستغرقا جميع الأوقات أو أكثرها فإن النفس بطبعها مائلة إلى ملاذ الدنيا . فإن صرف العبد شطر أوقاته إلى تدبيرات الدنيا وشهواتها المباحة مثلا والفسطاط الآخر إلى العبادات رجع جانب الميل إلى الدنيا لموافقتها الطبع إذ يكون الوقت متساويا ، فأن يتقوام والطبع لأحدهما مرجح إذ الظاهر والباطن يتساعدان على أمور الدنيا ويصرف في طلبها القلب ويجرد . وأما الرد إلى العبادات فمتكلف ولا يسلم لإخلاص القلب فيه وحضوره إلا في بعض الأوقات فمن أراد أن يدخل الجنة بغير حساب فليستغرق أوقاته في الطاعة . ومن أراد أن ترجع كفة حسنة وثقل موازين خيرا فليستعصب في الطاعة أكثر أوقاته فإن خلط عملا صالحا وآخر سيئا فأمره خطر ولكن الرجاء غير منقطع والعفو من كرم الله منتظر فسي الله تعالى أن يضره له بمجوده وكرمه ؛ فهذا ما انكشف للناظرين بنور البصيرة ، فإن لم تكن من أهله فأنظر إلى خطاب الله تعالى لرسوله وأقبيه بنور الإيمان فقد قال الله تعالى لأقرب عباده إليه وأرفعهم درجة لديه ﴿ إن لك في النهار سبعا طويلا وإذا ذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذا ذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا ﴾ وقال تعالى ﴿ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود ﴾ وقال سبحانه ﴿ وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ﴾ وقال تعالى ﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا ﴾ وقال تعالى ﴿ ومن آتاه الليل فليسبح وأطراف النهار لعنك ترضى ﴾ وقال عز وجل ﴿ وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ﴾ ثم انظر كيف وصف الفائزين من عباده وبماذا وصفهم فقال تعالى ﴿ أمن هو قانت

آناء الليل ساجداً وقائماً يهتدوا بالآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴿وقال تعالى ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً﴾ وقال عز وجل ﴿والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً﴾ وقال عز وجل ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وبالآحجار هم يستغفرون﴾ وقال عز وجل ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وقال تعالى ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهي﴾ فهذا كله بين لك أن الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارها بالأوراد على سبيل الدوام . ولذلك قال عليه السلام « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله تعالى (١) » وقد قال تعالى ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ وقال تعالى ﴿ألم ترى إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً ثم قبضناه فبقضاً يسيراً﴾ وقال تعالى ﴿والقمر قدرناه منازل﴾ وقال تعالى ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾ فلا تظن أن المقصود من سير الشمس والقمر بحسبان منظوم مرتب ومن خلق الظل والنور والنجوم أن يستعان بها على أمور الدنيا بل لتعرف بها مقادير الأوقات فتشتغل فيها بالطاعات والتجارة للدار الآخرة بذلك عليه قوله تعالى ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً﴾ أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر وبين أن ذلك للذكر والشكر لا غير . وقال تعالى ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتهتدوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ ولما الفضل المبني هو الثواب والمغفرة ونسأل الله حسن التوفيق لما يرضيه .

### بيان أعداد الأوراد وترتيبها

أعلم أن أوراد النهار سبعة : فسا بين طلوع الصبح إلى طلوع قرص الشمس ورد ، وما بين طلوع الشمس إلى الزوال وردان ، وما بين الزوال إلى وقت العصر وردان ، وما بين العصر إلى المغرب وردان ، والليل ينقسم إلى أربعة أوراد : وردان بين المغرب إلى وقت نوم الناس ، ووردان من النصف الأخير من الليل إلى طلوع الفجر . فلنذكر فضيلة كل ورد وظليفته وما يتعلق به .

فالورد الأول : ما بين طلوع الصبح إلى طلوع الشمس وهو وقت شريف ويدل على شرفه وفضله إقسام الله تعالى به إذ قال ﴿والصبح إذا تنفس﴾ وتبدعه إذ قال ﴿فاتقوا الصباح﴾ وقال تعالى ﴿قل أعوذ برب الفلق﴾ وإظهاره القدرة بقبض الظل فيه إذ قال تعالى ﴿ثم قبضناه إلبنا قبضاً يسيراً﴾ وهو وقت قبض ظل الليل بسط نور الشمس وإرشاده الناس إلى التسبيح فيه بقوله تعالى ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ وبقوله تعالى ﴿فسبح محمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها﴾ وقوله عز وجل ﴿ومن آتاه الليل فليحسب فسيح أطراف النهار لعلك ترضى﴾ وقال تعالى ﴿وذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً﴾ .

فأما ترتيبه : فليأخذ من وقت انتباهه من النوم فإذا انتبه فلينبغي أن يتبني . بذكر الله تعالى فيقول الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور إلى آخر الأدعية والآيات التي ذكرناها في دعاء الاستيقاظ من كتاب الدعوات

كتاب الأوراد وفضل إحياء الليل

الباب الأول في فضيلة الأوراد

(١) « أحب عباد الله إلى الله الذين يراعون الشمس والقمر والأهلة لذكر الله » أخرجه الطبراني والحاكم وقال صحيح الإسناد من حديث ابن أبي أوفى بلفظ « خيار عباد الله » .

وليس ثوبه وهو في الدعاء وينوي به ستر عورته امتثالاً لأمر الله تعالى واستماعة به على عبادته من غير قصد رياء ولا رصوة ثم توجه إلى بيت الماء إن كان به حاجة إلى بيت الماء ويدخل أولاً رجله اليسرى ويدعو بالأدعية التي ذكرناها فيه في كتاب الطهارة عند الدخول والخروج . ثم يستاك على السنة - كما سبق - ويتوضأ مراعيًا لجميع السنن والأدعية التي ذكرناها في الطهارة فإنما إنما قدمنا أحاد العبادات لكي نذكر في هذا الكتاب وجه التركيب والترتيب فقط . فإذا فرغ من الوضوء صلى ركعتي الفجر أتمنى السنة في منزله (١) كذلك كان يفعل رسول الله ﷺ وقرأ بعد الركعتين سواء أدامها في البيت أو المسجد الدعاء الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما ويقول « اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها إلى آخر الدعاء .. (٢) » ثم يخرج من البيت متوجهاً إلى المسجد ولا ينسى دعاء الخروج إلى المسجد ولا يسعى إلى الصلاة سعيًا بل يمشي وعليه السكينة والوقار (٣) كما ورد به الخبر ولا يشبك بين أصابعه . ويدخل المسجد ويقدم رجله اليمنى ويدعو بالمأثور لدخول المسجد (٤) ثم يطلب من المسجد الصف الأول إن وجد متمسكاً ولا يتخطى رقاب الناس ولا يراحم - كما سبق ذكره في كتاب الجمعة - ثم يصلي ركعتي الفجر إن لم يكن صلاماً في البيت ويشغل بالدعاء المذكور بعدهما . وإن كان قد صلى ركعتي الفجر صلى ركعتي التحية وجلس منتظراً للجماعة . والأصح التغليس بالجماعة فقد كان ﷺ يغسل بالصبح (٥) ولا ينبغي أن يدع الجماعة في الصلاة عامة وفي الصبح والثناء خاصة فلهما زيادة فضل . فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال في صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد ليصلي فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعفى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها ، فإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفاً ألف حسنة ، ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة (٦) » وكان من عادة السلف دخول المسجد قبل طلوع الفجر . قال رجل من التابعين « دخلت المسجد قبل طلوع الفجر فقلت أبا هريرة قد سبقني فقال لي : يا ابن أخي لا شيء خرجت من مثلك في هذه الساعة » فقلت لصلاة الغداة فقال : أبشر فإنما كنا نعد خروجنا وقعودنا في المسجد في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله تعالى (٧) - أو قال - مع رسول الله صلى الله عليه وسلم - وعن علي رضي الله عنه أن النبي ﷺ طرقة وفاطمة رضي الله عنهما وهما نائمان فقال « ألا تصليان قال علي : فقلت يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله تعالى فإذا شاء أن يبعثنا بعثاً فانصرف صلى الله عليه وسلم فسمعه وهو منصرف يضرب غنمه ويقول : وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً (٨) » ثم ينبغي أن يشتغل بعد ركعتي الفجر ودعائه بالاستغفار والتسبيح إلى أن تقام الصلاة فيقول « أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأتوب إليه سبعين مرة

(١) « صلاة ركعتي الصبح في المنزل » متفق عليه من حديث حفصة .

(٢) « الدعاء بين ركعتي الصبح : اللهم أسألك رحمة من عندك ... » تقدم .

(٣) « انتهى إلى الصلاة وعليه السكينة » متفق عليه من حديث أبو هريرة .

(٤) « الدعاء المأثور لدخول المسجد » تقدم في الباب الخامس من الأذكار .

(٥) « التغليس في الصبح » متفق عليه من حديث عائشة .

(٦) حديث أنس في صلاة الصبح « من توضأ ثم توجه إلى المسجد صلى فيه الصلاة كان له بكل خطوة حسنة وعفى عنه سيئة والحسنة بعشر أمثالها وإذا صلى ثم انصرف عند طلوع الشمس كتب له بكل شعرة في جسده حسنة وانقلب بحجة مبرورة فإن جلس حتى يركع حتى يركع الضحى كتب له بكل ركعة ألفاً ألف حسنة ومن صلى العتمة فله مثل ذلك وانقلب بحجة مبرورة » لم أجد له أصلاً بهذا السياق وفي شعب الإيمان للبيهقي من حديث أنس بسند ضعيف « ومن صلى المغرب في جماعة كان له كحجة مبرورة وعمرة مقبلة . » (٧) حديث أبي هريرة « كنا نعد خروجنا وقعودنا في المجلس في هذه الساعة بمنزلة غزوة في سبيل الله » لم أقفله على أصل . (٨) حديث علي « أن النبي ﷺ طرقة وفاطمة وهما نائمات فقال : ألا تصليان قال علي : يا رسول الله إنما أنفسنا بيد الله . . . متفق عليه .

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ٥ ثم يصلي الفريضة مراعيًا جميع ما ذكرناه من الآداب الباطنة والظاهرة في الصلاة والتدوئة فإذا فرغ منها قعد في المسجد إلى طلوع الشمس في ذكر الله تعالى كما سررت به فقد قال صلى الله عليه وسلم «لأن أقعد في مجلسي أذكر الله تعالى فيه من صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب» (١) وروى «أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس - وفي بعضها - ويصلي ركعتين» (٢) أي بعد الطلوع وقد ورد في فضل ذلك ما لا يحصى . وروى الحسن «أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكره من رحمة ربه يقول إنه قال : يا ابن آدم أذكرني بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما» (٣) «وإذا ظهر فضل ذلك فليتمد ولا يتكلم إلى طلوع الشمس بل ينبغي أن تكون وظيفته إلى الطلوع أربعة أنواع أدعية وأذكار ويكررها في سبعة وقرآنة وتفسير . أما الأدعية : فكما يفرغ من صلاته فليبدأ أو يقلل «اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وسلم اللهم أنت السلام ومنك السلام وإليك يعود السلام حينما ربنا بالسلام وأدخلنا دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام» ثم يفتح الدعاء بما كان يفتح به رسول الله ﷺ وهو قوله وسبحان ربّي العلي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير لا إله إلا الله أهل النعمة والفعل والثناء الحسن لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون» (٤) ثم يبدأ بالأدعية التي أوردناها في الباب الثالث والرابع من كتاب الأدعية فيدعو بجميعها إن قدر عليه أو يحفظ من جملتها ما رآه أوفق بما له وأرق لقلبه وأخف على لسانه . وأما الأذكار المسكورة فهي كلمات وردت تكرارها فضائل لم نطول بإيرادها وأقل ما ينبغي أن يكرر كل واحد منها ثلاثاً أو سبعمائة أو سبعمائة وأوسطه عشر . فليكررها بقدر فراغه وسعة وقته وفضل الأكثر أكثر . والأوسط الأصعد أن يكررها عشر مرات فهو أجدر بأن يدوم عليه وخير الأمور أودعها وإن قل . وكل وظيفة لا يمكن المواظبة على كثيرها فقليلها مع المداومة أفضل وأشد تأثيراً في القلب مع كثيرها مع الفترة . ومثال القليل الدائم كقطرات ماء تتقاطر على الأرض على الثوال فتحدث فيها حفيرة ولو وقع ذلك على الحجر . ومثال الكثير المتفرق ماء يسبب دفعة أو دفعات متفرقة متباعدة الأوقات فلا يبين لها أثر ظاهر وهذه الكلمات عشرة ( الأولى ) قوله : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير ( الثانية ) قوله : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله

- (١) «لأن أقعد في مجلسي أذكر الله فيمن صلاة الغداة إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب» أخرجه أبو داود من حديث أنس وتقدم في الباب الثالث من العلم .
- (٢) «كان إذا صلى الغداة قعد في مصلاه حتى تطلع الشمس وفي بعضها ويصلي ركعتين أي بعد الطلوع» أخرجه مسلم من حديث جابر بن سمرة دون ذكر الركعتين والترمذي من حديث أنس وحسنه «من صلى الفجر في جماعة ثم قعد يذكر الله تعالى حتى تطلع الشمس ثم صلى ركعتين كانت له كأجر حجة وعمره تامة تامة تامة» .
- (٣) الحسن «أن رسول الله ﷺ كان فيما يذكر من رحمة ربه أنه قال : يا ابن آدم أذكرني بعد صلاة الفجر ساعة وبعد صلاة العصر ساعة أكفك ما بينهما» أخرجه ابن المبارك في الزهد هكذا مرسلًا .
- (٤) «كان يفتح الدعاء بسبحان ربّي العلي الأعلى الوهاب» تقدم .
- (٥) «الفضل في تكرار لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير» تقدم من حديث أبي أيوب تكرارها عشراً دون قوله «يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير» فإنها في اليوم واليلة للنسائي من حديث أبي ذر دون قوله «وهو حي لا يموت» وهي كلها عند البراء من حديث عبد الرحمن بن عوف فيما يقال عند الصباح والمساء وتقدم تكرارها مائة ومائتين وللطبراني في الدعاء من حديث عبد الله بن عمر وتكرارها ألف مرة وإسناده ضعيف .

العلي العظيم<sup>(١)</sup> (الثالثة) قوله : سبح قدوس رب الملائكة والروح<sup>(٢)</sup> . (الرابعة) قوله : سبحان الله العظيم وبحمده<sup>(٣)</sup> (الخامسة) قوله : استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة<sup>(٤)</sup> (السادسة) قوله : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند<sup>(٥)</sup> (السابعة) قوله : لا إله إلا الله الملك الحق المبين<sup>(٦)</sup> (الثامنة) قوله : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم<sup>(٧)</sup> (التاسعة) اللهم صل على محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم<sup>(٨)</sup> (العاشر) قوله : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون<sup>(٩)</sup> فهذه العشر كلمات إذا كرر كل واحدة عشر مرات حصل له مائة مرة ؛ فهو أفضل من أن يكرر ذكراً واحداً مائة مرة ؛ لأن لكل واحدة من هؤلاء الكلمات فضلاً على حياله وللقب بكل واحد نوع نبيه ولذلك وللنفس في الانتقال من كلمة إلى كلمة نوع استراحة وأمن من الملل . فأما القراءة فيستحب له قراءة جملة من الآيات

(١) « الفضل في تكرر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجه النسائي في اليوم والليالي وابن حبان والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد الخدري « استكثروا من الباقيات الصالحات » فذكرها .

(٢) « تكرر : سبح قدوس رب الملائكة والروح » لم أجد ذكرها مكررة ولكن عند مسلم من حديث عائشة « أنه ﷺ كان يقولها في ركوعه وسجوده » وقد تقدم ولأبي الشيخ في الثواب من حديث البراء « وأكثر من أن تقول سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح » . (٣) « تكرر : سبحان الله وبحمده » متفق عليه من حديث أبي هريرة « من قال ذلك في يوم مائة مرة حطت خطاياها وإن كانت مثل زبد البحر » . (٤) « تكرر استغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم » أسأله التوبة « أخرجه السنن في الدعوات من حديث معاذ « أن من قالها بعد الفجر وبعد العصر ثلاث مرات كفرت ذنوبه » وإن كانت مثل زبد البحر » ولفظه « وأتوب إليه » وفيه ضعف وهكذا رواه الترمذي من حديث أبي سعيد في قولها « ثلاثاً » وللبخاري من حديث أبي هريرة « إن لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة » ولم يقل الطبراني « أكثر » ولمسلم من حديث الأعرابي « لأستغفر الله في كل يوم مائة مرة » تقدمت هذه الأحاديث في الباب الثاني من الأذكار . (٥) « تكرر : اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت ولا ينفع ذا الجند منك الجند » لم أجد تكرارها في حديث وإنما وردت مطلقة عقب الصلوات في الرفع من الركوع (٦) « تكرر : لا إله إلا الله الملك الحق المبين » أخرجه السنن في الدعوات والخطيب في الرواية عن مالك من حديث علي « من قالها في يوم مائة مرة كان له أمان من الفقر وأمان من وحشة القبر واستحلت به الفنى واستقرع به باب الجنة » وفيه الفضل بن غنم ضعيف ولأبي نعيم في الحلية « من قال ذلك في كل يوم وليلة مائة مرة لم يسأل فيها الله حاجة إلا قضاها » وفيه سلم الخواص ضعيف وقال فيه : أظنه من علي . (٧) « تكرر : بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » أخرجه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم وصححه من حديث عثمان « من قال ذلك ثلاث مرات يمسي لم يصبه فجأة بلاء حتى يصبح ومن قالها ثلاث مرات حين يصبح لم يصبه فجأة بلاء حتى يمسي » قال الترمذي حسن صحيح غريب . (٨) « تكرر : اللهم صل على محمد عبدك ونيبك ورسولك النبي الأمي وعلى آل محمد » ذكره أبو القاسم محمد بن عبد الواحد الطائفي في فضائل القرآن من حديث أبي أوفى « من أراد أن يموت في السماء الرابعة فليقل كل يوم ثلاث مرات » فذكره وهو منكر . قلت : ورد التكرار عند الصباح والمساء من غير تعيين لهذه الصيغة رواه الطبراني من حديث أبي الدرداء بلفظ « من صلى على حين يصبح عشراً وحين يمسي عشراً أدركنه شفاعتي يوم القيامة » وفيه انقطاع . (٩) « تكرر : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم أعوذ بالله من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون » أخرجه الترمذي من حديث معقل ابن يسار « من قال حين يصبح ثلاث مرات أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وقرأ ثلاث آيات من آخر سورة الحشر وكل الله به سبعين ألف ملك ... » ومن قالها حين يمسي كان تلك اللزلة وقال حسن غريب ولا بن أبي الدنيا من حديث أنس مثل آخر مقطوع قبله « من قالها حين يصبح عشر مرات أجبر الشيطان إلى الصبح ... » ولأبي الشيخ في الثواب من حديث عائشة « ألا أعلمك يا خالد كلمات تقولها ثلاث مرات قل : أعوذ بكلمات الله التامة من غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون » وهو عند أبي داود والترمذي وحسنه والحاكم وصححه فيما يقال عند النزح دون تكرارها ثلاثاً من حديث عبد الله بن عمر .

وردت الأخبار بفضلها وهو أن يقرأ سورة الحمد (١) وآية الكرسي (٢) وخاتمة البقرة (٣) من قوله آمين الرسول وشهد (٤) وقال اللهم مالك الملك الآتين (٥) وقوله تعالى لقد جاءك رسول من أنفك إلى آخرها (٦) وقوله تعالى لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق إلى آخرها (٧) وقوله سبحانه الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً (٨) الآية وخمس آيات من أول الحديد (٩) وثلاثاً من آخر سورة الحشر (١٠) وإن قرأ المسببات المشرقة أهداها الحضر عليه السلام إلى إبراهيم التيمي رحمه الله ووصاه أن يقولها غدوة وعشية فقد استكمل الفضل وجمع له ذلك فضيلة جملة الأعدية المذكورة. فقد روى عن كرز بن وبرة رحمه الله وكان من الأبدال قال «أتاني أخ لي من أهل الشام مأهدي لي هدية وقال : يا كرز أقبل مني هذه الهدية فانها نعمت الهدية ، فقلت : يا أخي ومن أهدى لك هذه الهدية ؟ قال أعطاني إبراهيم التيمي ، قلت أقم تسأل إبراهيم من أعطاه إياها ؟ قال : بلى قال : كنت جالساً في بناء الكعبة وأنا في التهليل

(١) « فضل سورة الحمد » أخرجه البخاري من حديث أبي سعيد بن الحلي أنها أعظم السور في القرآن ومسلم من حديث ابن عباس « في الملك الذي نزل إلى الأرض وقال للتي ﷺ أشر بنورين أو بينهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتم سورة البقرة ، ثم قرأ بحرف منها إلا أعطيته » (٢) « فضل آية الكرسي » أخرجه مسلم من حديث أبي بن كعب « يا أبا المنذر أمدري أي آية من كتاب الله معك أعظم ؟ قلت : الله لا إله إلا هو الحى القيوم ... الحديث » والبخاري من حديث أبي هريرة في توكيله بحفظ تمر الصدقة وعجى الشيطان إليه وقوله « إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي فإنه لن يزال عليك من الله حافظ . . الحديث » وفيه « فقال رسول ﷺ : أما إنه قد صدقك وهو كذوب » . (٣) « فضل خاتمة البقرة » متفق عليه من حديث ابن مسعود « من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه » وتقدم حديث ابن عباس قبله بحديث (٤) « فضل : شهد الله » أخرجه أبو الشيخ وابن حبان في كتاب الثواب من حديث ابن مسعود « من قرأ شهد الله — إلى — قوله — الإسلام ثم قال وأنا أشهد بما شهد الله به واستودع الله هذه الشهادة وهى لي عنده ودية جىء به يوم القيامة قيل له عدى هذا عهدى لي عهداً وأنا أحق من وفى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة » وفيه عمر بن الخطاب روى الأبايل قاله ابن عدى وسأته حديث على بن عده (٥) « نزل : قل اللهم مالك الملك الآتين » أخرجه المستغفرى في الدعوات من حديث على « أن فاتحة الكتاب وآية الكرسي والآيتين من آل عمران شهد الله إلى قوله الإسلام وقل اللهم مالك إلى قوله بغير حساب معاقبات ما بينهن وبين الله حجاب . . الحديث » وفيه فقال الله لا يقرأ كن أحد من عبادي دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مثواه ... الحديث » وفيه الحارث ابن حمير وفي ترجمته ذكره ابن حبان في الضعفاء وقال موضوع لأصل له والحارث يروى عن الأبيات الموضوعات. قلت : وثقة حماد بن زيد وابن معين وأبو زرعة وأبو حاتم والنسائي وروى له البخاري تعليقا (٦) « فضل : لقد جاءك رسول من أنفك إلى آخرها » أخرجه الطبراني في الدعاء من حديث أنس بسند ضعيف « عفى رسول الله ﷺ ما أحرز به من كل شيطان رجيم ومن كل جبار عنيد » فذكر حديثاً في آخره « قل حسبي الله إلى آخر السورة » وذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن في رثائب القرآن لعبد الملك بن حبيب من رواية محمد بن بكر « أن رسول الله ﷺ قال : من لم قراءة لقد جاءك رسول من أنفك ... إلى آخر السورة — لم يمت هداماً ولا غرقاً ولا حرقاً ولا ضرباً بمجديدة » وهو ضعيف . (٧) « فضل : لقد صدق الله ورسوله الرؤيا بالحق » لم أجده فيه حديثاً خاصاً ، لكن في فضل سورة الفتح ما رواه أبو الشيخ في كتاب من حديث أبي بن كعب « من قرأ سورة الفتح فمكأنما شهد فتح مكة مع النبي ﷺ » وهو حديث موضوع . (٨) « فضل : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ... الآية » أخرجه أحمد والطبراني من حديث معاذ بن أنس « آية المز : الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ... الآية كلها » وإسناده ضعيف . (٩) « فضل : خمس آيات من أول الحديد » ذكر أبو القاسم الغافقي في فضائل القرآن من حديث على « إذا أردت أن تسأل الله حاجة فاقرا خمس آيات من أول الحديد إلى قوله — عليهم بذات الصدور — ومن آخر سورة الحشر من قوله — لو أنزلنا هذا القرآن على جبل — إلى آخر السورة ثم تقول يا من هو كذا انفصل في كذا وتدعو بما تريد . . (١٠) « فضل ثلاث آيات من آخر سورة الحشر » أخرجه الترمذي من حديث معقل بن يسار وقد تقدم قبل هذا وللبهقي من حديث أبي أمامة بسند ضعيف « من قرأ خواتم سورة الحشر في أول أو نهار فمات من يومه أو ليلته فقد أوجب الله الجنة » .

والتسبيح والتحميد والتمجيد لجاء في رجل قسّم على وجلس عن يميني فلم أر في زمانٍ أحسن منه وجها ولا أحسن منه ثيابا ولا أشد بياضا ولا أطيب ريحاً منه فقلت يا عبد الله من أنت ومن أين جئت ؟ فقال أنا الخضر فقلت في أي شيء جئتني ؟ فقال : جئتك السلام عليك وحياء لك في الله وعندى هدية أريد أن أعديها لك فقلت : ماهي ؟ قال : أن تقول قبل طلوع الشمس وقبل انبساطها على الأرض وقبل الغروب سورة الحمد وقل أعوذ برب الناس وقل أعوذ برب الفلق وقل هو الله أحد وقل يا أيها الكافرون وآية الكرسي كل واحدة سبع مرات وتقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر سبعاً وتصل على النبي صلى الله عليه وسلم سبعاً وتستغفر لنفسك ولوالديك وللمؤمنين والمؤمنات سبعاً وتقول : اللهم اعمل فيهم عاجلاً وآجلاً في الدين والدنيا والآخرة ما أنت له أهل ولا تفعل بنا يا، ولا ما نحن له أهل إنك غفور حلیم جواد كريم ودوف رحيم سبع مرات وأظن أن لا تدع ذلك غدوة وعشية فقلت : أحب أن تخبرني من أعطاك هذه العطية العظيمة ؟ فقال : أعطانيها محمد صلى الله عليه وسلم (١) فقلت : أخبرني بواب ذلك ؟ فقال : إذا لقيت محمداً صلى الله عليه وسلم فاسأله عن ثوابه فإنه يخبرك بذلك ، فذكر إبراهيم التيمي : أنه رأى ذات يوم في منامه كأن الملائكة جاءت فاحتلته حتى أدخلوه الجنة فرأى ما فيها ووصف أموراً عظيمة مما رآه في الجنة قال . فسألت الملائكة فقلت : من هذا ؟ فقالوا : للذي يعمل مثل عملك وذكر أنه أكل من ثمرها وسقوه من شرابها قال : فأنا الذي صلى الله عليه وسلم ومعه سبعون نبياً وسبعون صفاً من الملائكة كل صف مثل ما بين المشرق والمغرب قسّم على وأخذ بيدي فقلت : يا رسول الله الخضر أخبرني أنه سمع منك هذا الحديث فقال : صدق الخضر صدق الخضر ، وكل ما يحكيه فهو حق وهو عالم أهل الأرض وهو رئيس الأبدال وهو من جنود الله تعالى في الأرض فقلت : يا رسول الله فمن فعل هذا أو عمله ولم ير مثل الذي رأيت في منامٍ هل يعطى شيئاً ما أعطيت ؟ فقال والذي بعثني نبياً لأنه ليعطى العامل بهذا وإن لم يرني ولم ير الجنة إنه ليفغر له جميع السيئات التي عملها ويرفع الله تعالى عنه غضبه ومقته ويأمر صاحب الشمال أن لا يكتب عليه خطيئة من السيئات إلى سنة والذي بعثني بالحق نبياً ما يعمل بهذا إلا من خلقه الله سعيداً ولا يتركه إلا من خلقه شقيماً وكان إبراهيم التيمي يمكث أربعة أشهر لم يعلم ولم يشرب فاعله كان بعد هذه الرؤيا . فذه وظيفة القراءة ؟ فإن أضاف إليها شيئاً ما انتهى إليه ورده من القرآن أو اقتصر عليه فهو حسن فإن القرآن جامع لفضل الذكر والفكر والدعاء مهما كان بتدبر كما ذكرنا فضله وآدابه في باب التلاوة . وأما الأفكار : فليكن ذلك إحدى وظائفه وسيأتي تفصيل ما يتفكر فيه وكيفيته في كتاب التفكير من ربح المنجيات ولكن مجامعه ترجع إلى فئتين : أحدهما : أن يتفكر فيما ينفعه من المعاملة بأن يحاسب نفسه فيما سبق من تقصيره ويرتب وظائفه في يومه الذي بين يديه ويدبر في دفع الصوارف والعوائق الشاغلة له عن الخير ويتذكر تقصيره وما يطرّق إليه الخلل من أعماله ليصلحه ويعضد في قلبه النيات الصالحة من أعماله في نفسه وفي معاملته للسلبيين . الفن الثاني : فيما ينفعه من علم المكشوفة وذلك بأن يتفكر مرة في نعم الله تعالى وتواتر آلائه الظاهرة والباطنة لتزيد معرفته بها ويكثر شكره عليها أو في عقوباته وتقافته لتزيد معرفته بقدرته الإله واستغفانه ويزيد خوفه منها . ولكل واحد من هذه الأمور شعب كثيرة يتسع التفكير فيها على بعض الخلق دون البعض وإنما نستقصي ذلك في كتاب التفكير . ومهما تيسر التفكير فهو أشرف العبادات إذ فيه معنى الذكر لله تعالى وزيادة أمرين ، أحدهما : زيادة المعرفة إذ التفكير مفتاح المعرفة والكشف . والثاني : زيادة المحبة إذ لا يجب القلب إلا من اعتقد تعظيمه ولا تكشف عظمة الله سبحانه وجلاله إلا بمعرفة صفاته ومعرفة قدرته وعجائب أفعاله . فيحصل من التفكير المعرفة ومن المعرفة التعظيم ومن التعظيم المحبة . والذكر أيضاً يورث الأناس وهو نوع من المحبة ولكن المحبة التي سببها المعرفة

(١) حديث كرز بن وبرة من أهل الشام عن إبراهيم التيمي « أن الخضر عليه السبعات العشرة » وقال في آخرها « أعطانيها محمد ﷺ » ليس له أصل ولم يصح من حديث قط اجتاع الخضر بالنبي ﷺ ولا عدم اجتاعه ولا حياته ولا موته .



أقوى وأثبت وأعظم . ونسبة محبة العارف إلى أنس الذاك من غير تمام الاستبصار كسببة عشق من شاهد جمال شخص بالعين وأطلع على حسن أخلاقه وأفعاله وفضائله وخصاله الحسنة بالتجربة إلى أنس من كرر على سمعه وصف شخص غائب عن عينه بالحسن في الحق والخلق مطلقاً من تفصيل وجوه الحسن فهما فليس بمحبته له كحبة المشاهد وليس الخبر كالمأينة . فالعباد المواظبون على ذكر الله بالقلب واللسان الذين يصدقون بما جاءت به الرسل بالإيمان التقليدي ليس معهم من محاسن صفات الله تعالى إلا أمور جميلة اعتقدوها بتصديق من وصفها لهم . والعارفون هم الذين شاهدوا ذلك الجلال والجلال بعين البصيرة الباطنة التي هي أقوى من البصر الظاهر لأن أحداً لم يحيط بسكنه جلاله وجماله فإن ذلك غير مقدور لأحد من الخلق ولكن كل واحد شاهد بقدر ما رفع له من الحجاب ولا نهاية لجمال حضرة الربوبية ولا لحجبها . وإنما عدد حجبها التي استجفت أن تسمى نورا وكاد يظن الواصل إليها أنه قد تم وصوله إلى الأصل سبعون حجبا . قال صلى الله عليه وسلم « إن لله سبعين حجبا ما من نور لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل ما أدرك بصره (١) » وتلك الحجب أيضاً مرتبة وتلك الأنوار متفوتة في الرتب فتفاوتت الشمس والقمر والكواكب ويبدو في الأول أسفرها ثم ما يليه وعليه أول بعض الصوفية درجات ما كان يظهر لإبراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم في ترقيه وقال ( فلما جرى عليه الليل ) أي أظلم عليه الأمر ( رأى كوكبا ) أي وصل إلى حجاب من حجب النور ؛ فبرعنه بالكوكب وما أريد به هذه الأجسام المضنية فإن أحاد العوام لا يخفى عليهم أن الربوبية لا تنطبق بالأجسام بل يدركون ذلك بأرائل نظرم فما لا يضل العوام لا يضل الخليل عليه السلام . والحجب المسماة أنوارا ما أريد بها الضوء المحسوس بالبصر بل أريد بها ما أريد بقوله تعالى ( الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ) الآية ولتجاوز هذه المعاني فإنها خارجة عن علم المعاملة ولا يوصل إلى حقائقها إلا الكشف التابع للفكر الصافي وقل من ينتج له بابه والتيسر على جماهير الخلق الفسك فيما يفيد في علم المعاملة وذلك مما تفرد فائده ويعظم نفعه فهذه الوظائف الأربع أعني : الدعاء والذكر والقراءة والفكر ، ينبغي أن تكون وظيفة المريد بعد صلاة الصبح بل في كل ورد بعد الفراغ من وظيفة الصلاة فليس بعد الصلاة وظيفة سوى هذه الأربع . ويقول على ذلك بأن يأخذ سلاحه وجمته والصوم هو الجنة التي تضيق بجاري الشيطان المهادي الصارف له عن سبيل الرشاد . وليس بعد طلوع الصبح صلاة سوى ركعتي الفجر وفرض الصبح إلى طلوع الشمس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم يشتغلون في هذا الوقت بالأذكار (٢) وهو الأول إلا أن يظلمه النوم قبل الفرض ولم يندفع إلا بالصلاة فلو صلى لذلك فلا بأس به .

الورد الثاني : ما بين طلوع الشمس إلى ضحوة النهار وأعني بالضحوة منتصف ما بين طلوع الشمس إلى الزوال وذلك بمعنى ثلاث ساعات من النهار إذا فرض النهار اثنتي عشرة ساعة وهو الربع . وفي هذا الربع من النهار وظيقتان زائدتان ؛ إحداهما : صلاة الضحى - وقد ذكرناها في كتاب الصلاة - وأن الأول أن يصلي ركعتين عند الإشراف وذلك إذا انبسطت الشمس وارتفعت قدر نصف رخ ويصلي أربعا أو ثمانيا إذا رخصت الفصال وضحيات الأندام ببحر الشمس فوقت الركعتين هو الذي أراد الله تعالى بقوله ( يسبحن بالعمى والإشراق ) فإنه وقت إشراف الشمس وهو ظهور تمام نورها بارتفاعها عن موازات البخارات والغبار التي على وجه الأرض

(١) « إن لله سبعين حجبا ما من نور ... » تقدم في قواعد العقائد .

(٢) « اشتغاله بالأذكار من الصبح إلى طلوع الشمس » تقدم حديث جابر بن سمرة عند مسلم في جلوسه ﷺ إذا صلى الفجر في مجلسه حتى تطلع الشمس وليس فيه ذكر اشتغاله بالذكر وإنما هو من قوله عما تقدم من حديث أنس بن مالك .

فإنها تمنع إشراقها التام وقت الركعات الأربع هو الضحى الأعلى الذى أقسم الله تعالى ﴿ والضحى والليل إذا سجى ﴾ « وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : « لا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال (١) » فلذلك نقول إذا كان يقتصر على مرة واحدة في الصلاة فهذا الوقت أفضل لصلاة الضحى وإن كان أصل الفضل يحصل بالصلاة بين طرفي وقتي الكرامة وهو ما بين ارتفاع الشمس بطول نصف ربح بالاقتراب إلى ما قبل الزوال في ساعة الاستواء . وامن الضحى ينطلق على الشكل وكان ركعتي الإشراق تقع في مبتدأ وقت الإذن في الصلاة وانهضاء الكرامة إذ قال صلى الله عليه وسلم « إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقا (٢) » فأقل ارتفاعها أن ترتفع عن بخارات الأرض وغبارها وهذا براعى بالاقتراب .

الوظيفة الثانية في هذا الوقت : الخيرات المتعلقة بالناس التي جرت بها العادات بكرة من عبادة مريض وتشجيع جنازة ومعاونة على بر وتقوى وحضور مجلس علم وما يجرى مجرا من قضاء حاجة لمسلم وغيرها . فإن لم يكن شيء من ذلك عاد إلى الوظائف الأربع — التي قدمناها من الأدعية والذكر والقراءة والفسر والصلوات — المتطوع بها إن شاء . فإنها مكروهة بعد صلاة الصبح وليست مكروهة الآن . فتصير الصلاة قسما خامسا من جملة وظائف هذا الوقت لمن أرادها أما بعد فريضة الصبح فتكره كل صلاة لاسبب لها . وبعد الصبح الأحب أن يقتصر على ركعتي الفجر وتحية المسجد ولا يشتغل بالصلاة بل بالأذكار والقراءة والدعاء والفسر .

الورد الثالث : من ضحوة النهار إلى الزوال ونعني بالضحوة المنتصف وما قبله بقليل . وإن كان بعد كل ثلاث ساعات أمر بصلاة فإذا انقضت ثلاث ساعات بعد الطلوع فعندها وقبل مضيا صلاة الضحى . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالظهر . فإذا مضت ثلاث ساعات أخرى فالعصر . فإذا مضت ثلاث أخرى فالغروب . ومنزلة الضحى بين الزوال والطلوع كمنزلة العصر بين الزوال والغروب ، إلا أن الضحى لم تفرض لأنه وقت انكباب الناس على أشغالهم تخفف عنهم . الوظيفة الرابعة : في هذا الوقت الأقسام الأربعة ، وزيد أمران : أحدهما : الاشتغال بالكسب وتديير المعيشة وحضور السوق . فان كان تاجرا فيلبي أن يتجر بصديق وأمانة وإن كان صاحب صناعة فبصنع وشغفة ولا ينسى ذكر الله تعالى في جميع أشغاله ويقتصر من الكسب على قدر حاجته ليومه مما قدر على أن يكتسب في كل يوم لقوته . فإذا حصل كفاية يومه فليرجع إلى بيت ربه وليزود لآخرته فان الحاجة إلى زاد الآخرة أشد والتمتع به أدوم فاشتغاله بكسبه أهم من طلب الزيادة على حاجة الوقت . فقد قيل : لا يوجد المؤمن الا في ثلاث مواطن مسجد بعمرة أو بيت يستره أو حاجة لا بد له منها . وقل من يعرف القدر فيما لا بد منه بل أكثر الناس يقدرون فيما عنه بد أنه لا بد منه وذلك لأن الشيطان يهدم الفقر ويأمرهم بالفحشاء فيصنون اليه ويجمعون مالا يأكلون خيفة الفقر والله يهدم مغفرة منه وفضلا فيعرضون عنه ولا يرغبون فيه . الأمر الثاني : القيلولة وهي سنة يستعان بها على قيام الليل كما أن السحر سنة يستعان به على صيام النهار . فان كان لا يقوم بالليل لكن لو لم يتم لم يشتغل بخير وربما خالط أهل الغفلة وتحدث معهم فالتوم أحب له اذا كان لا ينيتم نشاطه للرجوع الى الأذكار والوظائف المذكورة إذ في التوم الصمت والسلامة ، وقد قال بعضهم : يأتي على الناس زمان الصمت والتوم فيه أفضل أعمالهم . وكمن عابد أحسن أحواله النوم وذلك إذا كان يراقى بعبادته ولا يخلص فيها فكيف بالغافل

(١) « خرج على أصحابه وهم يصلون عند الإشراق فنادى بأعلى صوته : « لا إن صلاة الأوابين إذا رمضت الفصال » أخرجه الطبراني من حديث زيد بن أرقم دون قوله « فنادى بأعلى صوته » وهو عند مسلم دون ذكر الإشراق .  
(٢) « إن الشمس تطلع ومعهما قرن الشيطان فإذا ارتفعت فارقا » تقدم في الصلاة .

العاسق ؟ قال سفيان الثوري رحمه الله : كان يمجهم إذا تفرغوا أن يتأموا طلباً للسلامة فإذا كان نومه على قصد طلب السلامة ونية قيام الليل كان نومه قربة . ولكن ينبغي أن يتنبه قبل الزوال بقدر الاستعداد للصلاة بالوضوء وحضور المسجد قبل دخول وقت الصلاة فإن ذلك من فضائل الأعمال . وإن لم يتم ولم يشتغل بالسكسب واشتغل بالصلاة والذكر فهو أفضل أعمال النهار لأنه وقت غفلة الناس عن الله عز وجل واشتغالهم بهوم الدنيا فالقلب المنفرد لخدمة ربه عند إعراض العبيد عن بابه جدير بأن يزيه الله تعالى ويصطفيه لقربه ومعرفته . وفضل ذلك كفضل إحياء الليل فإن الليل وقت الغفلة والنوم وهذا وقت الغفلة باتباع الهوى والاشتغال بهوم الدنيا وأسد معني قوله تعالى : ﴿ وهو الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر ﴾ أي يخلف أحدهما الآخر في الفضل والثاني : أنه يخلفه فيتدارك فيه ما فات في أحدهما .

الورد الرابع : ما بين الزوال إلى الفراغ من صلاة الظهر ورائته وهذا أنصر أوراد النهار وأفضلها . فإذا كان قد توجهاً قبل الزوال وحضر المسجد فبهما زالت الشمس وابتدأ المؤذن الأذان فليصبر إلى الفراغ من جواب أذانه ثم ليقيم إلى إحياء ما بين الأذان والإقامة فهو وقت الإظهار الذي أراه الله تعالى بقوله ﴿ وحين تظهرون ﴾ وليصل في هذا الوقت أربع ركعات لا يفصل بينها بتسليمة واحدة<sup>(١)</sup> وهذه الصلاة وحدها من بين سائر صلوات النهار نقل بعض العلماء أنه يصلها بتسليمة واحدة ولكن طعن في تلك الرواية . ومذهب الشافعي رضي الله عنه أنه يصل مثل كسائر التوافل ويفصل بتسليمة<sup>(٢)</sup> وهو الذي صححت به الأخبار وليطول هذه الركعات إذ فيها تفتح أبواب السماء كما أوردنا الخبر فيه في باب صلاة التطوع وليقرأ فيها سورة البقرة أو سورة من المثني أو أربعاً من المثاني فلهذه ساعات يستجاب فيها الدعاء . وأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرفع له فيها عمل . ثم يصل الظهر جماعة بعد أربع ركعات طويلة - كما سبق - أو قصيرة لا ينبغي أن يدها . ثم ليصل بعد الظهر ركعتين ثم أربعاً فقد كره ابن مسعود أن تتبع الفريضة بثلاث من غير فاصل . ويستحب أن يقرأ في هذه النافلة آية الكرسي وآخر سورة البقرة والآيات التي أوردناها في الورد الأول ليكون ذلك جامعا له بين الدعاء والذكر والقراءة والصلاة والتحميد والتسبيح مع شرف الوقت .

الورد الخامس : ما بعد ذلك إلى العصر ويستحب فيه السكوت في المسجد مشغلا بالذكر والصلاة أو فنون الخير ويكون في انتظار الصلاة معتكفا . فمن فضائل الأعمال انتظار الصلاة بعد الصلاة وكان ذلك سنة السلف . كان الداخل يدخل المسجد بين الظهر والعصر فيسمع المصلين دوياً كدوى النحل من التلاوة . فإن كان بيته أسلم لدينه وأجمع همه فاليق أفضل في حقه فاحياه هذا الورد وهو أيضاً وقت غفلة الناس كإحياء الورد الثالث في الفضل . وفي هذا الوقت يكره النوم لمن نام قبل الزوال إذ يكره نومتان بالنهار . قال بعض العلماء : ثلاث يمتت الله عليها : الضحك بغير عجب والأكل من غير جوع والنوم بالنهار من غير سحر بالليل . والحد من النوم أن الليل والنهار أربع وعشرون ساعة فلاحتدال في نومه ثمان ساعات في الليل والنهار جميعاً فإن نام هذا القدر بالليل فلا معنى للنوم بالنهار ، وإن نقص منه مقدراً استوفاه بالنهار حسب ابن آدم إن عاش ستين سنة أن ينقص من عمره عشرون سنة . ومهما نام ثمان ساعات وهو الثلث فقد نقص من عمره الثلث ولكن لما كان النوم غذاء الروح كما أن الطعام غذاء الأبدان

(١) « صلاة أربع بعد الزوال بتسليمة واحدة » وفيه « أنها فيها تفتح أبواب السماء وأنها ساعة يستجاب فيها الدعاء فأحب أن يرفع له فيها عمل صالح » أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبو أيوب وقد تقدم في الصلاة في الباب السادس .

(٢) « صلاة الليل والنهار مثل مثني » أخرجه ابن حبان من حديث ابن عمر .

وكما أن المسلم والذكر غذاء القلب لم يمكن قطعه عنه وقدّر الاعتدال هذا والنقصان منه ربما يفضى إلى اضطراب البدن إلا من يعود السهر تدريجاً فقد يبرن نفسه عليه من غير اضطراب . وهذا الورد من أطول الأوراد وأتمتها للعباد وهو أحد الأصول التي ذكرها الله تعالى إذ قال ﴿ والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال ﴾ ولذا سجد لله عز وجل المحمّدات فكيف يجوز أن يقفل العبد العاقل عن أنواع العبادات ؟

الورد السادس : إذا دخل وقت العصر دخل وقت الورد السادس وهو الذي أقسم الله تعالى به فقال تعالى ﴿ والعصر ﴾ هذا أحد معنى الآية وهو المراد بالأصال في أحد التفسيرين وهو المعنى المذكور في قوله ﴿ وعشيا ﴾ وفي قوله ﴿ بالمعنى والإشراق ﴾ وليس في هذا الورد صلاة إلا أربع ركعات بين الأذان والإقامة - كما سبق في الظاهر - ثم يصل الفرض ويشغل بالأنعام الأربعة المذكورة في الورد الأول إلى أن ترتفع الشمس إلى رءوس الحيطان وتصفّر . والأفضل فيه إذمنع عن الصلاة ثلاثة القرآن بتدبر وتفهيم إذ يجمع ذلك بين الذكر والدعاء والفكر فيندرج في هذا القسم أكثر مقاصد الأقسام الثلاثة .

الورد السابع : إذا اصفرت الشمس بأن تقرب من الأرض بحيث يغطى نورها القبارات والبخارات التي على وجه الأرض ويرى صغرة في ضوئها دخل وقت هذا الورد وهو مثل الورد الأول من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس لأنه قبل الغروب كما أن ذلك قبل الطلوع وهو المراد بقوله تعالى ﴿ فسبحان الله حين تمشون وحين تقيمون ﴾ وهذا هو الطرف الثاني المراد بقوله تعالى ﴿ فسبح وأطراف النهار ﴾ قال الحسن : كانوا أشد تعظيماً للمعنى منهم لأول النهار . وقال بعض السلف : كانوا يجمعون أول النهار للدنيا وآخره الآخرة . فيستحب في هذا الوقت التسبيح والاستغفار خاصة وسائر ما ذكرناه في الورد الأول مثل أن يقول : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحى القيوم وأسأله التوبة وسبحان الله العظيم وبحمده ؛ مأخوذ من قوله تعالى ﴿ واستغفر لذنبك وسبح بحمد ربك بالمعنى والإبكار ﴾ والاستغفار على الأسماء التي في القرآن أحب كقوله ﴿ أستغفر الله إنه كان غفاراً - أستغفر الله إنه كان تواباً - رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ﴾ ويستحب أن يقرأ قبل غروب الشمس : والشمس وضحاها والليل إذا بقى والمعوذتين . ولتغرب الشمس عليه وهو في الاستغفار فإذا سمع الأذان قال : اللهم هذا إقبال ليلك وإدبار نهارك وأصوات دعائك - كما سبق - ثم يجيب المؤذن ويشغل بصلاة المغرب . وبالمغرب قد انتهت أوراد النهار فينبغي أن يلاحظ العبد أحواله ويحاسب نفسه فقد انقضى من طريقه مرحلة . فإن ساوى يومه أمسه فيكون مغبوناً وإن كان شراً منه فيسكون ملعوناً فقد قال صلى الله عليه وسلم « لا يورك لى في يوم لا أزداد فيه خيراً »<sup>(١)</sup> فإن رأى نفسه متوفراً على الخير جميع نهاره مترقباً عن التجشم كانت بشارة فليشكر الله تعالى على توفيقه وتسديده إياه لطريقه وإن تكن الأخرى فالليل خلفه النهار فليعزم على تلافي ما سبق من نفيطه فإن الحسنات يذهبن السيئات . وليشكر الله تعالى على صحة جسمه وبقاء بقيته من عمره طول ليلة ليشتغل بتدارك تقصيره وليحضر في قلبه أن نهار العمر له آخر تقرب فيه شمس الحياة فلا يكون لها بعدها طلوع . وعند ذلك يفتق باب التدارك والاعتذار فليس العمر إلا أياماً معدودة تنقضى لا محالة حملتها بانقضاء آحادها .

(١) « لا يورك لى في يوم لا أزداد فيه خيراً » تقدم في العلم في الباب الأول إلا أنه قال « هذا » بدل « خيراً » .

## بيان أوراد الليل وهي خمسة

الأول : إذا غربت الشمس على المغرب واشتغل بإحياء ما بين العشاءين فأخبر هذا الورد عند غيبوبة الشفق أعنى الحرة التي يغيبوبتها يدخل وقت العتمة وقد أقسم الله تعالى به فقال ( فلا أقسم بالشفق ) والصلاة فيه هي ناشئة الليل لأنه أول نشو ساعاته وهو أن من الآناء المذكورة في قوله تعالى ( ومن آناه الليل فسيح ) وهي صلاة الأوابين . وهي المراد بقوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) روى ذلك عن الحسن وأسند ابن أبي زياد إلى رسول الله ﷺ أنه سئل عن هذه الآية فقال ﷺ : الصلاة بين العشاءين . ثم قال ﷺ : عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات النهار وتهذب آخره (١) . والملاغات جمع ملاغة من اللغو . وسئل أنس رحمه الله عن ينام بين العشاءين فقال : لا تفعل فإنها الساعة المعينة بقوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) وسيأتي فضل إحياء ما بين العشاءين في الباب الثاني . وترتيب هذا الورد أن يصلي بعد المغرب ركعتين أولاً يقرأ فيها قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد ويصليهما عقب المغرب من غير تخطل كلام ولا شغل ثم يصلي أربعاً يطيلها ثم يصلي إلى غيبوبة الشفق ما تيسر له . وإن كان المسجد قريباً من المنزل فلا بأس أن يصليها في بيته إن لم يكن عزمه العكوف في المسجد وإن عزم على العكوف في انتظار العتمة فهو الأفضل إذا كان آسناً من التصنع والرياء .

الورد الثاني : يدخل بدخول وقت العشاء الآخرة إلى حد نومة الناس وهو أول استحكام الظلام وقد أقسم الله تعالى إذا قال ( والليل وما وسق ) أي وما جمع من ظلمته وقال ( إلى غسق الليل ) فهناك يفسق الليل وتستوسق ظلمته . وترتيب هذا الورد بمراعاة ثلاثة أمور ( الأول ) أن يصلي سوى فرض العشاء عشر ركعات : أربعاً قبل الفرض إحياء لما بين الأذانين وستاً بعد الفرض ركعتين ثم أربعاً يقرأ فيها من القرآن الآيات المخصوصة كآخر البقرة وآية الكرسي وأول الحديد وآخر الحشر وغيرها . ( والثاني ) أن يصلي ثلاث عشرة ركعة آخرهن ( الوتر ) فإنه أكثر ما روى أن النبي ﷺ صلى بها من الليل (٢) . والأكيأس بأخذون أوقاتهم من أول الليل والأقوياء من آخره . والحزم التقديم لأنه ربما لا يستيقظ أو يشغل عليه القيام إلا إذا صار ذلك عادة له فأخبر الليل أفضل . ثم ليقرأ في هذه الصلاة قدر ثلثائة آية من السور المخصوصة التي كان النبي ﷺ يكثر قراءتها مثل يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والإسر والواقعة (٣) فإن لم يصلي فلا بدع قراءة هذه السور أو بعضها قبل النوم

(١) « سئل عن قوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) فقال الصلاة بين العشاءين ثم قال عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات النهار وتهذب آخره » قال المصنف أسندته ابن أبو الزناد إلى النبي ﷺ . قلت إنما هو إسماعيل بن أبو زياد بإياه الثناء من تحت رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية إسماعيل بن أبو زياد الشامي عن الأعشى . حدثنا أبو العلاء العنبري عن سلمان قال « قال النبي ﷺ عليكم بالصلاة بين العشاءين فإنها تذهب بملذات أول النهار ومهذبة آخره » وإسماعيل هذا متروك يضع الحديث قال الدارقطني : واسم أبو زياد مسلم وقد اختلف فيه على الأعشى ولان مردويه من حديث « أنها زلت في الصلاة بين المغرب والعشاء » والحديث عند الترمذي وحسنه بلفظ « زلت في انتظار الصلاة التي تدعى العتمة » . (٢) « الوتر ثلاثة عشر ركعة يعني بالليل وأنه أكثر ما صلى به النبي ﷺ من الليل » أخرجه أبو داود من حديث عائشة « لم يكن يوم يأتقن من سبع ولا بأكثر من ثلاث عشر ركعة » والبخاري من حديث ابن عباس « كانت صلاته ثلاث عشرة ركعة يعني بالليل » ومسلم « كان يصلي من الليل ثلاثة عشر ركعة » في رواية للشيوخين « منها ركعتا الفجر » ولها أيضاً ما كان يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشر ركعة . (٣) « لكثارة ﷺ من قراءة يس وسجدة لقمان وسورة الدخان وتبارك الملك والإسر والواقعة » غريب لم أقف على ذكر الإكثار فيه وابن حبان من حديث جندب « من قرأ يس في ليلة ابتغاء وجه الله غفر له » والترمذي =

فقد روى في ثلاث أحاديث ما كان يقرؤه رسول الله ﷺ في كل ليلة أشهرها : السجدة وتبارك الملك (١) والزمر والواقعة وفي رواية : الزمر وبني إسرائيل (٢) وفي أخرى : أنه كان يقرأ المسححات في كل ليلة ويقول فيها آية أفضل من ألف آية (٣) وكان العلماء يجعلونها ستاً فيزيدون سبح اسم ربك الأعلى إذ في الخبر «أنه ﷺ كان يحب سبح اسم ربك الأعلى وكان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر ثلاث سور سبح اسم ربك الأعلى (٤) وقل يا أيها الكافرون والإخلاص (٥) فإذا فرغ قال: سبحان الملك القدوس ثلاث مرات» (الثالث) الوتر : وليوتر قبل النوم إن لم يكن عادته القيام قال أبو هريرة رضي الله عنه: أوصاني رسول الله ﷺ أن لا أنام إلا على وتر (٦) وإن كان معه أدا صلاة الليل فالتأخير أفضل قال ﷺ «صلاة الليل متى متى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة (٧) وقالت عائشة رضي الله عنها «أوتر رسول الله ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره انتهى وتره إلى السحر (٨) وقال علي رضي الله عنه: الوتر على ثلاثة أنحاء: إن شئت أوترت الليل ثم ركعتين ركعتين يعني أنه يصير وترًا بما مضى وإن شئت أوترت بركعة فإذا استيقظت شفعت لهما أخرى ثم أوترت من آخر الليل وإن شئت أخرت الوتر ليكون آخر صلاتك ، هذا ما روى عنه . والطريق الأول والثالث لا بأس به وأما نقص الوتر فقد صح فيه نهى فلا ينبغي أن ينقص (٩) وروى مطلقاً أنه ﷺ قال «لا وتران في ليلة (١٠)» ولئن تردد في استيفائه تطلب استحسنه بعض العلماء وهو أن يصل بعد الوتر ركعتين جالساً على فراشه عند النوم كان رسول الله ﷺ يحف إلى فراشه ويصلهما ويقرأ فبهما إذا زلزل وألهاكم (١١) لما فهمنا من التحذير والوعيد وفي رواية قل يا أيها الكافرون لما فيها من البرقة وإفراد العبادة لله تعالى ، فقيل إن استيقظ قائماً مقام ركعة واحدة وكان له أن يوتر بواحدة في آخر الليل وكأنه صار ما مضى شفعا بهما . وحسن استثناء الوتر واستحسن هذا أبو طالب السكي وقال فيه ثلاثة أعمال قصر الأمل وتحصيل الوتر والوتر آخر الليل ، وهو كما

== من حديث جابر كان لا ينام حتى يقرأ ألم تنزيل السجدة وتبارك الذي بيده الملك» وله من حديث عائشة «كان لا ينام حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر وقال حسن غريب وله من حديث أبو هريرة «من قرأ حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» قال غريب ولأن الشيخ في الثواب من حديث عائشة «من قرأ في ألم تنزيل ويس وتبارك الذي بيده الملك وأقرب كنه له نوراً ...» ولأن منصور الظفر بن الحسين الغزنوي في فضائل القرآن من حديث علي «بطل أكثر من قراءة يس ...» وهو منكر وللحارث بن أبو أسامة من كلام ابن مسعود بسند ضعيف «من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً» والترمذي من كلام ابن عباس «شيتني هود والواقعة ...» وقال حسن غريب (١) «كان يقرأ في كل ليلة السجدة وتبارك الملك» أخرجه الترمذي وتقدم في الحديث قبله . (٢) «كان يقرأ في كل ليلة الزمر وبني إسرائيل» أخرجه الترمذي وتقدم أيضاً . (٣) «كان يقرأ المسححات في كل ليلة ويقول : فهن آية أفضل من ألف آية» أخرجه أبو داود والترمذي وقال حسن والنسائي في الكبرى من كلام عرياض بن سارية . (٤) «كان يحب سبح اسم ربك الأعلى» أخرجه أحمد والزار من حديث علي بسند ضعيف . (٥) «كان يقرأ في ثلاث ركعات الوتر بسبح اسم ربك الأعلى وقل يا أيها الكافرون والإخلاص» أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من كلام أبي بن كعب بإسناد صحيح وتقدم في الصلاة من كلام أنس . (٦) حديث أبي هريرة «أوصاني النبي ﷺ أن لا أنام إلا على وتر» متفق عليه لفظ «أن أوتر قبل أن أنام» . (٧) «صلاة الليل متى متى فإذا خفت الصبح فأوتر بركعة» متفق عليه من كلام ابن عمر . (٨) حديث عائشة «أوتر النبي ﷺ أول الليل وأوسطه وآخره وانتهى وتره إلى السحر» متفق عليه (٩) «التي عن نقص الوتر» قال المصنف صح فيه نهى . قلت : وإنما صح من قول عابد بن عمرو وله صيغة كما رواه البيهقي ولم يصرح بأنه مرفوع فالظاهر أنه إما أراد ما ذكرناه عن الصحابة . (١٠) «لا وتران في ليلة» أخرجه أبو داود والترمذي وحسنه والنسائي من حديث طلق بن علي . (١١) «الركعتين بعد الوتر جالساً» تقدم في الصلاة رواه مسلم من حديث عائشة :

ذكره لكن ربما يحظر انهما لو شفعتا مامضى لكان كذلك ، وإن لم يستيقظ وأبطل وتره الأول فكونه شامنا إن استيقظ غير مشفع أن نام فيه نظر إلا أن يصح من رسول الله صلى الله عليه وسلم إتيانه قبلها وإعادته الوتر فيهم منه أن الركعتين شفع بصورتها وتر بمنائها فيحسبوتر أن لم يستيقظ وشفعا أن استيقظ . ثم يستحب بعد التسليم من الوتر أن يقول سبحان الوتر القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعظمة والجبروت ، وتمزجت بالقدرة وقهرت العباد بالهوت روى « أنه صلى الله عليه وسلم ما مات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة (١) » وقد قال « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد (٢) » وذلك بذلك على صحة الثالثة دائما .

الورد الثالث : النوم ولا بأس أن يعد ذلك في الأورد فإنه إذا روعيت آدابها احتسب عبادة فقد قيل : إن العبد إذا نام على طهارة وذكر الله تعالى يكتب مصليا حتى يستيقظ ويدخل في شعاره ملك فإن تحرك في نومه وذكر الله تعالى دعا له الملك واستغفر له الله (٣) وفي الخبر وإذا نام على طهارة رفع روحه إلى العرش (٤) وهذا في العوام فكيف بالخواص والعلماء وأرباب القلوب الصافية ؟ فإنهم يكشفون بالأسرار في النوم ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نوم العالم عبادة ونفسه تسبح (٥) » وقال معاذ لأنى موسى : كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لا أنام منه شيئا وأنفوق القرآن فيه تفوقا قال معاذ : لكن أنا أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي . فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : معاذ أفقه منك (٦) وآداب النوم عشرة (الأول) الطهارة والسواك : قال صلى الله عليه وسلم « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة وإن لم يتم على طهارة قصرت روحه من البلوغ فتلك المنامات أضغاث أحلام لا تصدق (٧) » وهذا إذا أريد طهارة الظاهر والباطن جميعا ، وطهارة الباطن هي المؤثرة في انكشاف حجب الغيب ( الثاني ) أن يعد عند رأسه سواكه وطهوره وينوي القيام للعبادة عند التيقظ وكلما يتنبه يستاك ؛ كذلك كان يفعله بعض السلف . وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومة وعند التنبه منها (٨) » وإن لم تيسر له الطهارة يستحب له مسح الأعضاء بالماء فإن لم يجد فبمسح اليد والرجل واليسار بالذكر والدعاء والتضرع في آلاء الله تعالى وقدرته فذلك يقوم مقام قيام الليل وقال ﷺ « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي من الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة عليه من الله تعالى (٩) » ( الثالث ) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه فإنه لا يأمن

(١) « مامات حتى كان أكثر صلاته جالسا إلا المكتوبة » متفق عليه من حديث عائشة « لما بدن النبي ﷺ وتقل كان أكثر صلاته جالسا » (٢) « للقاعد نصف أجر القائم وللنائم نصف أجر القاعد » أخرجه البخاري من كلام عمران بن حصين . (٣) « قيل إنه إذا نام على طهارة ذكر الله تعالى أن يكتب مصليا ويدخل في شعاره ملك ... » أخرجه ابن حبان من كلام ابن عمر « من بات طاهرا بات في شعاره ملك فلا يستيقظ إلا قال الملك اللهم اغفر لعبدك فلان فإنه بات طاهرا » . (٤) « إذا نام على الطهارة رفع روحه إلى العرش » أخرجه ابن المبارك في الزهد موقوفا على أبو الدرداء والبيهقي في الشعب موقوفا على عبد الله بن عمرو بن العاص : وروى الطبراني في الأوسط من حديث علي « مامن عبد ولا أمة تمام فتقل نوما إلا عرج بروحه إلى العرش فالذي لا يستيقظ إلا عند العرش فذلك الرؤيا التي تصدق والذي يستيقظ دون العرش فهي الرؤيا التي تكتب » هو ضعيف . (٥) « نوم العالم عبادة ونفسه تسبح قلت للعروف في الصائم دون العالم » وقد تقدم في الصوم . (٦) « قال معاذ لأنى موسى كيف تصنع في قيام الليل ؟ فقال أقوم الليل أجمع لأنام منه شيئا وأنفوق القرآن فوقا قال معاذ لكني أنام ثم أقوم واحتسب في نومي ما احتسب في قومي فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « معاذ أفقه منك » متفق ينحوه من كلام أبي سعيد وليس فيه « أنهما ذكرا ذلك للنبي ﷺ » ولا قوله « معاذ أفقه منك » وإنما زاد فيه الطبراني « فكان معاذ أفقه منه » .

(٧) « إذا نام العبد على طهارة عرج بروحه إلى العرش فكانت رؤياه صادقة » الحديث تقدم . (٨) « أنه كان يستاك في كل ليلة مرارا عند كل نومه وعند التنبه منها » تقدم في الطهارة . (٩) « من أتى فراشه وهو ينوي أن يقوم يصلي في الليل فغلبته عيناه حتى يصبح كتب له ما نوى وكان نومه صدقة من الله عليه » أخرجه النسائي وابن ماجه من حديث أبو الدرداء بسند صحيح .

التقضى في النوم فإن من مات من غير وصية لم يؤذن له في الكلام بالبرزخ إلى يوم القيامة ، يتأوده الأموات ويتحدثون وهو لا يتكلم فيقول بعضهم لبعض هذا المسكين مات من غير وصية ، وذلك مستحب خوف موت الفقهاء وموت الفقهاء تخفيف إلا أن ليس مستعداً للوت يكونه مثل الظفر بالمظالم (الرابع) أن ينأى تائباً من كل ذنب سلم القلب لجميع المساكين لا يحدث نفسه بظلم أحد ، ولا يزم على معصية إن استيقظ ، قال صلى الله عليه وآله وسلم « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما أجترم »<sup>(١)</sup> (الخامس) أن لا يبتهم بتهديد الفرش الناعمة بل يترك ذلك أو يقتصد فيه كان بعض السلف يكره التهديد للنوم ويرى ذلك تكلفاً . وكان أهل الصفة لا يجعلون بينهم وبين التراب حاجزاً ويقولون منها خلقنا وإليها نرد وكانوا يرون ذلك أرق لقلوبهم وأجدر بتواضع نفوسهم فمن لم تسمح بذلك نفسه فليقتصد (السادس) أن لا ينأى مالم يغلبه النوم ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل فقد كان نومهم غلبة وأكلهم فاقة وكلامهم ضرورة ولذلك وصفوا بأنهم كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون وإن غلبه النوم عن الصلاة والذكر وصار لا يدرى ما يقول فليتم حتى يعقل ما يقول . وكان ابن عباس رضى الله عنه يكره النوم قاعدة وفي الخير « لا تكاندوا الليل »<sup>(٢)</sup> وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم « إن فلانة تصلى بالليل فإذا غلبها النوم تملقت بجبل فتسرى عن ذلك وقال : ليصل أحدكم من الليل ما تسرى له فإذا غلبه النوم فليرقد »<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله لن يمل حقاً تملوا »<sup>(٤)</sup> وقال ﷺ « خير هذا لدين أسره »<sup>(٥)</sup> وقيل له صلى الله عليه وسلم « إن فلانا يصلى فلا ينأى ويصوم فلا يفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني »<sup>(٦)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « تشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه فلا تبغض إلى نفسك عبادة الله »<sup>(٧)</sup> (السابع) أن ينأى مستقبل القبلة . والاستقبال على ضربين أحدهما : استقبال المحضر وهو المستلق على قفاه فاستقباله أن يكون وجهه وأخصاه إلى القبلة . والثاني : استقبال اللحد وهو أن ينأى على جنب بأن يكون وجهه إليها مقبلاً بدنه إذا نام على شقه الأيمن (الثامن) الدعاء عند النوم فيقول باسمك رب وضعت جنبي وباسمك أرفعه إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في كتاب الدعوات<sup>(٨)</sup> ويستحب أن يقرأ الآيات المخصوصة مثل آية الكرسي وآخر البقرة وغيرها قوله تعالى « ولحكم إله واحد لا إله إلا هو » إلى قوله « لقوم يعقلون » يقال إن من قرأها عند النوم حفظ الله عليه القرآن فلم ينسه ويقرأ من سورة الأعراف هذه الآية « إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام » إلى قوله

(١) « من أوى إلى فراشه لا ينوي ظلم أحد ولا يحقد على أحد غفر له ما أجترم » أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب النية من حديث أنس « من أصبح ولم يهظم أحد غفر له ما أجترم » وسنده ضعيف .

(٢) « لا تكاندوا الليل » أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بسند ضعيف وفي جامع سفيان الثوري موقوفاً على ابن مسعود « لا تغالبوا هذا الليل » .

(٣) « قيل له إن فلانة تصلى فإذا غلبها النوم تملقت بجبل فتسرى عن ذلك ... » متفق عليه من حديث أنس .

(٤) « تكلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله على حق تملوا » متفق من حديث عائشة بلفظ « اكلفوا » .

(٥) « خير هذا الدين أسره » أخرجه أحمد من حديث محجن بن الأدرع وتقدم في العلم .

(٦) « قيل له إن فلانا يصلى ولا ينأى ويصوم وأفطر فقال لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر هذه سنتي فمن رغب عنها فليس مني » أخرجه النسائي من حديث عبد الله بن عمر دون قوله « هذه سنتي » الخ وهذه الزيادة لابن خزيمة « من رغب عن سنتي فليس مني » وهي متفق عليها من حديث أنس .

(٧) « لتشادوا هذا الدين فإنه متين فمن يشاده يغلبه ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » أخرجه البخاري من حديث أبو هريرة « لن يشاد هذا الدين أحداً إلا غلبه فسدوا وقاربوا » والبيهقي من حديث جابر « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تبغض إلى نفسك عبادة الله » ولا يصح إسناده .

(٨) « الدعاء المأثورة عند النوم باسمك اللهم رب وضعت جنبي ... » إلى آخر الدعوات المأثورة التي أوردناها في الدعوات تخدم هناك وبقيت الدعوات .



﴿قريب من المحسنين﴾ وآخر بنى إسرائيل ﴿قل ادعوا الله﴾ الآيتين فإنه يدخل في شعاره ملك يوكل بحفظه فيستغفر له ويقرأ المودنين وينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده ؛ كذلك روى من فعل رسول الله ﷺ (١) وليقرأ عشرا من أول الكهف وعشرا من آخرها وهذه الآي للاستيقاظ لقيام الليل . وكان على كرم الله وجهه بقول : ما أرى أن رجلا مستكلا عقله بنام قبل أن يقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة وليقل خمسا وعشرين مرة سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . ليكون مجموع هذه السكيات الأربع مائة مرة (التاسع) أن يتذكر عند النوم أن النوم نوع وبقاء والتيقظ نوع بمقتضى قوله تعالى ﴿الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها﴾ وقال (وهو الذي يتوفاهم بالليل) فبما توفيها وكما أن المستيقظ تنكشف له مشاهدات لا تناسب أحواله في النوم فكذلك المبعوث يرى ما لم يخطر قط بباله ولاشأده حسه . ومثل النوم بين الحياة والموت مثل البرزخ بين الدنيا والآخرة . وقال لقمان لابنه : يا بني إن كنت تشك في الموت فلا تتم فكما أنك تمام كذلك تموت ، وإن كنت تشك في البعث فلا تنهيه بعد موتك فكذلك تبعث بعد موتك . وقال كعب الأحمار : إذا تمت فاضطجع على شقك الآيمن واستقبل القبلة بوجهك فإنها وفاة ، وقالت عائشة رضی الله عنها : كان رسول الله ﷺ آخر ما يقول حين بنام وهو واضح خذه على يده اليمنى وهو يرى أنه ميت في ليلته تلك « اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء ومليك » (٢) الدعاء إلى آخره كما ذكرناه في كتاب الدعوات . لحق على العبد أن يفتش عن ثلاثة عند نومه : أنه على ماذا بنام وما الغالب عليه : حب الله تعالى وحب لقائه أو حب الدنيا ؟ ولينفث أن يتوفى على ما هو الغالب عليه ويحشر على ما يتوفى عليه فإن المرء مع من أحب ومع ما أحب (العاشر) الدعاء عند التنبه فليقل في تيقظاته وتقلياته ممما تنبه ما كان يقوله رسول الله ﷺ « لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » (٣) وليتجسس أن يكون آخر ما يجري على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند النوم ذكر الله تعالى وأول ما يرد على قلبه عند التيقظ ذكر الله تعالى . فإذا استيقظ فهو علامة الحب ولا يلزم القلب في هاتين الحالتين إلا ما هو الغالب عليه فليجرب قلبه فهو علامة الحب فإنها علامة تنكشف عن باطن القلب وإنما استجبت هذه الأذكار لتستجر القلب إلى ذكر الله تعالى . فإذا استيقظ ليقوم قال الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور . إلى آخر ما أوردناه من أدعية التيقظ .

الورد الرابع : يدخل بمعنى النصف الأول من الليل إلى أن يبقى من الليل سبسه وعند ذلك يقوم العبد للتهجد . فاسم التهجد يختص بما بعد المجهود والمجهود وهو النوم وهذا وسط الليل ويشبه الورد الذي بعد الزوال وهو وسط النهار وبه أقسم الله تعالى فقال ﴿والليل إذا سجي﴾ أي إذا سكن وسكونه هدوء في هذا الوقت فلا تبقى عين إلا نائمة سوى الحى القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم . وقيل إذا سجي إذا امتد وطال وقيل إذا أعظم ، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم « أى الليل أجمع ؟ فقال جوف الليل (٤) » وقال داود صلى الله عليه وسلم : ألمى إلى أحب أوت أعبد لك فأى وقت أفضل ؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود لا تقم أول الليل ولا آخره ، فإن من قام أوله نام آخره ، ومن قام آخره لم يقم أوله ، ولكن قم وسط الليل حتى تخلو في وأخو بك ، وارفع إلى حوائجك

- (١) « قراءة المودنين عند النوم ينفث بهن في يديه ويمسح بهما وجهه وسائر جسده » متفق عليه من حديث عائشة .
- (٢) حديث عائشة « كان آخر ما يقول حين بنام وهو واضح خذه على يده اليمنى اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ... » تقدم في الدعوات دون : وضع الحذ على اليد ، وتقدم من حديث حفصة .
- (٣) « كان يقول عند تيقظه : لا إله إلا الله الواحد القهار رب السموات والأرض وما بينهما العزيز الغفار » أخرجه ابن السني وأبو نعيم في كتابيهما عمل اليوم والليلة من حديث عائشة .
- (٤) « سئل أى الليل أجمع ؟ قال : جوف الليل » أخرجه أبو داود والترمذي وصححه من حديث عمرو بن عبس .

وسئل رسول الله ﷺ « أى الليل أفضل ؟ فقال : نصف الليل الغابر <sup>(١)</sup> » يعنى الباقي وفى آخر الليل وردت الأخبار باهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن ومن نزول الجبار تعالى الى سماء الدنيا <sup>(٢)</sup> وغير ذلك من الأخبار وترتيب هذا الورد أنه بعد الفراغ من الأدعية التى للاستيقاظ يتوضأ وضوءاً كما سبق بسننه - وآدابه وأدعيته . ثم توجه الى مصلاه ويقوم مستقبلاً القبلة ، ويقول « الله اكبر كبيراً والحمد لله كبيراً وأسبحان الله بكرة وأصيلاً » ثم يسبح عشراً ويحمد الله عشراً ويهلل عشراً وليقل « الله اكبر ذو الملوك والجيروم والكبرياء والعظمة والجلال والقدرة » وليقل هذه الكلمات فإنها مأفوة عن رسول الله ﷺ فى قيامه للتهجد « اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ولك الحمد أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت رب السموات والأرض ولك الحمد أنت قيوم السموات والأرض ومن عِندك ومن عِندك الحق ومنك الحق وقاؤك حق والجنة حق والنار حق والنشور حق والتائبون حق ومحمد ﷺ حق . اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت واليك أُنبت وبك غاصمت واليك حاكمت فأغفر لى ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وأمرفت أنت المقدم وأنت المؤخر لا إله الا أنت <sup>(٣)</sup> اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها <sup>(٤)</sup> اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لأبهى لأحسناً الا أنت واصرف عنى سيئها الا أنت <sup>(٥)</sup> أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء المفتر الذليل فلا تجعلنى بدعائك رب شقياً وكفى ذى رءوفاً رحماً يا خير المسئولين وأكرم المعطين <sup>(٦)</sup> وقالت عائشة رضى الله عنها « كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح صلاته قال : اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء الى صراط مستقيم <sup>(٧)</sup> » ثم يفتتح الصلاة ويصلى ركعتين خفيفتين، ثم يصلى متى مضى مايسر له ويحتم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر . ويستحب أن يفصل بين الصلاتين عند تسليمه بمائة تسبيحة ليسترىح ويزيد نشاطه للصلاة وقد صح فى صلاة رسول الله ﷺ بالليل أنه صلى أربعا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم ركعتين دون الثلثين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدريج الى ثلاث عشرة

(١) « سئل أى الليل أفضل ؟ قال : نصف الليل الغابر » أخرجه أحمد وابن حبان من حديث أبو ذر دون قوله « الغابر » وهى فى بعض طرق حديث عمرو بن عتبة . (٢) الأخبار الواردة فى اهتزاز العرش وانتشار الرياح من جنات عدن فى آخر الليل ونزول الجبار الى سماء الدنيا ؟ أما حديث النزول فقد تقدم وأما الباقي ففى آثار رواها محمد بن نصر فى قيام الليل من رواية سعيد الجريرى قال « قال داود : يا جبريل أى الليل أفضل ؟ قال : ما أدرى غير أن العرش يهتز من السحر » وفى رواية له عن الجريرى عن سعيد بن أبو الحسن قال « إذا كان من السحر ألا ترى كيف تقوح ريح كل شجر » وله من حديث أبو الدرداء مرفوعاً « إن الله تبارك وتعالى لينزل فى ثلاث ساعات بقين من الليل يفتتح الله كرى الساعة الأولى » وفيه « ثم ينزل فى الساعة الثانية الى جنة عدن ... » وهو مثله .

(٣) « القول فى قيامه للتهجد : اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ... » متفق عليه من حديث ابن عباس دون قوله « أنت بهاء السموات والأرض ولك الحمد أنت زين السموات والأرض » ودون قوله « ومن عِندك الحق » . (٤) « اللهم آت نفسى تقواها وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها » أخرجه أحمد بإسناد جيد من حديث عائشة « أنها قتلت النبي ﷺ من مضجعه فسلمت يدها فوقت عليه وهو ساجد وهو يقول رب أعط نفسى تقواها ... » . (٥) « اللهم اهدنى لأحسن الأعمال لأبهى لأحسناً الا أنت واصرف عنى سيئها لا يصرف عنى سيئها إلا أنت » أخرجه مسلم من حديث طى عن رسول الله ﷺ « أنه كان إذا قام الى الصلاة » فذكره بلفظ « لأحسن الأخلاق » وفيه زيادة فى أوله . (٦) « أسألك مسألة البائس المسكين وأدعوك دعاء اللطيف الدليل ... » أخرجه الطبرانى فى الصغير من حديث ابن عباس « أنه كان من النبي ﷺ عشية عرفة » تقدم فى الحج . (٧) حديث عائشة « كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض ... رواه مسلم.

ركعة (١) وسئلت عائشة رضى الله عنها « أكان رسول الله ﷺ يجهر في قيام الليل أم يسر؟ فقالت: ربما جهر وربما أسر (٢) » وقال ﷺ « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركة (٣) » وقال « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل (٤) » وأكثر ما صعد عن رسول الله ﷺ في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (٥) ويقرأ في هذه الركعات من ورده من القرآن أو من السور المخصوصة ما خف عليه وهو في حكم هذا الورد قريب من السدس الأخير من الليل .

الورد الخامس : السدس الأخير من الليل وهو وقت السحر فإن الله تعالى قال ﴿ وبالأصباح يستغفرون ﴾ قيل يصلون لما فيها من الاستغفار وهو مقارب للفجر الذى هو وقت انصراف ملائكة الليل وإقبال ملائكة النهار وقد أمر بهذا الورد سلمان أياه أبا الدرداء رضى الله عنهما ليلة زاره (٦) في حديث طويل قال في آخره « فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان : ثم فنام ثم ذهب ليقوم فقال له : ثم فنام فلما كان عند الصبح قال له سلمان : قم الآن ، فقاما فصليا فقال : إن لنفسك عليك حقا وإن لضيفك عليك حقا وإن لأهلك عليك حقا فأعط كل ذى حق حقه ، وذلك أن امرأة أبى الدرداء أخبرت سلمان أنه لا ينام الليل قال : فأبى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال: صدق سلمان . وهذا هو الورد الخامس وفيه يستحب السجود وذلك عند خوف طلوع الفجر . والوظيفة في هذين الوردين الصلاة . فإذا طلع الفجر انقضت أوراد الليل ودخلت أوراد النهار فيقوم ويصلى ركعتي الفجر وهو المراد بقوله تعالى ﴿ ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم ﴾ ثم يقرأ ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة ﴾ إلى آخرها . ثم يقول وأنا أشهد ما شهد الله به لنفسه وشهدت به ملائكته وأولو العلم من خلقه وأستودع الله هذه الشهادة وهى لى عند الله تعالى وديمه وأسأله حفظها حتى يتوفانى عليها . اللهم احطط عني بها وذرأ واجعلها لي منك ذخرا واحفظها على وتوفني عليها حتى ألقاك بها غير مبذل تبديلا . فهذا ترتيب الأوراد للعباد وقد كانوا يستحبون أن يجمعوا مع ذلك في كل يوم بين أربعة أمور صوم وصلاة وإن قلت وعبادة مريض وشهود جنازة في الخبر « من جمع بين هذه الأربع في يوم غفر له (٧) » وفي رواية « دخل الجنة » فإن أنفق بعضها وعجز عن الآخر كان له أجر الجميع بحسب نيته وكانوا يكرهون أن ينقض اليوم . ولم يتصدقوا فيه بصدقة ولو بشمرة أو بصلة أو كسرة خبر لقوله ﷺ « الرجل في ظل صدقة حتى يقضى بين الناس (٨) » ولقوله ﷺ « اتقوا النار ولو بشق تمرة (٩) » ودفعت عائشة رضى الله عنها إلى سائل عنبة واحدة فأخذها فنظر من كان عندها بعضهم إلى بعض فقالت : ما لكم إن فيها لمشاغيل ذر كثير ؟ وكانوا لا يستحبون رد السائل إذ كان من أخلاق رسول الله ﷺ ذلك ما سأله أحد شيئا فقال : لا .

(١) « أنه صلى بالليل أولا ركعتين خفيفتين ثم ركعتين طويلتين ثم صلى ركعتين دون اللتين قبلهما ثم لم يزل يقصر بالتدرج إلى ثلاث عشرة ركعة » أخرجه مسلم من حديث زيد بن خالد الجهني . (٢) « سئلت عائشة أكان النبي ﷺ يجهر في قيام الليل أم يسر ؟ فقالت : ربما جهر وربما أسر . » أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه بإسناد صحيح . (٣) « صلاة الليل مثنى مثنى فإذا خفت الصبح فأوتر بركة » متفق عليه وقد تقدم . (٤) « صلاة المغرب أوترت صلاة النهار فأوتروا صلاة الليل » أخرجه أحمد من حديث ابن عمر بإسناد صحيح . (٥) « القيام من الليل ثلاث عشرة ركعة فإنه أكثر ما صعد عنه » تقدم . (٦) « زار سلمان أبا الدرداء فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء ليقوم فقال له سلمان . . . » وفي آخره فقال « صدق سلمان » أخرجه البخاري من حديث أبى جحيفة . (٧) « من جمع بين صوم وصلاة وعبادة مريض وشهود جنازة في يوم غفر له » وفي رواية « دخل الجنة » أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة « ما اجتمعن في امرئ قط إلا دخل الجنة » . (٨) « الرجل في ظل صدقة حتى يقضى بين الناس » تقدم في الزكاة . (٩) « اتقوا النار ولو بشق تمرة » تقدم في الزكاة أيضا .

ولكنه إن لم يقدر عليه سكت<sup>(١)</sup> وفي الخبر « يصبح ابن آدم وعلى كل سلاى من جسده صدقة يعنى المفصل وفى جسده ثلثائة وستون مفصلا فأمرك بالمعروف صدقة ونهيك عن المنكر صدقة وحملك عن الضيف صدقة وهذا يتك إلى الطريق صدقة وإما غلتك الأذى صدقة حتى ذكر التسبيح والتلهيل. قال : وركعتا الضحى تأتي على ذلك كله أو تجمعن لك ذلك كله<sup>(٢)</sup> »

### بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال

اعلم أن أن المريد لحث الآخرة السالك لطريقها لا يخلو عن ستة أحوال فإنه : إما عابد وإما عالم وإما متعلم وإما وال وإما عتوق وإما موحد مستغرق بالواحد الصمد عن غيره .

( الأول ) العابد : وهو المتجرد للعبادة الذى لا تشغل له غيرها أصلا ولو ترك العبادة جلس بطالا فترتيب أوراده ما ذكرناه ، نعم لا يبعد أن تختلف وظائفه بأن يستغرق أكثر أوقاته فى الصلاة أو القراءة أو فى التسبيحات فقد كان فى الصحابة رضى الله عنهم من ورده فى اليوم اثنا عشر ألف تسبيحة . وكان فيهم من ورده ثلاثون ألفا وكان فيهم من ورده ثلثائة ركعة إلى ستمائة وإلى ألف ركعة . وأقل ما نقل فى أورادهم من الصلاة مائة ركعة فى اليوم واليلية . وكان بعضهم أكثر ورده القرآن وكان يحتم الواحد منهم فى اليوم مرة وروى مرتين عن بعضهم وكان بعضهم يقضى اليوم أو اليلية فى التفكير فى آية واحدة يرددها . وكان كرد بن وبرة مقيا بمكة فكان يطوف فى كل يوم سبعين أسبوعا وفى كل ليلة سبعين أسبوعا وكان مع ذلك يحتم القرآن فى اليوم واليلية مرتين . لحسب ذلك فكان عشرة فرائس ويكون مع كل أسبوع ركعتان فهو مائتان وثمانون ركعة وخمسمائة وعشرة فرائس .

فان قلت : فما الأولى أن يصرف إليه أكثر الأوقات من هذه الأوراد فأعلم أن قرآن فى الصلاة قائما مع التدبر يجمع الجميع ولكن ربما تسر المراقبة عليه فالأفضل يختلف باختلاف حال الشخص ومقصود الأوراد تركية القلب وتطهيره وتجليته بذكر الله تعالى وإيناسه به فليستظر المريد الى قلبه فما يراه أشد تأثير فيه فليوالب عليه . فاذا أحس بملازمة منه فليتنقل الى غيره ولذلك ترى الأصوب لاكثر الخلق توزيع هذه الخيرات المختلفة على الأوقات كما سبق . والإنتقال فيها من نوع الى نوع لأن المال هو الغالب على الطبع وأحوال الشخص الواحد فى ذلك أيضا تختلف . ولكن اذا فهم فقه الأوراد وسرها فليتبع المعنى فان سمع تسبيحة مثلا وأحس لها موقع فى قلبه فليوالب على تكرارها مادام يجد لها وقعا . وقد روى عن إبراهيم بن آدم عن بعض الأبدال أنه قام ذات ليلة يصلى على شاطئ البحر فسمع صوتا عاليا بالتسبيح ولم يرا أحد فقال من أنت أسمع صوتك ولا أرى شخصك ؟ فقال : ملك من الملائكة موكل بهذا أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت : فما اسمك ؟ قال : مهلبيا نيل قلت : فما ثواب من قاله ؟ قال من قاله مائة مرة لم يمض حتى يرى مقدمه من الجنة أو يرى له . والتسبيح هو قوله « سبحان الله العلى الديان سبحان الله الشديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتى بالنهار سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الحنان المنان سبحان الله المسبح فى كل مكان » فهذه وأمثاله إذا سمعه المريد ووجد له فى قلبه وقعا فيلازمه . وأيا ما وجد القلب عنده وفتح له فيه خير فليوالب عليه .

( الثانى ) العالم الذى ينفع الناس بعلمه فى فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتبه الأوراد يخالف ترتيب العابد ؛ فإنه يحتاج الى المطالعة للكتب والتصنيف والإفادة ويحتاج الى مدة لها لاحتاجة فان أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو

(١) « ما سأله أحد شيئا فقال لا إن لم يقدر عليه سكت » أخرجه مسلم من حديث جابر وللإزار من حديث أنس « أو يسكت » .

(٢) « يصبح ابن آدم وعلى كل سلاى من جسده صدقة ... » أخرجه مسلم من حديث أبي ذر .

به بعد المكتوبات ورواتها . ويدل على ذلك جميع ما ذكرناه في فضيلة التعلم والتعليم في كتاب العلم . وكيف لا يكون كذلك وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى ؟ وتأمل ما قال الله تعالى وقال رسوله . وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الآخرة ورب مسألة واحد يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً . وإنما نفى بالعلم المتقدم على العبادة العلم الذي يرغب الناس في الآخرة ويهدم في الدنيا أو العلم الذي يعينهم على سلوك طريق الآخرة إذا تعلموه على قصد الاستعانة به على السلوك ، دون العلوم التي تزيد بها الرغبة في المال والجاه وقبول الخلق والأولى بالعالم أن يقسم أوقاته أيضاً فإن استغرق الأوقات في ترتيب العلم لا يحتمله الطبع . فينبغي أن يخصص ما بعد الصبح إلى طلوع الشمس بالأذكار والأوراد كما ذكرناه في الورد الأول . وبعد الطلوع إلى ضحوة النهار في الإفاضة والتعليم إن كان عنده من يستفيد علماً لأجل الآخرة ، وإن لم يكن فيصرفه إلى الفكر ويفكر فيما يشكل عليه من علوم الدين فإن صفاء القلب بعد الفراغ من الذكر وقيل الاشتغال بهوم الدنيا يعين على التفتن للشكليات . ومن ضحوة النهار إلى العصر للتصنيف والمطالعة لا ينكرها إلا في وقت أكل وطهارة ومكتوبة وقبوله خفيفة إن طال النهار . ومن العصر إلى الاصفرار يشتغل بإسباح ما يقرأ بين يديه من تفسير أو حديث أو علم نافع . ومن الاصفرار إلى الغروب يشتغل بالذكر والاستغفار والتسبيح فيكون ورده الأول قبل طلوع الشمس في عمل اللسان . وورده الثاني في عمل القلب بالفكر إلى الضحوة . وورده الثالث إلى العصر في عمل العين واليد بالمطالعة والكتابة . وورده الرابع بعد العصر في عمل السمع ليروح فيه العين واليد فإن المطالعة والكتابة بعد العصر ربما أضرا بالعين . وعند الاصفرار يعود إلى ذكر اللسان فلا يخلو جزء من النهار عن عمل له بالجوارح مع حضور القلب في الجميع . أما الليل فأحسن قسم فيه قسمة الشافعي رضي الله عنه إذ كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء : ثلثاً للمطالعة وترتيب العلم وهو الأول وثلثاً للصلاة وهو الوسط وثلثاً للنوم . هو الأخير . وهذا يتيسر في ليالي الشتاء ، والصيف ربما لا يحتمل ذلك إلا إذا كان أكثر النوم بالنهار فهذا ما نستحب من ترتيب أوراد العالم .

( الثالث ) المتعلم : والاشتغال بالتعلم أفضل من الاشتغال بالأذكار والنوافل فحكه حكم العالم في ترتيب الأوراد ولكن يشتغل بالاستفادة حيث يشتغل العالم بالإفاضة والتعليق والنسخ حيث يشتغل العالم بالتصنيف ورب أوقاته كما ذكرناه . وكل ما ذكرناه في فضيلة التعلم والعلم من كتاب العلم يدل على أن ذلك أفضل . بل إن لم يكن متعلماً على معنى أنه يعلّم ويحصل ليصير عالماً ، بل كان من العوام لحضوره مجالس الذكر والوعظ والعالم أفضل من اشتغاله بالأوراد التي ذكرناها بمسدد الصبح وبعد الطلوع وفي سائر الأوقات . ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه « أن حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة وشهود ألف جنازة وعبادة ألف مريض <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها فقليل يارسول الله وما رياض الجنة ؟ قال خلق الذكر <sup>(٢)</sup> » وقال كعب الأحبار رضي الله عنه : لو أن ثواب مجالس العلماء بدا للناس لاقتتلوا عليه حتى يترك كل ذي إمارة وإمارته وكل ذي سوق سوقه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن الرجل ليخرج من منزله وعليه من الذنوب مثل جبال تهامة ، فإذا سمع العالم غاف واسترجع عن ذنوبه وانصرف إلى منزله وليس عليه ذنب ، فلا تفارقوا مجالس العلماء فإن الله عز وجل لم يخلق على وجه الأرض تربة أكرم من مجالس العلماء . وقال رجل للحسن رحمه الله : أشكو إليك قساوة قلبي فقال : أدنه من مجالس الذكر .

(١) « حضور مجلس علم أفضل من صلاة ألف ركعة ... » تقدم في العلم .

(٢) « إذا رأيتم رياض الجنة فارتعوا فيها ... » تقدم في العلم .

ورأى عمار الزاهدى مسكنة الطفاوية فى المنام وكانت من المواظبات على حق الذكر فقال : مرحبا يا مسكنة فقالت : هيات هيات ذهبت المسكنة وجاء النى ! فقال : هيه ! فقالت : ما تسأل عنى أبيع لها الجنة بخلافها ؟ قال : وبم ذلك ؟ قالت : بمجاسة أهل الذكر . وعلى الجملة فما ينهل عن القلب من عقد حب الدنيا بقول واعظ حسن الكلام ذكى السيرة أشرف وأنفع من ركعات كثيرة مع اشتغال القلب على حب الدنيا .

( الرابع ) المحترف الذى يحتاج إلى الكسب لعياله : فليس له أن يضع العيال ويستغرق الأوقات فى العبادات بل ورده فى وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب ولكن ينبغى أن لا ينسى ذكر الله تعالى فى صناعته بل يواظب على التيسيرات والأذكار وقراءة القرآن فإن ذلك يمكن أن يجمع إلى العمل . وإنما لا يتيسر مع العمل الصلاة إلا أن يكون ناظورا فانه لا يعجز عن إقامة أوارد الصلاة معه . ثم مهما فرغ من كفايته ينبغى أن يعود إلى ترتيب الآوارد . وإن دام على الكسب وتصدق بما فضل عن حاجته فهو أفضل من سائر الآوارد التى ذكرناها لأن العبادات المتعدية فائدتها أتبع من اللازمة والصدقة والكسب على هذه الشية عبادة له فى نفسه تفر به إلى الله تعالى فم يحصل به فائدة للغير وتجذب إليه بركات دعوات المسلمين ويتضاعف به الأجر .

( الخامس ) الولى : مثل الإمام والقاضى والمتولى لينظر فى أمور المسلمين قيامه بما جلت المسلمين وأغراضهم على وفق الشرع وقصد الإخلاص أفضل من الآوارد المذكورة لحقه أن يشتغل بمحقوق الناس نهارا ويقصر على المكتوبة ويقوم الآوارد المذكورة بالليل ؛ كما كان عمر رضى الله عنه يفعله إذا قال : مالى وللثوم فلو نمت بالنهار ضيعت المسلمين ولو نمت بالليل ضيعت نفسى . وقد فهمت بما ذكرناه أنه يقدم على العبادات البدئية أمران أحدهما : العلم ، والآخر : الرفق بالمسلمين ؛ لأن كل واحد من العلم وفعل المعروف عمل فى نفسه وعبادة تفضل سائر العبادات يتجدى فائدته وانتشار جدواه فكانا مقامين عليه .

( السادس ) الموحّد المستغرق بالواحد الصمد الذى أصبح وهو مهو به واحد فلا يحب إلا الله تعالى ولا يخاف إلا منه ولا يتوقع الرزق من غيره ولا ينظر فى شيء إلا ويرى الله تعالى فيه . فن ارتفعت رتبته إلى هذه الدرجة لم يفتقر إلى تنوع الآوارد واختلافها بل كان ورده بعد المكتوبات واحد وهو حضور القلب مع الله تعالى فى كل حال فلا يخطر بقلوبهم أمر ولا يقرع سمعهم قارع ولا يلوح لأبصارهم لأمح إلا كان لهم فيه عبرة وفكر ومزید ، فلا يحرك لهم ولا مسكن إلا الله تعالى فهو لا يجمع أحوالهم تصلح أن تكون سببا لأزديادهم فلا تميز عندهم عبادة عن عبادة وهم الذين فروا إلى الله عز وجل كما قال تعالى ﴿ لعلمك تذكرون ﴾ ففروا إلى الله وتحقق فهم قوله تعالى ﴿ وإذا اعتزلتموه وما يعبدون إلا الله فأروا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ﴾ وإليه الإشارة بقوله ﴿ إفذاهب إلى ربك مبين ﴾ وهذه منتهى درجات الصديقين ولا وصول اليها إلا بعد ترتيب الآوارد والمواظبة عليها دهر أطويلا فلا ينبغى أن يغتر المرید بما سمع من ذلك فيدعيه لنفسه ويفتر عن وظائف عبادته فذلك علامته أن لا يهوى فى قلبه وسواس ولا يخطر فى قلبه معصية ولا تزجيدهم أحوال ولا تستغفزه عظام الأفعال . وأنى ترزق هذه الرتبة لكل أحد : فيتمتع على السكافة ترتيب الآوارد كما ذكرناه وجميع ما ذكرناه طرق إلى الله تعالى قال تعالى ﴿ قل كل يعمل على شاكله فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا ﴾ فكلهم مهتدون وبعضهم أهدى من بعض . وفى الخبر « الإيمان ثلاث ثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله تعالى بالشهادة على طريق منها دخل الجنة (١) » وقال بعض العلماء : الإيمان ثلاثمائة وثلاثة عشر خلقا

(١) « الإيمان ثلاث وثلاثون وثلاثمائة طريقة من لقي الله بالشهادة على طريق منها دخل الجنة » أخرج ابن شاهين واللالسكافى فى السنة والطبرانى والبيهقى فى الشعب من رواية الثوري بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده « الإيمان ثلاثمائة وثلاثة وثلاثون شريعة من وافى منهن شريعة دخل الجنة » وقال الطبرانى والبيهقى « ثلاثمائة وثلاثون » وفى إسناده جهالة .

بعدد الرسل فكل مؤمن على خلق منها فهو سالك الطريق إلى الله . فإذا الناس وإن اختلفت طرقهم في العبادة فكلمهم على الصواب ﴿ أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ﴾ وإنما يتفاوتون في درجات القرب لافى أصله ، وأقربهم إلى الله تعالى أعرفهم به ، وأعرفهم به لا بد وأن يكون أعبدهم له ؛ فمن عرفه لم يبد غيره . والأصل في الأوراد في حق كل صنف من الناس المداومة فإن المراد منه تغيير الصفات الباطنة . وأحاديث الأعمال يقل آثارها بل لا يحس بآثارها وإنما يرتب الأثر على المجموع فإذا لم يعقب العمل الواحد أثراً محسوساً ولم يردف بشأن وثالث على القرب انتهى الأثر الأول وكان كالتقية يريد أن يكون فقيه النفس فإنه لا يصير فقيه النفس إلا بتكرار كثير فلو بالغ ليلة في التكرار وترك شهراً أو أسبوعاً ثم عاد وبالع ليل لم يؤثر هذا فيه . ولورود ذلك القدر على الليالي المتواصلة لأثر فيه . ولهذا الرق قال رسول الله ﷺ « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » (١) . وثالث عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله ﷺ ؟ قالت : كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبتته (٢) . ولذلك قال رسول الله ﷺ « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقتته الله (٣) » وهذا كان السبب في صلاته بعد العصر تداركاً لما فاتته من ركعتين شغله عنهما الوقت ثم لم يزل بعد ذلك يصليهما بعد العصر ولكن في منزله لاني المسجد كيلاً يقتدى به (٤) . وروته عائشة وأُم سلمة رضي الله عنهما « فإن قلت : فهل لغيره أن يقتدى به في ذلك مع أن الوقت وقت كراهية ؟ فاعلم أن المعاني الثلاثة التي ذكرناها في الكراهية من الاحتراز عن التشبه بعبدة الشمس أو السجود وقت ظهور قرن الشيطان أو الاستراحة عن العبادة حذراً من الملل لا يتحقق في حقه فلا يقاس عليه في ذلك غيره . ويشهد لذلك فعله في المنزل حتى لا يقتدى به ﷺ .

### الباب الثاني : الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحياؤها

وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل  
فضيلة إحياء ما بين العشاءين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روت عائشة رضي الله عنها « إن أفضل الصلوات عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم فتح بها صلاة الليل وختم بها صلاة النهار فمن صلى المغرب وصلّى بعدها ركعتين بنى الله له قصرًا في الجنة (٥) » قال الراوي : لأدري من ذهب أوفضة ؟ ومن صلى بعدها أربع ركعات غفر له ذنب عشرين سنة أو قال أربعين سنة وروى أم سلمة وأبو هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة ستة كاملة أو كأنه صلى ليلة القدر (٦) » وعن سعيد بن جبير عن ثوبان

(١) « أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل » متفق عليه من حديث عائشة . (٢) « ثلثت عائشة من عمل النبي ﷺ فقالت كان عمله ديمة وكان إذا عمل عملاً أثبتته » رواه مسلم . (٣) « من عوده الله عبادة فتركها ملالة مقتته الله » تقدم في الصلاة وهو موقوف على عائشة . (٤) « شغله الوقت عن ركعتين فصلاهما بعد العصر ثم لم يزل يصليهما بعد العصر في منزله » متفق عليه من حديث أم سلمة « أنه صلى بعد العصر ركعتين وقال شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر » ما رواه حتى لقي وكان النبي ﷺ يصليهما ولا يصليهما في المسجد مخافة أن يتقله على أمته « والله الموفق للصواب .

### الباب الثاني : في الأسباب الميسرة لقيام الليل

(٥) حديث عائشة « إن أفضل الصلاة عند الله صلاة المغرب لم يحطها عن مسافر ولا عن مقيم ... » رواه أبو الوليد يونس بن عبيد الله الصافري في كتاب الصلاة ورواه الطبراني في الأوسط مختصراً وإسناده ضيف . (٦) حديث أم سلمة عن أبي هريرة « من صلى ست ركعات بعد المغرب عدلت له عبادة سنة أو كأنه صلى ليلة القدر » أخرجه

قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عكف نفسه فيما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يتكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين في الجنة مسيرة كل قصر مئتما مائة عام ويفرس له بينهما غراسا لو طافه أهل الدنيا لوسمهم (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « من ركع عشر ركعات ما بين المغرب والعشاء بنى الله له قصر في الجنة فقال عمر رضي الله عنه : إذا تكثرت قصورنا يارَسُولَ اللَّهِ فقال : الله أكثر وأفضل - وقال - أطيّب (٢) » وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولم يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى فاتحة الكتاب وعشر آيات من أول سورة البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم إن في خلق السموات والأرض إلى آخر الآية » وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة ثم يركع ويسجد فإذا قام في الركعة الثانية قرأ فاتحة الكتاب وآية الكرسي وآيتين بعدها إلى قوله ( أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ) وثلاث آيات من آخر سورة البقرة من قوله ما في السموات وما في الأرض إلى آخرها وقل هو الله أحد خمس عشرة مرة (٣) » وصف من ثوابه في الحديث ما يخرج عن الحصر وقال كرز بن وبرة وهو من الأبدال : قلت للخضر عليه السلام شيئا أعلمه في كل ليلة فقال إذا صليت المغرب فقم إلى وقت صلاة العشاء مصليا من غير أن تكلم أحدا أو قبل على صلاتك أنت فيها وسلم من كل ركعتين وأقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب مرة وقل هو الله أحد ثلاثا ثلاثا فإن فرغت من صلاتك انصرف إلى منزلك ولا تكلم أحدا وصل ركعتين وأقرأ فاتحة الكتاب وقل هو الله أحد سبع مرات في كل ركعة ثم اسجد بعد تسليمك واستغفر الله تعالى سبع مرات وقل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله الله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم سبع مرات ، ثم ارفع رأسك من السجود واستو جالسا وارفع يدك وقل يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام يا إله الأولين والآخرين يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما يا رب يا رب يا رب يا الله يا الله ، ثم وأنت رافع يدك وادع بهذا الدعاء ، ثم نم حيث شئت مستقبل القبلة على يمينك وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم وأدم الصلاة عليه حتى يذهب بك النوم . فقلت له : أحب أن تلقني بمن سمعت هذا ؟ فقال : إني حضرت محمدا صلى الله عليه وسلم حيث علم هذا الدعاء وأوحى إليه به فكنت عنده وكان ذلك بحضور مني فتعلمته من علمه إياه (٤) » ويقال إن هذا الدعاء وهذه الصلاة من داوم عليها بمحسن يقيت وصدق نية رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه قبل أن يخرج من الدنيا ، وقد فعل ذلك بعض الناس فرأى أنه أدخل الجنة ورأى فيها الأنبياء ورأى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وكله وعلمه . وعلى الجملة ماورد في فضل إحياء ما بين المغرب والعشاء كثير حتى قيل لعبيد الله مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال : ما بين المغرب والعشاء (٥) » وقال صلى الله عليه وسلم « من صلى ما بين المغرب والعشاء تلك

الترمذي وابن ماجه بلفظ اثني عشرة سنة وضمغه الترمذي وأما قوله « كأنه صلى ليلة القدر » فهو من قول كعب الأحبار كما رواه أبو الوليد الضفاري ، وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس « من صلى أربع ركعات بعد المغرب قبل أن يكلم أحدا وضعت له في عليين وكان كمن أدرك ليلة القدر في المسجد الأقصى » وسنده ضيف (١) حديث سعيد بن جبير عن ثوبان « من عكف نفسه ما بين المغرب والعشاء في مسجد جماعة لم يكلم إلا بصلاة أو قرآن كان حقا على الله أن يبنى له قصرين في الجنة لم أجده له أصلا من هذا الوجه وقدم في الصلاة من حديث ابن عمر (٢) » من ركع عشر ركعات بين المغرب والعشاء بنى الله له قصر في الجنة فقال عمر إذا تكثرت قصورنا يارَسُولَ اللَّهِ ... أخرجه ابن المبارك في الزهد من كلام عبد الكريم ابن الحارث مرسل . (٣) حديث أنس « من صلى المغرب في جماعة ثم صلى بعدها ركعتين ولا يتكلم بشيء فيما بين ذلك من أمر الدنيا ويقرأ في الركعة الأولى بفتح الكتاب وعشر آيات من أول البقرة وآيتين من وسطها وإلهكم إله واحد ، ... » أخرجه أبو الشيخ في الثواب من رواية زياد ابن ميمون عنه مع اختلاف يسير وهو ضيف . (٤) حديث كرز بن وبرة « أن الخضر عليه صلاة بين المغرب والعشاء وفيه كرز سأل الخضر بمن سمعت هذا ؟ قال إني حضرت محمدا ﷺ حين علم هذا الدعاء ... » وهذا باطل لا أصل له . (٥) حديث عبيد مولى النبي ﷺ وقيل له « هل كان النبي ﷺ يأمر بصلاة غير المكتوبة ؟ قال ما بين المغرب والعشاء » رواه أحمد وفيه رجل لم يسم .



صلاة الأوابين<sup>(١)</sup> وقال الأسود ما أتيت ابن مسعود رضى الله عنه في هذا الوقت إلا ورأيت يصلي فسأته فقال : نعم هي ساعة القنلة . وكان أنس يواطئ عليها ويقول : هي ناشئة الليل ، ويقول : فيها زل فيها قوله تعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) وقال أحمد بن أبي الخوارى : قلت لأبي سليمان الداراني أصوم النهار وأتمشي بين المغرب والعشاء أحب إليك أو أفطر بالنهار وأحيي ما بينهما ؟ فقال : اجمع بينهما ، فقلت : وإن لم يتيسر ؟ قال : افطر وصل ما بينهما .

### فضيلة قيام الليل

أما من الآيات : فقوله تعالى ( إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ) وقوله تعالى ( إن ناشئة الليل هي أشد وطئاً وأقوم قبلاً ) وقوله سبحانه وتعالى ( تتجافى جنوبهم عن المضاجع ) وقوله تعالى ( أمن هو قانت آناء الليل ) وقوله عز وجل ( والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ) وقوله تعالى ( واستعينوا بالصبر والصلاة ) قيل هي قيام الليل يستعان بالصبر عليه على مجاهدة النفس .

ومن الأخبار قوله ﷺ « يعقد الشيطان على قافية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة فإن توضأ انحلت عقدة فإن صلى انحلت عقدة فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان<sup>(٢)</sup> » وفي الخبر « أنه ذكر عنده رجل يشام كل الليل حتى يصبح فقال : ذلك رجل بال الشيطان في أذنه<sup>(٣)</sup> » وفي الخبر « إن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً فإذا أسمعك العبد ساء خلقه وإذا ألمقه ذرب لسانه بالشر وإذا ذره نام الليل حتى يصبح<sup>(٤)</sup> » وقال ﷺ « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم<sup>(٥)</sup> » وفي الصحيح عن جابر أن النبي ﷺ قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيراً إلا أعطاه إياه » وفي رواية : « يسأل الله تعالى خيراً من الدنيا والآخرة وذلك في كل ليلة » وقال المغيرة بن شعبه : قام رسول الله ﷺ حتى تفطرت قدماء فقيل له : أما قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال : أفلا أكون عبداً شكوراً<sup>(٦)</sup> ، ويظهر من معناه أن ذلك كناية عن زيادة الرتبة فإن الشكر سبب المزيد قال تعالى ( لنشكركم ولازيدنكم ) وقال ﷺ « يا أبا هريرة أتريد أن تكون راحة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً ومبعوثاً قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا<sup>(٧)</sup> » وقال ﷺ « عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم . فإن قيام الليل قربة إلى الله عز وجل وتكفير للذنوب »

(١) « من صلى ما بين المغرب والعشاء فذلك صلاة الأوابين » تقدم في الصلاة .

(٢) « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ... » متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٣) « ذكر عنده رجل نام حتى أصبح فقال : ذاك بال الشيطان في أذنه » متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٤) « إن للشيطان سعوطاً ولعوقاً وذروراً ... » أخرجه الطبراني من حديث أنس « إن للشيطان لعوقاً وكلا فإذا لحق الإنسان من لعوقه ذرب لسانه بالشر وإذا كل من كله نامت عيناه عن الذكر » ورواه البزار من حديث سمرة بن جندب وسندهما ضعيف . (٥) « ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها ولولا أن أشق على أمتي لفرضتهما عليهم » أخرجه آدم بن أبي إياس في الثواب ومحمد بن نصر المروزي في كتاب قيام الليل من رواية حسان بن عطية مرسلًا ووصله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر ولا يصح .

(٦) حديث المغيرة بن شعبه « قام النبي ﷺ حتى تفطرت قدماء ... » متفق عليه . (٧) « يا أبا هريرة أتريد أن تكون راحة الله عليك حياً وميتاً ومقبوراً قم من الليل فصل وأنت تريد رضا ربك ، يا أبا هريرة صل في زوايا بيتك يكن نور بيتك في السماء كنور الكواكب والنجوم عند أهل الدنيا » باطل لا أصل له .

ومطرده للداء عن الجسد ومنه عن الإمام (١) « وقال رسول الله ﷺ » ما من امرئ تكون له صلاة بالليل فقبله عليها النوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه (٢) » وقال رسول الله ﷺ لأي ذر « لو أردت سفراً أعددت له عدة قال : نعم ، قال : فكيف سفر طريق القيامة ألا أنبئك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم ؟ قال : بلى بأبي أنت وأمي قال : هم يوماً شديد الحر ليوم التشور وصل ركعتين في ظلة الليل لروحة القبور وحج حجة لعظام الأمور وتصدق بصدقة على مسكين أو كلمه حتى تقوما أو وكلة شرت تسكت عنها (٣) » وروى « أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهنأت العينون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يا رب النار أجرني منها ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : إذا كان ذلك فآذوني فأناؤه فاستمع فلما أصبح قال : يا فلان هلا سألت الله الجنة ؟ قال : يا رسول الله إني لست هناك ولا يبلغ عملي ذاك ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى نزل جبرائيل عليه السلام وقال : أخبر فلان أن الله قد أجاره من النار وأدخله الجنة (٤) » ويروي « أن جبرائيل عليه السلام قال للنبي ﷺ : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ، فأخبره رسول الله ﷺ بذلك فكان يداوم بعده على قيام الليل (٥) » قال نافع : كان يصلي بالليل ثم يقول : يا نافع أسحرنا ؟ فأقول : لا ؛ فيقوم لصلاته ثم يقول يا نافع أسحرنا ؟ فأقول : نعم ؛ فيبعد فيستغفر الله تعالى حتى يطلع الفجر . وقال علي ابن أبي طالب : شيع يحيى بن زكريا عليهما السلام من خير شعير فنام عن وروده حتى أصبح فأوحى الله تعالى إليه : يا يحيى أوجدت داراً خير لك من داري ؟ أم وجدت جواراً خيراً لك من جوارى ؟ فوجدت جداراً يا يحيى لم أطلعت إلى الفردوس أطلاعه لذاب شحمك ولرهمت نفسك اشتيافاً ولو أطلعت إلى جهنم أطلاعه لذاب شحمك ولبيكت الصديد بعد الدموع ولبست الجلد بعد الوحش . » وقيل لرسول الله ﷺ : إن فلانا يصلي بالليل فإذا أصبح سرق فقال : سبناه ما بعمل (٦) » وقال رسول الله ﷺ « رحم الله رجلاً قام من الليل فضلى ثم أبقت أرامته فصلت فان أبت نضحت في وجهه الماء (٧) » وقال رسول الله ﷺ « رحم الله امرأة قامت من الليل فصلت ثم أبقت زوجها فصلت فان أبي نضحت في وجهه الماء » وقال رسول الله ﷺ « من استيقظ من الليل وأيقظ أرامته فصلت ركعتين كتبنا من الذالكين الله كثيراً والذالكات (٨) » وقال رسول الله ﷺ « أفضل الصلاة بعد المكتوبة قيام الليل (٩) » وقال

(١) «عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين قبلكم ...» أخرجه الترمذي من حديث بلال وقال غريب ولا يصح ورواه الطبراني والبيهقي من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال الترمذي إنه أمع . (٢) «ما من امرئ يكون له صلاة بالليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه صدقة عليه» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث عائشة وفيه رجل لم يسم سواه النسائي في رواية الأبودن بن يزيد لكن في طريقه ابن جعفر الرازي قال النسائي ليس بالقوي ورواه النسائي وابن ماجه من حديث أبو الدرداء نحوه بسند ضعيف وتقدم في الباب قبله . (٣) «قال لأبو ذر : لو أردت سراً أعدت له عدة فكيف بسر طريق القيامة ؟ ألا أنبك يا أبا ذر بما ينفعك ذلك اليوم ، قال بلى بأبي وأمي ، قال ، صم يوماً شديداً الحر يوم النشور وصل ركعتين في ظلمة الليل لوحشة القبور ...» أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب التهجيد من رواية السري بن عباد مرسل والسري ضعفه الأزدي . (٤) «أنه كان على عهد النبي ﷺ رجل إذا أخذ الناس مضاجعهم وهدأت العيون قام يصلي ويقرأ القرآن ويقول : يا رب الناس أجرني منها . فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : إذا كان ذلك فأذوني ...» لم أقف له على أصل . (٥) «أن جبريل قال للنبي ﷺ : نعم الرجل ابن عمر لو كان يصلي بالليل ...» متفق عليه من حديث ابن عمر «أن النبي ﷺ قال ذلك» وليس فيه ذكر لجبريل . (٦) «قيل له إن فلاناً يصلي بالليل فإذا أصبح سرق قال سيئناه ما يقول» أخرجه ابن حبان من حديث أبو هريرة . (٧) «رحم الله رجلاً قام من الليل فضلى ثم أيقظ امرأته فصلت ...» أخرجه أبو داود وابن ماجه من حديث أبو هريرة . (٨) «من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فضليا ركعتين كتبنا من الذكركرين والله أكرام» أخرجه أبو داود والنسائي من حديث أبو هريرة وأبو سعيد بسند صحيح . (٩) «أفضل الصلاة بعد المكتوبة : قيام الليل» أخرجه مسلم من حديث أبو هريرة .

عمر بن الخطاب رضي الله عنه : قال ﷺ « من نام عن حربه أو عن شيء منه بالليل فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنما قرأه الليل (١) » .

الآثار : روى أن عمر رضي الله عنه كان يمر بالآية من ورده بالليل فيسقط حتى يعاد منها أياما كثيرة كما يعاد المريض . وكان ابن مسعود رضي الله عنه إذا هدأت العيون قام فيسمع له دوى كدوى النحل حتى يصبح . ويقال إن سفيان الثوري رحمه الله شبع ليلة فقال : إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله فقام تلك الليلة حتى أصبح وكان طلوس رحمه الله إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المغلاة ثم يثب ويصلي إلى الصباح ثم يقول : طير ذكر جهنم نوم المابدين . وقال الحسن رحمه الله : ما تعلم عملا أشد من مكابدة الليل ونفقة هذا المال فقيل له : ما بال المتجهدين من أحسن الناس وجوها ؟ قال : لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم نورا من نوره . وقدم بعض الصالحين من سفره فهد له فراش فنام عليه حتى فاته ورده خلف أن لا ينام بعدها على فراش أبدا . وكان عبدالعزیز ابن أبي رواد إذا جن عليه الليل يأتي فراشه فيمر يده عليه ويقول : إنك لئين ووالله إن في الجنة لأئين منك ولا يزال يصلي الليل كله ، وقال الفضيل : إني لأستقبل الليل من أوله فيبذلني طوله فأفتح القرآن فأصبح وما فقتيت نهقي . وقال الحسن : إن الرجل ليذهب الذنب فيحرم به قيام الليل . وقال الفضيل : إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم وقد كثرت خطيئتك . وكان صلة بن أشيم رحمه الله يصلي الليل كله فإذا كان في السحر قال : إلهي ليس مثلي يطلب الجنة ولكن أجهري برحمتك من النار . وقال رجل لبعض الحكماء إني لأضعف عن قيام الليل ؛ فقال له : يا أخى لاتعص الله تعالى بالتهار ولا تقم بالليل . وكان للحسن بن صالح جارية فباعها من قوم فلما كان في جوف الليل قامت الجارية فقالت : يا أهل الدار الصلاة الصلاة ! فقالوا : أصبحنا أطعم الفجر ؟ فقالت : وما تصلون إلا المكتوبة ؟ قالوا : نعم ؛ فرجعت إلى الحسن فقالت : يا مولاي بعني من قوم لا يصلون إلا المكتوبة ؟ ردني . فردها . وقال الربيع : بت في منزل الشافعي رضي الله عنه ليال كثيرة فلم يكن ينام من الليل إلا يسيرا . وقال أبو الجوزية : لقد صحبت أبا حنيفة رضي الله عنه ستة أشهر فافها ليلة ووضع جنبه على الأرض . وكان أبو حنيفة يحيي نصف الليل فمر يقوم فقالوا : إن هذا يحيي الليل كله ؛ فقال : إني أستمع أن أوصف بمالا أقبل فكان بعد ذلك يحيي الليل كله . وروى أنه ما كان له فراش بالليل . ويقال : إن مالك بن دينار رضي الله عنه بات يردد هذه الآية ليلة حتى أصبح ( أم حسب الذين اجترأوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ) الآية . وقال المغيرة بن حبيب : رمت مالك بن دينار فتوضأ بعد العشاء ثم قام إلى مصلاه فقبض على لحيته تخففته أعبرة فجعل يقول : اللهم حرم شية مالك على النار إلهي قد علمت ساكن الجنة من ساكن النار فأى الرجلين مالك ؟ وأى الدارين دار مالك ؟ فلم يزل ذلك قوله حتى طلع الفجر . وقال مالك بن دينار سموت ليلة عن وردى وتمت فإذا أنا في المنام بجارية كالحسن ما يكون وفي يدها رقعة فقالت لي : اتحسن تقرأ ؟ فقلت : نعم فدفعتم لي الرقعة فإذا فيها :

أأهلك اللذائذ والأمانى      عن البيض الأوانس في الجنان  
تعيش مخلدا لاموت فما      وتلهو في الجنان مع الحسان  
تنبه من منامك إن خيرا      من النوم التهجذ بالقرآن

وقيل حج مسروق فاجات ليلة إلا ساجدا . ويروى عن أزهري بن مغيث وكان من القوامين أنه قال : رأيت في

(١) حديث عمر « من نام عن حربه أو عن شيء منه فقرأه بين صلاة الفجر والظهر كتب له كأنه قرأه من الليل »  
رواه مسلم .

للمنام امرأة لانتبه نساء أهل الدنيا فقلت لها : من أنت؟ قالت : حوراء . فقلت : زوجتي نفسك . فقالت اعطيتني إلى سيدي وأمهرني ، فقلت : وما مهرك ؟ قالت طول التهجد . وقال يوسف بن مهران : بلغني أن تحت العرش ملكا في صورة ديك برائه من أو ثق وصمغته من زبرجد أخضر فإذا مضى ثلث الليل الأول ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم القائمون فإذا مضى نصف الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المتجهدون ، فإذا مضى ثلثا الليل ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المصلون ، فإذا طلع الفجر ضرب بجناحيه وزقا وقال : ليقيم المنافلون وعليهم أوزارهم . وقيل إن وهب بن منبه العائى ما وضع جنبه إلى الأرض ثلاثين سنة وكان يقول : لأن أرى في بيتي شيطانا أحب إلى من أن أرى في بيتي وسادة لأنها تدعو إلى النوم ، وكانت له مسورة من آدم إذا غلبه النوم وضع صدره عليها وخفق خفقات ثم يفرغ إلى الصلاة . وقال بعضهم : رأيت رب العزة في النوم فسمعت يقول : وعزى وجلالى لا أكرم من مثوى سليمان التيمي فإنه صلى لى الغداة بوضوء العشاء أربعين سنة . ويقال كان مذهبه أن النوم إذا خامر القلب بطل الوضوء ، وروى في بعض الكتب القديمة عن الله تعالى أنه قال : إن عبدى الذى هو عبدى حقا الذى لا ينظر بقيامه صباح الديكة .

### بيان الأسباب التي بها يتيسر قيام الليل

اعلم أن قيام الليل عسير على الخلق إلا على من وفق للقيام بشروطه الميسرة له ظاهراً وباطناً فأمّا الظاهرة فأربعة أمور :

( الأول ) أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم وينقل عليه القيام . كان بعض الشيوخ يقف على المائدة كل ليلة ويقول : معاش المريدين لأننا كلوا كثيراً فكثر بوا كثيراً فتركوا كثيراً فتعسروا عند الموت كثيراً . وهذا هو الأصل الكبير وهو تخفيف المعدة عن ثقل الطعام .

( الثانى ) أن لا ينعب نفسه بالنهار فى الأعمال التى تعيا بها الجوارح وتضعف بها الأعصاب فإن ذلك أيضاً مجلبة للنوم .

( الثالث ) أن لا يترك القبوله بالنهار فأنها سنة للاستعانة على قيام الليل (١) .

(الرابع) أن لا يمتنع الأوزار بالنهار فإن ذلك مما يقضى القلب ويحول بينه وبين أسباب الرحمة قال رجل للحسن يا أبا سعيد إني أبيت معافى وأحب قيام الليل وأعد طهورى فأبالي لأقوم ؟ فقال : ذنوبك قيدتك . وكان الحسن رحمه الله إذا دخل السوق فسمع لفظهم ولفظهم يقول : أظن أن إيل هؤلاء ليل سوء فإنهم لا يقيمون ، وقال الثورى حرمت قيام الليل خمسة أشهر بذنب أذنبته قبل وماذا لك الذنب؟ قال : رأيت رجلاً يبكي فقلت في نفسى هذا امرأ . وقال بعضهم دخلت على كرز وبيرة وهو يبكي فقلت أنك نمت بعض أهلك؟ فقال : أشد ، فقلت جميع يؤلك؟ قال : أشد ، قلت فإذا؟ قال : باني مغلق وسرتى مسبل ولم أقرأ حزبى البارحة وماذا لك إلا بذنب أحدثته وهذا لأن الخير يدعو إلى الخير والشر يدعو إلى الشر والقليل من كل واحد منهما يجبر إلى الكثير . ولذلك قال أبو سليمان الداراني لافوت أحدًا صلاة الجمعة إلا بذنب وكان يقول الاحتلام بالليل عقوبة والجناية بعد ، وقال بعض العلماء إذا سمعت يامسكين فانظر عند من تفطر وعلى أى شيء تفطر فإن العبد ليا كل أكلة فيقلب قلبه عما كان عليه ولا يعود إلى حاله الأولى . فالذنوب كلها تورث فسادة القلب وتمنع من قيام الليل ، وأخصها بالتأثير تناول الحرام ، وتؤثر البقرة الحلال في تصفية القلب وتحرى بكه إلى الخير ما لا يؤثر غيرها ويعرف ذلك أهل المراقبة للقلوب بالتجربة بعد شهادة الشرع له . ولذلك قال بعضهم : كم من أكلة منعت قيام ليلة وكَم من نظرة منعت قراءة سورة ؟ وإن العبد ليا كل أكلة أو يفعل فعله فيجرم بها قيام سنة . وكذا أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فكذلك الفحشاء تنهى عن الصلاة وسائر الخيرات . وقال بعض السجائين

(١) « الاستعانة بقبولة النهار على قيام الليل » أخرجه ابن ماجه من حديث ابن عباس وقد تقدم

كنت سجاناً نيفاً وثلاثين سنة أسأل كل مأخوذ بالليل أنه هل صلى الغشاء في جماعة فكانوا يقولون : لا ؟ وهذا نبيه على أن بركة الجماعة تهي عن تماطى الفحشاء والمنكر .

وأما الميسرات الباطنة فأربعة أمور : ( الأول ) سلامة القلب عن الحقد على المسلمين وعن البديع وعن فضول موم الدنيا فالمستغرق المم بتدبير الدنيا لا يتيسر له القيام ، وإن قام ، فلا يتفكر في صلاته إلا في مهماته ولا يجوز إلا في وسوسه وفي مثل ذلك يقال :

يتخون البواب أنك نائم وأنت إذا استيقظت أيضاً نائم

( الثاني ) : خوف غالب يولم القلب مع قصر الأمل فإنه إذا تفكر في أهوال الآخرة ودركات جهنم طار نومه وعظم حذره كما قال علوس : إن ذكر جهنم طير نوم العابدين . وكما حكى أن غلاماً بالبصرة اسمه صبيب كان يقوم الليل كله فقالت له سيده : إن قيامك بالليل يضر بعملك بالنهار ، فقال : إن صبيباً إذا ذكر النار لا يأتيه النوم وقبل لغلالم آخر وهو يقوم كل الليل فقال : إذا ذكرت النار اشتد خوفي وإذا ذكرت الجنة اشتد شوقى فلا أقدر أن أنام قال ذو النون المصري رحمه الله :

منع القرآن بوعدده ووعدده مقل العين بليها أن تهجما  
فهموا عن الملك الجليل كلامه فرقابهم ذلك إليه تحضما

وأشدوا أيضاً :

يا طويل الرقاد والتفلات كثرة النوم تورث الحشرات  
إن في القبر إن زلت إليه رقادا يطول بعد الممات  
ومهاداً مهداً لك فيه بدتوب عملت أو حسنات  
أمنت البيات من ملك الموت وكم نال آمنا ببيات

وقال ابن المبارك :

إذا ما الليل أظلم كأبدوه فيسفر عنهم وهم ركوع  
أطار الخوف نومهم فقاموا وأهل الأمن في الدنيا هجوع

( الثالث ) أن يعرف فضل قيام الليل بسباح الآيات والأخبار والآثار حتى يستحكم به رجاءه وشوقه إلى ثوابه فيهبه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان ، كما حكى أن بعض الصالحين رجع من غروته فهدت امرأته فراشها وجلست تنتظره فدخل المسجد ولم يزل يصلى حتى أصبح فقالت له زوجته : كنا ننتظرك مدة فلما قدمت صليت إلى الصبح ؟ قال : والله إنى كنت أنفكر في حوراء من حور الجنة طول الليل فنسيت الزوجة والمنزل فقممت طول ليلتى شوقاً إليها .

( الرابع ) وهو أشرف البواعث ، الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو متاج به وهو مطلع عليه مع مشاهدة ما يحضر بقلبه وأن تلك الخطرات من الله تعالى خطاب معه ، فإذا أحب الله تعالى أحب لاعماله الخلوته به وتلذذ بالمناجاة فتشمله لذة المناجاة بالحبيب على طول القيام ، ولا ينبغي أن تستبعد هذه اللذة إذ يشهد لها العقل والقل . فأما العقل فيعتبر حال المحب لشخص بسبب جماله أو الملك بسبب إنعامه وأمواله أنه كيف يتلذذ به في الخلوته ومناجاته حتى لا يأتيه النوم طول ليله .

فإن قلت : إن الجليل يتلذذ بالنظر إليه وإن الله تعالى لا يرى ؟  
فاعلم أنه لو كان الجليل المحبوب وراء ستار أو كان في بيت مظلم لسكان المحب يتلذذ بمجاورته المجردة دون النظر ودون الطمع في أمر آخر سواء . وكان يتنعم بإظهار حبه عليه وذكره بلسانه بسمع منه وإن كان ذلك أيضا معلوما عنده .

فإن قلت : إنه ينتظر جوابه ليتلذذ بسماع جوابه وليس يسمع كلام الله تعالى ؟  
فاعلم أنه كان يعلم أنه لا يجيبه ويسكت عنه فقد بقيت له أيضا لذة في عرض أحواله عليه ووقع سريره إليه كيف والمؤمن يسمع من الله تعالى كل ما يرد على خاطره في أثناء مناجاته فيتلذذ به ؟ وكذا الذي يخلو بالملك ويعرض عليه حاجاته في جميع الليل يتلذذ به في رجاء إتمامه . والرجاء في حق الله تعالى أصدق وما عند الله خير وأبقى وأنفع مما عند غيره فكيف لا يتلذذ بعرض الحاجات عليه في الخلوات ؟

وأما النقل فيشبه له أحوال قوام الليل في تلذذهم بقيام الليل واستقصاها له كما يستقصر المحب ليلة وصال الحبيب حتى قيل لبعضهم : كيف أنت والليل ؟ قال : مارأيت قط بريني وجهي ثم ينصرف وما تأمته بعد . وقال آخر : أنا والليل فرسا رهان مرة يسبقني إلى الفجر ومرة يقطعني عن الفجر . وقيل لبعضهم كيف الليل عليك ؟ فقال : ساعة أنا فيها بين حالتين أفرح بظلمته إذا جاء . وأغتم بفجره إذا طلع ، ماتم فرحى به قط . وقال علي بن بكار : منذ أربعين سنة ما أحرقتني شئ سوى طلوع الفجر . وقال الفضيل بن عياض : إذا غربت الشمس فرحت بالظلم خلقوني بربي وإذا طلعت حزنت لدخول الناس علي . وقال أبو سليمان : أهل الليل في ليهم ألد من أهل اليوم في لهم ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا . وقال أيضا : لو عرض الله أهل الليل من ثواب أعمالهم ما يجدونه من اللذة لسكان ذلك أكثر من ثواب أعمالهم . وقال بعض العلماء : ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل الخلق في قلوبهم بالليل من حلوة المناجاة . وقال بعضهم : لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله لأولياؤه لا يجدها سواه ، وقال ابن المنكدر : ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث قيام الليل ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة . وقال بعض العارفين : إن الله تعالى ينظر بالأسحار إلى قلوب المتيقظين فيملؤها أنوارا فترد الفوائد على قلوبهم فتستدير ثم تنتشر من ثوبهم العوافي إلى قلوب الغافلين . وقال بعض العلماء من القدماء : إن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن في عبادا من عبادي أحبه ويحبوني ويشتاقونني إلى وأشتاق إليهم ويذكرونني وأذكروهم وينظرون إلي وأناظر إليهم فإن حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم مقتك ، قال يارب وما علامتهم ؟ قال يراون الظلال بالأنوار كما يراعي الراعي غنمه ويحسون إلى غروب الشمس كما تحس الطير إلى أوكارها فإذا جهنم الليل واختلط الظلام وغلاكل حبيب يحبيه نصبوا إلى أقدامهم وافتشروا إلى وجوههم وناجوني بكلامي وتملقوا إلى بأنعامي فبين صارخ وبأكي وبين متأوه وشاكى بعينى ما يتحملون من أجل وبسمى ما يشتكون من حى أول ما أعطيهم أذن من بوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم . والثانية : لو كانت السموات السبع والأرضون السبع وما فيها في موازيتهم لاستغلتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهي عليهم أفترى من أقبلت بوجهي عليه أبطل أحد ما أريد أن أعطيه ؟ وقال مالك بن دينار رحمه الله إذا قام العبد يتهد من الليل قرب منه الجبار عز وجل . وكانوا يرون ما يجدون من الرقة والحلاوة في قلوبهم والأنوار من قرب الرب تعالى من القلب وهذا له سر وتحقيق ستأتي الإشارة إليه في كتاب المحبة . وفي الأغيار عن الله عز وجل « أى عبدي أنا الله الذى اقتربت من قلبك وبالفريب رأيت نورى » وشكا بعض المريدين إلى أستاذه طول سهر الليل وطلب حيلة يجلب بها النوم فقال أستاذه : يا بنى الله نفحات في الليل والنهار تصيب القلوب المتيقظة وتغسل القلوب النائمة فتعرض تلك النفحات ، فقال : يا سيدي تركتني لأنام بالليل ولا بالنهار .

واعلم أن هذه النفعات بالليل أرحمى لما في قيام الليل من صفاء القلب وارتفاع الشواغل . وفي الخبر الصحيح عن جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله تعالى خيرا إلا أعطاه إياه <sup>(١)</sup> » وفي رواية أخرى « يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك ليلة كل » ومطلوب الفائتين تلك الساعة وهي مهمة في جملة الليل كيلة القدر في شهر رمضان وكساعة يوم الجمعة وهي ساعة النفعات المذكورة والله أعلم .

### بيان طرق القسمة لأجزاء الليل

اعلم أن إحياء الليل من حيث المقداره له سبع مراتب ( الأولى ) إحياء كل الليل وهذا شأن الأقوياء الذين يجاهدوا لعبادة الله تعالى وتلذذوا بمناجاته وصار ذلك غذاء لهم وحياء لقلوبهم فلم يتعبوا بطول القيام وردوا المنام إلى الهار في وقت اشتغال الناس ، وقد كان ذلك طريق جماعة من السلف كانوا يصلون الصبح بوضوء العشاء . حكى أبو طالب المسكي أن ذلك حكى على سبيل التواتر والاشتهار عن أربعين من التابعين وكان فيهم من واطب عليه أربعين سنة ، قال : منهم سعيد بن المسيب وصفوان بن سليم - المدنيان - وفضيل بن عياض ووهيب بن الورد - المكيان - وسواهم ووهيب بن منبه - الجانيان - والربيع بن خثيم والحكم - الكوفيان - وأبو سلمان الداراني وعلى بن بكار الشاميان - وأبو عبد الله الخواص وأبو عاصم العباديان - وحبيب أبو محمد وأبو جابر السلمي - الفارسيان - ومالك بن دينار وسليمان التيمي ويزيد الرقاشي وحبيب بن أبي ثابت ويحيى البكاء - البصريون - وكهس بن المنهال وكان يحتم في الشهر تسعين ختمة وما لم يضمه رجع وقرأه مرة أخرى . أيضا من أهل المدينة : أبو حازم ومحمد بن المشكدر في جماعة يكثر عددهم ( المرتبة الثانية ) أن يقوم نصف الليل : وهذا لا ينحصر عدد المواظبين عليه من السلف . وأحسن طريق فيه أن ينام الثلث الأول من الليل والسدس الأخير منه حتى يقع قيامه في جوف الليل ووسطه فهو الأفضل ( المرتبة الثالثة ) أن يقوم ثلث الليل : فينبغي أن ينام النصف الأول والسدس الأخير ، وبالجملة نوم آخر الليل محبوب لأنه يذهب النعاس بالغداة ، وكانوا يكرهون ذلك ، ويقل صفره الوجه والشهوة به فلو قام أكثر الليل ونام سحرا قلت صفره وجهه وقل نعاسه . وقالت عائشة رضي الله عنها « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه للصلاة <sup>(٢)</sup> » وقالت أيضا رضي الله عنها « ما أغنيته بعد السحر إلا نائما <sup>(٣)</sup> » حتى قال بعض السلف . هذه الضبعة قبل الصبح سنة ، ومنهم أبو هريرة رضي الله عنه . وكان نوم هذا الوقت سببا للكشف والمشاهدة من وراء حجب النيب وذلك لأرباب القلوب وفيه استراحة

(١) حديث جابر « إن من الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله خيرا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه وذلك كل ليلة » رواه مسلم .

(٢) « كان رسول الله ﷺ إذا أوتر من آخر الليل فإن كانت له حاجة إلى أهله دنا منهم وإلا اضطجع في مصلاه حتى يأتيه بلال فيؤذنه بالصلاة » أخرجه مسلم من حديث عائشة « كان يقوم أول الليل ويحيى آخره ثم إن كان له حاجة إلى أهله قضى حاجته ثم ينام » وقال النسائي « فإذا كان من السحر أوتر ثم أتى فراشه فإذا كان له حاجة إلى أهله » ولأبو داود « كان إذا قضى صلاته من آخر الليل نظر فإن كنت مستيقظة حدثني وإن كنت نائمة أيقظني وصلى الركعتين ثم اضطجع حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه بصلاته الصبح فصلى ركعتين خفيفتين ثم يخرج إلى الصلاة » وهو متفق عليه بلفظ « كان إذا صلى فإن كنت مستيقظة حدثني وإلا اضطجع حتى يؤذن بالصلاة » وقال مسلم « إذا صلى ركعتي الصبح .

(٣) حديث عائشة « ما أغنيته السحر الأمل إلا نائما » متفق عليه بلفظ « ما أغني رسول الله ﷺ السحر الأمل في بيتي أو عندي إلا نائما » لم يقل البخاري « الأمل » وقال ابن ماجه « ما كنت ألقى أو ألقى النبي ﷺ من آخر الليل إلا وهو نائم عندي » .

تعين على الورد الأول من أوراد النهار وقيام ثلث الليل من النصف الأخير . ونوم السدس قيام داود صلى الله عليه وسلم ( المرتبة الرابعة ) أن يقوم سدس الليل أو خمسها وأفضله أن يكون في النصف الأخير وقبل السدس الأخير منه ( المرتبة الخامسة ) أن لا يراعى التقدير فإن ذلك إما يتيسر لنبى يوحى إليه أو لمن يعرف منازل القمر ويوكل به من يراقبه ويواظبه ويوظفه ثم ربما يضطرب في ليالي الغيم ، ولكنه يقوم من أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم عاد إلى النوم . فيكون له في الليل نومتان وقومتان وهو من مكابدة الليل وأشد الأعمال وأفضلها ، وقد كان هذا من أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ، وهو طريقة ابن عمر وأولى العزم من الصحابة وجماعة من التابعين رضى الله عنهم . وكان بعض السلف يقول : هي أول نومة فإذا انتبهت ثم عدت إلى النوم فلا أنام الله عينا . فأما قيام رسول الله صلى الله عليه وسلم من حيث المقدار فلم يكن على ترتيب واحد بل ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو سدسه <sup>(٢)</sup> يختلف ذلك في الليالي ودل عليه قوله تعالى في الموضعين من سورة المزمل ﴿لن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه﴾ فأدنى من ثلثي الليل كأنه نصف سدسه فإن كسر قوله ﴿ونصفه وثلثه﴾ كان نصف الثلثين وثلثه فيقرب من الثلث والربع . وإن نصب كان نصف الليل وقال تعالى رضى الله عنه كان صلى الله عليه وسلم يقوم إذا سمع الصارخ <sup>(٣)</sup> يعنى الديك وهذا يكون السدس فمادونه . وروى غير واحد أنه قال مواعيد صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السفر ليلا قام بعد العشاء ما نام استيقظ ففطر في الأفق فقال ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلا﴾ حتى بلغ ﴿لأنك لا تخلف الميعاد﴾ ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك به وتوضأ وصلى حتى قلت : صلى مثل الذى نام . ثم اضطلع حتى قلت نام مثل ماضى . ثم استيقظ فقال ما قال أول مرة وفعل ما فعل أول مرة <sup>(٤)</sup> ( المرتبة السادسة ) وهى الأقل : أن يقوم مقدار أربع ركعات أو ركعتين أو تعتذر عليه الطهارة فيجلس مستقبل القبلة ساعة مشغلا بالذكر والدعاء فيكتب في جملة قوام الليل برحة الله وفضله . وقد جاء في الأثر : صلى من الليل ولو قدر حلب شاة <sup>(٥)</sup> فهذه طريق القسمة فيختار المرید لنفسه ما يراه أيسر عليه . وحيث يعتذر عليه القيام فى وسط الليل فلا ينبغي أن يحمل إحياء ما بين العشاءين والورد الذى بعد العشاء . ثم يقوم قبل الصبح وقت السمر فلا يدركه الصبح

(١) « قيامه أول الليل إلى أن يغلبه النوم فإذا انتبه قام فإذا غلبه النوم نام فيكون له في الليل نومتان » أخرجه أبو داود والترمذى وصححه وابن ماجه من حديث أم سلمة « كان صلى وينام قدر ما صلى ثم يصلى قدر ما نام ثم ينام قدر ما صلى حتى يصبح » والبخارى من حديث ابن عباس « صلى العشاء ثم جاء فضلى أربع ركعات ثم نام ثم قام » وفيه « فضلى خمس ركعات ثم صلى ركعتين ثم نام حتى سمعت غيطه ... » . (٢) « ربما كان يقوم نصف الليل أو ثلثه أو ثلثيه أو سدسه » أخرجه الشيخان من حديث ابن عباس « نام النبي ﷺ حتى انتصف الليل أو قبله بقليل أو بعده بقليل استيقظ ... » وفي رواية للبخارى « فلما كان ثلث الليل الآخر قد فطر إلى السماء ... » ولأبو داود « نام حتى إذا ذهب ثلث الليل أو نصفه استيقظ ... » لمسلم من حديث عائشة « فيعته الله بما شاء أن يبعثه من الليل » . (٣) حديث عائشة « كان يقوم إذا سمع الصارخ » متفق عليه . (٤) « غير واحد قال : راعيت صلاة النبي ﷺ في السفر ليلا قام بعد العشاء زمانا ثم استيقظ ففطر في الأفق فقال ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه — حتى بلغ — لأنك لا تخلف الميعاد ثم استلم من فراشه سوا كافاستاك وتوضأ وصلى حتى قلت صلى مثل ما نام ... » أخرجه النسائى من رواية حميد بن عید الرحمن بن عوف « أن رجلا من أصحاب النبي ﷺ قال : قلت وأنا في سفر مع النبي ﷺ والله لأرقين النبي ﷺ » فذكر نحوه وروى أبو الوليد بن مغيث في كتاب الصلاة من رواية إسحق بن عبد الله ابن أبو طلحة « أن رجلا قال لأرمقن صلاة النبي ﷺ » فذكر الحديث وفيه « أنه أخذ سواكه من مؤخر الرحل » وهذا يدل أنه أيضا كان في السفر . (٥) « صلى من الليل ولو قدر حلب شاة » أخرجه أبو الوليد من حديث ابن عباس في صلاة الليل مرفوعا « نصفه ثلثه ربه فواق حلب ناقة فواق حلب شاة » ولأبو الوليد بن مغيث من رواية إياس بن معاوية مرسلا « لابد من صلاة الليل ولو حلبه ناقة أو حلب شاة » .



نأثما ويقوم بطرفي الليل ( وهذه هي المرتبة السابعة ومهما كان النظر إلى المقدار فترتيب هذه المراتب بحسب طول الوقت وقصره . وأما في الرتبة الخامسة والسابعة لم ينظر فيها إلى القدر فليس يجرى أمرهما في التقدم والتأخر على الترتيب المذكور إذ السابعة ليست دون ما ذكرناه في السادسة . ولا الخامسة دون الرابعة .

### بيان اليالي والأيام الفاضلة

اعلم أن اليالي المخصوصة بمزيد الفضل التي يأتى كد فيها استحباب الإحياء في السنة خمس عشرة ليلة لا ينغى أن يغفل المريد عنها فانها مواسم الخيرات ومطامير التجارات . ومتى غفل التاجر عن المواسم لم يربح ومتى غفل المريد عن فضائل الأوقات لم ينتج فستة من هذه اليالي في شهر رمضان : خمس في أوتار العشر الأخير إذ فيها تطلب ليلة القدر وليلة سبع عشرة من رمضان - فهي ليلة صيدها يوم الفرقان يوم التقي الجمعان ، فيه كانت وقعة بدر ، وقال ابن الزبير رحمه الله تعالى هي ليلة القدر - وأما التسع الآخر : فأول ليلة من المحرم ، وليلة عاشوراء ، وأول ليلة من رجب وليلة النصف منه وليلة سبع وعشرين منه وهي ليلة المعراج وفيها صلاة مأثورة فقد قال عليه السلام « للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة (١) » فن صلى في هذه الليلة اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة من القرآن ويتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول « سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ثم يستغفر الله مائة مرة ويصل على النبي صلى الله عليه وسلم مائة مرة ويدعو لنفسه بما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائما فإن الله يستجيب دعاءه كله إلا أن يدعو في معصية - وليلة النصف من شعبان - ففيها مائة ركعة يقرأ في كل ركعة بعد الفاتحة سورة الإخلاص عشر مرات كانوا لا يتركونها كما أوردناه في صلاة الطلوع - وليلة عرفة . وليلة العيدين ، قال صلى الله عليه وسلم « من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب (٢) » .

وأما الأيام الفاضلة فقسمة عشر يستحب مواصلة الأوراد فيها : يوم عرفة . ويوم عاشوراء . ويوم سبعة وعشرين من رجب - له شرف عظيم روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا (٣) » وهو اليوم الذي أهبط الله فيه جبرائيل عليه السلام على محمد صلى الله عليه وسلم بالرسالة - ويوم سبعة عشر من رمضان - وهو يوم وقعة بدر - ويوم النصف من شعبان - ويوم الجمعة . ويوم العيدين . والأيام المعلومات وهي عشر من ذو الحجة . والأيام المعدودات وهي أيام التشريق . وقد روى أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة (٤) » وقال بعض العلماء : من أخذ مهنة في الأيام الخمسة في الدنيا لم يزل مهنة في الآخرة أراد به العيدين والجمعة وعرفة وعاشوراء ومن فاضل الأيام في الأسبوع يوم الخميس والإثنين ترفع فيهما الأعمال إلى الله تعالى . وقد ذكرنا فضائل الأشهر والأيام في كتاب الصوم فلا حاجة إلى الإعادة والله أعلم ، وصلى الله على كل عبد مصطف من كل العالمين .

(١) « الصلاة المأثورة في ليلة السابع والعشرين من رجب » ذكر أبو موسى المدني في كتاب فضائل الأيام واليالي أن أبا محمد الحباري رواه من طريق الحاكم إلى عبد الله بن رواحة محمد بن الفضل عن أبيان عن أنس مرفوعا ، ومحمد ابن الفضل وأبان ضعيفان جدا والحديث منكر .

(٢) من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب » أخرجه بإسناد ضعيف من حديث أبو أمامة .  
(٣) حديث أبي هريرة « من صام يوم سبعة وعشرين من رجب كتب الله له صيام ستين شهرا وهو اليوم الذي هبط فيه جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم » رواه أبو موسى المدني في كتاب فضائل اليالي والأيام من رواية شهر بن حوشب عنه . (٤) حديث أنس « إذا سلم يوم الجمعة سلمت الأيام وإذا سلم شهر رمضان سلمت السنة » تقدم في الباب الخامس من الصلاة فذكر يوم الجمعة فقط وقد رواه بجملته ابن حبان في الضعفاء وأبو نعيم في الحلية من حديث عائشة وهو ضعيف .



فهرست  
المجزء الأول  
من إحياء علوم الدين

صفحة	موضوع	صفحة	موضوع
	فأدابه ووظائفه الظاهرة كثيرة ولكن تنظم تقاريفها عشر جملة	ب	ترجمة الإمام الغزالي
٥٥	بيان وظائف المرشد المعلم	د	ترجمة الإمام العراقي
٥٨	الباب السادس في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة والعلماء السوء	١	خطبة الكتاب
٨٣	الباب السابع في العقل وشرفه وحقيقته وأقسامه	٤	كتاب العلم وفيه سبعة أبواب
	بيان شرف العقل	٤	الباب الأول في فضل العلم والتعليم والتعلم وشواهد من النقل والعقل
٨٥	بيان حقيقة العقل وأقسامه	٨	فضيلة العلم
٨٧	بيان تفاوت النفوس في العقل	٩	فضيلة التعلم
٨٩	كتاب قواعد العقائد	١٢	فضيلة التعليم
	وفيه أربعة فصول		في الشواهد العقلية
	الفصل الأول في ترجمة عقيدة أهل السنة في كبرى الشهادة الخ	١٣	الباب الثاني في العلم المحمود والمذموم وأقسامهما وأحكامهما وفيه بيان ماهو فرض عين وماهو فرض كفاية وبيان أن موقع الكلام والفقه من علم الدين إلى أي حد هو وتفضيل علم الآخرة
٩٤	الفصل الثاني في وجه التدريج إلى الإرشاد وترتيب درجات الاعتقاد		بيان العلم الذي هو فرض عين
١٠٤	الفصل الثالث من كتاب قواعد العقائد في لواحق الأدلة للعقيدة التي ترجمناها بالقدس وفيها أركان أربعة	١٩	بيان العلم الذي هو فرض كفاية
١٠٥	فأما الركن الأول من أركان الإيمان في معرفة ذات الله سبحانه وتعالى وأن الله تعالى واحد ومداره على عشرة أصول	٢٩	الباب الثالث فيها بعده العامة من العلوم المحمودة وليس منها وفيه بيان الوجه الذي قد يكون به بعض العلوم مذموما وبيان تبديل أسامي العلوم وهو الفقه والعلم والترحيد والتذكير والحكمة وبيان القدر المحمود من العلوم الشرعية والقدر المذموم منها
١٠٨	الركن الثاني العلم بصفات الله تعالى ومداره على عشرة أصول		بيان علم ذم العلم المذموم
١١٠	الركن الثالث العلم بأفعال الله تعالى ومداره على عشرة أصول	٣١	بيان مايدل من ألفاظ العلوم
١١٤	الركن الرابع في السمعيات وتصديقه صلى الله عليه وسلم فيما أخبر عنه ومداره على عشر أصول	٣٨	بيان القدر المحمود من العلوم المحمودة
١١٦	الفصل الرابع في الإيمان والإسلام وما بينهما من الاتصال والانفصال وما يتطرق إليه من الزيادة والنقصان ووجه استثناء السلف فيه وفيه ثلاث مسائل	٤١	الباب الرابع في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والمنهل وشروط إباحتها
	مسألة اختلفوا في أن الاسلام هو الإيمان أو غيره الخ	٤٢	بيان التلبس في تشبيه هذه المناظرات بمساورات الصحابة ومفاوضات السلف رحمهم الله تعالى
		٤٥	بيان آفات المناظرة وما يتولد منها من مهلكات الأخلاق
		٤٨	الباب الخامس في آداب التعلم والمعلم أما المعلم

مصحف	مصحف
١٤٩ فضيلة السجود	١٢٠ مسألة فإن قلت فقد اتفق السلف على أن
١٥٠ فضيلة الخشوع	الإيمان يزيد وينقص الخ
١٥١ فضيلة المسجد وموضع الصلاة	١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن
١٥٢ الباب الثاني في كيفية الأعمال الظاهرة من	إن شاء الله الخ
الصلاة والبداءة بالتكبير وما قبله	١٢٥ كتاب أسرار الطهارة
١٥٣ القراءة	وهو الكتاب الثالث من أربع العبادات
١٥٤ الركوع ولواحقه	١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق
١٥٥ السجود	بالمزال والمزال به والإزالة الطرف الأول
١٥٥ التشهد	في المزال
١٥٦ المنهيات	١٢٨ الطرف الثاني في المزال به
١٥٧ تمييزات الفرائض والسنن	١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة
١٥٩ الباب الثالث في الشروط الباطنة من أعمال	القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء
القلب الخ	والفعل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء
بيان اشتراط الخشوع وحضور القلب	١٣٠ باب آداب قضاء الحاجة
١٦١ بيان المعاني الباطنة التي تتم بها حياة الصلاة	١٣٢ كيفية الاستنجاء
١٦٣ بيان الدواء النافع في حضور القلب	كيفية الوضوء
١٦٥ بيان تفصيل ما ينبغي أن يحضر في القلب عند	١٣٥ فضيلة الوضوء
كل ركن وشروط من أعمال الصلاة	١٣٦ كيفية غسل
١٧١ حکایات وأخبار في صلاة الخاشعين رضي الله عنهم	كيفية التيمم
١٧٣ الباب الرابع في الإمامة والقعدة الخ	١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن الفضلات
١٧٨ الباب الخامس في فضل الجمعة وآدابها	الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء
وسننها وشروطها	النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترسبة
فضيلة الجمعة	وهي ثمانية
١٧٩ بيان شروط الجمعة	١٤٠ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء
وأما السنن الخ	وهي ثمانية
١٨٠ بيان آداب الجمعة على ترتيب العادة وهي	١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهمات
عشر حمل	وفيه سبعة أبواب
١٨٥ بيان الآداب والسنن الخارجة عن	١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود والجماعة
الترتيب السابق الذي يعم جميع التباد	والأذان وغيرها
وهي سبعة أمور	فضيلة الأذان
١٨٨ الباب السادس في مسائل متفرقة نعم بها	١٤٦ فضيلة المكتوبة
البولي، ويحتاج المرید إلى معرفتها	١٤٧ فضيلة إتمام الأركان
١٩٢ الباب السابع في النوافل من الصلوات وفيه	١٤٨ فضيلة الجماعة
أربعة أقسام	

مصحف	مصحف
١٢٠ مسألة فإن قلت فقد اتفق السلف على أن	١٢٠ مسألة فإن قلت فقد اتفق السلف على أن
الإيمان يزيد وينقص الخ	الإيمان يزيد وينقص الخ
١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن	١٢١ مسألة فإن قلت ما وجه قول السلف أنا مؤمن
إن شاء الله الخ	إن شاء الله الخ
١٢٥ كتاب أسرار الطهارة	١٢٥ كتاب أسرار الطهارة
وهو الكتاب الثالث من أربع العبادات	وهو الكتاب الثالث من أربع العبادات
١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق	١٢٨ القسم الأول في طهارة الخبث والنظر فيه يتعلق
بالمزال والمزال به والإزالة الطرف الأول	بالمزال والمزال به والإزالة الطرف الأول
في المزال	في المزال
١٢٨ الطرف الثاني في المزال به	١٢٨ الطرف الثاني في المزال به
١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة	١٣٠ الطرف الثالث في كيفية الإزالة
القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء	القسم الثاني طهارة الأحداث ومنها الوضوء
والفعل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء	والفعل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء
١٣٠ باب آداب قضاء الحاجة	١٣٠ باب آداب قضاء الحاجة
١٣٢ كيفية الاستنجاء	١٣٢ كيفية الاستنجاء
كيفية الوضوء	كيفية الوضوء
١٣٥ فضيلة الوضوء	١٣٥ فضيلة الوضوء
١٣٦ كيفية غسل	١٣٦ كيفية غسل
كيفية التيمم	كيفية التيمم
١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن الفضلات	١٣٧ القسم الثالث في النظافة والتنظيف عن الفضلات
الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء	الظاهرة وهي نوعان أوساخ وأجزاء
النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترسبة	النوع الأول الأوساخ والرطوبات المترسبة
وهي ثمانية	وهي ثمانية
١٤٠ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء	١٤٠ النوع الثاني فيما يحدث في البدن من الأجزاء
وهي ثمانية	وهي ثمانية
١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهمات	١٤٥ كتاب أسرار الصلاة ومهمات
وفيه سبعة أبواب	وفيه سبعة أبواب
١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود والجماعة	١٤٦ الباب الأول في فضائل الصلاة والسجود والجماعة
والأذان وغيرها	والأذان وغيرها
فضيلة الأذان	فضيلة الأذان
١٤٦ فضيلة المكتوبة	١٤٦ فضيلة المكتوبة
١٤٧ فضيلة إتمام الأركان	١٤٧ فضيلة إتمام الأركان
١٤٨ فضيلة الجماعة	١٤٨ فضيلة الجماعة

صحيفة

- ١٩٣ القسم الأول ما يتكرر بتكرر الأيام والليالي وهي ثمانية
- ١٩٧ القسم الثاني ما يتكرر بتكرر الأسابيع
- ٢٠٠ القسم الثالث ما يتكرر بتكرر السنين
- ٢٠٣ القسم الرابع من التوافل ما يتعلق بأسباب عارضة ولا يتعلق بالمواقف وهي تسعة
- ٢٠٨ كتاب أسرار الزكاة وفيه أربعة فصول
- ٢٠٩ الفصل الأول في أنواع الزكاة وأسباب وجوبها النوع الأول زكاة النعم
- ٢١٠ النوع الثاني زكاة المعشرات النوع الثالث زكاة التقدين
- ٢١١ النوع الرابع زكاة التجارة النوع الخامس الركا واللعن
- النوع السادس في صدقة الفطر
- ٢١٢ الفصل الثاني في الأداء وشروطه الباطنة والظاهرة
- ٢١٣ بيان دقائق الآداب الباطنة في الزكاة الوظيفة الأولى أي من الوظائف التي على مر يد طريق الآخرة فهم وجوب الزكاة الخ
- ٢١٥ الوظيفة الثانية في وقت الأداء الوظيفة الثالثة الأسرار
- ٢١٦ الوظيفة الرابعة أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس الخ
- الوظيفة الخامسة أن لا يفسد صدقته بالبن والاذى
- ٢١٨ الوظيفة السادسة أن يستصغر العلية الوظيفة السابعة أن يتقى من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه
- ٢١٩ الوظيفة الثامنة أن يطلب لصدقته من تزكرو به الصدقة الخ
- ٢٢١ الفصل الثالث في القابض وأسباب استحقاقه ووظائف قبضه
- بيان أسباب الاستحقاق

صحيفة

- ٢٢٢ بيان وظائف القابض
- ٢٢٥ الفصل الرابع في صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها
- بيان فضيلة الصدقة
- ٢٢٧ بيان إخفاء الصدقة وإظهارها
- ٢٣٠ بيان الأفضل من أخذ الصدقة أو الزكاة
- ٢٣٠ كتاب أسرار الصوم وفيه ثلاثة فصول
- ٢٣٢ الفصل الأول في الواجبات والسنن الظاهرة واللوامز بإفساده
- أما الواجبات الظاهرة فسته
- ٢٣٣ لوازم الإفطار أربعة
- ٢٣٤ الفصل الثاني في أسرار الصوم وشروطه الباطنة
- ٢٣٧ الفصل الثالث في التطوع بالصيام وترتيب الأوراد فيه
- ٢٣٩ كتاب أسرار الحج وفيه ثلاثة أبواب
- الباب الأول وفيه فصلان
- الفصل الأول في فضائل الحج وفضيلة البيت ومكة والمدينة حرسهما الله تعالى وشدة الرحال إلى المساجد
- فضيلة الحج
- ٢٤١ فضيلة البيت ومكة المشرفة
- فضيلة المقام بمكة حرسها الله تعالى وكرامته
- ٢٤٣ فضيلة المدينة الشريفة على سائر البلاد
- ٢٤٥ الفصل الثاني في شروط وجوب الحج وحجته أركانه وأوجابه ومحظوراته
- ٢٤٦ الباب الثاني في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع وهي عشرة جمل
- الجملة الأولى في السير من أول الخروج إلى الإحرام وهي ثمانية
- ٢٤٨ لجة الثانية في آداب الإحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة

## مصحف

٢٤٩ اجلّة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف

وهي ستة

٢٥٠ اجلّة الرابعة في الطواف الخ

٢٥٢ اجلّة الخامسة في السعي

٢٥٣ اجلّة السادسة في الوقوف وما قبله

٢٥٥ اجلّة السابعة في بقية أعمال الحج بعد الوقوف

من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف

٢٦٥ اجلّة الثامنة في صفه العمرة وما بعدها

إلى طواف الوداع

٢٦٦ اجلّة التاسعة في طواف الوداع

اجلّة العاشرة في زيارة المدينة وآدابها

٢٦٩ فصل في سنن الرجوع من السفر

الباب الثالث في الآداب الدقيقة والأعمال

الباطنية

بيان دقائق الآداب وهي عشرة

٢٧٣ بيان الأعمال الباطنة ووجه الإخلاص في الثنية

وطريق الاعتبار بالمشاهد الشريفة وكيفية

الافتكار فيها والتذكر لأسرارها ومعانيها

من أول الحج إلى آخره

٢٨٠ كتاب آداب تلاوة القرآن

وفيه أربعة أبواب

الباب الأول في فضل القرآن وأهله وذم

المفسرين في تلاوته

فضيلة القرآن

٢٨٢ في ذم تلاوة الغافلين

٢٨٣ الباب الثاني في ظاهر آداب التلاوة وهي

عشرة

٢٨٨ الباب الثالث في أعمال الباطن في التلاوة

وهي عشرة

٢٩٦ الباب الرابع في فهم القرآن وتفسيره بالرأى

من غير نقل

٣٠١ كتاب الأذكار والدعوات

وفيه خمسة أبواب

## مصحف

٣٠٢ الباب الأول في فضيلة الذكر وفائدته على الاجلّة

والتفصيل من الآيات والأخبار والآثار

٣٠٤ فضيلة مجالس الذكر

٣٠٥ فضيلة التلبيل

٣٠٦ فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

٣١١ الباب الثاني في آداب الدعاء وفضله وفضل

بعض الأدعية المأثورة وفضيلة الاستغفار

والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

فضيلة الدعاء

٣١٢ آداب الدعاء وهي عشرة

٣١٧ فضيلة الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسلم وفضله

٣١٧ فضيلة الاستغفار

٣٢١ الباب الثالث في أدعية مأثورة ومعربة إلى

أسبابها وأربابها ما يستحب أن يدعو بها المزمع

صباحا ومساء وبمقب كل صلاة

٣٢٢ دعاء طائفة رضى الله عنها

دعاء فاطمة رضى الله عنها

دعاء أبي بكر الصديق رضى الله عنه

٣٢٣ دعاء بريدة الأسلمي رضى الله عنه

دعاء قبيصة بن الحارث

دعاء أبي الدرداء رضى الله عنه

دعاء الجليل إبراهيم عليه الصلاة والسلام

دعاء عيسى صلى الله عليه وسلم

دعاء الحضر عليه السلام

دعاء معروف الكرخي رضى الله عنه

دعاء عتية الغلام

دعاء آدم عليه الصلاة والسلام

٣٢٥ دعاء علي بن أبي طالب رضى الله عنه

دعاء ابن المعتز وهو سليمان التيمي وتسميها به

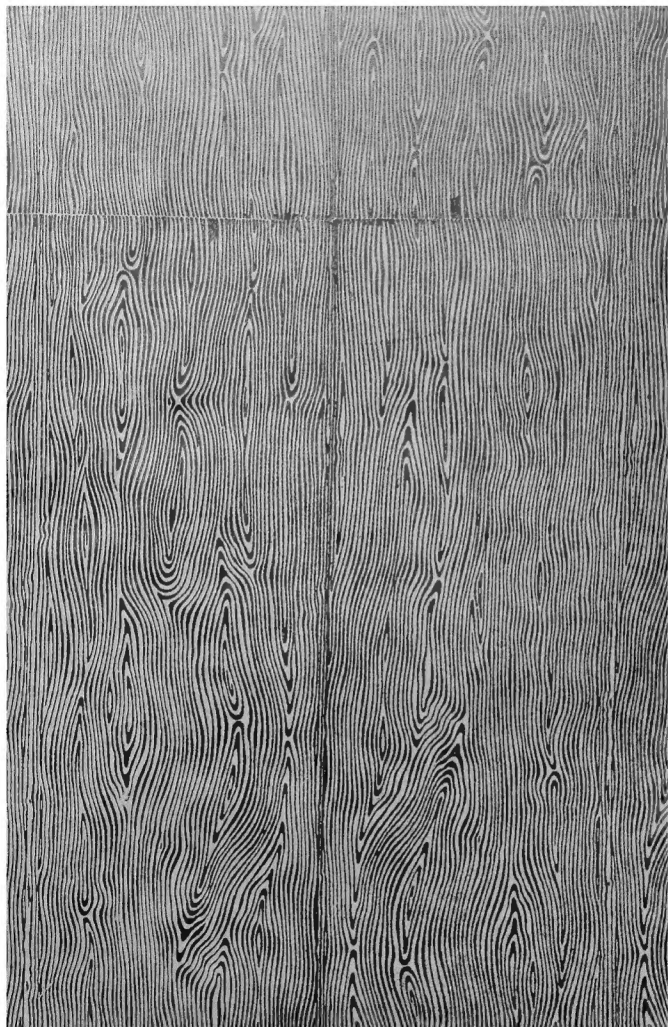
رضى الله عنه

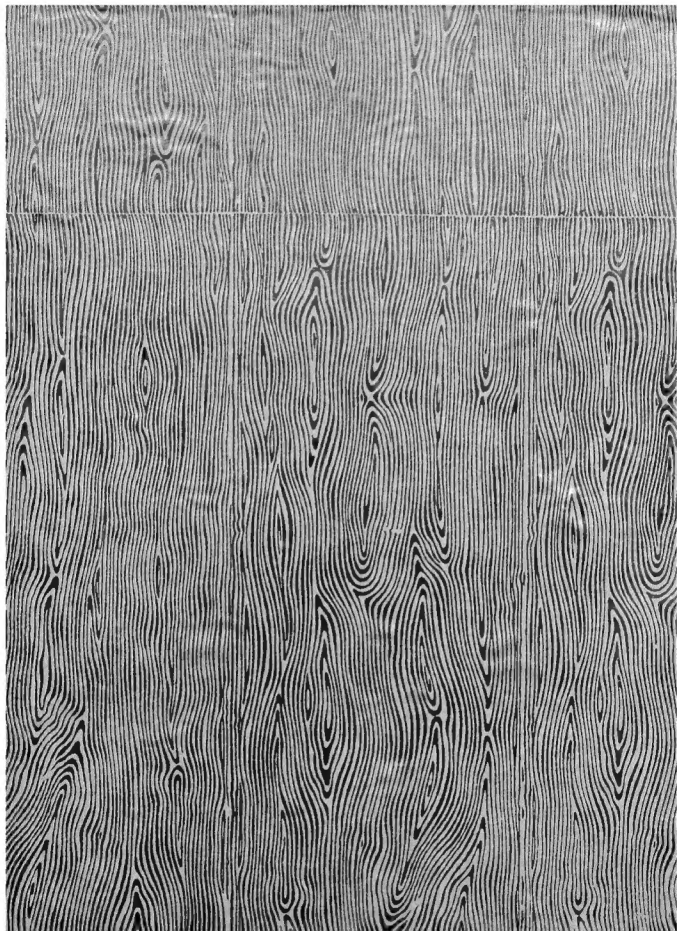
دعاء إبراهيم بن آدم رضى الله عنه

صفحة	صفحة
٣٣٨ فضيلة الأوراد وبيان أن المراقبة عليها هي الطريق إلى الله تعالى	٣٢٦ الباب الرابع في أدعية مأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه رضي الله عنهم
٣٣٩ بيان أعداد الأوراد وترتيبها	محدودة الأسانيد منتخبة من جملة ما جمعه أبو طالب الملكي وابن خزيمة وابن منذر رحمهم الله
٣٤٠ بيان أوراد الليل والنهار	٣٢٩ أنواع الاستعاذة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم
٣٥٦ بيان اختلاف الأوراد باختلاف الأحوال	٣٣١ الباب الخامس في الأدعية المأثورة عند حدوث كل حادث من الموائد
٣٥٩ الباب الثاني في الأسباب الميسرة لقيام الليل وفي الليالي التي يستحب إحيائها وفي فضيلة إحياء الليل وما بين العشاءين وكيفية قسمة الليل	٣٣٧ كتاب ترتيب الأوراد وتفصيل إحياء الليل وهو الكتاب العاشر من إحياء علوم الدين
٣٦١ فضيلة قيام الليل	وبه اختتام ريع العبادات . وفيه بابان
٣٦٤ بيان الأسباب التي بها يقيس قيام الليل	٣٣٨ الباب الأول في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها
٣٦٨ بيان طرق القسمة لأجزاء الليل	
٣٦٩ بيان الليالي والأيام الفاضلة	









Biblioteca Alexandrina



0382741